

الميزان

في تفسير القرآن

٢/ج



الجزء الثاني

مكتاب

الميزان

في تفسير القرآن

لمؤلفه

الأستاذ العلامة

السيد محمد حسين الطباطبائي

مترجم الطبع ونشر

الشيخ محمد الخوئي

مؤيد

دار الكتب الإسلامية

طهران - سوق السلطاني

مطبعة الحيدري بطهران

shiabooks.net

رابط بديل < mktba.net

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَإِنْ تَصَوْمُوا خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُدَالِلُ بِكُمْ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمْ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٨٥)

### ﴿بيان﴾

سياق الآيات الثلاث تدلُّ أولاً على أنها جميعاً نازلة معاً فإنَّ قوله تعالى :  
أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ اه في أوَّل الآية الثانية ظرف متعلِّق بقوله : الصيام في الآية الأولى ،  
وقوله تعالى : شهر رمضان اه في الآية الثالثة إمَّا خبر لمبتدأ محذوف وهو الضمير الرَّاجِع  
إلى قوله : أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ اه ، والتقدير هي شهر رمضان أو مبتدأ لخبر محذوف ، والتقدير  
شهر رمضان هو الَّذي كُتِبَ عليكم صيامه أو هو بدل عن الصَّيَام في قوله : كُتِبَ  
عليكم الصيام اه في الآية الأولى وعلى أىَّ تقدير هو بيان وإيضاح للآيات المَعْدُودَاتِ  
الَّتِي كُتِبَ فيها الصَّيَامُ فالآيات الثلاث جميعاً كلام واحد مسوق لغرض واحد وهو بيان  
فرض صوم شهر رمضان .

وسياق الآيات تدلُّ ثانياً على أنَّ شطرَ أمْنِ الكلام الموضوع في هذه الآيات الثلاث  
بمنزلة التَّوَسُّطَةِ والتَّهْمِيدِ بالنسبة إلى شطر آخر ، أعني : أنَّ الْآيَتَيْنِ الْأُولَيَيْنِ سرِّدَا الكلام  
فيهما ليكون كالمقدِّمة الَّتِي تساق لتسكين طيش النفوس والحصول على اطمینانها و  
استقرارها عن القلق والاضطراب ، إذ كان غرض المتكلِّم بيان ما لا يؤمن فيه عن التخلف  
والتأبِّي عن القبول ، لكون ما يأتي من الحكم أو الخبر ثقیلاً شاقاً بطبعه على المخاطب

، ولذلك ترى الآيتين الأولىين تألف فيهما الكلام عن جمل لا يخلو واحدة منها عن هداية ذهن المخاطب إلى تشريع صوم رمضان بإرفاق وملائمة ، بذكر ما يرتفع معه الاستيحاش والاضطراب ، ويحصل به تطيب النفس ، وتنكسر به سورة الجماسح والاستكبار ، بالإشارة إلى أنواع من التخفيف والتسهيل ، روعيت في تشريع هذا الحكم مع ما فيه من الخير العاجل والآجل .

ولذلك لم يذكر كتابة الصيام عليهم بقوله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ أَرَدَفَهُ بقوله : كما كتب على الذين من قبلكم أى لا ينبغي لكم أن تستثقلوه وتستوحشوا من تشريعه في حقكم وكتابته عليكم فليس هذا الحكم بمقصود عليكم بل هو حكم مجعول في حق الأمم السابقة عليكم ولستم أنتم متفردين فيه . على أن في العمل بهذا الحكم رجاء ما يتبعون وتطلبونه بإيمانكم وهو التقوى التي هي خير زاد لمن آمن بالله واليوم الآخر - وأنتم المؤمنون - وهو قوله تعالى : لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ اه . على أن هذا العمل الذي فيه رجاء التقوى لكم ولأن كان قبلكم لا يستوعب جميع أوقانكم ولا أكثرها بل إنما هو في أيام قلائل معينة معدودة ، وهو قوله تعالى : أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ اه فإن في تنكيره أياماً ؛ دلالة على التحقير ، وفي التوصيف بالعدد إشعار بهوان الأمر كما في قوله تعالى : « وشروه بثمان بنخس دراهم معدودة » يوسف - ٣٠ . على أننا راعينا جانب من يشق عليه أصل الصيام كمن يطيق الصيام ، فعليه أن يبدله بفدية لا يشقها ولا يستثقلها ، وهو طعام مسكين وهو قوله تعالى : فمن كان منكم مريضاً أو على سفرٍ إلى قوله : فدية طعام مسكين اه . وإذا كان هذا العمل مشتملاً على خيركم ومراعى فيه ما أمكن من التخفيف والتسهيل عليكم كان خيركم أن تأتوا به بالطوع والرغبة من غير كره و تثاقل وتثبیط ، فإن من تطوع خيراً فهو خير له من أن يأتي به عن كره وهو قوله تعالى : فمن تطوع خيراً فهو خير له إلخ فالكلام الموضوع في الآيتين كما ترى توطئة وتمهيد لقوله تعالى في الآية الثالثة : فمن شهد منكم الشهر فليصمه إلخ ، وعلينا فقله تعالى في الآية الأولى : كتب عليكم الصيام اه إخبار عن تحقق الكتابة وليس بإنشاء للحكم كما في قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الآية » البقرة - ١٧٨ وقوله تعالى : « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين و

الأقربين ، البقرة - ١٨٥ فإن بين القصاص في القتل والوصية للموالدين والأقربين وبين الصيام فرقاً ، وهوان التصاص في القتل أمر يوافق حس الانتقام النائر في نفوس أولياء المقتولين ويلائم الشح الغريزي الذي في الطباع أن ترى القاتل حياً سالماً يعيش ولا يعابه بما جنى من القتل ، وكذلك حس الشفقة والرافقة بالرحم يدعو النفوس إلى الترحم على الوالدين والأقربين وخاصة عند الموت والفراق الدائم ، فهذان أغني القصاص ، والوصية حكمان مقبولان بالطبع عند الطباع ، موافقان لما تقتضيهما فلا يحتاج الإبقاء عنها بانشارها إلى تمهيد مقدمة وتوطئة بيان بخلاف حكم الصيام ، فإنه يلازم حرمان النفوس عن أعظم مشتبهاتها ومعظم ماتميل إليها وهو الأكل والشرب والجماع ، ولذلك فهو ثقل على الطبع ، كربه عند النفس ، يحتاج في توجيه حكمه إلى المخاطبين - وهم عامة الناس من المكلفين إلى تمهيد وتوطئة تطيب بهانفوسهم وتحن بسبها إلى قبوله وأخذ طبايعهم ، ولهذا السبب كان قوله : كتب عليكم القصاص اه ، وقوله : كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت اه إنشاء للحكم من غير حاجة إلى تمهيد مقدمة بخلاف قوله : كتب عليكم الصيام فإنه إخبار عن الحكم وتمهيد لا نشأه بقوله : فمن شهد منكم اه بمجموع ما في الآيتين من الفقرات السبع .

**قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا اه ، الا تيان بهذا الخطاب لتذكيرهم بوصف فيهم وهو الإيمان ، يجب عليهم إذا التفتوا إليه أن يقبلوا ما يواجبههم ربهم به من الحكم وإن كان على خلاف مشتبهاتهم وعاداتهم ، وقد صدرت آية القصاص بذلك أيضاً لما سمعت أن النصارى كانوا يرون العفو دون القصاص وإن كان سائر الطوائف من الملثمين وغيرهم يرون القصاص .**

**قوله تعالى : كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم اه ، الكتابة معروفة المعنى ويكتفى به عن الفرض والعزيمة والقضاء الحتم كقوله : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي » المجادلة - ٢١ وقوله تعالى : « ونكتب ما قدرتموا وآنأرهم » يس - ١٢ وقوله تعالى : « وكتبنا عليهم أن النفس بالنفس » المائدة - ٤٨ . والصيام والصوم في اللغة مصدران بمعنى الكف عن الفعل : كالصيام عن الأكل والشرب والمباشرة والكلام والامشي وغير ذلك ، وربما يقال : إنه الكف عما تشتهيه النفس وتتوق إليه خاصة ثم غلب**

استعمالها في الشرع في الكفّ عن أمور مخصوصة : من طلوع الفجر إلى المغرب بالنية . والمراد بالذين من قبلكم الأمم الماضية ممن سبق ظهور الإسلام من أمم الأنبياء كأمة موسى وعيسى وغيرهم ، فإن هذا المعنى هو المعهود من إطلاق هذه الكلمة في القرآن وإنما أطلقت وليس قوله : كما كتب على الذين من قبلكم اه في مقام الإطلاق من حيث الأشخاص ولا من حيث التنظير فلا يدل على أن جميع أمم الأنبياء كان مكتوباً عليهم الصوم من غير استثناء ولا على أن الصوم المكتوب عليهم هو الصوم الذي كتب علينا من حيث الوقت والخصوصيات والأوصاف ، فالتنظير في الآية إنما هو من حيث أصل الصوم والكفّ لا من حيث خصوصياته .

والمراد بالذين من قبلكم اه الأمم السابقة من الملّيين في الجملة ، ولم يعمّن القرآن من هم ، غير أن ظاهر قوله : كما كتب اه أن هؤلاء من أهل الملّة وقد فرض عليهم ذلك ، ولا يوجد في التوراة والإنجيل الموجودين عند اليهود والنصارى ما يدل على وجوب الصوم وفرضه ، بل الكتابان إنما يمدحانه ويعظمان أمره ، لكنهم يصومون أيتاماً معدودة في السنة إلى اليوم بأشكال مختلفة : كالصوم عن اللحم والصوم عن اللبن والصوم عن الأكل والشرب ، وفي القرآن قصة صوم زكريّا عن الكلام وكذا صوم مريم عن الكلام .

بل الصوم عبادة مأثورة عن غير الملّيين كما ينقل عن مصر القديم و يونان القديم والرومانيين ، والوثنيون من الهندي يصومون حتّى اليوم ، بل كونه عبادة قريبة ممّا يهتدي إليه الإنسان بفطرته كما سيجيء .

وربّما يقال : إن المراد بالذين من قبلكم اليهود والنصارى أو السابقين من الأنبياء استناداً إلى روايات لا تخلو عن ضعف .

**قوله تعالى :** لعلمكم تتقون اه ، كان أهل الأوثان يصومون لإرضاء آلهتهم أو لإطفاء نائرة غضبها إذا أجرموا جرماً أو عصوا معصية ، وإذا أرادوا إنجاح حاجة . وهذا يجعل الصيام معاملة ومبادلة يعطي بها حاجة الربّ ليقضي حاجة العبد أو يستحصل رضاه ليستحصل رضا العبد ، وإنّ الله سبحانه أمتع جانباً من أن يتصور في حقّه فقر أو حاجة أو

تأثر أواذى، وبالجمله هو سبحانه بريء من كل نقص، فما تعطيه العبادات من الأثر الجميل - أى عبادة كانت و أى أثر كان - إنما يرجع إلى العبد دون الرب تعالى و تقدس، كما أن المعاصي أيضاً كذلك. قال تعالى: «إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها» الإسراء-٧. هذا هو الذي يشير إليه القرآن الكريم في تعليمه بإرجاع آثار الطاعات والمعاصي إلى الإنسان الذي لاشأن له إلا الفقر والحاجة. قال تعالى: «يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني» الفاطر - ١٥ ويشير إليه في خصوص الصيام بقوله: لعلمكم تتقون اه. وكون التقوى مرجو الحصول بالصيام مما لا ريب فيه فإن كل إنسان يشعر بفطرته أن من أراد الاتصال بعالم الطهارة والرفعة، والارتقاء إلى مدرجة الكمال والروحانية فأول ما يلزمه أن ينزّه عن الاسترسال في استيفاء لذائذ الجسم وينقبض عن الجماع في شهوات البدن ويتقدس عن الإخلاق إلى الأرض، وبالجمله أن يتقي ما يبغده الاشتغال به عن الرب تبارك وتعالى، فهذه تقوى إنما تحصل بالصوم والكف عن الشهوات، وأقرب من ذلك وأمسّ لحال عموم الناس من أهل الدنيا وأهل الآخرة أن يتقي ما يعم به البلوى من المشتبهات المباحة كالأكل والشرب والمباشرة حتى يحصل له التدرّب على اتقاء المحرمات واجتنابها، وتربّي على ذلك إرادته في الكف عن المعاصي والتقرّب إلى الله سبحانه، فإن من أجاب داعي الله في المشتبهات المباحة وسمع وأطاع فهو في محارم الله ومعاصيه أسمع وأطوع.

قوله تعالى: أيّاماً معدودات اه منصوب على الظرفيّة بتقدير؛ في؛ ومتعلّق بقوله: الصيام، وقد مرّ أن تنكير أيّام واتصافه بالعدد للدلالة على تحقير التكليف من حيث الكلفة والمشقة تشجيعاً للمكلف، وقد مرّ أن قوله: شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن إلخ بيان للأيّام فالمراد بالأيّام المعدودات شهر رمضان.

وقد ذكر بعض المفسرين: أن المراد بالأيّام المعدودات ثلاثة أيّام من كل شهر وصوم يوم عاشوراء: وقال بعضهم: والثلاثة أيّام هي الأيّام البيض من كل شهر وصوم يوم عاشوراء فقد كان رسول الله والمسلمون يصومونها ثم نزل قوله تعالى: شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن إلخ فنسخ ذلك واستقرّ الفرض على صوم شهر رمضان، واستندوا

في ذلك إلى روايات كثيرة من طرق أهل السنة والجماعة لا تخلو في نفسها عن اختلاف وتعارض .

والذي يظهره بطلان هذا القول **اولا** : أن الصيام كما قيل : عبادة عامة شاملة ، ولو كان الأمر كما يقولون لضبطه التاريخ ولم يختلف في ثبوته ثم في نسخه أحد وليس كذلك ، على أن الحق يوم عاشوراء بالأيام الثلاثة من كل شهر في وجوب الصوم أو استحبابه ككونه عيداً من الأعياد الإسلامية مما ابتدعه بنو أمية لعنهم الله حيث أبادوا فيه ذرية رسول الله وأهل بيته بقتل رجالهم وسبي نساءهم وذرائعهم ونهب أموالهم في رقعة الطف ثم تبركوا باليوم فاتخذوه عيداً وشرعوا صومه تبركاً به ووضعوا له فضائل وبركات ، ودسّوا أحاديث تدل على أنه كان عيداً إسلامياً بل من الأعياد العامة التي كانت تعرفه عرب الجاهلية واليهود والنصارى منذ بعث موسى وعيسى ، وكل ذلك لم يكن . وليس اليوم ذاشان ملّي حتى يصير عيداً مليئاً قومياً مثل نيروز والمهرجان عند الفرس ، ولا وقعت فيه واقعة فتح أو ظفر حتى يصير يوماً إسلامياً كيوم المبعث ويوم مولد النبي ، ولا هودوجة دينية حتى يصير عيداً دينياً كمثل عيد الفطر وعيد الأضحى فما باله عزيزاً بلا سبب ؟

**وثانياً** : أن الآية الثالثة من الآيات أعني قوله : شهر رمضان إلخ تأتي بسياقها عن أن تكون نازلة وحدها وناسخاً لما قبلها فإن ظاهر السياق أن قوله شهر رمضان خبر لمبتدئ محذوف أو مبتدئ لخبر محذوف كما مر ذكره فيكون بياناً للأيام المعدودات ويكون جميع الآيات الثلاث كلاماً واحداً مسوقاً لغرض واحد وهو فرض صيام شهر رمضان ، وأما جعل قوله : شهر رمضان مبتدئاً خبره قوله : الذي أنزل فيه القرآن اه فإنه وإن أوجب استقلال الآية وصلاحيته لأن تنزل وحدها غير أنها لا تصلح حينئذ لأن تكون ناسخة لما قبلها لعدم المنافات بينها وبين سابقتها ، مع أن النسخ مشروط بالتنافي والتباين .

وأضعف من هذا القول قول آخرين - على ما يظهر منهم - : إن الآية الثانية أعني قوله تعالى : أياماً معدودات إلخ ناسخة للآية الأولى أعني قوله تعالى : كتب عليكم الصيام

كما كتب على الذين من قبلكم إلخ ، وذلك أن الصوم كان مكتوباً على النصارى ثم زادوا فيه ونقصوا بعد عيسى عليه السلام حتى استقر على خمسين يوماً ، ثم شرعه الله في حق المسلمين بالآية الأولى فكان رسول الله ﷺ والناس يصومونها في صدر الإسلام حتى نزل قوله تعالى : أياماً معدودات إلخ فنسخ الحكم واستقر الحكم على غيره .

وهذا القول أوهن من سابقه وأظهر بطلاناً ، ويرد عليه جميع ما يرد على سابقه من الإشكال ، وكون الآية الثانية من متممات الآية الأولى أظهر وأجلى ، وما استند إليه القائل من الروايات أوضح مخالفة لظاهر القرآن وسباق الآية .

**قوله تعالى :** فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، اه الفاء للتفريع والجملة متفرعة على قوله : كتب عليكم ادوقوله : معدودات اه ، أى إن الصيام مكتوب مفروض ، والعدد مأخوذ في الفرض ، وكما لا يرفع اليد عن أصل الفرض كذلك لا يرفع اليد عن العدد ، فلو عرض عارض يوجب ارتفاع الحكم الفرض عن الأيام المعدودات التي هي أيام شهر رمضان كعارض المرض والسفر ، فإنه لا يرفع اليد عن صيام عدة من أيام أخر خارج شهر رمضان تساوي مافات المكلف من الصيام عدداً ، وهذا هو الذي أشار تعالى إليه في الآية الثالثة بقوله : ولتكمّلوا العدد اه فقوله تعالى : أياماً معدودات اه كما يفيد معنى التحقير كما مرّ يفيد كون العدد ركناً مأخوذاً في الفرض والحكم .

ثم إن المرض خلاف الصحة والسفر مأخوذ من السفر بمعنى الكشف كأن المسافر ينكشف لسفره عن داره التي يأوي إليها ويكن فيها ، وكأن قوله تعالى : أو على سفر اه ولم يقل : مسافراً للإشارة إلى اعتبار فعلية التلبس حالاً دون الماضي والمستقبل .

وقد قال قوم - وهم المعظم من علماء أهل السنة والجماعة - : إن المدلول عليه بقوله تعالى : فمن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر اه هو الرخصة دون العزيمة فالمرضى والمسافر مخيران بين الصيام والإفطار ، وقد عرفت أن ظاهر قوله تعالى : فعدة من أيام أخر هو عزيمة الإفطار دون الرخصة ، وهو المروي عن أئمة

أهل البيت ، وهو مذهب جمع من الصحابة كعبد الرحمن بن عوف وعمر بن الخطاب وعبد الله بن عمر وأبي هريرة وعروة بن الزبير ، فهم محجوجون بقوله تعالى : فعدة من أيام أخر .

وقد قدرُوا لذلك في الآية تقديرًا فقالوا : إنَّ التقدير فمن كان مريضاً أو على سفر فأفطر فعدة من أيام أخر .

ويرد عليه أولاً : أنَّ التقدير كما صرَّحوا به خلاف الظاهر لا يصادر إليه إلا بقرينة ولا قرينة من نفس الكلام عليه .

وثانياً : أنَّ الكلام على تقدير تسليم التقدير لا يدلُّ على الرخصة فإنَّ المقام كما ذكره مقام التشريع وقولنا : فمن كان مريضاً أو على سفر فأفطر غاية ما يدلُّ عليه أنَّ الإفطار لا يقع معصية بل جائز أبالجمواز بالمعنى الأعم من الوجوب والاستحباب والإباحة ، وأمَّا كونه جائزاً بمعنى عدم كونه إلزامياً فلا دليل عليه من الكلام البتَّة ، بل الدليل على خلافه فإنَّ بناء الكلام في مقام التشريع على عدم بيان ما يجب بيانه لا يليق بالمشرع الحكيم وهو ظاهر .

قوله تعالى : وعلى الَّذِينَ يطيقونه فدية طعام مسكين اه الإِطاقة كما ذكره بعضهم صرف تمام الطاقة في الفعل ، ولازمه وقوع الفعل بجهد ومشقة ، والفدية هي البذل وهي هنا بدل مالي وهو طعام مسكين أى طعام يشبع مسكيناً جامعاً من أوسط ما يطعم الإنسان ، وحكم الفدية أيضاً فرض كحكم القضاء في المريض والمسافر لمكان قوله : وعلى الَّذِينَ اه الظاهر في الوجوب التعينيّ دون الرخصة والتخير .

وقد ذكر بعضهم : أنَّ الجملة تفيد الرخصة ثمَّ نسخت فهو سبحانه خير المطيقين للصَّوم من النَّاس كلِّهم يعني القادرين على الصَّوم من النَّاس بين أن يصوموا وبين أن يفطروا ويكفروا عن كلِّ يوم بطعام مسكين ، لأنَّ النَّاس كانوا يومئذ غير متعوِّدين بالصَّوم ، ثمَّ نسخ ذلك بقوله : فمن شهد منكم الشهر فليصمه اه وقد ذكر بعض هؤلاء : أنَّه نسخ حكم غير العاجزين ، وأمَّا مثل الشيخ الهرم والحامل والمرضع فبقي على حاله : من جواز الفدية .

ولعمري إنه ليس إلا لعباً بالقرآن وجعلاً لآياته عظيم . وأنت إذا تأملت الآيات  
الثلث وجدت بها كلاماً موضوعاً على غرض واحد ذاسياق واحد متنسق الجميل رائع البيان ،  
ثم إذا نزلت هذا الكلام على وحدته واتساقه على ما يراه هذا القائل وجدته مختل  
السياق ، متطارد الجميل يدفع بعضها بعضاً ، وينقض آخره أوله ، فتارة يقول : كتب  
عليكم الصيام ، وأخرى يقول : يجوز على القادرين منكم الإفطار والفدية ، وأخرى  
يقول : يجب عليكم جميعاً الصيام إذا شهدتم الشهر فينسخ حكم الفدية عن القادرين  
ويبقى حكم غير القادرين على حاله ، ولم يكن في الآية حكم غير القادرين ، اللهم إلا  
أن يقال : إن قوله : يطيقون اه كان دالاً على القدرة قبل النسخ فصار يدل بعد النسخ  
على عدم القدرة ، وبالجمله يجب عليها أن يكون قوله : وعلى الذين يطيقونه اه في  
وسط الآيات ناسخاً لقوله : كتب عليكم الصيام في أولها لمكان التنافي ، ويبقى الكلام  
في وجه تقييده بالإطاعة من غير سبب ظاهر ، ثم قوله : فمن شهد منكم الشهر فليصمه  
في آخر الآيات ناسخاً لقوله : وعلى الذين يطيقونه في وسطها ، ويبقى الكلام في وجه  
نسخه لحكم القادرين على الصيام فقط دون العاجزين ، مع كون الناسخ مطلقاً شاملاً  
للقادر والعاجز جميعاً ، وكون المنسوخ غير شامل لحكم العاجز الذي يراد بقاءه . وهذا  
من أفحش الفساد .

وإذا أضفت إلى هذا النسخ بعد النسخ ما ذكره من نسخ قوله : شهر رمضان  
إلخ لقوله : أياماً معدودات إلخ ونسخ قوله : أياماً معدودات إلخ لقوله : كتب عليكم  
الصيام ، وتأملت معنى الآيات شاهدت عجباً .

**قوله تعالى :** فمن تطوع خيراً فهو خير له اه التطوع تفعل من الطوع مقابل  
الكره وهو إتيان الفعل بالرضا والرغبة ، ومعنى باب التفعّل الأخذ والقبول فمعنى  
التطوع التلبس في إتيان الفعل بالرضا والرغبة من غير كره واستتقال سواء كان فعلاً  
إلزامياً أو غير إلزامي ، وأما اختصاص التطوع استعمالاً بالمستحبات والمندوبات  
فمما حدث بعد نزول القرآن بين المسلمين بعناية أن الفعل الذي يؤتى به بالطوع هو  
الندب ، وأما الواجب ففيه شوب كره لمكان الإلزام الذي فيه .

وبالجملة التطوُّع كما قيل : لا دلالة فيه مادّة وهيئة على الندب وعليهذه الفاء للتفريع والجملة متفرّعة على المحصل من معنى الكلام السابق . والمعنى والله أعلم الصوم مكتوب عليكم مرعياً فيه خيركم وصلاحكم مع ما فيه من استقراركم في صفّ الامم التي قبلكم ، والتخفيف والتسهيل لكم فأتوا به طوعاً لا كرهاً ، فإن من أتى بالخير طوعاً كان خيراً له من أن يأتي به كرهاً .

ومن هنا يظهر : أن قوله : فمن تطوَّع خيراً من قبيل وضع السبب موضع المسبب أعني وضع كون التطوُّع بمطلق الخير خيراً مكان كون التطوُّع بالصوم خيراً نظير قوله تعالى : « قد نعلم أنك ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » أى فاصبر ولا تحزن فإنهم لا يكذبونك .

وربما يقال : إن الجملة أعني قوله تعالى : فمن تطوَّع خيراً فهو خير له أو سر تبطة بالجملة التي تتلوها أعني قوله : وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين اه ، والمعنى أن من تطوَّع خيراً من فدية طعام مسكين بأن يؤدّي ما يزيد على طعام مسكين واحد بما يعادل فديتين لمسكينين أو لمسكين واحد كان خيراً له .

ويرد عليه : عدم الدليل على اختصاص التطوُّع بالمستحبات كما عرفت مع خفاء النكتة في التفريع ، فإنّه لا يظهر لتفرّع التطوُّع بالزيادة على حكم الفدية وجه معقول ، مع أن قوله : فمن تطوَّع خيراً اه لا دلالة له على التطوُّع بالزيادة فإنّ التطوُّع بالخير غير التطوُّع بالزيادة .

قوله تعالى : وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون اه جملة متممة لسابقتها ، والمعنى بحسب التقدير - كما مر - : تطوَّعوا بالصوم المكتوب عليكم فإنّ التطوُّع بالخير خير والصوم خير لكم . فالتطوُّع به خير على خير .

وربما يقال : إن الجملة أعني قوله : وأن تصوموا خير لكم اه خطاب للمعذورين دون عموم المؤمنين المخاطبين بالفرض والكتابة فإنّ ظاهرها رجحان فعل الصوم الغير المانع من الترك فيناسب الاستحباب دون الوجوب ، ويحمل على رجحان الصوم واستحبابه على أصحاب الرخصة : من المريض والمسافر فيستحب عليهم اختيار الصوم على الإفطار والقضاء

ويرد عليه : عدم الدليل عليه أولاً ، واختلاف الجملتين أعني قوله : فمن كان منكم إلخ وقوله : وأن تصوموا خير لكم بالغيبة والخطاب ثانياً ، وأن الجملة الأولى مسوقة لبيان الترخيص والتخير ، بل ظاهر قوله : فعدة من أيام أخره تعين الصوم في أيام أخر كما مرّ ثالثاً ، وأن الجملة الأولى على تقدير ورودها لبيان الترخيص في حق المعذور لم يذكر الصوم والإفطار حتّى يكون قوله : وأن تصوموا خير لكم بياناً لأحد طرفي التخير بل إنّما ذكرت صوم شهر رمضان وصوم عدة من أيام أخر وحينئذ لا سبيل إلى استفادة ترجيح صوم شهر رمضان على صوم غيره من مجرّد قوله : وأن تصوموا خير لكم اه من غير قرينة ظاهرة **رابعا** ، وأن المقام ليس مقام بيان الحكم حتّى ينافي ظهور الرّجحان كون الحكم وجوبياً بل المقام - كما مرّ سابقاً - مقام ملاك التشريع وأنّ الحكم المشترع لا يخلو عن المصلحة والخير والحسن كما في قوله : «فتوبوا إلى بارئكم واقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم» البقرة - ٥٤ . وقوله تعالى : «فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون» الجمعة - ٦٩ وقوله تعالى : «تؤمنون بالله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون» الصف - ١١ ، والآيات في ذلك كثيرة **خامسا** :

**قوله تعالى** : شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدىءه ، شهر رمضان هو الشهر التاسع من الشهور القمرية العربية بين شعبان وشوّال ولم يذكر اسم شيء من الشهور في القرآن إلا شهر رمضان .

والنّزول هو الورد على المحلّ من العلوّ ، والفرق بين الإّنزال والنّزول أن الإّنزال دفعي والنّزول تدريجي . والقرآن اسم للكتاب المنزل على نبيّه محمد ﷺ باعتبار كونه مقرواً كما قال تعالى : «إنّا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون» الزخرف - ٣ ، ويطلق على مجموع الكتاب وعلى أبعاضه .

والآية تدلّ على نزول القرآن في شهر رمضان ، وقد قال تعالى : «وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلاً» الإسراء - ١٠٦ ، وهو ظاهر في نزوله تدريجاً في مجموع مدّة الدعوة وهي ثلث وعشرون سنة تقريباً ، والمتواتر من التاريخ يدلّ على

ذلك . ولذلك ربّما استشكل عليه بالتّسافي بين الآيتين .

وربّما أُجيب عنه : بأنّه نزل دفعة على سماء الدنيا في شهر رمضان ثمّ نزل على رسول الله ﷺ نجومًا وعلى مكث في مدّة ثلث وعشرين سنة - مجموع مدّة الدعوة - و هذا جواب مأخوذ من الروايات التي سننقل بعضها في البحث عن الروايات . وقد أورد عليه : بأنّ تعقيب قوله تعالى : أنزل فيه القرآن بقوله : هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان لا يساعد على ذلك إذ لا معنى لبقائه على وصف الهداية والفرقان في السماء مدّة سنين .

وأُجيب : بأنّ كونه هاديًا وفارقًا من شأنه أن يهدي من يحتاج إلى هدايته من الضلال . وفارقًا إذ التبس حقّ بباطل لاينا في بقاءه مدّة على حال الشّأنية من غير فعلية التأثير حتّى يحلّ أجله ويعين حينه ، ولهذا نظائر وأمثال في القوانين المدنية المنتظمة التي كلّما حان حين مادة من موادّها أُجريت وخرجت من القوّة إلى الفعل .

و الحقّ أنّ حكم القوانين والدساتير غير حكم الخطابات التي لا يستقيم أن تتقدّم على مقام التخاطب ولوزماناً سيراً . وفي القرآن آيات كثيرة من هذا القبيل كتّوله تعالى : « قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما المجادلة - ١ وقوله تعالى : « وإذا رأت تجارة أولها أنفضوا إليها وتركوك قائماً - الجمعة - ١١ » وقوله تعالى : « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً » الأحزاب - ٢٣ . على أنّ في القرآن ناسخاً ومنسوخاً ، ولا معنى لاجتماعهما في زمان بحسب النزول .

وربّما أُجيب عن الإشكال : أنّ المراد من نزول القرآن في شهر رمضان أنّ أوّل ما نزل منه نزل فيه . ويرد عليه : أنّ المشهور عندهم أنّ النبي ﷺ إنّما بعث بالقرآن ، وقد بعث اليوم السابع والعشرين من شهر رجب وبينه وبين رمضان أكثر من ثلثين يوماً وكيف يخلو البعثة في هذه المدّة من نزول القرآن . على أنّ أوّل سورة أقره باسم ربّك يشهد على أنّها أوّل سورة نزلت وأنّها نزلت بمصاحبة البعثة ، وكذا سورة المدثر تشهد أنّها نزلت في أوّل الدعوة وكيف كان فمن المستبعد جداً أن تكون أوّل آية

نزلت نازلة في شهر رمضان . على أن قوله تعالى : « أنزل فيه القرآن » اه غير صريح الدلالة على أن المراد بالقرآن أول نازل منه ولا قرينة تدل عليه في الكلام فحمله عليه تفسير من غير دليل . ونظير هذه الآية قوله تعالى : « والكتاب المبين » إننا أنزلناه في ليلة مباركة « إننا أنزلناه في ليلة القدر » ١ - ٣ وقوله : « إننا أنزلناه في ليلة القدر » ١ - ٣ فإن ظاهر هذه الآيات لا يلائم كون المراد من إنزال القرآن أول إنزاله أو إنزال أول بعض من أبعاضه ولا قرينة في الكلام تدل على ذلك .

والذي يعطيه التدبر في آيات الكتاب أمر آخر فإن الآيات الناطقة بنزول القرآن في شهر رمضان أو في ليلة منه إنما عبرت عن ذلك بلفظ الإنزال الدال على الدفعة دون التنزيل كقوله تعالى : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » البقرة - ١٨٥ وقوله تعالى : « حم . والكتاب المبين » إننا أنزلناه في ليلة مباركة « الدخان - ٣ وقوله تعالى : « إننا أنزلناه في ليلة القدر » القدر - ١ . واعتبار الدفعة إما بلحاظ اعتبار المجموع في الكائنات أو البعض النازل منه كقوله تعالى : « كماء أنزلناه من السماء » يونس - ٢٤ . فإن المطر إنما ينزل تدريجاً لكن النظر ههنا معطوف إلى أخذه مجموعاً واحداً ، ولذلك عبر عنه بالإنزال دون التنزيل وكقوله تعالى : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته » ص - ٢٩ ، وإما لكون الكتاب ذاق حقيقة أخرى وراء ما فهمه بالفهم العادي الذي يقضي فيه بالتفرق والتفصيل والانبساط والتدريج هو المصحح لكونه واحداً غير تدريجي ، ونازلاً بالإنزال دون التنزيل . وهذا الاحتمال الثاني هو اللامح من الآيات الكريمة كقوله تعالى : « كتاباً حكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » هود - ٢ فإن هذا الإحكام مقابل التفصيل ، والتفصيل هو جعله فصلاً فصلاً وقطعة وقطعة فالإحكام كونه بحيث لا يتفصل فيه جزء من جزء ولا يتميز بعض من بعض لرجوعه إلى معنى واحد لا أجزاء ولا فصول فيه ، والآية ناطقة بأن هذا التفصيل المشاهد في القرآن إنما طرأ عليه بعد كونه محكماً غير مفصل .

وأوضح منه قوله تعالى : « ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون . هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت

رسل ربنا بالحق» الأعراف - ٥٢ وقوله تعالى : «وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين- إلى أن قال :- بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله» يونس - ٣٩ فإن الآيات الشريفة وخاصة ما في سورة يونس ظاهرة الدلالة على أن التفصيل أمر طارئ على الكتاب فنفس الكتاب شيء والتفصيل الذي يعرضه شيء آخر ، وأنهم إنما كذبوا بالتفصيل من الكتاب لكونهم ناسين لشيء يؤل إليه هذا التفصيل وغافلين عنه ، وسيظهر لهم يوم القيمة ويضطرون إلى علمه فلا ينفعهم الندم ولات حين مناص . وفيها إشعار بأن أصل الكتاب تأويل تفصيل الكتاب .

وأوضح منه قوله تعالى : « حم والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب لدينا لعليّ حكيم » الزخرف - ٤ . فإنه ظاهر في أن هناك كتاباً مبيناً عرض عليه جعله مقروءاً عربياً ، وإنما لبس لباس القراءة والعريضة ليعقله الناس وإلا فإنه - وهو في أم الكتاب - عند الله ، عليّ لا يصعد إليه العقول ، حكيم لا يوجد فيه فصل وفصل . وفي الآية تعريف للكتاب المبين وأنه أصل القرآن العربي المبين ، وفي هذا المساق أيضاً قوله تعالى : « فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون تنزيل من رب العالمين » الواقعة - ٨٠ . فإنه ظاهر في أن للقرآن موقعاً هو في الكتاب المكنون لا يمسه هناك أحد إلا المطهرون من عباد الله وأن التنزيل بعده ، وأما قبل التنزيل فله موقع في كتاب مكنون عن الأغيار وهو الذي عبر عنه في آيات الزخرف ؛ بأم الكتاب ؛ وفي سورة البروج ؛ باللوح المحفوظ ؛ حيث قال تعالى : « بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ » البروج - ٢٢ ، وهذا اللوح إنما كان محفوظاً لحفظه من ورود التغيير عليه . ومن المعلوم أن القرآن المنزل تدريجاً لا يخلو عن ناسخ ومنسوخ وعن التدريج الذي هو نحو من التبديل ، فالكتاب المبين الذي هو أصل القرآن وحكمه الخالي عن التفصيل أمورا هذا المنزل ، وإنما هذا بمنزلة اللباس لذلك .

ثم إن هذا المعنى أعني : كون القرآن في مرتبة التنزيل بالنسبة إلى الكتاب المبين

- ونحن نسميه بحقيقة الكتاب - بمنزلة اللباس من المتلبس وبمنزلة المثال من الحقيقة و  
وبمنزلة المثال من الغرض المقصود بالكلام هو المصحح لأن يطلق القرآن أحياناً على  
أصل الكتاب كما في قوله تعالى : « بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ » . إلى غير ذلك  
وهذا الذي ذكرناه هو الموجب لأن يحمل قوله : شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن  
أو وقوله : إنما أنزلناه في ليلة مباركة أو وقوله : إنما أنزلناه في ليلة القدر أو على أنزال  
حقيقة الكتاب والكتاب المبين إلى قلب رسول الله ﷺ دفعة كما أنزل القرآن المفصل  
على قلبه تدريجاً في مدّة الدعوة النبويّة .

وهذا هو الذي يلوح من نحو قوله تعالى : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك  
وحيه » طه - ١١٤ وقوله تعالى : « لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه  
فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه » القيامة - ١٩ . فإن الآيات ظاهرة في أن  
رسول الله ﷺ كان له علم بما سينزل عليه فنهى عن الاستعجال بالقراءة قبل قضاء الوحي .  
وسياتي توضيحه في المقام اللائق به - إنشاء الله - .

وبالجملة فإن المتدبر في الآيات القرآنيّة لا يجد مناصاً عن الاعتراف بدلالاتها :  
على كون هذا القرآن المنزل على النبيّ تدريجاً متكاملاً على حقيقة متعالية عن أن تدركها  
أبصار العقول العامّة أو تناولها أيدي الأفكار المتلوّنة بالوآت الهوسات وقذارات المادّة ،  
وأنّ ذاك الحقيقة أنزلت على النبيّ إنزالاً فعلمه الله بذلك حقيقة ما عناء بكتابه ، و  
سيجيء بعض من الكلام المتعلق بهذا المعنى في البحث عن التأويل والتنزيل في قوله  
تعالى : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات » آل عمران - ٧ . فهذهما  
يهدي إليه التدبر ويدلّ عليه الآيات نعم أرباب الحديث ، و الغالب من المتكلمين و  
الحسيّين من باحثي هذا العصر لما أنكروا أصالة ما وراء المادّة المحسوسة اضطروا إلى  
حمل هذه الآيات ونظائرها كالدّالة على كون القرآن هدى ورحمة ونوراً وروحاً و  
مواقع السجود وكتاباً مبيناً ، وفي لوح محفوظ ، ونازلاً من عند الله ، وفي صحف مطهّرة  
إلى غير ذلك من الحقائق على أقسام الاستعارة و المجاز فعاد بذلك القرآن شعراً  
منشوراً .

ولبعض الباحثين كلام في معنى نزول القرآن في شهر رمضان :  
 قال : ما حصله : إنه لا ريب أن بعثة النبي ﷺ كان مقارناً لنزول أول منازل  
 من القرآن وأمره ﷺ بالتبليغ والإيذار، ولا ريب أن هذه الواقعة إنما وقعت بالليل  
 لقوله تعالى : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبْرُكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ » الدخان - ٢ . ولا ريب  
 أن الليلة كانت من ليالي شهر رمضان لقوله تعالى : « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن »  
 البقرة - ١٨٥ .

وجملة القرآن وإن لم تنزل في تلك الليلة لكن لما نزلت سورة الحمد فيها ، وهي  
 تشتمل على جمل معارف القرآن فكان كأن القرآن نزل فيها جميعاً فصَحَّ أن يقال :  
 أنزلناه في ليلة (على أن القرآن يطلق على البعض كما يطلق على الكل بل يطلق القرآن  
 على سائر الكتب السماوية أيضاً كالتوراة والإنجيل والزبور باصطلاح القرآن )  
 قال : وذلك : أن أول منازل من القرآن قوله تعالى : اقرأ باسم ربك الإنح ، نزل  
 ليلة الخامس والعشرين من شهر رمضان ، نزل والنبي ﷺ قاصد دار خديجة في وسط  
 الوادي يشاهد جبرئيل فأوحى إليه : قوله تعالى : اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنح ، ولما تلقى  
 الوحي خطر بباله أن يسأله : كيف يذكر اسم ربه فتراعى له و علمه بقوله : بسم الله  
 الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين إلى آخر سورة الحمد ثم علمه كيفية الصلوة ثم  
 غاب عن نظره فصحا النبي ﷺ ولم يجد مما كان يشاهده أثر إلا ما كان عليه من التعب  
 الذي عرضه من ضغطة جبرئيل حين الوحي فأخذ في طريقه وهو لا يعلم أنه رسول  
 من الله إلى الناس ، مأمور بهدايتهم ثم لما دخل البيت نام ليلته من شدة التعب فعاد إليه  
 ملك الوحي صبيحة تلك الليلة وأوحى إليه قوله تعالى : « يا أيها المدثر قم فأنذر  
 الآيات » المدثر - ٢ .

قال : فهذا هو معنى نزول القرآن في شهر رمضان ومصادفة بعثته لليلة القدر. وأما  
 ما يوجد في بعض كتب الشيعة من أن البعثة كانت يوم السابع والعشرين من شهر رجب  
 فهذه الأخبار على كونها لا توجد إلا في بعض كتب الشيعة التي لا يسبق تاريخ تأليفها أو امل  
 القرن الرابع من الهجرة مخالفة للكتاب كما عرفت .

قال : وهناك روايات أخرى في تأييد هذه الأخبار تدل على أن معنى نزول القرآن في شهر رمضان : أنه نزل فيه قبل بعثة النبي من اللوح المحفوظ إلى البيت المعمور وأمامه جبرئيل هناك على الملائكة حتى ينزل بعد البعثة على رسول الله . وهذه أوام خرافية دسّت في الأخبار مردودة أولاً بمخالفة الكتاب ، وثانياً أن مراد القرآن باللوح المحفوظ هو عالم الطبيعة وبالبيت المعمور هو كرة الأرض لعمرانه بسكون الإنسان فيه ، انتهى ملخصاً .

ولست أدري أي جملة من جمل كلامه - على فساد بهتمام أجزائه - يقبل الإصلاح حتى تنطبق على الحق والحقيقة بوجه ؟ فقد اتسع الحزق على الرائق .  
فيه أولاً : أن هذا القول العجيب الذي تقوله في البعثة و نزول القرآن أول ما نزل وأنه ﷺ نزل عليه : اقرأ باسم ربك ، وهو في الطريق ، ثم نزلت عليه سورة الحمد ثم علم الصلوة ، ثم دخل البيت و نام تعبناً ، ثم نزلت عليه سورة المدثر صبيحة الليلة فأمر بالتبليغ ، كل ذلك تقول لادليل عليه لا آية محكمة ولا سنة قائمة ، وإنما هي قصة تخيلية لاتوافق الكتاب ولا النقل على ما سيحي .

وثانياً : أنه ذكر أن من المسلم أن البعثة و نزول القرآن والأمر بالتبليغ مقارنة زماناً ثم فسّر ذلك بأن النبوة ابتدئت بنزول القرآن ، وكان النبي ﷺ نبياً غير رسول ليلة واحدة فقط ثم في صبيحة الليلة أعطى الرسالة بنزول سورة المدثر ؛ ولا يسهه أن يستند في ذلك إلى كتاب ولا سنة ، وليس من المسلم ذلك . أمّا السنة فلا ن لازم ما طعن به في جوامع الشيعة بتأخير تأليفها عن وقوع الواقعة عدم الاعتماد على شيء من جوامع الحديث مطلقاً إذ لا شيء من كتب الحديث مما ألفتها العامة أو الخاصة إلا و تأليفه متأخر عن عصر النبي ﷺ قرنين فصاعداً فهذا في السنة ، والتاريخ - على خلوه من هذه التفاصيل - حاله أسوأ الدس الذي رمي به الحديث متطرق إليه أيضاً .

وأما الكتاب فقصور دلالة على ما ذكره أوضح وأجلى بل دلالة على خلاف ما ذكره وتكذيب ما تقوله ظاهرة فإن سورة اقرأ باسم ربك - وهي أول سورة نزلت على النبي ﷺ على ما ذكره أهل النقل ، ويشهد به الآيات الخمس التي في صدرها و

لم يذكر أحد أنها نزلت قطعات ولا أقل من احتمال نزولها دفعة - مشتملة على أنه ﷺ كان يصلي بمري من القوم وأنه كان منهم من ينهاء عن الصلوة ويذكر أمره في نادي القوم (ولاندرى كيف كانت هذه الصلوة التي كان رسول الله ﷺ يتقرب بها إلى ربه في نادي أمره إلا ما تشتمل عليه هذه السورة من أمر السجدة) . قال تعالى فيها : «أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى أرأيت إن كذب وتولى ألم يعلم بأن الله يرى كلاً لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية ناصية كاذبة خاطئة فليدع ناديه سندع الزبانية » العلق - ١٨ . فلا يأت كما ترى ظاهرة في أنه كان هناك من ينهى مصلياً عن الصلوة ، و يذكر أمره في النادي ، ولا ينتهي عن فعله ، وقد كان هذا المصلي هو النبي ﷺ بدليل قوله تعالى بعد ذلك : «كلاً لا تطعه» العلق - ١٩ .

فقد دلت السورة على أن النبي ﷺ كان يصلي قبل نزول أول سورة من القرآن . وقد كان على الهدى و ربما أمر بالتقوى ، وهذا هو النبوة و لم يسم أمره ذلك انذاراً ، فكان ﷺ نبياً و كان يصلي ولما ينزل عليه قرآن ولا نزل بعد عليه سورة الحمد ولما يؤمر بالتبليغ .

وأما سورة الحمد فإنها نزلت بعد ذلك بزمان ، ولو كان نزولها عقيب نزول سورة العلق بلا فصل عن خطوري في قلب رسول الله ﷺ كما ذكره هذا الباحث لكان حق الكلام أن يقال : قل بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين إلخ أو يقال : بسم الله الرحمن قل : الحمد لله رب العالمين إلخ ولكن من الواجب أن يختم الكلام في قوله تعالى : مالك يوم الدين لخروج بقية الآيات عن الغرض كما هو الأليق ببلاغة القرآن الشريف .

نعم وقع في سورة الحجر - وهي من السور المكينة كما يدل عليه مضامين آياتها ، وسيجيء بيانه - قوله تعالى : «ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم» الحجر - ٨٧ . والمراد بالسبع المثاني سورة الحمد وقد قبل بها القرآن العظيم وفيه تمام التجليل لشأنها والتعظيم لخطرها لكنها لم تعد قرآناً بل سبعاً من آيات القرآن وجزماً منه بدليل قوله تعالى : «كتاباً متشابهاً مثاني الآية» الزمر - ٢٣ .

ومع ذلك فاشتمال السورة على ذكر سورة الحمد يدل على سبق نزولها نزول سورة الحجر، والسورة مشتملة أيضاً على قوله تعالى: «فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إِنَّا كَفِينَاكَ الْمُسْتَهِزِّينَ الْآيَاتِ» الحجر - ٩٥. ويدل ذلك على أن رسول الله ﷺ كان قد كفَّ عن الإنذار مدة ثم أمر به ثانياً بقوله تعالى: فاصدع.

وأما سورة المدثر وماتشتمل عليه من قوله: «قم فأندُر» المدثر - ٢ فإن كانت السورة نازلة بتمامها دفعة كان حال هذه الآية: «قم فأندُر» حال قوله تعالى: فاصدع بما تؤمر الآية لاشتمال هذه السورة أيضاً على قوله تعالى: «ذرني ومن خلقت وحيداً إلى آخر الآيات» المدثر - ١١، وهي قريبة المضمون من قوله في سورة الحجر: «أعرض عن المشركين إلخ، وإن كانت السورة نازلة نجوماً فظاهر السياق أن صدرها قد نزل في بدء الرسالة. وثالثاً: أن قوله: «إن الروايات الدالة على نزول القرآن في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى البيت المعمور جملة واحدة قبل البعثة ثم نزول الآيات نجوماً على رسول الله أخبار مجمولة خرافية لمخالفتها الكتاب وعدم استقامة مضمونها، وأن المراد باللوح المحفوظ هو عالم الطبيعة، وبالبيت المعمور كرة الأرض خطأ وفرة.

أما أولاً: فلا نـه لشيء من ظاهر الكتاب يخالف هذه الأخبار على ما عرفت. وأما ثانياً: فلا نـه الأخبار خالية عن كون النزول الجملي قبل البعثة بل الكلمة مما أضافها هو إلى مضمونها من غير تثبت.

وأما ثالثاً: فلا نـه قوله: «إن اللوح المحفوظ هو عالم الطبيعة تفسير شنيع - وإنه أضحكة - وليت شعري: ما هو الوجه المصحح - على قوله - لتسمية عالم الطبيعة في كلامه تعالى لوحاً محفوظاً؛ أذلك لكون هذا العالم محفوظاً عن التغير والتحول؛ فهو عالم الحركات سيمال الذات متغير الصفات؛ أولكونه محفوظاً عن الفساد تكويناً وتشريعاً؛ فالواقع خلافه؛ أولكونه محفوظاً عن اطلاع غير أهله عليه؛ كما يدل عليه: قوله تعالى: «إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون» الواقعة - ٧٩؛ فدراك المدركين فيه على السواء؛

وبعد اللتيا والستي: لم يأت هذا الباحث في توجيه نزول القرآن في شهر رمضان

بوجه محصل يقبله لفظ الآية ، فإنَّ حاصل توجيهه : أنَّ معنى : أنزل فيه القرآن : كأنما أنزل فيه القرآن ، ومعنى : إنما أنزلناه في ليلة : كأنما أنزلناه في ليلة . وهذا شيء لا يحتمله اللغة والعرف لهذا السياق !

ولو جاز لقائل أن يقول : نزل القرآن ليلة القدر على رسول الله ﷺ لنزول سورة الفاتحة المشتملة على جمل معارف القرآن جاز أن يقال : إنَّ معنى نزول القرآن نزوله جملة واحدة ، أى نزول إجمال معارفه على قلب رسول الله من غير مانع يمنعكم - أمر بيانه سابقاً .

وفي كلامه جهات أخرى من الفساد تركنا البحث عنها لخروجه عن غرضنا في المقام .  
**قوله تعالى :** هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان اه ، الناس - وهم الطبقة الدانية من الإنسان السّدين سطح فهمهم المتوسط أنزل السطوح - يكثر إطلاق هذه الكلمة في حقهم ، كما قال تعالى : « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » الروم - ٣٠ وقال تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » العنكبوت - ٤٣ و هؤلاء أهل التقليد لا يسعهم تمييز الأمور المعنوية بالبيّنة والبرهان ، ولا فرق الحق من الباطل بالحجة إلا بيمين يمين لهم وهاذي يديهم ، والقرآن هدى لهم ونعم الهدى ، وأما الخاصة المستكملون في ناحيتي العلم والعمل ، المستعدون للاقتباس من أنوار الهداية الإلهية والركون إلى فرقان الحق فالقرآن بينات وشواهد من الهدى والفرقان في حقهم فهو يهديهم إليه ويميّز لهم الحق ويبين لهم كيف يميز . قال تعالى : يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويهديهم إلى صراط مستقيم ، المائدة - ١٨ .

ومن هنا يظهر وجه التقابل بين الهدى والبيّنات من الهدى ، وهو التقابل بين العام والخاص فالهدى لبعض والبيّنات من الهدى لبعض آخر .

**قوله تعالى :** فمن شهد منكم الشهر فليصمه اه ، الشهادة هي الحضور مع تحمّل العلم من جهته ، وشهادة الشّهر إنما هو ببلوغه والعلم به ، ويكون البعض كما يكون بالكل . وأما كون المراد بشهود الشهر رؤية هلاله وكون الإنسان بالحضر مقابل السفر فلا

دليل عليه إلا من طريق الملازمة في بعض الأوقات بحسب الفرائض ، ولا قرينة في الآية .  
**قوله تعالى :** ومن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر اه ، إيراد هذه الجملة في الآية ثانياً ليس من قبيل التكرار للتأكيد ونحوه لما عرفت أن الآيتين السابقتين مع ما تشتملان عليه مسوقتان للتوطئة والتمهيد دون بيان الحكم وأن الحكم هو الذي يبين في الآية الثالثة فلا تكرر .

**قوله تعالى :** يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة اه ، كأنه بيان لمجموع حكم الاستثناء : وهو الإفطار في شهر رمضان لمكان نفى العسر ، وصيام عدة من أيام أخر لمكان وجوب إكمال العدة . واللام في قوله : لتكملوا العدة اه للغاية ، وهو عطف على قوله : يريد اه لكونه مشتملاً على معنى الغاية ، والتقدير وإنما أمرناكم بالإفطار والقضاء لنخفف عنكم ولتكملوا العدة ، ولعل إيراد قوله : لتكملوا العدة هو الموجب لإسقاط معنى قوله : وعلى الذين يطيقونه فدية طعام ومسكين اه عن هذه الآية مع تفهيم حكمه بنفى العسر وذكره في الآية السابقة .

**قوله تعالى :** ولتكبروا لله على ما هديكم لعلكم تشكرون اه ، ظاهر الجماعتين على ما يشعر به لام الغاية أنهما لبيان الغاية غاية أصل الصيام دون حكم الاستثناء فإن تقييد قوله : شهر رمضان بقوله : الذي أنزل فيه القرآن إلى آخره مشعر بنوع من العلية وارتباط فرض صيام شهر رمضان بنزول القرآن هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان فيعود معنى الغاية إلى أن التلبس بالصوم لإظهار كبريائه تعالى بما نزل عليهم القرآن وأعلن ربوبيته وعبوديتهم ، وشكر له بما هداهم إلى الحق ، وفرّق لهم بكتابه بين الحق والباطل . ولما كان الصوم إنما يتصف بكونه شكراً لنعمه إذا كان مشتملاً على حقيقة معنى الصوم وهو الإخلاص لله سبحانه في التنزه عن ألوان الطبيعة والكف عن أعظم مشتبهات النفس بخلاف أن تصافه بالتكبير لله فإن صورة الصوم والكف سواء اشتمل على إخلاص النية أوله يشتمل يدل على تكبيره تعالى وتعظيمه فرّق بين التكبير والشكر فقرن الشكر بكلمة التّرجي دون التكبير فقال : ولتكبروا لله على ما هداكم ولعلكم تشكرون كما قال : في أوّل الآيات : لعلكم تتقون .

## ﴿ بحث روائى ﴾

في الحديث القدسيّ ، قال الله تعالى : الصوم لي وأنا أجزي به

**اقول :** وقد رواه الفريقان على اختلاف يسير ، والوجه في كون الصوم لله سبحانه أنّه هو العبادة الوحيدة التي تألفت من النفي ، وغيره كالصلوة والحج وغيرهما متألف من الإثبات أو لا يخلو من الإثبات ، والفعل الوجودي لا يتمحّض في إظهار عبودية العبد ولا ربوبية الرب سبحانه ، لأنّه لا يخلو عن شوب النقص المادي وآفة المحدودية وإثبات الإنيّة ويمكن أن يجعل لغيره تعالى نصيب فيه : كما في موارد الرياء والسمعة والسجدة لغيره بخلاف النفي الذي يشتمل عليه الصوم بالتعالى عن الإخلاد إلى الأرض والتنزّه بالكف عن شهوات النفس فإنّ النفي لا نصيب لغيره تعالى فيه لكونه أمراً بين العبد والرب لا يطّلع عليه بحسب الطبع غيره تعالى . وقوله أنا أجزي به اه إن كان بصيغة المعلوم كان دالاً على أنّه لا يوسّط في إعطاء الأجر بينه وبين الصائم أحداً كما أن العبد تى بماليس بينه وبين ربّه في الاطّلاع عليه أحد نظير ما ورد : انّ الصدقة إنّما يأخذها الله من غير توسيطه أحداً اه . قال تعالى : « يأخذ الصدقات » التوبة - ١٠٥ وإن كان بصيغة المجهول كان كناية عن أن أجر الصائم القرب منه تعالى .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام : كان رسول الله أوّل ما بعث يصوم حتّى يقال : ما يفطر ، ويفطر حتّى يقال : ما يصوم ، ثم ترك ذلك وصام يوماً وأفطر يوماً وهو صوم داود ، ثم ترك ذلك وصام الثلاثة الأيام الغرّ ، ثم ترك ذلك وفرّقها في كلّ عشرة يوماً خمسين بينهما أربعاء فقبض ﷺ وهو يعمل ذلك .

وعن عبسة العابد ، قال : قبض رسول الله على صيام شعبان ورمضان وثلاثة أيام من كلّ شهر .

**اقول :** والأخبار من طرق أهل البيت كثيرة في ذلك وهو الصوم المسنون الذي كان يصومه النبي ﷺ ما عدا صوم رمضان .

وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : يا أيّها الذين آمنوا كتب

عليكم الصيام ، قال : هي للمؤمنين خاصة .

وعن جميل ، قال : سئلت الصادق عليه السلام عن قول الله تعالى : كتب عليكم القتال ، يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام . قال : فقال : هذه كلها يجمع الضلال والمنافقين وكل من أقر بالدعوة الظاهرة .

وفي الفقيه عن حفص قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام ، يقول إن شهر رمضان لم يفرض الله صيامه على أحد من الأمم قبلنا فقلت له : يقول الله عز وجل : يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم ؟ قال : إنما فرض الله شهر رمضان على الأنبياء دون الأمم ففضل الله هذه الأمة وجعل صيامه فرضاً على رسول الله ﷺ وعلى أمته .

**اقول :** والرواية ضعيفة بإسماعيل بن محمد في سنده ، وقد روي هذا المعنى مرسلًا عن العالم عليه السلام وكان الروايتين واحدة . وعلى أي حال فهي من الآحاد وظاهر الآية لا يساعد على كون المراد من قوله تعالى : كما كتب على الذين من قبلكم إله الأنبياء خاصة ولو كان كذلك - والمقام مقام التوطئة والتمهيد والتحريض والترغيب - كان التصريح باسمهم أولى من الكناية وأوقع والله العالم .

وفي الكافي عمن سأل الصادق عليه السلام عن القرآن والفرقان أحما شيئان أو شيء واحد ؟ فقال : القرآن جملة الكتاب والفرقان الحكم الواجب العمل به .

وفي الجوامع عنه عليه السلام : الفرقان كل آية محكمة في الكتاب . وفي تفسير العباسي والقمي عنه عليه السلام الفرقان هو كل أمر محكم في القرآن ، والكتاب هو جملة القرآن الذي يصدق فيه من كان قبله من الأنبياء .

**اقول :** واللفظ يساعد على ذلك ، وفي بعض الأخبار أن رمضان اسم من أسماء الله تعالى فلا ينبغي أن يقال : جاء رمضان وذهب بل شهر رمضان الحديث ، وهو واحد غريب في باب . وقد نقل هذا الكلام عن قتادة أيضاً من المفسرين .

والأخبار الواردة في عدد أسماءه تعالى خال عن ذكر رمضان ، على أن لفظ رمضان من غير تصديره بلفظ شهر وكذا رمضانان بصيغة التثنية كثير الورد في الروايات المنقولة عن النبي ﷺ وعن أئمة أهل البيت عليهم السلام بحيث يستبعد جداً

نسبة التجريد إلى الراوي .

و في تفسير العياشي عن الصباح بن نباتة قال : قلت : لأبي عبد الله عليه السلام إن ابن أبي يعفور ، أمرني أن أسئلك عن مسائل فقال : وما هي ؟ قلت : يقول لك : إذا دخل شهر رمضان وأنا في منزلي ألي أن أسافر ؟ قال : إن الله يقول : فمن شهد منكم الشهر فليصمه فمن دخل عليه شهر رمضان وهو في أهله فليس له أن يسافر إلا لحج أو عمرة أو في طلب مال يخاف تلفه .

**اقول :** وهو استفادة لطيفة لحكم استحبابي بالأخذ بالإطلاق .

وفي الكافي عن علي بن الحسين عليه السلام قال : فأما صوم السفر والمرضى فإن العامة قد اختلفت في ذلك فقال : قوم يصوم : وقال : آخرون : لا يصوم وقال : قوم إن شاء صام وإن شاء أفطر ، وأما نحن فنقول : يفطر في الحالين جميعاً فإن صام في السفر أو في حال المرض فعليه القضاء فإن الله عز وجل يقول : فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر .

**اقول :** ورواه العياشي أيضاً .

وفي تفسير العياشي عن الباقر عليه السلام في قوله فمن شهد منكم الشهر فليصمه قال عليه السلام : ما بيننا لمن عقلها ، قال : من شهد رمضان فليصمه ومن سافر فيه فليفطر .

**اقول :** والأخبار عن أئمة أهل البيت في تعيين الإفطار على المريض والمسافر كثيرة ومذهبهم ذلك ، وقد عرفت دلالة الآية عليه .

وفي تفسير العياشي أيضاً عن أبي بصير قال : سألت عن قول الله : وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين . قال : الشيخ الكبير الذي لا يستطيع والمريض .

وفي تفسيره أيضاً عن الباقر عليه السلام في الآية ، قال : الشيخ الكبير والذي يأخذه العطاش .

وفي تفسيره أيضاً عن الصادق عليه السلام قال : المرأة تخاف على ولدها والشيخ الكبير .

**اقول :** والروايات فيه كثيرة عنهم عليهم السلام والمراد بالمريض في رواية أبي بصير المريض في سائر أيام السنة غير أيام شهر رمضان ممن لا يقدر على عدة من أيام أخر فإن

المريض في قوله تعالى : فمن كان منكم مريضاً اه لا يشملوه وهو ظاهر ، والعطاش مرض العطش .

وفي تفسيره أيضاً عن سعيد بن الصادق عليه السلام قال : إن في الفطر تكبيراً . قلت : ما التكبير إلا في يوم النحر . قال : فيه تكبير ولكنّه مسنون في المغرب والعشاء والفجر والظهر والعصر وركعتي العيد .

وفي الكافي عن سعيد النقاش قال : قال : أبو عبد الله لي في ليلة الفطر تكبيرة و لكنّه مسنون . قال : قلت : وأين هو ؟ قال : في ليلة الفطر في المغرب والعشاء الآخرة وفي صلوة الفجر وفي صلوة العيد ثمّ يقطع . قال : قلت : كيف أقول ؟ قال : تقول الله أكبر . الله أكبر . لا إله إلا الله والله أكبر . الله أكبر على ما هدانا . وهو قول الله ولتكمّلوا العدد يعني الصلوة ولتكبّروا الله على ما هداكمم والتكبير أن تقول : الله أكبر . لا إله إلا الله والله أكبر . والله الحمد . قال : وفي رواية التكبير الآخر أربع مرّات .

أقول : اختلاف الروايتين في إثبات الظهرين وعدمه يمكن أن يحمل على مراتب الاستحباب وقوله عليه السلام : يعني الصلوة لعلّه يريد : أن المعنى ولتكمّلوا العدد أي عدّة أيام الصّوم بصلوة العيد ولتكبّروا الله مع الصلوات على ما هديكم ، وهو غير مناف لما ذكرناه من ظاهر معنى قوله : ولتكبّروا الله على ما هديكم اه فإنّه استفادة حكم استحبابي من مورد الوجوب نظير ما مرّ في قوله تعالى : فمن شهد منكم الشهر فليصمه اه : من استفادة كراهة الخروج إلى السفر في الشهر لمن شهد الليلة الأولى منه هذا . و اختلاف آخر التكبيرات في الموضعين من الرواية الأخيرة يؤيد ما قيل : إن قوله : و لتكبّروا الله على ما هديكم اه بتضمن التكبير معنى الحمد ولذلك عديّ بعليّ .

وفي تفسير العياشي عن ابن أبي عمير عن الصادق عليه السلام قال : قلت له ، جعلت فداك ما يتحدث به عندنا أن النبي صلى الله عليه وآله صام تسعة وعشرين أكثر مما صام ثلثين أحقّ هذا ؟ قال ما خلق الله من هذا حرفاً فما صام النبي صلى الله عليه وآله إلا ثلثين لأن الله يقول : ولتكمّلوا العدد فكان رسول الله ينقصه .

أقول : قوله : فكان رسول الله في مقام الاستفهام الإنكاري ، والرواية تدلّ على

ماقدّ مناه : أنّ ظاهر التّكميل تكميل شهر رمضان .

وفي محاسن البرقيّ عن بعض أصحابنا رفعه في قوله : ولتكبّر والله على ما هداكم قال : التّكبير التّعظيم ، والهداية الولاية .

**اقول :** وقوله : والهداية الولاية من باب الجرى وبيان المصداق ، و يمكن أن يكون من قبيل ما يسمّى تأويلاً كما ورد في بعض الروايات أنّ اليسر هو الولاية ، والعسر الخلاف وولاية أعداء الله .

وفي الكافي عن حفص بن الغياث عن أبي عبد الله ، قال : سئلته عن قول الله عزّ وجلّ : شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن وإنّما أنزل في عشرين بين أوّله وآخره فقال أبو عبد الله : نزل القرآن جملة واحدة في شهر رمضان إلى البيت المعمور ثمّ نزل في طول عشرين سنة ثمّ قال : قال النبيّ ﷺ : نزلت صحف إبراهيم في أوّل ليلة من شهر رمضان . و أنزلت التوراة لست مضين من شهر رمضان وأنزل الزبور لثمان عشرة خلون من شهر رمضان وأنزل القرآن في ثلث وعشرين من شهر رمضان .

**اقول :** ما رواه الشيخ عن النبيّ ﷺ رواه السيوطي في الدر المنثور بعدّة طرق عن وائلة بن الأسقع عن النبيّ .

وفي الكافي والفتية عن يعقوب قال سمعت رجلاً يسأل أبا عبد الله عن ليلة القدر فقال أخبرني عن ليلة القدر كانت أوتكون في كلّ سنة ؟ فقال أبو عبد الله ﷺ : لو رفعت ليلة القدر لرفع القرآن .

وفي الدر المنثور عن ابن عباس ، قال : شهر رمضان والليّلة المباركة وليّلة القدر فإن ليلة القدر هي الليّلة المباركة وهي في رمضان نزل القرآن جملة واحدة من الذّكر إلى البيت المعمور وهو موقع النّجوم في السماء الدّنيا حيث وقع القرآن ثمّ نزل على محمد ﷺ بعد ذلك في الأمر والنّهي وفي الحروب رسلاً رسلاً .

**اقول :** وروي هذا المعنى عن غيره أيضاً كسعيد بن جبير ويظهر من كلامه أنّه إنّما استفاد ذلك من الآيات القرآنيّة كقوله تعالى : « والذكر الحكيم » آل عمران - ٥٨ وفي قوله تعالى : « وكتاب مسطور في رق منشور والبيت المعمور والسّفف المرفوع »

الطور - هـ وقوله تعالى : «فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لوتعلمون عظيم إنه لقرآن كريم في كتاب مكنون لا يمسه إلا المطهرون» الواقعة - ٧٩ وقوله تعالى : « وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً » حم السجدة - ١٢ . وجميع ذلك ظاهر إلا ما ذكره في مواقع وأنه السماء الأولى و موطن القرآن فإن فيه خفاءً ، والآيات من سورة الواقعة غير واضحة الدلالة على ذلك . وقد ورد من طرق أهل البيت أن البيت المعمور في السماء . وسيجيء الكلام فيه في محله إنشاء الله تعالى . ومما يجب أن يعلم أن الحديث كمثل القرآن في اشتماله على المحكم والمتشابه ، والكلام على الإشارة والرمز شائع فيه ، ولا سيما في أمثال هذه الحقائق : من اللوح والقلم والحجب والسماء والبيت المعمور والبحر المسجور . فمما يجب للمباحث أن يبذل جهده في الحصول على القرآن أن





وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا

لِي وَ لِيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ (١٨٦)

### ﴿ بيان ﴾

قوله تعالى وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ اه  
أحسن بيان لما اشتمل عليه من المضمون وأرق أسلوب وأجمله فقد وضع أساسه على  
التكلم وحده دون الغيبة ونحوها ، وفيه دلالة على كمال العناية بالأمر ، ثم قوله :  
عبادي اه ولم يقل : الناس وما أشبهه يزيد في هذه العناية ، ثم حذف الوسطة في الجواب  
حيث قال : فَإِنِّي قَرِيبٌ ولم يقل : فقل : إِنَّهُ قَرِيبٌ ، ثم التأكيد بان ، ثم الإتيان بالصفة  
دون الفعل الدال على القرب ليدل على ثبوت القرب ودوامه ، ثم الدلالة على تجدد  
الإجابة واستمرارها حيث أتى بالفعل المضارع الدال عليهما ، ثم تقييده الجواب أعني  
قوله : أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ بقوله : إِذَا دَعَانِ اه . وهذا القيد لا يزيد على قوله : دَعْوَةَ الدَّاعِ  
المقيد به شيئاً بل هو عينه ، وفيه دلالة على أن دَعْوَةَ الدَّاعِ مجابة من غير شرط و قيد  
كقوله تعالى : « ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ » المؤمن - ٦٠ فهذه سبع نكات في الآية تنبي  
بالاهتمام في أمر استجابة الدعاء والعناية بها ، مع كون الآية قد كرر فيها على إيجازها -  
ضمير المتكلم سبع مرات ، وهي الآية الوحيدة في القرآن على هذا الوصف .

والدعاء والدعوة توجيه نظر المدعو نحو الداعي ، والسؤال جلب فائدة أودر  
من المسؤول يرفع به حاجة السائل بعد توجيه نظره ، فالسؤال بمنزلة الغاية من الدعاء  
وهو المعنى الجامع لجميع موارد السؤال كالسؤال لرفع الجهل والسؤال بمعنى الحساب و  
السؤال بمعنى الاستدرا و غيره .

ثم إن العبودية كما مر سابقاً هي المملوكية ولا كل مملوكية بل مملوكية  
الإنسان فالعبد هو من الإنسان أو كل ذي عقل و شعور كما في الملك المنسوب  
إليه تعالى .

وملكه تعالى يغاير ملك غيره مغايرة الجد مع الدّ عوى والحقيقة مع المجاز فإنّه تعالى يملك عباده ملكاً طلقاً محيطاً بهم لا يستقلّون دونه في أنفسهم ولا ما يتبع أنفسهم من الصفات والأفعال وسائر ما ينسب إليهم من الأزواج والأولاد والمال والجاه وغيرها، فكل ما يملكونه من جهة إضافته إليهم بنحو من الأنحاء كما في قولنا : نفسه ، وبدنه ، وسمعه ، وبصره ، وفعله ، وأثره ، وهي أقسام الملك بالطبع والحقيقة وقولنا : زوجه وماله وجاهه وحقه ، - وهي أقسام الملك بالوضع والاعتبار - إنما يملكونه بإذنه تعالى في استقرار النسبة بينهم وبين ما يملكون أيّاماً كان وتمليكهم فأنّه عزّ اسمه هو الذي أضاف نفوسهم وأعيانهم إليهم وأولم يشاء لم يصف فلم يكونوا من رأس ، وهو الذي جعل لهم السمع والأبصار والفؤاد ، وهو الذي خلق كلّ شيء وقدره تقديرًا

فهو سبحانه الحامل بين الشئ وبين نفسه ، وهو الحامل بين الشئ وبين كل ما يقارنه : من ولد أو زوج أو صديق أو مال أو جاه أو حقّ فهو أقرب إلى خلقه من كلّ شيء مفروض فهو سبحانه قريب على الإطلاق كما قال تعالى : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » ق - ١٦ وقال تعالى : « إن الله يحول بين المرء وقلبه » الأنفال - ٢٤ ، والقلب هو النفس المدركة .

وبالجملة فملكه سبحانه لعباده ملكاً حقيقياً وكونهم عباداً له هو ماوجب لكونه تعالى قريباً منهم على الإطلاق وأقرب إليهم من كلّ شيء عند القياس وهذا الملك الموجب لجواز كلّ تصرف شاء كيفما شاء من غير دافع ولا مانع يقضي أن الله سبحانه أن يجيب أيّ دعاء دعى به أحد من خلقه ويرفع بالإعطاء والتصرف حاجته التي سأله فيها فإنّ الملك عامّ ، والسلطان والإحاطة وإقعتان على جميع التقادير من غير تقيّد بتقدير دون تقدير لا كما يقوله اليهود : إن الله لما خلق الأشياء وقدر التقادير تمّ الأمر ، وخرج زمام التصرف الجديد من يده بما حتمه من القضاء ، فلا نسخ ولا بداء ولا استجابة لدعاء لأنّ الأمر مفروغ عنه . ولا كما يقوله جماعة من هذه الأمة : أن لاصنع لله في أفعال عباده وهم القدرية الذين سمّاهم رسول الله ﷺ مجوس هذه الأمة فيما رواه الفريقان من قوله ﷺ : القدرية مجوس هذه الأمة .

بل الملك لله سبحانه على الإطلاق ولا يملك شيء شيئاً إلا بتملك منه سبحانه و  
إذن فما شاءه وملكه وأذن في وقوعه يقع ، وما لم يشاء ولم يملك ولم يأذن فيه لا يقع و  
إن بذل في طريق وقوعه كل جهد وعناية . قال تعالى : « يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله  
والله هو الغني » الفاطر - ١٥ .

فقد تبين : أن قوله تعالى : و إذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة  
الداع إذا دعى اه كما يشتمل على الحكم أعني إجابة الدعاء كذلك يشتمل على علله  
فكون الداعين عباداً لله تعالى هو الموجب لقربه منهم ، وقربه منهم هو الموجب لإجابته  
المطلقة لدعائهم ، وإطلاق الإجابة يستلزم إطلاق الدعاء فكل دعاء دعي به فإنّه مجيبه  
إلا أن هيئنا أمراً وهو أنّه تعالى قيد قوله : أجيب دعوة الداع بقوله : إذا دعى اه ، وهذا  
القيد الغير الزائد على نفس المقتضى بشيء يدل على اشتراط الحقيقة دون التجوّز والشبه ،  
فإن قولنا : أصغ إلى قول الناصح إذا نصحك أو أكرم العالم إذا كان عالماً يدل على  
لزوم اتصافه بما يقتضيه حقيقة فالناصح إذا قصد النصيحة بقوله فهو الذي يجب الإصغاء  
إلى قوله والعالم إذا تحقق بعلمه وعمل بما علم كان هو الذي يجب إكرامه فقوله تعالى  
إذا دعى اه يدل على أنّ وعد الإجابة المطلقة إنّما هو إذا كان الداعي داعياً بحسب الحقيقة  
مريداً بحسب العلم الفطري والغريزي موافقاً لسانه مع قلبه ، فإن حقيقة الدعاء و  
السؤال هو الذي يحمله القلب ويدعو به لسان الفطرة ، دون ما يأتي به اللسان الذي  
يدور كيف ما أدير صدقاً أو كذباً جداً أو هزلاً حقيقة أو مجازاً . و لذلك ترى أنّه تعالى  
عدّ ما لا عمل للسان فيه سؤالاً . قال تعالى : « وآتاكم من كل ما سألتموه وإن تعدوا  
نعمة الله لا تحصوها إن الإنسان لظَلُومٌ كَفَّارٌ » النحل - ١٨ فهم فيما لا يحصونها من النعم  
داعون سائلون ولم يسألوها بلسانهم الظاهر ، بل بلسان فقرهم واستحقاقهم لساناً فطرياً  
وجودياً وقال تعالى : « يستلهم من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن » الرحمن  
- ٢٩ . ودلالته على ما ذكرنا أظهر وأوضح .

فالسؤال الفطري من الله سبحانه لا يتخطى الإجابة ، فما لا يستجاب من الدعاء ولا  
يصادف الإجابة فقد قدأ أحد أمرين وهما اللذان ذكرهما بقوله : دعوة الداع وإذا دعى اه ،

فإمّا أن يكون لم يتحقق هناك دعاء ، وإتّما التبس الأمر على الداعي التباساً كأن يدعو الإنسان فيسأل ما لا يكون وهو جاهل بذلك أو ما لا يريد له لو انكشفت عليه حقيقة الأمر مثل أن يدعو ويسأل شفاء المريض لإحياء الميت ، ولو كان استمكنه ودعا بحيوته كما كان يسأله الأنبياء لأعيدت حيوته ولكنّه على يأس من ذلك ، أو يسأل ما لو علم بحقيقته لم يسأله فلا يستجاب له فيه .

وإمّا أن السّؤال متحقّق لكن لا من الله وحده كمن يسأل الله حاجة من حوائجه وقلبه متعلّق بالأسباب العادية أو بأمور وهميّة تؤهّمها كافية في أمره أو مؤثّرة في شأنه فلم يخلص الدعاء من الله سبحانه فلم يسأل الله بالحقيقة فإن الله الذي يجيب الدعوات هو الذي لا شريك له في أمره ، لا من يعمل بشركة الأسباب والأوهام ، فهاتان الطائفتان من الدعاة السّائلين لم يخلصوا الدّعاء بالقلب وإن أخلصوه بلسانهم .

فهذا ملخص القول في الدّعاء على ما تفيدّه الآية ، وبه يظهر معاني سائر الآيات النّازلة في هذا الباب كقوله تعالى : « قل ما يعبوء بكم ربّي لولا دعاءكم » الفرقان - ٧٧ وقوله تعالى : قل أرايتم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسون ما كنتم تشركون ، الأنعام - ٤١ وقوله تعالى : « قل من ينجيكم في ظلمات البر والبحر تدعونه تضرّعاً و خفية لئن أنجانا من هذه لنكوننّ من الشاكرين قل الله ينجيكم منها و من كل كرب ثم أنتم تشركون » الأنعام - ٦٤ فالآيات دالة على أن للإنسان دعاء غريباً وسؤالاً فطرياً يسأل به ربه ، غير أنّه إذا كان في رخاء ورفاه تعلّقت نفسه بالأسباب فأشركها لربه ، فالتبس عليه الأمر وزعم أنّه لا يدعو ربه ولا يسأل عنه ، مع أنّه لا يسأل غيره فإنّه على الفطرة ولا تبديل لخلق الله تعالى ، ولما وقع الشدّة وطارأت الأسباب عن تأثيرها وفقدت الشركاء والشفعاء تبيّن له أن لا منجى لحاجته ولا مجيب لمسلّته إلّا الله ، فعاد إلى توحيد الفطري ونسي كلّ سبب من الأسباب ، ووجه وجهه نحو الربّ الكريم فكشف شدّته وقضى حاجته وأظللّه بالرّخاء ، ثمّ إذا تلبّس به ثانياً عاد إلى ما كان عليه أو لا من الشّرك والنسيان .

وكقوله تعالى : « وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين » المؤمن - ٦٠ ، والآية تدعو إلى الدعاء وتعد بالاجابة وتزيد على ذلك حيث تسمي الدعاء عبادة بقولها : عن عبادتي أى عن دعائي ، بل تجعل مطلق العبادة دعاء حيث أنها تشتمل الوعيد على ترك الدعاء بالنار والوعيد بالنار إنما هو على ترك العبادة رأساً لا على ترك بعض أقسامه دون بعض فأصل العبادة دعاء فافهم ذلك . وبذلك يظهر معنى آيات أخر من هذا الباب كقوله تعالى : « فادعوا الله مخلصين له الدين » المؤمن - ١٤ وقوله تعالى : « وادعوه خوفاً وطمعاً إن رحمة الله قريب من المحسنين » الأعراف - ٥٥ وقوله تعالى : « ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين » الأنبياء - ٩٠ وقوله تعالى : « ادعوا ربكم تضرعاً وخفية إنه لا يحب المعتدين » الأعراف - ٥٤ وقوله تعالى : « إذ نادى ربه نداء خفياً - إلى قوله - ولم أك بدعائك ربي شقياً » مريم - ٣ وقوله : تعالى : « ويستجيب الذين آمنوا و عملوا الصالحات و يزيدهم من فضله » الشورى - ٢٦ إلى غير ذلك من الآيات المناسبة ، وهي تشتمل على أركان الدعاء وآداب الدعاء ، وعمدتها الإخلاص في دعائه تعالى وهو مواطاة القلب مع اللسان والانتقطاع عن كل سبب دون الله والتعلق به تعالى ، ويلحق به الخوف والطمع والرغبة والرهبة والخشوع والتضرع والإصرار والذكر و صالح العمل والإيمان وأدب الحضور وغير ذلك مما تشتمل عليه الروايات .

**قوله تعالى :** فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي اه تفريع على ما يدل عليه الجملة السابقة عليه بالالتزام : أن الله تعالى قريب من عباده ، لا يحول بينه وبين دعائهم شيء ، وهو ذو غناية بهم وبما يسئلونه منه ، فهو يدعوهم إلى دعائه - وصفته هذه الصفة - فليستجيبوا له في هذه الدعوة ، وليقبلوا إليه ، وليؤمنوا به في هذا النعت ، وليوقنوا بأنه قريب مجيب لعلهم يرشدون في دعائه .

### ﴿ بحث روائي ﴾

عن النبي ﷺ فيما رواه الفريقان : الدعاء سلاح المؤمن وفي عدة الداعي في الحديث القدسي يا موسى سألني كل ما تحتاج إليه حتى علف شاتك وملح عجيناك .

و في المكارم عنه عليه السلام الدعاء أفضل من قراءة القرآن لأن الله عز وجل قال : «قل ما يعبوبكم ربّي لولا دعائكم» . وروي ذلك عن الباقر و الصادق عليهما السلام .  
وفي عدّة الدّاعي في رواية محمد بن عجلان عن محمد بن عبيد الله بن علي بن الحسين عن ابن عمّه الصادق عن آبائه عن النبي صلّى الله عليه وآله قال : أوحى الله إلى بعض أنبيائه في بعض وحيه : وعزّتي وجلالي لا قطعنّ أمل كلّ أمل غيري بالأياس ولا كسونه ثوب المذلّة في الناس ولا بعدنه من فرجي وفضلي ، أي أهلك عبيدي في الشدائد غيري ، والشدائد يسدي و يرجو سوائي وأنا الغنيّ الجواد ، بيدي مفاتيح الأبواب وهي مغلقة ، وبابي مفتوح لمن دعاني الحديث .

وفي عدّة الدّاعي أيضاً عن النبي صلّى الله عليه وآله قال : قال الله : ما من مخلوق يعتصم بمخلوق دوني إلا قطعته أسباب السموات وأسباب الأرض من دونه فإن سألني لم أعطه وإن دعاني لم أجبه ، وما من مخلوق يعتصم بي دون خلقي إلا ضمنت السموات والأرض رزقه . فإن دعاني أجبته وإن سألني أعطيته وإن استغفرني غفرت له .

اقول : وما اشتمل عليه الحديثان هو الإخلاص في الدعاء وليس إبطالاً لسببية الأسباب الوجودية التي جعلها الله تعالى وسائل متوسطة بين الأشياء وبين حوائجها الوجودية لا عللاً فيضاة مستقلة دون الله سبحانه ، ولأنّ انسان شعور باطنيّ بذلك فإنّه يشعر بفطرته أنّ له حاجته سبباً معطياً لا يتخلّف عنه فعله ، ويشعر أيضاً أنّ كلّ ما يتوجّه إليه من الأسباب الظاهرية يمكن أن يتخلّف عنه أثره فهو يشعر بأنّ المبدء الذي يتبدى عنه كلّ أمر ، والركن الذي يعتمد عليه ويركن إليه كلّ حاجة في تحقيقها ووجودها غير هذه الأسباب . ولازم ذلك أن لا يركن الركون التام إلى شيء من هذه الأسباب بحيث ينقطع عن السبب الحقيقيّ ويعتصم بذلك السبب الظاهريّ . والإنسان ينتقل إلى هذه الحقيقة بأدنى توجّه والتفات فإذا سئل أو طلب شيئاً من حوائجه فوقع ما طلبه كشف ذلك أنّه سئل ربّه واتّصل حاجته - التي شعر بها بشعوره الباطنيّ من طريق الأسباب - إلى ربّه فاستفاض منه ، وإذا طلب ذلك من سبب من الأسباب فليس ذلك من شعور فطريّ باطنيّ وإنّما هو أمر صوّره له تخيله لعلّ أوجبت هذا التخيل من غير

شعور باطني بالحاجة ، وهذا من الموارد التي يخالف فيها الباطن الظاهر .  
ونظير ذلك : أن الإنسان كثيراً ما يحب شيئاً ويهتم به حتى إذا وقع وجده ضاراً  
بما هو أنفع منه وأهم وأحب فترك الأول وأخذ بالثاني ، وربما هرب من شيء حتى  
إذا صادفه وجده أنفع وخيراً مما كان يتحفظ به فأخذ الأول وترك الثاني ، فالصبي  
المريض إذا عرض عليه الدواء المرّ امتنع من شربه وأخذ بالبكاء وهو يريد الصحة ،  
فهو بشعوره الباطني الفطري يسأل الصحة فيسأل الدواء وإن كان بلسان قوله أوفعله  
يسأل خلافه ، فللإنسان في حياته نظام بحسب الفهم الفطري والشعور الباطني  
وله نظام آخر بحسب تخيله والنظام الفطري لا يقع فيه خطأ ولا في سيره خبط ، وأما  
النظام التخيلي فكثيراً ما يقع فيه الخطأ والسهو ، وربما سأل الإنسان أو طلب بحسب  
الصورة الخيالية شيئاً ، وهو بهذا السؤال بعينه يسأل شيئاً آخر أو خلافه . فعليهذا ينبغي  
أن يقرر معنى الأحاديث ، وهو اللائح من قول علي عليه السلام فيما سيأتي : أن العطية على  
قدر النية الحديث .

وفي عدة الداعي عن النبي ﷺ : ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة .  
وفي الحديث القدسي : أنا عند ظن عبدي بي ، فلا يظن بي إلا خيراً .  
أقول : وذلك أن الدعاء مع اليأس أو التردد يكشف عن عدم السؤال في الحقيقة  
كما مر . وقد ورد المنع عن الدعاء بما لا يكون .

وفي العدة أيضاً عن النبي ﷺ : إفزعوا إلى الله في حوائجكم ، والنجوا إليه  
في ملماتكم ، وتضرعوا إليه وادعوه ، فإن الدعاء منح العباد ، وما من مؤمن يدعوا الله  
إلا استجاب فيما أن يعجّله له في الدنيا أو يؤجل له في الآخرة ، وإما أن يكفر له  
من ذنوبه بقدر ما دعا ما لم يدع بمأثم .

وفي نهج البلاغة في وصية له عليه السلام لابنه الحسين عليه السلام : ثم جعل في يديك مفاتيح  
خزائنه بما أذن لك فيه من مسئلته فمتى شئت استفتحت بالدعاء أبواب نعمه واستمطرت  
شآبيب رحمته ، فلا يقطنك إبطاء إجابته ، فإن العطية على قدر النية ، وربما أخرت  
عنك الإجابة ليكون ذلك أعظم لأجر السائل ، وأجزل لعطاء الآمل ، وربما سئلت

الشيء فلا تؤتاه وأوتيت خيراً منه عاجلاً أو آجلاً أو صرف عنك لما هو خير لك ، فلبّ أمر قد طلبته فيه هلاك دينك لو أوتيته ، فلتكن مسئلتك فيما يبقى لك جماله ، وينفى عنك وباله ، والمال لا يبقى لك ولا تبقى له .

**أقول :** قوله : فإنَّ العطيّة على قدر النية يريد ﷺ به : أنَّ الاستجابة تطابق الدّعوة فمأسئله السائل منه تعالى على حسب ما عقد عليه حقيقة ضميره وحمله ظهر قلبه هو الذي يؤتاه ، لا ما كشف عنه قوله وأظهره لفظه ، فإنَّ اللفظ ربّما لا يطابق المعنى المطلوب كلَّ المطابقة كما مرَّ بيانه فهي أحسن جملة وأجمع كلمة لبيان الارتباط بين المسئلة والإجابة .

وقد يبيّن ﷺ بها عدّة من الموارد التي يترآى فيها تخلف الاستجابة عن الدّعوة ظاهراً كالإبطاء في الإجابة ، وتبديل المسئول عنه في الدنيا بما هو خير منه في الدنيا ، أو بما هو خير منه في الآخرة ، أو صرفه إلى شيء آخر أصلح منه بحال السائل ، فإنَّ السائل ربّما يسئّل النعمة الهنيئة ولو أوتيتها على الفور لم تكن هنيئة وعلى الرّغبة فتبطل ، إجابتها لأنَّ السائل سأل النعمة الهنيئة فقد سأل الإجابة على بطؤ ، وكذلك المؤمن المهتمّ بأمر دينه لو سأل ما فيه هلاك دينه وهو لا يعلم بذلك ويزعم أنَّ فيه سعادته وإنّما سعادته في آخرته فقد سأل في الحقيقة لآخرته لا دنياه فيستجاب لذلك فيها لا في الدنيا .

وفي عدّة الدّاعي عن الباقر ﷺ ما بسط عبد يده إلى الله عزّ وجلّ إلا استجيب الله أن يردّها صغراً حتّى يجعل فيها من فضله ورحمته ما يشاء ، فإذا دعا أحدكم فلا يردّ يده حتّى يمسح بها على رأسه ووجهه ، وفي خبر آخر على وجهه و صدره .

**أقول :** وقد روي في الدرّ المنثور ما يقرب من هذا المعنى عن عدّة من الصحابة كسلمان وجابر وعبدالله بن عمر وأنس بن مالك وابن أبي مغيث عن النّسبيّ رضي الله عنه في ثمانى روايات ، وفي جميعها رفع اليدين في الدّعاء فلا معنى لا نكار بعضهم رفع اليدين بالدّعاء معللاً بأنّه من التّجسيم إذ رفع اليدين إلى السماء إيماء إلى أنّه تعالى فيها - تعالى عن ذلك وتقدّس - .

وهو قول فاسد ، فإن حقيقة جميع العبادات البدنية هي تنزيل المعنى القلبي والتوجه الباطني إلى موطن الصورة ، وإظهار الحقائق المتعالية عن المادة في قالب التجسم ، كما هو ظاهر في الصلوة والصوم والحج وغير ذلك وأجزائها وشرائعها ، ولولا ذلك لم يستقم أمر العبادة البدنية . ومنها الدعاء ، وهو تمثيل التوجه القلبي والمسئلة الباطنية بمثل السؤال الذي نعهده فيما بيننا من سؤال الفقير المسكين الداني من الغني المتمتذ العالي حيث يرفع يديه بالبسط ، ويسأل حاجته بالذلة والضراعة ، و قد روى الشيخ في المجالس والأخبار مسنداً عن محمد و زيد ابني علي بن الحسين عن أبيهما عن جدّهما الحسين عليه السلام عن النبي . وفي عدة الداعي مرسل أن رسول الله صلى الله عليه وآله كان يرفع يديه إذا ابتهل ودعا كما يستطعم المسكين .

وفي البحار عن علي عليه السلام أنه سمع رجلاً يقول : اللهم إني أعوذ بك من الفتنة . قال عليه السلام : أراك تتعوذ من مالك ولدك ، يقول الله تعالى : «إنما أموالكم وأولادكم فتنة» ولكن قل : اللهم إني أعوذ بك من مضلات الفتن .

أقول : وهذا باب آخر في تشخيص معنى اللفظ وله نظائر في الروايات . وفيها : أن الحق في معنى كل لفظ هو الذي ورد منه في كلامه . ومن هذا الباب ما ورد في الروايات في تفسير معنى الجزء والكثير وغير ذلك .

وفي عدة الداعي عن الصادق عليه السلام : إن الله لا يستجيب دعاء بظهر قلب ساه .

وفي العدة أيضاً عن علي عليه السلام لا يقبل الله دعاء قلب لاه .

أقول : وفي هذا المعنى روايات أخر . والسرفيه عدم تحقق حقيقة الدعاء والمسئلة في السهو واللهو .

وفي دعوات الراوندي : في التوراة يقول الله عز وجل للمعبد : إنك متى ظلمت تدعوني على عبد من عبيدي من أجل أنه ظلمك فلك من عبيدي من يدعوك من أجل أنك ظلمته فإن شئت أحببتك وأحبته فيك ، وإن شئت أخرتكما إلى يوم القيمة .

أقول : وذلك أن من سأل شيئاً لنفسه فقد رضي به و رضي بعين هذا الرضا بكل ما يماثله من جميع الجهات ، فإذا دعا على من ظلمه بالانتقام فقد دعا عليه لأجل ظلمه

فهو راض بالانتقام من الظالم ، وإذا كان هو نفسه ظالماً لغيره فقد دعا على نفسه بعين مادعا لنفسه فإن رضي بالانتقام عن نفسه ولن يرضى أبداً عوقب بما يريد على غيره ، وإن لم يرض بذلك لم يتحقق منه الدعاء حقيقة . قال تعالى : « ويدعو الإنسان بالشّرِّ دعائه بالخير وكان الإنسان عجولاً » الإسراء - ١٧ .

وفي عدة الداعي قال رسول الله ﷺ لأبي ذرٍّ : يا أباذرّ ألا أعلمك كلمات ينفعك الله عز وجل بهن ؟ قلت : بلى يا رسول الله . قال ﷺ : احفظ الله يحفظك الله ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، فقد جرى القلم بما هو كائن إلى يوم القيمة . ولو أن الخلق كلهم جاهدوا على أن ينفعوك بما لم يكتبه الله لك ما قدرُوا عليه .

**أقول :** قوله ﷺ : تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة : يعنى : ادع الله في الرخاء ولا تنسه حتى يستجيب دعائك في الشدة ولا ينساك ، وذلك أن من نسي ربه في الرخاء فقد أذعن باستقلال الأسباب في الرخاء ، ثم إذا دعا ربه في الشدة كان معنى عمله أنه يذعن بالربوبية في حال الشدة وعلى تقديرها ، وليس تعالى على هذه الصفة بل هو رب في كل حال وعلى جميع التقادير ، فهو لم يدع ربه . وقد ورد هذا المعنى في بعض الروايات بلسان آخر . ففي مكالم الأخلاق عن الصادق عليه السلام قال عليه السلام : من تقدّم في الدعاء استجيب له إذا نزل البلاء وقيل : صوت معروف ، ولم يحجب عن السماء ، ومن لم يتقدّم في الدعاء لم يستجب له إذا نزل البلاء وقالت الملائكة : إن ذا الصوت لا نعرفه الحديث ، وهو المستفاد من إطلاق قوله تعالى : نسو الله فنسيهم التوبة - ٦٨ . ولا ينافي هذا ما ورد أن الدعاء لا يرد مع الانقطاع ، فإن مطلق الشدة غير الانقطاع التام .

وقوله ﷺ : وإذا سئلت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله اه إرشاد إلى التعلّق بالله في السّؤال والاستعانة بحسب الحقيقة فإن هذه الأسباب العادية التي بين أيدينا إنما سببها محدودة على ما قدر الله لها من الحد الأعلى ما يترآى من استقلالها في التأثير بل ليس لها إلا الطريقة والوساطة في الإيصال ، والأمر بيد الله تعالى . فإذن

الواجب على العبد أن يتوجه في حوائجه إلى جناب العزة وباب الكبرياء ولا يركن إلى سبب بعد سبب وإن كان أبى الله أن يجري الأمور إلا بأسبابها وهذه دعوة إلى عدم الاعتماد على الأسباب إلا بالله الذي أفاض عليها السببية لأنها هداية إلى إلغاء الأسباب والطلب من غير السبب فهو طمع فيما لا مطمع فيه ، كيف والداعي يريد ما يسأله بالقلب ، ويسأل ما يريده باللسان ويستعين على ذلك بأركان وجوده وكل ذلك أسباب ؟

واعتبر ذلك بالإنسان حيث يفعل ما يفعل بأدواته البدنية فيعطي ما يعطي بيده و يرى ما يرى ببصره ويسمع ما يسمع بأذنه فمن يسأل ربه بإلغاء الأسباب كان كمن سأل الإنسان أن يناوله شيئاً من غير يد أو ينظر إليه من غير عين أو يستمع من غير أذن ، ومن ركن إلى سبب من دون الله سبحانه كان كمن تعلق قلبه بيد الإنسان في إعطائه أو بعينه في نظرها أو بأذنه في سماعها وهو غافل معرض عن الإنسان الفاعل بذلك في الحقيقة فهو غافل مغفل ، وليس ذلك تقييداً للقدره الإلهية الغير المتناهية ولا سلباً للاختيار الواجب ، كما أن الانحصار الذي ذكرناه في الإنسان لا يوجب سلب القدره والاختيار عنه ، لكون التحدد راجعاً بالحقيقة إلى الفعل لا إلى الفاعل إذ من الضروري أن الإنسان قادر على المناولة والرؤية والسمع لكن المناولة لا يكون إلا باليد ، والرؤية والسمع هما الأذان يكونان بالعين والأذن لا مطلقاً ، كذلك الواجب تعالى قادر على الإطلاع غير أن خصوصية الفعل يتوقف على توسط الأسباب ، فزيد مثلاً وهو فعل لله هو الإنسان الذي ولده فلان وفلانة في زمان كذا ومكان كذا وعند وجود شرائط كذا وارتفاع موانع كذا ، لو تخلف واحد من هذه العلل والشرائط لم يكن هو هو ، فهو في إيجادته يتوقف على تحقق جميعها ، والمتوقف هو الفعل دون الفاعل فافهم ذلك .

وقوله ﷻ فقد جرى القلم بـ ما هو كائن إلى يوم القيمة اه تفريع على قوله : وإذا سألت فاسأل الله اه ، من قبيل تعقيب المعلول بالعللة فهو بيان عللة قوله : وإذا سألت اه وسببه ، والمعنى أن الحوادث مكتوبة مقدرة من عند الله تعالى لا تأثير لسبب من الأسباب فيها حقيقة ، فلا تسأل غيره تعالى ولا تستعن بغيره تعالى ، وأما هو تعالى : فسلطاناه دائم وملكه ثابت ومشيتة نافذة وكل يوم هو في شأن ، ولذلك عقب الجملة بقوله : و

لو أن الخلق كلهم جهدوا إلخ .

ومن أخبار الدعاء ما ورد عنهم مستفيضاً إن الدعاء من القدر .

**أقول:** وفيه جواب ما استشكله اليهود وغيرهم على الدعاء : أن الحاجة المدعو لها إما أن تكون مقضية مقدرة أولاً ؛ وهي على الأول واجبة وعلى الثاني ممتنعة ، وعلى أي حال لا معنى لتأثير الدعاء . والجواب : أن فرض تقدير وجود الشيء لا يوجب استغناؤه عن أسباب وجوده ، والدعاء من أسباب وجود الشيء فمع الدعاء يتحقق سبب من أسباب الوجود فيتحقق المسبب عن سببه ، وهذا هو المراد بقولهم : إن الدعاء من القدر . وفي هذا المعنى روايات أخر .

ففي البحار عن النبي ﷺ : لا يردّ القضاء إلا الدعاء ،

وعن الصادق عليه السلام : الدعاء يردّ القضاء بعد ما أبرم إبراهيم .

وعن أبي الحسن موسى عليه السلام : عليكم بالدعاء فإن الدعاء والطلب إلى الله عز وجل يردّ البلاء ، وقد قدر وقضى فلم يبق إلا إيمائه فإذ ادعى الله وسئل صرف البلاء صرفاً .

وعن الصادق عليه السلام : إن الدعاء يردّ القضاء المبرم وقد أبرم إبراهيم فأكثر من الدعاء فإنه مفتاح كل رحمة ونجاح كل حاجة ولا ينال ما عند الله إلا بالدعاء فإنه ليس من باب يكسر قرعه إلا أوشك أن يفتح لصاحبه .

**أقول :** وفيها إشارة إلى الإصرار وهو من معققات الدعاء ، فإن كثرة الإتيان بالقصد يوجب صفائه .

وعن إسماعيل بن همام عن أبي الحسن عليه السلام دعوة العبد سرّاً دعوة واحدة تعدل سبعين دعوة علانية .

**أقول :** وفيها إشارة إلى إخفاء الدعاء وإسراؤه فإنه أحفظ لإخلاص الطلب . وفي المكالم عن الصادق عليه السلام : لا يزال الدعاء محجوباً حتى يصلّي على محمد وآل محمد وعن الصادق عليه السلام أيضاً . من قدم أربعين من المؤمنين ثم دعا استجيب له . وعن الصادق عليه السلام أيضاً - وقد قال له رجل من أصحابه إنني لأجد آيتين في كتاب

الله أطلبهما فلا أجدهما - قال : فقال : وماهما ؟ قلت : ادعوني أستجب لكم فندعوه فلا نرى إجابة . قال أفترى الله أخلف وعده ؟ قلت : لا . قال : فمه ؟ قلت : لا أدري قال : لكنني أخبرك من أطاع الله فيما أمر به ثم دعاه من جهة الدعاء أجابه . قلت : وما جهة الدعاء ؟ قال : تبدء فتحمدهم الله وتمجدهم وتذكر نعمه عليك فتشكره ثم تصلي على محمد وآله ثم تذكر ذنوبك فتقرّب بها ثم تستغفر منها فهذه جهة الدعاء . ثم قال : وما الآية الأخرى ؟ قلت : وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه وأراني أنفق ولا أرى خلفاً قال : أفترى الله أخلف وعده ؟ قلت : لا . قال : فمه ؟ قلت : لا أدري . قال : لو أن أحدكم اكتسب المال من حمله وأنفق في حقه لم ينفق درهماً إلا أخلف الله عليه .

**أقول :** والوجه في هذه الأحاديث الواردة في آداب الدعاء ظاهرة فإنها تقرّب العبد من حقيقة الدعاء والمسئلة .

وفي الدر المنثور عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : إن الله إذا أراد أن يستجيب لعبده أذن له في الدعاء .

وعن ابن عمر أيضاً عنه ﷺ من فتح له منكم باب الدعاء فتحت له أبواب الرحمة . وفي رواية من فتح له في الدعاء منكم فتحت له أبواب الجنة .

**أقول :** وهذه المعنى مروى من طرق أئمة أهل البيت أيضاً : من أعطى الدعاء أعطى الإجابة . ومعناه واضح تمام .

وفي الدر المنثور أيضاً عن معاذ بن جبل عن رسول الله ﷺ لو عرفتم الله حق معرفته لزالتم لدعائكم الجبال .

**أقول :** وذلك أن الجهل بمقام الحق وسلطان الربوبية والركون إلى الأسباب يوجب الإذعان بحقيقة التأثير للأسباب وقصر المعلولات على عللها المعهودة وأسبابها العادية حتى أن الإنسان ربما زال عن الإذعان بحقيقة التأثير للأسباب لكن يبقى الإذعان بتعيين الطرق والوساطة للأسباب المتوسطة فإننا نرى أن الحركة والسير يوجب الاقتراب من المقصد ثم إذا زال منّا الاعتقاد بحقيقة تأثير السير في الاقتراب اعتقدنا بأن السير واسطة والله سبحانه هو المؤثر هناك لكن يبقى الاعتقاد بتعيين الوساطة

وأَنَّهُ لولا السَّيَر لم يكن قرب ولا اقتراب . وبالجمله أَنَّ الْمُسَبِّبَات لا تتخلف عن أسبابها وإن لم يكن للأسباب إِلَّا الوساطة دون التأثير ، وهذا هو الَّذي لا يصدقهُ العلم بمقام الله سبحانه فَإِنَّهُ لا يلائم السَّيَر التامة الإلهية . وهذا التوهم هو الَّذي أوجب أَنَّ نعمة قد استحالة تخلف المسببات عن أسبابها العادية كالثقل والانجذاب عن الجسم ، والقرب عن الحركة ، والشبع عن الأكل ، والرئ عن الشرب ، وهكذا . وقدمر في البحث عن الإعجاز أَنَّ ماموس العليّة والمعلوليّة ، وبعبارة أخرى توسط الأسباب بين الله سبحانه وبين مسبباتها حق لا مناص عنه لكنّه لا يوجب قصر الحوادث على أسبابها العادية بل البحث العقلي النظري ، والكتاب والسنة تثبت أصل التوسط وتبطل الانحصار . نعم اما محالات العقلية لا مطمع فيها .

إذا عرفت هذا علمت : أَنَّ العلم بالله يوجب الإذعان بأنّ ما ليس بمحال ذاتي من كلّ ما تحيله العادة فإنّ الدعاء مستجاب فيه كما أَنَّ العمدة من معجزات الأنبياء راجعة إلى استجابة الدعوة .

وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي يعلمون أَنِّي أقدر أن أعطيهم ما يسألوني .

وفي المجمع ، قال : وروي عن أبي عبد الله عليه السلام أَنَّهُ قال : وليؤمنوا بي أي وليتبعوا ، أَنِّي قادر على إعطائهم ما سألوه لعلمهم يرشدون ، أي لعلمهم يصيبون الحق ، أي يهتدون إليه .



أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ  
لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَى عَنْكُمْ فَالآنَ  
بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ  
الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ  
وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ  
لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٨٧) .

### ﴿بيان﴾

قوله تعالى: أَحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ اهـ الإحلال بمعنى الإجازة ،  
وأصله من الحلّ مقابل العقد . والرفث هو التصريح بما يكنى عنه ممّا يستقبح ذكره ،  
من الألفاظ التي لا يخلو عنها مباشرة النساء ، وقد كنّى به ههنا عن عمل الجماع وهو  
من أدب القرآن الكريم وكذا سائر الألفاظ المستعملة فيه في القرآن كالمباشرة والدخول  
والمسّ واللمس والإتيان والقرب كلّها ألفاظ مستعملة على طريق التكنية ، وكذلك اللفظ  
الوطئ ، والجماع وغيرها المستعملة في غير القرآن ألفاظ كناية وإن أُخرج كثرة الاستعمال  
بعضها عن حدّ الكناية إلى التصريح ، كما أنّ ألفاظ الفرج والغائط بمعناها المعروفة  
اليوم من هذا القبيل ، وتعدية الرفث بإلى لتضمينه معنى الإفضاء على ما قيل .

قوله تعالى : هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ اهـ ، الظاهر من اللباس معناه المعروف  
وهو ما يستربه الإنسان بدنه ، والجملةتان من قبيل الاستعارة فإنّ كلّاً من الزوجين  
يمنع صاحبه عن اتباع الفجور وإشاعته بين أفراد النوع فكان كلّ منهما لصاحبه لباساً

يواري به سوء آتاه ويستتر به عورته .

وهذه استعارة لطيفة ، وتزيد لطفاً بانضمامها إلى قوله : **أَحَلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثَ إِلَى نِسَائِكُمْ** اه فإنَّ الإنسان يستتر عورته عن غيره باللباس وأما نفس اللباس فلا ستر عنه فكذا كلَّ من الزوجين يتَّقَى به صاحبه عن الرفث إلى غيره ، وأما الرفث إليه فلا لأنَّه لباسه المتَّصل بنفسه المباشر له .

**قوله تعالى** : **عَلَّمَ اللَّهُ أَنْتَكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ** أنفسكم فتأب عليكم وعفا عنكم اه ، الاختيان والخيانة بمعنى ، وفيه معنى النقص على ما قيل . وفي قوله : **أَنْتُمْ تَخْتَانُونَ** اه دلالة على معنى الاستمرار ، فتدلُّ الآية على أنَّ هذه الخيانة كانت دائرة مستمرة بين المسلمين منذ شرَّع حكم الصيام فكانوا يعصون الله تعالى سرّاً بالخيانة لأنفسهم ، ولو لم تكن هذه الخيانة منهم معصية لم ينزل التوبة والعفو ، وهما إن لم يكونا صريحين في سبق المعصية لكنَّهما - وخاصة إذا اجتمعا - ظاهران في ذلك .

وعليهذا فالآية دالة على أنَّ حكم الصيام كان قبل نزول الآية حرمة الجماع في ليلة الصيام ، والآية بنزولها شرَّعت الحلَّة ونسخت الحرمة كما ذكره جمع من المفسرين ، ويشعر به أو يدلُّ عليه قوله : **أَحَلَّ لَكُمْ** اه وقوله : **كُنتُمْ تَخْتَانُونَ** اه وقوله : **فَتَأْبَ عَلَيْكُمْ** وعفا عنكم وقوله : **فَلَا تَبَاشَرُوهُنَّ** اه . إذ لولا حرمة سابقة كان حق الكلام أن يقال : **فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ** أن تباشروهنَّ أو ما يؤدِّي هذا المعنى ، وهو ظاهر .

وربما يقال : أنَّ الآية ليست بناسخة لعدم وجود حكم تحريميٍّ في آيات الصوم بالنسبة إلى الجماع أو إلى الأكل والشرب ، بل الظاهر كما يشعر به بعض الروايات المروية من طرق أهل السنة والجماعة : أنَّ المسلمين لما نزل حكم فرض الصوم وسمعوا قوله تعالى : **كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ** كما كتب على الذين من قبلكم الآية فهموا منه التساوي في الأحكام من جميع الجهات ، وقد كانت النصارى كما قيل : **إِنَّمَا يَنْكَحُونَ وَيَأْكُلُونَ وَيَشْرَبُونَ** في أوَّل الليل ثمَّ يمسكون بعد ذلك فأخذ بذلك المسلمون ، غير أنَّ ذلك صعب عليهم ، فكان الشبان منهم لا يكفُّون عن النكاح سرّاً مع كونهم يرونه معصية وخيانة لأنفسهم ، والشيخ ربما أجهدهم الكفُّ عن الأكل والشرب بعد النوم ، وربما

أخذ بعضهم النوم فحرم عليه الأكل والشرب بزعمه فنزلت الآية فبيّنت أن النكاح والأكل والشرب غير محرمة عليهم بالليل في شهر رمضان وظهر بذلك : أن مراد الآية بالتشبيه في قوله تعالى : كما كتب على الذين من قبلكم اه التشبيه في أصل فرض الصوم لا في خصوصياته . وأما قوله تعالى : أحل لكم اه فلا يدل على سبق حكم تحريمي بل على مجرد تحقيق الحليلة كما في قوله تعالى : أحل لكم صيد البحر المائدة - ٩ ، إذ من المعلوم أن صيد البحر لم يكن محرماً على المجرمين قبل نزول الآية ، وكذا قوله تعالى : « علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم اه إنما يعني به أنهم كانوا يخونون بحسب زعمهم و حسبانهم ذلك خيانة ومعصية ، ولذا قال : تختانون أنفسكم ولم يقل : تختانون الله كما قال : « لا تخونوا الله ورسوله وتخونوا أماناتكم » الأنفال - ٢٧ مع احتمال أن يراد بالاختيال النقص . والمعنى علم الله أنكم كنتم تنقصون أنفسكم حظوظها من المشتبهات من نكاح وغيره ، وكذا قوله تعالى : فتاب عليكم

وعفا عنكم اه غير صريح في كون النكاح معصية محرمة هذا

وفيه ما عرفت : أن ذلك خلاف ظاهر الآية فإن قوله تعالى : أحل لكم اه و قوله : كنتم تختانون أنفسكم وقوله : فتاب عليكم وعفا عنكم اه وإن لم تكن صريحة في النسخ غير أن لها كمال الظهور في ذلك ، مضافاً إلى قوله تعالى : فالآن باشروهن الخ إذ لو لم يكن هناك إلا جواز مستمر قبل نزول الآية وبعدها لم يكن لهذا التعبير وجه ظاهر ، وأما عدم اشتغال آيات الصوم السابقة على هذه الآية على حكم التحريم فلا ينافي في كون الآية ناسخة فإنها لم تبيّن سائر أحكام الصوم أيضاً مثل حرمة النكاح والأكل والشرب في نهار الصيام . ومن المعلوم أن رسول الله كان قد بيّنه للمسلمين قبل نزول هذه الآية فلعله كان قد بيّن هذا الحكم فيما بيّنه من الأحكام ، والآية تنسخ ما بيّنه الرسول وإن لم تشتمل كلامه تعالى على ذلك .

فان قلت : قوله تعالى : هن لباس لكم وأنتم لباس لهن اه يدل على سبب تشريع جواز الرّفث فلا بد أن لا يعم الناسخ والمنسوخ لبشاعة أن يغلب الناسخ بما يعم الناسخ والمنسوخ معاً وإن قلنا : إن هذه التعليقات الواقعة في موارد الأحكام حكم ومصالح

لا علة ، ولا يلزم في الحكمة أن تكون جامعة وممانعة كالعلل فلو كان الرّفث محرّماً مقبلاً نزول الآية ثمّ نسخ بالآية المحلّلة لم يصحّ تعليل نسخ التحريم بأنّ الرّجال لباس للنساء وهنّ لباس لهم .

قلت : أولاً إنّه منقوض بتقييد قوله : أحلّ لكم بقوله : ليلة الصيام مع أنّ حكم اللباس جار في النهار كالليل وهو محرّم في النهار ، وثانياً : أنّ القيود المأخوذة في الآية من قوله : ليلة الصيام وقوله : هنّ لباس لكم وقوله : أنكم كنتم تختانون أنفسكم اه تدلّ على علة ثلث مترتبة يترتب عليها الحكم المنسوخ و الناسخ فكون أحد الزّوجين لباساً لآخر يوجب أن يجوز الرّفث بينهما مطلقاً ، ثمّ حكم الصيام المشار إليه بقوله : ليلة الصيام اه . والصيام هو الكفّ والإمساك عن مشتبهات النفس من الأكل والشرب والنكاح يوجب تقييد جواز الرّفث وصرفه إلى غير مورد الصيام ، ثمّ صعوبة كفّ النفس عن النكاح شهراً كاملاً عليهم ووقوعهم في معصية مستمرة وخيانة جارية يوجب تسهلاً ما عليهم بالترخيص في ذلك ليلاً ، وبذلك يعود إطلاق حكم اللباس المقيّد بالصيام إلى بعض إطلاقه وهو أن يعمل به ليلاً ولا نهاراً ، والمعنى - والله أعلم - : أنّ إطلاق حكم اللباس الذي قيّدناه بالصيام ليلاً ونهاراً وحرّمناه عليكم حللناه لكم لما علمنا أنكم تختانون أنفسكم فيه وأردنا التخفيف عنكم رافة ورحمة . وأعدنا إطلاق ذلك الحكم عليه في ليلة الصيام وقصرنا حكم الصيام على النهار فأتّموا الصيام إلى الليل .

والحاصل : أنّ قوله تعالى : هنّ لباس لكم وأنتم لباس لهنّ اه وإن كان علّة أو حكمة لإحلال أصل الرّفث إلّا أنّ الغرض في الآية ليس متوجّهاً إليه بل الغرض فيها بيان حكمة جواز الرّفث ليلة الصيام وهو مجموع قوله : هنّ لباس لكم إلى قوله : وعفا عنكم اه . وهذه الحكمة مقصورة على الحكم الناسخ ولا يعمّ المنسوخ قطعاً .

قوله تعالى : فالآن باشروهنّ وابتغوا ما كتب الله لكم اه أمر واقع بعد

الحضرة فدلّ على الجواز ، وقد سبقه قوله تعالى : في أوّل الآية : أحلّ لكم والمعنى فمن الآن تجوز لكم مباشرتهنّ ، و الابتغاء هو الطلب ، والمراد بابتغاء ما كتب الله هو طلب

الولد الذي كتب الله سبحانه ذلك على النوع الإنساني من طريق المباشرة ، وفطرحهم على طلبه بما أودع فيهم من شهوة النكاح والمباشرة ، وسخرهم بذلك على هذا العمل فهم يطلبون بذلك ما كتب الله لهم وإن لم يقصدوا ظاهراً إلا ركوب الشهوة ونيل اللذة كما أنه تعالى كتب لهم بقاء الحياة والنمو بالأكل والشرب وهو المطلوب الفطري وإن لم يقصدوا بالأكل والشرب إلا الحصول على لذة الذوق والشبع والرى ، فإنما هو تسخير إلهي .

وأما ما قيل : إن المراد بما كتب الله لهم الحل والرخصة فإن الله يحب أن يؤخذ بعزائمه . فيبعد : أن الكتابة في كلامه غير معهودة في مورد الحلبة والرخصة .

**قوله تعالى : وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر اه الفجر فجران ، فجر أول يسمى بالكاذب لبطلانه بعدمكث قليل وبذنب السرحان لمشابهته ذنب الذئب إذا شاله ، وعمود شعاعي يظهر في آخر الليل في ناحية الأفق الشرقي إذا بلغت فاصلة الشمس من دائرة الأفق إلى ثمانية عشر درجة تحت الأفق ، ثم يبطل بالاعتراض فيكون معترضاً مستطيلاً على الأفق كالخيط الأبيض الممدود عليه وهو الفجر الثاني ، ويسمى الفجر الصادق لصدقه فيما يحكيه ويخبر به من قدوم النهار واتصاله بطلوع الشمس .**

ومن هنا يعلم أن المراد بالخيط الأبيض هو الفجر الصادق ، وأن كلمة من بيانية وأن قوله تعالى : حتى يتبين لكم الخيط الأسود من قبيل الاستعارة بتشبيه البياض المعترض على الأفق من الفجر ، المجاور لما يمتد معترضاً معه من سواد الليل بخيط أبيض يتبين من الخيط الأسود .

ومن هنا يعلم أيضاً : أن المراد هو التحديد بأول حين من طلوع الفجر الصادق فإن ارتفاع شعاع بياض النهار يبطل الخيطين فلا خيط أبيض ولا خيط أسود .

**قوله تعالى : ثم أتموا الصيام إلى الليل اه ، لما دل التحديد بالفجر على وجوب الصيام إلى الليل بعد تبيئنه استغنى عن ذكره إشاراً للإيجاز بل تعرض لتحديد به إتمامه إلى الليل ، وفي قوله : أتموا دلالة على أنه واحد بسيط وعبادة واحدة تامة من غير**

أن تكون مركبة من أمور عديدة كل واحد منها عبادة واحدة ، وهذا هو الفرق بين التمام والكمال حيث أن الأول انتهاء وجود ما لا يتألف من أجزاء ذوات آثار والثاني انتهاء وجود ما لكل من أجزائه أثر مستقل وحده . قال تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي » المائدة - ٤ فإن الدين مجموع الصلوة والصوم والحج وغيرها التي لكل منها أثر مستقل به ، بخلاف النعمة على ماسيحي ، بيانه إنشاء الله في الكلام على الآية .

**قوله تعالى : ولا تبashروهن** وأتم عاكفون في المساجد اه العكوف والاعتكاف هو اللزوم والاعتكاف بالمكان الإقامة فيه ملازماً له .

والاعتكاف عبادة خاصة من أحكامها لزوم المسجد وعدم الخروج منه إلا لعذر والصيام معه ، ولذلك صح أن يتوهم جواز مباشرة النساء في ليالي الاعتكاف في المسجد بتشريع جواز الرفث ليلة الصيام فدفع هذا الدخل بقوله تعالى : ولا تبashروهن وأتم عاكفون في المساجد .

**قوله تعالى : تلك حدود الله** فلا تقربوها أصل الحد هو المنع وإليه يرجع جميع استعمالاته واشتقاقاته كحد السيف وحد الفجور وحد الدار والحديد إلى غير ذلك ، والنهي عن القرب من الحدود كناية عن عدم اقترافها والتعدى إليها ، أي لا تقربوا هذه المعاصي التي هي الأكل والشرب والمباشرة أو لا تتعدوا عن هذه الأحكام والحرمت الإلهية التي بينها لكم وهي أحكام الصوم بإضاعتها وترك التقوى فيها .

### ﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير القمي عن الصادق عليه السلام قال : كان الأكل والنكاح محرّمين في شهر رمضان بالليل بعد النوم يعني كل من صلى العشاء ونام ولم يفطر ثم انتبه حرم عليه الإفطار ، وكان النكاح حراماً في الليل والنهار في شهر رمضان ، وكان رجل من أصحاب رسول الله يقال له خوات بن جبير الأنصاري أخو عبدالله بن جبير الأنصاري كان رسول الله وكله بقم الشعب يوم أحد في خمسين من الرماة ففارقه أصحابه وبقي في اثني عشر رجلاً

فقتل على باب الشعب ، وكان أخوه هذا خوات بن جبير شيخاً كبيراً ضعيفاً ، وكان صائماً مع رسول الله في الخندق ، فجاء إلى أهله حين أمسى فقال عندكم طعام ؟ فقالوا : لا تنم حتى نصنع لك طعاماً فأبطأت عليه أهله بالطعام فنام قبل أن يفطر ، فلمّا انتبه قال لأهله : قد حرم على الأكل في هذه الليلة فلمّا أصبح حضر حفر الخندق فأغمر عليه فرآه رسول الله ﷺ فرّق له وكان قوم من الشّبان ينكحون بالليل سرّاً في شهر رمضان فأنزل الله : أحلّ لكم ليلة الصّيام الرّفث إلى نساءكم الآية فأحلّ الله تبارك وتعالى النكاح بالليل من شهر رمضان ، والأكل بعد النوم إلى طلوع الفجر لقوله : حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، قال : هو بياض النهار من سواد الليل .

**اقول :** وقوله : يعنى إلى قوله : وكان رجلاً من كلام الراوي ، وهذا المعنى مروى بروايات أخرى ، رواها الكليني والعميشي وغيرهم ، وفي جميعها أن سبب نزول قوله : وكلوا واشربوا إلخ إنما هو قصة خوات بن جبير الأنصاري وأن سبب نزول قوله : أحلّ لكم إلخ ما كان يفعله الشّبان من المسلمين .

وفي الدر المنثور عن عدّة من أصحاب التفسير والرواية عن البراء بن عازب قال : كان أصحاب النبي ﷺ إذا كان الرجل صائماً فحضر الإفطار فنام قبل أن يفطر لم يأكل ليلته ولا يومه حتى يمسي وإنّ قيس بن صرمة الأنصاري كان صائماً فكان يومه ذاك يعمل في أرضه فلمّا حضر الإفطار أتى امرأته فقال : هل عندك طعام ؟ قالت : لا ولكن انطلق فأطلب لك فغلبته عنه فنام وجاءت امرأته فلمّا رأته نائماً قالت : خيبة لك أنمت ؟ فلمّا انتصف النهار غشي عليه فذكر ذلك للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية أحلّ لكم ليلة الصّيام الرّفث إلى قوله : من الفجر ففرحوا بها فرحاً شديداً .

**اقول :** وروى بطرق آخر القصّة وفي بعضها أبو قيس بن صرمة وفي بعضها صرمة بن مالك الأنصاري على اختلاف ما في القصّة .

وفي الدر المنثور أيضاً : وأخرج ابن جرير وابن المنذر عن ابن عباس : أن المسلمين كانوا في شهر رمضان إذا صلّوا العشاء حرم عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القابلة ،

ثم إن ناساً من المسلمين أصابوا الطعام والنساء في رمضان بعد العشاء، منهم عمر بن الخطاب فشكوا ذلك إلى رسول الله فأُنزل الله أحل لكم ليلة الصيام إلى قوله : فالآن باشروهن يعني أنكحوهن .

اقول : والروايات من طرقهم في هذا المعنى كثيرة وفي أكثرها اسم من عمر ، وهي متحدة في أن حكم النكاح بالليل كحكم الأكل والشرب وأنها جميعاً كانت محللة قبل النوم محرمة بعده ، وظاهر ما أوردناه من الرواية الأولى أن النكاح كان محرماً في شهر رمضان بالليل والنهار جميعاً بخلاف الأكل والشرب فقد كانا محللين في أول الليل قبل النوم محرّمين بعده ، وسياق الآية يساعده فإن النكاح لو كان مثل الأكل والشرب محلاً قبل النوم محرماً بعده كان الواجب في اللفظ أن يقيّد بالغاية كما صنع ذلك بقوله : كلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض إلخ ، وقد قال تعالى : أحل لكم ليلة الصيام الرفث ولم يأت بقيد يدل على الغاية ، وكذا ما شتمل عليه بعض الروايات : أن الخيانة ما كانت تختص بالنكاح بل كانوا يختانون في الأكل والشرب أيضاً لايوافق ما يشعر به سياق الآية من وضع قوله : علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم إلخ قبل قوله : كلوا واشربوا .

و في الدر المنثور أيضاً : أن رسول الله قال : الفجر فجران فأما الذي كُتبه ذنب السرّحان فإنه لا يحل شيئاً ولا يحرمه وأما المستطيل الذي يأخذ الأفق فإنه يحل الصلوة ويحرم الطعام .

اقول : و الروايات في هذا المعنى مستفيضة من طرق العامة والخاصة وكذا الروايات في الاعتكاف وحرمة الجماع فيه .



وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتُدْثُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا  
فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٨)

### ﴿ بيان ﴾

قوله تعالى : ولاتأكلوا أموالكم بينكم بالباطل اه ، المراد بالاكل الأكل الأخذ أو مطلق التصرف مجازاً ، والمصحح لهذا الإطلاق المجازي كون الأكل أقرب الأفعال الطبيعية التي يحتاج الإنسان إلى فعلها وأقدمها فلا إنسان أول ما ينشأ وجوده يدرك حاجته إلى التغذي ثم ينتقل منه إلى غيره من الحوائج الطبيعية كاللباس والمسكن والنكاح ونحو ذلك ، فهو أول تصرف يستشعر به من نفسه ، ولذلك كان تسمية التصرف والأخذ - وخاصة في مورد الأموال - أكلاً لا يختص باللغة العربية بل يعم سائر اللغات .

والمال ما يتعلق به الرغبات من الملك ، كأنه مأخوذ من الميل لكونه ممّا يميل إليه القلب . والبين هو الفصل الذي يضاف إلى شيئين فأزيد . والباطل يقابل الحق الذي هو الأمر الثابت بنحو من الثبوت .

وفي تقييد الحكم ، أعني قوله : ولاتأكلوا أموالكم اه بقوله : بينكم اه دلالة على أن جميع الأموال لجميع الناس وإنما قسمه الله تعالى بينهم تقسيماً حقاً بوضع قوانين عادلة تعدل الملك تعديلاً حقاً يقطع منابت الفساد لا يتعد اه تصرف من متصرف إلا كان باطلاً ، فالآية كالشارحة لإطلاق قوله تعالى : خلق لكم ما في الأرض جميعاً وفي إضافته الأموال إلى الناس إمضاء منه لما استقر عليه بناء المجتمع الإنساني من اعتبار أصل الملك واحترامه في الجملة من لدن استكن هذا النوع على بساط الأرض على ما يذكره النقل والتاريخ ، وقد ذكر هذا الأصل في القرآن بلفظ الملك والمال و

لام المملك و الاستخلاف وغيرها في أزيد من مائة مورد ولا حاجة إلى إيرادها في هذا الموضوع ، وكذا بطريق الاستلزام في آيات تدلّ على تشريع البيع والتجارة و نحوهما في بضعة مواضع كقوله تعالى : « وأحلّ الله البيع » البقرة - ٢٧٥ وقوله تعالى : « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض » النساء - ٢٨ وقوله تعالى : « تجارة تخشون كسادها » التوبة - ٢٥ وغيرها ، والسنة المتواترة تؤيده .

**قوله تعالى :** وتدلّوا بها إلى الحكّام لتأكلوا فريقاً اه ، الإدلاء هو إرسال الدلو في البئر لنزح الماء كُنّي به عن مطلق تقريب المال إلى الحكّام ليحكموا كما يريد الرّاشي ، وهو كناية لطيفة تشير إلى استبطان حكمهم المطلوب بالرشوة الممثل لحال الماء الذي في البئر بالنسبة إلى من يريده . والفريق هو القطعة المفروقة المعزولة من الشيء ، والجملة معطوفة على قوله : تأكلوا : اه فالفعل مجزوم بالنهي ، ويمكن أن يكون الواو بمعنى مع والفعل منصوباً بأن المقدّرة ، والتقدير مع أن تأكلوا فيكون الآية بجملتها كلاماً واحداً مسوقاً لغرض واحد ، وهو النهي عن تصالح الرّاشي والمرتشي على أكل أموال الناس بوضعها بينهما ما تقسيمها لأنفسهما بأخذ الحاكم ما أدلى به منها إليه وأخذ الرّاشي فريقاً آخر منها بالإثم وهما يعلمان أن ذلك باطل غير حقّ .

### ﴿ بحث روائى ﴾

في الكافي عن الصادق عليه السلام في الآية : كانت تقامر الرجل بأهله و ماله فنهاهم الله عن ذلك .

وفي الكافي أيضاً عن أبي بصير قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : قول الله عزّ وجلّ في كتابه : ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلّوا بها إلى الحكّام ، قال : يا أبا بصير إنّ الله عزّ وجلّ قد علم أن في الأُمّة حكّاماً يجورون ، أما إنّه لم يعن حكّام أهل العدل ولكنّه عنى حكّام أهل الجور ، يا أبا محمد لو كان لك على رجل حقّ فدعوته إلى حكّام أهل العدل فأبى عليك إلا أن يرافعك إلى حكّام أهل الجور ليقضوا له لكان ممن يحاكم إلى الطاغوت وهو قول الله عزّ وجلّ : ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا

بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت .  
وفي المجمع قال : روي عن أبي جعفر عليه السلام : يعني بالباطل اليمين الكاذبة يقطع بها  
الأموال .

اقول : وهذه مصاديق والآية مطلقة .

### ﴿ بحث علمي اجتماعي ﴾

كل ما بين أيدينا من الموجودات المكوّنة - ومنها النبات والحيوان والإنسان - فإنه  
يتصرف في الخارج عن دائرة وجوده مما يمكن أن ينتفع به في إبقاء وجوده لحفظ  
وجوده وبقائه ، فلا خبر في الوجود عن موجود غير فعال ، ولا خبر عن فعل يفعل فاعله لا النفع  
يعود إليه ، فهذه أنواع النبات تفعل ما تفعل لينتفع به لبقائها ونشؤها وتوليد مثلها ، وكذلك  
أقسام الحيوان والإنسان تفعل ما تفعل لتنتفع به بوجه ولو انتفاعاً خيالياً أو عقلياً ،  
فهذا مما لا شبهة فيه .

وهذه الفواعل التكوينية تدرك بالغريزة الطبيعية ، والحيوان والإنسان بالشعور  
الغريزي أن التصرف في المادة لرفع الحاجة الطبيعية والانتفاع في حفظ الوجود والبقاء  
لا يتمّ للواحد منها إلا مع الاختصاص بمعنى أن الفعل الواحد لا يقوم بفاعلين ( فهذا  
حاصل الأمر وملاكه ) ولذلك فالفاعل من الإنسان أو ما ندرك ملاك أفعاله فإنه يمنع  
عن المداخلة في أمره والتصرف فيما يريد هو التصرف فيه ، وهذا أصل الاختصاص الذي  
لا يتوقف في اعتباره إنسان ، وهو معنى اللام الذي في قولنا لي هذا ولك ذلك ، ولي أن  
أفعل كذا ولك أن تفعل كذا .

ويشهد به ما نشاهده من تنازع الحيوان فيما حازه من عشب أو كرم أو وكر أو  
ما أصطاده أو وجده ، مما يتغذى به أو ما ألفه من زوج ونحو ذلك ، وما نشاهده من  
تشاجر الأطفال فيما حازوه من غذاء ونحوه حتى الرضيع يشاجر الرضيع على الثدي .  
ثم إن ورود الإنسان في ساحة الاجتماع بحكم فطرته وقضاء غريزته لا يستحكم به  
إلا ما أدركه بأصل الفطرة إجمالاً ، ولا يوجب إلا إصلاح ما كان وضعه أولاً وترتيبه

وتعظيمه في صورة التّوأميس الاجتماعيّة الدائرة، وعند ذلك يتنوّع الاختصاص الإجماليّ المذكور أنواعاً متفرّقة ذوات أسام مختلفة فيسمّى الاختصاص الماليّ بالملك وغيره بالحقّ وغير ذلك .

وهم وإن أمكن أن يختلفوا في تحقّق الملك من جهة أسبابه كالوراثه والبيع والشراء والغصب بقوة السلطان وغير ذلك، أو من جهة الموضوع الذي هو المالك كالأنسان الذي هو بالغ أو صغير أو عاقل أو سفيه أو فرد أو جماعة إلى غير ذلك من الجهات، فيزيدوا في بعض، وينقصوا عن بعض، ويتبتوا لبعض وينفوا عن بعض، لكن أصل الملك في الجملة ممّا لا مناص لهم عن اعتباره، ولذلك نرى أن المخالفين للملك يسلبونه عن الفرد وينقلونه إلى المجتمع أو الدولة الحاكمة عليهم وهم مع ذلك غير قادرين على سلبه عن الفرد من أصله ولن يقدروا على ذلك فالحكم فطريّ، وفي بطلان الفطرة فناء الإنسان .

وسنبحث في ما يتعلّق بهذا الأصل الثابت من حيث أسبابه كاللّجارة والرّبح والإرث والغنيمة والحيازة، ومن حيث الموضوع كالبالغ والصغير وغيرهما في موارد يناسب ذلك إنشاء الله العزيز .





يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْآهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا  
الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأَتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا  
اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (١٨٩) .

### ﴿بيان﴾

قوله تعالى : يسألونك إلى قوله : والحج اه ، الأهلة جمع هلال ويسمى القمر  
هلالاً أوّل الشهر القمري إذا خرج من تحت شعاع الشمس الليلة الأولى والثانية كما  
قيل ، وقال بعضهم الليالي الثلث الأول ، وقال بعضهم حتى يتحجّر ، والتحجّر أن يستدير  
بخطّة دقيقة ، وقال بعضهم : حتّى يهر نوره ظلّمة الليل وذلك في الليلة السابعة ثمّ  
يسمى قمراً ، ويسمى في الرابعة عشر بدرأ ، واسمه العام عند العرب الزبرقان .

و الهلال مأخوذ من استهلّ الصبي إذا بكى عند الولادة أو صاح ، ومن قولهم :  
أهلّ القوم بالحجّ إذا رفعوا أصواتهم بالتلبية ، سمى به لأنّ الناس يهلّون بذكره إذا  
رأوه . والمواقيت جمع ميقات وهو الوقت المضروب للفعل ، ويطلق أيضاً : على المكان  
المعيّن للفعل كميقات أهل الشام وميقات أهل اليمن ، والمراد ههنا الأوّل .

وفي قوله تعالى : يسألونك عن الأهلة اه وإن لم يشرح أنّ السؤال في أمرها  
عماداً أعني حقيقة القمر وسبب تشكّلاتها المختلفة في صور الهلال والقمر والبدر كما  
قيل ، أو عن حقيقة الهلال فقط ، الظاهر بعد ما حاق في أوّل الشهر القمري كما ذكره بعضهم ،  
أو عن غير ذلك .

ولكن إتيان الهلال في السؤال بصورة الجمع حيث قيل : يسألونك عن الأهلة

دليل على أن السؤال لم يكن عن ماهية القمر واختلاف تشكلاته إذ لو كان كذلك لكان الأنسب أن يقال : يستلونك عن القمر لاعت الأهلّة ، وأيضاً لو كان السؤال عن حقيقة الهلال وسبب تشكّله الخاص كان الأنسب أن يقال : يستلونك عن الهلال إذ لا غرض حينئذ يتعلّق بالجمع ، ففي إتيان الأهلّة بصيغة الجمع دلالة على أن السؤال إنما كان عن السبب أو الفائدة في ظهور القمر هلالاً بعد هلال ورسومه الشهور القمرية ، وعبر عن ذلك بالأهلّة لأنها هي المحققة لذلك فأجيب بالفائدة .

ويستفاد ذلك من خصوص الجواب : قل هي مواقيت للناس والحجّ اه فإن المواقيت وهي الأزمان المضروبة للأفعال والأعمال إنما هي الشهور دون الأهلّة التي ليست بأزمنة وإنما هي أشكال وصور في القمر .

وبالجملة قد تحصل أن الغرض في السؤال إنما كان متعلّقاً بشأن الشهور القمرية من حيث السبب أو الفائدة فأجيب ببيان الفائدة وأنها أزمان وأوقات مضروبة للناس في أمور معاشهم ومعادهم فإن الإنسان لا بد له من حيث الخلقة من أن يقدر أفعاله وأعماله التي جميعها من سنخ الحركة بالزمان ، ولازم ذلك أن يتقطع الزمان الممتد الذي ينطبق عليه أمورهم قطعاً صغيراً وكبيراً مثل الليل والنهار واليوم والشهر والفصول والسنين بالعناية الإلهية التي تدبّر أمور خلقه وتهديهم إلى صلاح حيوتهم ، والتقطع الظاهر الذي يستفيد منه العالم والجاهل والبدوي والحضري ويسهل حفظه على الجميع إنما هو تقطيع الأيام بالشهور القمرية التي يدركه كل صحيح الإدراك مستقيم الحواس من الناس دون الشهور الشمسية التي ماتنبّه لشأنها ولم ينل دقيق حسابها الإنسان إلا بعد قرون وأحقاب من بناء حيوته في الأرض وهو مع ذلك ليس في وسع جميع الناس دائماً .

فالشهور القمرية أوقات مضروبة معينة للناس في أمور دينهم ودنياهم وللحجّ خاصة فإنّه أشهر معلومات ، وكأنّ اختصاص الحجّ بالذكر ثانياً تمهيد لما سيذكر في الآيات التالية من اختصاصه ببعض الشهور .

قوله تعالى : وليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها إلى قوله : من أبوابها ،

نبت بالنقل أن جماعة من العرب الجاهلي كانوا إذا أحرموا للحجّ لم يدخلوا بيوتهم عند الحاجة من الباب بل اتخذوا نقباً من ظهورها ودخلوا منه فنهى عن ذلك الإسلام و أمرهم بدخول البيوت من أبوابها ، ونزول الآية يقبل الانطباق على هذا الشأن ، وبذلك يصحّ الاعتماد على ما نقل من شأن نزول الآية على ما سيأتي نقله .

ولولا ذلك لا يمكن أن يقال : إن قوله : وليس البرّ إلى آخره كناية عن النهي عن امتثال الأوامر الإلهية والعمل بالأحكام المشروعة في الدين إلّا على الوجه الذي شرّعت عليه ، فلا يجوز الحجّ في غير أشهره ، ولا الصيام في غير شهر رمضان وهكذا ، وكانت الجملة عليها متمماً لأول الآية ، وكان المعنى : أن هذه الشهور أوقات مضروبة لأعمال شرّعت فيها ولا يجوز التعدي بها عنها إلى غيرها كالْحجّ في غير أشهره ، والصوم في غير شهر رمضان وهكذا فكانت الآية مشتملة على بيان حكم واحد .

وعلى التقدير الأول الذي يؤيده النقل فنفي البرّ عن إتيان البيوت من ظهورها يدلّ على أن العمل المذكور لم يكن ممّا أمضاه الدين وإلّا لم يكن معنى لنفي كونه برّاً ، فإنما كان ذلك عادة سيئة جاهلية فنفي الله تعالى كونه من البرّ ، وأثبت أن البرّ هو التقوى ، وكان الظاهر أن يقال : ولكن البرّ هو التقوى ، وإنما عدل إلى قوله : ولكن البرّ من اتقى إه إشعاراً بأن الكمال إنما هو في الاتصاف بالتقوى وهو المقصود دون المفهوم الخالي كما مرّ نظيره في قوله تعالى : ليس البرّ أن تولّوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البرّ من آمن الآية .

والأمر في قوله تعالى : و أتوا البيوت من أبوابها اه ليس أمراً مولويّاً وإنما هو إرشاد إلى حسن إتيان البيوت من أبوابها لما فيه من الجرى على العادة المألوفة المستحسنة الموافقة للغرض العقلائي في بناء البيوت ووضع الباب مدخلاً ومخرجاً فيها ، فإنّ الكلام واقع موقع الرّدع عن عادة سيئة لاوجه لها إلّا خرق العادة الجارية الموافقة للغرض العقلائي ، فلا يدلّ على أزيد من الهداية إلى طريق الصواب من غير إيجاب ، نعم الدخول من غير الباب بمقصد أنّه من الدين بدعة محرّمة .

قوله تعالى : واتقوا الله لعلكم تفلحون اه . قد عرفت في أول السّورة أن التقوى

من الصفات التي يجمع جميع مراتب الإيمان ومقامات الكمال ، و من المعلوم أن جميع المقامات لا يستوجب الفلاح والسعادة كما يستوجب المقامات الأخيرة التي تنفي عن صاحبها الشرك والضلال وإنما تهدي إلى الفلاح وتبشر بالسعادة ، ولذلك قال تعالى :  
 واتقوا الله لعلكم تفلحون اه فأتى بكلمة الترجي ، ويمكن أن يكون المراد بالتقوى امتثال هذا الأمر الخاص الموجود في الآية وترك ما ذمّه من إتيان البيوت من ظهورها .

### ﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن ابن عباس قال : سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلة فنزلت هذه الآية يسئلونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس يعلمون بها أجل دينهم وعدة نسائهم ووقت حجهم .

أقول : و روي هذا المعنى فيه بطرق أخر عن أبي العالية وقتادة وغيرهما ، و روي أيضاً أن بعضهم سأل النبي ﷺ عن حالات القمر المختلفة فنزلت الآية . وهذا هو الذي ذكرنا آنفاً أنه مخالف لظاهر الآية فلا عبرة به .

وفي الدر المنثور أيضاً : أخرج وكيع والبخاري وابن جرير عن البراء : كانوا إذا أحرموا في الجاهلية دخلوا البيت من ظهره فأنزل الله : و ليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البرّ من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها .

وفي الدر المنثور أيضاً أخرج ابن أبي حاتم والحاكم وصححه عن جابر قال : كانت قريش تدعى الحمس و كانوا يدخلون من الأبواب في الإحرام و كانت الأنصار و سائر العرب لا يدخلون من باب في الإحرام فبينما رسول الله ﷺ في بستان إذ خرج من بابه وخرج معه قطبة ابن عامر الأنصاري فقالوا : يا رسول الله إن قطبة بن عامر رجل فاجر وإنه خرج معك من الباب فقال له : ما حملك على ما فعلت قال : رأيتك فعلته ففعلته كما فعلت قال : إنني رجل أحس قال : فإن دينك فأنزل الله ليس البرّ بأن تأتوا البيوت من ظهورها .

أقول : و قد روي قريباً من هذا المعنى بطرق أخرى ، والحمس جمع أحس

كحمر وأحمر من الحماسة وهي الشدة سميت به قریش لشدة تم في أمر دينهم أو لصلابتهم وشدة بأسهم .

وظاهر الرواية أن رسول الله ﷺ كان قد أمضى قبل الواقعة الدخول من ظهور البيوت لغير قریش ولذا عاتبه بقوله : ما حملك على ما صنعت إلخ . وعليهذا فتكون الآية من الآيات الناسخة ، وهي تنسخ حكماً مشرعاً من غير آية هذا ، لكنك قد عرفت أن الآية تنافيه حيث تقول : ليس البرّ بأن تاتوا أوهاماً الله سبحانه أن يشرع هو أو رسوله بأمره حكماً من الأحكام ثم يذمه أو يقبحه وينسخه بعد ذلك وهو ظاهر . وفي محاسن البرقي عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى : وأتوا البيوت من أبوابها - قال : يعني أن يأتي الأمر من وجهه أي الأمور كان .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام : الأوصياء هم أبواب الله التي منها يؤتى ، ولولا هم ما عرف الله عز وجلّ وبهم احتجّ الله تبارك وتعالى على خلقه .

أقول : الرواية من الجري وبيان لمصاديق الآية بالمعنى الذي فسرت به في الرواية الأولى ، ولا شك أن الآية بحسب المعنى عامة وإن كانت بحسب مورد النزول خاصة ، وقوله عليه السلام ولولا هم ما عرف الله اه يعنى البيان الحق والدعوة التامة الذين معهم ، وله معنى آخر أدقّ لعلنا نشير إليه فيما سيأتي إن شاء الله والروايات في معنى الروايتين كثيرة .





وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَفَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ  
 (١٩٠) وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجَوكُمْ وَالْفِتْنَةُ  
 أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تُقَاتِلُوهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلَوكُمْ فِيهِ فَإِنْ  
 قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ  
 رَحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا  
 عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ (١٩٣) الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ  
 فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا  
 أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ  
 وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ (١٩٥).

### ﴿بيان﴾

سياق الآيات الشريفة يدل على أنها نازلة دفعة واحدة ، وقد سبق الكلام فيها لبيان غرض واحد وهو تشريع القتال لأول مرة مع مشركي مكة فإن فيها تعريضا لإخراجهم من حيث أخرجوا المؤمنين ، والفتنة ، وللقصاص ، والنهي عن مقاتلتهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوا عنده ، وكل ذلك أمور مربوطة بمشركي مكة ، على أنه تعالى قيد القتال بالقتال في قوله : وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم اه وليس معناه الاشتراط أي قاتلوهم إن قاتلوكم وهو ظاهر ، ولا قيد احترازيا . والمعنى قاتلوا الرجال دون النساء والولدان الذين لا يقاتلونكم كما ذكره بعضهم ، إذ لا معنى لقتال من لا يقدر على القتال حتى ينهى عن مقاتلته ويقال : لا تقاتله بل إنما الصحيح النهي عن قتله دون قتاله .

بل الظاهر أن الفعل أعني يقاتلونكم اه للحال والوصف للإشارة ، والمراد به الذين حالهم حال القتال مع المؤمنين وهم مشركوا مكة .

فمساق هذه الآيات مساق قوله تعالى : «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله» الحج - ٤٠ إذن ابتدائي للقتال مع المشركين المقاتلين من غير شرط .

على أن الآيات الخمس جميعاً متعرضة لبيان حكم واحد بحدوده وأطرافه ولوازمه فقوله تعالى : وقاتلوا في سبيل الله اه لأصل الحكم ، وقوله تعالى : لاتعتدوا إلخ تحديد له من حيث الانتظام وقوله تعالى : وقاتلوه إلخ ، تحديد له من حيث التشديد ، وقوله تعالى : ولا تقاتلوه عند المسجد الحرام إلخ تحديد له من حيث المكان ، وقوله تعالى : وقاتلوه حتى لا تكون فتنة إلخ تحديد له من حيث الأمد والزمان ، وقوله تعالى : الشهر الحرام إلخ بيان أن هذا الحكم تشريع للقصاص في القتال والقتل ومعاملة بالمثل معهم ، وقوله تعالى : وأنفقوا اه إيجاب لمقدمته المالية و هو الإنفاق للتجهيز والتجهز ، فيقرب أن يكون نزول مجموع الآيات الخمس لشأن واحد من غير أن ينسخ بعضها بعضاً كما احتمله بعضهم ، ولا أن تكون نازلة في شئون متفرقة كما ذكره آخرون ، بل الغرض منها واحد وهو تشريع القتال مع مشركي مكة الذين كانوا يقاتلون المؤمنين .

**قوله تعالى :** وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم اه القتال محاولة الرجل قتل من يحاول قتله ، وكونه في سبيل الله إنما هو لكون الغرض منه إقامة الدين وإعلاء كلمة التوحيد ، فهو عبادة يقصد بها وجه الله تعالى دون الاستيلاء على أموال الناس وأعراضهم فإنما هو في الإسلام دفاع يحفظ به حق الإنسانية المشروعة عند الفطرة السليمة كما سنبيته ، فإن الدفاع محدود بالذات . والتعدي خروج عن الحد ، ولذلك عقبه بقوله تعالى : ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين اه .

**قوله تعالى :** ولا تعتدوا إلخ ، الاعتداء هو الخروج عن الحد ، يقال عدا واعتدى إذ جاوز حده ، والنهي عن الاعتداء مطلق يراد به كل ما يصدق عليه أنه اعتداء كالقتال

قبل أن يدعى إلى الحق ، والابتداء بالقتال ، وقتل النساء والصبيان ، وعدم الانتهاء العدو ، وغير ذلك مما يبينه السنة النبوية .

**قوله تعالى :** واقتلوهم حيث تقتلهموهم إلى قوله : من القتل اه يقال ثقف ثقافة أى وجد وأدرك فمعنى الآية معنى قوله : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » التوبة - ٦ . والفتنة هو ما يقع به اختبار حال الشئ ، ولذلك يطلق على نفس الامتحان والابتلاء وعلى ما يلازمه غالباً وهو الشدة والعذاب على ما يستعقبه كالضلال والشرك ، وقد استعمل في القرآن الشريف في جميع هذا المعاني ، والمراد به في الآية الشرك بالله ورسوله بالزجر والعذاب كما كان يفعله المشركون بمكة بالمؤمنين بعد هجرة رسول الله ﷺ وقبلها . فاطمئنى شدّ دوا على المشركين بمكة كل التشديد بقتلهم حيث وجدوا حتى ينجرّ ذلك إلى خروجهم من ديارهم وجلائهم من أرضهم كما فعلوا بكم ذلك ، وما فعلوه أشدّ فإنّ ذلك منهم كان فتنة والفتنة أشدّ من القتل لأنّ في القتل انقطاع الحياة الدنيا ، وفي الفتنة انقطاع الحيوتين وانهدام الدارين .

**قوله تعالى :** ولا تقتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقتلوكم فيه إلخ فيه نهى عن القتال عن القتال عند المسجد الحرام حفظاً لحرمة ما حفظوه ، والضّمير في قوله : فيه راجع إلى المكان المدلول عليه بقوله عند المسجد اه .

**قوله تعالى :** فإن انتهوا فإنّ الله غفور رحيم اه ، الانتهاء الامتناع والكف ، والمراد به الانتهاء عن مطلق القتال عند المسجد الحرام دون الانتهاء عن مطلق القتال بطاعة الدين وقبول الإسلام فإنّ ذلك هو المراد بقوله ثانياً : فإن انتهوا فلا عدوان اه وأمّا هذا الانتهاء فهو قيد راجع إلى أقرب الجمل إليه وهو قوله : ولا تقتلوهم عند المسجد اه . وعليهذا فكلّ من الجملتين أعني قوله تعالى : فإن انتهوا فإنّ الله اه وقوله تعالى : فإن انتهوا فلا عدوان اه قيد لما يتصل به من الكلام من غير تكرار .

وفي قوله : فإن الله غفور رحيم اه وضع السبب موضع المسبب إعطاء لعلّ الحكم والمعنى فإن انتهوا فإنّ الله غفور رحيم .

**قوله تعالى :** وقتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله اه تحديد لأمد

القتال كما مرّ ذكره ، والفتنة في لسان هذه الآيات هو الشرك باتخاذ الأصنام كما كان يفعله ويكره عليه المشركون بمكة ، ويدلّ عليه قوله تعالى : ويكون الدين لله . والآية نظيرة لقوله تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة و إن تولّوا فاعلموا أن الله موليكم نعم المولى ونعم النصير » الأنفال - ٤٠ . وفي الآية دلالة على وجوب الدعوة قبل القتال فإن قبلت فلا قتال وإن ردّت فلا ولاية إلاّ لله ونعم المولى ونعم النصير ، ينصر عباده المؤمنين . ومن المعلوم أن القتال إنّما هو ليكون الدّين لله ، ولا معنى لقتال هذا شأنه وغايته إلاّ عن دعوة إلى الدّين الحقّ وهو الدّين الذي يستقرّ على التّوحيد . ويظهر من هذا الذي ذكرناه أن هذه الآية ليست بمنسوخة بقوله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحقّ من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدهم صاغرون » التوبة - ٣٠ بناء على أنّ دينهم لله سبحانه . وذلك أنّ الآية أعني قوله تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة » خاصة بالمشرّكين غير شاملة لأهل الكتاب ، فالمراد بكون الدّين لله سبحانه هو أن لا يعبد الأصنام ويقرّ بالتّوحيد ، وأهل الكتاب مقرون به ، وإن كان ذلك كفراً منهم بالله بحسب الحقيقة كما قال تعالى : إنّهم لا يؤمنون بالله واليوم الآخر ولا يحرمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحقّ ، لكنّ الإسلام قنع منهم بمجرّد التّوحيد ، وإنّما أمر بقتالهم حتى يعطوا الجزية لإعلاء كلمة الحقّ على كلمتهم وإظهار الإسلام على الدّين كلّّه .

**قوله تعالى :** فإن انتهوا فلا عدوان إلاّ على الظالمين اه أى فإن انتهوا عن الفتنة وآمنوا بما آمنتم به فلا تقاتلوهم فلا عدوان إلاّ على الظالمين ، فهو من وضع السبب موضع المسبّب كما مرّ نظيره في قوله تعالى : فإن انتهوا فإنّ الله غفور رحيم الآية . فالآية كقوله تعالى : « فإن تابوا وأقاموا الصلوة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين » التوبة - ١٢ .

**قوله تعالى :** الشّهر الحرام بالشّهر الحرام والحرمات قصاص اه الحرمات جمع حرمة وهي ما يحرم هتكه ويجب تعظيمه ورعاية جانبه ، والحرمات : حرمة الشّهر

الحرام وحرمة الحرم وحرمة المسجد الحرام . والمعنى أنهم لو هتكوا حرمة الشهر الحرام بالقتال فيه ، وقد هتكوا حين صدوا النبي وأصحابه عن الحج عام الحديبية ورموهم بالسهم والحجارة جاز للمؤمنين أن يقتلوهم فيه وليس بهتك ، فإنما يجاهدون في سبيل الله و يمتثلون أمره في إعلاء كلمته ولو هتكوا حرمة الحرم و المسجد الحرام بالقتال فيه وعنده جاز للمؤمنين معاملتهم بالمثل ، فقوله : الشهر الحرام بالشهر الحرام بيان خاص عقّب ببيان عام يشتمل جميع الحرمات ، وأعم من هذا البيان العام قوله تعالى عقبيه : فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم اه فالمعنى أن الله سبحانه إنما شرع القصاص في الشهر الحرام لأنه شرع القصاص في جميع الحرمات وإنما شرع القصاص في الحرمات لأنه شرع جواز الاعتداء بالمثل .

ثم نذهبهم إلى ملازمة طريقة الاحتياط في الاعتداء لأن فيه استعمالا للشدة والبأس والسطوة وسائر القوى الداعية إلى الطغيان والانحراف عن جادة الاعتدال والله سبحانه لا يحب المعتدين ، وهم أحوج إلى محبة الله تعالى وولايته ونصره فقال تعالى : واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين .

وأما أمره تعالى بالاعتداء مع أنه لا يحب المعتدين فإن الاعتداء مذموم إذا لم يكن في مقابلة اعتداء و أما إذا كان في مقابلة الاعتداء فليس إلا تعالى عن ذلّ الهوان وارتقاء عن حضيض الاستعباد والظلم والضميم ، كالتكبر مع المتكبر ، والبحر بالسوء لمن ظلم .

قوله تعالى : وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة اه ، أمر بإففاق المال لإقامة القتال في سبيل الله والكلام في تقييد الإففاق هي هنا بكونه في سبيل الله نظير تقييد القتال في أول الآيات بكونه في سبيل الله ، كما مر . والباء في قوله : بأيديكم زائدة للتأكيد ، والمعنى : ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة كناية عن النهي عن إبطال القوة والاستطاعة والقدرة فإن اليد مظهر لذلك ، وربما يقال : إن الباء للسببية ومفعول لا تلقوا محذوف ، والمعنى : لا تلقوا أنفسكم بأيدي أنفسكم إلى التهلكة . والتهلكة والهلاك واحد وهو مصير الإنسان بحيث لا يدري أين هو ، وهو على وزن تفعلة بضم العين ليس

في اللغة مصدر على هذا الوزن غيره .

والكلام مطلق أريد به النهي عن كل ما يوجب الهلاك من إفراط وتفریط كما أن البخل والإمساك عن إنفاق المال عند القتال يوجب بطلان القوة وذهاب القدرة ، وفيه هلاك العدو بظهور العدو عليهم ، وكما أن التبذير بإنفاق جميع المال يوجب الفقر والمسكنة المؤدبين إلى انحطاط الحياة وبطلان المروءة .

ثم ختم سبحانه الكلام بالإحسان فقال : وأحسنوا إن الله يحب المحسنين اه و ليس المراد بالإحسان الكف عن القتال أو الرأفة في قتل أعداء الدين وما يشبههما بل الإحسان هو الإتيان بالفعل على وجه حسن بالقتال في مورد القتال ، والكف في مورد الكف ، والشدة في مورد الشدة ، والعفو في مورد العفو ، فدفع الظالم بما يستحقه إحسان على الإنسانية باستيفاء حقه المشروع لها ، ودفاع عن الدين المصلح لأنها كما أن الكف عن التجاوز في استيفاء الحق المشروع بما لا ينبغي إحسان آخر . ومعبدة الله سبحانه هو الغرض الأقصى من الدين ، وهو الواجب على كل متدين بالدين أن يجعلها من ربه بالاتباع . قال تعالى : قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله ، آل عمران - ٣١ . وقد بدت الآيات الشريفة - وهي آيات القتال - بالنهي عن الاعتداء وأن الله لا يحب المعتدين وختمت بالأمر بالإحسان وأن الله يحب المحسنين ، وفي ذلك من وجوه الحلاوة ما لا يخفى .

### الجهاد الذي يأمر به القرآن :

كان القرآن يأمر المسلمين بالكف عن القتال والصبر على كل أذى في سبيل الله تعالى كما قال تعالى : « قل يا أيها الكافرون لأعبد ما تعبدون ولأنتم عابدون ما أعبد إلى قوله : لكم دينكم ولي دين » الكافرون - ٦ وقال تعالى : « فاصبر على ما يقولون » المزمل - ١٠ وقال تعالى : « ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلوة وآتوا الزكاة فلمّا كتب عليهم القتال » النساء - ٧٦ و كأن هذه الآية تشير إلى قوله تعالى : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره » إن الله على كل شيء قدير . وأقيموا الصلوة وآتوا الزكاة » البقرة - ١١٠

ثم نزلت آيات القتال فمنها آيات القتال مع مشركي مكة ومن معهم بالخصوص كقوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » الحج - ٤٠ . ومن الممكن أن تكون هذه الآية نزلت في الدفاع الذي أمر به في بدر وغيرها ، وكذا قوله : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما تعملون بصير وإن تولوا فاعلموا أن الله موليككم نعم المولى ونعم النصير » الأنفال - ٤٠ ، وكذا قوله تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » البقرة - ٩٠ .

ومنها آيات القتال مع أهل الكتاب . قال تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » التوبة - ٣٠ .

ومنها آيات القتال مع المشركين عامة ، وهم غير أهل الكتاب كقوله تعالى : فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم « التوبة - ٦ و كقوله تعالى : « قاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة » التوبة - ٢٧ .

ومنها ما يأمر بقتال مطلق الكفار كقوله تعالى : « قاتلوا الذين يلوونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة » التوبة - ١٢٤ .

وجملة الأمر أن القرآن يذكر أن الإسلام ودين التوحيد مبني على أساس الفطرة وهو القيم على إصلاح الإنسانية في حياتها كما قال تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون » الروم - ٣٠ فأقامته والتحفظ عليه أهم حقوق الإنسانية المشروعة كما قال تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » الشورى - ١٣ ثم يذكر أن الدفاع عن هذا الحق الفطري المشروع حق آخر فطري . قال تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع ومساجد يذكر فيها اسم الله

كثيراً و لينصرنَّ الله من ينصره إِنَّ الله لقويّ عزيز» الحجّ - ٤٠ فيسُنَّ أن قيام دين التوحيد على ساقه وحيوة ذكره منوط بالدفاع . ونظيره قوله تعالى: «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض» البقرة - ٢٥١ ، وقال تعالى في ضمن آيات القتال من سورة الأنفال: «ليحقّ الحقّ ويبطل الباطل ولو كره المجرمون» الأنفال - ٢٤ ثم قال تعالى: بعد عدة آيات: «يا أيّها الذين آمنوا استجبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم» الأنفال - ٢٤ فسمّى الجهاد والقتال الذي يدعى له المؤمنون محيياً لهم ، ومعناه أن القتال سواء كان بعنوان الدفاع عن المسلمين أو عن بيضة الإسلام أو كان قتالاً ابتداءً كل ذلك بالحقيقة دفاع عن حقّ الإنسانية في حيوتها ففي الشرك بالله سبحانه هلاك الإنسانية وموت الفطرة ، وفي القتال وهو دفاع عن حقّها إعادة لحيوتها وإحيائها بعد الموت .

ومن هناك يشتت شعور الفطن اللبيب : أنّه ينبغي أن يكون للإسلام حكم دفاعي في تطهير الأرض من لوث مطلق الشرك وإخلاص الإيمان لله سبحانه فإنّ هذا القتال الذي يذكره الآيات المذكورة إنّما هو لإماتة الشرك الظاهر من الوثنيّة ، أولاً علاء كلمة الحقّ على كلمة أهل الكتاب بحملهم على إعطاء الجزية . مع أنّ آية القتال معهم تتضمن أنّهم لا يؤمنون بالله ورسوله ولا يدينون دين الحقّ فهم وإن كانوا على التوحيد لكنّهم مشركون بالحقيقة مستبطنون ذلك . والدفاع عن حقّ الإنسانية الفطريّ يوجب حملهم على الدين الحقّ .

والقرآن وإن لم يشتمل من هذا الحكم على أمر صريح لكنّه يبوح بالوعد بيوم للمؤمنين على أعدائهم لا يتمّ أمره إلّا بنجاح الأمر بهذه المرتبة من القتال ، وهو القتال لإقامة الإخلاص في التوحيد . قال تعالى: «هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون» الصّفّ - ٩ . وأظهر منه قوله تعالى: «ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض لله يرثها عبادي الصّالحون» الأنبياء - ١٠٥ ، وأصرح منه قوله تعالى: «وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصّالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً» النور - ٥٥ فقوله تعالى: يعبدونني

يعني به عبادة الإخلاص بحقيقة الإيمان بقوله تعالى: لا يشر كون بي شيئاً اه ، مع أنه تعالى يعدّ بعض الإيمان شركاً . قال تعالى: «وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون» يوسف - ١٢ فهذا ما وعده تعالى من تصفية الأرض وتخليتها للمؤمنين يوم لا يعبد فيه غير الله حقاً .

وربما يتوهم المتوهم: أن ذلك وعد بنصر إلهي بمصلح غيبي من غير توسّل بالأسباب الظاهرة لكن ينافيه قوله: ليستخلفنهم في الأرض اه فإن الاستخلاف إنما هو بذهاب بعض وإزالة عنهم عن مكانهم ووضع آخرين مقامهم فيه إيماء إلى القتال .

على أن قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا من يردّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أدلة على المؤمنين أعزّة على الكافرين . يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم » المائدة - ٥٧ - على ماسيجي ، في محله - يشير إلى دعوة حقّة ، ونهضة دينيّة ستقع عن أمر إلهي ويؤيد أن هذه الواقعة الموعودة إنما تقع عن دعوة جهاد .

وبما مرّ من البيان يظهر الجواب عما ربّما يورد على الإسلام في تشريعه الجهاد بأنه خروج عن طور النهضات الدينيّة المأثورة عن الأنبياء السالفين فإن دينهم إنما كان يعتمد في سيره وتقديمه على الدّعوة والهداية ، دون الإكراه على الإيمان بالقتال المستتبع للقتل والسبي والغارات ، ولذلك ربّما سمّاه بعضهم كالمبلغين من النصارى بدين السيف والدّم ، وآخرون بدين الإكراه والإكراه !

وذلك أن القرآن يبيّن أن الإسلام مبني على قضاء الفطرة الإنسانيّة التي لا ينبغي أن يرتاب أن كمال الإنسان في حياته هو ما قضت به وحكمت ودعت إليه ، وهي تقضي بأن التوحيد هو الأساس الذي يجب بناء القوانين الفرديّة والاجتماعيّة عليه ، وأن الدفاع عن هذا الأصل بنشره بين الناس وحفظه من الهلاك والفساد حق مشروع للإنسانيّة يجب استيفائه بأي وسيلة ممكنة . وقد روعي في ذلك طريق الاعتدال ، فبدء بالدّعوة المجردة والصبر على الأذى في جنب الله ، ثم الدفاع عن بيضة الإسلام ونفوس

المسلمين وأعراضهم وأموالهم ، ثم القتال الابتدائي الذي هو دفاع عن حق الإنسانية وكلمة التوحيد ولم يبدء بشيء من القتال إلا بعد إتمام الحجّة بالدعوة الحسنة كما جرت عليه السنّة النبويّة . قال تعالى : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن » النحل-١٢٥ . والآية مطلقة . وقال تعالى : « ليهلك من هلك عن بينة ويحيى من حي عن بينة » الأنفال - ٤٣ .

وأما ما ذكره من استلزامه الإكراه عند الغلبة فلا ضير فيه بعد توقف إحياء الإنسانية على تحميل الحق المشروع على عدّة من الأفراد بعد البيان وإقامة الحجّة البالغة عليهم ، وهذه طريقة دائمة بين الملل والدول فإن المتمرد المتخلف عن القوانين المدنيّة يدعى إلى تبعيّةها ثم يحتمل عليه بأيّ وسيلة أمكنت ولو انجر إلى القتال حتّى يطيع وينقاد طوعاً أو كرهاً .

على أنّ الكره إنّما يعيش ويدوم في طبقة واحدة من النسل ، ثمّ التعليم والتربية الدينيّان يصلحان الطبقات الآتية بإنشاء على الدّين الفطريّ وكلمة التوحيد طوعاً . وأما ما ذكره : أنّ ساير الأنبياء جروا على مجرّد الدعوة والهداية فقط فالسّاريخ الموجود من حيوتهم يدلّ على عدم اتّساع نطاقهم بحيث يجوز لهم القيام بالقتال : كنوح وهود وصالح عليهم السّلام فقد كان أحاط بهم القهر والسّلطنة من كلّ جانب ، وكذلك كان عيسى عليه السّلام أيام إقامته بين النّاس واشتغاله بالدعوة وإنّما انتشرت دعوته وقبلت حجّته في زمان طرأ النّسخ على شريعته وكان ذلك أيام طلوع الإسلام .

على أنّ جمعاً من الأنبياء قاتلوا في سبيل الله تعالى كما قصّته التّوراة ، والقرآن يذكر طرفاً منه . قال تعالى : « وكان من بني قاتل معديسيون كثير فمادّهم لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحبّ الصّابرين وما كان قولهم إلا أن قالوا ربّنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبّت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين » آل عمران-٤٧ ، وقال تعالى - يقصّ دعوة موسى قومه إلى قتال العماليقة - : « واذ قال موسى لقومه إلى أن قال : يا قوم ادخلوا الأرض المقدّسة التي كتب الله لكم ولا ترتدّوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين إلى أن قال تعالى : « قالوا يا موسى إنّنا لن ندخلها أبدأ مادّاهوا

فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون « المائدة - ٢٧ وقال تعالى : « ألم تر إلى الملائكة من بني إسرائيل إذ قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكا نقاتل في سبيل الله « البقرة - ٢٤٦ إلى آخر قصة طالوت وجالوت .

وقال تعالى في قصة سليمان وملكة سبا : « ألا تعلموا على « وأتوني مسلمين - إلى أن قال تعالى - : « قال ارجع إليهم فلنأنتنهم بجنود لا قبل لهم بها ولنخرجنهم منها أذلة وهم صاغرون « النمل - ٣٧ . ولم يكن هذا الذي كان يهددهم به بقوله : فلنأنتنهم بجنود لا قبل لهم بها إلخ إلا قتالاً ابتدائياً عن دعوة ابتدائية .

### ﴿ بحث اجتماعي ﴾

لا ريب أن الاجتماع أينما وجد كاجتماع نوع الإنسان و سائر الاجتماعات المختلفة النوعية التي نشاهدها في أنواع من الحيوان فإنما هو مبني على أساس الاحتياج الفطري الموجود فيها الذي يراد به حفظ الوجود والبقاء .

وكما أن الفطرة والجبلة أعطتها حق التصرف في كل ما تنتفع به في حياتها من حفظ الوجود والبقاء كالإنسان يتصرف في الجماد والنسبات والحيوان حتى في الإنسان بأى وسيلة ممكنة فيرى لنفسه حقاً في ذلك وإن زاحم حقوق غيره من الحيوان وكمال غيره من النبات والجماد ، وكأنواع الحيوان في تصرفاتها في غيرها وإذعانها بأن لها حقاً في ذلك كذلك أعطتها حق الدفاع عن حقوقها المشروعة لها بحسب فطرتها إذ كان لا يتم حق التصرف بدون حق الدفاع فالدفاع أروار التزاحم ، والناموس ناموس التنازع في البقاء ، فكل نوع يحفظ وجوده وبقاءه بالشعور والحركة يرى لنفسه حق الدفاع عن حقوقه بالفطرة ، ويدعن بأن ذلك مباح له كما يدعن بإباحة تصرفه المذكور . ويدل على ذلك ما نشاهده في أنواع الحيوان : من أنها تتوسل عند التنازع بأدواتها البدنية الصالحة لأن تستعمل في الدفاع كالقرون والأنياب والمخالب والأظلاف والشوك والمنقار وغير ذلك ، وبعضها الذي لم يتسلح بشيء من هذه الأسلحة الطبيعية القوية تستريح إلى الفرار أو الاستتار أو الخمود كبعض الصيد والسلحفاة وبعض الحشرات ،

وبعضها الذي يقدر على أعمال الحيل والمكائد ربّما أخذ بها في الدفاع كالقرد والدبّ والثعلب وأمثالها .

والإنسان من بين الحيوان مسلّح بالشعور الفكريّ الذي يقدر به على استخدام غيره في سبيل الدفاع كما يقدر عليه في سبيل التصرّف للانتفاع ، وله فطرة كسائر الأنواع ، ولفطرته قضاوة وحكم ، ومن حكمها أنّ للإنسان حقّاً في التصرّف ، وحقّاً في الدفاع عن حقّه الفطريّ ، وهذا الحقّ الذي يدّعي به الإنسان بفطرته هو الذي يبعثه نحو المقاتلة والمقارعة في جميع الموارد التي بهمّ بها فيها في الاجتماع الإنسانيّ دون حكم الاستخدام الذي يحكم به حكماً أو ليّاً فطريّاً فيستخدم به كلّ ما يمكنه أن يستخدمه في طريق منافع الحيويّة فإنّ هذا الحكم معدّل بالاجتماع إذاً إنسان إذا أحسن بحاجته إلى استخدام غيره من بني نوعه ثمّ علم بأنّ سائر الأفراد من نوعه أمثاله في الحاجة اضطرّاً إلى المصالحة والموافقة على التمدّن والعدل الاجتماعيّ بأنّ يخدم غيره بمقدار ما يستخدم غيره حسب ما يزنه الاحتياج بميزانه و يعدّله الاجتماع بتعديله . ومن هنا يعلم : أنّ الإنسان لا يستند في شيء من مقاتلاته إلى حكم الاستخدام والاستعباد المطلق الذي يدّعي به في أوّل أمره فإنّ هذا حكم مطلق نسخه الإنسان بنفسه عند أوّل وروده في الاجتماع واعترف بأنّه لا ينبغي أن يتصرّف في منافع غيره إلاّ بمقدار يؤتّى غيره من منافع نفسه ، بل إنّما يستند في ذلك إلى حقّ الدفاع عن حقوقه في منفعه فيفرض لنفسه حقّاً ثمّ يشاهد تضييعه فينهض إلى الدفاع عنه .

فكلّ قتال دفاع في الحقيقة ، حتّى أنّ الفاتحين من الملوك والمتغلبين من الدّول يفرضون لأنفسهم نوعاً من الحقّ كحقّ الحاكميّة ولياقة التأمّر على غيرهم أو عسرة في المعاش أو مضيق في الأرض أو غير ذلك فيعتدّون بذلك في مهاجمتهم على الناس و سفك الدماء وفساد الأرض وإهلاك الحرث والنّسل .

فقد تبيّن : أنّ الدفاع عن حقوق الإنسانيّة حقّ مشروع فطريّ مباح الاستيفاء للإنسان نعم لمّا كان هذا حقّاً مطلوباً لغيره لأنفسه يجب أن يوازن بما للغير من الأهميّة ، فلا يقدم على الدفاع إلاّ إذا كان ما يفوت الإنسان بالدفاع من المنافع هو دون الحقّ

الضائع المستنقذ في الأهمية الحيويّة، وقد أثبت القرآن أن أهمّ حقوق الإنسانية هو التوحيد والقوانين الدينيّة المبنيّة عليه كما أن عقلاء الاجتماع الإنسانيّ على أن أهمّ حقوقها هو حقّ الحياة تحت القوانين الحاكمة على المجتمع الإنسانيّ التي تحفظ منافع الأفراد في حياتهم .

### ﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع عن ابن عباس في قوله تعالى : وقاتلوا في سبيل الله الآية ، نزلت هذه الآية في صلح الحديبيّة وذلك أن رسول الله لما خرج هو وأصحابه في العام الذي أرادوا فيه العمرة وكانوا ألفاً وأربعمائة فساروا حتّى نزلوا الحديبيّة فصدّهم المشركون عن البيت الحرام فنحروا الهدى بالحديبيّة ثمّ صالحهم المشركون على أن يرجع من عامه ويعود العام القابل ويخلو له مكّة ثلاثة أيّام فيطوف بالبيت و يفعل ما يشاء فرجع إلى المدينة من فوره فلمّا كان العام المقبل تجهّز النبيّ وأصحابه لعمرة القضاء وخافوا أن لا تنفي لهم قريش بذلك وأن يصدّوهم عن البيت الحرام ويقاتلوهم ، وكره رسول الله قتالهم في الشهر الحرام في الحرم فأنزل الله هذه الآية .

أقول: وروي هذا المعنى في الدر المنثور بطرق عن ابن عباس وغيره .

وفي المجمع أيضاً عن الربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : هذه أوّل آية نزلت في القتال فلمّا نزلت كان رسول الله يقاتل من قاتله ويكفّ عمّن كفّ عنه حتّى نزلت : اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم فنسخت هذه الآية .

أقول : وهذا اجتهد منهما وقد عرفت أن الآية غير ناسخة للآية بل هو من

قبيل تعميم الحكم بعد خصوصه .

وفي المجمع في قوله تعالى : واقتلواهم حيث تقتلهم الآية نزلت في سبب رجل من الصحابة قتل رجلاً من الكفار في الشهر الحرام فاعبوا المؤمنين بذلك فيبين الله سبحانه : أن الفتنة في الدين - وهو الشرك - أعظم من قتل المشركين في الشهر الحرام وإن كان غير جائز .

اقول: وقد عرفت: أن ظاهر وحدة السياق في الآيات الشريفة أنها نزلت دفعة واحدة.

وفي الدر المنثور في قوله تعالى: وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة الآية، بطرق عن قتادة، قال: وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة أى شرك ويكون الدين لله. قال: حتى يقال: لا إله إلا الله، عليها قاتل رسول الله ﷺ، وإليها دعا، وذكر لنا: أن النبي ﷺ كان يقول: إن الله أمرني أن أقاتل الناس حتى: يقولوا: لا إله إلا الله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين قال: وإن الظالم الذي أبى أن يقول لا إله إلا الله يقاتل حتى يقول: لا إله إلا الله. اقول: قوله: وإن الظالم من قول قتادة، استفاد ذلك من قول النبي وهي استفادة حسنة. وروي نظير ذلك عن عكرمة.

وفي الدر المنثور أيضاً أخرج البخاري وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عمر: إنه أتاه رجلان في فتنة ابن الزبير فقالا: إن الناس صنعوا وأنت ابن عمر وصاحب النبي ﷺ فما يمنعك أن تخرج؟ قال: يمنعني: أن الله حرّم دم أخي. قالوا: ألم يقل الله: وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة اه؟ قال: قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله وأتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة ويكون الدين لغير الله.

اقول: وقد أخطأ في معنى الفتنة وأخطأ السامعان، وقد مر بيانه، وإنما المورد من مصاديق الفساد في الأرض أو الاقتتال عن بغى ولا يجوز للمؤمنين أن يسكتوا فيه. وفي المجمع في قوله تعالى: وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة الآية، قال: أى شرك، قال: وهو المروي عن أبي عبد الله عليه السلام.

وفي تفسير العياشي في قوله تعالى: الشهر الحرام بالشهر الحرام، عن العلاء بن الفضيل، قال: سئلته عن المشركين أيتدّهم المسلمون بالقتال في الشهر الحرام؟ قال: إذا كان المشركون ابتدّوهم باستحلالهم، رأى المسلمون بما أنّهم يظهرون عليهم فيه، وذلك قوله: الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرّمات قصاص.

وفي الدر المنثور أخرج أحمد وابن جرير والنحاس في ناسخه عن جابر بن عبد الله، قال: لم يكن رسول الله ﷺ يغزو في الشهر الحرام حتى يغزى، ويغزو

فاذا حضره أقام حتى ينسلخ .

وفي الكافي عن معاوية بن عمار قال : سئلت أبا عبد الله عن رجل قتل رجلاً في الحلّ ثم دخل الحرم فقال **لَا يَمُوتُ** لَا يَمُوتُ وَلَا يَطْعَمُ وَلَا يَسْقَى وَلَا يَبَاعُ حَتَّى يَخْرُجَ مِنَ الْحَرَمِ فَيَقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ . قال قلت : فما تقول في رجل قتل في الحرم أوسرق ؟ قال **لَا يَمُوتُ** يَقَامُ عَلَيْهِ الْحَدُّ فِي الْحَرَمِ لِأَنَّهُ لَمْ يَرِ لِلْحَرَمِ حَرَمَةٌ ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ : عَزَّ وَجَلَّ : فَمَنْ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَقَالَ هَذَا هُوَ فِي الْحَرَمِ فَقَالَ لَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ .

وفي الكافي عن الصادق **عَلَيْهِ السَّلَامُ** في قوله تعالى : وَلَا تَلْمِزُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ ، قَالَ : لَوْ أَنَّ رَجُلًا أَنْفَقَ مَا فِي يَدَيْهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا كَانَ أَحْسَنَ وَلَا أَوْفَقَ . أَلَيْسَ اللَّهُ يَقُولُ : وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ يعني المقتصدِينَ ؟ وَرَوَى الصَّدُوقُ عَنْ نَابِتِ بْنِ أَنَسٍ ، قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ : طَاعَةُ السُّلْطَانِ وَاجِبَةٌ ، وَمَنْ تَرَكَ طَاعَةَ السُّلْطَانِ فَقَدْ تَرَكَ طَاعَةَ اللَّهِ وَدَخَلَ فِي نَهْيِهِ يَقُولُ اللَّهُ : وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ .

وفي الدر المنثور بطرق كثيرة عن أسلم أبي عمران ، قَالَ : كُنَّا بِالْقُسْطَنْطِينِيَّةِ ، وَ عَلَى أَهْلِ مِصْرَ عَقَبَةُ بْنُ عَامِرٍ ، وَعَلَى أَهْلِ الشَّامِ فَضَالَةُ بْنُ عُبَيْدٍ فَخَرَجَ صَفٌّ عَظِيمٌ مِنَ الرُّومِ فَصَفَّفْنَا لَهُمْ فَحَمَلَ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى صَفِّ الرُّومِ حَتَّى دَخَلَ فِيهِمْ فَصَاحَ النَّاسُ فَقَالُوا سُبْحَانَ اللَّهِ : يَلْقَى بِيَدَيْهِ إِلَى التَّهْلُكَةِ ، فَقَامَ أَبُو أَيُّوبَ ، صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ فَقَالَ : يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّكُمْ تَتَأَوَّلُونَ هَذِهِ الْآيَةَ هَذَا التَّأْوِيلُ وَإِنَّمَا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِينَا مَعْشَرَ الْأَنْصَارِ ، إِنَّمَا أَعَزَّ اللَّهُ دِينَهُ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ قَالَ بَعْضُنَا لِبَعْضٍ سَرَّادُونَ رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ أَمْوَالَنَا قَدْ ضَاعَتْ وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعَزَّ الْإِسْلَامَ وَكَثُرَ نَاصِرُوهُ فَلَوْ أَقْمَنَّا فِي أَمْوَالِنَا فَأَصْلَحْنَا مَا ضَاعَ فِيهَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى نَبِيِّهِ - يَرُدُّ عَلَيْنَا مَا قَلْنَا - : وَأَنْفَقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ فَكَانَتِ التَّهْلُكَةُ الْإِقَامَةُ فِي الْأَمْوَالِ وَإِصْلَاحُهَا وَتَرْكُنَا الْغَزْوُ .

أَقُولُ : وَاخْتِلَافُ الرُّوَايَاتِ كَمَا تَرَى فِي مَعْنَى الْآيَةِ يُؤَيِّدُ مَا ذَكَرْنَاهُ : أَنَّ الْآيَةَ مُطْلَقَةٌ تَشْمَلُ جَانِبِي الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ فِي الْإِنْفَاقِ جَمِيعاً بَلْ تَعْمُ الْإِنْفَاقَ وَغَيْرَهُ .



وَ اتَّمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ آدَى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسْكَ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ صِيَامَ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَالْعَمَلُ مَا تَعْلَمُونَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١٩٦) الْحَجَّ أَشْهَرُ مَعْلُومَاتٍ فَمَنْ قَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمَهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ (١٩٧) لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الصَّالِينَ (١٩٨) ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٩٩) فَإِذَا قُضِيَتْ مِنْ أَنْسَابِكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَمَالَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ (٢٠٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (٢٠١) أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٢٠٢) وَادْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلِمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٠٣)

### ﴿ بيان ﴾

نزلات الآيات في حجة الوداع، آخر حجة حجتها رسول الله، وفيها تشريع حج التمتع.  
قوله تعالى: وَاَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ، تمام الشيء هو الجزء الذي بانضمامه

إلى سائر أجزاء الشيء يكون الشيء هو هو ويترتب عليه آثاره المطلوبة منه فلا تمام هو ضم تمام الشيء إليه بعد الشروع في بعض أجزائه ، والكمال هو حال أو وصف أو أمر إذا وجد الشيء ترتب عليه من الأثر بعد تمامه ما لا يترتب عليه لولا الكمال ، فانضمام أجزاء الإنسان بعضها إلى بعض هو تمامه ، وكونه إنساناً عالماً أو شجاعاً أو عفيفاً كماله . وربما يستعمل التمام مقام الكمال بالاستعارة بدعوى كون الوصف الزائد على الشيء داخل فيه اهتماماً بأمره وشأنه . والمراد بتمام الحج والعمرة هو المعنى الأول الحقيقي . والدليل عليه قوله تعالى بعده : فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى فإن ذلك تفريع على التمام بمعنى إيصال العمل إلى آخر أجزائه وضمه إلى أجزائه المأتي بها بعد الشروع ولا معنى يصح تفريعه على الإتمام بمعنى الإكمال وهو ظاهر .

والحج هو العمل المعروف بين المسلمين الذي شرّعه إبراهيم الخليل عليه السلام وكان بعده بين العرب ثم أمضاه الله سبحانه لهذه الأمة شريعة باقية إلى يوم القيمة .

ويبتدي هذا العمل بالإحرام والوقوف في العرفات ثم المشعر الحرام ، وفيها التضحية بمنى ورمي الجمرات الثلاث والطواف وصلوته والسعي بين الصفا والمروة ، وفيها أمور مفروضة آخر . وهو على ثلاثة أقسام : حج الأفراد ، وحج القران ، وحج المتمتع الذي شرّعه الله في آخر عهد رسول الله .

والعمرة عمل آخر وهو زيارة البيت بالإحرام من أحد المواقيت والطواف وصلوته والسعي بين الصفا والمروة والتقصير . وهما أعني الحج : والعمرة عبادتان لا يتمان إلا لوجه الله ويدل عليه قوله تعالى : وأتموا الحج والعمرة لله الآية .

قوله تعالى : فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى ولا تحلقوا رؤسكم إلخ ، الإحصار هو الحبس والمنع ، والمراد بالمنوعة عن الإتمام بسبب مرض أو عدو بعد الشروع بالإحرام والاستيسار صيرورة الشيء يسيراً غير عسير كأنه يجلب اليسر لنفسه ، والهدى هو ما يقدمه الإنسان من النعم إلى غيره أو إلى محل للتقرب به ، وأصله من الهدية بمعنى التحفة أو من الهدى بمعنى الهداية التي هي السوق إلى المقصود ، والهدى والهدية كالتمر والتمر . والمراد به ما يسوقه الإنسان للتضحية به في حجه من النعم .

**قوله تعالى :** فمن كان منكم مريضاً أو به أذى من رأسه إله، الفاء للتفريع، و تفريع هذا الحكم على النهي عن حلق الرأس يدلّ على أنّ المراد بالمرض هو خصوص المرض الذي يتضرر فيه من ترك الشعر على الرأس من غير حلق، والإتيان بقوله : أو أذى من رأسه بلفظة أو التريديد يدلّ على أنّ المراد بالأذى ما كان من غير طريق المرض كالهوامّ فهو كناية عن التأذي من الهوامّ كالقمل على الرأس . فهذان الأمران يجوزان الحلق مع الفدية بشئ من الخصال الثلاث: السّي هي الصّيام، والصّدقة ، والنسك . وقد وردت السنّة أنّ الصّيام ثلاثة أيّام وأنّ الصّدقة إطعام ستّة مساكين وأنّ النسك شاة .

**قوله تعالى :** فإذا أمنتم فمن تمتّع بالعمرة إلى الحجّ اه تفريع اه الإحصار ، أي إذا أمنتم المانع من مرض أو عدو أو غير ذلك فمن تمتّع بالعمرة إلى الحجّ، أي تمتّع بسبب العمرة من حيث ختمها والإحلال إلى زمان الإهلال بالحجّ فما استيسر من الهدى . فالباء للسببيّة ، وسببيّة العمرة للتمتّع بما كان لا يجوز له في حال الإحرام كالنساء والصيد ونحوهما من جهة تمامها بالإحلال .

**قوله تعالى :** فما استيسر من الهدى اه ، ظاهر الآية أنّ ذلك نسك ، لا جبران لما فات منه من الإهلال بالحجّ من الميقات فإنّ ذلك أمر يحتاج إلى زيادة مؤنة في فهمه من الآية كما هو ظاهر .

**فان قيل :** إنّ ترتّب قوله : فما استيسر من الهدى اه على قوله : فمن تمتّع ترتّب الجزاء على الشرط مع أنّ اشتمال الشرط على لفظ التمتع مشعر بأن الهدى واقع بإزاء التمتع الذي هو نوع تسهيل شرّع له تخفيفاً فهو جبران لذلك .

**قلت :** يدفعه قوله تعالى : بالعمرة اه فإنّ ذلك يناسب التجويز للتمتّع في أثناء عمل واحد، ولا معنى للتسهيل حيث لا إحرام لتمام العمرة وعدم الإهلال بالحجّ بعد ، على أنّ هذا الاستشعار لو صحّ فإنّما يتمّ به كون تشريع الهدى من أجل تشريع التمتع بالعمرة إلى الحجّ لا كون الهدى جبراناً لما فاتته من الإهلال بالحجّ من الميقات دون مكّة . وظاهر الآية كون قوله : فمن تمتّع بالعمرة إلى الحجّ فما استيسر من الهدى

إخباراً عن تشريع التمتع لا إنشاءً للتشريع فإنه يجعل التمتع مفروضاً عنه ثم يبني عليه تشريع الهدى ، ففرق بين قولنا : من تمتع فعليه هدى وقولنا تمتعوا وسوقوا الهدى . وأما إنشاء تشريع التمتع فإنه يتضمنه قوله تعالى في ذيل الآية : ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام .

**قوله تعالى :** فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحجّ وسبعة إذا رجعتُمْ إياه ، جعل الحجّ ظرفاً للصّيام باعتبار اتّحاده مع زمان الاشتغال به ومكانه ، فالزمان الذي يعدّ زماناً للحجّ ، وهو من زمان إحرام الحجّ إلى الرجوع ، زمان الصّيام ثلاثة أيام ، ولذلك وردت الروايات عن أمّة أهل البيت أن وقت الصّيام قبل يوم الاضحى أو بعد أيام التشريق لمن لم يقدر على الصّيام قبله وإلّا فعند الرجوع إلى وطنه ، وظرف السبعة إنّما هو بعد الرجوع فإنّ ذلك هو الظاهر من قوله : إذا رجعتُمْ إياه ولم يقل حين الرجوع على أن الالتفات من الغيبة إلى الحضور في قوله إذا رجعتُمْ لا يخلو عن إشعار بذلك .

**قوله تعالى :** تلك عشرة كاملة ، أي الثلاثة والسبعة عشرة كاملة وفي جعل السبعة مكملّة للعشرة لا متمّة دلالة على أنّ لكلّ من الثلاثة والسبعة حكماً مستقلاً آخر على ما مرّ من معنى التمام والكمال في أوّل الآية فالثلاثة عمل تامّ في نفسه ، وإنّما توقّف على السبعة في كماليها لا تمامها .

**قوله تعالى :** ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام إياه ، أي الحكم المتقدم ذكره وهو التمتع بالعمرة إلى الحجّ غير الحاضر ، وهو الذي بينه وبين المسجد الحرام أكثر من اثني عشر ميلاً على ما فسّره السنّة ، وأهل الرجل خاصّته : من زوجته وعياله ، والتعبير عن النامي البعيد بأن لا يكون أهله حاضري المسجد الحرام من أطف التّعبيرات ، وفيه إيحاء إلى حكمة التشريع وهو التّخفيف والتسهيل ، فإنّ المسافر من البلاد النائية للحجّ - وهو عمل لا يخلو من الكدّ ومقاساة التعب ووعاء الطريق - لا يخلو عن الحاجة إلى السّكن والراحة ، والإنسان إنّما يسكن ويستريح عند أهله ، وليس للنامي أهل عند المسجد الحرام . فبذلك الله سبحانه بالتمتع بالعمرة إلى الحجّ والإيهال بالحجّ من المسجد الحرام من غير أن يسير ثانياً إلى الميقات .

وقد عرفت : أنَّ الجملة الدالّة على تشريع المتعة إنّما هي هذه الجملة أعني قوله : ذلك لمن لم يكن إلخ دون قوله : فمن تمتّع بالعمرة إلى الحجّ أه ، وهو كلام مطلق غير مقيد بوقت دون وقت ولا شخص دون شخص ولا حال دون حال .

قوله تعالى : واتقوا الله واعلموا أنَّ الله شديد العقاب اه التشديد البالغ في هذا التذليل مع أنَّ صدر الكلام لم يشتمل على أزيد من تشريع حكم في الحجّ ينبيء عن أنَّ المخاطبين كان المترقب من حالهم إنكار الحكم أو التوقف في قبوله كذلك كان الأمر فإنّ الحجّ خاصّة من بين الأحكام المشرّعة في الدين كان موجوداً بينهم من عصر إبراهيم الخليل معروفا عندهم معمولاً به فيهم قد أنسته نفوسهم وألفته قلوبهم وقد أمضاه الإسلام على ما كان تقريباً إلى آخر عهد النبي فلم يكن تغيير وضعه أمراً هيئناً سهل القبول عندهم ولذلك قابله بالإنكار وكان ذلك غير واقع في نفوس كثير منهم على ما يظهر من الروايات ، ولذلك اضطرّ النبي ﷺ إلى أن يخطبهم فيبين لهم أنَّ الحكم لله يحكم ما يشاء ، وأنّه حكم عام لا يستثنى فيه أحد من بني أو أمة فهذا هو الموجب للتشديد الذي في آخر الآية بالأمر بالتقوى والتحذير عن عقاب الله سبحانه .

قوله تعالى : الحجّ أشهر معلومات فمن فرض فيهنّ الحجّ إلى قوله : في الحجّ أه أى زمان الحجّ أشهر معلومات عند القوم وقد يدبته السنّة وهي : شوال وذو القعدة وذو الحجة .

وكون زمان الحجّ من ذي الحجة بعض هذا الشهر دون كلّه لا ينافي عدّه شهراً للحجّ فإنّه من قبيل قولنا : زمان مجيئي إليك يوم الجمعة مع أنَّ المجيء إنّما هو في بعضه دون جميعه .

وفي تكرار لفظ الحجّ ثلاث مرّات في الآية على أنّه من قبيل وضع الظاهر موضع المضمّر لطف الإيجاز فإنّ المراد بالحجّ الأوّل زمان الحجّ وبالحجّ الثاني نفس العمل وبالتّالث زمانه ومكانه ، ولولا الإظهار لم يكن بدّ من إطناب غير لازم كما قيل .

وفرض الحجّ جعله فرضاً على نفسه بالشروع فيه لقوله تعالى : وأتمّوا الحجّ

والعمرة لله الآية ، والرّفث كما مرّ مطلق التصريح بما يكتسب عنه ، والفسوق هو الخروج عن الطاعة ، والجدال المراء في الكلام ، لكن السّنة فسّرت الرّفث بالجماع ، والفسوق بالكذب والجدال بقول لا والله وبلى والله .

**قوله تعالى :** وما تفعلوا من خير يعلمه الله اه تذكره بأنّ الأعمال غير غائبة عنه تعالى ، ودعوة إلى التقوى لثلاً يفقد المشتغل بطاعة الله روح الحضور ومعنى العمل ، وهذا دأب القرآن يبيّن أصول المعارف ويقصّ القصص ويذكر الشرائع ويشفع البيان في جميعها بالعظة والوصيّة لثلاً يفارق العلم بالعمل ، فإنّ العلم من غير عمل لا قيمة له في الإسلام ، ولذلك ختم هذه الدعوة بقوله : واتقوني يا أولي الألباب اه بالعدول من الغيبة إلى التكلم الذي يدلّ على كمال الاهتمام والاقتراب والتعيّن .

**قوله تعالى :** ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم اه ، هو نظير قوله تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع إلى أن قال : « فادّقصيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله » الجمعة ١٠ . فبدل البيع بالابتغاء من فضل الله فهو هو ، ولذلك فسّرت السّنة الابتغاء من الفضل في هذه الآية بالبيع فدلّت الآية على إباحة البيع أثناء الحجّ .

**قوله تعالى :** فادّأفضتكم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام اه ، الإفاضة هي الصّدور عن المكان جماعة فهي تدلّ على وقوف عرفات كما تدلّ على الوقوف بالمشعر الحرام ، وهي المزدلفة .

**قوله تعالى :** واذكروه كما هديكم إلخ أى واذكروه ذكر أيّامائل هدايته إيّاكم وأنتم كنتم من قبل هدايته إيّاكم لمن الضالّين .

**قوله تعالى :** ثمّ أفيضوا من حيث أفاض الناس اه ، ظاهره إيجاب الإفاضة على ما كان من دأب الناس وإلحاق المخاطبين في هذا الشأن بهم فينطبق على ما نقل أنّ قريشاً وحلفائها وهم الحُمس كانوا لا يقفون بعرفات بل بالمزدلفة وكانوا يقولون : نحن أهل حرم الله لا نفارق الحرم فأمرهم الله سبحانه بالإفاضة من حيث أفاض الناس وهو عرفات .

وعليهذا فذكر هذا الحكم بعد قوله : فإذا أفضتم من عرفات اه بتم الدالة على التأخير اعتبار لترتيب الذكرى ، والكلام بمنزلة الاستدراك . والمعنى أن أحكام الحج هي التي ذكرت غير أنه يجب عليكم في الإفاضة أن تفيضوا من عرفات لامن المزدلفة ، وربما قيل : إن في الآيتين تقديماً وتأخيراً في التأليف ، والترتيب : ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس اه فإذا أفضتم من عرفات اه .

**قوله تعالى :** فإذا قضيتُم مناسككم إلى قوله : ذكرأ دعوة إلى ذكر الله والبلاغ فيه بأن يذكره الناس كذكره آبائه أو أشد منه لأن نعمته في حقه وهي نعمة الهداية كما ذكره بقوله تعالى : «واذكروه كما هديكم أعظم من حق آبائه عليه . وقد قيل : إن العرب كانت في الجاهلية إذا فرغت من الحج مكثت حيناً في منى فكانوا يتفاخرون بالآباء بالنظم والنثر فبدله الله تعالى بذكره كذكرهم أو أشد من ذكرهم ، وأوفي قوله أو أشد ذكرأ اه للإضراب فتفيد معنى بل ، وقد وصف الذكر بالشدة وهو أمر يقبل الشدة في الكيفية كما يقبل الكثرة في الكمية . قال تعالى : «واذكروا الله ذكراً كثيراً» الأحزاب - ٤١ وقال تعالى : والذاكرين الله كثيراً الأحزاب - ٣٥ فإن الذكر بحسب الحقيقة ليس مقصوراً في اللفظ ، بل هو أمر يتعلق بالحضور القلبي واللفظ حاك عنه ، فيمكن أن يتصف بالكثرة من حيث الموارد بأن يذكر الله سبحانه في غالب الحالات كما قال تعالى : «الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم» آل عمران - ١٩١ ، وأن يتصف بالشدة في مورد من الموارد ، ولما كان المورد المستفاد من قوله تعالى : فإذا قضيتُم مناسككم موردأ يستوجب التلهي عنه تعالى ونسيانه كان الأنسب توصيف الذكر الذي أمر به فيه بالشدة دون الكثرة كما هو ظاهر .

**قوله تعالى :** فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا إلخ تفريع على قوله تعالى : فاذكروا الله كذكركم آبائكم ، والناس مطلق ، فالمراد به أفراد الإنسان أعم من الكافر الذي لا يذكر إلا آبائه أي لا يبتغي إلا المفاخر الدنيوية ولا يطلب إلا الدنيا ولا شغل له بالآخرة ، ومن المؤمن الذي لا يريد إلا ما عند الله سبحانه ولو أراد من الدنيا شيئاً لم يرد إلا ما ير تضيئه له ربه ، وعليهذا فالمراد بالقول والدعاء ما هو سؤال

بلسان الحال دون المقلال ، ويكون معنى الآية أن من الناس من لا يريد إلا الدنيا و لا نصيب له في الآخرة ومنهم من لا يريد إلا ما يرتضيه له ربه سواء في الدنيا أو في الآخرة ولهؤلاء نصيب في الآخرة .

ومن هنا يظهر : وجه ذكر الحسنه في قول أهل الآخرة دون أهل الدنيا ، وذلك أن من يريد الدنيا لا يقيده بأن يكون حسناً عند الله سبحانه بل الدنيا وما هو يتمتع به في الحيوه الأرضية كلها حسنة عنده موافقة لهوى نفسه ، وهذا بخلاف من يريد ما عند الله سبحانه فإن ما في الدنيا وما في الآخرة ينقسم عنده إلى حسنة وسيئة ولا يريد ولا يستل من ربه إلا الحسنه دون السيئة .

والمقابلة بين قوله : وما له في الآخرة من خلاق اه وقوله أولئك لهم نصيب مما كسبوا اه تعطي أن أعمال الطائفة الأولى باطلة حابطة بخلاف الثانية كما قال تعالى : «وقد منّا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً» الفرقان- ٢٣ وقال تعالى : «ويوم تعرض الّذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمتعتم بها» الأحقاف - ٢٠ وقال تعالى : «فلا نقيم لهم يوم القيمة وزناً» الكهف - ١٠٦

**قوله تعالى :** والله سريع الحساب اه إسم من أسماء الله الحسنی ، وإطلاقه يدل على شموله للدنيا والآخرة معاً ، فالحساب جار ، كلما عمل عبد شيئاً من الحسنات أو غيرها آتاه الله الجزاء جزاءً وفاقاً .

فالمحصل من معنى قوله : فمن الناس من يقول إلى آخر الآيات أن اذكروا الله تعالى فإن الناس على طائفتين : منهم من يريد الدنيا فلا يذكر غيرها ولا نصيب له في الآخرة ، ومنهم من يريد ما عند الله مما يرتضيه له وله نصيب من الآخرة والله سريع الحساب يسرع في حساب ما يريد عبده فيعطيه كما يريد ، فكونوا من أهل النصيب بذكر الله ولا تكونوا ممن لا خلاق له بتركه ذكر ربه فتكونوا قانطين آثمين .

**قوله تعالى :** واذكروا الله في أيام معدودات اه، الأيام المعدودات هي أيام التشريق وهي اليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من ذي الحجة ، والدليل على أن هذه الأيام بعد العشرة من ذي الحجة ذكر الحكم بعد الفراغ عن ذكر أعمال الحج ،

والدليل على كونها ثلاثة أيام قوله تعالى : فمن تعجل في يومين إلخ فإن التعجل في يومين إنما يكون إذا كانت الأيام ثلاثة ، يوم ينفر فيه ، ويومان يتعجل فيهما فهي ثلاثة . وقد فسرت في الروايات بذلك أيضاً .

**قوله تعالى :** فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه و من تأخر فلا إثم عليه لمن اتقى اه ، لاناية للجنس فقوله : لا إثم عليه في الموضعين ينفي جنس الإثم عن الحاج ولم يقيد بشيء أصلاً ، ولو كان المراد لا إثم عليه في التعجل أو في التأخر لكان من اللازم تقييده به ، فالمعنى أن من أتم عمل الحج فهو مغفور لا ذنب له سواء تعجل في يومين أو تأخر . ومن هنا يظهر : أن الآية ليست في مقام بيان التخيير بين التأخر والتعجل للناسك بل المراد بيان كون الذنوب مغفورة للناسك على أي حال .

وأما قوله : لمن اتقى اه فليس بياناً للتعجل والتأخر وإلا لكان حق الكلام أن يقال : على من اتقى ، بل الظاهر أن قوله : لمن اتقى نظير قوله تعالى : ذلك لمن لم يكن أهله حاضري المسجد الحرام الآية . والمراد أن هذا الحكم لمن اتقى وأما من لم يتق فليس له . ومن اللازم أن يكون هذه التقوى تقوى مما نهى الله سبحانه عنه في الحج واختصه به فيؤمل المعنى أن الحكم إنما هو لمن اتقى ترك الإحرام أو بعضها أما من لم يتق فيجب أن يقيم بمنى ويذكر الله في أيام معدودات ، وقد ورد هذا المعنى في بعض ما روي عن أئمة أهل البيت كما سيأتي إنشاء الله .

**قوله تعالى :** واتقوا الله واعلموا أنكم إليه تحشرون اه ، أمر بالتقوى في خاتمة الكلام و تذكير بالحشر و البعث فإن التقوى لا تتم والمعصية لا تجتنب إلا مع ذكر يوم الجزاء . قال تعالى : « إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » ص - ٢٦ .

وفي اختيار لفظ الحشر في قوله تعالى : أنكم إليه تحشرون اه مع ما في نسك الحج من حشر الناس وجمعهم لطف ظاهر ، وإشعار بأن الناسك ينبغي أن يذكر بهذا الجمع والإفاضة يوماً يحشر الله سبحانه الناس لا يغادر منهم أحداً .

## ﴿ بحث روائي ﴾

في التهذيب وتفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : وأتموا الحج والعمرة لله ، قال : هما مفرضان .

وفي تفسير العياشي عن زرارة وحران ومحمد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام قالوا : سألهما عن قوله : وأتموا الحج والعمرة لله . قالا : فإن تُمَامَ الحج أن لا يرفث ولا يفسق ولا يجادل .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في حديث قال : يعني بتمامهما أدائهما ، واتقيا ما يتقي المحرم فيهما .

اقول : والروايات غير منافية لما قد مناه من معنى الإتمام فإن فرضهما وأدائهما هو إتمامهما .

وفي الكافي عن الحلبي عن الصادق عليه السلام قال : إن رسول الله صلى الله عليه وآله حين حج حجة الإسلام خرج في أربع بقين من ذي القعدة حتى أتى الشجرة و صلى بها ثم قاد راحلته حتى أتى البيداء فأحرم منها وأهل بالحج وساق مائة بدنة وأحرم الناس كلهم بالحج لا ينوون عمرة ولا يدرون ما المتعة ، حتى إذا قدم رسول الله صلى الله عليه وآله مكة طاف بالبيت وطاف الناس معه ثم صلى ركعتين عند المقام واستلم الحجر ثم قال : أبدء بما بدء الله عز وجل به فأتى الصفا فبدء بهائم طاف بين الصفا والمروة سبعاً ، فلما قضى طوافه عند المروة قام خطيباً وأمرهم أن يحلوا ويجعلوها عمرة ، وهو شبي ، أمر الله عز وجل به فأحل الناس ، وقال رسول الله : لو كنت استقبلت من أمري ما استدبرت لفعلت كما أمرتكم ، ولم يكن يستطيع من أجل الهدى الذي معه . إن الله عز وجل يقول : ولا تحلقوا رؤسكم حتى يبلغ الهدى محله ، قال سراق بن جعثم الكناني : علمنا ديننا كنا نلّا خلقنا اليوم ، رأيت هذا الذي أمر تنابه لعامنا أو لكل عام ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : لا بل للأبد ، وإن رجلاً قام فقال : يا رسول الله نخرج حجاً جاً ورؤسنا تقطر من نساءنا ؟

فقال رسول الله ﷺ : إنك لن تؤمن بها أبداً ، قال . ﷺ : وأقبل عليّ ﷺ من اليمن حتى وافى الحج فوجد فاطمة قد أحلت ووجد ريح الطيب فانطلق إلى رسول الله ﷺ مستفتياً فقال رسول الله ﷺ : يا عليّ بأيّ شيء أهلت ؟ فقال : بمأهلّ به النبيّ . فقال : لا تحلّ أنت فأشركه في الهدى وجعل له سبعاً وثلثين ونحر رسول الله ﷺ ثلثاً وستين فنحرها بيده ثم أخذ من كلّ بدنة بضعة فجعلها في قدر واحد ثم أمر به فطبخ فأكل منه وحصا من المرق وقال ﷺ : قد أكلنا الآن منه جميعاً والمتعة خير من القارن السائق وخير من الحاج المفرد . قال : وسئلته : ليلاً أحرم رسول الله ﷺ أم نهاراً ؟ فقال : نهاراً ، فقلت : أيّ ساعة ؟ قال : صلوة الظهر .

اقول : وقد روي هذا المعنى في المجمع وغيره .

وفي التّهذيب عن الصادق ﷺ قال : دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيمة فمن تمتع بالعمرة إلى الحجّ فما استيسر من الهدى فليس لأحد إلا أن يتمتع لأنّ الله أنزل ذلك في كتابه وجرت به السنّة من رسول الله ﷺ .

وفي الكافي عن الصادق ﷺ في قوله تعالى : فما استيسر من الهدى شاة . وفي الكافي أيضاً عن الصادق ﷺ في الامتناع لا يجدا الشاة ، قال : يصوم قبل التّروية بيوم التّروية ويوم عرفة . قيل : فإنّه قد قدم يوم التّروية ؟ قال : يصوم ثلاثة أيام بعد التشريق ، قيل : لم يقر عليه جماله ؟ قال : يصوم يوم الحصة وبعده يومين . قيل : وما الحصة ؟ قال يوم نقره . قيل : يصوم وهو مسافر ؟ قال : نعم أليس هو يوم عرفة مسافراً ؟ إنّنا أهل بيت نقول بذلك . يقول الله تعالى : فصيام ثلاثة أيام في الحجّ ، يقول : في ذي الحجة .

وروي الشيخ عن الصادق ﷺ قال : مادون المواقيت إلى مكّة فهو حاضري المسجد الحرام ، وليس له متعة .

اقول : يعني أنّ مادون المواقيت فساكنه يصدق عليه أنّه من حاضري المسجد الحرام وليس له متعة ، والروايات في هذه المعاني كثيرة من طرق أئمة أهل البيت . وفي الكافي عن الباقر ﷺ في قوله تعالى : الحجّ أشهر معلومات اه ، قال : الحجّ

أشهر معلومات شوال وذو القعدة وذو الحجة ليس لأحد أن يحجّ فيما سواهن .  
وفيه عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : فمن فرض فيهنّ الحجّ ، الفرض التلبية والإشعار والتقليد فأى ذلك فعل فقد فرض الحجّ .

وفي الكافي عنه عليه السلام في قوله تعالى : فلا رقت إلخ ، الرقت الجماع ، والفسوق الكذب والسباب ، والجدال قول الرّجل : لا والله وبلى والله .

وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : لاجنّاح عليكم أن تبغوا فضلاً من ربكم الآية يعني الرزق فإذا أهل الرّجل من إحرامه وقضى فليشترو لبيع في الموسم .

اقول : ويقال : إنهم كانوا يتأتمون بالتجارة في الحجّ فرفع الله ذلك بالآية .  
وفي المجمع ، وقيل : معناه لاجنّاح عليكم أن تطلبوا المغفرة من ربكم ، رواه جابر عن أبي جعفر عليه السلام .

اقول : وفيه تمسك بإطلاق الفضل وتطبيقه بأفضل الأفراد .

وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس الآية ، قال : إن أهل الحرم كانوا يقفون على المشعر الحرام ويقف الناس بعرفة ولا يفيضون حتّى يطلع عليهم أهل عرفة ، وكان رجل يكنى أباسياد وكان له حمار فاره وكان يسبق أهل عرفة . فإذا طلع عليهم قالوا : هذا أبو سيّار ثم أفاضوا فأمرهم الله أن يقفوا بعرفة وأن يفيضوا منه .

اقول : وفي هذا المعنى روايات أخر .

وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : ربنا آتنا في الدنيا حسنة والآخرة حسنة ، قال : رضوان الله والجنة في الآخرة ، والسعة في الرزق وحسن الخلق في الدنيا .

وعنه عليه السلام قال : رضوان الله والتوسعة في المعيشة وحسن الصحبة ، وفي الآخرة الجنة .

وعن عليّ عليه السلام في الدنيا المرمة الصالحة، وفي الآخرة الحوراء . وعذاب النار امرئة السوء .

**أقول :** والروايات من قبيل عدد المصدق والآية مطلقة، ولما كان رضوان الله تعالى مما يمكن حصوله في الدنيا وظهوره التام في الآخرة صح أن يعد من حسنات الدنيا كما في الرواية الأولى أو الآخرة كما في الرواية الثانية :

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : واذكروا الله في أيام معدودات الآية، قال : وهي أيام التشريق ، وكانوا إذا أقاموا بعني بعد النحر تفاخروا فقال : الرجل منهم كان أبي يفعل كذا وكذا فقال الله جلّ شأنه : فإذا قضيت مناسككم فاذكروا الله كذا كرم آبائكم أو أشد ذكراً ، قال : والتكبير : الله اكبر . الله اكبر . لا إله إلا الله والله اكبر والله الحمد . الله اكبر على ما هدانا . الله اكبر على ما رزقنا من بهيمة الأنعام .

وفيه عنه عليه السلام قال : والتكبير في أيام التشريق من صلوة الظهر يوم النحر إلى صلوة الفجر من اليوم الثالث ، وفي الأمصار يكبر عقيب عشر صلوات .

وفي الفقيه في قوله تعالى : فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه الآية، سئل الصادق عليه السلام في هذه الآية فقال : ليس هو على أن ذلك واسع إن شاء صنع ذا ، لكنّه يرجع مغفوراً له لا ذنب له .

وفي تفسير العياشي عنه عليه السلام قال يرجع مغفوراً له لا ذنب له لمن اتقى . وفي الفقيه عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : لمن اتقى الآية ، قال : يتقى الصيد حتى ينفر أهل منى .

وعن الباقر عليه السلام لمن اتقى الرفث والفسوق والجدال وما حرّم الله في إحرامه . وعنه أيضاً : لمن اتقى الله عز وجلّ .

وعن الصادق عليه السلام : لمن اتقى الكبار .

**أقول :** قد عرفت ما يدلّ عليه الآية ، ويمكن التمسك بعموم التقوى كما في الروايتين الأخيرتين .

## ﴿ بحث روائى آخر ﴾

في الدر المنثور أخرج البخاري والبيهقي عن ابن عباس أنه سئل عن متعة الحج فقال أهل المهاجرون والأنصار وأزواج النبي ﷺ في حجة الوداع وأهلنا فلما قدمنا مكة قال رسول الله ﷺ : أجعلوا إهلالكم بالحج عمرة إلا من قلدا الهدى فطفنا بالبيت وبالصفاء والمروة وأتيننا النساء ولبسنا الثياب ، وقال : من قلدا الهدى فإنه لا يحل حتى يبلغ الهدى ثم أمرنا عشية التروية أن نهل بالحج ، فإذا فرغنا من المناسك جئنا فطفنا بالبيت وبالصفاء والمروة وقد تم حجنا وعلينا الهدى كما قال الله : فما استيسر من الهدى فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجعت إلى أمصاركم والشاة تجزي فجمعوا نسكين في عام بين الحج والعمرة فإن الله أنزله في كتابه وسنه نبيه وأباحه للناس غير أهل مكة . قال الله تعالى : ذلك لمن يكن أهله حاضري المسجد الحرام . وأشهر الحج التي ذكر الله : شوال وذو القعدة وذو الحجة ، فمن تمتع في هذه الأشهر فعليه دم أو صوم ، والرث الجماع ، والفسوق المعاصي ، والجidal المرء .

وفي الدر المنثور أيضاً أخرج البخاري والمسلم عن ابن عمر ، قال : تمتع رسول الله في حجة الوداع بالعمرة إلى الحج وأهدى فساق معه الهدى من ذي الحليفة ، و بدء رسول الله فأهل بالعمرة ثم أهل بالحج فتمتع الناس مع النبي ﷺ بالعمرة إلى الحج فكان من الناس من أهدى فساق الهدى ومنهم من لم يهد ، فلما قدم النبي ﷺ مكة قال للناس : من كان منكم أهدى فإنه لا يحل شيء حرّم منه حتى يقضي حجه ومن لم يكن أهدى فليطف بالبيت ، وبالصفاء والمروة وليقصر وليحل ثم ليهد بالحج فمن لم يجد هدياً فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله .

وفي الدر المنثور أيضاً أخرج الحاكم وصححه من طريق مجاهد وعطاء عن جابر : قال : كثرت القالة من الناس فخرجنا حججاً حتى إذا لم يكن بيننا وبين أن نهل إلا ليال قلائل أمرنا بالاحلال . قلنا : أيروح أحدنا إلى عرفة وفرجه يقطر منياً ؟ فبلغ ذلك رسول

الله فقام خطيباً فقال : أيا الله تعلمون أيها الناس ؟ فأنا والله أعلمكم بالله وأتقاكم له و لو استقبلت من أمري ما استدبرت ماسقت هدياً و لحللت كما أحلوا ، فمن لم يكن معه هدى فليصم ثلثة أيام في الحجّ وسبعة إذا رجع إلى أهله ، ومن وجد هدياً فلينحر فكنا ننحر الجزور عن سبعة . قال عطاء : قال ابن عباس : إنّ رسول الله ﷺ قسم يومئذ في أصحابه غنماً فأصاب سعد بن أبي وقاص تيس فذبحه عن نفسه .

وفي الدر المنثور أيضاً أخرج ابن أبي شيبة والبخاريّ والمسلم عن عمران بن حصين قال : نزلت آية المتعة في كتاب الله وفعلناها مع رسول الله ﷺ ثم لم ينزل آية متعة الحجّ ولم ينه عنها حتى مات . قال رجل برأيه ما شاء .

أقول : وقدرت الرواية بالفاظ أخرى قريبة المعنى مما نقله في الدر المنثور . وفي صحيح مسلم ومسنده أحمد وسنن النسائيّ عن مطرف ، قال : بعث إلى عمران بن حصين في مرضه الذي توفي فيه فقال : إني كنت محدّثك بأحاديث لعلّ الله أن ينفعك بها بعدي فإن عشت فاكتبم عليّ وإن مت فحدّث بها عنيّ إني قد سلم عليّ و أعلم أنّ نبيّ الله ﷺ قد جمع بين حجّ وعمره ثم لم ينزل فيها كتاب الله ولم ينه عنه نبيّ الله ، قال رجل فيها برأيه ما شاء .

وفي صحيح الترمذيّ أيضاً وزاد المعاد لابن القيم سئل عبد الله بن عمر عن متعة الحجّ . قال : هي حلال فقال له السائل : إنّ أباك قد نهى عنها فقال : رأيت إنّ كان أبي نهى وصنعها رسول الله ﷺ أم أمر أبي تتبع أم أمر رسول الله ﷺ ؟ فقال الرجل : بل أمر رسول الله ﷺ فقال : لقد صنعها رسول الله ﷺ .

وفي صحيح الترمذيّ وسنن النسائيّ وسنن البيهقيّ وموطأ مالك وكتاب الأمّ للشافعيّ عن محمد بن عبد الله أنّه سمع سعد بن أبي وقاص والضحاك بن قيس عام حجّ معاوية بن أبي سفيان وهما يذكران التمتع بالعمره إلى الحجّ فقال : الضحاك لا يصنع ذلك إلّا من جهل أمر الله . فقال سعد بمسماقلت يا بن أخي . قال الضحاك : فإنّ عمر بن الخطّاب نهى عن ذلك . قال سعد : قد صنعها رسول الله ﷺ وصنعناها معه .

وفي الدر المنثور أخرج البخاريّ ومسلم والنسائيّ عن أبي موسى ، قال : قدمت

على رسول الله ﷺ وهو بالبطحاء فقال ﷺ: أهملت؟ قلت: أهملت بإهلال النبي ﷺ. قال: هل سقت من هدى؟ قلت: لا. قال: طف بالبيت وبالصفاء والمروة ثم حل فطفت بالبيت، وبالصفاء والمروة ثم أتيت امرأة من قومي فمشطتني رأسي وغسلت رأسي فكنت أفتي الناس في أمارة أبي بكر و أمارة عمر فأنتي لقائم بالموسم إذ جاني رجل فقال: إنك لا تدري ما أحدث أمير المؤمنين في شأن النسك فقلت: أيها الناس من كنّا أفتيناه بشيئ فليستد فهذا أمير المؤمنين قادم عليكم فيه فاتموا فلما قدم قلت: ماذا الذي أحدث في شأن النسك؟ قال: أن نأخذ بكتاب الله فإن الله قال: وأتموا الحج والعمرة لله، وأن نأخذ بسنة نبينا ﷺ لم يحل حتى نحر الهدى.

وفي الدر المنثور أيضاً أخرج مسلم عن أبي نضرة، قال: كان ابن عباس يأمر بالمتعة وكان ابن الزبير ينهى عنها فذكر ذلك لجابر بن عبد الله فقال على يدي دار الحديث تمتعنا مع رسول الله ﷺ فلما قام عمر قال: إن الله كان يحل لرسول الله ما شاء مما شاء وإن القرآن نزل منزله فاتموا الحج والعمرة كما أمركم الله وأفصلوا حجكم من عمرتكم فإنه أتم لحجكم وأتم لعمرتكم.

وفي مسند أحمد عن أبي موسى أن عمر قال: هي سنة رسول الله ﷺ يعني المتعة ولكنني أخشى أن يعرّسوا بهن تحت الأراك ثم يروحوا بهن حجاً جاً.

وفي جمع الجوامع للسيوطي عن سعيد بن المسيّب أن عمر بن الخطاب نهى عن المتعة في أشهر الحج وقال: فعلتها مع رسول الله ﷺ وأنا أنهى عنها وذلك أن أحدكم يأتي من أفاق من الآفاق شعناً نصباً معتمراً في أشهر الحج وإنما شعته ونصبه وتلييته في عمرته ثم يقدم فيطوف بالبيت ويحل ويلبس ويتطيب ويقع على أهله إن كانوا معه حتى إذا كان يوم التروية أهل بالحج وخرج إلى منى يلبي بحجة لاشعت فيها ولا نصب ولا تلبية إلا يوماً والحج أفضل من العمرة، لو خَلينا بينهم وبين هذا لعانقوهن تحت الأراك مع أن أهل البيت ليس لهم ضرع ولا زرع وإنما يبيعهم فيمن يطرء عليهم.

وفي سنن البيهقي عن مسلم عن أبي نضرة عن جابر، قال: قلت: إن ابن الزبير ينهى عن المتعة وابن عباس يأمر به. قال: على يدي جرى الحديث، تمتعنا مع رسول

الله ﷻ ومعني أبي بكر فلمّا وليّ عمر خطب الناس فقال : إنّ رسول الله ﷺ هذا الرّسول والقرآن هذا القرآن وإنّهما كانتا متعتين على عهد رسول الله ﷺ وأنا أنهى عنهما وأعاقب عليهما أحديهما متعة النساء ولا أقدر على رجل تزوّج امرأة إلى أجل إلّا غيبته بالحجارة والأخرى متعة الحجّ .

وفي سنن النسائيّ عن ابن عباس قال : سمعت عمر يقول : والله إنّني لأنهاكم عن المتعة وإنّها لفي كتاب الله ولقد فعلها رسول الله ﷺ ، يعني العمرة في الحجّ .

وفي الدر المنثور أخرج مسلم عن عبد الله بن شقيق ، قال : كان عثمان ينهى عن المتعة و كان عليّ يأمر بها فقال عثمان لعليّ كلمة فقال عليّ عليه السلام : لقد علمت أنّنا تمتّعنا مع رسول الله ﷺ قال : ولكنّا كنّا خائفين .

وفي الدر المنثور أيضاً أخرج ابن أبي شيبة ومسلم عن أبي ذرّ كانت المتعة في الحجّ لأصحاب محمد ﷺ خاصة .

وفي الدر المنثور أيضاً أخرج مسلم عن أبي ذرّ قال : لا تصلح المتعتان إلّا لنا خاصة يعني متعة النساء ومتعة الحجّ .

أقول : والروايات في هذا المعنى كثيرة جداً لكنّا اقتصرنا منها على ماله دخل في غرضنا وهو البحث التفسيريّ عن نهيه . فإنّ هذا النهي ربّما يبحث فيه من جهة كون ناهيه محقّقاً أو معذوراً فيه وعدم كونه كذلك ، وهو بحث كلاميّ خارج عن غرضنا في هذا الكتاب .

وربّما يبحث فيه من جهة اشتغال الروايات على الاستدلال على هذا المعنى بما له تعلق بالكتاب أو السنّة فترتبط بدلالة ظاهر الكتاب والسنّة ، وهو سنخ بحثنا في هذا الكتاب .

فتقول : أمّا الاستدلال على النهي عن التمتع بأنّه هو الذي يدلّ عليه قوله تعالى وأتمّوا الحجّ والعمرة لله الآية وأنّ التمتع ممّا كان مختصّاً برسول الله ﷺ كما يدلّ عليه ما في رواية أبي نضرة عن جابر . أن الله كان يحلّ لرسوله ما شاء ممّا شاء وأنّ القرآن قد نزل منازلها فأتّمّوا الحجّ والعمرة كما أمركم الله ، فقد عرفت : أنّ قوله تعالى : و

أَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ الْآيَةُ لَا يَدُلُّ عَلَى أَزِيدَ مِنْ وَجوبِ إِتِمَامِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ بَعْدَ فَرَضِهِمَا . والدليل عليه قوله تعالى : فَإِنْ أَحْصَرْتُمْ إِيَّاهُ ، وَأَمَّا كَوْنُ الْآيَةِ دَالَّةً عَلَى الْإِتِمَامِ بِمَعْنَى فَصْلِ الْعُمْرَةِ مِنَ الْحَجِّ ، وَأَنَّ عَدَمَ الْفَصْلِ كَانَ أَمْرًا خَاصًّا بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ، وَبِمَنْ مَعَهُ ، أَوْ بِهِ وَبِمَنْ مَعَهُ فِي تِلْكَ الْحُجَّةِ ( حُجَّةُ الْوُدَّاعِ ) فَدُونَ إِثْبَاتِهِ خَرَطَ الْقِتَادَ وَفِيهِ مَعَ ذَلِكَ اعْتِرَافٌ بِأَنَّ التَّمَتُّعَ كَانَ سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَمَا فِي رِوَايَةِ النَّسَائِيِّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ مِنْ قَوْلِهِ : وَاللَّهُ إِنِّي لَا نَهَاكُمُ عَنْ الْمُتَمَتُّعِ إِلَى : قَوْلِهِ : وَلَقَدْ فَعَلَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ .

وَأَمَّا الْاسْتِدْلَالُ عَلَيْهِ بِأَنَّ فِي النَّهْيِ أَخْذًا بِالْكِتَابِ أَوْ السُّنَّةِ كَمَا فِي رِوَايَةِ أَبِي مُوسَى مِنْ قَوْلِهِ : أَنْ نَأْخُذَ بِكِتَابِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ قَالَ : وَأَتَمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ وَأَنْ نَأْخُذَ بِسُنَّةِ نَبِيِّنَا لَمْ يَحُلْ حَتَّى نَعْرِ الْهَدْيَ انْتَهَى . فَقَدْ عُرِفَتْ أَنَّ الْكِتَابَ يَدُلُّ عَلَى خِلَافِهِ . وَأَمَّا أَنْ تَرِكَ التَّمَتُّعَ سُنَّةَ النَّبِيِّ ﷺ لِكَوْنِهِ لَمْ يَحُلْ حَتَّى نَعْرِ الْهَدْيَ فِيهِ :  
أَوَّلًا : أَنَّهُ مُنَاقِضٌ لِمَا نَصَّ بِهِ نَفْسَهُ عَلَى مَا يَثْبُتُهُ الرِّوَايَاتُ الْآخِرَاتُ مَرَّةً بَعْضُهَا آتِفًا .

وِثَانِيًا : أَنَّ الرِّوَايَاتِ نَاصَةٌ عَلَى أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَنَعَهَا ، وَأَنَّهُ ﷺ أَهْلُ الْعُمْرَةِ وَأَهْلُ ثَانِيًا بِالْحَجِّ ، وَأَنَّهُ خُطِبَ وَقَالَ : أَبَاللَّهِ تَعْلَمُونَ أَيُّهَا النَّاسُ . وَمِنْ عَجِيبِ الدَّعْوَى فِي هَذَا الْمَقَامِ مَا أَدْعَاهُ ابْنُ تَيْمِيَّةَ أَنَّ حَجَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَ حَجَّ قُرْآنٍ وَأَنَّ الْمُتَمَتُّعَ كَانَتْ تَطْلُقُ عَلَى حَجِّ الْقُرْآنِ ؛

وِثَالثًا : أَنَّ مَجْرَدَ عَدَمِ حُلُقِ الرَّاسِ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيَ عَمَلُهُ لَيْسَ إِحْرَامًا لِلْحَجِّ وَلَا يَثْبُتُ بِهِ ذَلِكَ ، وَالْآيَةُ أَيْضًا تَدُلُّ عَلَى أَنَّ سَائِقَ الْهَدْيِ الَّذِي حَكَمَهُ عَدَمُ الْحُلُقِ ، إِذَا لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَهُوَ مُتَمَتِّعٌ لَا مُحَالَةً .

وِرَابِعًا : هَبْ : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَى بِغَيْرِ التَّمَتُّعِ لَكِنَّهُ أَمَرَ جَمِيعَ أَصْحَابِهِ وَمَنْ مَعَهُ بِالتَّمَتُّعِ ، وَكَيْفَ يُمْكِنُ أَنْ يَعْذِمَا شَأْنَهُ هَذَا سُنَّتَهُ ؟ وَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَتَحَقَّقَ أَمْرٌ خَصَّ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَبِأَمْرِ أَهْلِهِ بغيره وَيَنْزِلُ بِهِ الْكِتَابُ ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَ سُنَّةٍ مُتَّبَعَةٍ بَيْنَ النَّاسِ ؟!

وأما الاستدلال عليه بأن التمتع يوجب هيئة لا يلائم وضع الحاج ويورده مورد الاستلذاذ بإتيان النساء واستعمال الطيب وليس الفاخر من الثياب كما يدل عليه ما في رواية أحمد عن أبي موسى من قوله : ولكنني أخشى أن يعرّسوا بهنّ تحت الأراك ثم يروحوا بهنّ حجباً انتهى . وكما في بعض الروايات قد علمت أن النبي ﷺ فعله وأصحابه ولكنني كرهت أن يعرّسوا بهنّ في الأراك ثم يروحون في الحجّ تقطّر رؤسهم انتهى . ففيه أنّه اجتهد في مقابل النصّ وقد نصّ الله ورسوله على الحكم ، والله ورسوله أعلم بأنّ هذا الحكم يمكن أن يؤدّي إلى ما كان يخشاه ويكرهه ؛ ومن أعجب الأمر أن الآية التي تشرّع هذا الحكم يأتي في بيانها بعين المعنى الذي أظهر أنّه يخشاه ويكرهه فقد قال تعالى : فمن تمتع بالعمرة إلى الحجّ أه . فهل التمتع إلاّ استيفاء الحظّ من المتاع و الالتذاذ بطيبات النكاح واللباس وغيرهما ؛ وهو الذي كان يخشاه ويكرهه !

وأعجب منه : أن الأصحاب قد اعترضوا على الله ورسوله حين نزول الآية ؛ وأمر النبي ﷺ بالتمتع بعين ما جعله سبباً للنهي حين قالوا كما في رواية الدر المنثور عن الحاكم عن جابر قلنا : أيروح أحدنا إلى عرفة وفرجه يقطر منياً انتهى فبلغ ذلك النبي ﷺ فقام خطيباً وردّ عليهم قولهم وأمرهم ثانياً بالتمتع كما فرضه عليهم أوّلاً . وأما الاستدلال عليه بأن التمتع يوجب تعطّل أسواق مكة كما في رواية السيوطي عن سعيد بن المسيّب من قوله : مع أن أهل البيت ليس لهم ضرع ولا زرع وإنما ربيعهم فيمن يطرء عليهم انتهى .

ففيه أيضاً : أنّه اجتهد في مقابل النصّ . على أن الله سبحانه يردّ عليه في نظير المسألة بقوله : « يا أيّها الذين آمنوا إن المشرّكين نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتهم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إن الله عليم حكيم » التوبة - ٢٩ . وأما الاستدلال عليه بأنّ تشريع التمتع ملكان الخوف فلا تمتع في غير حال الخوف كما في رواية الدر المنثور عن مسلم عن عبد الله بن شقيق من قول عثمان لعليّ عليه السلام ولكنّا كنّا خائفين انتهى . وقد روي نظيره عن ابن الزبير كما رواه في الدر المنثور . قال

أخرج ابن أبي شيبة وابن جرير وابن المنذر عن ابن الزبير أنه خطب فقال : يا أيها الناس والله ما التمتع بالعمرة إلى الحج كما تصنعون ، إنما التمتع أن يهل الرجل بالحج فيحضره عدو أو مرض أو كسر ، أو يجلسه أمر حتى يذهب أيام الحج فيقدم فيجعلها عمرة فيتمتع تحلة إلى العام المقبل ثم يحج ويهدي هدياً فهذا التمتع بالعمرة إلى الحج الحديث .

ففيه : أن الآية مطلقة تشمل الخائف وغيره فقد عرفت أن الجملة الدالة على تشريع حكم التمتع هي قوله تعالى : ذلك لمن يكن له أهله حاضري المسجد الحرام الآية دون قوله تعالى : فمن تمتع بالعمرة إلى الحج الآية .  
على أن جميع الروايات ناصة في أن النبي ﷺ أتى بحجته تمتعاً ، وأنه أهل بإهلها للعمرة والحج .

وأما الاستدلال عليه : بأن التمتع كان مختصاً بأصحاب النبي ﷺ كما في روايتي الدر المنثور عن أبي ذر . فإن كان اماراد ما ذكر من استدلال عثمان وابن الزبير فقد عرفت جوابه ، وإن كان اماراد أنه كان حكماً خاصاً لأصحاب النبي ﷺ لا يشمل غيرهم . ففيه أنه مدفوع بإطلاق قوله تعالى : ذلك لمن يكن له أهله حاضري المسجد الحرام الآية .

على أن إنكار بعض أصحاب النبي ﷺ لذلك الحكم وتركهم له كعمر وعثمان وابن الزبير وأبي موسى ومعاوية ( وروي أن منهم أبا بكر ) ينافي ذلك !  
وأما الاستدلال عليه بالولاية وأنه إنما نهى عنه بحق ولايته الأمر وقد فرض الله طاعة أولي الأمر إذ قال « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم الآية » النساء - ٥٤ . ففيه أن الولاية التي جعلها القرآن لأهلها لا يشمل المورد .

بيان ذلك : أن الآيات قد تكاثرت على وجوب اتباع ما أنزله الله على رسوله كقوله تعالى : « اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم » الأعراف - ٢ ، وما بيته رسول الله ﷺ ما شرعه هو بإذن الله تعالى كما يلوح من قوله تعالى : « ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله » التوبة - ٣٠ وقوله تعالى : « ما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » الحشر - ٧ . فالمراد

بالإيتاء الأمر بقرنية مقابلته بقوله : وما نهيكم عنه اه فيجب إطاعة الله ورسوله بامتثال الأمر وانتهاء النواهي ، وكذلك الحكم والقضاء كما قال تعالى : « ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون » المائدة - ٤٨ ، وفي موضع آخر « فأولئك هم الفاسقون » المائدة - ٥٠ ، وفي موضع آخر « فأولئك هم الكافرون » المائدة - ٤٧ ، وقال تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّلاً مبيهاً » الأحزاب - ٣٦ ، وقال : « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة » القصص - ٦٨ فإن المراد بالاختيار هو القضاء والتشريع أو ما يعم ذلك وقد نص القرآن على أنه كتاب غير منسوخ وأن الأحكام باقية على ما هي عليها إلى يوم القيمة . قال تعالى : « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » فصّات - ٤٢ . فالآية مطلقة تشتمل نسخ الحكم فما شرّعه الله ورسوله أو قضى به الله ورسوله يجب اتباعه على الأمة ، وأولي الأمر من دونهم .

ومن هنا يظهر : أن قوله تعالى : ( أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم ) إنما يجعل لأولي الأمر حق الطاعة في غير الأحكام فهم ومن دونهم من الأمة سواء في أنه يجب عليهم التحفظ بالأحكام الله ورسوله بل هو عليهم أوجب ، فالذي يجب فيه طاعة أولي الأمر إنما هو ما يأمرون به وينهون عنه فيما يرون صلاح الأمة فيه : من فعل أو ترك مع حفظ حكم الله في الواقعة .

فكما أن الواحد من الناس له أن يتغذى يوم كذا أو لا يتغذى مع جواز الأكل له من مال نفسه ، وله أن يبيع ويشترى يوم كذا أو يمسك عنه مع كون البيع حلالاً ، وله أن يترافع إلى الحاكم إذا نازعه أحد في ملكه ، وله أن يعرض عن الدفاع مع جواز الترافع . كل ذلك إذا رأى صلاح نفسه في ذلك مع بقاء الأحكام على حالها ، وليس له أن يشرب الخمر ، ولا له أن يأخذ الربا ، ولا له أن يغصب مال غيره بإبطال ملكه وإن رأى صلاح نفسه في ذلك لأن ذلك كله يزاحم حكم الله تعالى . هذا كله في التصرف الشخصي . كذلك ولي الأمر له أن يتصرف في الأمور العامة على طبق المصالح الكلية مع حفظ الأحكام الإلهية على ما هي عليها ، فيدافع عن نفور الإسلام حيناً ، ويمسك عن ذلك حيناً ،

على حسب ما يشخصه من المصالح العامة ، أو يأمر بالتعطيل العمومي أو الإلحاق العمومي يوماً إلى غير ذلك بحسب ما يراه من المصلحة ،

وبالجملة كل ما للواحد من المسلمين أن يتصرف فيه بحسب صلاح شخصه مع التحفظ على حكم الله سبحانه في الواقعة فلوالى الأمر من قبل رسول الله ﷺ أن يتصرف فيه بحسب الصلاح العام العائد إلى حال المسلمين مع التحفظ بحكم الله سبحانه في الواقعة .

ولو جاز لولي الأمر أن يتصرف في الحكم التشريعي تكليفاً أو وضعاً بحسب ما يراه من صلاح الوقت لم يقدح في حكمه على ساق ، ولم يكن لاستمرار الشريعة إلى يوم القيمة معنى البتة ، فما الفرق بين أن يقول قائل : إن حكم المتمتع من طيبات الحيوة لا يلائم هيئة النسك والعبادة من الناسك فيلزم تركه ، وبين أن يقول القائل : إن إباحة الاسترقاق لا يناسب وضع الدنيا الحاضرة القاضية بالحرية العامة فيلزم إهمالها ، أو أن إجراء الحدود مما لا تهضمه الإنسانية الراقية اليوم ، والقوانين الجارية في العالم اليوم لا تقبله فيجب تعطيله ؟!

وقد يفهم هذا المعنى من بعض الروايات في الباب كما في الدر المنثور : أخرج إسحق بن راعويه في مسنده ، وأحمد عن الحسن : أن عمر بن خطاب هم أن ينهى عن متعة الحج فقام إليه أبي بن كعب فقال : ليس ذلك لك قد نزل بها كتاب الله وامترونا مع رسول الله ﷺ فنزل عمر .



وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ  
وَهُوَ الدَّالُّ خَصَامٌ (٢٠٤) وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ  
وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ (٢٠٥) وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ  
فَحَسِبَهُ جَهَنَّمَ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ (٢٠٦) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ  
اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ (٢٠٧) .

### ﴿بيان﴾

تشتمل الآيات على تقسيم آخر للناس من حيث تتايج صفاتهم كما أن الآيات السابقة  
أعني قوله تعالى : فمن الناس من يقول ربنا آتنا في الدنيا إلخ تشتمل على تقسيم لهم غير  
أن تلك الآيات تقسمهم من حيث طلب الدنيا والآخرة ، وهذه الآيات تقسمهم من حيث  
النفاق والخلوص في الإيمان فمناسبة الآيات مع آيات حج التمتع ظاهرة .

قوله تعالى : ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا إلخ ، أعجبه الشيء  
أى راقه وسره ، وقوله : في الحياة الدنيا متعلق بقوله : يعجبك اه أى إن الإعجاب في  
الدنيا من جهة أن هذه الحياة نوع حياة لا تحكم إلا على الظاهر ، وأما الباطن والسريرة  
فتحت الستر و وراء الحجاب ، لا يشاهده الإنسان وهو متعلق الحياة بالدنيا إلا أن  
يستكشف شيئاً من أمر الباطن من طريق الآثار ، ويناسبه ما يتلوه : من قوله تعالى : ويشهد  
الله على ما في قلبه اه . والمعنى إنه يتكلم بما يعجبك كلامه ، من ما يشير به إلى رعاية  
جانب الحق ، والعناية بصلاح الخلق ، وتقدم الدين والأمة وهو أشد الخصماء للحق  
خصومة . وقوله : الداء أفعل التفضيل من لد لدود إذا اشتد خصومة . والخصام جمع  
خصم كصعب وصعاب وكعب وكعاب ، وقيل : الخصام مصدر ، ومعنى الداء الخصام أشد  
خصومة .

**قوله تعالى :** وإذا تولّى سعى في الأرض ليفسد فيها الخ، التولّى هو تملّك الولاية والسلطان ، ويؤيّد قوله تعالى في الآية التالية : أخذته العزّة بالإثم اه الدالّ على أنّ له عزّة مكتسبة بالإثم الذي يأثم به قلبه الغير الموافق للسانه ، والسعى هو العمل والإسراع في المشى ، فالمعنى وإذا تمكّن هذا المنافق الشديد الخصومة من العمل وأوتي سلطاناً وتولّى أمر الناس سعى في الأرض ليفسد فيها . ويمكن أن يكون التولّى بمعنى الإعراض عن المخاطبة والمواجهة ، أى إذا خرج من عندك كانت غيبته مخالفة لحضوره ، وتبدّل ما كان يظهره من طالب الصّلاح والخير إلى السعى في الأرض لأجل الفساد والافساد .

**قوله تعالى :** وبهاك الحرث والنسل اه ظاهره أنّه بيان لقوله تعالى : ليفسد فيها أى يفسد فيها بإهلاك الحرث والنسل . ولما كان قوام النوع الإنساني من حيث الحياة والبقاء بالتغذية والتوليد فهما الركنان القويّمان التّذان لا غناء عنهما للنوع في حال : أمّا التوليد فظاهر ، وأمّا التغذية فأنّما يركن الإنسان فيه إلى الحيوان والنبات ، والحيوان يركن إلى النبات ، فالنبات هو الأصل ويستحفظ بالحرث وهو تربية النبات ، فلذلك علّق الفساد على الحرث والنسل فالمعنى أنّه يفسد في الأرض بإفناء الإنسان وأبادة هذا النوع بإهلاك الحرث والنسل .

**قوله تعالى :** والله لا يحبّ الفساد اه ، المراد بالفساد ليس ما هو فساد في الكون والوجود ( الفساد التكويني ) فإنّ النشأة نشأة الكون والفساد ، وعالم التنازع في البقاء ، ولا كون إلا بفساد ، ولا حياة إلا بموت . وهما متعاقدان في هذا الوجود الطبيعيّ في النشأة الطبيعيّة ، وحاشا أن يبغض الله سبحانه ما هو مقدّره وقاضيه .

وإنّما هو الفساد المتعلّق بالتشريع فإنّ الله إنّما شرّع ما شرّعه من الدين ليصلح به أعمال عباده فيصلح أخلاقهم وملكات نفوسهم فيعتدل بذلك حال الإنسانيّة والجماعة البشريّة ، وعند ذلك تسعد حيوتهم في الدّنيا وحيوتهم في الآخرة على ماسيجي ، بيانه في قوله تعالى : كان الناس أُمّة واحدة .

فهذا الذي يخالف ظاهر قوله باطن قلبه إذ اسعى في الأرض بالفساد فإنّما يفسد

بمآظهره الإصلاح بتحريف الكلمة عن موضعها ، وتغيير حكم الله عما هو عليه ، والتصرف في التعاليم الدينية ، بما يؤدي إلى فساد الأخلاق واختلاف الكلمة ، وفي ذلك موت الدين ، وفناء الإنسانية ، وفساد الدنيا . وقد صدق هذه الآيات ما جرى عليه التاريخ من ولاية رجال وركوبهم أكتاف هذه الأمة الإسلامية ، وتصرفهم في أمر الدين والدنيا بما لم يستعقب للدين إلا وبالأ ، وللمسلمين إلا انحطاطاً ، وللأمة إلا اختلافاً ، فلم يلبث الدين حتى صار لعبة لكل لاعب ، ولا الإنسانية إلا خطفة لكل خاطف . فنتيجة هذا السعي فساد الأرض ، وذلك بهلاك الدين أولاً ، وهلاك الإنسانية ثانياً . ولهذا فسر قوله ويهلك الحرث والنسل في بعض الروايات بهلاك الدين والإنسانية كما سيأتي إنشاء الله .

**قوله تعالى :** وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم وبئس المهاداة ، العزة معروفة ، والمهاداة الوطء . والظاهر أن قوله : بالإثم متعلق بالعزة ، والمعنى أنه إذا أمر بتقوى الله أخذته العزة الظاهرة التي اكتسبها بالإثم والنفاق المستبطن في نفسه ، وذلك أن العزة المطلقة إنما هي من الله سبحانه كما قال تعالى : « تعز من تشاء وتذل من تشاء » آل عمران ٢٦ وقال تعالى : « والله العزة لرَسُولِهِ وللمؤمنين » المنافقين - ٨ وقال تعالى : « أيتبعون عندهم العزة فإن العزة لله جميعاً » النساء - ١٣٨ .

وحاشا أن ينسب تعالى شيئاً إلى نفسه ويختصه بإعطائه ثم يستعقب إثمًا أو شرًا فهذه العزة إنما هي عزة يحسبها الجاهل بحقيقة الأمر عزة بحسب ظاهر الحياة الدنيا لا عزة حقيقية أعطاها الله سبحانه لصاحبها .

ومن هنا يظهر أن قوله : بالإثم ليس متعلقاً بقوله : أخذته اه بأن يكون الباء للتعذية . والمعنى حملته العزة على الإثم ورد الأمر بالتقوى ، وتجييه الأمر بما يسوّمه من القول ، أو يكون الباء للسببية ، والمعنى ظهرت فيه العزة والمناعة بسبب الإثم الذي اكتسبه ، وذلك أن إطلاق العزة على هذه الحالة النفسانية وتسميته بالعزة يستلزم إضائها والتصديق منه تعالى بأنها عزة حقيقية وليست بها ، بخلاف ما لوسميت عزة بالإثم . وأما قوله تعالى : « بل الذين كفروا في عزة وشقاق كم أهلكتنا من قبلهم من قرن

فنادوا ولات حين مناص « ص-٢ فليس من قبيل التسمية والإمضاء لكون العزة نكرة مع تعقيب الآية بقوله : كم أهلكنا من قبلهم إنا نخرج فيهم هناك عزّة صوريّة غير باقية ولا أصيلة .

**قوله تعالى :** ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله إنا ، مقابلته مع قوله تعالى : ومن الناس من يعجبك قوله إنا يفيد أن الوصف مقابل الوصف أي كما أن المراد من قوله : ومن الناس من يعجبك إنا بيان أن هناك رجالاً معتزلاً بآبائهم معجباً بنفسه متظاهراً بالإصلاح مضمراً للنفاق لا يعود منه إلى حال الدين والإنسانية إلا الفساد والهلاك كذلك المراد من قوله : ومن الناس من يشري نفسه إنا بيان أن هناك رجالاً آخر باع نفسه من الله سبحانه لا يريد إلا ما أراد الله تعالى لا هوى له في نفسه ولا اعتزاز له إلا بربه ولا ابتغاء له إلا لمرضات الله تعالى ، فيصلح به أمر الدين والدنيا ، ويحيى به الحق ، ويطيب به عيش الإنسانية ، ويدرك به ضرع الإسلام ، وبذلك يظهر ارتباط الذيل بالصدر أعني قوله تعالى : والله رؤف بالعباد إنا بما قبله ، فإن وجود إنسان هذه صفته من رافة الله سبحانه بعباده إذ لولا رجال هذه صفاتهم بين الناس في مقابل رجال آخرين صفتهم ما ذكر من النفاق والإفساد لانهدمت أركان الدين ، ولم تستقر من بناء الإصلاح والرشاد لبنة على لبنة ، لكن الله سبحانه لا يزال يزهد ذاك الباطل بهذا الحق ويتدارك إفساد أعدائه بإصلاح أوليائه كما قال تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض » البقرة - ٢٥١ وقال تعالى : « ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً » الحج - ٤٠ وقال تعالى : « فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوماً ليسوا بها كافرين » الأنعام - ٨٩ فالفساد الطاري على الدين والدنيا من قبل عدّة ممن لا هوى له إلا في نفسه لا يمكن سدّ ثلمته إلا بالصّلاح الفاض من قبل آخرين ممن باع نفسه من الله سبحانه ، ولا هوى له إلا في ربه ، وإصلاح الأرض ومن عليها ، وقد ذكر هذه المعاملة الربّانية عند الله بقوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعداً عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به » التوبة - ١١٢ إلى غير ذلك من الآيات .

## ﴿بحث روائي﴾

في الدر المنثور عن السدي في قوله تعالى : ومن الناس من يعجبك الآية ، أنها  
نزلت في الأخنس بن شريق الشقي حليف لبني زهرة ، أقبل إلى النبي ﷺ المدينة  
وقال : جئت أريد الإسلام ويعلم الله أنني لصديق فأعجب النبي ﷺ ذلك منه فذلك  
قوله تعالى : ويشهد الله على ما في قلبه ثم خرج من عند النبي ﷺ فمر بزرع لقوم من  
المسلمين وحر فأحرق الزرع وعقر الحمر فأنزل الله وإذا تولّى سعى في الأرض الآية .  
وفي المجمع عن ابن عباس نزلت الآيات الثلاث في المرامي لأنه يظهر خلاف ما  
يبطن ، قال : وهو المروي عن الصادق عليه السلام .

أقول : ولكنّه غير منطبق على ظاهر الآيات . وفي بعض الروايات عن أئمة أهل  
البيت أنها من الآيات النازلة في أعدائهم .

وفي المجمع عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : ويهلك الحرث والنسل : أن المراد  
بالحرث ههنا الدين والنسل الإنسان .

أقول : وقد مرّ بيانه . وقد روي : أن المراد بالحرث الذرية والزرع . والأمر  
في التطبيق سهل .

وفي أمالي الشيخ عن علي بن الحسين عليه السلام في قوله تعالى : ومن الناس من  
يشري نفسه الآية ، قال : نزلت في علي عليه السلام حين بات على فراش رسول الله ﷺ .

أقول : وقد تكاثرت الروايات من طرق الفريقين أنها نزلت في شأن ليلة الفراش .  
ورواه في تفسير البرهان بخمس طرق عن الشعبي وغيره .

وفي الدر المنثور أخرج ابن مردويه عن صهيب ، قال : لما اردت الهجرة من مكة  
إلى النبي ﷺ قالت لي قريش يا صهيب قدمت إلينا ولا مال لك وتخرج أنت ومالك ،  
والله لا يكون ذلك أبداً . فقلت لهم : أرايتم إن دفعت لكم مالي تخلون عني ؟ قالوا : نعم  
فدفعت إليهم مالي فخلّوها عني فخرجت حتى قدمت المدينة فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال :  
ربح البيع صهيب مرتين .

**اقول:** ورواه بطرق أخرى في بعضها ونزلت : ومن الناس من يشري نفسه الآية .  
 وفي بعضها نزلت في صهيب و ابي ذرّ بشرائهما أنفسهما بأموالهما وقد مرّ أنّ الآية  
 لاتلائم كون المراد بالشراء الاشتراء .  
 وفي المجمع عن عليّ: **ط** أنّ المراد بالآية الرجل يقتل على الأمر بالمعروف  
 والنهي عن المنكر

**اقول:** وهو بيان لعموم الآية ولا ينافي كون النزول لشأن خاص :





يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٠٨) فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٠٩) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَالِإِلَهَ تَرْجِعُ الْأُمُورُ (٢١٠) .

### ﴿بيان﴾

هذه الآيات وهي قوله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى قَوْلِهِ : أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ الْآيَةِ سَبْعَ آيَاتٍ كَامِلَةٍ تَبَيَّنَ طَرِيقَ التَّحَفُّظِ عَلَى الْوَحْدَةِ الدِّينِيَّةِ فِي الْجَامِعَةِ الْإِنْسَانِيَّةِ وَهُوَ الدُّخُولُ فِي السَّلَامِ وَالْقَصْرُ عَلَى مَا ذَكَرَهُ اللَّهُ مِنَ الْقَوْلِ وَمَا أَرَاهُ مِنْ طَرِيقِ الْعَمَلِ ، وَأَنَّهُ لَمْ يَنْفَصِّمْ وَحْدَةَ الدِّينِ ، وَلَا ارْتَحَلَتْ سَعَادَةُ الدَّارَيْنِ ، وَلَا حَلَّتْ الْهَلَكَةُ دَارَ قَوْمٍ إِلَّا بِالْخُرُوجِ عَنِ السَّلَامِ ، وَالتَّصَرُّفِ فِي آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى بِتَغْيِيرِهَا وَوَضْعِهَا فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا ، شَوْهَدَ ذَلِكَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْأُمَمِ الْغَابِرَةِ وَسَيَجْرِي نَظِيرُهَا فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ لَكِنَّ اللَّهَ يَعْدهمُ بِالنَّصْرِ : أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ .

قَوْلُهُ تَعَالَى يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السَّلَامِ كَافَّةً ، السَّلَامُ وَالْإِسْلَامُ وَالتَّسْلِيمُ وَاحِدَةٌ وَكَافَّةٌ كَلِمَةٌ تَأْكِيدُ بِمَعْنَى جَمِيعاً ، وَلَمَّا كَانَ الْخُطَابُ لِلْمُؤْمِنِينَ - وَقَدْ أَمَرُوا بِالْدُخُولِ فِي السَّلَامِ كَافَّةً - فَهُوَ أَمْرٌ مُتَعَلِّقٌ بِالْمَجْمُوعِ وَبِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْ أَجْزَائِهِ ، فَيَجِبُ ذَلِكَ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَيَجِبُ عَلَى الْجَمِيعِ أَيْضاً أَنْ لَا يَخْتَلِفُوا فِي ذَلِكَ وَيَسْلَمُوا الْأَمْرَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ﷺ ، وَأَيْضاً الْخُطَابُ لِلْمُؤْمِنِينَ خَاصَّةً فَالسَّلَامُ الْمَدْعُوُّ إِلَيْهِ هُوَ التَّسْلِيمُ لِلَّهِ سَبْعَانَهُ بَعْدَ الْإِيْمَانِ بِهِ فَيَجِبُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَسْلَمُوا الْأَمْرَ إِلَيْهِ ، وَلَا يَذْنُبُوا لَأَنْفُسِهِمْ صِلَاحاً بِاسْتِبْدَادٍ مِنَ الرَّأْيِ ، وَلَا يَضَعُوا لَأَنْفُسِهِمْ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ طَرِيقاً يَسْلُكُونَهُ مِنْ دُونِ أَنْ يَبَيِّنَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، فَمَا هَلَكَ قَوْمٌ إِلَّا بِاتِّبَاعِ الْهَوَى وَالْقَوْلِ بِغَيْرِ الْعِلْمِ ، وَلَمْ يَسْلُبْ حَقَّ الْحَيَاةِ وَسَعَادَةِ الْجَدِّ عَنْ قَوْمٍ إِلَّا عَنْ اخْتِلَافٍ .

ومن هنا ظهر : أن المراد من اتباع خطوات الشيطان ليس اتباعه في جميع ما يدعو إليه من الباطل بل اتباعه فيما يدعو إليه من أمر الدين بأن يزين شيئاً من طرق الباطل بزينة الحق و يسمّي ما ليس من الدين باسم الدين فيأخذ به الإنسان من غير علم ، وعلامة ذلك عدم ذكر الله ورسوله إياه في ضمن التعاليم الدينية .

وخصوصيات سياق الكلام وقبوده تدلّ على ذلك أيضاً : فإن الخطوات إنما تكون في طريق مسلوك ، وإذا كان سالكه هو المؤمن - وطريقه إنما هو طريق الإيمان - فهو طريق شيطاني في الإيمان ، وإذا كان الواجب على المؤمن هو الدخول في السلم فالطريق السدي يسلكه من غير سلم من خطوات الشيطان ، واتباعه اتباع خطوات الشيطان .

فالأية نظيرة قوله تعالى : « يا أيّها النّاس كلوا ممّا في الأرض حلالاً طيباً ولا تتّبعوا خطوات الشيطان إنّهُ لكم عدوّ مبين إنّما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » البقرة - ١٦٨ ، وقدم الكلام في الآية ، وقوله تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتّبع خطوات الشيطان فإنّه يأمر بالفحشاء والمنكر وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » النور - ٢١ وقوله تعالى : « كلوا ممّا رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنّهُ لكم عدوّ مبين » الأنعام - ١٤٢ . والفرق بين هذه الآية وبين تلك أن الدعوة في هذه موجّهة إلى الجماعة لمكان قوله تعالى : كافّة بخلاف تلك الآيات فهي عامّة . فهذه الآية في معنى قوله تعالى : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا » آل عمران - ١٠٣ وقوله تعالى : « وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولا تتبعوا السّبيل فتفرّق بكم عن سبيله » الأنعام - ١٥٣ . ويستفاد من الآية أنّ الإسلام متكامل لجميع ما يحتاج إليه النّاس من الأحكام والمعارف التي فيه صلاح النّاس .

**قوله تعالى :** فإن زلّتم من بعد ما جاءكم البينات ، الزلّتم هي العثرة . والمعنى فإن لم تدخلوا في السلم كافّة وزلّتم - والزلّة هي اتباع خطوات الشيطان - فاعلموا أنّ الله عزيز غير مغلوب في أمره ، حكيم لا يتعدّى عمّا يقتضيه حكمته من القضاء في شأنكم

فيقضي فيكم ما تقتضيه حكمته ، و يجريه فيكم من غير أن يمنع عنه مانع .  
**قوله تعالى :** هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام الخ ، الظلل جمع ظلة وهي ما يستظل به ، و ظاهر الآية أن الملائكة عطف على لفظ الجلالة ، وفي الآية التفات من الخطاب إلى الغيبة و تبديل خطابهم ب خطاب رسول الله ﷺ بالإعراض عن مخاطبتهم بأن هؤلاء حالهم خال من ينتظر ما أوعدها بهم من القضاء على طبق ما يختارونه من اتباع خطوات الشيطان والاختلاف والتمزق ، و ذلك بأن يأتيهم الله في ظلل من الغمام و الملائكة ، ويقضي الأمر من حيث لا يشعرون ، أو بحيث لا يعي بهم و بما يقعون فيه من الهلاك ، و إلى الله ترجع الأمور ، فلا مفر من حكمه و قضاءه ، فالسياق يقتضي أن يكون قوله : هل ينظرون اه هو الوعيد السدي أوعدهم به في قوله تعالى في الآية السابقة : فاعلموا أن الله عزيز حكيم .

ثم إن من الضروري الثابت بالضرورة من الكتاب و السنة أن الله سبحانه لا يوصف بصفة الأجسام ، ولا ينعت بنعوت الممكنات مما يقضي بالحدوث ، و يلزم الفقر والحاجة والنقص ، فقد قال تعالى : « ليس كمثله شيء » الشورى - ١١ وقال تعالى : « والله هو الغني » الفاطر - ١٥ وقال تعالى : « الله خالق كل شيء » الزمر - ٦٢ إلى غير ذلك من الآيات ، وهي آيات محكمات ترجع إليها تشابهات القرآن ، فما ورد من الآيات و ظاهرها إسناد شيء من الصفات أو الأفعال الحادثة إليه تعالى ينبغي أن يرجع إليها ، ويفهم منها معنى من المعاني لا ينافي صفاته العليا وأسمائه الحسنى تبارك و تعالى ، فالآيات المشتملة على نسبة المجيء أو الإتيان إليه تعالى كقوله تعالى : « وجاء ربك والملك صفاً صفاً » الفجر - ٢٢ وقوله تعالى : « فأتىهم الله من حيث لم يحتسبوا » الحشر - ٢ وقوله تعالى : « فأتى الله بنيانهم من القواعد » النحل - ٢٦ كل ذلك يراد فيها معنى يلائم ساحة قدسه تقدست أسمائه كإحاطه ونحوها ولومجازاً ، وعليهذا فالمراد بالإتيان في قوله تعالى : أن يأتيهم الله الإحاطة بهم للقضاء في حقهم .

على أننا نجده سبحانه في موارد من كلامه إذا سلب نسبة من النسب و فعلاً من الأفعال عن استقلال الأسباب و وساطة الأوساط فربما نسبها إلى نفسه و ربما

نسبها إلى أمره كقوله تعالى : «اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ الزمر-٤٢ وقوله تعالى : «يَتَوَفَّىكُمْ ملك الموت» لقمان - ١١ وقوله تعالى : «تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا» الأنعام - ٦١ فنسب التوفي تارة إلى نفسه ، وتارة إلى الملائكة ثم قال تعالى : «بِأَمْرِ الْمَلَائِكَةِ : «بِأَمْرِ يَعْمَلُونَ» الأنبياء - ٢٧ وكذا قولته تعالى : «إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ» يونس - ٩٣ وقوله تعالى : «فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ قُضِيَ بَيْنَهُمْ» المؤمن - ٧٨ وكما في هذه الآية : «أَنْ يَأْتِيَهُمْ اللَّهُ فِي ظِلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ الْآيَةُ وقوله تعالى : «هل ينظرون إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ» النحل - ٣٣ ،

وهذا يوجب صحة تقدير الأمر في موارد تشتمل على نسبة أمور إليه لاتلائم كبرياء ذاته تعالى نظير : جاء ربك ، ويأتيهم الله . فالتقدير جاء أمر ربك ويأتيهم أمر الله . فهذا هو الذي يوجب البحث الساذج في معنى هذه النسب على ما يراه جمهور المفسرين لكن التدبر في كلامه تعالى يعطي لهذه النسب معنى أرق وألطف من ذلك . وذلك أن أمثال قوله تعالى : «والله هو الغني» الفاطر - ١٥ وقوله تعالى : «العزیز الوهاب» ص - ٩ وقوله تعالى «أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى» طه - ٥٠ تفيد أنه تعالى واجد لما يعطيه من الخلقة وشدونها وأطوارها ، مليء بما يهبه ويوجد به وإن كانت أفهامنا من جهة اعتيادها بالمادة وأحكامها الجسمانية يصعب عليها تصور كيفية اتصافه تعالى ببعض ما يفيض على خلقه من الصفات ونسبته إليه تعالى ، لكن هذه المعاني إذا جردت عن قيود المادة وأوصاف الحدثن لم يكن في نسبته إليه تعالى محذور ، فالنقص والحاجة هو الملاك في سلب معنى من المعاني عنه تعالى ، فإذا لم يصاحب المعنى نقصاً وحاجة لتجريده عنه صح إسناده إليه تعالى بل وجب ذلك لأن كل ما يقع عليه اسم شيء فهو منه تعالى برجه على ما يليق بكبريائه وعظمته . فالمعنى والإتيان الذي هو عندنا قطع الجسم مسافة بينه وبين جسم آخر بالحرركة واقترابه منه إذا جرد عن خصوصية المادة كان هو حصول القرب ، وارتفاع المانع والهاجز بين شيئين من جهة من الجهات ، وحينئذ صح إسناده إليه تعالى حقيقة من غير مجاز : فإتيانه تعالى إليهم ارتفاع الموانع بينهم وبين قضاءه فيهم ، و

هذه من الحقائق القرآنيّة التي لم يوفّق الأبحاث البرهانيّة لنيلها إلا بعد إمعان في السير ، وركوبها كلّ سهل ووعر ، وإثبات التشكيك في الحقيقة الوجوديّة الأصيلة . وكيف كان فهذه الآية تتضمّن الوعيد النّديّ ينبىء عنه قوله سبحانه في الآية السابقة : إن الله عزيز حكيم اه . ومن الممكن أن يكون وعيداً بما سيستقبل القوم في الآخرة يوم القيمة كما هو ظاهر قوله تعالى في نظير الآية : هل ينظرون إلا أن يأتهم الملائكة أو يأتي أمر ربك « النحل - ٣٣ . ومن الممكن أن يكون وعيداً بأمر متوقع الحصول في الدنيا كما يظهر بالرجوع إلى ما في سورة يونس بعد قوله تعالى : «ولكلّ أمة رسول » يونس - ٥٧ وما في سورة الرّوم بعد قوله تعالى : «واقم وجهك للدّين حنيفاً» الروم - ٣٠ وما في سورة الأنبياء وغيرها على أنّ الآخرة آجلة هذه العاجلة ، وظهور تامّ لما في هذه الدنيا ، و من الممكن أيضاً أن يكون وعيداً بما سيقع في الدنيا والآخرة معاً ، وكيف كان فقوله في ظلل من الغمام اه يشتمل من المعنى على ما يناسب موردّه .

**قوله تعالى :** وقضى الأمر إلى الله ترجع الأمور اه ، السكوت عن ذكر فاعل القضاء وهو الله سبحانه كما يدلّ عليه قوله : وإلى الله ترجع الأمور اه لإظهار الكبرياء على ما يفعله الأعظم في الإخبار عن وقوع أحكامهم و صدور أوامرهم و هو كثير في القرآن .

### ﴿بحث روائي﴾

قد تقدّم في قوله تعالى : يا أيّها النّاس كلوا ممّا في الأرض حلالاً طيباً الآية عدّة روايات تؤيد ما ذكرناه من معنى اتّباع خطوات الشيطان فارجع . و في بعض الروايات أنّ السلم هو الولاية و هو من الجرى على ما مرّ مراراً في نظائره . وفي التوحيد والمعاني عن الرضا عليه السلام في قوله تعالى : هل ينظرون إلا أن يأتهم الله في ظلل من الغمام ، وهكذا نزلت . و عن قول الله عزّ وجلّ : وجاء ربك والملك صفّاً صفّاً ، قال : إن الله عزّ وجلّ لا يوصف بالمجىء والذهاب ، تعالى عن الانتقال وإنّما يعني به وجاء أمر ربك والملك صفّاً صفّاً .

أقول : قوله ﷺ يقول هل ينظرون اه معناه يريد هل ينظرون فهو تفسير للآية وليس من قبيل القراءة .

والمعنى الذي ذكره هو بعينه ما قرّبناه من كون المراد بإتيانه تعالى إتيان أمره فإن الملائكة إنما تعمل ما تعمل وتنزل حين تنزل بالأمر . قال تعالى : « بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون » الأنبياء - ٢٧ وقال تعالى : « ينزل الملائكة بالروح من أمره » النحل - ٢ .

وهي هنا معنى آخر احتمله بعضهم وهو أن يكون الاستفهام الإنكاري في قوله : هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله إلخ لا إنكار لمجموع الجملة لا لإنكار المدخول فقط ، والمعنى أن هؤلاء لا ينظرون إلا أمراً محالاً وهو : أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام كما يأتي الجسم إلى الجسم ، ويأتي معه الملائكة فيأمرهم وينهاهم وهو محال ، فهو كناية عن استحالة تقويمهم بهذه المواعظ والتنبيهات . وفيه : أنه لا يلائم مأمراً : أن الآيات ذات سياق واحد ولازمه أن يكون الكلام متوجّهاً إلى حال المؤمنين ، والمؤمنون لا يلائم حالهم مثل هذا البيان . على أن الكلام لو كان مسوقاً لفائدة ذلك لم يخل من الرد عليهم كما هود أب القرآن في أمثال ذلك كقوله تعالى : « وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أن نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً » الفرقان - ٢١ . وقوله تعالى : « وقالوا اتّخذ الرحمن ولداً سبحانه » الأنبياء - ٢٦ .

على أنه لم يكن حينئذ وجه لقوله تعالى : في ظلل من الغمام ، ولانكته ظاهرة لبقية الكلام وهو ظاهر .

### ﴿ بحث روائى آخر ﴾

إعلم أنه ورد عن أئمة أهل البيت تفسير الآية بيوم القيمة كما في تفسير العياشي عن الباقر ﷺ ، وتفسيرها بالرجعة كما رواه الصدوق عن الصادق ﷺ ، وتفسيرها بظهور المهدي ﷺ كما رواه العياشي في تفسيره عن الباقر ﷺ بطريقتين . ونظائره كثيرة فإذا تصفّحت وجدت شيئاً كثيراً من الآيات ورد تفسيرها عن

أئمة أهل البيت تارة بالقيمة وأخرى بالرجعة وثالثة بالظهور، وليس ذلك إلا لوحدة وسنخية بين هذه المعاني، والناس لما لم يبحثوا عن حقيقة يوم القيمة ولم يستفرغوا الوسع في الكشف عما يعطيه القرآن من هوية هذا اليوم العظيم تفرقوا في أمر هذه الروايات، فمنهم من طرح هذه الروايات، وهي مآت وربما زادت على خمسمائة رواية في أبواب متفرقة، ومنهم من أولها على ظهورها وصراحتها، ومنهم -وهم أمثل طريقة- من ينقلها ويقف عليها من غير بحث.

وغير الشيعة وهم عامة المسلمين وإن أذعنوا بظهور المهدي ورووه بطرق متواترة عن النبي ﷺ لكنهم أنكروا الرجعة وعدوا القول بها من مختصات الشيعة، وربما لحق بهم في هذه الأعصار بعض المنتسبين إلى الشيعة، وعد ذلك من الدس الذي عمله اليهود وبعض المتظاهرين بالإسلام كعبدالله سبا وأصحابه، وبعضهم رام إبطال الرجعة بما زعمه من الدليل العقلي فقال: ما حاصله: «إن الموت بحسب العناية الإلهية لا يطرء على حي يستكمل كمال الحياة ويخرج من القوة إلى الفعل في كل ماله من الكمال فرجوعه إلى الدنيا بعد موته رجوع إلى القوة وهو بالفعل، هذا محال إلا أن يخبر به مخبر صادق وهو الله سبحانه أو خليفة من خلفائه كما أخبر به في قصص موسى وعيسى وإبراهيم عليهم السلام وغيرهم، ولم يرد منه تعالى ولا منهم في أمر الرجعة شيء. وما يتمسك به المثبتون غير تام. ثم أخذني تصغير الروايات فلم يدع منها صحيحة ولا سقيمة» هذا.

ولم يدر هذا المسكين أن دليله هذا لو تمّ دليلاً عقلياً أبطل صدره ذيله فما كان محالاً ذاتياً لم يقبل استثناءً ولم ينقلب بإخبار المخبر الصادق ممكناً، وأن المخبر بوقوع المحال لا يكون صادقاً ولو فرض صدقه في إخباره أوجب ذلك اضطراراً تأويل كلامه إلى ما يكون ممكناً كما لو أخبر بأن الواحد ليس نصف الاثنين، وأن كل صادق فهو بعينه كاذب.

وما ذكره من امتناع عود ما خرج من القوة إلى الفعل إلى القوة ثانياً حق لكن الصغرى ممنوعة فإنه إنما يلزم المحال المذكور في إحياء الموتى ورجوعهم إلى الدنيا

بعد الخروج عنها إذا كان ذلك بعد الموت الطبيعي الذي افترضوه ، وهو أن تفارق النفس البدن بعد خروجها من القوة إلى الفعل خروجا تاما ثم مفارقتها البدن بطباعها . وأما الموت الاخترامي الذي يكون بقسر قاسر كقتل أو مرض فلا يستلزم الرجوع إلى الدنيا بعده محذورا ، فإن من الجائز أن يستعد الإنسان لكمال موجود في زمان بعد زمان حيوته الدنيوية الأولى فيموت ، ثم يحيى لحياة الكمال المعد له في الزمان الثاني ، أو يستعد لكمال مشروط بتخلل حياة ما في البرزخ فيعود إلى الدنيا بعد استيفاء الشرط ، فيجوز على أحد الفرضين الرجعة إلى الدنيا من غير محذور المحال وتام الكلام موكول إلى غير هذا المقام .

وأما ما ناقشه في كل واحد من الروايات ففيه : أن الروايات متواترة معني عن أئمة أهل البيت ، حتى عد القول بالرجعة عند المخالفين من مختصات الشيعة و أئمتهم من لدن الصدر الأول . والتواتر لا يبطل بقبول آحاد الروايات للخدشة و المناقشة . على أن عدة من الآيات النازلة فيها ، والروايات الواردة فيها تامة الدلالة قابلة الاعتماد . وسيجيء التعرض لها في الموارد المناسبة لها كقوله تعالى : « و يوم نحشر من كل أمة فوجا ممن يكذب بآياتنا ... النمل ٨٣ » - وغيره من الآيات .

على أن الآيات بنحو الإجمال دالة على كقوله تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين من قبلكم » البقرة - ٢١٤ . ومن الحوادث الواقعة قبلنا ما وقع من إحياء الأموات كما قصه القرآن من قصص إبراهيم وموسى وعيسى وعزير وأرميا وغيرهم ، وقد قال رسول الله فيما رواه الفريقان : « والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم حذوا النعل بالنعل والقذء بالقذء حتى لا تخطؤون طريقهم ولا يخطئكم سنن بني إسرائيل » .

على أن هذه القضايا التي أخبرنا بها أئمة أهل البيت من الملاحم المتملقة بآخر الزمان ، وقد أثبتتها النقلة والرواة في كتب محفوظة النسخ عندنا سابقة تأليفاً وكتابة على الوقوع بقرون وأزمنة طويلة نشاهد كل يوم صدق شطر منها من غير زيادة ونقص فلهنحقق صحة جميعها وصدق جميع مضامينها .

ولنرجع إلى بدء الكلام الذي كتبنا فيه وهو ورود تفسير آية واحدة يوم القيمة تارة ، وبالرجعة أو الظهور تارة أخرى . فنقول : الذي يتحصل من كلامه تعالى فيما ذكره تعالى من أوصاف يوم القيمة ونعوته أنه يوم لا يحجب فيه سبب من الأسباب ولا شاغل من الشواغل عنه سبحانه فيفنى فيه جميع الأوهام ويظهر فيه آياته كمال الظهور وهذا يوم لا يبطل وجوده و تحققه تحقق هذا النشأة الجسمانية و وجودها فلا شيء يدل على ذلك من كتاب وسنة بل الأمر على خلاف ذلك غير أن الظاهر من الكتاب والسنة أن البشر أعني هذا النسل الذي أنجاه الله سبحانه إلى آدم وزوجته سينقضى عن الدنيا قبل طلوع هذا اليوم لهم .

ولا مزاحمة بين النشأتين أعني نشأة الدنيا ونشأة البعث ، حتى يدفع بعضها بعضاً ، كما أن النشأة البرزخية وهي ثابتة الآن الأموات من لا تدفع الدنيا ، ولا الدنيا تدفعها . قال تعالى : « والله لقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فزين لهم الشيطان أعمالهم فهو وليهم اليوم ولهم عذاب أليم » النحل - ٦٣ .

فهذه حقيقة يوم القيمة ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء . ولذلك ربما سمي يوم الموت بالقيمة لارتفاع حجب الأسباب عن توهم الميت . فعن علي عليه السلام « من مات قامت قيامته » . و سيجيء بيان الجميع إنشاء الله .

والروايات المثبتة للرجعة وإن كانت مختلفة إلا أحاداً إلا أنها على كثرتها متحدة في معنى واحد وهو أن سير النظام الدنيوي متوجه إلى يوم تظهر فيه آيات الله كل الظهور ، فلا يعصى فيه سبحانه تعالى بل يعبد عبادة خالصة ، لا يشوبها هوى نفس ، و لا يعتبر به اغواء الشيطان ، و يعود فيه بعض الأموات من أولياء الله تعالى و أعدائه إلى الدنيا ، و يفصل الحق من الباطل .

وهذا يفيد : أن يوم الرجعة من مراتب يوم القيمة ، وإن كان دونه في الظهور لا مكان الشر والفساد فيه في الجملة دون يوم القيمة . ولذلك ربما ألحق به يوم ظهور المهدي عليه السلام أيضاً لظهور الحق فيه أيضاً تمام الظهور وإن كان هو أيضاً دون الرجعة ، وقد

ورد عن أئمة أهل البيت : «أيام الله ثلاثة : يوم الظهور ويوم الكرّة ويوم القيمة» ، و  
 في بعضها : أيام الله ثلاثة : يوم الموت و يوم الكرّة و يوم القيمة ، و هذا المعنى أعني  
 الاتحاد بحسب الحقيقة ، و الاختلاف بحسب المراتب هو الموجب لما ورد من تفسيرهم  
 عليهم السلام بعض الآيات بالقيمة تارة وبالرجعة أخرى وبالظهور ثالثة ، وقد عرفت  
 ممّا تقدّم من الكلام أنّ هذا اليوم ممكن في نفسه بل واقع ، ولا دليل مع المنكر  
 يدلّ على نفيه .





سَلِّ بْنِ إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ( ٢١١ ) زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ( ٢١٢ )

### ﴿ بيان ﴾

قوله تعالى : سل بني إسرائيل كم آتيناهم من آية إلهية تثبيت وتأيد لما اشتغل عليه قوله تعالى : فإن زلتم من بعد ما جائتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم الآية من الوعيد بأخذ المخالفين أخذ عزيز مقتدر .

يقول : هذه بنو إسرائيل في مرآكم ومنظركم وهي الأمة التي آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة والملك ، ورزقهم من الطيبات ، وفضلهم على العالمين ، سلمكم كم آتيناهم من آية بيينة ؟ وانظر في أمرهم من أين بدئوا وإلى أين كان مصيرهم ؟ حرقوا الكلام عن مواضعه ، ووضعوا في قبال الله وكتابه وآياته أمورا من عند أنفسهم بغيا بعد العلم ، فعاقبهم الله أشد العقاب بما حل فيهم من اتخاذ الأنداد ، والاختلاف وتشتت الآراء ، وأكل بعضهم بعضاً ، وذهاب السؤدد ، وفناء السعادة ، وعذاب الذلّة والمسكنة في الدنيا ، ولعذاب الآخرة أحرى وهم لا ينصرون .

وهذه هي السنّة الجارية من الله سبحانه : من يبدّل نعمة وأخرجها إلى غير مجراها فإن الله يعاقبه ، والله شديد العقاب ، وعليهذا فقوله : ومن يبدّل نعمة الله إلى قوله العقاب من قبيل وضع الكلّي موضع الجزمي للدلالة على الحكم ، سنّة جارية .

قوله تعالى : زَيْنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا في موضع التعليل لما مرّ ، وإن الملاك في ذلك تزين الحياة الدنيا لهم فإنّها إذا زينت لا نسان دعت إلى هوى النفس وشهواتها ، وأنست كل حقّ وحقيقة ، فلا يريد الإنسان إلا نيلها : من جاءه مقام

ومال وزينة ، فلا يلبث دون أن يستخدم كل شيء لأجلها وفي سبيلها ، ومن ذلك الدين  
 فيأخذ الدين وسيلة يتوسل بها إلى التميّزات و التعيّنات فينقلب الدين إلى تميّز  
 الزعماء والرؤساء و ما يلائم سوددهم و رياستهم ، وتقرب التّبعة والمقلّدة المرئوسين و  
 ما يجلب به تماثل رؤسائهم و ساداتهم كما نشاهده في أمّتنا اليوم ، وكنا شاهدناه في  
 بني إسرائيل من قبل ، وظاهر الكفر في القرآن هو الاستراعم من أن يكون كفراً اصطلاحياً  
 أو كفراً مطلقاً في مقابل الإيمان المطلق فتزيّن الحياة الدنيا لا يختص بالكفار اصطلاحاً  
 بل كل من ستر حقيقة من الحقائق الدينيّة ، وغيّر نعمة دينيّة فهو كافر زينت له  
 الحياة الدنيا فليتهيأ لشديد العقاب .

**قوله تعالى :** والذين اتقوا فوقهم يوم القيمة إلخ ، تبديل الإيمان بالتقوى  
 في هذه الجملة لكون الإيمان لا ينفع وحده لولا العمل .





كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣)

### ﴿ بيان ﴾

الآية تبيِّن السبب في تشريع أصل الدين وتكليف النوع الإنساني به ، وسبب وقوع الاختلاف فيه ببيان : أن الإنسان - وهو نوع مفطور على الاجتماع والتعاون - كان في أول اجتماعه أمة واحدة ، ثم ظهر فيه بحسب الفطرة الاختلاف في اقتناء المزايا الحيويّة ، فاستدعى ذلك وضع قوانين ترفع الاختلافات الطارئة ، والمشاجرات في لوازم الحياة فألبست القوانين الموضوعية لباس الدين ، وشفعت بالتبشير والإنذار : بالشواب والعقاب ، وأصلحت بالعبادات المندوبة إليها بعث النبيين ، وإرسال المرسلين . ثم اختلفوا في معارف الدين وأوامر المبدء والمعاد ، فاختلف بذلك أمر الوحدة الدينيّة ، وظهرت الشّعوب والأحزاب ، وتبع ذلك الاختلاف في غيره ، ولم يكن هذا الاختلاف الشّاني إلا بغياً من الذين أوتوا الكتاب ، وظلماً وعتواً منهم بعد ما تبيّن لهم أصوله ومعارفه ، وتمت عليهم الحجّة . فالاختلاف اختلافان : اختلاف في أمر الدين مستند إلى بغى الباغين دون فطرتهم وغريزتهم ، واختلاف في أمر الدنيا وهو فطريّ وسبب لتشريع الدين ثم هدى الله سبحانه المؤمنين إلى الحقّ المختلف فيه بإذنه ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

فالدين الإلهيّ هو السبب الوحيد لسعادة هذا النوع الإنسانيّ ، والمصلح لأمر حيوته ، يصلح الفطرة بالفطرة ويعدّل قواها المختلفة عند طغيانها ، وينظّم للإنسان سلك حيوته الدنيويّة والأخرويّة ، والماديّة والمعنويّة . فهذا إجمال تاريخ حيوة هذا

النوع (الحيوة الاجتماعية والدنيّة) على ما تعطيه هذه الآية الشريفة .  
وقد اكتفت في تفصيل ذلك بما تفيدته متفرقات الآيات القرآنيّة النازلة في  
شئون مختانة .

### ﴿بدء تكوين الانسان﴾

وحصل ما تبيّن منه تلك الآيات على تفرّقها أنّ النوع الانسانيّ ولا كلّ نوع  
إنسانيّ بل هذا النسل الموجود من الإنسان ليس نوعاً مشتقاً من نوع آخر حيوانيّ  
أو غيره : حوّله إليه الطبيعة المتحوّلة المتكاملة ، بل هو نوع أبعده الله تعالى من الأرض  
، فقد كانت الأرض وما عليها والسماء ولا إنسان ثمّ خلق زوجان اثنتان من هذا النوع  
وإليهما ، ينشئ هذا النسل الموجود . قال تعالى : « إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَ  
جَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ ۚ الْحَجَرَاتِ ١٣ » وقال تعالى : « خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلْنَا  
زَوْجَهَا ۚ الْأَعْرَافِ ١٨٨ » وقال تعالى : « كَمْثِلَ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ۚ آلِ عِمْرَانَ ٥٩ . وَأَمَّا مَا  
افترضه علماء الطبيعة من تحوّل الأنواع وأنّ الإنسان مشتقّ من القرد ، وعليه مدار البحث  
الطبيعيّ اليوم أو متحوّل من السمك على ما احتمله بعض فإنّما هي فرضيّة ، والفرضيّة  
غير مستندة إلى العلم اليقينيّ وإنّما توضع لتصحيح التعليلات والبيانات العلميّة ، ولا ينافي  
اعتبارها اعتباراً للحقائق اليقينيّة ، بل حتّى الإمكانات الذهنيّة ، إذ لا اعتبار لها أزيد من  
تعليل الآثار والأحكام المربوطة بموضوع البحث ، وسنستوعب هذا البحث إنشاء الله في سورة  
آل عمران في قوله تعالى : « إِنِّ مِثْلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمْثِلَ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تَرَابٍ ۚ آلِ عِمْرَانَ ٥٩ .

### ﴿تركيبه من روح وبدن﴾

وقد أنشأ الله سبحانه هذا النوع - حين ما أنشاء - مركباً من جزئين ومؤلّفاً  
من جوهرين ، مادّة بدنيّة ، وجوهر مجرد هي النفس والروح ، وهما متلازمان و  
متصاحبان مادامت الحيوة الدنيويّة ، ثمّ يموت البدن ويفارقه الروح الحيّة ، ثمّ يرجع  
الإنسان إلى الله سبحانه : قال تعالى : « وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ  
نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظاً - أَمَّا  
فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ

ذلك لميتون ثم إنكم يوم القيمة تبعثون ، المؤمنون - ١٦ ( انظر إلى موضع قوله ثم أنشأناه خلقاً آخر ) . وفي هذا المعنى قوله تعالى : « فإذ أسويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين » ص - ٧٢ . وأوضح من الجميع قوله سبحانه : « وقالوا إذا ضللنا في الأرض أنمنا لنفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون قل يتوفيكُم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون » السجدة - ١١ فإنه تعالى أجاب عن إشكالهم بتفرق الأعضاء والأجزاء واستهلاكها في الأرض بعد الموت فلا تصلح للبعث بأن ملك الموت يتوفيتهم ويضبطهم فلا يدعهم ، فهم غير أبدانهم ! فأبدانهم تفضل في الأرض لكنهم أي نفوسهم غير ضالّة ولا فائمة ولا مستهلكة . وسيجيء إنشاء الله استيفاء البحث عما يعطيه القرآن في حقيقة الروح الإنساني في المحل المناسب له .

### ﴿ شعوره الحقيقي وارتباطه بالأشياء ﴾

وقد خلق الله سبحانه هذا النوع ، وأودع فيه الشعور ، ورغب فيه السمع والبصر والفؤاد ، ففيه قوة الإدراك والفكر ، به يستحضر ما هو ظاهر عنده من الحوادث وما هو موجود في الحال وما كان وما سيكون ويؤول إليه أمر الحوادث والوقوع ، فله إحاطة بما بجميع الحوادث . قال تعالى : « علم الإنسان ما لم يعلم » العلق - ٥ وقال تعالى : « والله آخر جكم من بطون أممياتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة » النحل - ٧٨ وقال تعالى : « و علم آدم الأسماء كلها » البقرة - ٣١ . وقد اختار تعالى لهذا النوع سنخ وجود يقبل الارتباط بكل شيء ، ويستطيع الانتفاع من كل أمر ، أعم من الاتصال أو التوسل به إلى غيره بجعله آلة وأداة للاستفادة من غيره ، كما نشاهده من عجيب احتمالاته الصناعية ، وسلوكه في مسالكه الفكرية . قال تعالى : « خلق لكم ما في الأرض جميعاً » البقرة - ٢٩ وقال تعالى : « وسخر لكم ما في السموات والأرض جميعاً منه » البقرة - ١٢ إلى غير ذلك من الآيات الناطقة بكون الأشياء مسخرة للإنسان .

## ﴿علومه العملية﴾

وأنتجت هاتان العنيتان : أعني قوّة الفكر والإدراك ورابطة التسخير عناية نالّة عجيبة وهي أن يهيئ لنفسه علوماً وإدراكات يعتبرها اعتباراً للورود في مرحلة التصرف في الأشياء وفعليّة التأثير والفعل في الموجودات الخارجة عنه للارتفاع بذلك في حفظ وجوده وبقائه .

توضيح ذلك : أنك إذا خلّيت ذهنك وأقبلت به على الإنسان - هذا الموجود الأرضي الفعّال بالفكر والإرادة - واعتبرت نفسك كأنك أول ما تشاهده وتقبل عليه وجدت الفرد الواحد منه أنه في أفعاله الحيويّة يوسّط إدراكات وأفكاراً جمّة غير محصورة يكاد يدّش من كثرتها واتّساع أطرافها وتمتدّت جهاتها العقل ، وهي علوم كانت العوامل في حصولها واجتماعها وتجزّيها وتركيبها الحواس الظاهرة والباطنة من الإنسان ، أو تصرف القوّة الفكرية فيها تصرفاً ابتدائياً أو تصرفاً بعد تصرف . وهذا أمر واضح يجده كل إنسان من نفسه ومن غيره لا يحتاج في ذلك إلى أزيد من تنبيه وإيقاظ .

ثم إذا كرّرت النظر في هذه العلوم والإدراكات وجدت شطراً منها لا يصلح لأن يتوسّط بين الإنسان وبين أفعاله الإردائية كمفاهيم الأرض والسماء والماء والهواء والإنسان والفرس ونحو ذلك من التصوّرات ، وكمعاني قولنا : الأربعة زوج ، والماء جسم سيّال ، والتفاح أحد الثمرات ، وغير ذلك من التصديقات ، وهي علوم وإدراكات تحقّقت عندنا من الفعل والانفعال الحاصل بين المادّة الخارجيّة وبين حواسنا وأدواتنا الإدراكية ، ونظيرها علمنا الحاصل لنا من مشاهدة نفوسنا وحضورها لدينا (ما نحكي عنه بلفظ أنا) ، والكليّات الأخر المعقولة . فهذه العلوم والإدراكات لا يوجب حصولها لنا تحقيق إرادة ولا صدور فعل ، بل إنّما تحكي عن الخارج حكاية .

وهناك شطر آخر بالعكس من الشطر السابق كقولنا : إنّ هناك حسناً وقبحاً وما ينبغي أن يفعل وما يجب أن يترك ، والخير يجب رعايته ، والعدل حسن ، والظلم قبيح ومثل مفاهيم الرياسة والرؤسيّة ، والعبدية والملوكة فهذه سلسلة من الأفكار والإدراكات

لاهمّ لنا إلا أن نشغل بها ونستعملها ولا يتمّ فعل من الأفعال الإرادية إلا بتوسيطها والتوسّل بها لاقتناء الكمال وحيازة مزايا الحياة .

وهي معذلك لا تحكي عن أمور خارجيّة ثابتة في الخارج مستقلّة عنا وعن أفهامنا كما كان الأمر كذلك في القسم الأوّل ففي علوم وإدراكات غير خارجة عن محوطة العمل ولأحاصلة فينا عن تأثير العوامل الخارجيّة، بل هي ممّا هيّا ناه نحن وألهمناه من قبل إحساسات باطنيّة حصلت فينا من جهة اقتضاء قوانا الفعّالة ، وجهاز اتنا العاملة للفعل و العمل ، فقوانا الغذائية أو المولّدة للمثل بنزوعها نحو العمل ، ونفورها عمّا لا يلائمها يوجب حدوث صور من الإحساسات : كالحبّ والبغض ، والشوق والميل والرغبة ، ثمّ هذه الصور الإحساسيّة تبعثنا إلى اعتبار هذه العلوم والإدراكات من معنى الحسن و القبح ، و ينبغي ولا ينبغي ، ويجب ويجوز ، إلى غير ذلك ، ثمّ بتوسطها بيننا وبين المادة الخارجيّة وفعلنا المتعلّق بها يتمّ لنا الأمر ، فقد تبيّن أنّ لنا علوماً وإدراكات لقيمة لها إلا العمل ، ( وهي المسمّاة بالعلوم العمليّة ) ولاستيفاء البحث عنها محلّ آخر .

والله سبحانه ألهمها الإنسان ليجهّزه للورود في مرحلة العمل ، والأخذ بالتصرّف في الكون ، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً . قال تعالى : «الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى» طه - ٥٠ وقال تعالى : «الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى» الأعلى - ٣ ، وهذه هداية عامّة لكلّ موجود مخلوق إلى ما هو كمال وجوده ، وسوق له إلى الفعل والعمل لحفظ وجوده وبقائه ، سواء كان ذا شعور أو فاقدًا للشعور .

وقال تعالى في الإنسان خاصّة : «ونفس وما سوّأها فألهمها فجورها وتقواها» الشمس - ٨ . فأفاد أنّ الفجور والتقوى معلومان للإنسان بإلهام فطريّ منه تعالى ، وهما ما ينبغي أن يفعله أو يراعيه وما لا ينبغي ، وهي العلوم العلميّة الّتي لا اعتبار لها خارجة عن النفس الإنسانيّة ، ولعلّه إليه الإشارة بإضافة الفجور والتقوى إلى النفس .

وقال تعالى : «وما هذه الحيوة الدّنيا إلّا لعب ولهو وإنّ الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون» العنكبوت - ٦٤ فإنّ اللعب لاحتقيقه إلّا الخيال فقط ، كذا الحيوة الدّنيا :

من جاء ومال وتقدم وتأخر ورياسة ومرؤسية وغير ذلك إنما هي أمور خيالية لا واقع لها في الخارج عن ذهن الذاهن ، بمعنى أن الذي في الخارج إنما هو حركات طبيعية يتصرف بها الإنسان في المادة من غير فرق في ذلك بين أفراد الإنسان وأحواله. فالموجود بحسب الواقع من «الإنسان الرئيس» إنسانيته ، وأماريسته فإِنَّمَا هي في الوهم ، ومن «الثوب المملوك» الثوب مثلاً ، وأما أَنَّهُ مملوك فأمر خيالي لا يتجاوز حدَّ الذَّهن ، وعلى هذا القياس .

### ﴿ جريه على استخدام غيره انتفاعاً ﴾

فهذه السلسلة من العلوم والإدراكات هي التي تربط الإنسان بالعمل في المادة ، ومن جملة هذه الأفكار والتّصديقات تصديق الإنسان بأنّه «يجب أن يستخدم كلّ ما يمكنه استخدامه في طريق كماله ، و بعبارة أخرى إذعاناً بأنّه ينبغي أن ينتفع لنفسه ، ويستبقي حيوته بأيّ سبب أمكن ، وبذلك يأخذ في التّصرّف في المادة ، و يعمل آلات من المادة . يتصرّف بها في المادة كاستخدام السكين للقطع ، واستخدام الإبرة للخياطة ، واستخدام الإهلاء لحبس المايعات ، واستخدام السلم للصعود ، إلى غير ذلك ممّا لا يحصى كثرة ، ولا يعدّ من حيث التّركيب والتّفصيل ، وأنواع الصّناعات والفنون المتّخذة لبلوغ المقاصد والأغراض المنظورة فيها .

وبذلك يأخذ الإنسان أيضاً في التّصرّف في النّبات بأنواع التّصرّف ، فيستخدم أنواع النّبات بالتّصرّف فيها في طريق الغذاء واللباس والسكنى وغير ذلك ، و بذلك يستخدم أيضاً أنواع الحيوان في سبيل منافع حيوته ، فينتفع من لحمها ودمها وجلدها وشعرها وبرها وقرنها وروثها ولبنها ونتاجها وجميع أفعالها ، ولا يقتصر على سائر الحيوان دون أن يستخدم سائر أفراد نوعه من الّآدميين ، فيستخدمها كلّ استخدام ممكن ، ويتصرّف في وجودها وأفعالها بما يتيسّر له من التّصرّف ، كلّ ذلك ممّا لا ريب فيه .

### ﴿ كونه مدنياً بالطبع ﴾

غير أن الإنسان لمّا وجد سائر الأفراد من نوعه ، و هم أمثاله ، يريدون منه ما يريدونه منهم ، صالحهم ورضى منهم أن ينتفعوا منه وزان ما ينتفع منهم ، وهذا

حكمه بوجوب اتخاذ المدنية ، و الاجتماع التعاوني ، و يلزمه الحكم بلزوم استقرار الاجتماع بنحو ينال كل ذي حق حقه ، و يتعادل النسب و الروابط ، و هو العدل الاجتماعي .

فهذا الحكم أعني حكمه بالاجتماع المدني ، والعدل الاجتماعي إنما هو حكم دعا إليه الاضطرار ، ولولا الاضطرار المذكور لم يقض به إلا إنسان أبداً . وهذا معنى ما يقال : إن الإنسان مدني بالطبع ، وإنه يحكم بالعدل الاجتماعي ، فإن ذلك أمر ولده حكم الاستخدام المذكور اضطراراً على ما مر بيانه ، و لذلك كلما قوي إنسان على آخر ضعف حكم الاجتماع التعاوني و حكم العدل الاجتماعي أثراً فـلا يراعيه القوي في حق الضعيف ، و نحن نشاهد ما يقاسيه ضعفاء الملل من الأمم القويّة . وعلى ذلك جرى التاريخ أيضاً إلى هذا اليوم الذي يدعى أنه عصر الحضارة والحريّة . وهو الذي يستفاد من كلامه تعالى كقوله تعالى : « إنه كان ظلوماً جهولاً » الأحزاب - ٧٢ و قوله تعالى : « إن الإنسان خلق هلوعاً » المعارج - ١٩ و قوله تعالى : « إن الإنسان لظلم كفتار » إبراهيم - ٣٤ و قوله تعالى : « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » العلق - ٧ .

ولو كان العدل الاجتماعي ممّا يقتضيه طباع الإنسان اقتضاءً أولياً لكان الغالب على الاجتماعات في شؤونها هو العدل ، وحسن تشريك المساعي ، ومراعاة التساوي ، مع أن المشهود دائماً خلاف ذلك ، وإعمال القدرة والغلبة وتحميل القويّ العزيز مطالبه على الضعيف ، واستغلال الغالب للمغلوب واستعباده في طريق مقاصده و مطامعه .

### ﴿ حدوث الاختلاف بين أفراد الإنسان ﴾

ومن هنا يعلم أن فريضة الاستخدام في الإنسان بانضمامها إلى الاختلاف الضروري بين الأفراد من حيث الخلقة ومنطقة الحياة والعادات والأخلاق المستندة إلى ذلك ، وإنتاج ذلك للاختلاف الضروري من حيث القوة والضعف يؤدي إلى الاختلاف و الانحراف عن ما يقتضيه الاجتماع الصالح من العدل الاجتماعي ، فيستفيد القوي من

الضعيف أكثر ممّا يفيد، وينتفع الغالب من المغلوب من غير أن ينفعه، ويقال له الضعيف المغلوب، مادام ضعيفاً مغلوباً بالحيلة والمكيدة والخدعة، فإذ اقوي و غلب قابل ظالمه بأشدّ الانتقام، فكان بروز الاختلاف مؤدياً إلى الهرج والمرج، و داعياً إلى هلاك الإنسانية، وفناء الفطرة، وبطلان السعادة .

وإلى ذلك يشير تعالى بقوله : «وما كان الناس إلا أُمّة واحدة فاختلّفوا» يونس - ١٩ وقوله تعالى : «ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك و لذلك خلّقمهم» هود - ١١٩ وقوله تعالى في الآية المطبوح عنها : «ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه الآية». وهذا الاختلاف كما عرفت ضروري الوقوع بين أفراد المجتمعين من الإنسانية باختلاف الخلقة باختلاف المواد، وإن كان الجميع إنساناً بحسب الصورة الإنسانية الواحدة، والوحدة في الصورة تقتضي الوحدة من حيث الأفكار والأفعال بوجه. واختلاف المواد يؤدي إلى اختلاف الإحساسات والإدراكات والأحوال في عين أنّها متّحدة بنحو، واختلافها يؤدي إلى اختلاف الأغراض والمقاصد والآمال، واختلافها يؤدي إلى اختلاف الأفعال، وهو المؤدّي إلى اختلال نظام الاجتماع .

وظهور هذا الاختلاف هو الذي استدعى التشريع، وهو جعل قوانين كلّية يوجب العمل بها ارتفاع الاختلاف، ونيل كلّ ذي حقّ حقّه، وتحميلها على الناس . والطريق المتّخذ اليوم لتحصيل القوانين المصلحة للاجتماع على الإنسان أحد طريقين :

الاول : إلهاء الاجتماع على طاعة القوانين الموضوعة لتشريك الناس في حقّ الحيوة وتسويتهم في الحقوق، بمعنى أن ينال كلّ من الأفراد ما يليق به من كمال الحيوة، مع إلغاء المعارف الدنيوية : من التوحيد والأخلاق الفاضلة، و ذلك بجعل التوحيد ملغى غير منظور إليه ولا مرعي، وجعل الأخلاق تابعة للاجتماع وتحوّله، فما وافق حال الاجتماع من الأخلاق فهو الخلق الفاضل، فيوماً العفة، ويوماً الخلاعة، و يوماً الصدق، ويوماً الكذب، ويوماً الأمانة، ويوماً الخيانة، وهكذا .

والثاني : إلهاء الاجتماع على طاعة القوانين بترية ما يناسبها من الأخلاق و

احترامها مع إلغاء المعارف الدينية في التربية الاجتماعية .

وهذان طريقان مسلوكان في رفع الاختلافات الاجتماعية وتوحيد الأمة المجتمعة من الإنسان : أحدهما بالقوة المجبرة والقدرة المتسلطة من الإنسان فقط ، و ثانيهما بالقوة والتربية الخلقية ، لكنهما على ما يتلوهم من المفاسد مبنيان على أساس الجهل ، فيه بوار هذا النوع ، وهلاك الحقيقة الإنسانية ، فإن هذا الإنسان موجود مخلوق لله متعلق الوجود بصنعه ، بدء من عنده وسيعود إليه ، فله حياة باقية بعد الارتحال من هذه النشأة الدنيوية ، حياة طويلة الذيل ، غير منقطع الأمد ، وهي مرتبة بهذه الحياة الدنيوية ، وكيفية سلوك الإنسان فيها ، واكتسابه الأحوال والملكات المناسبة للتوحيد الذي هو كونه عبداً لله سبحانه ، بادئاً منه عائداً إليه ، وإذا بنى الإنسان حياته بهذه الدنيا على نسيان توحيده ، وستر حقيقة الأمر فقد أهلك نفسه ، وأباد حقيقته .

فمثل الناس في سلوك هذين الطريقين كمثل قافلة أخذت في سلوك الطريق إلى بلد ناء معهما يكفيهما من الزاد ولوازم السير ، ثم نزلت في أحد المنازل في أثناء الطريق فلم يلبث هنيئة حتى أخذت في الاختلاف : من قتل وضرب وهتك عرض وأخذ مال و غصب مكان وغير ذلك ، ثم اجتمعوا يتشاورون بينهم على اتخاذ طريقة يحفظونها لصون أنفسهم وأموالهم .

فقال قائل منهم : عليكم بالاشتراك في الانتفاع من هذه الأعراض والأمتعة ، والتمتع على حسب ما لكل من الوزن الاجتماعي ، فليس إلا هذا المنزل والمتخلف عن ذلك يؤخذ بالقوة والسياسة .

وقال قائل منهم : ينبغي أن تضعوا القانون المصلح لهذا الاختلاف على أساس الشخصيات الموجودة الذي جثم بها من بلدكم الذي خرجتم منه ، فيتأدب كل بما له من الشخصية الخلقية ، ويأخذ بالرحمة لرفقائه والعطوفة والشهامة والفضيلة ، ثم تشركوا مع ذلك في الانتفاع عن هذه الأمتعة الموجودة ، فليست إلا لكم ولمنزلكم هذا . وقد أخطأ القائلان جميعاً ، وسبها عن أن القافلة جميعاً على جناح سفر ، ومن الواجب على المسافر أن يراعي في جميع أحواله حال وطنه وحال غاية سفره التي يريد

فلو نسي شيئاً من ذلك لم يكن يستقبله إلا الضلال والغى والهلاك .  
والقائل المصيب بينهم هو من يقول : تمتعوا من هذه الأمتعة على حسب ما  
يكفيكم لهذه الليلة ، وخذوا من ذلك زاداً لما هو أمامكم من الطريق ، وما أريد منكم  
في وطنكم ، وما تريدونه لملقصدكم .

### ﴿رفع الاختلاف بالدين﴾

ولذلك شرع الله سبحانه ما شرعه من الشرايع والقوانين واضعاً ذلك على أساس  
التوحيد ، والاعتقاد والخلق والأفعال . وبعبارة أخرى وضع التشريع مبني على أساس  
تليم الناس وتعريفهم ما هو حقيقة أمرهم من مبدئهم إلى معادهم ، وأنهم يجب أن يسلكوا  
في هذه الدنيا حياة تنفعهم في غد ، ويعملوا في العاجل ما يعيشون به في الآجل ، فالتشريع  
الديني والتقنين الإلهي هو الذي بُني على العلم فقط دون غيره . قال تعالى : «إن الحكم  
إلا لله أمر أن لا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون» التوبة -  
٤٠ . وقال تعالى في هذه الآية المبحوث عنها : فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين  
وأُنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه الآية . فقارن بعثة الأنبياء  
بالتبشير والإذار بما نزل الكتاب المشتمل على الأحكام والشرايع الرافعة لاختلافهم .  
ومن هذا الباب قوله تعالى : «وقالوا ماهي إلا حيوتنا الدنيا نموت ونحيا وما  
يهلكنا إلا الدهر» ما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون» الجاثية - ٢٠ . فإنهم إنما  
كانوا يصرون على قولهم ذلك ، لالدفع القول بالمعاد فحسب ، بل لأن القول بالمعاد  
والدعوة إليه كان يستتبع تطبيق الحياة الدنيوية على الحياة بنحو العبودية . وطاعة  
قوانين دينية مشتملة على مواد وأحكام تشريعية : من العبادات والمعاملات والسياسات .  
و بالجملة القول بالمعاد كان يستلزم التدبير بالدين ، واتباع أحكامه في  
الحياة ، ومراقبة البعث والمعاد في جميع الأحوال والأعمال ، فردوا ذلك ببناء الحياة  
الاجتماعية على مجرد الحياة الدنيا من غير نظر إلى ما وراءها .  
وكذا قوله تعالى : «إن الظن لا يغني عن الحق شيئاً فأعرض عن تولي عن

ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم « النجم - ٣٠ . فيمن تعالى أنهم يبنون الحياة على الظن والجهل ، والله سبحانه يدعو إلى دار السلام ، و يبني دينه على الحق والعلم ، والرّسول يدعو الناس إلى ما يحييهم . قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرّسول إذا دعاكم لما يحييكم » الأنفال - ٢٤ وهذه الحياة هي التي يشير إليها قوله تعالى : « فمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » الأنعام - ١٢٢ وقال تعالى : « فمن يعلم أنهما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى إنما يتذكر أولوا الألباب » الرعد - ٢١ وقال تعالى : « قل إنما أَدْعُو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » يوسف - ١٠٨ وقال تعالى : « هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب » الزمر - ٩ وقال تعالى : « يعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم » البقرة - ١٢٩ إلى غير ذلك . والقرآن مشحون بمدح العلم والدعوة إليه والحثّ به . وناهيك فيه أنه يسمّي العهد السابق على ظهور الإسلام عهد الجاهليّة كما قيل .

فما أبعد من الإنصاف قول من يقول : إن الدين مبنيّ على التقليد والجهل مضادّ للعلم ومباهتله ، وهؤلاء القائلون أناس اشتغلوا بالعلوم الطبيعيّة والاجتماعيّة فلم يجدوا فيها ما يثبت شيئاً ممّا وراء الطبيعة ، فظنّوا عدم الإثبات إثباتاً للعدم ، و قد أخطأوا في ظنّهم ، وخبطوا في حكمهم ، ثمّ نظروا إلى ما في أيدي أمثالهم من الناس المتهوّسين من أمور يسمّونه باسم الدين ، ولا حقيقة لها غير الشرك ، والله بريء من المشركين ورسوله ، ثمّ نظروا إلى الدّعوة الدينيّة بالتعبّد والطاعة فحسبوها تقليداً وقد أخطأوا في حسابهم ، والدين أجلّ شأناً من أن يدعو إلى الجهل والتقليد ، و أ منع جانباً من أن يهدي إلى عمل لا علم معه ، أو يرشد إلى قول بغير هدى ولا كتاب منير . ومن أظلم ممّن افترى على الله كذباً أو كذب بالحقّ لما جاءه .

### ﴿الاختلاف في نفس الدين﴾

و بالجملة فهو تعالى يخبرنا أن الاختلاف في المعاش وأمر الحياة إنما رفع أول ما رفع بالدين ، فلو كانت هناك قوانين غير دينيّة فهي مأخوذة بالتقليد من الدين .

ثمَّ إِنَّهُ تَعَالَى يَخْبِرُنَا أَنَّ الْاِخْتِلَافَ نَشَأَ بَيْنَ الشُّعُوبِ فِي نَفْسِ الدِّينِ وَإِنَّمَا أَوْجَدَهُ حَمَلَةُ الدِّينِ مِمَّنْ أُوتِيَ الْكِتَابَ الْمُبِينُ : من العلماء بكتاب الله بغياً بينهم وظلماً وعتواً. قال تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً والذي أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه - إلى أن قال - وما تفرّقوا إلا من بعد ما جائهم العلم بغياً بينهم ولولا كلمة سبقت من ربّك إلى أجل مسمى لقضى بينهم » السّورى - ١٤ و قال تعالى : « وما كان النّاس إلا أُمَّة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربّك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون » - يونس ١٩. والكلمة المشار إليها في الآيتين هو قوله تعالى : « ولكم في الأرض مستقرّ ومتاع إلى حين » - ٢٣ .

فالاختلاف في الدّين مستند إلى البغى دون الفطرة ، فإنّ الدين فطريّ وما كان كذلك لا تضلّ فيه الخلقة ولا يتبدّل فيه حكمها كما قال تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله الّتي فطر النّاس عليها لا تبدّل لخلق الله ذلك الدين القيم » الرّوم - ٣٠. فهذه جمل ما بني عليه الكلام في هذه الآية الشريفة .

### ﴿الانسان بعد الدنيا﴾

ثمَّ إِنَّهُ يَخْبِرُنَا أَنَّ الْإِنْسَانَ سِيرَ تَحُلٍ مِنَ الدُّنْيَا الّتي فيه حيواته الاجتماعيّة و ينزل داراً أُخْرَى سَمّاها بالبرزخ ، ثمَّ داراً أُخْرَى سَمّاها بالآخرة غير أنّ حيواته بعد هذه الدّنيا حياة انفراديّة . ومعنى كون الحيوة انفراديّة ، أنّها لا ترتبط بالاجتماع التّعاوني ، والتشارك والتناصر ، بل السّلطنة هناك في جميع أحكام الحيوة لوجود نفسه لا يؤثّر فيه وجود غيره بالتعاون والتناصر أصلاً ، ولو كان هناك هذا النظام الطّبيعيّ المشهود في المادّة لم يكن بدّ عن حكومة التعاون والتشارك ، لكنّ الإنسان خلفه وراء ظهره ، وأقبل إلى ربّه ، وبطل عنه جميع علومه العمليّة ، فلا يرى لزوم الاستخدام والتصرّف والمدنيّة والاجتماع التّعاوني ولا سائر أحكامه الّتي يحكم بها في الدّنيا ، وليس له إلا صحابة عمله ، ونتيجة حسناته وسيّئاته ، ولا يظهر له إلا حقيقة الأمر و يبدو له البناء العظيم الّذي هم فيه مختلفون . قال تعالى : « ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً »

مريم-١٨ وقال تعالى : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أوّل مرّة وتركتهم ماخوّلناكم وراء ظهوركم وما نرى معكم شفعاءكم الذين كنتم زعمتم أنّهم فيكم شركاء لقد تقطع بينكم وضلّ عنكم ما كنتم تزعمون » الأنعام - ٩٤ . وقال تعالى : « هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت وردّوا إلى الله مولاهم الحقّ وضلّ عنهم ما كان يفترون » يونس - ٣٠ وقال تعالى : « ما لكم لا تناصرون بل هم اليوم مستسلمون » الصافات - ٢٦ وقال تعالى : « يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار » إبراهيم - ٤٨ وقال تعالى : « وأنّ ليس للإنسان إلّا ما سعى وأنّ سعيه سوف يرى ثمّ يجزاه الجزاء الأوفى » النجم - ٤١ إلى غير ذلك من الآيات ، فهذه الآيات كما ترى تدلّ على أنّ الإنسان يبدّل بعد الموت نحو حيوته فلا يحيى حياة اجتماعيّة مبنية على التعاون والتناصر ، ولا يستعمل ما أبدعه في هذه الحيوة من العلوم العمليّة ، ولا يجنى إلّا ثمرة عمله ونتيجة سعيه ، ظهر له ظهوراً فيجزى به جزاء .

**قوله تعالى :** كان النّاس أمة واحدة اه ، النّاس معروف وهو الأفراد المجتمعون من الإنسان ، و الأمة هي الجماعة من النّاس ، و ربّما يطلق على الواحد كما في قوله تعالى : إنّ إبراهيم كان أمة قانتاً لله ، النحل - ١٢٠ . و ربّما يطلق على زمان معتدّ به كقوله تعالى : « فادّكر بعداً أمة » يوسف - ٤٥ . أى بعد سنين وقوله تعالى : « ولئن أخّرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة » هود - ٨ ، و ربّما يطلق على الملة والدين كما قال بعضهم في قوله تعالى : « إنّ هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربّكم فاتقون » المؤمنون - ٥٣ وفي قوله تعالى : « إنّ هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربّكم فاعبدون » الأنبياء - ٩٢ . وأصل الكلمة من أمّ يأمّ إذا قصد فأطلق لذلك على الجماعة لكن لا على كل جماعة ، بل على جماعة كانت ذات مقصد واحد وبغية واحدة هي رابطة الوحدة بينها ، وهو المصالحح لإطلاقها على الواحد وعلى سائر معانيها إذا أطلقت .

وكيف كان فظاهر الآية يدلّ على أنّ هذا النوع قد مرّ عليهم في حيوتهم زمان كانوا على الاتحاد والاتفاق ، وعلى السّذاجة والبساطة ، لا اختلاف بينهم بالمشاجرة والمدافعة في أمور الحيوة ، ولا اختلاف في المذاهب والآراء ، والدليل على نفى الاختلاف

قوله تعالى: «فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين و أنزل معهم الكتاب لِيُحْكَمَ بِهِنَّهْمَ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ» ، فقد رتب بعثة الأنبياء وحكم الكتاب في مورد الاختلاف على كونهم أمة واحدة فالاختلاف في أمور الحياة ناش بعد الاتحاد والوحدة ، والدليل على نفى الاختلاف الثاني قوله تعالى : وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه بغياً بينهم فالاختلاف في الدين إنما نشأ من قبل حملة الكتاب بعد إنزاله بالبغي .

وهذا هو الذي يساعد عليه الاعتبار ، فإننا نشاهد النوع الإنساني لا يزال يرقى في العلم والفكر ، ويتقدم في طريق المعرفة والثقافة ، عاماً بعد عام ، وجيلاً بعد جيل ، وبذلك يستحكم أركان اجتماعه يوماً بعد يوم ، ويقوم على رفع دقائق الاحتياج ، والمقاومة قبل مزاحمات الطبيعة ، والاستفادة من مزايا الحياة ، وكلما رجعنا في ذلك القهقري وجدناه أقبل عرفاناً برموز الحياة ، وأسرار الطبيعة ، وينتهي بنا هذا السلوك إلى الإنسان الأسمى الذي لا يوجد عنده إلا النزر القليل من المعرفة بشئون الحياة وحدود العيش ، كأنهم ليس عندهم إلا البديهيات ويسير من النظريات الفكرية التي تهتت لهم وسائل البقاء بأبسط ما يكون ، كالغذاء بالنبات أو شيء من الصيد أو الإيواء إلى الكهوف والدفاع بالحجارة والأخشاب ونحو ذلك ، فهذا حال الإنسان في أقدم عهوده ، ومن المعلوم أن قوماً حالهم هذا الحال لا يظهر فيهم الاختلاف ظهوراً يعتد به ، ولا يبدو فيهم الفساد بدواً مؤثراً ، كالقطيع من الغنم لا هم لأفراد إلا الاهتداء لبعض إلى ما هتدى إليه بعض آخر ، والتجمع في المسكن والمعلف والمشراب .

غير أن الإنسان لوجود قريحة الاستخدام فيه كما أشرنا إليه فيما مر لا يجبره هذا الاجتماع القهري من حيث التعاون على رفع البعض حوائج البعض عن الاختلاف والتغلب والتغلب ، وهو ككل يوم يزداد علماً وقوة على طرق الاستفادة ، ويتنبه بمزايا جديدة ، ويتيقظ لطرق دقيقة في الانتفاع ، وفيهم الأقوياء وأولو السطوة وأرباب القدرة ، وفيهم الضعفاء ومن في رتبهم ، وهو منشاء ظهور الاختلاف ، الاختلاف الفطري الذي دعت إليه قريحة الاستخدام ، كما دعت هذه القريحة بعينها إلى الاجتماع والمدنية .

ولا ضير في تراحم حكيمين فطريين ، إذا كان فوقهما ثالث يحكم بينهما ، ويعدل

أمرهما ، ويصلح شأنهما ، وذلك كالإنسان تتسابق قواه في أفعالها ، و يؤدي ذلك إلى التمزاحم ، كما أن جاذبة التغذية تقضي بأكل ما لا تطيق هضمه الهاضمة ولا تسعها المعدة ، وهناك عقل يعدل بينهما ، ويقضي لكل بما يناسبه ، ويقدر فعل كل واحدة من هذه القوى الفعالة بما لا يزاحم الأخرى في فعلها .

والتنافي بين حكمين فطريين فيما نحن فيه من هذا القبيل ، فسلوك فطرة الإنسان إلى المدنية ثم سلوكها إلى الاختلاف يؤديان إلى التنافي ، ولكن الله يرفع التنافي برفع الاختلاف الموجود ببعث الأنبياء بالتبشير والإنذار ، وإنزال الكتاب الحاكم بين الناس فيما اختلفوا فيه .

وبهذا البيان يظهر فساد ما ذكره بعضهم : أن المراد بالآية أن الناس كانوا أمة واحدة على الهداية ، لأن الاختلاف إنما ظهر بعد نزول الكتاب بغياً بينهم ، والبغى من حملة الكتاب . وقد غفل هذا القائل عن أن الآية تثبت اختلافين اثنين لاختلاف واحد . وقدم بيانها . وعن أن الناس لو كانوا على الهداية فإنها واحدة من غير اختلاف ، فما هو الموجب بل ما هو المجرى لبعث الأنبياء وإنزال الكتاب وحملهم على البغى بالاختلاف ، وإشاعة الفساد ، وإثارة غرائز الكفر والفجور ومهلكات الأخلاق مع استبطانها ؟

ويظهر به أيضاً : فساد ما ذكره آخرون أن المراد بها أن الناس كانوا أمة واحدة على الضلالة ، إذ لو لاها لم يكن وجه لترتب قوله تعالى : فبعث الله النبيين إلخ . وقد غفل هذا القائل عن أن الله سبحانه يذكر أن هذا الضلال الذي ذكره وهو الذي أشار إليه بقوله سبحانه : فهدى الله المذنبين آمنوا لما اختلف فيه من الحق بإذنه إنا أنما نشاء عن سوء سريرة حملة الكتاب وعلماء الدين بعد نزول الكتاب ، وبيان آياته للناس ، فلو كانوا على الضلالة قبل البعث والإنزال وهي ضلالة الكفر والتفارق والفجور والمعاصي فما المصحح لنسبة ذلك إلى حملة الكتاب وعلماء الدين ؟

و يظهر به أيضاً ما في قول آخرين أن المراد بالناس بنوا إسرائيل حيث أن الله يذكر أنهم اختلفوا في الكتاب بغياً بينهم . قال تعالى : « فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم » الجاثية - ١٦ . وذلك أنه تفسير من غير دليل ، وهجر ذات صاف قوم بصفة

لا يوجب انحصار ما فيهم .

وأفسد من ذلك قول من قال : إن المراد بالناس في الآية هو آدم عليه السلام . والمعنى أن آدم عليه السلام كان أمة واحدة على الهداية ثم اختلف ذريته ، فبعث الله النبيين الخ ، والآية بجمعها لا تطابق هذا القول لأكمله ولا بعضه .

ويظهر به أيضاً فساد قول بعضهم : إن كان في الآية منسلخ عن الدلالة على الزمان كما في قوله تعالى : « وكان الله عزيزاً حكيماً » الفتح - ١٧ . فهو دال على الثبوت . والمعنى : أن الناس أمة واحدة من حيث كونهم مدنيين طبعاً فإن الإنسان مدنيّ بالطبع لا يتم حيوة الفرد الواحد منه وحده ، لكثرة حوائجه الوجودية ، واتساع دائرة لوازم حيوته ، بحيث لا يتم له الكمال إلا بالاجتماع والتعاون بين الأفراد والمبادلة في المساعي ، فيأخذ كل من نفع عمل ما يستحقه من هذه النتيجة و يعطي الباقي غيره ، ويأخذ بدله بقية ما يحتاج إليه ويستحقه في وجوده ، فهذا حال الإنسان لا يستغني عن الاجتماع والتعاون وقتاً من الأوقات ، يدل عليه ما وصل إلينا من تاريخ هذا النوع الاجتماعي المدني وكونه اجتماعياً مدينياً لم يزل على ذلك فهو مقتضى فطرته وخلقه غير أن ذلك يؤدي إلى الاختلاف ، واختلال نظام الاجتماع ، فشرع الله سبحانه بعنايته البالغة شرايع ترفع هذا الاختلاف ، وبلغها إليهم ببعث النبيين مبشرين ومنذرين ، و إنزال الكتاب الحاكم معهم للحكم في موارد الاختلاف .

فمحصّل المعنى أن الناس أمة واحدة مدنيّة بالطبع لاغنى لهم عن الاجتماع وهو يوجب الاختلاف ، فلذلك بعث الله الأنبياء وأنزل الكتاب .

ويرد عليه أولاً : أنه أخذ المدنيّة طبعاً أو لياً للإنسان ، والاجتماع والاشتراك في الحيوة لازماً ذاتياً لهذا النوع ، وقد عرفت فيما مر أن الأمر ليس كذلك ، بل أمر تصالحي اضطراري ، وأن القرآن أيضاً يدل على خلافه .

وثانياً : أن تفريع بعث الأنبياء وإنزال الكتب على مجرد كون الإنسان مدينياً بالطبع غير مستقيم إلا بعد تقييد هذه المدنيّة بالطبع بكونها مؤدية إلى الاختلاف ، وظهور الفساد ، فيحتاج الكلام إلى التقدير وهو خلاف الظاهر ، والقائل مع ذلك لا يرضى بتقدير

الاختلاف في الكلام .

وثالثاً : أنه مبني على أخذ الاختلاف الذي تذكره الآية وتعرض به اختلافاً واحداً ، والآية كالنص في كون الاختلاف اختلافين اثنين ، حيث تقول : و أنزل معهم الكتاب ليجحكم بين الناس فيما اختلفوا فيهاء فهو اختلاف سابق على الكتاب والمختلفون بهذا الاختلاف هم الناس ، ثم تقول وما اختلف فيه أى في الكتاب إلا الذين أوتوه أى علموا الكتاب وحملوه بغياً بينهم ، وهذا الاختلاف لاحق بالكتاب متأخر عن نزوله ، والمختلفون بهذا الاختلاف علماء الكتاب وحملته دون جميع الناس ، فأحد الاختلافين غير الآخر : أحدهما اختلاف عن بغى وعلم ، والآخر بخلافه .

**قوله تعالى :** فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين إلخ ، عبر تعالى بالبعث دون الإرسال وما في معناه لأن هذه الوحدة المخبر عنها من حال الإنسان الأولي حال خمود وسكوت ، وهو يناسب البعث الذي هو الإقامة عن نوم أو قنوط ونحو ذلك ، وهذه النكتة لعلها هي الموجبة للتعبير عن هؤلاء المبعوثين بالنبيين دون أن يعبر بآمرسلين أو الرسل ، على أن البعث وإنزال الكتاب كما تقدم بيانه حقيقتهم بيان الحق للناس وتنبيههم بحقيقة أمر وجودهم وحيوتهم ، وإنبأهم أنهم مخلوقون لربهم ، وهو الله الذي لا إله إلا هو ، وأنهم سالكون كادحون إلى الله مبعوثون ليوم عظيم ، واقفون في منزل من منازل السير ، لاحقيقة له إلا اللب والغرور ، فيجب أن يراعوا ذلك في هذه الحياة وأفعالها ، وأن يجعلوا نصب أعينهم أنهم من أين ، وفي أين ، وإلى أين . وهذا المعنى أنسب بلفظ النبي الذي معناه : من استقرّ عنده النبأ دون الرسول ، ولذلك عبر بالنبيين . وفي إسناد بعث النبيين إلى الله سبحانه دلالة على عصمة الأنبياء في تلقيهم الوحي وتبليغهم الرسالة إلى الناس وسيجي زيادة توضيح لهذا في آخر البيان . وأما التبشير والإنذار أى الوعد برحمة الله من رضوانه والجنة لمن آمن واتقى ، والوعيد بعذاب الله سبحانه من سخطه والنار لمن كذب وعصى فهما أمس مراتب الدعوة بحال الإنسان المتوسط الحال ، وإن كان بعض الصالحين من عباده وأوليائه لاتعلق نفوسهم بغير ربهم من ثواب أو عقاب .

**قوله تعالى :** وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه اه ، الكتاب فعال بمعنى المكتوب ، والكتاب بحسب المتعارف من إطلاقه وإن استلزم كتابة بالقلم لكن لكون اليهود والفرامين المفترضة إنما يرم بالكتابة غالباً شاع إطلاقه على كل حكم مفروض واجب الاتباع أو كل بيان بل كل معنى لا يقبل النقض في إبراهيم ، و قد كثر استعماله بهذا المعنى في القرآن . وبهذا المعنى سمي القرآن كتاباً وهو كلام إلهي . قال تعالى : « كتاب أنزلناه إليك مبارك » ص - ٢٩ وقال تعالى : « إن الصلوة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ، النساء - ١٠٢ . وفي قوله تعالى فيما اختلفوا فيه اه دلالة على أن المعنى : كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله الخ كما مر .

واللام في الكتاب إما للجنس وإما للعهد الذهني والمراد به كتاب نوح عليه السلام لقوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصي به نوحاً وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى » الشورى - ١٣ . فإن الآية في مقام الامتنان وتبين أن الشريعة النازلة على هذه الأمة جامعة لمتفرقات جميع الشرايع السابقة النازلة على الأنبياء السالفين مع ما يختص بوحية النبي ﷺ ، فالشريعة مختصة بهؤلاء الأنبياء العظام : نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﷺ .

ولما كان قوله تعالى : وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه الآية يدل على أن الشرع إنما كان بالكتاب دللت الآيتان بالانضمام أولاً : على أن لنوح عليه السلام كتاباً متضمناً لشريعة ، وأنه المراد بقوله تعالى : وأنزل معهم الكتاب ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه اه إما وحده أو مع غيره من الكتب بناء على كون اللام للعهد أو الجنس .

وثانياً : أن كتاب نوح أول كتاب سماوي متضمن للشريعة ، اذ لو كان قبله كتاب لكان قبله شريعة حاكمة ولذكرها الله تعالى في قوله : شرع لكم الآية .

وثالثاً : أن هذا العهد الذي يشير تعالى إليه بقوله : كان الناس أمة واحدة الآية كان قبل بعثة نوح عليه السلام وقد حكم فيه كتابه عليه السلام .

**قوله تعالى :** وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه بغياً بينهم اه ، قد مر أن المراد

به الاختلاف الواقع في نفس الدين من حملته ، وحيث كان الدين من الفطرة كما يدل عليه قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها » الروم - ٣٠ نسب الله سبحانه الاختلاف الواقع فيه إلى البغى .

وفي قوله تعالى : « لا الدين أو توأه » دلالة على أن المراد بالجملة هو الإشارة إلى الأصل في ظهور الاختلاف الديني في الكتاب لأن كل من انحرف عن الصراط المستقيم ، أو تدين بغير الدين يكون باغياً وإن كان ضالاً عن الصراط السوي ، فإن الله سبحانه لا يعذر الباغي ، وقد عذر من اشتبه عليه الأمر ولم يجد حياة ولم يهتد سبيلاً . قال تعالى : « إنما السبيل على الذين يظلمون الناس و يبغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم » الشورى - ٤٢ وقال تعالى : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم - إلى أن قال - : وآخرون مرجون لأمر الله إما يعبدهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم » التوبة - ١٠٧ وقال تعالى : « إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم و كان الله عفواً غفوراً » النساء - ٩٨ .

على أن الفطرة لا تنافي الغفلة والشبهة ، ولكن تنافي التعمد والبغى ، ولذلك خص البغى بالعلماء ومن استبان له الآيات الإلهية . قال تعالى : « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » البقرة - ٣٩ . والآيات في هذا المعنى كثيرة ، وقد قيد الكفر في جميعها بتكذيب آيات الله ثم أوقع عليه الوعيد ، وبالجملة فالمراد بالآية أن هذا الاختلاف ينتهي إلى بغى حملة الكتاب من بعد علم .

قوله تعالى : « فهدى الله الذين آمنوا لما اختلف فيه من الحق » بيان لما اختلف فيه وهو الحق الذي كان الكتاب نزل بمصاحبه ، كما دل عليه قوله تعالى : « وأنزل معهم الكتاب بالحق » . وعند ذلك عنت الهداية الإلهية بشأن الاختلافين معاً : الاختلاف في شأن الحياة ، والاختلاف في الحق والمعارف الإلهية الذي كان عامله الأصلي بغى حملة الكتاب ، وفي تقييد الهداية بقوله تعالى : « بإذنه دلالة على أن هداية الله تعالى

لهؤلاء المؤمنين لم تكن إلزاماً منهم ، وإيجاباً على الله تعالى أن يهديهم لإيمانهم ، فإنَّ الله سبحانه لا يحكم عليه حاكم ، ولا يوجب عليه موجب إلا ما أوجبه على نفسه ، بل كانت الهداية بإذنه تعالى ولو شاء لم يأذن ولم يهد ، وعليهذا فقولته تعالى : والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم بمنزلة التعليل لقوله بإذنه ، والمعنى إنَّما هداهم الله بإذنه لأنَّ له أن يهديهم وليس مضطراً موجباً على الهداية في موردٍ أحد ، بل يهدي من يشاء ، وقد شاء أن يهدي المؤمنين آمنوا إلى صراط مستقيم .

وقد تبيَّن من الآية أولاً : حدَّ الدين ومعرفه ، وهو أنَّه نحو سلوك في الحياة الدنيا يتضمن صلاح الدنيا بما يوافق الكمال الأخروي ، والحياة الدائمة الحقيقية عند الله سبحانه ، فلا بدَّ في الشريعة من قوانين تتعرَّص لحال المعاش على قدر الاحتياج . وثانياً : أن الدين أوَّل ما ظهر ظهر رافعاً للاختلاف الناشئ عن الفطرة ثمَّ استكمل رافعاً للاختلاف الفطري وغير الفطري معاً .

وثالثاً : أن الدين لا يزال يستكمل حتَّى يستوعب قوانينه جهات الاحتياج في الحياة ، فإذا استوعبها ختم ختماً فلا دين بعده . وبالعكس إذا كان دين من الأديان خاتماً كان مستوعباً لرفع جميع جهات الاحتياج . قال تعالى : « ما كان محمد أباً أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » الأحزاب - ٤٠ وقال تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء » النحل - ٨٩ . وقال تعالى : « وإنَّه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » حم سجدة - ٤٢ .

و رابعاً : أن كلَّ شريعة لاحقة أكمل من سابقتها .

وخامساً : السبب في بعث الأنبياء وإنزال الكتب . وبعبارة أخرى العلَّة في الدِّعوة الدينية ، وهو أنَّ الإنسان بحسب طبعه وفطرته سائر نحو الاختلاف كما أنَّه سالك نحو الاجتماع المدني ، وإذا كانت الفطرة هي الهداية إلى الاختلاف لم تتمكَّن من رفع الاختلاف ، وكيف يدفع شيء ما يجذ به إليه نفسه ، فرفع الله سبحانه هذا الاختلاف بالنبوة والتشريع ، بهداية النوع إلى كماله اللائق بحالهم المصلح لشأنهم . وهذا الكمال كمال حقيقي داخل في الصنوع والإيجاد فما هو مقدَّمه كذلك وقد

قال تعالى : « الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » طه - ٥٠ فيبين أن شأنه وأمره تعالى أن يهتدي كل شيء إلى ما يتم به خلقه ، ومن تمام خلقه الإنسان أن يهتدي إلى كمال وجوده في الدنيا والآخرة وقد قال تعالى أيضاً : « كَلَّا نَعْدُّهُ هَوْلًا وَهَوْلًا مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا » الأسراء - ٢٠ ، وهذه الآية تفيد أن شأنه تعالى هو الإمداد بالعطاء : يمد كل من يحتاج إلى إمداده في طريق حياته ووجوده ، ويعطيه ما يستحقه ، وأن عطائه غير محظور ولا ممنوع من قبله تعالى إلا أن يمنع بسوء حظ نفسه ، من قبل نفسه لامن قبله تعالى .

ومن المعلوم أن الإنسان غير متمكن من تكميم هذه النقضية من قبل نفسه فإن فطرته هي المؤدية إلى هذه النقضية فكيف يقدر على تميمها وتسوية طريق السعادة والكمال في حياته الاجتماعية ؟

وإذا كانت الطبيعة الإنسانية هي المؤدية إلى هذا الاختلاف العائق للإنسان عن الوصول إلى كماله الحري به وهي قاصرة عن تدارك ما أدت إليه وإصلاح ما أفسدته ، فالإصلاح ( لو كان ) يجب أن يكون من جهة غير جهة الطبيعة ، وهي الجهة الإلهية التي هي النبوة بالوحي ، ولذا عبرت تعالى عن قيام الأنبياء بهذا الإصلاح ورفع الاختلاف بالبعث ولم ينسبه في القرآن كله إلا إلى نفسه مع أن قيام الأنبياء كسائر الأمور له ارتباطات بالمادة بالرّوابط الزمانية والمكانية .

فالنبوة حالة إلهية ( وإن شئت قل غيبية ) نسبتها إلى هذه الحالة العمومية من الإدراك والفعل نسبة اليقظة إلى النوم بهيادرك الإنسان المعارف التي بها يرتفع الاختلاف والتناقض في حياة الإنسان ، وهذا الإدراك والتلقي من الغيب هو المسمى في لسان القرآن بالوحي ، والحالة التي يتخذها الإنسان منه لنفسه بالنبوة .

ومن هناك يظهر أن هذا أعني تأدية الفطرة إلى الاجتماع المدني من جهة وإلى الاختلاف من جهة أخرى ، وعنايته تعالى بالهداية إلى تمام الخلقة مبدء حجة على وجود النبوة . وبعبارة أخرى دليل النبوة العامة .

تقريره : أن نوع الإنسان مستخدم بالطبع ، وهذا الاستخدام الفطري يؤديه إلى

الاجتماع المدنيّ وإلى الاختلاف والفساد في جميع شؤون حيوته التي يقضي التكوين والإيجاد برفعه ولا يرتفع إلا بقوانين تصلح الحياة الاجتماعية برفع الاختلاف عنها ، وهداية الإنسان إلى كماله وسعادته بأحد أمرين : إما بفطرته وإما بأمر ورأيه لكن الفطرة غير كافية فإنّها هي المؤدّية إلى الاختلاف فكيف ترفعها ؟ فوجب أن يكون بهداية من غير طريق الفطرة والطبيعة ، وهو الفهم الإلهي الغير الطبيعي المسمّى بالنبوة والوحي . وهذه الحجّة مؤلّفة من مقدّمات مصرّح بها في كتاب الله تعالى كما عرفت فيما تقدّم ، وكلّ واحدة من هذه المقدّمات تجرّية ، بينتها التجربة للإنسان في تاريخ حيوته واجتماعاته المتنوّعة التي ظهرت وانقرضت في طيّ القرون المتراكمة الماضية ، إلى أقدم أعصار الحياة الإنسانية التي يذكرها التاريخ .

فلا الإنسان انصرف في حين من أحيان حيوته عن حكم الاستخدام ، ولا استخدامه لم يؤدّ إلى الاجتماع وقضى بحياة فردية ، ولا اجتماعه المكوّن خلا عن الاختلاف ، ولا الاختلاف ارتفع بغير قوانين اجتماعية ، ولأنّ فطرته وعقله الذي يعدّه عقلاً سليماً قدّرت على وضع قوانين تقطع منابت الاختلاف وتقلع مادّة الفساد ، وناهيك في ذلك : ما تشاهده من جريان الحوادث الاجتماعية ، وما هو نصب عينيك من انحطاط الأخلاق وفساد عالم الإنسانية ، والحروب المهلكة للحرث والنسل ، والمقاتل المبيدة للملأين بعد الملأين من الناس ، وسلطان التّحكم ونفوذ الاستعباد في نفوس البشر وأعراضهم وأموالهم في هذا القرن الذي يسمّى عصر المدنية والرّقاء والشّقافة والعلم . فما ظنك بالقرون الخالية ، أعصار الجهل والظلمة ؟

وأما أنّ الصنع والإيجاد يسوق كلّ موجود إلى كماله اللائق به فأمر جار في كلّ موجود بحسب التجربة والبحث ، وكذا كون الخلقة والتكوين إذا اقتضى أثراً لم يقتض خلافه بعينه أمر مسلّم تثبته التجربة والبحث ، وأما أنّ التعليم والتربية الدينيين الصادرين من مصدر النبوة والوحي يقدران على دفع هذا الاختلاف والفساد فأمر يصدّقه البحث والتجربة معاً : أمّا البحث : فلأنّ الدين يدعو إلى حقائق المعارف وفواضل الأخلاق ومحاسن الأفعال فصالح العالم الإنسانيّ مفروض فيه . وأمّا التجربة : فلا سلام

أثبت ذلك في اليسير من الزمان الذي كان الحاكم فيه على الاجتماع بين المسلمين هو الدين ، و أثبت ذلك بترية أفراد من الإنسان صلحت نفوسهم ، وأصلحوا نفوس غيرهم من الناس ، على أن جهات الكمال والعروق النابضة في هيكل الاجتماع المدنيّ اليوم التي تضمّن حياة الحضارة والرفاء مرهونة التقدم الإسلاميّ و سريانه في العالم الديناويّ على ما يعطيه التجزية والتحليل من غير شكّ ، وسنستو في البحث عنه إنشاء الله في مجلّ آخر أليق به .

و سادساً : أن الدين الذي هو خاتم الأديان يقضي بوقوف الاستكمال الإنسانيّ ، قضاء القرآن بختم النبوة وعدم نسخ الدين و ثبات الشريعة يستوجب أن الاستكمال الفرديّ والاجتماعيّ للإنسان هو هذا المقدار الذي ، اعتبره القرآن في بيانه وتشريعه . وهذا من ملاحم القرآن التي صدّقها جريان تاريخ الإنسان منذ نزول القرآن إلى يومنا هذا في زمان يقارب أربعة عشر قرناً تقدّم فيها النوع في الجهات الطبيعيّة من اجتماعه تقدّمًا باهرًا ، وقطع بعداً شاسعاً غير أنّه وقف من جهة معارفه الحقيقيّة ، وأخلاقه الفاضلة موقعه الذي كان عليه ، ولم يتقدّم حتّى قدماً واحداً ، أورجع أقداماً خلفه قهقريّ ، فلم يتكامل في مجموع كماله من حيث المجموع أعني الكمال الروحيّ والجسميّ معاً .

وقد اشتبه الأمر على من يقول : إن جعل القوانين العامّة لما كان لصالح حال البشر وإصلاح شأنه وجب أن تتبدّل بتبدّل الاجتماعيات في نفسها وارتقائها وصعودها مدارج الكمال ، ولا شكّ أن النسبة بيننا وبين عصر نزول القرآن ، وتشريع قوانين الإسلام أعظم بكثير من النسبة بين ذلك العصر وعصر بعثة عيسى عليه السلام ، وموسى عليه السلام ، فكان تفاوت النسبة بين هذا العصر وعصر النبيّ موجباً لنسخ شرايع الإسلام و وضع قوانين أخر قابلة الانطباق على مقتضيات العصر الحاضر .

والجواب عنه : أن الدين كما مرّ لم يعتبر في تشريعه مجرد الكمال الماديّ الطبيعيّ للإنسان ، بل اعتبر حقيقة الوجود الإنسانيّ ، وبنى أساسه على الكمال الروحيّ والجسميّ معاً ، وابتغى السعادة الماديّة والمعنويّة جميعاً ، ولازم ذلك أن يعتبر فيه

حال الفرد الاجتماعي المتكامل بالتكامل الديني دون الفرد الاجتماعي المتكامل بالصنعة والسياسة . وقد اختلط الأمر على هؤلاء الباحثين فانهم لولوعهم في الأبحاث الاجتماعية المادية ( والمادة متحوّلة متكاملة كالاتحاد المبنى عليها ) حسبوا أنّ الاجتماع الذي اعتبره الدين نظير الاجتماع الذي اعتبروه اجتماع ماديّ جسمانيّ ، فحكموا عليه بالتغيّر والنسخ حسب تحوّل الاجتماع الماديّ ، وقد عرفت أنّ الدين لا يبني تشريعه على أساس الجسم فقط ، بل الجسم والروح جميعاً ، وعليهذا يجب أن يفرض فرد دينيّ أو اجتماع ديني جامع للتربية الدينية والحيوة المادية التي سمحت به دنيا اليوم ثم لينظر هل يوجد عنده شيء من النقص المقتضي التتميم ، والوهن المحتاج إلى التقوية ؟

و سابعاً : أنّ الأنبياء عليهم السلام معصومون عن الخطأ .

### ﴿كلام في عصمة الانبياء﴾

توضيح هذه النتيجة : أنّ العصمة على ثلاثة أقسام : العصمة عن الخطأ في تلقي الوحي ، والعصمة عن الخطأ في التبليغ والرسالة ، والعصمة عن المعصية وهي ما فيه هتك حرمة العبوديّة ومخالفة مولويّة ، ويرجع بالأخيرة إلى قول أو فعل بنا في العبوديّة منافاةً لها . ونعني بالعصمة وجود أمر في الإنسان المعصوم يصونه عن الوقوع فيما لا يجوز من الخطأ أو المعصية .

وأما الخطأ في غير باب المعصية وتلقي الوحي والتبليغ ، وبعبارة أخرى في غير باب أخذ الوحي وتبليغه والعمل به كالخطأ في الأمور الخارجية نظير الأغلاط الواقعة للإنسان في الحواس وإدراكاتها أو الاعتباريات من العلوم ، ونظير الخطأ في تشخيص الأمور التكوينية من حيث الصلاح والفساد والنفع والضرر ونحوها فالكلام فيها خارج عن هذا المبحث .

وكيف كان فالقرآن يدلّ على عصمتهم عليهم السلام في جميع الجهات الثلاث : أمّا العصمة عن الخطأ في تلقي الوحي وتبليغ الرسالة : فيدلّ عليه قوله تعالى في الآية : «فبعث الله النبيّين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس

فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البَيِّمَات بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه فإنه ظاهر في أن الله سبحانه إنما بعثهم بالتبشير والإنذار وإنزال الكتاب (وهذا هو الوحي) ليبينوا للناس الحق في الاعتقاد والحق في العمل . وعبارة أخرى لهداية الناس إلى حق الاعتقاد وحق العمل ، وهذا هو غرضه سبحانه في بعثهم . وقد قال تعالى : « لا يضل ربي ولا ينسى » طه - ٥٢ فيبين أنه لا يضل في فعله ولا يخطئ في شأنه فإذا أراد شيئاً فإنه ما يريد من طريقه الموصول إليه من غير خطأ ، وإذا سلك بفعل إلى غايه فلا يضل في سلوكه ، وكيف لا ويده الخلق والأمر وله الملك والحكم ، وقد بعث الأنبياء بالوحي إليهم وتفهمهم معارف الدين ولا بد أن يكون ، وبالرسالة لتبليغها للناس ولا بد أن يكون ! وقال تعالى أيضاً : « إن الله بالغ أمره قد جعل الله لكليشئ قدرأه » الطلاق - ٣ وقال أيضاً : « والله غالب على أمره » يوسف - ٢١

ويدل على العصمة عن الخطأ أيضاً قوله تعالى : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كلشيئاً عدداً » الجن - ٢٨ فظاهر أنه سبحانه يختص رسله بالوحي فيظهرهم ويؤيدهم على الغيب بمراقبة ما بين أيديهم وما خلفهم ، والإحاطة بما لديهم لحفظ الوحي عن الزوال والتغير بتغيير الشياطين وكل مغير غيرهم ، ليتحقق إبلاغهم رسالات ربهم . ونظيره قوله تعالى حكيم - ١٠ عن قول ملائكة الوحي « وما ننزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً » مريم - ٦٤ ، دللت الآيات على أن الوحي من حين شروعه في النزول إلى بلوغه النبي إلى تبليغه للناس محفوظ مصون عن تغيير أي مغير غير .

وهذان الوجهان من الاستدلال وإن كانا ناهضين على عصمة الأنبياء عليهم السلام في تلقي الوحي وتبليغ الرسالة فقط دون العصمة عن المعصية في العمل على ما قررنا ، لكن يمكن تنميم دلالتهما على العصمة من المعصية أيضاً بأن الفعل دال كالقول عند العقلاء فالفاعل لفعل يدل بفعله على أنه يراه حسناً جائزاً كما لو قال :

إِنَّ الفعلَ الفلانيَّ حسنٌ جائزٌ فلو تحققت معصية عن النَّبيِّ وهو يأمر بخلافها لكان ذلك تناقضاً منه فإنَّ فعله يناقض حينئذٍ قوله فيكون حينئذٍ مبلّغاً لكلِّ المتناقضين وليس تبليغ المتناقضين بتبليغ الحقِّ فإنَّ المخبر بالمتناقضين لم يخبر بالحقِّ لكون كلِّ منهما مبطلاً للآخر ، فعصمة النبيِّ في تبليغ رسالته لا تتم إلا مع عصمته عن المعصية و صونه عن المخالفة كما لا يخفى .

ويدل على عصمتهم مطلقاً قوله تعالى : «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده» الأنعام - ٩٠ . فجميعهم عليهم السَّلام كتب عليهم الهداية ، وقد قال تعالى : «ومن يضل الله فماله من هاد ومن يهدي الله فماله من مضل» الزمر - ٣٦ .

وقال تعالى : «من يهد الله فهو المهتد» الكهف - ١٧ . فنفى عن المهتدين بهدايته كلَّ مضلٍّ يؤثر فيهم بضلال ، فلا يوجد فيهم ضلال ، وكلَّ معصية ضلال كما يشير إليه قوله تعالى : «ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين و أن اعبدوني هذا صراط مستقيم ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً» يس - ٦٢ . فعدَّ كلَّ معصية ضلالاً حاصلاً بضلال الشيطان بعد ما عدّها عبادة للشيطان فإثبات هدايته تعالى في حقِّ الأنبياء عليهم السَّلام ثم نفى الضلال عن اهتداهم بهداه ثم عدَّ كلَّ معصية ضلالاً تبرئة منه تعالى لساحة أنبيائه عن صدور المعصية منهم وكذا عن وقوع الخطأ في فهمهم الوحي وإبلاغهم إيَّاه ،

ويدل عليها أيضاً قوله تعالى : «ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقاً» النساء - ٦٨ وقال أيضاً : «اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين» الحمد - ٧ . فوصف هؤلاء الذين أنعم عليهم من النبيين بأنهم ليسوا بضالين ، ولو صدر عنهم معصية لكانوا بذلك ضالين وكذا لو صدر عنهم خطأ في الفهم أو التبليغ ، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى فيما يصف به الأنبياء : «أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ومن ذرية إبراهيم وممن هدينا واجتبينا إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خرّوا سجداً و بكيّاً فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلوة واتبعوا الشهوات وسوف يلتقون غيماً» مريم - ٥٩ فجمع في الأنبياء

أَوَّلَ الْخَصْلَتَيْنِ : أعني الإِنْعَامَ والهِدَايَةَ حَيْثُ أَتَى بِمَنْ الِيبَايَنَةِ فِي قَوْلِهِ وَمَنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا بَعْدَ قَوْلِهِ : أَنَعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ اهـ وَوَصَفَهُمْ بِمَا فِيهِ غَايَةُ التَّذَلُّلِ فِي الْعِبُودِيَّةِ ثُمَّ وَصَفَ الْخَلْفَ بِمَا وَصَفَ مِنْ أَوصَافِ الذَّمِّ ، وَالْفَرِيقَ الثَّانِي غَيْرَ الْأَوَّلِ لِأَنَّ الْفَرِيقَ الْأَوَّلَ رَجَالٌ مَدُوحُونَ مَشْكُورُونَ دُونَ الثَّانِي ، وَإِذْ وَصَفَ الْفَرِيقَ الثَّانِي وَعَرَّفَهُمْ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ وَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً فَالْفَرِيقَ الْأَوَّلَ وَهُمْ الْأَنْبِيَاءُ مَا كَانُوا يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ وَلَا يَلْحَقُهُمْ غِيٌّ . وَمَنْ الْبَدِيهِيُّ أَنَّ مَنْ كَانَ هَذَا شَأْنَهُ لَمْ يَجْزِ صَدُورُ الْمَعْصِيَةِ عَنْهُ حَتَّى أَنْتَهُمْ لَوْ كَانُوا قَبْلَ نَبِيِّهِمْ مِمَّنْ يَتَّبِعُ الشَّهَوَاتِ لَكَانُوا بِذَلِكَ مِمَّنْ يَلْحَقُهُمُ الْغِيُّ لَمْ يَكُنِ الْإِطْلَاقُ فِي قَوْلِهِ : أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ وَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيَاً .

وهذا الوجه قريب من قول من استدللَّ على عصمة الأنبياء من طريق العقل بأنَّ إرسال الرسل وإجراء المعجزات على أيديهم تصديق لقولهم . فلا يصدر عنهم كذب وكذا تصديق لأهلِيَّتِهِمُ لِلتَّبْلِيغِ ، وَالْعَقْلُ لَا يَعِدُّ إِنْسَانًا يَصْدُرُ مِنْهُ الْمَعْصِيَةُ وَالْأَفْعَالُ الْمُنَافِيَةُ لِلْمَرَامِ وَمَقْصِدُ كَيْفَ كَانَ أَهْلًا لِلدَّعْوَةِ إِلَى ذَلِكَ الْمَرَامِ فَاجْرَاءُ الْمَعْجَزَاتِ عَلَى أَيْدِيهِمْ يَتَضَمَّنُ تَصْدِيقَ عَدَمِ خَطَايَاهُمْ فِي تَلَقُّيِ الْوَحْيِ وَفِي تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ وَفِي امْتِثَالِهِمُ لِلتَّكْلِيفِ الْمُتَوَجِّهَةِ إِلَيْهِمْ بِالطَّاعَةِ .

ولا يرد عليه : أَنَّ النَّاسَ وَهُمْ عَقْلَاءُ يَتَسَبَّبُونَ فِي أَنْوَاعِ تَبْلِيغَاتِهِمْ وَأَقْسَامِ اغْتِرَاضِهِمُ الْاجْتِمَاعِيَّةِ بِالتَّبْلِيغِ مِمَّنْ لَا يَخْلُوعُونَ بَعْضَ الْقُصُورِ وَالْتَقْصِيرِ فِي التَّبْلِيغِ ، فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْهُمْ لَا أَحَدَ أَمْرَيْنِ لَا يَجُوزُ فِيهِمَا نَحْنُ فِيهِ ، إِمَّا لَمْ يَكُنِ الْمُسَامَحَةُ مِنْهُمْ فِي الْبَيْسِيرِ مِنَ الْقُصُورِ وَالتَّقْصِيرِ ، وَإِمَّا لِأَنَّ مَقْصُودَهُمْ هُوَ الْبُلُوغُ إِلَى مَا تَيْسَّرُ مِنَ الْأَمْرِ الْمَطْلُوبِ ، وَالْقَبْضُ عَلَى الْبَيْسِيرِ وَالْغَضُّ عَنِ الْكَثِيرِ وَشَيْءٌ مِنَ الْأَمْرَيْنِ لَا يَلِيقُ بِسَاحَتِهِ تَعَالَى .

ولا يرد عليه أيضاً : ظَاهِرُ قَوْلِهِ تَعَالَى : « فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ » التَّوْبَةُ - ١٢٣ فَإِنَّ الْآيَةَ وَإِنْ كَانَتْ فِي حَقِّ الْعَامَّةِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِمَّنْ لَيْسَ بِمَعْصُومٍ لَكِنَّهُ إِذْنُ لَهُمْ فِي تَبْلِيغِ مَا تَعَلَّمُوا مِنَ الدِّينِ وَتَفَقَّهُوا فِيهِ ، لَا تَصْدِيقَ لَهُمْ فِيهِمَا أَنْذَرُوا بِهِ وَجَعَلَ حُجِّيَّةً لِقَوْلِهِمْ عَلَى النَّاسِ وَالْمُحْذَرِ إِنَّمَا هُوَ فِي الثَّانِي دُونَ الْأَوَّلِ .

وَمَا يَدُلُّ عَلَىٰ عَصَمَتِهِمْ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ » النساء - ٦٣ حيث جعل كون الرسول مطاعاً غاية الإرسال ، وقصر الغاية فيه ، وذلك يستدعي بالملزمة البينة تعلق إرادته تعالى بكل ما يطاع فيه الرسول وهو قوله أو فعله لأن كلا منهما وسيلة معمولة متداولة في التبليغ ، فلو تحقق من الرسول خطأ في فهم الوحي أو في التبليغ كان ذلك إرادة منه تعالى للبطل والله سبحانه لا يريد إلا الحق .

وكذا لو صدر عن الرسول معصية قولاً أو فعلاً والمعصية مبعوضة منهي عنها كان بعينه متعلق إرادته تعالى فيكون بعينه طاعة محبوبة فيكون تعالى مريداً غير مريد ، أمراً و ناهياً ، محبباً و مبعضاً بالنسبة إلى فعل واحد بعينه تعالى عن تناقض الصفات والأفعال علوً كبيراً وهو باطل وإن قلنا بجواز تكليف ما لا يطاق على ما قال به بعضهم ، فإن تكليف ما لا يطاق تكليف بالمحال و ما نحن فيه تكليف نفسه محال لأنه تكليف ولا تكليف وإرادة ولا إرادة و حب ولا حب و مدح و ذم بالنسبة إلى فعل واحد ! و مما يدل على ذلك أيضاً قوله تعالى : « رَسَلاً مَّبَشِّرِينَ و مَنذِرِينَ لِّئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرِّسَالِ » النساء - ١٦٤ فإن الآية ظاهرة في أن الله سبحانه يريد قطع عذر الناس في ما فيه المخالفة والمعصية وأن لا قاطع للعذر إلا الرسل عليهم السلام . ومن المعلوم أن قطع الرسل عذر الناس ورفعهم لحجبتهم إنما يصبح إذا لم يتحقق في ناحيتهم ما لا يوافق إرادة الله و رضاه : من قول أو فعل ، و خطأ أو معصية وإلا كان للناس أن يتمسكوا به ويحتجوا على ربهم سبحانه وهو نقض لغرضه تعالى .

فان قلت : الذي يدل عليه ما سر من الآيات الكريمة هو أن الأنبياء عليهم السلام لا يقع منهم خطأ ولا يصدر عنهم معصية وليس ذلك من العصمة في شيء فإن العصمة على ما ذكره القوم قوة تمنع الإنسان عن الوقوع في الخطأ ، وتردعه عن فعل المعصية واقتراف الخطيئة ، وليست القوة مجرد صدور الفعل أو عدم صدوره وإنما هي مبدء نفساني تصدر عنه الفعل كما تصدر الأفعال عن الملكات النفسانية .

قلت : نعم لكن الذي يحتاج إليه في الأبحاث السابقة هو عدم تحقق الخطأ

والمعصية من النبي ﷺ ولا يضر في ذلك عدم ثبوت قوة تصدر عنها الفعل صواباً أو طاعة و هو ظاهر .

ومع ذلك يمكن الاستدلال على كون العصمة مستندة إلى قوة رادعة بمأمور في البحث عن الإعجاز من دلالة قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ بِالْغَيْبِ أَمْرٌ قَدِ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا » الطلاق - ٣ و كذا قوله تعالى : « إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » هود - ٥٦ على أن كلاً من الحوادث يحتاج إلى مبدء يصدر عنه وسبب يتحقق به ، فهذه الأفعال الصادرة عن النبي ﷺ على وتيرة واحدة صواباً وطاعة تنتهي إلى سبب مع النبي ﷺ وفي نفسه وهي القوة الرادعة . وتوضيحه : أن أفعال النبي المفروض صدورها طاعة أفعال اختيارية من نوع الأفعال الاختيارية الصادرة عما التي بعضها طاعة وبعضها معصية ، ولا شك أن الفعل الاختياري إنما هو اختياري بصدوره عن العلم والمشية ، وإنما يختلف الفعل طاعة ومعصية باختلاف الصورة العلمية التي يصدر عنها ، فإن كان المقصود هو الجرى على العبودية بامثال الأمر مثلاً تحققت الطاعة ، وإن كان المطلوب - أعني الصورة العلمية التي يضاف إليها المشية - اتباع الهوى واقتراف ما نهى الله عنه تحققت المعصية ، فاختلاف أفعالنا طاعة ومعصية لاختلاف علمنا الذي يصدر عنه الفعل ، ولودام أحد العلمين أعني الحكم بوجوب الجرى على العبودية وامتثال الأمر الإلهي لما صدر إلا الطاعة ، ولو دام العلم الآخر الصادر عنه المعصية ( والعياذ بالله ) لم يتحقق إلا المعصية ، وعليهذا فصدور الأفعال عن النبي ﷺ بوصف الطاعة دائماً ليس إلا لأن العلم الذي يصدر عنه فعله بالمشية صورة علمية صالحة غير متغيرة ، وهو لا دغان بوجوب العبودية دائماً . ومن المعلوم أن الصورة العلمية والهيئة النفسانية الراسخة الغير الزائلة هي الملكة النفسانية كملكة العفة والشجاعة والعدالة ونحوها ، ففي النبي ملكة نفسانية يصدر عنها أفعاله على الطاعة والالتقاد وهي القوة الرادعة عن المعصية . ومن جهة أخرى النبي لا يخطئ في تلقي الوحي ولا في تبليغ الرسالة ففيه هيئة نفسانية لا يخطئ في تلقي المعارف وتبليغها ولا يعصي في العمل ولو فرضنا أن هذه الأفعال وهي على وتيرة واحدة ليس فيها إلا الصواب والطاعة تحققت منه من غير توسط سبب من الأسباب يكون معه ، ولا انضمام من شيء إلى نفس النبي كان معني

ذلك أن تصدر أفعاله الاختيارية على تلك الصفة بإرادة من الله سبحانه من غير دخالة للنبي ﷺ فيه ، ولازم ذلك إبطال علم النبي ﷺ وإرادته في تأثيرها في أفعاله وفي ذلك خروج الأفعال الاختيارية عن كونها اختيارية ، وهو يناقض افتراض كونه فرداً من أفراد الإنسان الفاعل بالعلم والإرادة ، فالعصمة من الله سبحانه إنما هي بإيجاد سبب في الإنسان النبي ﷺ يصدر عنه أفعاله الاختيارية صواباً وطاعة وهو نوع من العلم الراسخ وهو الملكة كما مر .

### ﴿كلام في النبوة﴾

والله سبحانه بعد ما ذكر هذه الحقيقة ( وهي وصف إرشاد الناس بالوحي ) في كلامه كثير أعبر عن رجالها بتعبيرين مختلفين فيه تقسيمهم إلى قسمين أو كالتقسيم : وهما الرسول والنبي . قال تعالى : « رجبى بالنبیین والشهداء » الزمر - ٦٩ وقال تعالى : « يوم يجمع الله الرسل ماذا أجبتكم » المائدة - ١١٢ . ومعنى الرسول حامل الرسالة ، ومعنى النبي حامل النبأ ، فللرسول شرف الوساطة بين الله سبحانه وبين خلقه وللنبي شرف العلم بالله وبما عنده .

وقد قيل أن الفرق بين النبي والرسول بالعموم والخصوص المطلق فالرسول هو الذي يبعث فيؤمر بالتبليغ ويحمل الرسالة ، والنبي هو الذي يبعث سواء أمراً بالتبليغ أم لم يؤمر .

لكن هذا الفرق لا يؤيده كلامه تعالى كقوله تعالى : « واذكري الكتاب موسى إنه كان مخلصاً وكان رسولا نبياً » مريم - ٥١ والآيتان في مقام المدح والتعظيم ولا يناسب هذا المقام التدرج من الخاص إلى العام كما لا يخفى .

وكذا قوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى » الحج - ٥١ حيث جمع في الكلام بين الرسول والنبي ثم جعل كلاهما مرسلًا لكن قوله تعالى : « و وضع الكتاب ورجى بالنبیین والشهداء » الزمر - ٦٩ وكذا قوله تعالى : « ولكن رسول الله وخاتم النبيين » الأحزاب - ٤٠ وكذا ما في الآية المطبوعة عنها من قوله تعالى : « فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين » إلى غير ذلك من الآيات يعطي ظاهرها

أَنَّ كُلَّ مَبْعُوثٍ مِنْ اللَّهِ بِالْإِرسَالِ إِلَى النَّاسِ نَبِيٌّ وَلَا يَنَافِي ذَلِكَ مَا مَرَّ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى : وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا آيَةً فَإِنَّ اللَّفْظَيْنِ قَصْدُ بَيْتِهِمَا مَعْنَاهُمَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَصِيرَا اسْمَيْنِ مَهْجُورِي الْمَعْنَى فَالْمَعْنَى وَكَانَ رَسُولًا خَيْرًا بِآيَاتِ اللَّهِ وَمَعَارِفِهِ . وَكَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا آيَةً لَا يُمْكِنُ أَنْ يَقَالَ : إِنَّ النَّبِيَّ وَالرَّسُولَ كُلَيْهِمَا مَرْسَلَانِ إِلَى النَّاسِ ، غَيْرَ أَنَّ النَّبِيَّ بَعَثَ لِنَبِيِّ النَّاسِ بِمَا عِنْدَهُ مِنْ نَبَأِ الْغَيْبِ لِكُونِهِ خَيْرًا بِمَا عِنْدَ اللَّهِ وَالرَّسُولُ هُوَ الْمُرْسَلُ بِرِسَالَةٍ خَاصَّةٍ زَائِدَةٍ عَلَى أَصْلِ نَبَأِ النَّبِيِّ كَمَا يَشْعُرُهُ أَمْثَالُ قَوْلِهِ تَعَالَى : « وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قَضَى بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ » يُونُس - ٤٧ . وَقَوْلُهُ تَعَالَى : « وَمَا كُنَّا مَعَذِّينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » النحل - ١٥ . وَعَلَيْهِذَا فَالْنَّبِيُّ هُوَ الَّذِي يَبَيِّنُ لِلنَّاسِ صِلَاحَ مَعَاشِهِمْ وَمَعَادِهِمْ مِنْ أَصُولِ الدِّينِ وَفُرُوعِهِ عَلَى مَا اقْتَضَتْهُ عَنَايَةُ اللَّهِ مِنْ هِدَايَةِ النَّاسِ إِلَى سَعَادَتِهِمْ ، وَالرَّسُولُ هُوَ الْحَامِلُ لِرِسَالَةٍ خَاصَّةٍ مُشْتَمِلَةٍ عَلَى إِتْمَامِ حُجَّةٍ يَسْتَتَبِعُ مَخَالَفَتَهُ هَلَاكَةُ أَوْ عَذَابُهَا أَوْ نَحْوُ ذَلِكَ قَالَ تَعَالَى : « لَئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ » النساء - ١٦٤ . وَلَا يَظْهَرُ مِنْ كَلَامِهِ تَعَالَى فِي الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا أَزِيدُ مِمَّا يَفِيدُهُ لَفْظَاهُمَا بِحَسَبِ الْمَفْهُومِ . وَلَا زَمَهُ هُوَ الَّذِي أَشْرَفْنَا إِلَيْهِ مِنْ أَنَّ لِلرَّسُولِ شَرَفَ الْوَسَاطَةِ بَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى وَبَيْنَ عِبَادِهِ وَلِلنَّبِيِّ شَرَفَ الْعِلْمِ بِاللَّهِ وَبِمَا عِنْدَهُ وَسَيَأْتِي مَا رَوَى عَنْ أُمَّةٍ أَهْلَ الْبَيْتِ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا ثُمَّ إِنَّ الْقُرْآنَ صَرِيحٌ فِي أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ كَثِيرُونَ وَأَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ لَمْ يَقْصُصْ الْجَمِيعَ فِي كِتَابِهِ . قَالَ تَعَالَى : « وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رِسَالًا مِنْ قَبْلِكَ مِنْهُمْ مِنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ » الطُّور - ٧٨ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ وَالَّذِينَ قَصَصَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ بِالْأَسْمَاءِ خَمْسَةٌ وَعِشْرُونَ نَبِيًّا وَهُمْ : آدَمُ ، وَنُوحٌ ، وَإِدْرِيسُ ، وَهُودٌ ، وَصَالِحٌ ، وَإِبْرَاهِيمُ ، وَلُوطٌ ، وَإِسْمَاعِيلُ ، وَإِسْحَاقُ ، وَدَاوُدُ ، وَزَكَرِيَّا ، وَيَحْيَى ، وَإِسْمَاعِيلُ صَادِقُ الْوَعْدِ ، وَعِيسَى ، وَتَحَدَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ .

وَهُنَاكَ عِدَّةٌ لَمْ يَذْكُرُوا بِأَسْمَائِهِمْ بَلْ بِالتَّوْصِيفِ وَالْكُنَايَةِ . قَالَ سَبَّحَانَهُ : ( أَلَمْ تَرِ إِلَى الْمَلَأَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ لَهُمْ إِبْرَاهِيمُ ابْعَثْ لَنَا مَلَكًا » البقرة - ٢٤٦ وَقَالَ تَعَالَى :

«أو كالتذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها» البقرة - ٢٥٩ وقال تعالى : « إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعزّزنا بثالث» يس - ١٤ وقال تعالى : «فوجدا عبداً من عبادنا آتيناها من لدنّا علماً» الكهف - ٦٦ وقال تعالى : «والأَسْبَاطُ» البقرة - ١٣٦ وهناك من لم يتضح كونه نبياً كفتى موسى في قوله تعالى : «و إذ قال موسى لفتهاه» الكهف - ٦١ ومثل ذي القرنين وعمران أبي مريم من المصرّح بأسمائهم .

وبالجملة لم يذكر في القرآن لهم عديقون عنده والسّذي يشتمل من الروايات على بيان عدّتهم آحاد مختلفة المتن وأشهرها رواية أبي ذرّ عن النبي ﷺ : أنّ الأَنْبياء مائة وأربعة وعشرون ألف نبىّ ، والمرسلون منهم ثلثمائة وثلاثة عشر نبياً .  
واعلم : أنّ سادات الأَنْبياء هم أولوا العزم منهم وهم : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، وتجلّى ﷺ وعليهم . قال تعالى : «فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرّسل» الأحقاف - ٣٥ . وسيجيء أنّ معنى العزم فيهم الثبات على العهد الأوّل المأخوذ منهم و عدم نسيانه . قال تعالى : «و إذ أخذنا من النّبيّين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى وأخذنا منهم ميثاقاً غليظاً» الأحزاب ٧ . وقال تعالى : «ولقد عهدنا إلى آدم من قبل فنسي ولم نجد له عزماً» طه - ١١٥ .

وكل واحد من هؤلاء الخمسة صاحب شرع وكتاب . قال تعالى : «شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً وما أوحينا إليك وما وصّينا به إبراهيم وموسى وعيسى» الشورى - ١٣ وقال تعالى : «إنّ هذا لفى الصّحف الأولى صحف إبراهيم وموسى» الأ على - ١٩ وقال تعالى : «إنّا أنزلنا التّوراة فيها هدى يحكم بها النّبيّون - إلى أن قال - : وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم مصدّقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيماً عليه فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عمّا جاءك من الحقّ لكلّ جعلنا منكم شرعة ولو شاء الله لجمعنكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم» المائدة - ٥١ .

والآيات تبين أنّ لهم شرائع وأنّ لإبراهيم وموسى وعيسى وتجلّى ﷺ كتباً ، وأمّا كتاب نوح فقد عرفت أنّ الآية أعنى قوله تعالى : كان الناس أمة واحدة إلخ بانضمامه إلى قوله تعالى شرع لكم من الدّين ما وصّى به نوحاً الآية تدلّ عليه .

وهذا الذي ذكرناه لا ينافي نزول الكتاب على داود عليه السلام . قال تعالى : « وآتيناه داود زبوراً » النساء - ١٦٢ ولا ما في الروايات من نسبة كتب إلى آدم ، وشيث ، وإدريس ، فإنها كتب لا تشتمل على الأحكام و الشرايع .

واعلم أن من لوازم النبوة الوحي وهو نوع تكليم إلهي تتوقف عليه النبوة قال تعالى : إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ النساء - ١٦٢ . و سيجيء استيفاء البحث عن معناه في سورة الشورى إنشاء الله .

### ﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع عن الباقر عليه السلام أنه قال : كان الناس قبل نوح أمّة واحدة على فطرة الله لا مهتدين ولا ضالّين فبعث الله النبيّين .

وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في الآية قال : وكان ذلك قبل نوح ف قيل : فعلى هدى كانوا ؟ قال بل كانوا ضالّين ، وذلك إنّه لما انقرص آدم وصالح ذريّته ، وبقي شيث وصيته لا يقدر على إظهار دين الله الذي كان عليه آدم وصالح ذريّته ، وذلك أن قابيل كان يواعده بالقتل كما قتل أخاه هابيل ، فصار فيهم بالتّقية والكتمان فار دادوا كل يوم ضلالة حتّى لم يبق على الأرض معهم إلاّ من هو سلف ، ولحق الوصيّ بجزيرة من البحر ليعبد الله فبدا لله تبارك وتعالى أن يبعث الرسل ، ولوسّئ هؤلاء الجهّال لقالوا قد فرغ من الأمر ، و كذبوا ، إنّما هو شيء يحكم الله في كلّ عام ثمّ قرء : فيها يفرق كلّ أمر حكيم ، فيحكم الله تبارك وتعالى ما يكون في تلك السنّة من شدّة أو رخاء أو مطر أو غير ذلك . قلت : أفضالاً كانوا قبل النبيّين أم على هدى ؟ قال : لم يكونوا على هدى ، كانوا على فطرة الله التي فطرهم عليها ، لا تبدل لخلق الله ، ولم يكونوا ليهتدوا حتّى يهديهم الله ، أما تسمع بقول إبراهيم : لئن لم يهدني ربّي لأكوننّ من الضالّين أى ناسياً للميثاق .

أقول : قوله : لم يكونوا على هدى كانوا على فطرة الله اه يفسّر معنى كونهم ضالّين المذكور في أوّل الحديث ، وأنّهم إنّما خلّوا عن الهداية التفصيليّة إلى المعارف

الإلهية، وأما الهداية الإجمالية فهي تجماع الضلال بمعنى الجهل بالتفاصيل كما يشير إليه قوله ﷺ في رواية المجمع المنقولة آنفاً: على فطرة الله لا متهدين ولا ضلالاً ١ هـ .

وقوله ﷺ: أي ناسياً للميثاق اه تفسير للضلال فالهداية هي ذكر الميثاق حقيقة كما في الكمّل من المؤمنين أو الجرى على حال من هو ذاكر للميثاق وإن لم يكن ذاكرأ له حقيقة وهو حال ساير المؤمنين ولا يخلو إطلاق الهداية عليه من عناية .  
وفي التّوحيد عن هشام بن الحكم قال : سأل الزّنديق أنبي الذي أتى أبا عبد الله فقال : من أين أثبت أنبياء ورسلاً؟ قال أبو عبد الله ﷺ : إنّما لمّا أثبتنا : أنّ لنا خالقاً صانعاً متعالياً عبداً وعن جميع ما خلق ، وكان ذلك الصانع حكيماً لم يجز أن يشاهده خلقه ، ولا يلا مسوه ، ولا يباشرهم ولا يباشره ويحاجهم ويحاجوه ، فثبت أنّ له سفراء في خلقه يدلّونهم على مصالحهم ومنافعهم وما فيه بقائهم ، وفي تركه فناءهم ، فثبت الآمرون النّاهون عن الحكيم العليم في خلقه ، وثبت عند ذلك أنّ له معبرين وهم الأنبياء وصفوته من خلقه ، حكماء مؤدّبون بالحكمة ، مبعوثين بها ، غير مشاركين للناس في أحوالهم ، على مشاركتهم لهم في الخلق والتركيب ، مؤيدين من عند الحكيم العليم بالحكمة والدلائل والبراهين والشواهد ، من إحياء الموتى ، وإبراء الأكفـه والأبرص فلا يخلو أرض الله من حجة يكون معه علم يدلّ على صدق مقال الرّسول ووجوب عدالته .

**أقول :** والحديث كما ترى مشتمل على حجج ثلث في مسائل ثلث من النبوة أحدها : الحجّة على النبوة العامة وبالتأمّل فيما ذكره ﷺ تجد أنّه منطبق على ما استفدناه من قوله تعالى : كان الناس أمة واحدة الآية .

**وثانيها :** الحجّة على لزوم تأييد النبيّ بالمعجزة . وما ذكره ﷺ منطبق على ما ذكرناه في البحث عن الإعجاز في بيان قوله تعالى : «وإن كنتم في ريب ممّا نزّلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله» البقرة - ٢٣

**وثالثها :** مسألة عدم خلوّ الأرض عن الحجّة وسيأتي بيانه إنشاء الله .

وفي المعاني والخصال عن عتبة الليثي عن أبي ذرٍّ رحمه الله قال : قلت يا رسول الله كم النبيون ؟ قال : مائة وأربعة وعشرون ألف نبي . قلت : كم المرسلون منهم ؟ قال ثلثمائة وثلاثة عشر جمعاً غفيراً . قلت من كان أول الأنبياء ؟ قال : آدم . قلت : وكان من الأنبياء مرسلان ؟ قال : نعم خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه ثم قال يا أبا ذرٍّ أربعة من الأنبياء سريانيسون : آدم ، وشيث ، وأخنوخ وهو إدريس وهو أول من خط بالقلم ، ونوح . وأربعة من العرب : هود ، وصالح ، وشعيب ، ونبيك محمد ﷺ . وأول نبي من بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى وستمائة نبي . قلت : يا رسول الله ! كم أنزل الله تعالى من كتاب ؟ قال : مائة كتاب وأربعة كتب . أنزل الله على شيث خمسين صحيفة و على إدريس ثلثين صحيفة ، وعلى إبراهيم عشرين صحيفة ، وأنزل التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان .

**اقول :** و الرواية وخاصة صدرها المتعرض لعدد الأنبياء والمرسلين من المشهورات ، روتها الخاصة والعامّة في كتبهم ، وروى هذا المعنى الصدوق في الخصال والأماشي عن الرضا عن آبائه عن النبي ﷺ وعن زيد بن علي عن آبائه عن أمير المؤمنين عليه السلام ورواه ابن قولويه في كامل الزيارات ، والسيد في الإقبال عن السجاد عليه السلام ، وفي البصائر عن الباقر عليه السلام .

وفي الكافي عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى : وكان رسولا نبياً الآية قال : النبي الذي يرى في منامه ويسمع الصوت ولا يعاين الملك ، والرسول الذي يسمع الصوت ولا يرى في المنام ويعاين .

**اقول :** وفي هذا المعنى روايات أخر . ومن الممكن أن يستفاد ذلك من مثل قوله تعالى : « فأرسل إلى هارون الشعراء - ١٣ » وليس معناها أن معنى الرسول هو المرسل إليه ملك الوحي بل المقصود أن النبوة والرسالة مقامان خاصة أحدهما الرؤيا ، وخاصة الآخر مشاهدة ملك الوحي ، وربما اجتمع المقامان في واحد فاجتمعت الخاصتان ، وربما كانت نبوة من غير رسالة ، فيكون الرسالة أخص من النبوة مصداقاً لافهوماً كما يصرّح به الحديث السابق عن أبي ذرٍّ حيث يقول : قلت : كم المرسلون منهم ؟

فقد تبيّن أن كلّ رسول نبيّ ولا عكس ، وبذلك يظهر الجواب عما اعترضه بعضهم على دلالة قوله تعالى : «ولكن رسول الله وخاتم النبيّين» الأحزاب - ٣٣ أنّه إنّما يدلّ على ختم النبوة دون ختم الرسالة مستدلاً بهذه الرواية ونظائرها والجواب : أنّ النبوة أعمّ مصداقاً من الرسالة وارتفاع الأعمّ يستلزم ارتفاع الأخصّ ولا دلالة في الروايات كما عرفت على العموم من وجه بين الرسالة و النبوة بل الروايات صريحة في العموم المطلق .

وفي العيون عن أبي الحسن الرضا عليه السلام قال : إنّما سمّي أولوا العزم أولي العزم لأنهم كانوا أصحاب العزائم والشرايع ، وذلك أنّ كلّ نبيّ كان بعد نوح كان على شريعته و منهاجه و تابعاً لكتابه إلى زمن إبراهيم الخليل ، وكلّ نبيّ كان في أيام إبراهيم كان على شريعته إبراهيم و منهاجه و تابعاً لكتابه إلى زمن موسى ، وكلّ نبيّ كان في زمن موسى كان على شريعة موسى و منهاجه و تابعاً لكتابه إلى أيام عيسى وكلّ نبيّ كان في أيام عيسى وبعده كان على شريعة عيسى و منهاجه و تابعاً لكتابه إلى زمن نبيّنا محمد صلى الله عليه وآله فهؤلاء الخمسة أولوا العزم ، وهم أفضل الأنبياء والرسل عليهم السلام وشريعة محمد لا تنسخ إلى يوم القيمة ، ولا نبيّ بعده إلى يوم القيمة فمن ادّعى بعده النبوة أو أتى بعد القرآن بكتاب قدمه مباح لكلّ من سمع ذلك منه .

**اقول :** وروى هذا المعنى صاحب قصص الأنبياء عن الصادق عليه السلام .

وفي تفسير القمّيّ في قوله تعالى : فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل الآية ، وهم نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى بن مريم عليهم السلام ومعنى أولي العزم أنّهم سبقوا الأنبياء إلى الإقرار بالله وأقرّوا بكلّ نبيّ كان قبلهم و بعدهم : وعزموا على الصّبر مع التّكذيب لهم والأذى .

**اقول :** وروي من طرق أهل السنّة والجماعة عن ابن عباس وقتادة أنّ أولي العزم من الأنبياء خمسة : نوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد صلى الله عليه وآله كما روينا من طرق أهل البيت . وهناك أقوال أخر منسوبة إلى بعضهم : فذهب بعضهم إلى أنّهم ستة : نوح ، وإبراهيم ، وإسحق ، ويعقوب ، ويوسف ، وأيوب . وذهب بعضهم إلى أنّهم

الَّذِينَ أُمِرُوا بِالْجِهَادِ وَالْقِتَالِ وَأُظْهِرُوا الْمَكْشَفَةُ وَجَاهَدُوا فِي الدِّينِ . وَ ذَهَبَ بَعْضُهُمْ إِلَى أَنَّهُمْ أَرْبَعَةٌ : إِبْرَاهِيمَ ، وَنُوحَ ، وَهُودَ ، وَرَابِعُهُمْ تَحَمُّدٌ وَآلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَ هَذِهِ أَقْوَالٌ خَالِيَةٌ عَنِ الْحُجَّةِ وَقَدْ ذَكَرْنَا الْوَجْهَ فِي ذَلِكَ .

وَفِي تَفْسِيرِ الْعِيَّاشِيِّ عَنِ الثَّمَالِيِّ عَنِ أَبِي جَعْفَرٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، قَالَ : كَانَ مَا بَيْنَ آدَمَ وَبَيْنَ نُوحٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مُسْتَخْفِينَ ، وَلِذَلِكَ خَفِيَ ذِكْرُهُمْ فِي الْقُرْآنِ فَلَمْ يُسَمَّوْا كَمَا سَمَّيَ مِنْهُمْ اسْتَعْلَنَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ الْحَدِيثُ .

**أَقُولُ :** وَرَوَى هَذَا الْمَعْنَى عَنْ أَهْلِ بَيْتِ الْعَصْمَةِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بِطَرُقٍ كَثِيرَةٍ . وَفِي الصَّافِيِّ عَنِ الْمَجْمُوعِ عَنْ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ نَبِيًّا أَسْوَدَ لَمْ يَقْصُ عَلَيْنَا قِصَّتَهُ وَآلِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ . وَفِي النَّهْجِ قَالَ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي خُطْبَةٍ لَهُ يَذْكُرُ فِيهَا آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ : فَأَهْبَطَهُ إِلَى دَارِ الْبَلِيَّةِ وَتَنَاسَلَ الذَّرِيَّةُ ، وَاصْطَفَى سَبْحَانَهُ مِنْ وَلَدِهِ أَنْبِيَاءَ أَخَذَ عَلَى الْوَحْيِ مِثْلَهُمْ ، وَعَلَى تَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ أَمَاتَهُمْ ، لَمَّا بَدَّلَ أَكْثَرَ خَلْقِهِ عَهْدَ اللَّهِ إِلَيْهِمْ ، فَجَهِلُوا حَقَّهُ ، وَاتَّخَذُوا الْأَنْدَادَ مَعَهُ ، وَاجْتَالَتْهُمْ الشَّيَاطِينُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ ، وَاقْتَطَعَتْهُمْ عَنْ عِبَادَتِهِ ، فَبَعَثَ فِيهِمْ رَسُولَهُ ، وَوَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَنْبِيَائَهُ ، لِيَسْتَأْذِنَ مِنْهُمْ مِثْلَ فِطْرَتِهِ ، وَيَذْكُرُوا لَهُمْ مَنْسَى نِعْمَتِهِ ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِمْ بِالتَّبْلِيغِ ، وَيُشِيرَ إِلَيْهِمْ دِفَائِنَ الْعُقُولِ ، وَيُرَوِّعَهُمْ آيَاتُ الْمَقْدَرَةِ : مِنْ سَقْفِ فَوْقَهُمْ مَرْفُوعٍ ، وَمِهَادٍ تَحْتَهُمْ مَوْضُوعٍ ، وَمَعَايِشَ تَحْيِيهِمْ ، وَأَجَالَ تَفْنِيهِمْ ، وَأَوْصَابَ تَهْرِمِهِمْ ، وَأَحْدَاثَ تَتَابَعِ عَلَيْهِمْ ، وَلَمْ يَخْلُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ خَلْقَهُ مِنْ نَبِيِّ مُرْسَلٍ ، أَوْ كِتَابٍ مُنْزَلٍ ، أَوْ حُجَّةٍ لَازِمَةٍ أَوْ حُجَّةٍ قَائِمَةٍ ، رَسَلٌ لَا يَقْصُرُ بِهِمْ قِلَّةُ عَدَدِهِمْ ، وَلَا كَثْرَةُ الْمَكْذِبِينَ لَهُمْ : مِنْ سَابِقِ سَمِّيَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ، أَوْ غَابَ عَرَفَهُ مِنْ قَبْلِهِ ، عَلَى ذَلِكَ نَسَلَتِ الْقُرُونُ ، وَمَضَتْ الدُّهُورُ ، وَسَلَفَتِ الْأَبَاءُ ، وَخَلَفَتِ الْأَبْنَاؤُ ، إِلَى أَنْ بَعَثَ اللَّهُ سَبْحَانَهُ تَحَمُّدًا لَا يَنْجِزُ عِدَّتَهُ ، وَتَمَامَ بِنُورَتِهِ الْخُطْبَةَ .

**أَقُولُ :** قَوْلُهُ : اجْتَالَتْهُمْ أَيْ حَمَلَتْهُمْ عَلَى الْجَوْلَانِ إِلَى كُلِّ جَانِبٍ ، وَقَوْلُهُ : وَاتَرَ إِلَيْهِمْ أَيْ أَرْسَلَ وَاحِدًا بَعْدَ وَاحِدٍ ، وَالْأَوْصَابُ جَمْعُ وَصَبٍ وَهُوَ الْمَرَضُ ، وَالْأَحْدَاثُ جَمْعُ الْحَدَثِ وَهُوَ النَّزَالَةُ ، وَقَوْلُهُ نَسَلَتِ الْقُرُونُ أَيْ مَضَتْ ، وَانْجَازُ الْعِدَّةِ تَصْدِيقُ الْوَعْدِ ، وَالْمُرَادُ بِالْوَعْدِ الَّذِي وَعَدَهُ اللَّهُ سَبْحَانَهُ بِإِرْسَالِ رَسُولِهِ تَحَمُّدٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَبَشَرٍ بِهِ عِيسَى

ﷺ و غيره من الأنبياء عليهم السلام . قال تعالى : « وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ،  
الأنعام - ١١٥ .

وفي تفسير العياشي عن عبد الله بن الوليد قال : قال ابو عبد الله ﷺ : قال الله تعالى  
لموسى ﷺ : وكتبنا له في الألواح من كل شيء فاعلمنا أنه لم يكتب لموسى الشيء كله  
وقال تعالى لعيسى : لا يدين لكم بعض الذي تختلفون فيه ، وقال الله تعالى لمحمد ﷺ :  
وجئنا بك على هؤلاء شهيداً و نزلنا عليك الكتاب بتياناً لكل شيء

اقول : و روى في بصائر الدرجات هذا المعنى عن عبد الله بن الوليد بطريقتين . و  
قوله ﷺ قال الله لموسى إلخ إشارة إلى أن قوله تعالى في الألواح من كل شيء يفسر  
قوله تعالى في حق التوراة : « وتفصيل كل شيء » ، إذ لو كان المراد به استيعاب البيان لجميع  
جهات كل شيء لم يصح قوله : في الألواح من كل شيء ، فهذا الكلام شاهد على أن المراد  
من تفصيل كل شيء تفصيله بوجه لا من جميع الجهات فافهم .

### ﴿ بحث فلسفى ﴾

مسئلة النبوة العامة بالنظر إلى كون النبوة نحو تبليغ للأحكام وقوانين مجعولة  
مشرعة وهي أمور اعتبارية غير حقيقية وإن كانت مسئلة كلامية غير فلسفية فإن البحث  
الفلسفى إنما ينال الأشياء من حيث وجوداتها الخارجية وحقائقها العينية ولا يتناول  
الأمر المجعولة الاعتبارية .

لكنها بالنظر إلى جهة أخرى مسئلة فلسفية وبحث حقيقى . وذلك أن المواد  
الدينية : من المعارف الأصلية والأحكام الخلقية والعملية لها ارتباط بالنفس الإنسانية  
من جهة أنها تثبت فيها علوماً راسخة أو أحوالاً تؤدي إلى ملكات راسخة ، وهذه العلوم  
والملكات تكون صوراً للنفس الإنسانية تعين طريقها إلى السعادة والشقاوة ، والقرب والبعد  
من الله سبحانه ، فإن الإنسان بواسطة الأعمال الصالحة والإعتقادات الحقّة الصادقة  
يكتسب لنفسه كمالات لا تتعلق إلا بماهيتى له عند الله سبحانه من القرب والزلقى ، و  
الرضوان والجنان وبواسطة الأعمال الطالحة والعقائد السخيفة الباطلة يكتسب لنفسه

صوراً لاتتعلق إلا بالدنيا الدائرة و زخارفها الفانية و يؤدّيها ذلك أن ترد بعد مفارقة الدنيا وانقطاع الاختيار إلى دار البوار ومهاد النار و هذا سير حقيقي .

وعليهذا فالمسئلة حقيقيّة والحجّة التي ذكرناها في البيان السابق واستفدناها من الكتاب العزيز حجّة برهانيّة .

توضيح ذلك : أن هذه الصور للنفس الإنسانية الواقعة في طريق الاستكمال ، والإنسان نوع حقيقيّ بمعنى أنّه موجود حقيقيّ مبدئ لا تار وجوديّة عينيّة والعلل الفياضة للموجودات أعطتها قابليّة النيل إلى كمالها الأخير في وجودها بشهادة التجربة والبرهان ، والواجب تعالى تام الإفاضة فيجب أن يكون هناك إفاضة لكل نفس مستعدّة بما يلائم استعدادها من الكمال ، و يتبدّل به قوّتها إلى الفعلية ، من الكمال الذي يسمّى سعادة إن كانت ذات صفات حسنة وملكات فاضلة معتدلة أو الذي يسمّى شقاوة إن كانت ذات رذائل وهيئات رديّة .

وإذا كانت هذه الملكات والصور حاصلة لها من طريق الأفعال الاختيارية المنبعثة عن اعتقاد الصلاح والفساد ، والخوف والرجاء ، والرغبة إلى المنافع ، والرغبة من المضارّ وجب أن تكون هذه الإفاضة أيضاً متعلّقة بالدعوة الدينية بالتبشير والإنذار ، والتخويف والتطبيع لتكون شفاء للمؤمنين فيكملوا به في سعادتهم ، وخساراً للظالمين فيكملوا به في شقاوتهم والدعوة تحتاج إلى داع يقدم بها وهو النبيّ المبعوث من عنده تعالى .

فان قلت : كفى في الدعوة ما يدعو إليه العقل من اتباع الإنسان للمحقّ في الاعتقاد والعمل ، وسلوكه طريق الفضيلة والتقوى ، فأنيّ حاجة إلى بعث الأنبياء ؟

قلت : العقل الذي يدعو إلى ذلك ، ويأمر به هو العقل العمليّ الحاكم بالحسن والقبح ، دون العقل النظريّ المدرك لحقائق الأشياء كما مرّ بيانه سابقاً ، والعقل العمليّ يأخذ مقدّمات حكمه من الإحساسات الباطنة ، والإحساسات التي هي بالفعل في الإنسان في بادي حاله هي إحساسات القوى الشهويّة والغضبيّة ، وأمّا القوّة الناطقة القدسيّة فهي بالقوّة ، وقد مرّ أن هذا الإحساس الفطريّ يدعو إلى الاختلاف ، فهذه التي بالفعل لاتدع الإنسان يخرج من القوّة إلى الفعل كما هو مشهود من حال الإنسان فكلّ قوم

أوفرد فقد التريية الصّالحة عاد عمّا قليل إلى التوحّش والبربريّة مع وجود العقل فيهم  
وحكم الفطره عليهم ، فلا غناء عن تأييد إلهيّ بنبوّة تؤيّد العقل .

### ﴿ بحث اجتماعي ﴾

فن قلت : هب أن العقل لا يستقلّ بالعمل في كلّ فرد أوفي كلّ قوم في جميع  
التقادير ولكن الطبيعة يميل دائماً إلى ما فيه صلاحها والاجتماع التابع لها مثلها يهدي  
إلى صلاح أفرادها فهو يستقرّ بالأخرة على هيئة صالحة فيها سعادة أفراد المجتمعين وهو  
الأصل المعروف بتبعيّة المحيط بالتفاعل بين الجهات المتضادّة يؤدّي بالأخرة إلى  
اجتماع صالح مناسب لمحيط الحيوة الإنسانية جالب لسعادة النوع المجتمع الأفراد ،  
ويشهد به ما نشاهده ويؤيّد التاريخ أن الاجتماعات لا تزال تميل إلى التكامل  
و تتمنى الصلاح وتوجه إلى السعادة اللذيذة عند الإنسان ، فمنها ما بلغ مبتغاه  
وامنيته كما في بعض الأمم مثل سويسره ومنها ما هو في الطريق ولمّا يتم له شرائط  
الكمال وهي قريبة أو بعيدة كما في سائر الدول .

قلت : تمايل الطبيعة إلى كمالها وسعادتها ممّا لا يسع أحداً إنكاره ، والاجتماع  
المنتهي إلى الطبيعة حاله حال الطبيعة في التوجه إلى الكمال لكن الذي ينبغي الإمعان  
فيه أن هذا التمايل والتوجه لا يستوجب فعليّة الكمال والسعادة الحقيقيّة ، لما ذكرنا  
من فعليّة الكمال الشهوي والغضبّي في الإنسان و كون مبادي السعادة الحقيقيّة فيه  
بالقوّة ، والشاهد عليه عين ما استشهد به في الاعتراض من كون الاجتماعات المدنيّة  
المنقرضة والحاضرة متوجهة إلى الكمال ، ونيل بعضها إلى المدنيّة الفاضلة السعيدة ، و  
قرب البعض الآخر أو بعده ، فإنّ الذي نجده عند هؤلاء من الكمال والسعادة هو الكمال  
الجسمي وليس الكمال الجسمي هو كمال الإنسان ، فإنّ الإنسان ليس هو الجسم بل هو  
مركب من جسم وروح ، مؤلّف من جهتين مادّيّة ومعنويّة له حيوة في البدن وحيوة بعد  
مفارقتة من غير فناء وزوال ، يحتاج إلى كمال وسعادة تستند إليها في حيوته الآخرة ،  
فليس من الصحيح أن يعدّ كماله الجسمي الموضوع على أساس الحيوة الطبيعيّة كمالاً له

وسعادة بالنسبة إليه ، وحقته هذه الحقيقية .

فتبين أن الاجتماع بحسب التجربة إنما توجه بالفعل إلى فعلية الكمال الجسماني دون فعلية الكمال الإنساني ، وإن كان في قصدها هداية الإنسان إلى كمال حقيقته لا كمال جسمه الذي في تقوية جانبه هلاك الإنسانية وانحلال تركيبه ، وضلاله عن صراطه المستقيم ، فهذا الكمال لا يتم له إلا بتأييد من النبوة ، والهداية الإلهية .

فان قلت : لو صحّت هذه الدعوة النبوية ولها ارتباط بالهداية التكوينية لكان لازمها فعلية التأثير في الاجتماعات الإنسانية ، كما أن هداية الإنسان بل كل موجود مخلوق إلى منافع وجوده أمر فعلي جار في الخلقة والتكوين ، فكان من اللازم أن يتلبس به الاجتماعات ، ويجري في ما بين الناس مجرى سائر الغرائز الجارية ، وليس كذلك ، فكيف يكون إصلاحاً حقيقياً ولا يقبله الاجتماعات الإنسانية ؟ فليست الدعوة الدينية في رفعها اختلافات الحياة إلا فرضية غير قابلة الانطباق على الحقيقة .

قلت : أو لا أثر الدعوة الدينية مشهود معان ، لا يرتاب فيه إلا مكابر ، فإنها في جميع أعصار وجودها منذ ظهرت ، ربّت أولوفاً وألوفاً من الأفراد في جانب السعادة ، وأضعاف ذلك وأضعاف أضعافهم في جانب الشقاء بالقبول والرد ، والإنقياد والإستكبار ، والإيمان والكفر ، مضافاً إلى بعض الاجتماعات الدينية المنعقدة أحياناً من الزمان . على أن الدنيا لم تقض عمرها بعد ، ولمّا ينقرض العالم الإنساني ، ومن الممكن أن يتحوّل الاجتماع الإنساني يوماً إلى اجتماع ديني صالح ، فيه حياة الإنسانية الحقيقية وسعادة الفضائل والأخلاق الراقية يوم لا يعبد فيه إلا الله سبحانه ، ويسار فيه بالعدالة والفضيلة ، وليس من الجائز أن نعدّ مثل هذا التأثير العظيم هيئناً لا يعبأ به .

وثانياً : أن الأبحاث الاجتماعية وكذا علم النفس وعلم الأخلاق تثبت أن الأفعال المتحققة في الخارج لها ارتباط بالأحوال والملكات من الأخلاق ترتفع من ندى الصفات النفسانية ، ولها تأثير في النفوس ، فالأفعال آثار النفوس وصفاتها ، ولها آثار في النفوس في صفاتها ، ويستنتج من هناك أصلان : أصل سرية الصفات والأخلاق ،

وأصل ورائتها ، فهي تتسع وجوداً بالسراية عرضاً ، وتتسع ببقاء وجودها بالوراثة طولاً .

فهذه الدعوة العظيمة وهي تصاحب الاجتماعات الانسانية من أقدم عهودها ، في تاريخها المضبوط وقبل ضبط التاريخ لابد أن تكون ذات أثر عميق في حياة الإنسان الاجتماعية من حيث الأخلاق الفاضلة والصفات الحسنة الكريمة ، للدعوة الدينية آثار في النفوس وإن لم تجبها ولم تؤمن بها .

بل حقيقة الأمر : أن ما نشاهده في الاجتماعات الحاضرة من الملل والأهم الحية : من آثار النبوة والدين ، وقد ملكوها بالوراثة أو التقليد ، فإن الدين منذ ظهر بين هذا النوع حملته وانتحل به أمم وجماعات هامة ، وهو الداعي الوحيد الذي يدعو إلى الإيمان ، والأخلاق الفاضلة والعدل والصلاح ، فلموجود من الخصائص الحميدة بين الناس اليوم وإن كان قليلاً بقايا من آثاره ونتائجه ، فإن التباير العامة في الاجتماعات المتكونة ثلاثة لأربع لها : أحدها تدير الاستبداد وهو يدعو إلى الرقبة في جميع الشؤون الإنسانية ، وثانيها القوانين المدنية وهي تجري وتحكم في الأفعال فحسب ، وتدعو إلى الحرية فيما وراء ذلك من الأخلاق وغيرها ، وثالثها الدين وهو يحكم في الاعتقادات والأخلاق والأفعال جميعاً ويدعو إلى إصلاح الجميع .

فلو كان في الدنيا خير مرجو أو سعادة لوجب أن ينسب إلى الدين و تربيته . ويشهد بذلك ما نشاهده من أمر الأمم التي بنت اجتماعها على كمال الطبيعة ، وأهملت أمر الدين والأخلاق ، فإنهم لم يلبثوا دون أن افتقدوا الصلاح والرحمة والمحبة وصفاء القلب وسائر الفضائل الخلقية والفطرية مع وجود أصل الفطرة فيهم ، ولو كانت أصل الفطرة كافية ، ولم تكن هذه الصفات بين البشر من البقايا الموروثة من الدين لما افتقدوا شيئاً من ذلك .

على أن التاريخ أصدق شاهد على الاقتباسات التي عملتها الأمم المسيحية بعد الحروب الصليبية ، فاقبضوا مهمات النكات من القوانين العامة الإسلامية فتقلدوها وتقدموا بها ، والحال أن المسلمين اتخذوها ورائهم ظهرياً ، فتأخروا هؤلاء وتقدم

أولئك . و الكلام طويل الذيل .

وبالجملة الأصلان المذكوران ، أعني السراية والوراثية ، وهما التقليد الغربي في الإنسان و التحفظ على السيرة المألوفة يوجبان نفوذ الروح الديني في الاجتماعات كما يوجبان في غيره ذلك ، وهو تأثير فعلي .

فان قلت : فعلى هذا فما فائدة الفطرة فإنها لاتغني طاملاً وإنما أمر السعادة بيد النبوة ؟ وما فائدة بناء التشريع على أساس الفطرة على ما تدعيه النبوة ؟

قلت : ماقدّمناه في بيان ما للفطرة من الارتباط بسعادة الإنسان وكمالها يكفي في حل هذه الشبهة ، فإن السعادة والكمال الذي تجلبه النبوة إلى الإنسان ليس أمراً خارجاً عن هذا النوع ، ولا غريباً عن الفطرة ، فإن الفطرة هي التي تهتدي إليه ، لكن هذا الاهتمام لا يتم لها بالفعل وحدها من غير معين يعينها على ذلك ، وهذا المعين الذي يعينها على ذلك وهو حقيقة النبوة ليس أيضاً أمراً خارجاً عن الإنسانية وكمالها ، منضمّاً إلى الإنسان كالحجر الموضوع في جنب الإنسان مثلاً ، وإلا كان ما يعود منه إلى الإنسان أمراً غير كماله وسعادته كالثقل الذي يضيفه الحجر إلى ثقل الإنسان في وزنه ، بل هو أيضاً كمال فطري للإنسان مذخور في هذا النوع ، وهو شعور خاص وإدراك مخصوص مكمون في حقيقته لا يهتدي إليه بالفعل إلاّ آحاد من النوع أخذتهم العناية الإلهية ، كما أن للبالغ من الإنسان شعوراً خاصاً بلذة النكاح ، لا يهتدي إليه بالفعل بقيمة الأفراد الغير البالغين بالفعل ، وإن كان الجميع من البالغ وغير البالغ مشتركين في الفطرة الإنسانية ، والشعور شعور مرتبط بالفطرة .

وبالجملة لاحقيقة النبوة أمر زايد على إنسانية الإنسان الذي يسمّى نبياً ، وخارج عن فطرته ، ولا السعادة التي تهتدي سائر الأمة إليها أمر خارج عن إنسانيتهم وفطرتهم ، غريب عما يستأنسه وجودهم الإنساني ، وإلا لم تكن كمالاً وسعادة بالنسبة إليهم .

فان قلت : فيعود الإشكل على هذا التقرير إلى النبوة ، فإن الفطرة عليها ذا كافية وحدها و النبوة غير خارجة عن الفطرة .

فإنَّ المتحصِّل من هذا الكلام ، هو أنَّ النوع الإنسانيَّ المتمدِّن بفطرته و  
المختلف في اجتماعه يتميِّز من بين أفراده آحاد من الصالحاء فطرتهم مستقيمة ، وعقولهم  
سليمة عن الأهام والتهوُّسات وذرائل الصفات ، فيبتدون باستقامة فطرتهم ، وسلامة  
عقولهم إلى ما فيه صلاح الاجتماع ، وسعادة الإنسان ، فيضعون قوانين فيها مصلحة  
الناس ، وعمران الدنيا والآخرة ، فإنَّ النبيَّ هو الإنسان الصالح الَّذي له نبوغ اجتماعيٌّ  
قلت : كلاً ! وإنما هو تفسير لا ينطبق على حقيقة النبوة ، ولا ما تستتبعه :

أما أولاً : فلأنَّ ذلك فرض افترضه بعض علماء الاجتماع ممَّن لا قدم له في  
البحث الدينيِّ ، والفحص عن حقائق المبدء والمعاد .

فذكر أنَّ النبوة نبوغ خاصَّ اجتماعيٌّ استتبعته استقامة الفطرة وسلامة العقل ،  
وهذا النبوغ يدعو إلى الفكر في حال الاجتماع ، وما يصلح به هذا الاجتماع المختلِّ ،  
وما يسعد به الإنسان الاجتماعيُّ .

فهذا النابغة الاجتماعيُّ هو النبيُّ ، والفكر الصالح المترشِّح من قواه الفكرية  
هو الوحي ، والقوانين التي يجعلها لصلاح الاجتماع هو الدين ، وروحه الطاهر الَّذي  
يفيض هذه الأفكار إلى قواه الفكرية ولا يخون العالم الإنسانيَّ باتِّباع الهوى هو الروح  
الأمين وهو جبرئيل ، والموحي الحقيقيُّ هو الله سبحانه ، والكتاب الَّذي يتضمنُّ أفكاره  
العالية الطاهرة هو الكتاب السماويُّ ، والملائكة هي القوى الطبيعية أو الجهات الداعية  
إلى الخير ، والشيطان هي النفس الأمارة بالسوء أو القوى أو الجهات الداعية إلى  
الشرِّ والفساد ، وعلى هذا القياس .

وهذا فرض فاسد ، وقد مرَّ في البحث عن الإعجاز ، أنَّ النبوة بهذا المعنى لأنَّ  
تسميَّ لعبة سياسية أولى بها من أن تسميَّ نبوة إلهية .

وقد تقدَّم أنَّ هذا الفكر الَّذي يسميَّ هؤلاء الباحثون نبوغه الخاصَّ نبوة من  
خواصَّ العقل العمليِّ ، الَّذي يميِّز بين خير الأفعال وشرِّها بالمصلحة والمفسدة وهو  
أمر مشترك بين العقلاء من أفراد الإنسان ومن هدايا الفطرة المشتركة ، وتقدَّم أيضاً  
أنَّ هذا العقل بعينه هو الداعي إلى الاختلاف ، وإذا كان هذا شأنه لم يقدر من حيث

هو كك على رفع الاختلاف ، واحتاج فيه إلى متمم يتمم أمره ، وقد عرفت أنه يجب أن يكون هذا المتمم نوعاً خاصاً من الشعور يختص به بحسب الفعلية بعض الآحاد من الإنسان وتهتدى به الفطرة إلى سعادة الإنسان الحقيقية في معاشه ومعاده .

ومن هنا يظهر أن هذا الشعور من غير سنخ الشعور الفكري ، بمعنى أن ما يجده الإنسان من النتائج الفكرية من طريق مقدّماتها العقلية غير ما يجده من طريق الشعور النبوي ، والطريق غير الطريق .

ولا يشك الباحثون في خواص النفس في أن في الإنسان شعوراً نفسياً باطنياً ، ربما يظهر في بعض الآحاد من أفراده ، يفتح له باباً إلى عالم وراء هذا العالم ، ويعطيه عجائب من المعارف والمعلومات ، وراء ما يناله العقل والفكر ، صرح به جميع علماء النفس من قدمائنا وجمع من علماء النفس من أوربه مثل جمز الإنگليزي وغيره .

فقد تحصل أن باب الوحي النبوي غير باب الفكر العقلي ، وأن النبوة وكذا الشريعة والدين والكتاب والملك والشیطان لا ينطبق عليها ما اختلقوه من المعاني .

وأما ثانياً : فلأن المأثور من كلام هؤلاء الأنبياء المدّعين لمقام النبوة والوحي مثل محمد ﷺ وعيسى وموسى وإبراهيم ونوح ﷺ وغيرهم - وبعضهم يصدق بعضاً - وكذا الموجود من كتبهم كالقرآن ، صريح في خلاف هذا الذي فسرّوا به النبوة والوحي ونزول الكتاب والملك وغير ذلك من الحقائق . فإن صريح الكتاب والسنة وما نقل من الأنبياء العظام عليهم السلام أن هذه الحقائق وآثارها أمور خارجة عن سنخ الطبيعة ، ونشأة المادة ، وحكم الحس ، بحيث لا يعدّ إرجاعها إلى الطبيعة وحكمها إلا تأويلاً بما لا يقبله طبع الكلام ، ولا يرتضيه ذوق المتخاطب .

وقد تبين بما ذكرنا أن الأمر الذي يرفع فساد الاختلاف عن الاجتماع الإنساني هو الشعور الباطني الذي يدرك صلاح الاجتماع أغني القوة التي يمتاز بها النبي عن غيره أمر وراء الشعور الفكري الذي يشترك فيه جميع أفراد الإنسان .

فان قلت : فعلى هذا يكون هذا الشعور الباطني أمراً خارقاً للعادة فإنّه أمر لا يعرفه أفراد الإنسان من أنفسهم وإنما هو أمر يدّعيه الشاذ النادر منهم ، فكيف يمكن

أن يسوق الجميع إلى إصلاح شأنهم ويهدي النوع إلى سعادته الحقيقية؟ وقد مر سابقاً أن كل ما فرض هادياً للإنسان إلى سعادته وكمال النوعي وجب أن يهديه بالارتباط والاتحاد مع فطرته ، لا بنحو الانضمام كاتضمام الحجر الموضوع في جنب الإنسان إليه .

قلت : كون هذا الأمر خارقاً للعادة ممّا لا ريب فيه ، وكذا كونه أمراً من قبيل الإدراكات الباطنية ونحو شعور مستور عن الحواس الظاهرية ممّا لا ريب فيه ، لكن العقل لا يدفع الأمر الخارق للعادة ولا الأمر المستور عن الحواس الظاهرة وإنما يدفع المحال ، وللعقل طريق إلى تصديق الأمور الخارقة للعادة المستورة عن الحواس الظاهرة فإن له أن يستدلّ على الشيء من طريق علله وهو الاستدلال اللمعي ، أو من لوازمه أو آثاره وهو الاستدلال الإنسي فيثبت بذلك وجوده ، والنبوة بالمعنى الذي ذكرنا يمكن أن يستدلّ عليها بأحد طريقين : فتارة من طريق آثاره وتبعاته وهو اشتغال الدين الذي يأتي به النبي على سعادة الإنسان في دنياه وآخرته ، وتارة من جهة اللوازم وهو أن النبوة لما كانت أمراً خارقاً للعادة فدعواها ممن يدعيها هي دعوى أن الذي وراء الطبيعة وهو إلهها الذي يهديها إلى سعادتها ويهدي النوع الإنساني منها إلى كماله وسعادته يتصرف في بعض أفراد النوع تصرفاً خارقاً للعادة وهو التصرف بالوحي ، ولو كان هذا التصرف الخارق للعادة جائزاً جاز غير من خوارق العادة ، لأنّ حكم الأمثال فيما يجوز وفيما لا يجوز واحد ، فلو كانت دعوى النبوة من النبي حقّاً وكان النبي واحداً لها لكان من الجائز أن يأتي بأمر آخر خارق للعادة مرتبطة بنبوته نحو ارتباط يوجب تصديق العقل الشاك في نبوة هذا المدعي للنبوة ، وهذا الأمر الخارق للعادة هي الآية المعجزة ، وقد تكلمنا في الإعجاز في تفسير قوله تعالى : « وإن كنتم في شك ممّا نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله الآية » البقرة - ٢٣ .

فان قلت : هب أن هذا الاختلاف ارتفع بهذا الشعور الباطني المسمّى بوحى النبوة وأنبأها النبي بالإعجاز ، وكان على الناس أن يأخذوا بآثاره وهو الدين المشرع الذي جاء به النبي ، لكن ما المؤمن عن الغلط؟ وما الذي يصون النبي عن الوقوع في الخطأ في تشريعه وهو إنسان طبعه طبع سائر الأفراد في جواز الوقوع في الخطأ؟

ومن المعلوم أن وقوع الخطأ في هذه المرحلة أعني مرحلة الدين ورفع الاختلاف عن الاجتماع يعادل نفس الاختلاف الاجتماعي في سدّ طريق استكمال النوع الإنساني، وإضلاله هذا النوع في سيره إلى سعادته، فيعود الماحذور من رأس !

قلت : الأبحاث السابقة تكفي مؤنة حلّ هذه العقدة ، فإنّ الذي ساق هذا النوع نحو هذه الفعلية أعني الأمر الروحيّ الذي يرفع الاختلاف إنّما هو الناموس التكوينيّ الذي هو الإيصال التكوينيّ لكلّ نوع من الأنواع الوجودية إلى كماله الوجودي وسعادته الحقيقية ، فإنّ السبب الذي أوجب وجود الإنسان في الخارج وجوداً حقيقياً كسائر الأنواع الخارجية هو الذي يهديه هداية تكوينية خارجية إلى سعادته ، ومن المعلوم أنّ الأمور الخارجية من حيث أنّها خارجية لا تعرضها الخطأ والغلط ، أعني : أنّ الوجود الخارجي لا يوجد فيه الخطأ والغلط لوضوح أنّ ما في الخارج هو ما في الخارج ! وإنّما يعرض الخطأ والغلط في العلوم التصديقية والأمور الفكرية من جهة تطبيقها على الخارج فإنّ الصدق والكذب من خواصّ القضايا ، تعرضها من حيث مطابقتها للخارج وعدمها ، وإذا فرض أنّ الذي يهدي هذا النوع إلى سعادته ورفع اختلافه العارض على اجتماعه هو الإيجاد والتكوين لزم أنّ لا يعرضه غلط ولا خطأ في هدايته ، ولا في وسيلة هدايته التي هي روح النبوة وشعور الوحي ، فلا التكوين يغلط في وضعه هذا الروح والشعور في وجود النبيّ ، ولا هذا الشعور الذي وضعه يغلط في تشخيصه مصالح النوع عن مفسده وسعادته عن شقاؤه ، ولو فرضنا له غلطاً وخطأً في أمره وجب أن يتداركه بأمر آخر مصون عن الغلط والخطأ ، فمن الواجب أن يقف أمر التكوين على صواب لا خطأ فيه ولا غلط .

فظهر : أنّ هذا الروح النبويّ لا يعمل عملاً إلاّ بمصاحبة العصمة ، وهي المصونية عن الخطأ في أمر الدين والشرعية المشرّعة ، وهذه العصمة غير العصمة عن المعصية كما أشرنا إليه سابقاً ، فإنّ هذه عصمة في تلقّي الوحي من الله سبحانه ، وتلك عصمة في مقام العمل والعبودية ، وهناك مرحلة ثالثة من العصمة وهي العصمة في تلقّي الوحي ، فإنّ كليهما واقعتان في طريق سعادة الإنسان التكوينية وقوعات تكوينية ،

ولا خطأ ولا غلط في التكوين .

وقد ظهر بما ذكرنا الجواب عن إشكال آخر في المقام وهو : أنه لم لا يجوز أن يكون هذا الشعور الباطنيّ مثل الشعور الفطريّ المشترك أعني الشعور الفكريّ في نحو الوجود بأن يكون محكوماً بحكم التغيّر والتأثير ؟ فإنّ الشعور الفطريّ وإن كان أمراً غير مادّيّ ، ومن الأمور القائمة بالنفس المجرّدة عن المادة إلاّ أنّه من جهة ارتباطه بالمادة يقبل الشدّة والضعف والبقاء والبطلان كما في مورد الجنون والسفاهة والبلاهة والغباوة وضعف الشيب وسائر الآفات الواردة على القوى المدركة ، فكذلك هذا الشعور الباطنيّ أمر متعلّق بالبدن المادّيّ نحواً من التعلّق ، وإن سلّم أنّه غير مادّيّ في ذاته فيجب أن يكون حاله حال الشعور الفكريّ في قبول التغيّر والفساد ، ومع إمكان عروض التغيّر والفساد فيه يعود الإشكالات السابقة البتّة .

والجواب : أنّنا بينّا أن هذا السوق أعني سوق النوع الإنسانيّ نحو سعادته الحقيقية إنّما يتحقّق بيد الصنع والإيجاد الخارجيّ دون العقل الفكريّ ، ولا معنى لتحقّق الخطأ في الوجود الخارجيّ .

وأما كون هذا الشعور الباطنيّ في معرض التغيّر والفساد لكونه متعلّقاً نحو تعلّق بالبدن فلا نسلم كون كلّ شعور متعلّق بالبدن معرضاً للتغيّر والفساد ، وإنّما القدر المسلم من ذلك هذا الشعور الفكريّ ( وقد مرّ أنّ الشعور النبويّ ليس من قبيل الشعور الفكريّ ) وذلك أنّ من الشعور شعور الإنسان بنفسه ، وهو لا يقبل البطلان والفساد والتغيّر والخطأ فإنّه علم حضوريّ معلومه عين المعلوم الخارجيّ ، وتنمّة هذا الكلام موكل إلى محله .

فقد تبين ممّا مرّ أمور : أحدها : انسياق الاجتماع الإنسانيّ إلى التمدّن والاختلاف .

ثانيها : أنّ هذا الاختلاف القاطع لطريق سعادة النوع لا يرتفع ولن يرتفع بما يضعه العقل الفكريّ من القوانين المقرّرة .

ثالثها : أنّ رافع هذا الاختلاف إنّما هو الشعور النبويّ الذي يوجدّه الله سبحانه

في بعض آحاد الإنسان لا غير .

**رابعهما :** أن سنخ هذا الشعور الباطني الموجود في الأنبياء غير سنخ الشعور

الفكري المشترك بين العقلاء من أفراد الإنسان .

**خامسها :** أن هذا الشعور الباطني لا يغلط في إدراكه الاعتقادات والقوانين

المصلحة لحال النوع الإنساني في سعادته الحقيقية .

**سادسها :** أن هذه النتائج (ويهمنا من بينها الثلاثة الأخيرة أعني : لزوم بعثة

الأنبياء ، وكون شعور الوحي غير الشعور الفكري سنخاً ، وكون النبي معصوماً غير

غالط في تلقي الوحي) نتائج ينتجها الناموس العام للمشاهد في هذا العالم الطبيعي ،

وهو سير كل واحد من الأنواع المشهودة فيه نحو سعادته بهداية العلل الوجودية

التي جهزها بوسائل السير نحو سعادته والوصول إليها والتلبس بها والإنسان أحد

هذه الأنواع ، وهو مجهز بما يمكنه به أن يعتقد الاعتقاد الحق ويتلبس بالملكات الفاضلة ،

ويعمل عملاً صالحاً في مدينة صالحة فاضلة ، فلا بد أن يكون الوجود يهتدي له هذه

السعادة يوماً في الخارج ويهديه إليه هداية تكوينية ليس فيها غلط ولا خطأ على

ما مرّ بيانه .



أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسْتَهْمِ  
الْبَاسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ  
اللَّهِ . أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ (٢١٤)

### ﴿بيان﴾

قد مرَّ أنَّ هذه الآيات آخذة من قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي  
السَّلَامِ كَافَّةً إِلَى آخِرِ هَذِهِ الْآيَةِ ، ذات سياق واحد يربط بعضها ببعض .  
قوله تعالى : أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ اهْتَبَيْتُمْ لَهَا تَدْخُلُوهَا عَلَيْهِ الْآيَاتُ السَّابِقَةُ ،  
وهو أنَّ الدين نوع هداية من الله سبحانه للناس إلى ما فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة ،  
ونعمة حباهم الله بها ، فمن الواجب أن يسلموا له ولا يتبعوا خطوات الشيطان ، و  
لا يلقوا فيه الاختلاف ، ولا يجعلوا الدِّواء دائماً ، ولا يبدلوا نعمة الله سبحانه كفرأ ونعمة  
باتِّباع الهوى ، وابتغاء زخرف الدنيا وحطامها فيحلَّ عليهم غضب من ربهم كما حلَّ  
ببنِي إِسْرَائِيلَ حيث بدلوا نعمة الله من بعدما جاتتهم ، فإنَّ المأجنة دائمة ، والفتنة قائمة ،  
ولن ينال أحد من الناس سعادة الدين وقرب رب العالمين : إِلَّا بِالثَّبَاتِ والتَّسْلِيمِ .  
وفي الآيات التفات إلى خطاب المؤمنين بعد تنزيلهم في الآيات السابقة منزلة الغيبة ،  
فإنَّ أصل الخطاب كان معهم ووجه الكلام إليهم في قوله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا  
فِي السَّلَامِ كَافَّةً اه ، وإنَّما عدل عن ذلك إلى غيره لعناية كلامية أوجبت ذلك ، وبعد  
انقضاء الوطر عاد إلى خطابهم ثانياً ...

وكلمة أَمْ منقطعة تفيد الإضراب ، والمعنى على ما قيل : بل أَحْسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا  
الْجَنَّةَ إِخْلَافًا وَامْتِنَافًا فِي أَمْ الْمُنْقَطَعَةِ مَعْرُوفٌ ، وَالْحَقُّ أَنَّ أَمْ لَا إِفَادَةَ التَّرْدِيدِ ، وَأَنَّ الدَّلَالَه  
عَلَى مَعْنَى الْإِضْرَابِ مِنْ حَيْثُ انْطَبَاقُ مَعْنَى الْإِضْرَابِ عَلَى الْمُرُودِ ، لِأَنَّهَا دَلَالَه وَضَعِيَّةٌ .  
فَالْمَعْنَى فِي الْمُرُودِ مِثْلًا : هَلْ انْقَطَعْتُمْ بِمَا أَمَرْنَاكُمْ مِنَ التَّسْلِيمِ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَالثَّبَاتِ عَلَى

نعمة الدين ، والاتفاق والاتحاد فيه أم لا بل حسبتم أن تدخلوا الجنة إلخ .  
**قوله تعالى :** ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم اه المثل بكسر الميم فسكون  
 الثاء ، والمثل بفتح الميم والثاء كالشبه والشبه ، والمراد به ما يمثل الشيء ، ويحضره ويشخصه  
 عند السامع ، ومنه المثل بفتحتين ، وهو الجملة أو القصة التي تفيد استحضار معنى مطلوب  
 في ذهن السامع بنحو الاستعارة التمثيلية كما قال تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة  
 ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا » الجمعة - ٥ ، ومنه أيضاً المثل بمعنى الصفة  
 كقوله تعالى : « انظر كيف ضربوا لك الأمثال ، الفرقان - ٩ وإنما قالوا له وَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :  
 مجنون وساحر وكذاب ونحو ذلك ، وحيث أنه تعالى يبين المثل الذي ذكره : بقوله :  
 مستهم البأساء والضراء إلخ فالمراد به المعنى الأول .

**قوله تعالى :** مستهم البأساء والضراء إلى آخره لما اشتد شوق المخاطب ليفهم  
 تفصيل الإجمال الذي دل عليه بقوله : ولما يأتكم مثل الذين اه يبين ذلك بقوله :  
 مستهم البأساء والضراء اه ، والبأساء هو الشدة المتوجهة إلى الإنسان في خارج نفسه  
 كالملأ والجهاء والأهل والأمن الذي يحتاج إليه في حياته ، والضراء هي الشدة التي  
 تصيب الإنسان في نفسه كالجرح والقتل والمرض ، والزلزلة والزوال معروف وأصله  
 من زل بمعنى عثر ، كررت اللفظة للدلالة على التكرار كأن الأرض مثلاً تحدث  
 لها بالزلزلة عشرة بعد عشرة ، وهو كصمر وصرصر ، وصل وصلصل ، وكب وككب ،  
 والزلزال في الآية كناية عن الاضطراب والادهاش .

**قوله تعالى :** حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه اه قرء بنصب يقول ، والجملة  
 عليها في محل الغاية لما سبقتها ، وقرء برفع يقول والجملة عليها الحكاية الحال الماضية ،  
 والمعنيان وإن كانا جميعاً صحيحين لكن الثاني أنسب للسياق ، فإن كون الجملة غاية  
 يعلل بها قوله : وزلزلوا لا يناسب السياق كل المناسبة .

**قوله تعالى :** متى نصر الله اه الظاهر أنه مقول قول الرسول والذين آمنوا  
 معه جميعاً ، ولا ضير في أن يتقوه الرسول بمثل هذا الكلام استدعاءً و طلباً للنصر  
 الذي وعد به الله سبحانه رسله والمؤمنين بهم كما قال تعالى : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا

المُرسلين أَنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ الصَّافَّاتِ ١٧٢ وَقَالَ تَعَالَى : « كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي »  
 الْمِجَادِلَةِ - ٢١ وَقَدْ قَالَ تَعَالَى أَيْضاً : « حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا  
 جَاءَهُمْ نَصْرُنَا يَوْمَئِذٍ يُوسِفُ - ١١٠ ، وَهُوَ أَشَدُّ لِحْنًا مِنْ هَذِهِ الْآيَةِ .

وَالظَّاهِرُ أَيْضاً أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى : أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ مَقُولُهُ تَعَالَى لَا تَمُوتُ لِقَوْلِ  
 الرُّسُولِ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ . . .

وَالْآيَةُ ( كَمَا مَرَّتْ إِلَيْهِ الْإِشَارَةُ سَابِقاً ) تَدُلُّ عَلَى دَوَامِ أَمْرِ الْإِبْتِلَاءِ وَالْإِمْتِحَانِ  
 وَجَرِيَانِهِ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ كَمَا جَرَى فِي الْأُمَمِ السَّابِقَةِ .

وَتَدُلُّ أَيْضاً عَلَى اتِّحَادِ الْوَصْفِ وَالْمَثَلِ بِتَكَرُّرِ الْحَوَادِثِ الْمَاضِيَةِ غَابِراً ، وَهُوَ  
 الَّذِي يَسَمَّى بِتَكَرُّرِ التَّارِيخِ وَعَوْدِهِ .





يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ . قُلْ مَا أُنْفِقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَ لِلْيَتَامَىٰ  
وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢١٥)

### ﴿بيان﴾

قوله تعالى : يسألونك ماذا ينفقون . قل : ما أنفقتم من خير اه قالوا : إن الآية واقعة على أسلوب الحكمة ، فإنهم إنما سألوا عن جنس ما ينفقون ونوعه ، وكان هذا السؤال كالتغو لكان ظهور ما هو يقع به الإنفاق وهو المال على أقسامه ، وكان الأحق بالسؤال إنما هو من ينفق له ؛ صرف الجواب إلى التعرّض بحاله وبيان أنواعه ليكون تنبيهاً لهم بحق السؤال .

والذي ذكره وجهه بليغ غير أنهم تركوا شيئاً ، وهو أن الآية مع ذلك متعرّضة لبيان جنس ما ينفقونه ، فإنها تعرّضت لذلك : أولاً بقولها : من خير اه إجمالاً ، وثانياً بقولها : وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم اه ففي الآية دلالة على أن الذي ينفق به هو المال كائناً ما كان ، من قليل أو كثير ، وأن ذلك فعل خير والله به عليم ، لكنهم كان عليهم أن يسألوا عن من ينفقون لهم ويعرفوه ، وهم : الوالدان والأقربون واليتامى والمساكين وابن السبيل .

ومن غريب القول ما ذكره بعض المفسرين : أن المراد بما في قوله تعالى : ما ذا ينفقون ليس هو السؤال عن المهيّة فإنّه اصطلاح منطقي لا ينبغي أن ينزل عليه الكلام العربي ولا سيما أفصح الكلام وأبلغه ، بل هو السؤال عن الكيفيّة ، وأنهم كيف ينفقونه ، وفي أيّ موضع يضعونه ، فأجيب بالصرف في المذكورين في الآية ، فالجواب مطابق للسؤال لا كما ذكره علماء البلاغة ؛

ومثله وهو أغرب منه ما ذكره بعض آخر : أن السؤال وإن كان بلفظ ما إلا أن

المقصود هو السؤال عن الكيفية فإنَّ من المعلوم أنَّ السَّذي ينفق به هو المال ، و إذا كان هذا معلوماً لم يذهب إليه الوهم ، وتعيَّن أنَّ السؤال عن الكيفية ، نظير قوله تعالى : « قالوا ادع لنا ربَّك يبيِّن لنا ماهي إنَّ البقر تشابه علينا » البقرة - ٧٠ . فكان من المعلوم أنَّ البقرة بهيمة نشأتها وصفتها كذا وكذا ، فلا وجه لحمل قوله : ماهي على طلب المهيبة ، فكان من المتعيَّن أنَّ يكون سؤالاً عن الصفة السَّمي بها تمتاز البقرة عن غيرها ، ولذلك أُجيب بالمطابقة بقوله تعالى : « قال إنَّها بقرة لاذلول الآيَة » البقرة - ٧١ .

و قد اشتبه الأمر على هؤلاء ، فإنَّ ما وإن لم تكن موضوعة في اللغة لطلب المهيبة السَّمي اصطلاح عليها المنطق ، وهي الحد المُولَّف من الجنس والفصل القريبين ، لكنَّه لا يستلزم أنَّ تكون حينئذ موضوعة للسؤال عن الكيفية ، حتَّى يصحَّ لقائل أن يقول عند السؤال عن المستحقين للإِنفاق : ماذا أنفق ؟ أى على من أنفق ؟ فيجاب عنه بقوله : للوالدين والأقربين اه فإنَّ ذلك من أوضح اللحن .

بل ما موضوعة للسؤال عما يعرف الشيء سواء كان معرُفاً بالحدِّ والمهيبة ، أو معرُفاً بالخواصِّ والأوصاف ، فهي أعمُّ ممَّا اصطلاح عليه في المنطق لأنَّها مغايرة له وموضوعة للسؤال عن كيفية الشيء ، ومنه يعلم أنَّ قوله تعالى : « يبيِّن لنا ماهي » و قوله تعالى : « إنَّها بقرة لاذلول اه » سؤال وجواب جاربان على أصل اللغة ، وهو السؤال عما يعرف الشيء وبخصته والجواب بذلك .

و أمَّا قول القائل : إنَّ المهيبة لما كانت معلومة تعيَّن حمل ما على السؤال عن الكيفية دون المهيبة فهو من أوضح الخطاء ، فإنَّ ذلك لا يوجب تغيُّر معنى الكلمة ممَّا وضع له إلى غيره .

و يتلوها في الغرابة قول من يقول : إنَّ السؤال كان عن الأمرين جميعاً : ما ينفقون ؟ و أين ينفقون فذكر أحد السؤالين وحذف الآخر ، وهو السؤال الثاني لدلالة الجواب عليه ! وهو كما ترى .

و كيف كان لا ينبغي الشكَّ في أنَّ في الآية تحويلاً مالم للجواب إلى جواب آخر تنبيهاً على أنَّ الأحقَّ هو السؤال عن من ينفق عليهم ، وإلاَّ فكون الإِنفاق من الخير

والمال ظاهر ، والتحوّل من معنى إلى آخر للتنبيه على ما ينبغي التحوّل إليه والاشتغال به كثير الورود في القرآن ، وهو من أطف الصنائع المختصة به كقوله تعالى : « مثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاءً ونداءً » البقرة - ١٧١ وقوله تعالى : « مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صرٌّ » آل عمران - ١١٧ وقوله تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل » البقرة - ٢٦١ وقوله تعالى : « يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم » الشعراء - ٨٩ وقوله تعالى : « قل ما أسألكم عليه من أجر إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً » الفرقان - ٥٧ وقوله تعالى : « سبحان الله عما يصفون » الأعداء المخلصين الصافات - ١٥٩ إلى غير ذلك من كرائم الآيات .

**قوله تعالى :** وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم اه ، في تبديل الإنفاق بفعل الخير ههنا كتبديل المال بالخير في أول الآية إيماء إلى أن الإنفاق وإن كان مندوباً إليه من قليل المال وكثيره ، غير أنه ينبغي أن يكون خيراً يتعلّق به الرغبة وتقع عليه المحبة كما قال تعالى : « لن تنالوا البرّ حتّى تنفقوا ممّا تحبّون » آل عمران - ٩٢ وكما قال تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم وممّا أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمّموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه اه » البقرة - ٢٦٧ . وإيماء إلى أن الإنفاق ينبغي أن لا يكون على نحو الشرّ كالإنفاق بامان والأذى كما قال تعالى : « ثمّ لا يتبعون ما أنفقوا ممّا ولا أذى » البقرة - ٢٦٢ وقوله تعالى : « يسألونك ماذا ينفقون قل العفو » البقرة - ٢١٩ .

### ﴿ بحث روائى ﴾

في الدرّ المنثور عن ابن عباس قال ما رأيت قوماً كانوا خيراً من أصحاب محمد ما سألوهم إلا عن ثلث عشرة مسألة حتّى قبض ، كلّهنّ في القرآن ، منهنّ : يسألونك عن الخمر والميسر ، ويسألونك عن الشهر الحرام ، ويسألونك عن اليتامى ، ويسألونك عن المحيض ، ويسألونك عن الأنفال ، ويسألونك ما ذا ينفقون ، ما كانوا يسألون إلا عمّا كان ينفعهم .

في المجمع في الآية : نزلت في عمر بن الجموح - وكان شيخاً كبيراً ذا مال كثير -  
 فقال : يا رسول الله ! بماذا أتصدق ؟ وعلى من أتصدق ؟ فأُنزل الله هذه الآية  
 أقول : ورواه في الدر المنثور عن ابن المنذر عن ابن حبان ، وقد استضعفوا  
 الرواية ، وهي مع ذلك غير منطبق على الآية حيث لم يوضع في الآية إلا السؤال عما  
 يتصدق به دون من يتصدق عليه .

ونظيرها في عدم الانطباق ما رواه أيضاً عن ابن جرير وابن المنذر عن ابن جريح  
 قال : سأل المؤمنون رسول الله ﷺ أين يضعون أموالهم ؟ فنزلت يسئلونك ماذا ينفقون  
 قل ما أنفقتم من خيراه ، فذلك النفقة في التطوع ، والزكاة سوى ذلك كله .  
 ونظيرها في ذلك أيضاً رواه عن السدي ، قال : يوم نزلت هذه الآية لم يكن  
 زكاة ، وهي النفقة ينفقها الرجل على أهله ، والصدقة يتصدق بها فانسختها الزكاة .  
 أقول : وليست النسبة بين آية الزكاة : « خذ من أموالهم صدقة » التوبة - ١٠٤  
 وبين هذه الآية نسبة النسخ وهو ظاهر إلا أن يعني بالنسخ معنى آخر .





كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كَرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٢١٦).

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكَفَرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدُ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢١٧) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَةَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢١٨).

### ﴿بيان﴾

**قوله تعالى :** كتب عليكم القتال وهو كره لكم اه الكتابة كما مر مراراً ظاهرة في الفرض إذا كان الكلام مسوقاً لبيان التشريع ، وفي القضاء الحزم إذا كان في التكوين فالآية تدلّ على فرض القتال على كافة المؤمنين لكون الخطاب متوجّهاً إليهم إلا من أخرج الدليل مثل قوله تعالى : « ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج اه » النور - ٦١ وغير ذلك من الآيات والأدلة .

ولم يظهر فاعل كتب لكون الجملة مذيّلة بقوله : « وهو كره لكم » وهو لا يناسب إظهار الفاعل صوتاً لمقامه عن الهتك ، و حفظاً لاسمه عن الاستخفاف أن يقع الكتابة المنسوبة إليه صريحاً مورداً لكرهية المؤمنين .

والكره بضم الكاف المشقة التي يدركها الإنسان من نفسه طبعاً أو غير ذلك ، والكره بفتح الكاف : المشقة التي تحمل عليه من خارج كأن يجبره إنسان آخر على

فعل ما يكرهه . قال تعالى : « لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرهاً » النساء - ١٨ وقال تعالى : « فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً » فصلت - ١١ . وكون القتال المكتوب كرهاً للمؤمنين إما لأن القتال لكونه متضمناً لفناء النفوس وتعب الأبدان والمضار المالية وارتفاع الأمن و الرخص والرفاهية ، وغير ذلك مما يستكرهه الإنسان في حياته الاجتماعية لا محالة كان كرهاً وشاقاً للمؤمنين بالطبع ، فإن الله سبحانه وإن مدح المؤمنين في كتابه بما مدح ، وذكر أن فيهم رجالاً صادقين في إيمانهم مفليحين في سعيهم ، لكنّه مع ذلك عاتب طائفة منهم بما في قلوبهم من الزيف والزلل ، وهو ظاهر بالرجوع إلى الآيات النازلة في غزوة بدر وأحد والخندق وغيرها ، ومعلوم أن من الجائز أن ينسب الكراهة والتناقل إلى قوم فيهم كاره وغير كاره وأكثرهم كارهون . فهذا وجه . وإما لأن المؤمنين كانوا يرون أن القتال مع الكفار مع ما لهم من العدة والقوة لا يتم على صلاح الإسلام والمسلمين ، وأن الحزم في تأخيرهم حتى يتم لهم الاستعداد بزيادة النفوس وكثرة الأموال ورسوخ الاستطاعة ، ولذلك كانوا يكرهون الإقدام على القتال والاستعجال في النزال ، فيبين تعالى أنهم مخطئون في هذا الرأي والنظر ، فإن لله أمراً في هذا الأمر هو بالغه ، وهو العالم بحقيقة الأمر وهم لا يعلمون إلا ظاهره وهذا وجه آخر .

وإما لأن المؤمنين لكونهم متربين بترية القرآن تعرق فيهم خلق الشفقة على خلق الله ، وملكة الرحمة والرافة فكانوا يكرهون القتال مع الكفار لكونه مؤدياً إلى فناء نفوس منهم في المعارك على الكفر ، ولم يكونوا راضين بذلك بل كانوا يحبون أن يداروهم ويخالطوهم بالعشرة الجميلة ، والدعوة الحسنة لعلهم يستترشدوا بذلك ، ويدخلوا تحت لواء الإيمان فيحفظ نفوس المؤمنين من الفناء ، ونفوس الكفار من الهلاك الأبدي والبوار الدائم ، فيبين ذلك أنهم مخطئون في ذلك ، فإن الله - وهو المشرع لحكم القتال - يعلم أن الدعوة غير مؤثر في تلك النفوس الشقية الخاسرة ، وأنه لا يعود من كثير منهم عائد إلى الدين ينتفع به في دنيا أو آخرة ، فهم في الجامعة الإنسانية كالعضو الفاسد الساري فساداً إلى سائر الأعضاء ، الذي لا ينجع فيه علاج دون

أن يقطع و يرمى به ، وهذا أيضاً وجه .

فهذه وجوه يوجه بها قوله تعالى : ( وهو كره لكم ) إلا أن الأول أنسب نظراً إلى ما أشير إليه من آيات العتاب ، على أن التعبير في قوله : كتب عليكم القتال اه بصيغة المجهول على ما مر من الوجه يؤيد ذلك .

**قوله تعالى :** وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم اه قد مر فيمأمر أن أمثال عسى ولعل في كلامه تعالى مستعمل في معنى الترحي ، وليس من الواجب قيام صفة الرجاء بنفس المتكلم بل يكفي قيامها بالمخاطب أو بمقام المتخاطب ، فإله سبحانه إنما يقول : عسى أن يكون كذا لا لأنه يرجوه ، تعالى عن ذلك ، بل ليرجوه بالمخاطب أو لسماع .

وتكرار عسى في الآية لكون المؤمنين كارهين للحرب ، محبين للسلم ، فأرشدهم الله سبحانه على خطأهم في الأمرين جميعاً ، بيان ذلك : أنه لو قيل : عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم أو تحبوا شيئاً وهو شر لكم كان معناه أنه لا عبرة بكرهكم وحبكم فإنيهما ربما يخطئان الواقع ، ومثل هذا الكلام إنما ياقى إلى من أخطأ خطأ واحداً كمن يكره لقاء زيد فقط ، وأما من أخطأ خطائين كان يكره المعاشرة والمخالطة ويحب الاعتزال ، فالذي تقتضيه البلاغة أن يشار إلى خطائهم في الأمرين جميعاً ، فيقال له : لا في كرهك أصبت ، ولا في حبك اهتديت ، عسى أن تكره شيئاً وهو خير لك و عسى أن تحب شيئاً وهو شر لك لأنك جاهل لا تقدر أن تهتدي بنفسك إلى حقيقة الأمر ، ولما كان المؤمنون مع كرههم للقتال محبين للسلم كما يشعر به أيضاً قوله تعالى سابقاً : أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم اه نبههم الله بالخطائين بالجمليتين المستقلتين وهما : عسى أن تكرهوا اه ، وعسى أن تحبوا اه .

**قوله تعالى :** والله يعلم وأنتم لا تعلمون اه تميم لبيان خطائهم ، فإنه تعالى تدرج في بيان ذلك إرفاقاً بأذهانهم ، فأخذ أولاً ببدء احتمال خطائهم في كراهتهم للقتال بقوله : عسى أن تكرهوا اه فلما اعتدلت أذهانهم بحصول الشك فيها ، وزوال صفة الجهل المركب كر عليهم ثانياً بأن هذا الحكم الذي كرهتموه أنتم إنما شرعه

الله الذي لا يجهل شيئاً من حقائق الأمور ، والذي ترونه مستند إلى نفوسكم التي لا تعلم شيئاً إلا ما علمها الله إياه وكشف عن حقيقته ، فعليكم أن تسلموا إليه سبحانه الأمر .

والآية في إثباته العلم له تعالى على الإطلاق و نفى العلم عن غيره على الإطلاق تطابق سائر الآيات الدالة على هذا المعنى كقوله تعالى : « إن الله لا يخفى عليه شيء » ، آل عمران - ٥ وقوله تعالى : ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء ، البقرة - ٢٥٥ . وقد سبق بعض الكلام في القتال في قوله : « وقاتلوا في سبيل الله » البقرة - ١٩٠ .

**قوله تعالى :** يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه اه الآية تشتمل على المنع عن القتال في الشهر الحرام وذمه بأنه صدّ عن سبيل الله وكفر ، واشتمالها مع ذلك على أن إخراج أهل المسجد الحرام منه أكبر عند الله ، وأن الفتنة أكبر من القتل ، يؤذن بوقوع حادثة هي الموجبة للسؤال وأن هناك قتلاً ، وأنه إنما وقع خطأً لقوله تعالى في آخر الآيات : « إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم الآية ، فهذه قرائن على وقوع قتل في الكفار خطأً من المؤمنين في الشهر الحرام في قتال واقع بينهم ، وطعن الكفار به ، ففيه تصديق لما ورد في الروايات من قصة عبد الله بن جحش وأصحابه .

**قوله تعالى :** قل قتال فيه كبير وصدّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ، الصدّ هو المنع والصرف ، والمراد بسبيل الله العبادة والنسك وخاصة الحج ، والظاهر أن ضمير به راجع إلى السبيل فيكون كفراً في العمل دون الاعتقاد ، والمسجد الحرام عطف على سبيل الله أي صدّ عن سبيل الله وعن المسجد الحرام .

والآية تدلّ على حرمة القتال في الشهر الحرام ، وقد قيل : إنها منسوخة بقوله تعالى : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » التوبة - ٦ وليس بصواب ، وقد مرّ بعض الكلام في ذلك في تفسير آيات القتال .

**قوله تعالى :** وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل اه أي والذي فعله المشركون من إخراج رسول الله والمؤمنين من المهاجرين - وهم أهل المسجد

الحرام - منه أكبر من القتال ، وما فتنوا به المؤمنين من الزجر والدعوة إلى الكفر أكبر من القتل ، فلا يحقّ للمشرّكين أن يطعنوا المؤمنين وقد فعلوا ما هو أكبر ممّا طعنوا به ، ولم يكن المؤمنون فيما أصابوه منهم إلّا راجين رحمة الله والله غفور رحيم .  
**قوله تعالى :** ولا يزالون يقاتلونكم إلى آخر الآية حتّى المتعليل أى ليردّوكم  
**قوله تعالى :** ومن يرتدد منكم عن دينه إلخ تهديد للمرتدّ بحبط العمل وخلود النار .

### ﴿ كلام فى الحبط ﴾

والحبط هو بطلان العمل وسقوط تأثيره ، ولم ينسب في القرآن إلّا إلى العمل  
 كقوله تعالى : « لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكوننّ من الخاسرين » الزمر - ٦٥ .  
 وقوله تعالى : « إنّ الذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله وشاقّوا الرسول من بعد ما تبينّ لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم . نأيتها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم » محمد - ٣٣ ذيل الآية يدلّ بالمقابلة على أن الحبط بمعنى بطلان العمل كما هو ظاهر قوله تعالى : « وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون » هود - ١٦ . ويقرب منه قوله تعالى : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءاً منثوراً » الفرقان - ٢٣ .

وبالجملة الحبط هو بطلان العمل وسقوطه عن التأثير ، وقد قيل : إنّ أصله من الحبط بالتحريك وهو أن يكثر الحيوان من الأكل فينتفخ بطنه وربّما أدّى إلى هلاكه .

والذي ذكره تعالى من أثر الحبط بطلان الأعمال في الدنيا والآخرة معاً ، فللحبط تعلّق بالأعمال من حيث أثرها في الحياة الآخرة ، فإنّ الإيمان يطيب الحياة الدنيا كما يطيب الحياة الآخرة . قال تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينّه حياة طيبة ولنجزينّهمْ أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » النمل - ٩٧ وخسران سعى الكافر ، وخاصة من ارتدّ إلى الكفر بعد الإيمان ، وحبط عمله في الدنيا ظاهر لا غبار عليه ، فإنّ قلبه غير متعلّق بأمر ثابت - وهو الله سبحانه - . يتبجح به عند النعمة ،

ويتسلى به عند المصيبة ، ويرجع إليه عند الحاجة . قال تعالى : « أفمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » الأنعام- ١٢٢ تبين الآية أن للمؤمن في الدنيا حياة و نوراً في أفعاله ، وليس للكافر ، ومثله قوله تعالى : « فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى » طه - ١٢٧ حيث يبين أن معيشة الكافر وحيوته في الدنيا ضنك ضيقة متعبة ، وبالمقابلة معيشة المؤمن وحيوته سعيدة رحبة وسعة .

وقد جمع الجميع ودل على سبب هذه السعادة والشقاوة قوله تعالى : « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم » محمد - ١١ .  
 فظهر مما قرّبناه أن المراد بالأعمال مطلق الأفعال التي يريد الإنسان بها سعادة الحيوة ، لا خصوص الأعمال العبادية ، والأفعال القريبة التي كان المرتد عملها وأتى بها حال الإيمان . مضافاً إلى أن الحبط وارد في مورد الذين لا عمل عبادي ، ولا فعل قربي لهم كالكفار والمنافقين كقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم والذين كفروا فتعسأ لهم وأضل أعمالهم ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم » محمد - ٩ . وقوله تعالى : « إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فيبشّروهم بعذاب أليم أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين » آل عمران - ٢٢ إلى غير ذلك من الآيات .

فمحصّل الآية كسائر آيات الحبط هو أن الكفر والإرتداد يوجب بطلان العمل عن أن يؤثر في سعادة الحيوة ، كما أن الإيمان يوجب حيوة في الأعمال تؤثر بها أثرها في السعادة . فإن آمن الإنسان بعد الكفر بحيات أعماله في تأثير السعادة بعد كونها محبطة باطلة ، وإن ارتد بعد الإيمان ماتت أعماله جميعاً وحبطت ، فلا تأثير لها في سعادة دنيوية ولا أخروية ، لكن يرجح له ذلك إن هولم يمت على الردّة وإن مات على الردّة حتم له الحبط وكتب عليه الشقاء .

ومن هنا يظهر بطلان النزاع في بقاء أعمال المرتد إلى حين الموت والحبط عنده أو عدمه .

توضيح ذلك : أنه ذهب بعضهم إلى أن أعمال المرتد السابقة على ردّه باقية إلى حين الموت ، فإن لم يرجع إلى الإيمان بطلت بالحبط عند ذلك ، واستدل عليه بقوله تعالى « ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة الآية » وربما أيده قوله تعالى : « وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءاً منثوراً » الفرقان - ٢٣ فإن الآية تبيّن حال الكفار عند الموت ، ويتفرّع عليه أنه لو رجع إلى الإيمان تملك أعماله الصالحة السابقة على الارتداد .

وذهب آخرون إلى أن الردّة تحبط الأعمال من أصلها فلا تعود إليه وإن آمن من بعد الارتداد ، نعم له ما عمله من الأعمال بعد الإيمان ثانياً إلى حين الموت ، وأمّا الآية فإنما أخذت قيد الموت لكونها في مقام بيان جميع أعماله وأفعاله التي عملها في الدنيا ؛ وأنت بالتدبّر فيما ذكرناه تعرف : أن لا وجه لهذا النزاع أصلاً ، وأنّ الآية بصدد بيان بطلان جميع أعماله وأفعاله من حيث التأثير في سعاداته !

وهنا مسألة أخرى كانت فرعة على هذه المسئلة وهي مسئلة الإحباط والتكفير ، وهي أن الأعمال هل تبطل بعضها بعضاً أو لا تبطل بل للحسنة حكمها وللسيئة حكمها ؟ نعم الحسنات ربما كفرت السيئات بنص القرآن .

ذهب بعضهم إلى التباطل والتحابطين الأعمال وقد اختلف هؤلاء بينهم ، فمن قائل بأن كل لاحق من السيئة تبطل الحسنة السابقة كالعكس ، ولازمه أن لا يكون عند الإنسان من عمله إلا حسنة فقط أو سيئة فقط ، و من قائل بالموازنة وهو أن ينقص من الأكثر بمقدار الأقل ويبقى الباقي سليماً عن المنافي ، ولازم القولين جميعاً أن لا يكون عند الإنسان من أعماله إلا نوع واحد حسنة أو سيئة لو كان عنده شيء منهما .

ويردّهما أولاً قوله تعالى : « و آخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم والله غفور رحيم » التوبة - ١٠٣ فإن الآية ظاهرة في اختلاف الأعمال وبقائها على حالها إلى أن تلحقها توبة من الله سبحانه ، وهو ينافي التحابط

بأى وجه تصوّروه .

وثانياً : أنه تعالى جرى في مسألة تأثير الأعمال على ما جرى عليه العقلاء في الاجتماع الإنسانيّ من طريق المجازاة ، وهو الجزاء على الحسنة على حدة و على السيئة على حدة إلا في بعض السيئات من المعاصي التي تقطع رابطة المولوية و العبودية من أصلها فهو مورد الإحباط ، والآيات في هذه الطريقة كثيرة غنية عن الإيراد .

وذهب آخرون إلى أن نوع الأعمال محفوظة ، ولكلّ عمل أثره سواء في ذلك الحسنة والسيئة .

نعم الحسنة ربّما كفّرت السيئة كما قال تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقاناً و يكفر عنكم سيئاتكم » الأنفال - ٢٩ وقال تعالى : « فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه الآية » البقرة - ٢٠٣ وقال تعالى : « إن تعذبوا كبراء ما تنتهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » النساء - ٣٠ بل بعض الأعمال يبدّل السيئة حسنة كما قال تعالى : « إلامن تاب و آمن و عمل عملاً صالحاً فأولئك يبدّل الله سيئاتهم حسنات » الفرقان - ٧٠ .

وهنا مسألة أخرى هي كالأصل لهاتين المسئلتين ، وهي البحث عن وقت استحقاق الجزاء وموطنه ، ف قيل : إنّه وقت العمل ، وقيل : حين الموت ، وقيل : الآخرة ، وقيل : وقت العمل بالموافاة بمعنى أنّه لو لم يدم على ما هو عليه حال العمل إلى حين الموت و موافاته لم يستحقّ ذلك إلا أن يعلم الله ما يؤل إليه حاله و يستقرّ عليه ، فيكتب ما يستحقّه حال العمل .

وقد استدلّ أصحاب كلّ قول بما يناسبه من الآيات ، فإن فيها ما يناسب كلّاً من هذه الأوقات بحسب الانطباق . وربّما استدلّ ببعض وجوه عقلية ملفقة .

والذي ينبغي أن يقال : إنّما لو سلطنا في باب الثواب والعقاب والحبط والتكفير و ما يجرى مجراها مسلك نتائج الأعمال على ما بيّناه في تفسير قوله تعالى : « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها الآية » البقرة - ٢٦ كان لازم ذلك كون النفس الإنسانية مادامت متعلّقة بالبدن جوهرأ متحوّلاً قابلاً للتحوّل في ذاته و في آثار ذاته من الصور التي تصدر عنها و تقوم بها نتائج و آثار سعيدة أو شقية ، فإذا صدر منه

حسنة حصل في ذاته صورة معنوية مقتضية لا تصافه بالشواب ، وإذا صدر منه معصية فصورة معنوية تقوم بها صورة العقاب ، غير أن الذات لما كانت في معرض التحول والتغير بحسب ما يطرئها من الحسنات و السيئات كان من الممكن أن تبطل الصورة الموجودة الحاضرة بتبدلها إلى غير ها ، وهذا شأنها حتى يعرضها الموت فتفارق البدن و تقف الحركة ويبطل التحول واستعداده ، فعند ذلك يثبت لها الصور و آثارها ثبوتاً لا يقبل التحول والتغير إلا بالمغفرة أو الشفاعة على النحو الذي بيناه سابقاً .

وكذا لو سلكننا في الثواب والعقاب مسلك المجازاة على ما بيناه فيما مر كان حال الإنسان من حيث اكتساب الحسنة والمعصية بالنسبة إلى التكليف الإلهية وترتب الثواب والعقاب عليها حاله من حيث الإطاعة والمعصية في التكليف الاجتماعية وترتب الممدح والذم عليها ، والعقلاء يأخذون في مدح المطيع والمحسن و ذم العاصي والمسيء بمجرّد صدور الفعل عن فاعله ، غير أنهم يرون ما يجازونه به من الممدح والذم قابلاً للتغير والتحول لكونهم يرون الفاعل ممكن التغير والزوال عما هو عليه من الانقياد والتمرّد ، فلهو حق الممدح والذم على فاعل الفعل فعليّ عندهم بتحقيق الفعل غير أنه موقوف البقاء على عدم تحقيق ما ينافيه ، وأما ثبوت الممدح والذم ولزومهما بحيث لا يبطلان قط فإتّما يكون إذا ثبت حاله بحيث لا يتغير قط بموت أو بطلان استعداد في الحيوة .

ومن هنا يعلم : أن في جميع الأقوال السابقة في المسائل المذكورة انحرافاً عن الحق لبنائهم البحث على غير ما ينبغي أن يبنى عليه .

وأن الحق : أوّلاً : أن الإنسان يلحقه الثواب والعقاب من حيث الاستحقاق بمجرّد صدور الفعل الموجب له لكنّه قابل للتحول والتغير بعد ، وإتّما يثبت من غير زوال بالموت كما ذكرناه .

وثانياً : أن حبط الأعمال بكفر ونحوه نظير استحقاق الأجر بتحقيق عند صدور المعصية ويتحتّم عند الموت .

وثالثاً : أن الحبط كما يتعلق بالأعمال الآخروية كذلك يتعلق بالأعمال الدنيوية ورابعاً : أن التعاطف بين الأعمال باطل بخلاف التكفير ونحوه .

## ﴿ كلام فى احكام الاعمال من حيث الجزاء ﴾

من أحكام الأعمال : أن من المعاصي ما يحبط حسنات الدنيا والآخرة كالارتداد . قال تعالى : « ومن يرد منكم عن دينه فيمت وهو كافراً ولم يك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة الآية » ، وكذلك الكفر بآيات الله والعناد فيه . قال تعالى : « إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة آل عمران - ٣٢ ، وكذا من الطاعات ما يكفر سيئات الدنيا والآخرة كالإسلام والتوبة . قال تعالى : « قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً إنه هو الغفور الرحيم » وأنبياء إلى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم » الزمر - ٥٥ وقال تعالى : « فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى » طه - ١٢٤ .

وأيضاً : من المعاصي ما يحبط بعض الحسنات كالمشاقة مع الرسول . قال تعالى : « إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضر الله شيئاً وسيحبط أعمالهم يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم » سورة محمد - ٣٣ فإن الملقابلة بين الآيتين تقضى بأن يكون الأمر بالإطاعة فى معنى النهى عن المشاققة ، وإبطال العمل هو الإحباط ، وكرفع الصوت فوق صوت النبي . قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لاتشعرون » الحجرات - ٢ .

وكذا من الطاعات ما يكفر بعض السيئات كالصلوات المفروضة قال تعالى : « وأقم الصلوة طرفى النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات » هود - ١١٥ وكالحج . قال تعالى : « فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه » البقرة - ٢٠٣ وكاجتناب الكبائر . قال تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم »

النساء - ٣٠ و قال تعالى : « الَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كِبَاءَ الْإِثْمِ وَ الْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّعْمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ » النجم - ٣٢ .

وأيضاً : من المعاصي ما ينقل حسنات فاعلها إلى غيره كالقتل . قال تعالى : ( إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ » المائدة - ٣٤ . وقد ورد هذا المعنى في الغيبة والبهتان وغيرهما في الروايات المأثورة عن النبي وأئمة أهل البيت ، وكذا من الطاعات ما ينقل السيئات إلى الغير كما سيجيء .

وأيضاً : من المعاصي ما ينقل مثل سيئات الغير إلى الإنسان لا عينها . قال تعالى : « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمَنْ أُوْزِرَ الْآذِينَ يَظْلُوْنَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ » النحل - ٣٥ وقال : « وَايْحَمَانِ أَنْفَالَهُمْ وَأَنْفَالاً مَعَ أَنْفَالِهِمْ » العنكبوت - ١٣ وكذا من الطاعات ما ينقل مثل حسنات الغير إلى الإنسان لا عينها . قال تعالى : « وَنَكْتِبْ مَا قَدَّمُوا وَآثَرَهُمْ » يس - ١٢ .

وأيضاً من المعاصي ما يوجب تضاعف العذاب . قال تعالى : « إِذَا لَا ذَنْبَكَ ضَعْفَ الْحَيَاةِ وَضَعْفَ الْمَمَاتِ » الإسراء - ٧٥ ، وقال تعالى : « يضاعف لها العذاب ضعفين » الأحزاب - ٣٠ . وكذا من الطاعات ما يوجب الضعف كالأفراق في سبيل الله . قال تعالى : « مِثْلَ الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمِثْلِ حَبَّةٍ أُتْبِتَتْ سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سَنَابِلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ » البقرة - ٢٥١ ، ومثله ما في قوله تعالى : « وَأُولَئِكَ يُؤْتُونَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ » القصص - ٥٤ وما في قوله تعالى : « يُؤْتِكُمْ كُفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرَ لَكُمْ » الحديد - ٢٨ على أن الحسنات مضاعفة عند الله مطلقاً . قال تعالى : « مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا » الأنعام - ١٦٠ .

وأيضاً : من الحسنات ما يبدل السيئات إلى الحسنات . قال تعالى « أَلَا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ » الفرقان - ٧٠ . وأيضاً : من الحسنات ما يوجب لحوق مثلها بالغير . قال تعالى : « الَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ هُمْ أَتْقَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلَّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينَ » الطور - ٢١ ، ويمكن الحصول على مثلها في السيئات كظلم أيتام الناس

حيث يوجب نزول مثله على الأيتام من نسل الظالم . قال تعالى : « وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا عليهم » النساء - ٨ .

وأيضاً : من الجسنيات ما يدفع سيئات صاحبها إلى غيره ، ويجذب حسنات الغير إليه ، كما أن من السيئات ما يدفع حسنات صاحبها إلى الغير ، ويجذب سيئاته إليه ، وهذا من عجيب الأمر في باب الجزاء والاستحقاق ، سيجي البحث عنه في قوله تعالى : « ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنم » الأنفال - ٣٨ .

وفي موارد هذه الآيات روايات كثيرة متنوعة سنورد كلاً منها عند الكلام فيما يناسبه من الآيات إنشاء الله العزيز .

وبالتأمل في الآيات السابقة والتدبر فيها يظهر : أن في الأعمال من حيث المجازاة أى من حيث تأثيرها في السعادة والشقاوة نظاماً يخالف النظام الموجود بينها من حيث طبعها في هذا العالم ، وذلك أن فعل الأكل مثلاً من حيث أنه مجموع حركات جسمانية فعلية وانفعالية ، إنما يقوم بفاعله بحقوقام يعطيه الشبع مثلاً ولا يتخطاه إلى غيره ، ولا ينتقل عنه إلى شخص آخر دونه ، وكذا يقوم بحقوقام بالغذاء المأكول يستتبع تبدله من صورة إلى صورة أخرى مثلاً ، ولا يتعداه إلى غيره ، ولا يتبدل بغيره ، ولا ينقلب عن هويته وذاته ؛ وكذا إذا ضرب زيد عمراً كانت الحركة الخاصة ضرباً لا غير ، وكان زيد ضارباً لا غير ، وكان عمر ومضروباً لا غير إلى غير ذلك من الأمثلة ، لكن هذه الأفعال بحسب نشأة السعادة والشقاوة على غير هذه الأحكام كما قال تعالى : « وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » البقرة - ٥٧ وقال تعالى : « ولا يحق المكر السيئ إلا بأهله » الفاطر - ٤٣ وقال تعالى : « أنظر كيف كذبوا على أنفسهم » الأنعام - ٢٤ وقال تعالى : « ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنّا بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً كذلك يضل الله الكافرين » المؤمن - ٧٤ .

وبالجملة : عالم المجازاة ربّما بدّل الفعل بغير نفسه ، وربّما نقل الفعل وأسنده إلى غير فاعله ، وربّما أعطى للفعل غير حكمه إلى غير ذلك من الآثار المخالفة لنظام هذا العالم الجسماني .

ولا ينبغي لمتوهم أن يتوهم أن هذا يبطل حجة العقول في مورد الأعمال وآثارها ويفسد الحكم العقلي فلا يستقر شيء منه على شيء . وذلك أننا نرى أن الله سبحانه وتعالى « فيما حكاه في كتابه » يستدل هو وأولادكمته الموكلة على الأمور على المجرمين في حال الموت والبرزخ ، وكذا في القيامة والنار والجنة بحجج عقلية تعرفها العقول . قال تعالى : « ونفخ في الصور فصعق من في السموات والأرض إلا من شاء الله » ونفخ فيه أخرى فإذ هم قيام ينظرون وأشرق الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجي بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلن ، الزمر - ٧٠ . وقد تكرر في القرآن الإخبار بأن الله سيحكم بين الناس بالحق يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ، وكفى في هذا الباب ما حكاه الله عن الشيطان بقوله تعالى : « وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم الآية » إبراهيم - ٢٢ ومن هنا نعلم : أن حجة العقول غير باطلة في نشأة الأعمال ودار الجزاء مع ما بين النشأتين أعني نشأة الطبيعة و نشأة الجزاء من الاختلاف البين على ما أشرنا إليه .

والذي يحل به هذه العقدة : أن الله تكلم مع الناس في دعوتهم وإرشادهم بلسان أنفسهم وجرى في مخاطباته إليهم وبياناته لهم مجرى العقول الاجتماعية ، وتمسك بالأصول والقوانين الدائرة في عالم العبودية والمولوية ، فعد نفسه مولى والناس عبيداً والأنبياء رسلاً إليهم ، وواصلهم بالأمر والنهي والبعث والزجر ، والتبشير والإنذار ، والوعد والوعيد ، وسائر ما يلاحق بهذا الطريق من عذاب ومغفرة وغير ذلك وهذه طريقة القرآن الكريم في تكليمه للناس ، فهو يصرح أن الأمر أعظم مما يتوهمه الناس أو يخيل إليهم ، غير أنه شيء لا تسعه حواسهم وحقائق لا تحيط بها أفهامهم ، ولذلك نزل منزلة قريبة من أفق إدراكهم لينالوا ما شاء الله أن ينالوه من تأويل هذا الكتاب العزيز كما قال تعالى : « والكتاب المبين إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون وإنه في أم الكتاب لدينا لعلي حكيم » الزخرف - ٤ .

فالقرآن الكريم يعتمد في خصوصيات ما نسباً به من أحكام الجزاء وما يرتبط به على الأحكام الكلية العقلية الدائرة بين العقلاء المبتنية على المصالح و المفاسد . ومن لطيف الأمر : أن هذه الحقائق المستورة عن سطح الأفهام العادية قابلة التطبيق على الأحكام العقلية المذكورة ، ممكنة التوجيه بها ، فإن العقل العملي الاجتماعي لا يأبى مثلاً عن التشديد على بعض المفسدين بمؤاخذته بجميع ما يترتب على عمله من المضار والمفاسد الاجتماعية كأن يؤاخذ القاتل بجميع الحقوق الاجتماعية الفاتنة بسبب موت المقتول ، أو يؤاخذ من سن سنة سيئة بجميع المخالفات الجارية على وفق سنته ، ففي المثال الأول يقضي بأن المعاصي التي كانت ترى ظاهراً أفعالاً للمقتول فاعلمها هو القاتل بحسب الاعتبار العقلائي ، وفي المثال الثاني بأن السيئات التي علمها التابعون لتلك السنة السيئة أفعالاً فاعلمها أول من سن تلك السنة المتبوعة ، في عين أنها أفعال التابعين فيها ، فهي أفعال لهم معاً ، فلذلك يؤاخذ بها كما يؤاخذون .

وكذلك يمكن أن يقضي بكون الفاعل لفعل غير فاعل له ، أو الفعل المعين المحدود غير ذلك الفعل ، أو حسنات الغير حسنات للإنسان ، أو للإنسان أمثال تلك الحسنات ، كل ذلك باقتضاء من امصالح الموجودة .

فالقرآن الكريم يعمل هذه الأحكام العجيبة الموجودة في الجزاء كـ مجازاة الإنسان بفعل غيره خيراً أو شراً ، وإسناد الفعل إلى غير فاعله ، وجعل الفعل غير نفسه ، إلى غير ذلك ، ويوضحها بالقوانين العقلية الموجودة في ظرف الاجتماع وفي سطح الأفهام العامة ، وإن كانت بحسب الحقيقة ذات نظام غير نظام الحس ، وكانت الأحكام الاجتماعية العقلية محصورة مقصورة على الحياة الدنيا ، وسينكشف على الإنسان ما هو مستور عنه اليوم يوم تبلى السرائر كما قال تعالى : « ولقد جئناكم بكتاب ففصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق » الاعراف - ٥٢ ، وقال تعالى : « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ( إلى أن قال ) بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » يونس - ٣٩ .

وبهذا الذي ذكرناه يرتفع الاختلاف المتراعى بين هذه الآيات الماشتملة على هذه الأحكام العجيبة وبين أمثال قوله تعالى: « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »، الزلزال - ٧ ، وقوله تعالى: « لا تزر وازرة وزر أخرى » الأنعام - ١٦٤ ، وقوله تعالى: كل أمرء بما كسب رهين » الطور - ٢١ ، وقوله تعالى: « وأن ليس للإنسان إلا ما سعى » النجم - ٣٩ ، وقوله تعالى: « إن الله لا يظالم الناس شيئاً » يونس - ٤٤ ، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة .

وذلك أن الآيات السابقة تحكم بأن معاصي المقتول المظلوم إنما فعلها القاتل الظالم فمؤاخذته له بفعل نفسه لا بفعل غيره ، وكذا تحكم بأن من اتبع سنة سيئة ففعل معصية على الاتباع لم يفعلها التابع وحده بل فعله هو وفعله المتبوع ، فالمعصية معصيتان . وكذا تحكم بأن من أعان ظالماً على ظلمه أو اقتدى بإمام ضلال فهو شريك معصيته ، وفاعل كمثلته فهو لاء ، وأمثالهم من مصاديق قوله تعالى: « لا تزر وازرة وزر أخرى الآية » ونظامها من حيث الجزاء ، لأنهم خارجون عن حكمها بالاستثناء أو بالنقض .

وإلى ذلك يشير قوله تعالى: « وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون » الزمر - ٧٠ . فقوله: وهو أعلم بما يفعلون اه يدل أو يشعر بأن توفية كل نفس ما عملت إنما هي على حسب ما يعلمه الله سبحانه ويحاسبه من أفعالهم لا على حسب ما يحاسبونه من عند أنفسهم من غير علم ولا عقل ، فإن الله قد سلب عنهم العقل في الدنيا حيث قال تعالى حكاية عن أصحاب السعير: « لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير » الملك - ١٠ . وفي الآخرة أيضاً حيث قال: « ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً » الإسراء - ٧٢ وقال تعالى: « نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة » الهزلة - ٧ وقال تعالى في تصديق هذا السلب: « قالت أخرجهم لا وليهم ربنا هولاء أضلونا فأتهم عذاباً ضعفاً من النار قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون » الأعراف - ٣٧ . فأثبت لكل من المتبوعين وتابعيهم الضعف من العذاب ، أما المتبوعين فلضلالهم وإضلالهم ، وأما التابعين فلضلالهم وإقامتهم أمر متبوعيهم بالتبعية ،

ثم ذكر أنهم جميعاً لا يعلمون .

فان قلت : ظاهر هذه الآيات التي تسلب العلم عن المجرمين في الدنيا والآخرة تنافي آيات أخر تثبت لهم العلم كقوله تعالى : « كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون » فصلت - ٣ وكالآيات التي تحتج عليهم ولا معنى للاحتجاج على من لا علم له ولا فقه للاستدلال . على أن نفس هذه الآيات مشتملة على أقسام من الاحتجاج عليهم في الآخرة ولا مناص من إثبات العقل والإدراك لهم فيه . على أن ههنا آيات تثبت لهم العلم واليقين في خصوص الآخرة كقوله تعالى : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ق - ٢٢ وقوله تعالى : « ولوترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً إنا موقنون » السجدة - ١٢ .

قلت : مرجع نفي العلم عنهم في الدنيا نفي اتباع ما عندهم من العلم ، ومعنى نفيه عنهم في الآخرة لزوم هاجر واعليه من الجهالة في الدنيا لهم حين البعث وعدم انفكاك الأعمال عنهم كما قال تعالى : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقيه منشوراً » الإسراء - ١٣ وقوله تعالى : « قال يا ليت بيني وبينك بعدا مطرقين فبئس القرين » الزخرف - ٣٨ ، إلى غير ذلك من الآيات ، وسيجيء إستيفاء هذا البحث في تفسير قوله تعالى : « يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون » البقرة - ٢٤٢ .

وقد أجاب الإمام الغزالي عن إشكال انتقال الأعمال بجواب آخر ذكره في بعض رسائله فقال ما حاصله : إن نقل الحسنات والسيئات بسبب الظلم واقع في الدنيا وقت جريان الظلم لكن ينكشف ذلك يوم القيامة ، فيرى الظالم مثلاً طاعات نفسه في ديوان غيره ، ولم تنقل في ذلك الوقت بل في الدنيا كما قال تعالى : « لمن الملك اليوم لله الواحد القهار » ، أخبر عن ثبوت الملك له تعالى في الآخرة وهو لم يحدث له تعالى هناك بل هو مالك دائماً إلا أن حقيقته لا تنكشف لكافة الخلائق إلا يوم القيامة ، وما لا يعلمه إلا انسان فليس بموجود له وإن كان موجوداً في نفسه ، فإذا علمه صار موجوداً له كأنه وجد الآن في حقه .

فقد سقط بهذا قول من قال : إن المَعْدوم كيف ينقل والعرض كيف ينقل؟ . فنقول : المنقول ثواب الطاعة لانفس الطاعة ، و لكن لما كانت الطاعة يراد لثوابها عبّر عن نقل أثرها بنقل نفسها ، وأثر الطاعة ليس أمراً خارجاً عن الإنسان لاحقاً به حتّى يشكل بأن نقله في الدنيا من قبيل انتقال العرض المحال ، و نقله في الآخرة بعد انعدامه من قبيل إعادة المَعْدوم الممتنع ، وإن كان جوهرأ فما هذا الجوهر؟ بل المراد بأثر الطاعة أثره في القلب بالتنوير فإن للطاعات تأثيراً في القلب بالتنوير ، وللمعاصي تأثيراً فيه بالقسوة و الظلمة ، وبأنوار الطاعة تستحكم مناسبة القلب مع عالم النور والمعرفة و المشاهدة ، و بالظلم والقسوة يستمد القلب للحجاب والبعد ، وبين أنار الطاعات و المعاصي تعاقب و تضاد كما قال تعالى : « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » وقال النبي ﷺ : « اتبع السيئة الحسنة تمحها ، والآثم تمحيصات للذنوب ، و لذلك قال ﷺ : إن الرجل ليشاب حتّى بالشوكة تصيب رجله ، وقال ﷺ : الحدود كفارات .

فالظالم يتبع ظلمه ظلمة في قلبه وقسوة توجب انمحاء أثر النور الذي كان في قلبه من الطاعات التي كان عملها ، والمظلوم يتألم فينكسر شهوته و يمحو عن قلبه أثر السيئات التي أورثت ظلمة في قلبه فيتنور قلبه نوع تنور ، فقد دار ما في قلب الظالم من النور إلى قلب المظلوم ، وما في قلب المظلوم من الظلمة إلى قلب الظالم وهذا معنى نقل الحسنات والسيئات .

فإن قال قائل : ليس هذا نقلاً حقيقياً إذ حاصله بطلان النور من قلب الظالم و حدوث نور آخر في قلب المظلوم ، وبطلان الظلمة من قلب المظلوم و حدوث ظلمة أخرى في قلب الظالم وليس هذا نقلاً حقيقة .

قلنا إسم النقل قديطلق على مثل هذا الأمر على سبيل الاستعارة كما يقال : انتقل الظل من موضع إلى موضع آخر ، وانتقل نور الشمس أو السراج من الأرض إلى الحائط إلى غير ذلك فهذا معنى نقل الطاعات ، فليس فيه إلا أنه كُتِبَ بالطاعة عن ثوابها كما يكتب بالسبب عن المسبب ، وسمي إثبات الوصف في محل وإبطال مثله في محل آخر بالنقل ، و كل ذلك شائع في اللسان ، معلوم بالبرهان لو لم يرد الشرع به فكيف إذا ورد ، انتهى ملخصاً .

**أقول :** عَصَل ما أفاده أن إطلاق النقل على ما يعامله الله سبحانه في حق أي القاتل والمقتول استعارة في استعارة أعني : استعارة اسم الطاعة لأثر الطاعة في القلب و استعارة اسم النقل لإمعاء شيء و إثبات شيء آخر في محل آخر، وإذا اطرّد هذا الوجه في سائر أحكام الأعمال المذكورة عادت جميع هذه الأحكام مجازات ، وقد عرفت أنه سبحانه قرّره هذه الأحكام على ما يراه العقل العملي الاجتماعي ، و يبنى عليه أحكامه من المصالح والمفاسد ، ولاريب أن هذه الأحكام العقلية إنما تصدر من العقل باعتقاد الحقيقة ، فيؤخذ القاتل مثلاً بجرم المقتول أو يتحف المقتول أو ورثته بحسنة القاتل و ما يشبه ذلك باعتقاد أن الجرم عين الجرم و الحسنة عين الحسنة وهكذا .

هذا حال هذه الأحكام في ظرف الاجتماع الذي هو موطن أحكام العقل العملي ، وأما بالنسبة إلى غير هذا الظرف وهو ظرف الحقائق فالجميع مجازات إلا بحسب التحليل بمعنى أن نفس هذه المفاهيم لمّا كانت مفاهيم اعتبارية مأخوذة من الحقائق المأخوذة على نحو الدعوى والتشبيه كانت جميعها مجازات إذا قيست إلى تلك الحقائق المأخوذة منها فافهم ذلك .

**ومن أحكام الأعمال :** أنها محفوظة مكتوبة متجسمة كما قال تعالى : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً » آل عمران - ٣ وقال تعالى : « وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقيه منشوراً » الإسراء - ١٣ و قال تعالى : « ونكتب ما قدّموا وآثارهم وكل شيء أحصيناه في إمام مبين » يس - ١٢ وقال تعالى : « لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد » ق - ٢٢ وقدم البحث عن تجسّم الأعمال .

**ومن أحكام الأعمال :** أن بينها وبين الحوادث الخارجية ارتباطاً ، و نعني بالأعمال الحسنات والسيئات التي هي عناوين الحركات الخارجية ، دون الحركات والسكنات التي هي آثار الأجسام الطبيعية فقد قال تعالى : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير » الشورى - ٣٠ وقال تعالى : « إن الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردّ له » الرعد - ١٢ و قال تعالى : « ذلك بأنّ الله لم يك مغيّراً نعمة أنعمها على قوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم » الأنفال -

٥٤ والآيات ظاهرة في أن بين الأعمال والحوادث ارتباطاً مباشراً أوخيراً .

ويجمع جملة الأمر آيتان من كتاب الله تعالى وهما قوله تعالى : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء » ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ، الأعراف - ٩٥ وقوله تعالى : « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض السي الذي عملوا لعلهم يرجعون » الروم - ٤١ .

فالحوادث الكونية تتبع الأعمال بعض التبعية ، فجرى النوع الإنساني على طاعة الله سبحانه وسلوكه الطريق الذي يرتضيه يستتبع نزول الخيرات ، وانفتاح أبواب البركات . وانحراف هذا النوع عن صراط العبودية ، وتماديه في الغي والضلالة ، وفساد النيات ، وشناعة الأعمال يوجب ظهور الفساد في البر والبحر وهلاك الأمم بقشور الظلم وارتفاع الأمن وبروز الحروب وسائر الشرور الراجعة إلى الإنسان وأعماله ، وكذا ظهور المصائب والحوادث المبيدة الكونية كالسيل والزلازل والصاعقة والطوفان وغير ذلك . وقد عدَّ الله سبحانه سيل العرم وطوفان نوح وصاعقة نمرود وصرصر عاد من هذا القبيل .

فالأمة الطالحة إذا انغمرت في الرذائل والسيئات أذاقها الله وبال أمرها وآل ذلك إلى إهلاكها وإبادتها . قال تعالى : « أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من الله من واق » المؤمن - ٢١ وقال تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » الإسراء - ١٦ وقال تعالى : « ثم أرسلنا رسلنا تترى كلما جاء أمة رسولها كذبوه فأتبعنا بعضهم بعضاً وجعلناهم أحاديث فبعداً لقوم لا يؤمنون » المؤمنون - ٤٤ . هذا كله في الأمة الطالحة ، والأمة الصالحة علي خلاف ذلك .

والفرد كالأمة يؤخذ بالحسنة والسيئة والنقم والمثلثات غير أن الفرد ربما ينعم بنعمة أسلافه كما أنه يؤخذ بمظالم غيره كابآءه وأجداده . قال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام : « قال أنا يوسف وهذا أخي قد من الله علينا إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع

أجر المحسنين» يوسف - ٩٠. والمراد به ما أنعم الله عليه من الملك والعزة وغيرهما ، وقال تعالى : « فخشعنا به و بداره الأرض » القصص - ٨١ وقال تعالى : « وجعلنا له لسان صدق علياً » مريم - ٥٠ وكأنه الذريّة الصالحة المنعمّة كما قال تعالى : « فجعله كلمة باقية في عقبه » الزخرف - ٢٨ وقال تعالى : « وأما الجدار فكان لآلِمين يقيمون في المدينة وكان تحته كنز لهما وكان أبوهما صالحاً فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما للكف - ٨٣ وقال تعالى : فليخشى الله الذين لو تركوا من خلفهم ذريّة ضعافاً خافوا عليهم » النساء - ٨. والمراد بذلك الخلف المظلوم يبتلي بظلم سلفه .

وبالعجالة إذا أفاض الله نعمة على أمة أو على فرد من أفراد الإنسان فإن كان المنعم عليه صالحاً كان ذلك نعمة أنعمها عليه وامتنحاناً يمتحنه بذلك كما حكى الله تعالى عن سليمان إذ يقول : « قال هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربي غني كريم » النمل - ٤٠ وقال تعالى : « لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد » إبراهيم - ٧ ، والآية كسابقتها تدل على أن نفس الشكر من الأعمال الصالحة التي تستتبع النعم .

وإن كان المنعم عليه طالحاً كانت النعمة مكرراً في حقه واستدراجاً وإملاءً يملئ عليه كما قال تعالى : « ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » الأنفال - ٣٠ وقال تعالى : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأملئهم إن كيدي متين » القلم - ٤٩ . وقال تعالى : « ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون » الدخان - ١٧ .

وإذا أنزلت النوازل وكرت المصائب والبلايا على قوم أو على فرد فإن كان المصاب صالحاً كان ذلك فتنة ومحنة يمتحن الله به عباده ليميز الخبيث من الطيب ، وكان مثله مع البلاء مثل الذهب مع البوتقة والمحك . قال تعالى : « أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناهم ولا يفتنونا ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين أم حسب الذين يعملون السيئات أن يسبقونا سوء ما يحكمون » العنكبوت - ٤ وقال تعالى : « وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء » آل عمران - ١٤٠ .

وإن كان المصاب طالحاً كان ذلك أخذاً بالنقمة وعقاباً بالأعمال ، والآيات السابقة

دالة على ذلك .

فهذا حكم العمل يظهر في الكون ويعود إلى عامله . وأما قوله تعالى : « ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضة ومعارج عليها يظهرون ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتسكئون وزخرفاً وإن كل ذلك لمنا متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين » الزخرف - ٣٥ فغير ناظر إلى هذا الباب بل المراد به ( والله أعلم ) ذم الدنيا ومتاعها وأنها لا قدر لها ومتاعها عند الله سبحانه ، ولذلك يؤثر للكافر ، وأن القدر للآخرة ولولا أن أفراد الإنسان أمثال والمساوي واحدة متشابهة لخصها الله بالكافر .

فان قيل : الحوادث العامة والخاصة كالسيول والزلازل والأمراض المسرية والحروب والأجداب لها علل طبيعية مطردة إذا تحققت تحققت معاليلها سواء صلحت النفوس أو طلحت ، وعليه فلا محلّ للتعليل بالأعمال الحسنة والسيئة بل هو فرضية دينية ، وتقدير لا يطابق الواقع .

قلت : هذا إشكال فلسفي غير مناف لما نحن فيه من البحث التفسيري المتعلق بما يستفاد من كلامه تعالى وسنترض له تفصيلاً في بحث فلسفي عليه في تفسير قوله تعالى : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنهم بركات من السماء » الأعراف - ٦٤ .

وجملة القول فيه : أن الشبهة ناشئة عن سوء الفهم وعدم التنبيه لمقاصد القرآن وأهله ، فهم لا يريدون بقولهم : « إن الأعمال حسنة كانت أوسية مستتعبة لحوادث يناسبها خيراً أو شراً » إبطال العلل الطبيعية وإنكار تأثيرها ، ولا تشريك الأعمال مع العوامل المادية ، كما أن الإلهيين لا يريدون بإثبات الصانع إبطال قانون العللية والمعلولية العام وإثبات الاتفاق والمجازفة في الوجود ، أو تشريك الصانع مع العلل الطبيعية واستناد بعض الأمور إليه والبعض الآخر إليها ، بل مرادهم إثبات علة في طول علة ، وعامل معنوي فوق العوامل المادية ، وإسناد التأثير إلى كلتا العلتين لكن بالترتيب : أولاً وثانياً ، نظير الكتابة المنسوبة إلى الإنسان وإلى يده .

ومغزى الكلام : هو أن سائق التكوين يسوق الإنسان إلى سعادته الوجودية وكماله الحيوي كما مرّ الكلام فيه في البحث عن النبوة العامة ، ومن المعلوم أن من جملة منازل هذا النوع في مسيره إلى السعادة منزل الأعمال ، فإذا عرض لهذا السير عائق مانع يوجب توقّفه أو إشراف سائره إلى الهلاك والبوارقوبل ذلك بما يدفع العائق المذكور أو يهلك الجزء الفاسد ، نظير المزاج البدني يعارض العاهة العارضة للبدن أو لعضو من أعضائه فإن وفق له أصلح المحل وإن عجز عنه تركه مفجعاً لا يستفاد به ، وقد دلّت المشاهدة والتجربة على أن الصنع والتكوين جهّز كل موجود نوعي بما يدفع به الآفات والفسادات المتوجّهة إليه ، ولا معنى لاستثناء الإنسان في نوعه وفرده عن هذه الكليّة ودلّت أيضاً على أن التكوين يعارض كل موجود نوعي بأمر غير ملائمة تدعوه إلى إعمال قواه الوجودية ليكمل بذلك في وجوده ويوصله إلى غايته وسعادته التي هيأها له ، فما بال الإنسان لا يعتني في شأنه بذلك ؟

وهذا هو الذي يدلّ عليه قوله تعالى « وما خلقنا السمّوات والأرض وما بينهما إلاّ بالحقّ ولكنّ أكثرهم لا يعلمون » الدخان - ٢٨ وقوله تعالى : « وما خلقنا السمّاء والأرض وما بينهما باطلاً ذلك ظنّ الذين كفروا » ص - ٢٧ فكما أن صانعاً من الصّناع إذا صنع شيئاً لعباً ومن غير غاية مثلاً تقطعت الرابطة بينه وبين مصنوعه بمجرد إيجاده ، ولم يبال : إلى ما يؤول أمره ؟ وماذا يصادفه من الفساد والآفة ؟ لكنّه لو صنعه لغاية كان مراقباً لأمره شاهداً على رأسه ، إذا عرضه عارض يعوقه عن الغاية التي صنعه لأجلها وركّب أجزائه للوصول إليها أصلح حاله و تعرّض لشأنه بزيادة و نقصاً أو بإبطاله من رأس وتحليل تركيبه و العود إلى صنعة جديدة . كذلك الحال في خلق السمّوات والأرض وما بينهما و من جملة الإنسان ، لم يخلق الله سبحانه ما خلقه عبثاً ، ولم يوجد هباءً ، بل للرّجوع إليه كما قال تعالى : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنّكم إلينا لا ترجعون » المؤمنون - ١٦ أو قال تعالى : « وأنّ إلى ربّك المنتهى » النجم - ٤٢ . ومن الضروري حينئذ أن تتعلّق العناية الربّانية

إلى إيصال الإنسان كسائر ما خلق من خلق إلى غايته بالدعوة والإرشاد ثم بالامتحان والابتلاء ثم بإهلاك من بطل في حقّه غاية الخلقة ، وسقطت عنه الهداية ، فإنّ في ذلك إتقاناً للصنع في الفرد والنوع وختماً للأمر في أمة وإراحة الآخرين. قال تعالى : « وربك الغني ذو الرحمة إن يشاء يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين » الأنعام - ١٣٣ ( أنظر إلى موضع قوله تعالى : وربك الغني ذو الرحمة ).

وهذه السنّة الربّانية أعني سنّة الابتلاء والانتقام هي التي أخبر الله عنها أنّها سنّة غير مغلوبة ولا مقهورة ، بل غالبية منصورّة كما قال تعالى : « وما أصابكم من مصيبة إلا بما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير » الشورى - ٣١ وقال تعالى : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنّهم لهم المنصورون وإنّ جندنا لهم الغالبون » الصافات - ١٧٣ .

ومن أحكام الأعمال من حيث السعادة والشقاء : أنّ قبيل السعادة فائقة على قبيل الشقاء ، ومن خواص قبيل السعادة كلّ صفة وخاصّة جميلة كالفتح والظفر والثبات والاستقرار والأمن والتأصل والبقاء ، كما أنّ مقابلاتها من الزهاق والبطلان والتزلزل والخوف والزوال والمغلوبيّة وما يشاكلها من خواص قبيل الشقاء .

والآيات القرآنيّة في هذا المعنى كثيرة متكثّرة ، ويكفي في ذلك ما ضرب به الله تعالى مثلاً : « كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كلّ حين بإذن ربّها ويضرب الله الأمثال للناس لعلّهم يتذكرون . ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار يثبّت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضلّ الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء » إبراهيم - ٢٧ وقوله تعالى : « ليحقّ الحقّ بكلماته ويبطل الباطل » الأنفال - ٨ وقوله تعالى : « والعاقبة للمتقوى » طه - ١٢٢ وقوله تعالى : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنّهم لهم المنصورون وإنّ جندنا لهم الغالبون » الصافات - ١٧٣ وقوله تعالى : « والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون » يوسف - ٢١ إلى غير ذلك من الآيات .

وتذيل الكلام في هذه الآية الأخيرة بقوله : ولكن أكثرهم لا يعلمون مشعر بأن هذه الغلبة من الله سبحانه ليست بحيث يفقها جميع الناس بل أكثرهم جاهلون بها ، ولو كانت هي الغلبة الجسدية التي يعرفها كل أحد لم يجعلها أكثر من ، وإنما جعلها من جهلها ، وأنكرها من أنكرها من جهتين :

الأولى : أن الإنسان محدود فكره ، مقصور نظره على ما بين يديه مما يشهده ولا يغيب عنه ، يتكلم عن الحال ويغفل عن المستقبل ، ويحسب دولة يوم دولة ، ويعد غلبة ساعة غلبة ، يأخذ عمره القصير ومتاعه التليل مقياساً يحكم به على عامة الوجود ، لكن الله سبحانه ، وهو المحيط بالزمان والمكان ، والحاكم على الدنيا والآخرة والقيوم على كل شيء ، إذا حكم حكم فصلاً ، وإذا قضى قضى حقاً ، والأولى ، والعقبى بالنسبة إليه واحدة ، لا يخاف فوتاً ، ولا يعجل في أمر ، فمن الممكن ( بل الواقع ذلك ) أن يقدّر فساد يوم مقدّم يتوسّل بها إلى إصلاح دهر ، أو حرمان فرد ذريعة إلى فلاح أمة ، فيظنّ الجاهل أن الأمر أعجزه تعالى وأن الله سبحانه مسبوق مغلوب ( سواء ما يحكمون ) . لكن الله سبحانه يرى سلسلة الزمان كما يرى القطعة منه ، ويحكم على جميع خلقه كما يحكم على الواحد منهم لا يشغله شأن عن شأن ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم . قال تعالى : « ولا يغرك قلب السّدين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأويهم جهنّم وبئس المهاد » آل عمران - ١٩٦ .

والثانية : أن غلبة المعنويات غير غلبة الجسمانيات ، فإن غلبة الجسمانيات وقهرها أن تتسلط على الأفعال فتجعلها منقادة مطيعة للقاهر الغالب عليها بسلب حرية الاختيار ، وبسط الكره والإجبار كما كان ذلك دأب المتغلبين من ملوك الاستبداد ، فكانوا يقتلون فريقاً ، ويأسرون آخرين ، ويفعلون ما يشاءون بالتحكم والتهكم ، وقد دلّ التجارب وحكم البرهان على أن الكره والقسر لا يدوم ، وأن سلطة الأجانب لا تستقرّ على الأمم الحية استقراراً مؤبداً ، وإنما هي رهينة أيام قلائل .

وأما غلبة المعنويات فبأن توجد لها قلوب تستكنّها ، وبأن تربّي أفراداً تعتقدها

وتؤمن بها ، فليس فوق الإيمان التّام درجة ولا كحكامه حصن ، فإذا استقرّ الإيمان بمعنى من المعاني فإنّه سوف يظهر دهرأ وإن استخفى يوماً أو برهة ، ولذلك نجد أن الدول المعظّمة والمجامع الحيّة اليوم تعتني بشأن التبليغ أكثر ممّا تعتني بشأن العدة والقوّة فسلّاح المعنى أشدّ بأساً .

هذا في المعنويّات الصوريّة الوهميّة الّتي بين النّاس في شئونهم الاجتماعيّة الّتي لا تتجاوز حدّ الخيال والوهم . وأمّا المعنى الحقّ الّذي يدعو إليه سبحانه فإنّ أمره أوضح وأبين .

فالحقّ من حيث نفسه لا يقابل إلاّ الضلال والباطل ، وماذا بعد الحقّ إلاّ الضلال . و من المعلوم أنّ الباطل لا يقاوم الحقّ فالغلبة لحجّة الحقّ على الباطل .

والحقّ من حيث تأثيره وإصا له إلى الغاية أيضاً غير مختلف ولا متخلف ، فإنّ المؤمن لو غلب على عدوّ الحقّ في ظاهر الحيوة كان فائزاً مأجوراً ، وإن غلب عليه عدوّ الحقّ ، فإن أجبره على ما لا يرتضيه الله سبحانه كانت وظيفته الجرى على الكره والاضطرار ، ووافق ذلك رضاه تعالى . قال تعالى : « إلا أن تتّقوا منهم تقيّة » آل عمران - ٢٨ ، وإن قتله كان ذلك له حيوة طيّبة لاموتاً . قال تعالى : « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون » البقرة - ١٥٤ .

فالؤمن منصور غير مغلوب أبداً ، إمّا ظاهراً وباطناً ، وإمّا باطناً فقط . قال تعالى : « قل هل تربصون بنا إلاّ إحدى الحسنيين » التوبة - ٥٣ .

ومن هنا يظهر : أنّ الحقّ هو الغالب في الدنيا ظاهراً وباطناً معاً . أمّا ظاهراً : فإنّ الكون كما عرفت يهدي النوع الإنسانيّ هداية تكوينيّة إلى الحقّ والسعادة ، و سوف يبلغ غايته ، فإنّ الظهور المتراخي من الباطل جولة بعد جولة لاعبرة له ، وإنّما هو مقدّمة لظهور الحقّ ومُتّابقة سلسلة الزمان ولما يقف الدهر ، والنظام الكوني غير مغلوب البتّة ، وأمّا باطناً : فلم اعرفت أنّ الغلبة لحجّة الحقّ .

و أمّا أنّ لحقّ القول والفعل كلّ صفة جميلة كالثبات والبقاء والحسن ، ولباطل القول والفعل كلّ صفة ذميّة كالتزلزل والزوال والقبح والسوء فوجه ما أشرنا إليه في

سابق الأبحاث : أن المستفاد من قوله تعالى : « ذلكم الله ربكم خالق كل شيء » المؤمن ٦٢- وقوله تعالى : « الذي أحسن كل شيء خلقه » طه - ٥٠ وقوله تعالى : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » الأنعام - ٧٨ أن السيئات أعدام و بطلانات غير مستندة إلى الله سبحانه الذي هو الخالق الفاطر المفيض للوجود بخلاف الحسنات ، ولذلك كان القول الحسن والفعل الحسن من شأن كل جمال وحسن ، و منيع كل خير و سعادة كالثبات والبقاء ، والبركة والنفع دون السيئ من القول والفعل . قال تعالى : « أنزل من السماء ماء فسالأت أو دية بقدرها فاحتمل السيل زبدًا رايًا و مما توقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبدٌ مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » الرعد - ١٩ . ومن أحكام الأعمال : أن الحسنات من الأقوال والأفعال مطابقة لحكم العقل بخلاف السيئات من الأفعال والأقوال ، وقد مر أن الله سبحانه وضع ما يمينه للناس على أساس العقل ( ونعني بالعقل ما يدرك به الإنسان الحق والباطل ، ويميز به الحسن من السيئ ) .

و لذلك أوصى باتّباعه ونهى عن كل ما يوجب اختلال حكومته كشرب الخمر والقمار واللهو والغش والغرر في المعاملات ، وكذا نهى عن الكذب والافتراء والبهتان والخيانة والفتك و جميع ما يوجب خروج العقل عن سلامة الحكم فإن هذه الأفعال والأعمال توجب خبط العقل الإنساني في عمله وقد ابتليت الحياة الإنسانية على سلامة الإدراك والفكر في جميع شؤون الحياة الفردية والاجتماعية .

وأنت إذا حللت المفاصل الاجتماعية والفردية حتى في المفاصل المسلمة التي لا ينكرها منكرٌ وجدت أن الأساس فيها هي الأعمال السليمة يبطل بها حكومة العقل ، و أن بقية المفاصل وإن كثرت وعظمت مبنية عليها . ولتوضيح الأمر في هذا المقام محل آخر سيأتي إنشاء الله تعالى .

## ﴿ بحث وائى ﴾

في الدر المنثور : أخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : كنت رديف رسول الله ﷺ فقال يا ابن عباس ارض عن الله بما قدر وإن كان خلاف هواك فإن ذلك مشيت في كتاب الله . قلت : يا رسول الله فأين وقد قرأت القرآن ؟ قال : وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحببوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون .

**أقول :** وفي الرواية إشعار بأن التقدير يعم التشريع والتكوين وإنما يختلف باختلاف الاعتبار ، وأما كون عسى بمعنى الوجوب فلا دلالة لها عليه ، وقد مر أن عسى في القرآن بمعنى اللغوي وهو الترجي فلا عبرة بما نقل عن بعض المفسرين : كل شيء في القرآن عسى فإن عسى من الله واجب ! وأعجب منه ما نقل عن بعض آخر : أن كل شيء من القرآن عسى فهو واجب لأحرفين : حرف في التحريم : عسى ربه إن طلقكن ، وفي بني إسرائيل عسى ربكم أن يرحمكم .

وفي الدر المنثور أيضاً : أخرج ابن جرير من طريق السدي : أن رسول الله ﷺ بعث سرية وفيهم سبعة نفر عليهم عبد الله بن جحش الأسدي ، وفيهم عمارة بن ياسر ، وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وسعد بن أبي وقاص ، وعتبة بن صفوان السلمى حليف لبني نوفل ، وسهل بن بيضاء ، وعامر بن فهيرة ، وواقد بن عبد الله اليربوعي حليف لعمر بن الخطاب ، وكتب مع ابن جحش كتاباً وأمره أن لا يقرأ حتى ينزل ملأ فلما نزل ببطن ملأ فتح الكتاب فإذا فيه أن سر حتى تنزل بطن نخلة فقال لأصحابه : من كان يريد الموت فليمض ويايوس فإنني موص وماض لأمر رسول الله ﷺ فسار وتخلف عنه سعد بن أبي وقاص ، وعتبة بن غزوان ، أضلاً راحلة لهما ، وسار ابن جحش فإذا هم بالحكم بن كيسان ، وعبد الله بن المغيرة بن عثمان ، وعمر والحضرمي فاقتتلوا فأسروا والحكم بن كيسان وعبد الله بن المغيرة وانفلت المغيرة ، وقتل عمر والحضرمي قتله واقد بن عبد الله فكانت أول غنيمة غنمها أصحاب محمد ﷺ ، فلما رجعوا إلى المدينة بالأسيرين وما

غنموا من الأموال قال المشركون : تجد يزعم أنه يتبع طاعة الله وهو أول من استحلّ الشهر الحرام فأ نزل الله يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير لا يحل ، وما صنعتكم أنتم يامعشر المشركين أكبر من القتل في الشهر الحرام حين كفرتم بالله وصددتم عنه تجدأ ، والفتنة وهي الشرك أعظم عند الله من القتل في الشهر الحرام فذلك قوله : وصدّ عن سبيل الله وكفر به .

**أقول :** والروايات في هذا المعنى وما يقرب منه كثيرة من طرقهم ، وروي هذا المعنى أيضاً في المجمع ؛ وفي بعض الروايات : أن السريّة كانت ثمانية تاسعهم أميرهم . وفي الدر المنثور أيضاً : أخرج ابن اسحق وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي من طريق يزيد بن رومان عن عروة قال : بعث رسول الله ﷺ عبدالله بن جحش إلى نخلة فقال له : كن بها حتّى تأتينا بخبر من أخبار قريش ولم يأمره بقتال ، وذلك في الشهر الحرام ، وكتب له كتاباً قبل أن يعلمه أنه يسير ، فقال : أخرج أنت وأصحابك حتّى إذا سرت يومين فافتح كتابك وانظر فيه ، فما أمرتك به فامض له ، ولا تستكرهن أحداً من أصحابك على الذهاب معك ، فلمّا سار يومين فتح الكتاب فإذا فيه : أن امض حتّى تنزل نخلة فتأتينا من أخبار قريش بما اتّصل إليك منهم ، فقال لأصحابه حين قرء الكتاب : سمع وطاعة ، من كان منكم له رغبة في الشهادة فليطلق معي ، فأتى ماض لأمر رسول الله ﷺ ، ومن كره ذلك منكم فليرجع فإن رسول الله قد نهاني أن أستكره منكم أحداً فمضى معه القوم ، حتّى إذا كانوا بنجران أضلّ سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان بغيراً لهما كانا يعتقبانه ، فتخلّفا عليه يطلبانه ، ومضى القوم حتّى نزلوا نخلة ، فمرّ بهم عمرو بن الحضرمي والحكم بن كيسان وعثمان والمغيرة بن عبدالله معهم تجارة قد مرّوا بها من الطائف : آدم وزيت ، فلمّا رآهم القوم أشرف لهم واقد بن عبد الله وكان قد حلق رأسه فلمّا رأوه حليقاً قال عمّار : ليس عليكم منه بأس ، واثمروا القوم بهم أصحاب رسول الله ﷺ وهو آخر يوم من جمادي ، فقالوا : لئن قتلتموهم إننا لنكنم لتقتلونيهم في الشهر الحرام ولئن تركتموهم ليدخلن في هذه الليلة مكّة الحرام فليمتنعن منكم ، فأجمع القوم على قتلهم ، فرمى واقد بن عبد الله التميمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، واستأسر

عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، وهرب المغيرة فأعجزهم ، واستاقوا العير فقدموا بها على رسول الله ﷺ ، فقال لهم : والله ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ، فأوقف رسول الله ﷺ الأسيرين والعير فلم يأخذ منها شيئاً ، فلمّا قال لهم رسول الله ﷺ : ما قال سقط في أيديهم وظنّوا أن قد هلكوا وعنفهم إخوانهم من المسلمين ، وقالت قريش - حين بلغهم أمر هؤلاء - : قد سفك نخل الدم الحرام وأخذ المال ، وأسر الرجال واستحلّ الشهر الحرام ، فأنزل الله في ذلك : يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه الآية ، فلمّا نزل ذلك أخذ رسول الله ﷺ العير وفدى الأسيرين ، فقال المسلمون : يا رسول الله ! أطمع أن يكون لنا غزوة ؟ فأنزل الله : إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله ؛ وكانوا ثمانية وأميرهم التاسع عبد الله بن جحش .

**اقول :** وفي كون قوله تعالى : إن الذين آمنوا والذين هاجروا الآية نازلة في أمر أصحاب عبد الله بن جحش روايات أخر . والآية تدلّ على عذر من فعل فعلاً قريباً فأخطأ الواقع فلا ذنب مع الخطاء ، وتدلّ أيضاً على جواز تعلّق المغفرة بغير مورد الذنب .

وفي الروايات إشارة إلى أن المراد بالسائلين في قوله تعالى يسئلونك اه هم المؤمنون دون المشركين الطاعينين في فعل المؤمنين ، ويؤيده أيضاً ما مرّ من رواية ابن عباس في البحث الروائي السابق : ما رأيت قوماً كانوا خيراً من أصحاب نخل ما سئلوه إلا عن ثلث عشرة مسألة حتّى قبض ﷺ ، كلّهنّ في القرآن : منهم يسئلونك عن الخمر والميسر ، ويسئلونك عن الشهر الحرام الرواية ، ويؤيده ذلك أن الخطاب في الآية إنّما هو للمؤمنين حيث يقول تعالى : ولا يزالون يقاتلونكم حتّى يردّوكم عن دينكم اه .



يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ  
مِن نَّفْعِهِمَا . وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ  
تَتَفَكَّرُونَ (٢١٩) فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلِ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ  
وَأَنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ  
إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٢٠).

### ﴿ بيان ﴾

قوله تعالى : يسألك عن الخمر والميسر اه ، الخمر على ما يستفاد من اللغة هو  
كل مائع معمول للسكر ، والأصل في معناه الستر ، وسمي به لأنه يستر العقل  
ولا يدعه يميز الحسن من القبح والخير من الشر ، ويقال : لما تغطى به المرأة رأسها  
الخمار ، ويقال : خمرت الأناء إذا غطيت رأسها ، ويقال : أخمرت العجين إذا أدخلت  
فيه الخمير ، وسميت الخميرة خميرة لأنها تعجن أولاً ثم تغطى وتخمر من قبل ،  
وقد كانت العرب لا تعرف من أقسامه إلا الخمر المعمول من العنب والتمر والشعير ، ثم  
زاد الناس في أقسامه تدريجاً فصارت اليوم أنواعاً كثيرة ذات مراتب بحسب درجات  
السكر ، والجميع خمر .

والميسر لغة هو القمار ويسمى المقامر ياسراً والأصل في معناه السهولة سمي  
به لسهولة اقتناء مال الغير به من غير تعب الكسب والعمل ، وقد كان أكثر استعماله  
عند العرب في نوع خاص من القمار ، وهو الضرب بالقداح وهي السهام ، وتسمى أيضاً :  
الأزلام والأقلام .

وأما كفيته فهي أنهم كانوا يشترون جزواً وينحرونه ، ثم يجزّونه ثمانية و  
عشرين جزءاً ، ثم يضعون عند ذلك عشر سهام وهي الفذ ، والتوام ، والرقيب ، والحلس ،  
والنفس ، والمسيل ، والمعلي ، والمنيح ، والسنيح ، والرغد ، فالفذ جزء من الثمانية

والعشرين جزءاً ، وللتوأم جزئان ، وللرقيب ثلاثة أجزاء ، وللحلس أربعة ، وللنفس خمسة ، وللمسيل ستة ، وللمعالي سبعة ، وهو أكثر القдах نصيباً ، وأما الثلاثة الأخيرة وهي المنيع والسفيح والرغد فلا نصيب لها ، فمن خرج أحد القдах السبعة باسمه أخذ نصيبه من الأجزاء المفروضة ، وصاحبوا القдах الثلاثة الأخيرة يغرمون قيمة الجزور .  
ويتم هذا العمل بين عشرة رجال بنحو القرعة في الأ نصباء والسهام .

**قوله تعالى :** قل فيهما إثم كبير ، وقرء إثم كبير بالثاء المثلثة . والإثم يقارب الذنب وما يشبهه معنى وهو حال في الشيء أو في العقل يبطيء الإنسان عن نيل الخيرات فهو الذنب الذي يستتبع الشقاء والحرمان في أموراً أخرى ويفسد سعادة الحياة في جهاتها الأخرى وهذان على هذه الصفة .

أما شرب الخمر فمضراته الطبيّة وآثاره السيئة في المعدة والأمعاء والكبد والرئة وسلسلة الأعصاب والشرائين والقلب والحواس كالباصرة والذائقة وغيرهما مما ألف فيه تاليفات من حذاق الأطباء قديماً وحديثاً ، ولهم في ذلك إحصاءات عجيبة تكشف عن كثرة المبتلين بأنواع الأمراض المهلكة التي يستتبعها هذا السم المهلك .

وأما مضراته الخلقيّة : من تشويه الخلق وتأديته الإنسان إلى الفحش ، والإضرار والجنائيات ، والقتل ، وإفشاء السر ، وهتك الحرمات ، وإبطال جميع القوانين والنواميس الإنسانية التي بنيت عليها أساس سعادة الحياة ، وخاصة ناموس العفة في الأعراض والنفوس والأموال ، فلا عاصم من سكران لا يدري ما يقول ولا يشعر بما يفعل ، وقل ما يتفق جناية من هذه الجنائيات التي قد ملأت الدنيا ونغصت عيشة الإنسان إلا والخمر فيها صنع مستقيماً أو غير مستقيم .

وأما مضراته في الإدراك وسلبه العقل وتصرفه الغير المنتظم في أفكار الإنسان وتغييره مجرى الإدراك حين السكر وبعد الصحو فمما لا ينكره منكر وذلك أعظم ما فيه من الإثم والفساد ، ومنه ينشأ جميع المفاسد الأخر .

والشرعية الإسلامية كما مرت إليه الإشارة وضعت أساس أحكامها على التحفظ على العقل السليم ، ونهت عن الفعل المبطّل لعمل العقل أشد النهي كالخمر ، والميسر ،

والغش ، والكذب ، وغير ذلك . ومن أشدّ الأفعال المبطلة لحكومة العقل على سلامة هو شرب الخمر من بين الأفعال وقول الكذب والزور من بين الأقوال .

فهذه الأعمال أعني : الأعمال المبطلة لحكومة العقل وعلى رأسها السياسات المبتنية على السكر والكذب هي التي تهدد الإنسانية ، وتهدم بنيان السعادة ولا تأتي بشرة عامة إلا وهي أمر من سابقتها ، وكلما زاد الحمل ثقلاً وأعجز حامله زيد في الثقل رجاء المقدرة ، فخاب السعي ، وخسر العمل . ولولم يكن لهذه المهجة البيضاء والشريرة الغراء إلا البناء على العقل والمنع عما يفسده من اتباع الهوى لكفاه فخرأ . ولل كلام تتممة سنفترض لها في سورة المائدة إنشاء الله .

ولم يزل الناس بقرية حتهم الحيوانية يميلون إلى لذائذ الشهوة فيشيع بينهم الأعمال الشهوانية أسرع من شيوع الحق والحقيقة ، وانعقدت العادات على تناولها وشق تركها والجري على نواhuis السعادة الإنسانية ، ولذلك إن الله سبحانه شرع فيهم مآشرع من الأحكام على سبيل التدرج ، وكلفهم بالرفق والإمهال .

ومن جملة تلك العادات الشائعة السيئة شرب الخمر فقد أخذ في تحريمه بالتدرج على ما يعطيه التدبّر في الآيات المربوطة به فقد نزلت أربع مرّات :

إحديها : قوله تعالى : « قل إنّما حرّم ربّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغى بغير الحق » الأعراف - ٣٢ . والآية مكّية حرّم فيها الإثم صريحاً ، وفي الخمر إثم غير أنّه لم يبيّن أنّ الإثم ماهو وأنّ في الخمر إثم كبيراً .

ولعلّ ذلك إنّما كان نوعاً من الإرفاق والتسهيل لما في السكوت عن البيان من الإغماض كما يشعر به أيضاً قوله تعالى : « ومن ثمرات النخيل تتخذون منه سكراً و رزقاً حسناً » النحل - ٦٧ . والآية أيضاً مكّية ، وكان الناس لم يكونوا متنبّهين بما فيه من الحرمة الكبيرة حتّى نزلت قوله تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا لا تقربوا الصلوة وأنتم سُكّارى » النساء - ٤٣ ، والآية مدنيّة وهي تمنع الناس بعض المنع عن الشرب والسكر في أفضل الحالات وفي أفضل الأماكن وهي الصلوة في المسجد .

والاعتبار وسياق الآية الشريفة يأبى أن تنزل بعد آية البقرة وآيتي المآمدة فإنهما

تدلّان على النهي المطلق ، ولا معنى للنهي الخاصّ بعد ورود النهي المطلق ، على أنّه ينافي التدرّج المفهوم من هذه الآيات فإنّ التدرّج سلوكٌ من الأسهل إلى الأشقّ لا بالعكس .

ثمّ نزلت آية البقرة أعني قوله تعالى : « ويسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبيرٌ و منافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما » وهذه الآية بعد آية النساء كما أمر بيانه وتشتمل الآية على التحريم لدالتها القطعيّة على الإثم في الخمر « فيهما إثم كبيرٌ » وتقدّم نزول آية الأعراف المكّيّة الصريحة في تحريم الإثم .

ومن هنا يظهر : فساد ما ذكره بعض المفسّرين : أنّ آية البقرة ما كانت صريحة في الحرمة فإنّ قوله تعالى : « قل فيهما إثم كبيرٌ » لا يدلّ على أزيد من أنّ فيه إثمًا والإثم هو الضرر ، وتحريم كلّ ضارٍّ لا يدلّ على تحريم ما فيه مضرّة من جهة ومنفعة من جهة أخرى ، ولذلك كانت هذه الآية م-وضعاً لاجتهاد الصحابة ، فترك لها الخمر بعضهم وأصرّ على شربها آخرون ، كأنّهم رأوا أنّهم يتيسّر لهم أن ينتفعوا بها م-ع اجتنب ضررها فكان ذلك تمهيداً للقطع بتحريمها فنزل قوله تعالى : « إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان إلى قوله تعالى : فهل أنتم منتهون » . وجه الفساد ما أولاً : فإنّه أخذ الإثم بمعنى الضرر مطلقاً وليس الإثم هو الضرر ومجرّد مقابله في الكلام مع المنفعة لا يستدعي كونه بمعنى الضرر المقابل للنفع ، وكيف يمكن أخذ الإثم بمعنى الضرر في قوله تعالى : « ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً » النساء - ٤٧ وقوله تعالى : « فإنّه آثم قلبه » البقرة - ٢٨٣ وقوله تعالى : « أن تبوء باثمي وإثمك » المائدة - ٣٢ وقوله تعالى : « لكلّ إمري منهم ما اكتسب من الإسم » النور - ١١ وقوله تعالى : « ومن يكسب إثماً فإنّما يكسبه على نفسه » النساء - ١٠ إلى غير ذلك من الآيات .

وأما ثانياً : فإنّ الآية لم تعلل الحكم بالضرر ، و لو سلّم ذلك فإنّها تعلّله بغلبة الضرر على المنفعة ، ولفظها صريح في ذلك حيث يقول « وإثمهما أكبر من نفعهما » ، و إرجاعها مع ذلك إلى الاجتهاد اجتهاد في مقابل النصّ .

وَأَمَّا ثَلَاثًا : فهب أن الآية في نفسها قاصرة الدلالة على الحرمة لكنّها صريحة الدلالة على الإثم وهي مدنيّة قد سبقتها في النزول آية الأعراف المحرّمة للإثم صريحاً فما عذر من سمع التحريم في آية مكّيّة حتّى يجتهد في آية مدنيّة !

على أن آية الأعراف تدلّ على تحريم مطلق الإثم وهذه الآية قيّدت الإثم بالكبر ولا يبقى مع ذلك ريب لذي ريب في أن الخمر فرد تامّ ومصداق كامل للإثم لا ينبغي الشك في كونه من الإثم المحرّم ، وقد وصف القرآن القتل وكنمان الشهادة والافتراء وغير ذلك بالإثم ولم يصف الإثم في شيء من ذلك بالكبر إلا في الخمر وفي الشرك حيث وصفه بالعظم في قوله تعالى : « ومن يشرك بالله فقد افترى إثماً عظيماً » النساء - ٤٧ . وبالجملّة لاشكّ في دلالة الآية على التحريم .

ثمّ نزلت آيتا المائدة : « يا أيّها السّاذجن آمنوا إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلّكم تفلحون . إنّما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء في الخمر والميسر ويصدّكم عن ذكر الله وعن الصلوة فهل أنتم منتهون » المائدة - ٩٣ ، وذيل الكلام يدلّ على أن المسلمين لم يكونوا منتهين بعد نزول آية البقرة عن شرب الخمر ولم ينتزعوا عنه بالكليّة حتّى نزلت الآية فقليل : فهل أنتم منتهون . هذا كلّه في الخمر .

وأمّا الميسر : فمفاسده الاجتماعيّة وهدمه لبنيان الحيوة أمر مشهود معاين ، و العيان يغني عن البيان ، وسنتعرّض لشأنه في سورة المائدة إنشاء الله .

ولنرجع إلى ما كتّافيه من البحث في مفردات الآية فقوله تعالى : قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس اه ، قد مرّ الكلام في معنى الإثم ، وأمّا الكبر فهو في الأحجام بمنزلة الكثرة في الأعداد ، والكبر يقابل الصغر كما أن الكثرة تقابل القلّة . فهما وصفان إضافيان بمعنى أن الجسم أو الحجم يكون كبيراً بالنسبة إلى آخر أصغر منه و هو بعينه صغير بالنسبة إلى آخر أكبر منه ، ولولا المقايسة و الإضافة لم يكن كبر ولا صغر كما لا يكون كثرة ولا قلّة ، ويشبه أن يكون أوّل ما تنبّه الناس لمعنى الكبر إنّما تنبّهوا له في الأحجام التي هي من الكمّيّات المتّصلة وهي جسمانيّة ، ثمّ انتقلوا

من الصور إلى المعاني فأطردوا معنى الكبر والصغر فيها . قال تعالى : « إنها لإحدى الكبر » المدثر - ٣٥ و قال تعالى : « كبرت كلمة تخرج من أفواههم » الكهف - ٥ وقال تعالى : « كبر على المشركين ما تدعوهم إليه » الشورى - ١٣ . والعظم في معناه كالكبر ، غير أن الظاهر أن العظمة مأخوذة من العظم الذي هو أحد أجزاء البدن من الحيوان فإن كبر جسم الحيوان كان راجعاً إلى كبر العظام المركبة المولدة في داخله فاستعير العظم للكبر ثم تأصل فأشتق منه كالمواد الأصلية .

والنفع خلاف الضرر ويطلقان على الأمور المطلوبة لغيرها أو المكروهة لغيرها كما أن الخير والشر يطلقان على الأمور المطلوبة لذاتها أو المكروهة لذاتها . والمراد بالمنافع فيهما ما يقصده الناس بهما من الاستفادات المالية بالبيع والشراء والعمل والتفكير والتلهي ، ولما قوبل ثانياً بين الإثم والمنافع بالكبر أوجب ذلك إفراد المنافع وإلغاء جهة الكثرة فيها فإن العدد لا تأثير له في الكبر ف قيل : وإثمهما أكبر من نفعهما ولم يقل من منافعهما .

**قوله تعالى :** و يسئلونك ماذا ينفقون قل العفو، العفو على ما ذكره الراغب قصد الشيء، لتناوله ثم أوجب لحقوق العنايات المختلفة الكلامية به مجيئه لمعاني مختلفة كالعفو بمعنى المغفرة والعفو بمعنى إمحاء الأثر والعفو بمعنى التوسط في الإنفاق ، وهذا هو المقصود في المقام ، والله العالم .

والكلام في مطابقة الجواب للسؤال في هذه الآية نظير ما مر في قوله تعالى :

يسئلونك ما ذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين الآية .

**قوله تعالى :** يبين الله لكم إلى قوله : في الدنيا والآخرة اه ، الظرف أعني قوله

تعالى : في الدنيا والآخرة اه متعلق بقوله : تتفكرون وليس بظرف له ، والمعنى لعلمكم تتفكرون في أمر الدارين وما يرتبط بكم من حقيقتهم ، وأن الدنيا دار خلقها الله لكم لتحيا فيها وتكسبوا ما ينفعكم في مقركم وهو الدار الآخرة التي ترجعون فيه إلى ربكم فيجازيكم بأعمالكم التي عملتموها في الدنيا .

وفي الآية أولاً : حث على البحث عن حقائق الوجود ومعارف المبدء والمعاد و أسرار الطبيعة ، والتفكير في طبيعة الاجتماع ونواميس الأخلاق وقوانين الحياة الفردية و

والاجتماعية ، وبالجمله جميع العلوم الباعثه عن المبدء والمعاد وما بينهما المرتبطه  
بسماعه الانسان وشقاوته .

وثانياً : أن القرآن وإن كان يدعو إلى الإطاعة المطلقة لله ورسوله من غير أى  
شرط وقيد غير أنه لا يرضى أن يؤخذ الأحكام والمعارف التي يعطيها على العمى والجمود  
المحض من غير تفكير وتعقل يكشف عن حقيقة الأمر ، وتنوير يستضاء به الطريق في هذا  
السير والسرى .

وكان المراد بالتمييز هو الكشف عن علل الأحكام والقوانين ، وإيضاح أصول  
المعارف والعلوم .

**قوله تعالى :** ويسئلونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير اه ، في الآية إشعار بل  
دلالة على نوع من التخفيف والتسهيل حيث أجازت المخالطة لليتامى ثم قيل ولو شاء  
الله لأغنتكم اه ، وهذا يكشف عن تشديد سابق من الله تعالى في أمر اليتامى يوجب التشويش  
والاضطراب في قلوب المسلمين حتى دعاهم على السؤال عن أمر اليتامى ، والأمر على  
ذلك ، فإن ههنا آيات شديدة اللحن في أمر اليتامى كقوله تعالى إن الذين يأكلون  
أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً النساء - ٩ وقوله  
تعالى : « وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى  
أموالكم إنه كان حوباً كبيراً » النساء - ٢٠ . فالظاهر أن الآية نازلة بعد آيات  
سورة النساء ، وبذلك يتأيد ما سننقله من سبب نزول الآية في البحث الروائي . وفي  
قوله تعالى : قل إصلاح لهم خير اه - حيث نكر الإصلاح - دلالة على أن المرضي عند الله  
سبحانه نوع من الإصلاح لا كل إصلاح ولو كان إصلاحاً في ظاهر الأمر فقط ،  
قالتنكير في قوله تعالى : إصلاح لإفادة التنويع فالمراد به الإصلاح بحسب الحقيقة  
لا بحسب الصورة ، ويشعر به قوله تعالى - ذيلاً - : والله يعلم ما نقصد من المصلح اه .

**قوله تعالى :** وإن تخالطوهم فإخوانكم اه إشارة إلى المساواة المزعومة بين  
المؤمنين جميعاً بإلغاء جميع الصفات المميزة التي هي المصادر لبروز أنواع الفساد  
بين الناس في اجتماعهم من الاستعباد والاستضعاف والاستذلال والاستكبار وأنواع البغي

والظلم ، وبذلك يحصل التوازن بين أفعال الاجتماع ، والمعادلة بين اليتيم المضعف والولي القوي ، وبين الغني المثرى والفقير المعدم ، وكذا كل ناقص وتام ، وقد قال تعالى : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ » الحجرات - ١٠ .

فإن الذي تجوز له الآية في مخالطة الولي لليتيم أن يكون كالمخالطة بين الأخوين المتساويين في الحقوق الاجتماعية بين الناس ، يكون المأخوذ من ماله كالمعطى له ، فالآية تحاذي قوله تعالى : « وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا الْأَمْوَالَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا » النساء - ٢ . وهذه المحاذاة من الشواهد على أن في الآية نوعاً من التخفيف والتسهيل كما يدل عليه أيضاً ذيلها ، وكما يدل عليه أيضاً بعض الدلالة قوله تعالى : والله يعلم المفسد من المصلح فاطمئني : أن المخالطة إن كانت ( وهذا هو التخفيف ) فلتكن كمخالطة الأخوين ، على التساوي في الحقوق ، ولا ينبغي عند ذلك الخوف والخشية فإن ذلك لو كان بغرض الإصلاح حقيقة لا صورة كان من الخير ، ولا يخفى حقيقة الأمر على الله سبحانه حتى يؤاخذكم بمجرّد المخالطة فإن الله سبحانه يميّز المفسد من المصلح .

**قوله تعالى :** والله يعلم المفسد من المصلح إلى آخر الآية ، تعدية يعلم بمن كأنها لمكان تضمينه معنى يميّز ، والعنت هو الكلفة والمشقة .

### ﴿ بحث روائي ﴾

في الكافي عن علي بن يقطين قال : سألت المهديّ أبا الحسن عليه السلام عن الخمر : هل هي محرّمة في كتاب الله عزّ وجلّ ؟ فإنّ الناس إنّما يعرفون النهي عنها ولا يعرفون تحريمها فقال له أبو الحسن عليه السلام : بل هي محرّمة فقال : في أيّ موضع هي محرّمة في كتاب الله عزّ وجلّ يا أبا الحسن ؟ فقال : قول الله تعالى : إنّما حرمّ ربّي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثمّ والبغي بغير الحقّ إلى أن قال : فأما الإثمّ فإنّها الخمر بعينها وقد قال الله تعالى في موضع آخر : يستلوّنك عن الخمر والميسر قلّ فيهما إثمّ كثيرٌ ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما . فأما الإثمّ في كتاب الله فهي الخمر والميسر وإثمهما

أكبر من نفعهما كما قال الله تعالى فقال المهدي: يا علي بن يقطين هذه فتوى هاشمية . فقلت له : صدقت يا أمير المؤمنين الحمد لله الذي لم يخرج هذا العلم منكم أهل البيت . قال : فوالله ما صبر المهدي أن قال لي : صدقت يا رافضي .

**أقول :** وقدمر ما يتبين به معنى هذه الرواية .

وفي الكافي أيضاً عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام قال ، إن الله جعل للمعصية بيتاً ، ثم جعل للبيت باباً ، ثم جعل للباب غلقاً ، ثم جعل للمغلق مفتاحاً ، فمفتاح المعصية الخمر .

وفيه أيضاً عن أبي عبد الله عليه السلام قال . قال رسول الله ﷺ : إن الخمر رأس كل إثم .

وفيه عن إسماعيل قال : أقبل أبو جعفر عليه السلام في المسجد الحرام فنظر إليه قوم من قريش فقالوا : هذا إله أهل العراق فقال بعضهم : لو بعثتم إليه بعضكم . فأتاه شاب منهم فقال : يا عمّ ما أكبر الكبار ؟ قال عليه السلام : شرب الخمر .

وفيه أيضاً عن أبي البلاد عن أحدهما عليهما السلام قال : ما عصي الله بشيء أشد من شرب المسكر ، إن أحدهم يدع الصلاة الفريضة ويثب على أمه وابنته ، وأخته وهو لا يعقل . وفي الاحتجاج : سأل زنديق أبا عبد الله عليه السلام : لم حرّم الله الخمر ولا لذّة أفضل منها ؟ قال : حرّمها لأنّها أمّ الخبائث ورأس كل شر ، يأتي على شاربها ساعة يسلب لبه فلا يعرف ربّه ولا يترك معصية إلا ركبها الحديث .

**أقول :** والروايات تنفسّر بعضها بعضاً ، والتجارب والاعتبار يساعدانها .

وفي الكافي عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام قال : لعن رسول الله ﷺ في الخمر عشرة : غارسها وحارسها ، وعاصرها ، وشاربها وساقيقها ، وحاملها ، والمحمولة إليه ، وبايعها ، ومشتريها وآكل ثمنها .

وفي الكافي والمحاسن عن الصادق عليه السلام قال : قال رسول الله ﷺ : ملعون ملعون من جلس على مائدة يشرب عليها الخمر .

**أقول :** وتصديق الرّوايتين قوله تعالى : «ولا تعاونوا على الإثم والعدوان» المائدة - ٣ .

وفي الخصال بإسناده عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ﷺ : أربعة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : عاق ، ومنان ، ومكذب بالقدر ، ومدمن خمر .

وفي الأماشي لابن الشيخ بإسناده عن الصادق عليه السلام عن النبي ﷺ قال : أقسم ربي جل جلاله لا يشرب عبد لي خمرأ في الدنيا إلا سقيته يوم القيامة مثل ما شرب منها من الحميم معذباً بعد أو مغفوراً له . ثم قال : إن شارب الخمر يحيى يوم القيامة مسوداً وجهه ، مزرقه عيناه ، مائل شذقه ، سائلأ لعابه ، والغأ لسانه من قفاه .

وفي تفسير القمي عن أبي جعفر عليه السلام قال : حق على الله أن يستقي من يشرب الخمر مما يخرج من فروج المومسات ، والمومسات الزواني يخرج من فروجهن صديد ، والصديد قبيح ودم غليظ مختلط يؤدي أهل النار حره ومنتنه .

اقول : ربما تأيدت هذه الروايات بقوله تعالى : « إن شجرة الزقوم طعام الأثيم كل من لم يغل في البطون كغلي الحميم خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ذق إنك أنت العزيز الكريم » الدخان - ٤٩ . وفي جميع المعاني السابقة روايات كثيرة .

وفي الكافي عن الوشاء عن أبي الحسن عليه السلام قال : سمعته يقول : الميسر هو القمار . اقول : والروايات في هذا المعنى كثيرة لا غبار عليها .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : ويسئلونك ماذا ينفقون الآية عن ابن عباس : إن نفراً من الصحابة حين أمروا بالنفقة في سبيل الله أتوا النبي ﷺ فقالوا : إنما لا ندري ما هذه النفقة التي أمرنا بها في أموالنا ، فما تنفق منها ؟ فأمر الله ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو وكان قبل ذلك ينفق ماله حتى ما يجد ما يتصدق به ولا مالا يأكل حتى يتصدق به . وفي الدر المنثور أيضاً عن يحيى : أنه بلغه أن معاذ بن جبل وثعلبة أتيا رسول الله ﷺ فقالا : يا رسول الله إن لنا أرقاء وأهلين فما تنفق من أموالنا ؟ فأمر الله : ويسئلونك ماذا ينفقون . قل العفو .

وفي الكافي وتفسير العياشي عن الصادق عليه السلام : العفو الوسط .

وفي تفسير العياشي عن الباقر والصادق عليهما السلام : الكفاف . وفي رواية أبي

بصير : القصد .

وفيه أيضاً عن الصادق عليه السلام في الآية : الذين إذا أنفقوا لم يسرفوا و لم يقتروا  
وكان بين ذلك قواماً، قال : هذه بعد هذه ، هي الوسط .

وفي المجمع عن الباقر عليه السلام : العفو ما فضل عن قوت السنة .

أقول : والروايات متوافقة ، والأخيرة من قبيل بيان المصدق . والروايات في فضل  
الصدقة وكيفيتها وموردها وكميتها فوق حد الإحصاء ، سيأتي بعضها في موارد تناسبها  
إنشاء الله .

وفي تفسير القمّيّ في قوله تعالى : ويسئلكم عن اليتامى : عن الصادق عليه السلام : إنه  
لمّا نزلت : إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنمّا يكونون في بطونهم ناراً وسيصلون  
سعييراً أخرج كل من كان عنده يتيماً ، وسألوا رسول الله في إخراجهم فأَنزَلَ اللهُ : يسئلكم  
عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم في الدين والله يعلم المفسد  
من المصلح .

وفي الدر المنثور عن ابن عباس قال : لمّا أنزل الله : ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي  
هي أحسن ، وإن الذين يأكلون أموال اليتامى الآية انطلق من كان عنده يتيماً فعزل طعامه  
من طعامه وشرابه من شرابه فجعل يفضل له الشيء من طعامه فيحبس له حتّى يأكله أو  
يفسد فيرمى به ، فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأَنزَلَ اللهُ : ويسئلكم  
عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم فخلطوا طعامهم بطعامهم و  
شرابهم بشرابهم .

أقول : وروي هذا المعنى عن سعيد بن جبير وعطاء وقتادة .



وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَ وَلَامَّةٌ مُؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّى يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُؤْمِنٌ خَيْرٌ مِنْ مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ . أُولَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِآذَنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٢١) .

### ﴿ بيان ﴾

قوله تعالى : ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن<sup>١</sup> اه ، قال الراغب في المفردات : أصل النكاح للعقد ثم استعير للجماع ، ومحال أن يكون في الأصل للجماع ثم استعير للعقد لأن أسماء الجماع كلها كنايةات . لاستقباحهم ذكره كالستباح تعاطيه ، ومحال أن يستعير من لا يقصد فحشاً اسم ما يستفظعونه لما يستحسنونه ، انتهى . وهو جيد غير أنه يجب أن يراد بالعقد علاقة الزوجية دون العقد اللفظي المعهود .

والمشركات اسم فاعل من الإشراف بمعنى اتخاذ الشريك لله سبحانه ، ومن المعلوم أنه ذو مراتب مختلفة بحسب الظهور والخفاء نظير الكفر والإيمان . فالقول بتعدد الإله واتخاذ الأصنام والشفعاء شرك ظاهر ، وأخفى منه ما عليه أهل الكتاب من الكفر بالنبوة وخاصة - إنهم قالوا : عزير ابن الله أو المسيح ابن الله ، وقالوا : نحن أبناء الله وأحباؤه وهو شرك ، وأخفى منه القول باستقلال الأسباب والركون إليها وهو شرك ، إلى أن ينتهي إلى ما لا ينجو منه إلا المخلصون وهو الغفلة عن الله والإلغاف إلى غير الله عزت ساحته ، فكل ذلك من الشرك ، غير أن إطلاق الفعل غير إطلاق الوصف والتسمية به ، كما أن من ترك من المؤمنين شيئاً من الفرائض فقد كفر به لكنه لا يسمى كافراً . قال تعالى : « ولله على الناس حج البيت إلى أن قال ومن كفر فإن الله غني عن العالمين » آل عمران - ٩٧ . وليس تارك الحج كافراً بل هو فاسق كفر بفريضة واحدة . ولو أطلق عليه الكافر قيل كافراً بالحج ، وكذا سائر الصفات المستعملة في القرآن كالصالحين والقائمين والساكرين والمتطهرين ، و

كالفاسقين والظالمين إلى غير ذلك لا تعادل الأفعال المشاركة لها في مادتها، وهو ظاهر فالتوصيف والتسمية حكم، ولا إسناد الفعل حكم آخر .

على أن لفظ المشركين في القرآن غير ظاهر الإطلاق على أهل الكتاب بخلاف لفظ الكافرين بل إنما أطلق فيما يعلم مصداقه على غيرهم من الكفار كقوله تعالى : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين منفكين حتي تأتيهم البينة » البينة - ١ و قوله تعالى : « إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام » التوبة - ٢٩ و قوله تعالى : « كيف يكون للمشركين عهد » التوبة - ٨ و قوله تعالى : « وقتلوا المشركين كافة » التوبة - ٣٧ و قوله تعالى : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » التوبة - ٦ . إلى غير ذلك من الموارد .

وأما قوله تعالى : « وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين » البقرة - ١٣٥ فليس المراد بالمشركين في الآية اليهود والنصارى ليكون تعريضاً بهم بل الظاهر أنهم غيرهم بقريضة قوله تعالى : « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين » آل عمران - ٦٧ . ففي إنبات الحنف له <sup>ع</sup> تعريض لأهل الكتاب ، وتبرئة لساحة إبراهيم عن الميل عن حاق الوسط إلى مادية اليهود محضاً وإلى معنوية النصارى محضاً بل هو <sup>ع</sup> غير يهودي ولا نصراني ومسلم لله غير متخذ له شريكاً كالمشركين عبدة الأوثان .

وكذا قوله تعالى : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون » يوسف - ١٠٦ . وقوله تعالى : « وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة » فصلت - ٦ و قوله تعالى « إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » النحل - ١٠٠ . فإن هذه الآيات ليست في مقام التسمية بحيث يعد المورد الذي يصدق وصف الشرك عليه مشركاً غير مؤمن ، و الشاهد على ذلك صدقه على بعض طبقات المؤمنين ، بل على جميعهم غير النادر الشاذ منهم وهم الأولياء المقربون من صالح عباد الله .

فقد ظهر من هذا البيان على طوله : أن ظاهر الآية أعني قوله تعالى : ولا تنكحوا المشركات قصر التحريم على المشركات والمشركين من الوثنيين دون أهل الكتاب .

ومن هنا يظهر : فساد القول بأن الآية ناسخة لآية المائدة وهي قوله تعالى :  
 « اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم  
 والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم الآية »  
 المائدة - ٦ .

وأما الآية أعني قوله تعالى : ولا تنكحوا المشركات ، وآية الممتحنة أعني قوله  
 تعالى : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » الممتحنة - ١٠ ناسختان لآية المائدة ، وكذا  
 القول بأن آية المائدة ناسخة لآيتي البقرة والممتحنة .

وجه الفساد : أن هذه الآية أعني آية البقرة بظاهرها لا تشمل أهل الكتاب و  
 آية المائدة لا تشمل إلا الكتابية فلان نسبة بين الآيتين بالتنافي حتى تكون آية البقرة  
 ناسخة لآية المائدة أو منسوخة بها ، وكذا آية الممتحنة وإن أخذ فيها عنوان الكوافر و  
 هو أعم من المشركات ويشمل أهل الكتاب ، فإن الظاهر أن إطلاق الكافر يشمل الكتابي  
 بحسب التسمية بحيث يوجب صدقه عليه انتفاء صدق المؤمن عليه كما يشهد به قوله  
 تعالى : « من كان عدواً لجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين » البقرة - ٩٨ إلا أن  
 ظاهر الآية كما سيأتي إنشاء الله العزيز أن من آمن من الرجال وتحت زوجته كافرة يحرم  
 عليه الإمساك بعصمتها أي إبقائها على الزوجية السابقة إلا أن تؤمن فتمسك بعصمتها ،  
 فلا دلالة لها على النكاح الابتدائي للكتابية .

ولو سلم دلالة الآيتين أعني : آية البقرة وآية الممتحنة على تحريم نكاح الكتابية  
 ابتداء لم تكونا بحسب السياق ناسختين لآية المائدة ، وذلك لأن آية المائدة واردة  
 مورد الامتنان والتخفيف ، على ما يعطيه التدبر في سياقها ، فهي آية عن المنسوخية بل  
 التخفيف المفهوم منها هو الحاحكم على التشديد المفهوم من آية البقرة ، فلو بني على النسخ  
 كانت آية المائدة هي الناسخة .

على أن سورة البقرة أول سورة نزلت بالمدينة بعد الهجرة ، وسورة الممتحنة نزلت  
 بالمدينة قبل فتح مكة ، وسورة المائدة آخر سورة نزلت على رسول الله ناسخة غير منسوخة  
 ولا معنى لنسخ السابق اللاحق .

**قوله تعالى:** ولأمة مؤمنة خيرٌ من مشركة ولو أعجبتكم اه، الظاهر أن المراد بالأمة المؤمنة المملوكة التي تقابل الحرّة وقد كان الناس يستذلّون الإماء ويعتبرون من تزوّج بهنّ، فتقييد الأمة بكونها مؤمنة، وإطلاق المشركة مع ما كان عليه الناس من استحقاد أمر الإماء واستذلالهنّ، والتحرّز عن التزوّج بهنّ يدلّ على أن المراد أن المؤمنة وإن كانت أمة خيرٌ من المشركة وإن كانت حرّة ذات حسب ونسب ومال بما يعجب الإنسان بحسب العادة .

وقيل: إن المراد بالأمة كالعبد في الجملة التالية أمة الله وعيده . وهو بعيدٌ .

**قوله تعالى:** ولا تنكحوا المشركين حتّى يؤمنوا ولعبدٌ مؤمنٌ إلخ الكلام فيه كالکلام في الجملة السابقة .

**قوله تعالى:** أو آمّنك يدعون إلى النار والله يدعو إلى المغفرة والجنة باذنه اه إشارة إلى حكمة الحكم بالتحريم، وهو أن المشركين لا اعتقادهم بالباطل، وسلوكهم سبيل الضلال رسخت فيهم الملكات الرذيلة المزيّنة للكفر والفُسوق، والمُعمية عن إِبصار طريق الحقّ والحقيقة، فأثبتت في قولهم وفي فعلهم الدعوة إلى الشرك، والدلالة إلى البوار، والسلوك بالأخرة إلى النار فهم يدعون إلى النار، والمؤمنون - بخلافهم - بسلوكهم سبيل الإيمان، وتلبّسهم بلباس التقوى يدعون بقولهم وفعلهم إلى الجنة والمغفرة باذن الله حيث أدن في دعوتهم إلى الإيمان، واهتدائهم إلى الفوز والصلاح المؤدّي إلى الجنة والمغفرة .

وكان حقّ الكلام أن يقال: وهؤلاء يدعون إلى الجنة إلخ ففيه استخلاف عن المؤمنين ودلالة على أن المؤمنين في دعوتهم بل في مطلق شئوهم الوجودية إلى ربّهم، لا يستقلّون في شئ، من الأمور دون ربّهم تبارك وتعالى وهو وليّهم كما قال سبحانه: « والله وليّ المؤمنين » آل عمران - ٦٨ .

وفي الآية وجه آخر: وهو أن يكون المراد بالدعوة إلى الجنة والمغفرة هو الحكم المشرّع في صدر الآية بقوله تعالى: ولا تنكحوا المشركات حتّى يؤمن إلخ فإن جعل الحكم لغرض ردع المؤمنين عن الاختلاط في العشرة مع من لا يزيد القرب منه والأنس به

إلا البعد من الله سبحانه ، وحثهم بمخالطة من في مخالطته التقرب من الله سبحانه وذكر آياته ومراقبة أمره ونهيه دعوة من الله إلى الجنة . ويؤيد هذا الوجه تذييل هذه الجملة بقوله تعالى : ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون . ويمكن أن يراد بالدعوة الأعم من الوجهين ، ولا يخلو حينئذ السياق عن لطف فافهم .

### ﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع في الآية : نزلت في مرند بن أبي مرند الغنوي بعثه رسول الله إلى مكة ليخرج منها ناساً من المسلمين ، وكان قوياً شجاعاً ، فدعته امرأة يقال لها : غناق إلى نفسها فأبى وكانت بينهما مخلة في الجاهلية ، فقالت : هل لك أن تتزوج بي ؟ فقال : حتى أستاذن رسول الله ﷺ ، فلما رجع أستاذن في التزوج بها .

أقول : وروى هذا المعنى السيوطي في الدر المنثور عن ابن عباس .

وفي الدر المنثور : أخرج الواحدي من طريق السدي عن أبي مالك عن ابن عباس في هذه الآية : ولأمة مؤمنة خير من مشركة ، قال : نزلت في عبد الله ابن رواحة وكانت له أمة سوداء وإنه غضب عليها فلطمها ثم إنه فزع فأتى النبي ﷺ فأخبره خبرها ، فقال له النبي ﷺ : ما هي يا عبد الله ؟ قال : تصوم وتصلي وتحسن الوضوء وتشهد أن لا إله إلا الله وأنتك رسوله فقال يا عبد الله . هذه مؤمنة فقال عبد الله : فوالسدي بعثك بالحق لا أعتقها ولا تزوجها ، ففعل فطعن عليه ناس من المسلمين وقالوا : نكح أمة ، وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين وينكحوهم رغبة في أحسابهم فأنزل الله فيهم : ولأمة مؤمنة خير من مشركة . وفيه أيضاً عن مقاتل في الآية ولأمة مؤمنة ، قال : بلغنا أنها كانت أمة لحذيفة فأعتقها وتزوجها حذيفة .

أقول : لاتنا في بين هذه الروايات الواردة في أسباب النزول لجواز وقوع عدة حوادث تنزل بعدها آية تشتمل على حكم جميعها . وهنا روايات متعارضة مروية في كون قوله تعالى : ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمنن الآية ناسخاً لقوله تعالى : والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم أرومنسوخاً به ، سيمر بك في تفسير الآية من سورة المائدة .



وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ (٢٢٢) نِسَائِكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ شَتْمٌ وَقَدْ مَوَا لِنَفْسِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ مَلَاقُوهُ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ (٢٢٣) .

### ﴿بيانات﴾

قوله تعالى: وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى، المَحِيضُ مصدر كالمَحِيضُ، يقال: حاضت المرأة تحيض حيضاً ومحيضاً إذا نزلت طبيعتها الدم المعروف ذالصفات المعهودة المختصة بالنساء، ولذلك يقال: هي حائض كما يقال: هي حامل .

والأذى هو الضرر على ما قيل، لكنّه لا يخلو عن نظر، فإنّه لو كان هو الضرر بعينه لصحّ مقابلته مع النفع كما أنّ الضرر مقابل النفع وليس بصحيح، يقال: دواء مضرّ وضارّ، ولوقيل دواء موزّ أفاد معنى آخر، وأيضاً قال تعالى: «لن يضرّوكم إلا أذى»، آل عمران - ١١١، ولوقيل لن يضرّوكم إلا ضرراً فساد الكلام؛ وأيضاً كونه بمعنى الضرر غير ظاهر في أمثال قوله تعالى: «إنّ الذين يؤذون الله ورسوله، الأحزاب - ٥٧» وقوله تعالى: «لَمْ تَوْذُونِي وَقَدْ تَعْلَمُونَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ» الصف - ٥. فالظاهر أنّ الأذى هو الطاري على الشيء الغير الملائم لطبعه فينطبق عليه معنى الضرر بوجه .

وتسمية المَحِيضِ أذى على هذا المعنى لكون هذا الدم المستند إلى عادة النساء حاصلًا من عمل خاصّ من طبيعها يؤثّر به في مزاج الدم الطبيعيّ السّذي يحصله جهاز التغذية فيفسد مقداراً منه عن الحال الطبيعيّ وينزله إلى الرحم لتطهيره أو لتغذية الجنين أو لتهيئة اللبن للإرضاع. وأمّا على قولهم: إنّ الأذى هو الضرر فقد قيل: إنّ المراد بالمَحِيضِ إتيان النساء في حال الحيض، والمعنى: يسألونك عن إتيانهنّ في هذه الحال فأجيب بأنّه ضرر وهو كذلك فقد ذكر الأطباء أنّ الطبيعة مشغولة في حال الطمث بتطهير الرحم و

إعدادة للحمل ، والوقاع يختل به نظام هذا العمل فيضر بنتائج هذا العمل الطبيعي من - الحمل وغيره .

قوله تعالى : فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن اه ، الاعتزال هو أخذ العزلة والتجنب عن المخالطة والمعاشرة . يقال : عزلت نصيبه إذا ميزته ووضعت في جانب بالتفريق بينه وبين سائر الأنصاء . والقرب مقابل البعد يتعدى بنفسه وبمن . والمراد بالاعتزال ترك الإتيان من محل الدم على ماسنين .

وقد كان للناس في أمر المحيض مذاهب شتى : فكانت اليهود تشدد في أمره ، ويفارق النساء في المحيض في المأكول والمشرب والمجلس والمضجع . وفي التوراة أحكام شديدة في أمرهن في المحيض ، وأمر من قرب منهن في المجلس والمضجع والمسل وغير ذلك . وأما النصارى فلم يكن عندهم ما يمنع الاجتماع بهن أو الاقتراب منهن بوجه . وأما المشركون من العرب فلم يكن عندهم شيء من ذلك غير أن العرب القاطنين بالمدينة وحواليها سرى فيهم بعض آداب اليهود في أمر المحيض والتشديد في أمر معاشرتهن في هذا الحال . وغيرهم ربما كانوا يستحبون إتيان النساء في المحيض ويعتقدون أن الولد المارزوق حينئذ يصير سقماً أو أعرجاً أو عاقراً في سفك الدماء ، وذلك من الصفات المستحسنة عند العشائر من البدويين .

وكيف كان فقوله تعالى : فاعتزلوا النساء في المحيض اه وإن كان ظاهره الأمر بمطلق الاعتزال على ما قالت به اليهود ، ويؤكد قوله تعالى ثانياً . ولا تقربوهن اه إلا أن قوله تعالى أخيراً فأتوهن من حيث أمركم الله اه - ومن المعلوم أنه محل الدم - قرينة على أن قوله : فاعتزلوا ولا تقربوا واقعان موقع الكناية لا التصريح . والمراد به الإتيان من محل الدم فقط لا مطلق المخالطة والمعاشرة ولا مطلق التمتع والاستلذاذ .

فلا سلام فد أخذ في أمر المحيض طريقاً وسطاً بين التشديد التام الذي عليه اليهود والإهمال المطلق الذي عليه النصارى ، وهو المنع عن إتيان محل الدم والإذن فيما دونه ، وفي قوله تعالى : في المحيض اه وضع الظاهر موضع المضمرة وكان الظاهر أن يقال : فاعتزلوا النساء فيه والوجه فيه أن المحيض الأول أريد به المعنى المصدري والثاني زمان الحيض

فالثاني غير الأول ، ولا يفيد معناه تبديله بالضمير الراجع إلى غير معناه .  
**قوله تعالى :** حتى يطهرن في ذاتنهم . هن فأتوهن من حيث أمركم الله ، الطهارة  
 - وتطابها النجاسة - من المعاني الدائرة في ملة الإسلام ذات أحكام وخواص مجعولة فيها  
 تشمل على شطر عظيم من المسائل الدينية ، وقد صار اللفظان بكثرة الاستعمال من  
 الشرعية أو المتشرعة على ما اصطلاح عليه في فن الأصول .

وأصل الطهارة بحسب المعنى مما يعرفه الناس على اختلاف ألسنتهم ولغاتهم .  
 ومن هنا يعلم أنها من المعاني التي يعرفها الإنسان في خلال حياته من غير اختصاص  
 بقوم دون قوم أو عصر دون عصر .

فإن أساس الحياة مبني على التصرف في الماديات والبلوغ بها إلى مقاصد الحياة  
 والاستفادة منها لمآرب العيش فلا إنسان يقصد كلشيء بالطبع لما فيه من الفائدة والخاصية  
 والجدوى ، ويرغب فيه لذلك . وأوسع هذه الفوائد الفوائد المربوطة بالتغذي  
 والتوليد .

وربما عرض المشيء عارض يوجب تغييره عما كان عليه من الصفات الموجبة لرغبة  
 الطبع فيه ، وعمدة ذلك الطعام والرائحة واللون ، فأوجب ذلك تنفّر الطبع  
 وانسلاخ رغبته عنه ، وهذا هو المسمى بالنجاسة وبها يستقذر الإنسان الشيء فيجتنبه ،  
 وما يقابله وهو كون الشيء على حاله الأولي من الفائدة والجدوى الذي به يرغب  
 فيه الطبع هو الطهارة ، فالطهارة والنجاسة صفان وجوديان في الأشياء من حيث  
 وجدانها صفة توجب الرغبة فيها ، أو صفة توجب كراهتها واستقذارها .

وقد كان أول ما تنبّه الإنسان بهذين المعنيين انتقل بهما في المحسوسات ثم أخذ  
 في تعميمها للأموار المعقولة الغير المحسوسة لوجود أصل معنى الرغبة والنفرة فيها  
 كالأنساق والأفعال والأخلاق والعقائد والأقوال .

هذا ملخص القول في معنى الطهارة والنجاسة عند الناس . وأما النظافة والنزاهة  
 والقدس والسبحان فألفاظ قريبة المعنى من الطهارة غير أن النظافة هي الطهارة العائدة  
 إلى الشيء بعد قذارة سابقة ويختص استعمالها بالمحسوسات . والنزاهة أصلها البعد ،

وأصل إطلاقها على الطهارة من باب الاستعارة. والقدس والسبحان يختصان بالمعقولات والمعنويات. وأما القذارة والرجس فلفظان قريباً المعنى من النجاسة، لكن الأصل في القذارة معنى البعد. يقال: ناقة قذورت ترك ناحية من الإبل وتستبعد، ويقال: رجل قاذورة لا يخال الناس لسوء خلقه ولا ينازلهم، ورجل مقذر بالفتح يجتنبه الناس، ويقال: قذرت الشيء بالكسر وتقذرت واستقذرت إذا كرهته. وعلى هذا يكون أصل استعمال القذارة بمعنى النجاسة من باب الاستعارة لاستلزام نجاسة الشيء تبعد الإنسان عنه. وكذلك الرجس والرجز بكسر الراء، وكأن الأصل في معناه الهول والوحشة فدلالته على النجاسة استعارية.

وقد اعتبر الإسلام معنى الطهارة والنجاسة، وعممهما في المحسوس والمعقول، وطردهما في المعارف الكلية، وفي القوانين الموضوعية. قال تعالى: «ولا تقرّبوهن حتّى يطرهن الآية»، وهو النقاء من الحيض وانقطاع الدّم وقال تعالى: «و ثيابك فطهر» المدثر - ٤ وقال تعالى: ولكن يريد ليطهركم المائدة - ٧ وقال تعالى: «أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم» المائدة - ٤٤ وقال تعالى: «لا يمسّه إلا المطهرون» الواقعة - ٧٩.

وقد عدت الشريعة الإسلامية عدّة أشياء نجسة كالدم والبول والغائط والمني من الإنسان وبعض الحيوان والميتة والخنزير أعياناً نجسة، وحكم بوجود الاجتناب عنها في الصلوة وفي الأكل وفي الشرب. وقد عدّ من الطهارة أموراً كالطهارة الغبائية المزيلة للنجاسة الحاصلة بملاقات الأعيان النجسة، والطهارة الحديثة المزيلة للمحدث الحاصلة بالوضوء والغسل على الطرق المقررة شرعاً المشروحة في كتب الفقه.

وقد مرّ بيان أن الإسلام دين التوحيد فهو يرجع الفروع إلى أصل واحد هو التوحيد، وينشر الأصل الواحد في فروعه.

ومن هنا يظهر: أن أصل التوحيد هي الطهارة الكبرى عند الله سبحانه، وبعد هذه الطهارة بقية المعارف الكلية طهارات للإنسان، وبعد ذلك أصول الأخلاق الفاضلة، وبعد ذلك الأحكام الموضوعية لصالح الدنيا والآخرة. وعلى هذا الأصل تنطبق الآيات السابقة

المذكورة آنفاً كقوله تعالى : « يريد ليطهركم » المائدة - ٧ وقوله تعالى : « ويطهركم تطهيراً » الأحزاب - ٣٣ إلى غير ذلك من الآيات الواردة في معنى الطهارة .

ولنرجع إلى ما كتبنا فيه فقوله تعالى : حتى يطهرن اه أى ينقطع عنهن الدم ، وهو الطهر بعد الحيض وقوله تعالى : فإذا تطهرن اه أى يغسلن محل الدم أو يغتسلن ، قوله تعالى : فأتوهن من حيث أمركم الله اه أمر يفيد الجواز لوقوعه بعد الحظر ، وهو كناية عن الأمر بالجماع على ما يليق بالقرآن الشريف من الأدب الإلهي البارع . وتقييد الأمر بالإتيان بقوله أمركم الله اه لتتميم هذا التأديب فإن الجماع مما يعد بحسب بادي النظر لغواً ولهو أفتقده بكونه مما أمر الله به أمراً تكوينياً للدلالة على أنه مما يتم به نظام النوع الإنساني في حياته وبقائه فلا ينبغي عده من اللغو واللغو بل هو من أصول النواميس التكوينية .

وهذه الآية أعز . قوله تعالى : فأتوهن من حيث أمركم الله اه تماثل قوله تعالى : « فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم » البقرة - ١٨٧ وقوله تعالى : « فأتوا حرنكم أنثى شتمتم وقد موأ لأنفسكم » البقرة - ٢٢٣ من حيث السياق . فالظاهر أن المراد بالأمر بالإتيان في الآية هو الأمر التكويني المدلول عليه بتجهيز الإنسان بالأعضاء والقوى الهادية إلى التوليد ، كما أن المراد بالكتابة في قوله تعالى : وابتغوا ما كتب الله لكم أيضاً ذلك ، وهو ظاهر . ويمكن أن يكون المراد بالأمر هو الإيجاب الكفائي المتعلق بالازدواج والتناكح نظير سائر الواجبات الكفائية التي لا تتم حياة النوع إلا به لكنه بعيد .

وقد استدلل بعض المفسرين بهذه الآية على حرمة إتيان النساء من أدبارهن ، وهو من أوهن الاستدلال وأرديه ، فإنه مبني : إما على الاستدلال بمفهوم قوله تعالى : فأتوهن وهو من مفهوم اللقب المقطوع عدم حجتيته ، وإما على الاستدلال بدلالة الأمر على النهي عن الضد الخاص وهو مقطوع الضعف .

على أن الاستدلال لو كان بالأمر في قوله تعالى : فأتوهن فهو واقع عقيب الحظر

لا يدلّ على الوجوب ، و لو كان بالأمر في قوله تعالى : من حيث أمركم الله اه فهو إن كان أمراً تكوينياً كان خارجاً عن الدلالة اللفظية ، وإن كان أمراً تشريعياً كان للإيجاب الكفائي . والدلالة على النهي عن الضدّ على تقدير التسليم إنّما هي للأمر الإيجابي العيني المولوي .

**قوله تعالى :** **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** اه ، التوبة هي الرجوع إلى الله سبحانه والتطهر هو الأخذ بالطهارة وقبولها فهو انقلاع عن القذارة ورجوع إلى أصل السدي هو الطهارة فالمعنيان يتصادقان في مورد أو امر الله سبحانه ونواهيه ، و خاصة في مورد الطهارة والنجاسة فلا يتمار بأمر من أو امره تعالى والانتفاء عن كل ما نهى عنه تطهر عن قذارة المخالفة والمفسدة ، وتوبة ورجوع إليه عزّ شأنه ، ولمكان هذه المناسبة عللّ تعالى ما ذكره من الحكم بقوله : **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** اه فإنّ من اللازم أن ينطبق ما ذكره من العلة على كل ما ذكره من الحكم ، أعني قوله تعالى : فاعتزلوا النساء في المحيض وقوله : فأتوهنّ من حيث أمركم الله . والآية أعني قوله : **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** اه مطلقة غير مقيدة فتشمل جميع مراتب التوبة والطهارة كما مرّ بيانه ، ولا يبعد استفادة المبالغة من قوله تعالى : **الْمُتَطَهِّرِينَ** اه كما جيء بصيغة المبالغة في قوله : **التَّوَّابِينَ** اه فينتج استفادة الكثرة في التوبة والطهارة من حيث النوع ومن حيث العدد جميعاً ، أعني : **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ** جميع أنواع التوبة سواء كانت بالاستغفار أو بامتنال كل أمر ونهي من تكاليفه أو باتخاذ كل اعتقاد من الاعتقادات الحقّة ، وحبّ جميع أنواع التطهر سواء كان بالاغتسال والوضوء والغسل أو التطهر بالأعمال الصالحة أو العلوم الحقّة ، وحبّ تكرار التوبة وتكرار التطهر .

**قوله تعالى :** **نَسَائِكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْتُمْ شَتْمُ اه ،** الحرت مصدر بمعنى الزراعة ويطلق كالزراعة على الأرض التي يعمل فيها الحرت والزراعة ، وأنّى من أسماء الشرط يستعمل في الزمان كمتى ، وربما استعمل في المكان أيضاً . قال تعالى : **« يَا مَرْيَمُ أَنْتِ لَكَ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِزِّ اللَّهِ »** آل عمران - ٣٧ فإن كان بمعنى المكان كان المعنى من أي محلّ شتّم ، وإن كان بمعنى الزمان كان المعنى في أيّ زمان شتّم ،

وكيف كان يفيد الإطلاق بحسب معناه وخاصة من حيث تقييده بقوله : شئتم . وهذا هو الذي يمنع الأمر أعني قوله تعالى : فأتوا حرثكم أه أن يدل على الوجوب إذ لا معنى لإيجاب فعل مع إرجاعه إلى اختيار المكلف ومشيئته .

ثم إن تقديم قوله تعالى : نساءكم حرث لكم أه على هذا الحكم وكذا التعبير عن النساء ثانياً بالحرث لا يخلو عن الدلالة على أن المراد التوسعة في إتيان النساء من حيث المكان أو الزمان الذي يقصدن منه دون المكان الذي يقصد منهن ، فإن كان الإطلاق من حيث المكان فلا تعرض للآية بالإطلاق الزماني ولا تعارض له مع قوله تعالى في الآية السابقة : فاعزوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن الآية ، وإن كان من حيث الزمان فهو مقيد بآية المحيض ، والدليل عليه اشتغال آية المحيض على ما يأتى معه عن أن ينسخه آية الحرث ، وهو دلالة آية المحيض على أن المحيض أذى وأنه السبب لتشريع حرمة إتيانهن في المحيض والمحيض أذى دائماً ، ودالتها أيضاً على أن تحرير الإتيان في المحيض نوع تطهير من القذارة والله سبحانه يحب التطهر دائماً ، ويمتن على عباده بتطهيرهم كما قال تعالى : « لا يريد الله بكم العسر ولكن يريد ليظهركم ويتم نعمته عليكم » المائدة - ٧ . ومن المعلوم أن هذا اللسان لا يقبل التقييد بمثل قوله تعالى : نساءكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم أه المشتمل أو لا على التوسعة ، وهو سبب كان موجوداً مع سبب التحريم وعند تشريعه ولم يؤثر شيئاً فلا يتصور تأثيره بعد استقرار التشريع ، وثانياً على مثل التذييل الذي هو قوله تعالى : وقد موالأ أنفسكم واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشر المؤمن أه . ومن هذا البيان يظهر : أن آية الحرث لا تصلح لنسخ آية المحيض سواء تقدمت عليها نزولاً أو تأخرت .

فمحصل معنى الآية : أن نسبة النساء إلى المجتمع الإنساني نسبة الحرث إلى الإنسان فكما أن الحرث يحتاج إليه لبقاء البذور وتحصيل ما يتغذى به من الزاد لحفظ الحياة وإبقائها كذلك النساء يحتاج إليهن النوع في بقاء النسل ودوام النوع لأن الله سبحانه جعل تكون الإنسان وتصور مادته بصورته في طباع أرحامهن ، ثم جعل طبيعة الرجال وفيهم بعض المادة الأصلية ماملة منعطفة إليهن ، وجعل بين الفريقين مودة ورحمة ،

وإذا كان كذلك كان الغرض التكويني من هذا الجعل هو تقديم الوسيلة لبقاء النوع فلا معنى لتقييد هذا العمل بوقت دون وقت، أو محل دون محل إذا كان مما يؤدي إلى ذلك الغرض ولم يزاحم أمراً آخر واجباً في نفسه لا يجوز إهماله . وبما ذكرنا يظهر معنى قوله تعالى وقدّموا لأنفسكم اه .

ومن غريب التفسير الاستدلال بقوله تعالى : نسائكم حرث لكم الآية على جواز العزل عند الجماع والآية غير ناظرة إلى هذا النوع من الإطلاق ونظيره تفسير قوله تعالى وقدّموا لأنفسكم اه بالتسمية قبل الجماع .

**قوله تعالى :** وقدّموا لأنفسكم واتّقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه وبشّر المؤمنين اه، قد ظهر: أن المراد من قوله : قدّموا لأنفسكم و خطاب الرجال أو مجموع الرجال والنساء بذلك الحث على إبقاء النوع بالتناكح والتناسل ، والله سبحانه لا يريد من نوع الإنسان وبقائه إلا حياة دينه وظهور توحيده وعبادته بتقويهم العام . قال تعالى : « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » الذاريات - ٥٦ . فلو أمرهم بشيء مما يرتبط بحيويتهم وبقائهم فإنما يريد توصّلهم بذلك إلى عبادة ربهم لا إخلادهم إلى الأرض وانهماكهم في شهوات البطن والفرج ، وتيهيمهم في أودية الغي والغفلة .

فالمراد بقوله : قدّموا لأنفسكم وإن كان هو الاستيلاء وتقديم أفراد جديدي الوجود والتكوين إلى المجتمع الإنساني الذي لا يزال يفقد أفراداً بالموت والفناء، وينقص عدده بمرور الدهر لكن لا مطلوبيّتهم في نفسه بل للتوصّل به إلى إبقاء ذكر الله سبحانه ببقاء النسل و حدوث أفراد صالحين ذوي أعمال صالحة تعود مشوباتها وخيراتها إلى أنفسهم وإلى صالحي آباءهم المتسببين إليهم كما قال تعالى : « ونكتب ما قدّموا وأنّادهم » يس - ١٢ .

وبهذا الذي ذكرنا يتأيّد : أن المراد بتقديمهم لأنفسهم تقديم العمل الصالح ليوم القيامة كما قال تعالى : « يوم ينظر المرء ما قدّم ت يده » النبأ - ٤١ وقال تعالى أيضاً : « وما تقدّموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً » المزمل - ٢٠ . فقوله تعالى : وقدّموا لأنفسكم واتّقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه إلخ مماثل السياق

لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد واتقوا الله إن الله خير بما تعملون » الحشر - ١٨ . فالمراد ( والله أعلم ) بقوله تعالى : وقد موأ أنفسكم تقديم العمل الصالح ، ومنه تقديم الأ ولاد بر جاء صلاحهم للمجتمع ، وبقوله تعالى : واتقوا الله اه التقوى بالأعمال الصالحة في إتيان الحرث وعدم التعدي عن حدود الله والتفريط في جنب الله وانتهاك محارم الله ، وبقوله تعالى : واعلموا أنكم ملاقوه إلخ الأمر بتقوى الله بمعنى الخوف من يوم اللقاء وسوء الحساب كما أن المراد بقوله تعالى في آية الحشر واتقوا الله إن الله خير بما تعلمون الآية التقوى بمعنى الخوف ، وإطلاق الأمر بالعلم وإرادة لازمه وهو المراقبة والتحفظ والأتقاء شايع في الكلام . قال تعالى : « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » الأنفال - ٢٤ . أي اتقوا حيلولته بينكم وبين قلوبكم وطمًا كان العمل الصالح وخوف يوم الحساب من اللوازم الخاصة بالإيمان ذيل تعالى كلامه بقوله : وبشر المؤمنين اه كما صدر آية الحشر بقوله : يا أيها الذين آمنوا اه .

### ﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور: أخرج أحمد وعبد بن حميد والدارمي ومسلم وأبوداود والترمذي والنسائي وابن ماجة وأبو يعلى وابن المنذر وأبو حاتم والنحاس في ناسخه وأبو حيان والبيهقي في سننه عن أنس : أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة منهم أخرجوها من البيت و لم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها في البيوت ، فسئل رسول الله ﷺ عن ذلك فأ نزل الله : ويسئلونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض الآية فقال رسول الله ﷺ : جامعوهن في البيوت واصنعوا كل شيء إلا النكاح ، فبلغ ذلك اليهود فقالوا ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه ، فجاء أسيد بن خضير وعباد بن بشر فقالا : يا رسول الله إن اليهود قالت : كذا وكذا أفلا نجتمعن ؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننّا أن قد وجد عليهما ، فخرجا ، فاستقبلهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ فأرسل في أثرهما فسقاهما فعرفا أنه لم يجد عليهما .

وفي الدر المنثور عن السدي في قوله : ويسئلونك عن المحيض ، قال : السدي سئل عن ذلك ثابت بن الدحداح .

**أقول :** وروي مثله عن مقاتل أيضاً .

وفي التهذيب عن الصادق عليه السلام في حديث في قوله تعالى : فأتوهنَّ من حيث أمركم الله الآية ، قال عليه السلام : هذا في طلب الولد فاطلبوا الولد من حيث أمركم الله .

وفي الكافي : سئل عن الصادق عليه السلام : مالصاحب المرممة الحائض منها ؟ فقال عليه السلام : كلشيئاً ما عدا القتل بعينه .

وفيه أيضاً عنه عليه السلام : في المرممة ينقطع عنها دم الحيض في آخر أيامها ، قال عليه السلام : إذا أصاب زوجها شبق فليأمر فلتنغسل فرجها ثم يمسحها إن شاء ، قبل أن تغتسل . وفي رواية : والغسل أحب إليّ .

**أقول :** والروايات في هذه المعاني كثيرة جداً وهي تؤيد قراءة يطهرون بالتخفيف وهو انقطاع الله كما قيل : إن الفرق بين يطهرون و يتطهرون أن الثاني قبول الطهارة ، ففيه معنى الاختيار فيناسب الاعتسال ، بخلاف الأول فإنه حصول الطهارة فليس فيه معنى الاختيار فيناسب الطهارة بانقطاع الدم . والمراد بالتطهر إن كان هو الغسل بفتح الغين أفاد استحباب ذلك ، وإن كان هو الغسل بضم الغين أفاد استحباب الإتيان بعد الغسل كما أفاده عليه السلام بقوله : والغسل أحب إليّ اه ، لاحرمة الإتيان قبله أعني فيما بين الطهارة والتطهر لمنافاته كون يطهرون غاية مضروبة للنهي ، فافهم ذلك .

وفي الكافي أيضاً عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ، قال : كان الناس يستنجون بالكرسف والأحجار ثم أحدث الوضوء وهو خلق كريم فأمر به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وصنعه فأنزل الله في كتابه : إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين .

**أقول :** والأخبار في هذا المعنى كثيرة ، وفي بعضها : أن أول من استنجى بالماء براء بن عازب فنزلت الآية وجرت به السنة .

وفيه عن سلام بن المستنير ، قال : كنت عند أبي جعفر عليه السلام فدخل عليه حمران بن أعين وسأله عن أشياء ، فلمّا هم حمران بالقيام قال لأبي جعفر عليه السلام : أخبرك - أطال الله بقاءك وأمتعنا بك - : إننا نأتيك فما نخرج من عندك حتّى يرقّ قلوبنا وتسلموا أنفسنا عن

الدنيا وهون علينا ما في أيدي الناس من هذه الأموال ، ثم نخرج من عندك فإذا صرنا مع الناس والتجار أحببنا الدنيا . قال : فقال أبو جعفر عليه السلام : إنما هي القلوب ، مرة تصعب ومرة تسهل ثم قال أبو جعفر عليه السلام : أما إن أصحاب نكد قالوا : يا رسول الله تخاف علينا من النفاق ؟ قال : فقال ﷺ : ولم تخافون ذلك ؟ قالوا : إذا كنّا عندك فذگرتنا ورغببتنا وجلنا ونسينا الدنيا وزهدنا حتى كنّا نعين الآخرة والجنة والنار ونحن عندك . فإذا خرجنا من عندك ودخلنا هذه البيوت وشممنا الأولاد ورأينا العيال والأهل يكاد أن تحول عن الحالة التي كنّا عليها عندك ، وحتىّا كأنّنا لم نكن على شيء ، أفترأف علينا أن يكون ذلك نفاقاً ؟ فقال لهم رسول الله ﷺ : كلا إن هذه خطوات الشيطان فيرغبكم في الدنيا ، والله لو تدومون على الحالة التي وصفتم أنفسكم بها لصافحتكم الملائكة ، ومشيتم على الماء ، ولولا أنّكم تذبنون فتستغفرون الله تعالى لخلق خلقاً حتى يذبّوا فيستغفروا والله تعالى فيغفر لهم ، إنّ المؤمن مفتنٌ توابٌ ، أما سمعت قول الله عزّ وجلّ : إنّ الله يحبّ التوابين ويحبّ المتطهرين ، وقال تعالى : استغفروا ربكم ثم توبوا إليه .

**أقول :** وروى مثله العياشي في تفسيره ، قوله ﷺ : لو تدومون على الحالة إشارة إلى مقام الولاية وهو الانصراف عن الدنيا والإشراف إلى ما عند الله سبحانه ، وقد مرّ شرط من الكلام فيها في البحث عن قوله تعالى : «الذين إذا أصابتهم مصيبة» البقرة - ١٥٦ .

وقوله ﷺ : لولا أنّكم تذبنون إلخ إشارة إلى سرّ القدر ، وهو انسحاب حكم أسمائه تعالى إلى مرتبة الأفعال وجزئيات الحوادث بحسب ما لمفاهيم الأسماء من الاقتضاءات . وسيجيء الكلام فيه في ذيل قوله تعالى : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » الحجر - ٢١ و سائر آيات القدر . وقوله : أما سمعت قول الله عزّ وجلّ : إنّ الله يحبّ التوابين إلخ من كلام أبي جعفر عليه السلام ، والخطاب لحمران . وفيه تفسير التوبة والتطهر بالرجوع إلى الله تعالى من المعاصي وإزالة قذارات الذنوب عن النفس ، ودينها عن القلب ، وهذا من استفادة مراتب الحكم من حكم بعض المراتب ،

نظير ما ورد في قوله تعالى : « لا يمسسه إلا المطهرون » الواقعة - ٧٩ من الاستدلال به على أن علم الكتاب عند المطهرين من أهل البيت ، والاستدلال على حرمة مس كتابة القرآن على غير طهارة .

وكما أن الخلقة تنزل آخذة من الخزائن التي عند الله تعالى حتى ينتهي إلى آخر عالم المقادير على ما قال تعالى : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » الحجر - ٢١ كذلك أحكام المقادير لا تنزل إلا بالمرور من منازل الحقائق فافهم ذلك . وسيجيء له زيادة توضيح في البحث عن قوله تعالى : « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات الآية » آل عمران - ٧ .

ومن هنا يستأنس ما مرّت إليه الإشارة : أن المراد بالتوبة والتطهر في الآية على ظاهر التنزيل هو الغسل بالماء فهو إرجاع البدن إلى الله سبحانه بإزالة القذرعنه . ويظهر أيضاً : معنى ما تقدم نقله عن تفسير القمّي من قوله ﷺ : أنزل الله على إبراهيم عليه السلام الحنيفة ، وهي الطهارة ، وهي عشرة أشياء : خمسة في الرأس وخمسة في البدن . فأما التي في الرأس : فأخذ الشارب ، وإعفاء اللحي ، وطم الشعر ، والسواك ، والخلال . وأما التي في البدن : فأخذ الشعر من البدن ، والختان ، وقلم الأظفار ، والغسل من الجنابة والظهور بالماء ، وهي الحنيفة الطاهرة التي جاء بها إبراهيم فلم تنسخ ولا تنسخ إلى يوم القيامة الحديث . والأخبار في كون هذه الأمور من الطهارة كثيرة ، وفيها : أن النورة طهور .

وفي تفسير العياشي في قوله تعالى : نسألكم حرث لكم الآية عن معمر بن خلاد عن أبي الحسن الرضا عليه السلام أنه قال : أي شيء تقولون في إتيان النساء في أعجازهن ؟ قلت بلغني أن أهل المدينة لا يرون به بأساً . قال عليه السلام : إن اليهود كانت تقول إذا أتى الرجل من خلفها خرج ولده أحول فأنزل الله : نسألكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ، يعني من خلف أو قدام ، خلافاً لقول اليهود في أدبارهن .

وفيه عن الصادق عليه السلام في الآية فقال عليه السلام : من قدامها ومن خلفها في القبل .

وفيه عن أبي بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال : سألته عن الرجل يأتي أهله في

دبرها فكره ذلك وقال : وإيّاكم ومحاش النساء ، وقال : إنّما معنى نسائكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنسى شتم اه أى ساعة شتم .

وفيه عن الفتح بن يزيد الجرجاني قال : كتبت إلى الرضا عليه السلام في مثله ، فورد الجواب سألت ممن أتى جارية في دبرها والمرأة لعبة لا تؤذي وهي حرث كما قال الله . أقول : والروايات في هذه المعاني عن أئمة أهل البيت كثيرة ، مروية في الكافي والتهذيب وتفسير العياشي والقمي ، وهي تدل جميعاً : أن الآية لا تدل على أزيد من الإتيان من قدامهن . وعلى ذلك يمكن أن يحمل قول الصادق عليه السلام في رواية العياشي عن عبد الله بن أبي يعفور ، قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن إتيان النساء في أعجازهن قال : لا بأس ثم تلا هذه الآية : نسائكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنسى شتم .

أقول : الظاهر أن المراد بالإتيان في أعجازهن هو الإتيان من الخلف في الفرج ، والاستدلال بالآية على ذلك كما يشهد به خبر معمر بن خلاد المتقدم . وفي الدر المنثور : أخرج ابن عساكر عن جابر بن عبد الله ، قال : كانت الأنصار تأتي نسائها مضاجعة ، وكانت قريش تشرح شرحاً كثيراً فتزوّج رجل من قريش امرأة من الأنصار فأراد أن يأتيها فقالت : لا إلا كما يفغل فأخبر بذلك رسول الله ﷺ فأُنزل : « فأتوا حرثكم أنسى شتم » ، أى : قائماً وقاعداً ومضطجعاً بعد أن يكون في صمام واحد .

أقول : وقد روي في هذا المعنى بعدة طرق عن الصحابة في سبب نزول الآية . وقد مرّت الرواية فيه عن الرضا عليه السلام .

وقوله : في صمام واحد أي في مسلك واحد ، كناية عن كون الإتيان في الفرج فقط ، فإن الروايات متكاثرة من طرقهم في حرمة الإتيان من أدبار النساء ، وروها بطرق كثيرة عن عدة من الصحابة عن النبي ﷺ ، وقول أئمة أهل البيت وإن كان هو الجواز على كراهة شديدة على ما روته أصحابنا بطرقهم الموصولة إليهم عليهم السلام إلا أنهم عليهم السلام لم يتمسكوا فيه بقوله تعالى : نسائكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنسى شتم الآية كما مرّ بيانه بل استدلوا عليه بقوله تعالى حكاية عن لوط :

قال: «إِنَّ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ» الحجر - ٧١ حيث عرض ﷺ عليهم بناته وهو يعلم أَنَّهُمْ لا يريدون الفروج ولم ينسخ الحكم بشيء من القرآن .  
والحكم مع ذلك غير متفق عليه فيما رواه من الصحابة ، فقد روي عن عبدالله بن عمر ومالك بن أنس وأبي سعيد الخدري وغيرهم: أَنَّهُمْ كانوا لا يرون به بأساً وكانوا يستدلون على جوازه بقوله تعالى : نسائكم حرث لكم الآية حتى أن الملقول عن ابن عمر أن الآية إنما نزلت لبيان جوازه .

ففي الدر المنثور عن الدارقطني في غرائب مالك مسنداً عن نافع قال : قال لي ابن عمر : أمسك على المصحف يا نافع ! فقرأ حتى أتى على : نسائكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ؛ قال لي : تدري يا نافع فيمن نزلت هذه الآية ؟ قلت : لا ، قال : نزلت في رجل من الأنصار أصاب امرأته في دبرها فأعظم الناس ذلك ، فأنزل الله نسائكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ، الآية . قلت له : من دبرها في قبلها قال لا إلا في دبرها .

**أقول :** وروي في هذا المعنى عن ابن عمر بطرق كثيرة ، قال : وقال ابن عبد البر : الرواية بهذا المعنى عن ابن عمر صحيحة معروفة عنه مشهورة .

وفي الدر المنثور أيضاً : أخرج ابن راهويه وأبو يعلى وابن جرير والطحاوي في مشكل الآثار وابن مردويه بسند حسن عن أبي سعيد الخدري : أن رجلاً أصاب امرأته في دبرها ، فأنكر الناس عليه ذلك ، فأنزلت ؛ نسائكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ؛ الآية .

وفيه أيضاً أخرج الخطيب في رواة مالك عن أبي سليمان الجوزجاني ، قال : سألت مالك بن أنس عن وطئ الحلائل في الدبر . فقال لي : الساعة غسلت رأسي عنه .

وفيه أيضاً : أخرج الطحاوي من طريق إصبع بن الفرغ عن عبدالله بن القاسم ، قال : ما أدركت أحداً أفتدي به في ديني يشك في أنه حلال يعني : وطئ المرأة في دبرها ثم قرأ : نسائكم حرث لكم ثم قال : فأى شيء أبين من هذا ؟

وفي سنن أبي داود عن ابن عباس قال : إن ابن عمر - والله يغفر له - أوهم إنما

كان هذا الحي من الأنصار وهم أهل وثن مع هذا الحي من يهود وهم أهل كتاب ، وكان يرون لهم فضلاً عليهم في العلم ، فكانوا يقتدون بكثير من فعلهم ، وكان من أمر أهل الكتاب أن لا يأتوا النساء إلا على حرف ، وذلك أسراً ما تكون المرأة ، وكان هذا الحي من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم ، وكان هذا الحي من قريش يشرحون النساء شرحاً منكراً ، ويتلذذون مقبلات ومدبرات ومستلقيات فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار فذهب يصنع بها ذلك فأنكرته عليه فقالت : إنما كننا نؤتي على حرف فاصنع ذلك وإلا فأجتنبني فسرى أمرهما فبلغ ذلك رسول الله ، فأنزل الله عز وجل : نسائك حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم أى مقبلات ومدبرات ومستلقيات ، يعني بذلك موضع الولد .

**أقول :** ورواه السيوطي في الدر المنثور بطرق أخرى أيضاً عن مجاهد ، عن ابن عباس .

وفيه أيضاً : أخرج ابن عبد الحكم : أن الشافعي ناظر محمد بن الحسن في ذلك ، فاحتج عليه ابن الحسن بأن الحرث إنما يكون في الفرج فقال له : فيكون ما سوى الفرج محرماً فالتزمه فقال : أرأيت لو وطئها بين ساقها أو في أعكائها (الأعكان جمع عكنة بضم العين : ما انطوى وثنى من لحم البطن) أفى ذلك حرث ؟ قال : لا . قال : أفيحوم ؟ قال : لا . قال : فكيف تحتج بما لا تقولون به ؟

وفيه أيضاً : أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير ، قال : بينا أنا ومجاهد جالسان عند ابن عباس إذ أتاه رجل فقال : ألا تشفيني من آية المحيض ؟ قال : بلى فأقرأ : ويسألونك عن المحيض إلى قوله : فأتوهن من حيث أمركم الله فقال : ابن عباس : من حيث جاء الدم من ثم أمرت أن تأتي فقال : كيف بالآية نساءكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ؟ فقال : أي ، ويحك ، وفي الدبر من حرث ؟ لو كان ما تقول حقاً كان المحيض منسوخاً إذ اشغل من ههنا جئت من ههنا ، ولكن أنى شئتم من الليل والنهار .

**أقول :** واستدلالة كما ترى مدخول ، فإن آية المحيض لا تدل على مزيد من

حرمة الإتيان من محلّ الدم عند المحيض فلو دلّت آية الحرث على جواز إتيان الأدبار لم يكن بينها نسبة التنافي أصلاً حتّى يوجب نسخ حكم آية المحيض ؛ على أنّك قد عرفت أنّ آية الحرث أيضاً لا تدلّ على ما راموه من جواز إتيان الأدبار . نعم يوجد في بعض الروايات الطروية عن ابن عباس : الاستدلال على حرمة الإتيان من محاشين بالأمر الذي في قوله تعالى : فأتوهنّ من حيث أمركم الله الآية . وقد عرفت فيما مرّ من البيان أنّه من أفسد الاستدلال ، وأنّ الآية تدلّ على حرمة الإتيان من محلّ الدم ما لم يظهرن وهي ساكتة عما دونه ، وأنّ آية الحرث أيضاً غير دالّة إلا على التوسعة من حيث الحرث ، والمسألة فقهية إنّما اشتغلنا بالبحث عنها بمقدار ما تتعلق بدلالة الآيات .



وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِإِيمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ( ٢٢٤ ) لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ( ٢٢٥ ) لِلَّذِينَ يُؤْتُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَاتُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ( ٢٢٦ ) وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ( ٢٢٧ )

### ﴿ بيان ﴾

قوله تعالى : ولا تجعلوا الله عرضة لإيمانكم أن تبرّوا وتتقوا وتصلحوا بين الناس ، الآية ، العرضة بالضمّ من العرض وهو كرامة الشيء للشيء حتّى يرى صلوحه لما يريد به ويقصده كعرض المال للبيع وعرض المنزل للنزول وعرض الغذاء للأكل ، ومنه ما يقال للهدف : إنّه عرضة للسهم ، و للفتاة الصالحة للازدواج أنّها عرضة للزكاح ، و للدابة المعدة للسفر إنّها عرضة للسفر وهذا هو الأصل في معناها ، وأمّا العرضة بمعنى المانع المعترض في الطريق وكذا العرضة بمعنى ما ينصب ليكون معرضاً لتوارد الواردات وتواليها في الورود كالهدف للسهم حتّى يفيد كثرة العوارض إلى غير ذلك من معانيها فهي ممّا لحقها من موارد استعمالها غير دخيلة في أصل المعنى .

والإيمان جمع يمين بمعنى الحلف مأخوذة من اليمين بمعنى الجارحة لكونهم يضربون بها في الحلف والعهد والبيعة ونحو ذلك فاشتقّ من آلة العمل اسم للعمل للملازمة بينها كما يشتقّ من العمل اسم لآلة العمل كالسبابة للإصبع التي يسبّ بها . ومعنى الآية ( والله أعلم ) : ولا تجعلوا الله عرضة تتعلّق بها أيمانكم التي عقدتموها بحلفكم أن لا تبرّوا وتتقوا وتصلحوا بين الناس فإنّ الله سبحانه لا يرضى أن يجعل اسمه ذريعة للامتناع عمّا أمر به من البرّ والتقوى والإصلاح بين الناس . ويؤيد هذا

المعنى ماورد من سبب نزول الآية على ما سننقله في البحث الروائي إنشاء الله .  
وعلى هذا يصير قوله تعالى : أن تبرّوا الخ بتقدير ؛ لا ؛ أولاً تبرّوا ، وهو شائع مع أن المصدرية كقوله تعالى « يبين الله لكم أن تضلّوا » النساء - ١٧٥ . أى أن لاتضلّوا أو كراهة أن تضلّوا ، ويمكن أن لا يكون بتقدير ؛ لا ؛ وقوله تعالى : أن تبرّوا اه متعلقاً بما يدلّ عليه قوله تعالى : ولا تجعلوا اه من النهى أى ينهيكم الله عن الحلف الكذائيّ أو يبين لكم حكمه الكذائيّ أن تبرّوا وتتّقوا وتصلّحوا بين الناس . ويمكن أن يكون العرضة بمعنى ما يكسر عليه العرض فيكون نهياً عن الإكثار من الحلف بالله سبحانه . والمعنى لاتكثروا من الحلف بالله فإنكم إن فعلتم ذلك أدّى لكم إلى أن لاتبرّوا ولا تتّقوا ولا تصلّحوا بين الناس ، فإن الحلاف المكثّر من اليمين لا يستعظم ما حلف به ويصغّر أمر ما أقسم به لكثرة تناوله فلا يبالي الكذب فيكسر منه هذا عند نفسه ، و كذا يهون خطبه وينزل قدره عند الناس لاستشعارهم أنّه لا يرى لنفسه عند الناس قدم صدق ويعتقد أنّهم لا يصدّقونه فيما يقول ، ولا أنّه يوقّر نفسه بالاعتماد عليها ، فيكون على حدّ قوله تعالى : « ولا تطع كلّ حلاف مهين » القلم - ١٠ . والأنسب على هذا المعنى أيضاً عدم تقدير لا في الكلام بل قوله تعالى : أن تبرّوا ومنصوب بنزع الخافض أو مفعولاً له لما يدلّ عليه النهى في قوله ولا تجعلوا اه كما مرّ .

وفي قوله تعالى : والله سميع عليم نوع تهديد على جميع المعاني غير أن المعنى الأوّل أظهرها كما لا يخفى .

قوله تعالى : لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم إلى آخر الآية ، اللغو من الأفعال ما لا يستتبع أثراً ، وأثر الشيء يختلف باختلاف جهاته و متعلقاته : فاليمين أثر من حيث إنّّه لفظ ، وأثر من حيث إنّّه مؤكّد للكلام ، وأثر من حيث إنّّه عقد ، وأثر من حيث حسنه ومخالفة مؤداه ، وهكذا إلّا أن المقابلة في الآية بين عدم المؤاخذة على لغو اليمين وبين المؤاخذة على ما كسبته القلوب وخاصة من حيث اليمين تدلّ على أن المراد بلغو اليمين ما لا يؤثّر في قصد الحالف ، وهو اليمين الذي لا يعتقد صاحبه على شيء من قول : لا والله وبلى والله .

والكسب هو اجتلاب المنافع بالعمل بصفة أو حرفة أو نحوهما وأصله في اقتناء ما يرتفع به حوائج الإنسان المادية ثم استعير لكل ما يجتلبه الإنسان بعمل من أعماله : من خير أو شر ككسب المدح والفخر وحسن الذكر بحسن الخلق والخدمات النوعية وكسب الخلق الحسن والعلم النافع والفضيلة بالأعمال المناسبة لها ، وكسب اللوم والذم ، واللعن والطعن ، والذنوب والآثام ، ونحوها بالأعمال المستتبعة لذلك ، فهذا هو معنى الكسب والاكْتِسَاب ، وقد قيل في الفرق بينهما أن الاكْتِسَاب اجتلاب الإنسان لمنفعة لنفسه ، والكسب أعم مما يكون لنفسه أو غيره مثل كسب العبد لسيده وكسب الولي للمولوي عليه ونحو ذلك .

وكيف كان فالكاسب والمكتسب هو الإنسان لا غير .

### ﴿ كلام في معنى القلب في القرآن ﴾

وهذا من الشواهد على أن المراد بالقلب هو الإنسان بمعنى النفس والروح ، فإنَّ التعقل والتفكير والحب والبغض والخوف وأمثال ذلك وإن أمكن أن ينسب به أحد إلى القلب باعتقاد أنه العضو المدرك في البدن على ما ربما يعتقد العامة كما ينسب السمع إلى الأذن والأبصار إلى العين والذوق إلى اللسان ، لكنَّ الكسب والاكْتِسَاب مما لا ينسب إلا إلى الإنسان البتة .

ونظير هذه الآية قوله تعالى : « فَإِنَّهُ آتَمُّ قَلْبِهِ » البقرة - ٢٨٣ وقوله تعالى

: « وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ » ق - ٣٣ .

والظاهر : أن الإنسان لما شاهد نفسه وسائر أصناف الحيوان وتأمّل فيها ورأى أن الشعور والإدراك ربما بطل أو غاب عن الحيوان بإغماء أو صرع أو نحوهما ، والحيوة المدلول عليها بحركة القلب ونبضانه باقية بخلاف القلب قطع على أن مبدء الحيوة هو القلب ؛ أي إنَّ الروح التي يعتقد في الحيوان أول تعلّقها بالقلب وإن سرت منه إلى جميع أعضاء الحيوة ، وإنَّ الآثار والخواص الروحانية كالحساسات الوجدانية مثل الشعور والإرادة والحب والبغض والرجاء والخوف

وأمثال ذلك كلها للقلب بعناية أنه أول متعلق الروح ، وهذا لا ينافي كون كل عضو من الأعضاء مبدئاً لفعله الذي يختص به كالدماغ للفكر والعين للبصار والسمع للمعنى والريئة للتنفّس ونحو ذلك ، فإنها جميعاً بمنزلة الآلات التي يفعل بها الأفعال المحتاجة إلى توسط الآلة .

وربما يؤيد هذا النظر : ما وجدته التجارب العلميّة أن الطيور لا تموت بفقد الدماغ إلا أنها تفقد الإدراك ولا تشعر بشيء وتبقى على تلك الحال حتى تموت بفقد المواد الغذائية ووقوف القلب عن ضربانه .

وربما أيده أيضاً : أن الأبحاث العلميّة الطبيعّية لم توفق حتى اليوم لتشخيص المصدر الذي يصدر عنه الأحكام البدنيّة أعني عرش الأوامر التي يمثلها الأعضاء الفعّالة في البدن الإنساني ، إذ لا ريب أنها في عين التششّت والتفرّق من حيث أنفسها وأفعالها مجتمعة تحت لواء واحد منقادة لأمر واحد واحدة حقيقيّة .

ولا ينبغي أن يتوهّم أن ذلك كان ناشئاً عن الغفلة عن أمر الدماغ وما يخصّه من الفعل الإدراكي ، فإنّ الإنسان قد تنبّه لما عليه الرأس من الأهميّة منذ أقدم الأزمنة ، والشاهد عليه ما نرى في جميع الأمم والمثل على اختلاف ألسنتهم من تسمية مبدء الحكم والأمر بالرأس ، واشتقاق اللغات المختلفة منه ، كالرأس والرئيس والرياسة ، ورأس الخيط ، ورأس المدّة ، ورأس المسافة ، ورأس الكلام ، ورأس الجبل ، والرأس من الدواب والأنعام ، ورماس السيف .

فهذا - على ما يظهر - هو السبب في إسنادهم الإدراك والشعور وما لا يخلو عن شوب إدراك مثل الحب والبغض والرجاء والخوف والقصد والحسد والعفة والشجاعة والجرمة ونحو ذلك إلى القلب ، ومرادهم به الروح المتعلقة بالبدن أو السّارية فيه بواسطته ، فينسبونها إليه كما ينسبونها إلى الروح وكما ينسبونها إلى أنفسهم . يقال : أحببته وأحببته روحي وأحببته نفسي وأحببته قلبي ثم استقرّ التجوّز في الاستعمال فأطلق القلب وأريد به النفس مجازاً كما ربّما تعدّوا عنه إلى المصدر فجعلوه لاشتماله على القلب مكاناً لأنحاء الإدراك والأفعال والصفات الروحيّة .

وفي القرآن شيء كثير من هذا الباب. قال تعالى : « يشرح صدره للإسلام » الأنعام - ١٢٥ وقال تعالى : « أنك يضيق صدرك » الحجر - ٩٧ وقال تعالى : « وبلغت القلوب الحناجر » الأحزاب - ١٠ ، وهو كناية عن ضيق الصدر وقال تعالى : « إن الله عليم بذات الصدور » المائدة - ٨ . وليس من البعيد أن تكون هذه الإطلاقات في كتابه تعالى إشارة إلى تحقيق هذا النظر وإن لم يتضح كل الاتّصاح بعد .

وقد رجّح الشيخ أبو علي بن سينا كون الإدراك للقلب بمعنى أن دخالة الدماغ فيه دخالة الآلة فللقلب الإدراك والدماغ الوساطة .

ولنرجع إلى الآية ولا يخلو قوله تعالى : ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم اه عن مجاز عقلي فإن ظاهر الإضراب عن المؤاخذه في بعض أقسام اليمين وهو اللغو إلى بعض آخر أن تتعلق تنقّسه ولكن عدل عنه إلى تعليقه بأثره وهو الإثم المترتب عليه عند الحنث ففيه مجاز عقلي وإضراب في إضراب للإشارة إلى أن الله سبحانه لا شغل له إلا بالقلب كما قال تعالى : « إن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله » البقرة - ٢٨٤ وقال تعالى : « ولكن يناله التقوى منكم » الحجج - ٣٧ .

وفي قوله تعالى : والله غفورٌ حلِيم اه إشارة إلى كراهة اللغو من اليمين ، فإنّه ممّا لا ينبغي صدورّه من المؤمن . وقد قال تعالى : « وقد أفلح المؤمنون إلى أن قال والذين هم عن اللغو معرضون » المؤمنون - ٣ .

**قوله تعالى :** للذين يؤلون من نسائهم الخ ، الإيلاء من الآية بمعنى الحلف ، وغلب في الشرع في حلف الزوج أن لا يأتي زوجته غضباً وإضراراً ، وهو المراد في الآية ، والترتب هو الانتظار ، والفى هو الرجوع .

والظاهر أن تعدية الإيلاء بمن لتضمينه معنى الابتعاد ونحوه فيفيد وقوع الحلف على الاجتناب عن المباشرة ، ويشعر به تحديد الترتب بالأربعة أشهر فإنّها الأمد المضروب للمباشرة الواجبة شرعاً ؛ ومنه يعلم : أن المراد بالعزم على الطلاق العزم مع إيقاعه ، ويشعر به أيضاً تذييله بقوله تعالى : فإنّ الله سميع عليم اه فإنّ السمع إنّما يتعلق بالطلاق الواقع لا بالعزم عليه .

وفي قوله تعالى : فإن الله غفور رحيم اه دلالة على أن الإيلاء لا عقاب عليه على تقدير الفیء . وأما الكفارة فهي حكم شرعي لا يقبل المغفرة . قال تعالى : « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفاراته إطعام عشرة مساكين الآية » المائدة - ٩٢ .

فالمعنى أن من آلى من امرأته يترتب له العاكم أربعة أشهر فإن رجع إلى حق الزوجية وهو المباشرة وكفّر وباشر فلا عقاب عليه وإن عزم الطلاق وأوقعه فهو المخلص الآخر ، والله سمیع علیم .

### ﴿ بحث روائی ﴾

في تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم الآية ، قال عليه السلام : هو قول الرجل : لا والله وبلى والله :

وفيه أيضاً عن الباقر والصادق عليهما السلام في الآية : يعني الرجل يحلف أن لا يكلم أخاه وما أشبه ذلك أو لا يكلم أمه .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في الآية ، قال : إذا دعيت لتصلح بين اثنين فلا تغل على يمين أن لا أفعل .

أقول : والرواية الأولى كما ترى تفسر الآية بأحد المعنيين ، والثانية والثالثة بالمعنى الآخر . ويقرب منهما ما في تفسير العياشي أيضاً عن الباقر والصادق عليهما السلام قالا : هو الرجل يصلح بين الرجل فيحمل ما بينهما من الإثم الحديث . فكان المراد أنه ينبغي أن لا يحلف بل يصلح ويحمل الإثم والله يغفر له ، فيكون مصداقاً للعامل بالآية :

وفي الكافي عن مسعدة عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم الآية ، قال : اللغو قول الرجل : لا والله وبلى والله ولا يعقد على شيء .

أقول : وهذا المعنى مروي في الكافي عنه عليه السلام من غير الطريق ، وفي المجمع عنه وعن الباقر عليهما السلام .

وفي الكافي أيضاً عن الباقر والصادق عليهما السلام أنهما قالا : إذا آلى الرجل أن لا يقرب امرأته فليس لها قول ولا حق في الأربعة أشهر ، ولا إثم عليه في الكف عنها في الأربعة أشهر ، فإن مضت الأربعة أشهر قبل أن يمسهما فما سكنت ورضيت فهو في حل وسعة ، فإن رفعت أمرها قيل له : إما أن تقيء فتمسها وإما أن تطلق ، وعزم الطلاق أن يخلى عنها ، فإذا حاضت وطهرت طلقها ، وهو أحق برجعها ما لم يمض ثلثة قروء . فهذا الإيلاء الذي أنزل الله في كتابه وسنّه رسول الله .

وفيه أيضاً عن الصادق عليه السلام في حديث : والإيلاء أن يقول : والله لا أجامعك كذا وكذا أو يقول : والله لا أغيظنك ثم يفاظها ، الحديث .

**أقول :** وفي خصوصيات الإيلاء وبعض ما يتعلق به خلاف بين العامة والخاصة ، والبحث فقهي مذكور في الفقه .



وَالْمُطَلَقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ  
 اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبَعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ  
 فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ  
 دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ( ٢٣٨ ) الطَّلَاقُ مَرَّتَانٍ فَمَا سَكَتَ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌ  
 بِإِحْسَانٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمُ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا اتَّيَمَّوهُنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَنْ لَا يَقِيمَا  
 حُدُودَ اللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ  
 اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ( ٢٣٩ ) فَإِنْ  
 طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ  
 يَتَرَاجَعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ  
 ( ٢٤٠ ) وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ  
 بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ . وَلَا  
 تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ  
 وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ( ٢٤١ ) وَإِذَا طَلَقْتُمُ  
 النِّسَاءَ فَلَمَّا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْصِلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ  
 بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمُ زَكَاةُ  
 لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ( ٢٤٢ ) وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ

حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ  
 بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ  
 بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ  
 فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا  
 سَأَلْتُمْ مَا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٣)  
 وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا  
 فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا  
 تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٣٤) وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ  
 فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْكُمْ سَتَذَكَّرُوهُنَّ وَلَكِنْ لَا تَوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا  
 قَوْلًا مَعْرُوفًا (٢٣٥) وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا  
 أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ (٢٣٦) لَا  
 جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمْ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ  
 عَلَى الْمُوسَعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ (٢٣٧)  
 وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ  
 إِلَّا أَنْ يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا  
 تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٣٨) حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ  
 وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ (٢٣٩) فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا

أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ (٢٤٠) وَالَّذِينَ يَتَوَقَّوْنَ  
 مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرِ إِخْرَاجٍ فَإِنْ  
 خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٤١)  
 وَلِلْمُطَلَّقاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ (٢٤٢) كَذَلِكَ يبينُ اللَّهُ لَكُمْ  
 آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٢٤٣)

### ﴿بيان﴾

الآيات في أحكام الطلاق والعدّة وإرضاع المطلّقة ولدها، وفي خلالها شيء من  
 أحكام الصلوة.

قوله تعالى: والمطلّقات يتربّصن بأنفسهنّ ثلاثة قروء اه، أصل الطلاق التخلية  
 عن وثاق وتقييد ثمّ استعير لتخلية المرمّة عن حباله النكاح وقيد الزوجيّة ثمّ صار حقيقة  
 في ذلك بكثرة الاستعمال.

والتربّص هو الانتظار والحبس، وقد قيّد بقوله تعالى: بأنفسهنّ اه ليدلّ على  
 معنى التمكين من الرجال فيفيد معنى العدّة أعني عدّة الطلاق، وهو حبس المرمّة نفسها  
 عن الازدواج تحذراً عن اختلاط المياه، ويزيد على معنى العدّة الإشارة إلى حكمة  
 التشريع، وهو التحفّظ عن اختلاط المياه وفساد الأنساب، ولا يلزم أطراد الحكمة في  
 جميع الموارد فإنّ القوانين والأحكام إنّما تدور مدار المصالح والحكم الغالبة دون  
 العامة. فقوله تعالى يتربّصن بأنفسهنّ اه بمنزلة قولنا: يعتدّدن احترازاً من اختلاط المياه  
 وفساد النسل بتمكين الرجال من أنفسهنّ. والجملة هو خبرٌ أريد به الإنشاء تأكيداً.  
 والقروء جمع القرء، وهو لفظ يطلق على الطهر والحيض معاً، فهو على ما قيل من الأضداد،  
 غير أنّ الأصل في مادّة قرء هو الجمع لكن لا كلّ جمع بل الجمع الذي يتلوه الصرف  
 والتحويل ونحوه. وعليهذا فالأظهر أن يكون معناه الطهر لكونه حالة جمع الدم ثمّ  
 استعمل في الحيض لكونه حالة قذفه بعد الجمع. وبهذه العناية أطلق على الجمع ين

الحروف للدلالة على معنى: القراءة، وقد صرح أهل اللغة بكون معناه هو الجمع، و يشعر بأن الأصل في مادة قراءة الجمع قوله تعالى: «لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فاذا قرأناه فاتبع قرآنه» القيامة - ١٨ وقوله تعالى: «وقرآننا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث» بني إسرائيل - ١٠٦. حيث عبرتعالى في الآيتين بالقرآن، ولم يعبر بالكتاب أو الفرقان أو ما يشبههما، وبه سمى القرآن قرآنًا.

قال الراغب في مفرداته: والقرء في الحقيقة اسم للدخول في الحيض عن طهر ولما كان اسماً جامعاً للأمرين: الطهر والحيض المتعقب له أطلق على كل واحد لأن كل اسم موضوع لمعنيين معاً يطلق على كل واحد منهما إذا انفرد، كالمائدة للخوان والطعام، ثم قد يسمى كل واحد منهما بانفراده به، وليس القرء اسماً للطهر مجرداً ولا للحيض مجرداً، بدليل أن الطاهر التي لم ترأثر الدم لا يقال لها: ذات قرء، وكذا الحائض التي استمر بها الدم لا يقال لها: ذلك، انتهى.

**قوله تعالى:** «ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهن إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر» المراد به تحريم كتمان المطلقة الدم أو الولد استعجالاً في خروج العدة أو إضراراً بالزوج في رجوعه ونحو ذلك. وفي تقييده بقوله: «إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر» مع عدم اشتراط أصل الحكم بالإيمان نوع ترغيب وحث لمطوعة الحكم والتثبت عليه لما في هذا التقييد من الإشارة إلى أن هذا الحكم من لوازم الإيمان بالله واليوم الآخر الذي عليه بناء الشريعة الإسلامية فلا استغناء في الإسلام عن هذا الحكم، وهذا نظير قولنا: أحسن معاشرة الناس إن أردت خيراً، وقولنا للمريض: عليك بالحمية إن أردت الشفاء والبرء.

**قوله تعالى:** «وبعولتهن أحق بردهن» في ذلك إن أرادوا إصلاحاً، البعولة جمع البعل وهو الذكر من الزوجين مادام زوجين وقد استشعر منه معنى الاستعلاء والقوة والثبات في الشدائد لما أن الرجل كك بالنسبة إلى المرأة ثم جعل أصلاً يشق منه الألفاظ بهذا المعنى فليل ركب الدابة بعلاً، وللأرض المستعملة بعلاً، وللصنم بعلاً، وللنخل إذا عظم بعلاً ونحو ذلك.

والضمير في بعولتهنّ للمطلقات إلا أن الحكم خاص بالرجعيات دون مطلق المطلقات الأعمّ منها ومن البائنات ، والمشار إليه بذلك التربص الذي هو بمعنى العدة ، والتقيد بقوله إن أرادوا إصلاحاً له للدلالة على وجوب أن يكون الرجوع لغرض الإصلاح لا لغرض الإضرار المنهي عنه بعد بقوله : ولا تمسكوهنّ ضاراً لتعتدوا ، الآية . ولفظ أحقّ اسم تفضيل حقّه أن يتحقق معناه دائماً مع مفضل عليه كأن يكون للزوج الأول حق في المطلقة ولسائر الخطّاب حق ، والزوج الأول أحقّ بالسبق الزوجية ، غير أن الردّ المذكور لا يتحقق معناه إلا مع الزوج الأول .

ومن هنا يظهر : أن في الآية تقديراً لطيفاً بحسب المعنى ، والمعنى وبعولتهنّ أحقّ بهنّ من غيرهم ، ويحصل ذلك بالردّ والرجوع في أيام العدة . وهذه الحقيقة إنّما تتحقق في الرجعيات دون البائنات التي لا رجوع فيها ، وهذه هي القرينة على أن الحكم مخصوص بالرجعيات ، لا أن ضمير بعولتهنّ راجع إلى بعض المطلقات بنحو الاستخدام أو ما أشبه ذلك . والآية خاصة بحكم المدخول بهنّ من ذوات الحيض غير الحوامل ، وأمّا الغير المدخول بها والصغيرة واليايسة والحامل فلحكمها آيات آخر .

قوله تعالى : ولهنّ مثل الذي عليهنّ بالمعروف وللرجال عليهنّ درجة ، المعروف هو الذي يعرفه الناس بالذوق المكتسب من نوع الحيوة الاجتماعية المتداولة بينهم . وقد كرّر سبحانه المعروف في هذه الآيات فذكره في إثني عشر موضعاً اهتماماً بأن يجري هذا العمل أعني الطلاق وما يلحق به على سنن الفطرة والسلامة ، فالمعروف تتضمن هداية العقل ، وحكم الشرع ، وفضيلة الخلق الحسن ، وسنن الأدب .

وحيث بنى الإسلام شريعته على أساس الفطرة والخلقة كان المعروف عنده هو الذي يعرفه الناس إذا سلكوا مسلك الفطرة ولم يتعدوا طور الخلقة . ومن أحكام الاجتماع المبني على أساس الفطرة أن يتساوى في الحكم أفرادها وأجزائه فيكون ما عليهم مثل مالهم إلا أن ذلك التساوي إنّما هو مع حفظ ما لكلّ من الأفراد من الوزن في الاجتماع والتأثير والكمال في شئون الحيوة فيحفظ للحاكم حكومته ، وللمحكوم محكوميته ، وللعالم علمه ، وللمجاهل حاله ، وللقوي من حيث العمل قوّته ، وللضعيف ضعفه

ثمَّ يبسط التساوي بينها بإعطاء كلِّ ذي حقِّ حقَّه، وعلى هذا جرى الإسلام في الأحكام المجمعولة للمرأة وعلى المرأة فجعل لها مثل ما جعل عليها مع حفظ مالها من الوزن في الحياة الاجتماعية في اجتماعها مع الرجل للتناكح والتناسل . و الإسلام يرى في ذلك أنَّ للرجال عليهنَّ درجة، والدرجة المنزلة .

ومن هنا يظهر : أنَّ قوله تعالى : وللرجال عليهنَّ درجة اه قيد متمم للجمله السابقة، والمراد بالجميع معنى واحد وهو : أنَّ النساء أو المطلقات قد سوَّى الله بينهنَّ وبين الرجال مع حفظ ما للرجال من الدرجة عليهنَّ ، فجعل لهنَّ مثل ما عليهنَّ من الحكم . وسنعود إلى هذه المسألة بزيادة توضيح في بحث علميٍّ مخصوص بها .

**قوله تعالى :** الطلاق مرَّتَانِ فإِمسَاكِ بمعروفٍ أو تسريحاً بإحسان اه، المرأة بمعنى الدفعة مأخوذة من المرور للدلالة على الواحد من الفعل كما أنَّ الدفعة والكرَّة والنزلة مثلها وزناً ومعنى واعتباراً .

والتسريح أصله الإطلاق في الرعى مأخوذ من سرَّحت الإبل وهو أنَّ ترعيه السرح، وهو شجر له ثمر يرعاه الإبل، وقد استعير في الآية لإطلاق المطلقة بمعنى عدم الرجوع إليها في العدة، والتخلى عنها حتَّى تنقضي عدَّتُها على ماسيحيي .

و المراد بالطلاق في قوله تعالى : الطلاق مرَّتَانِ اه الطلاق الذي يجوز فيه الرجعة ولذا أرفه بقوله بعد : فإِمسَاكِ إلخ ، وأمَّا الثالث فالطلاق الذي يدلُّ عليه قوله تعالى : فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُ حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ الآية .

و المراد بتسريحها بإحسان ظاهراً التخلى بينها وبين البينة وتركها بعد كلِّ من التلطيقين الأولين حتَّى تبين بانقضاء العدة وإن كان الأظهر أنَّه التلطيق الثالثة كما هو ظاهر الإطلاق في تفريع قوله : فإِمسَاكِ إلخ . وعلى هذا فيكون قوله تعالى بعد : فَإِنْ طَلَّقَهَا إلخ بياناً تفصيلياً للتسريح بعد البيان الإجمالي .

وفي تقييد الإمساك بالمعروف والتسريح بالإحسان من لطيف العناية ما لا يخفى ، فإنَّ الإمساك والردَّ إلى حباله الزوجية ربَّما كان للإضرار بها وهو منكر غير معروف ، كمن يطلق امرأته ثمَّ يخلِّيها حتَّى تبلغ أجلها فيرجع إليها ثمَّ يطلق ثمَّ

يرجع كذلك ، يريد بذلك إبداءها والإضرار بها وهو إضرار منكر غير معروف في هذه الشريعة منهي عنه ، بل الإمساك الذي يجوز به الشرع أن يرجع إليها بنوع من أنواع الالتئام ، ويتم به الأنس وسكون النفس الذي جعله الله تعالى بين الرجل والمرأة .

وكذلك التسريح ربما كان على وجه منكر غير معروف يعمل فيه عوامل السخط والغضب ، ويتصور بصورة الانتقام ، والذي يجوز هذه الشريعة أن يكون تسريحاً بنوع يتعارفه الناس ولا ينكره الشرع ، وهو التسريح بالمعروف كما قال تعالى في الآية الآتية فأمسكوهن بمعروف أوسرّ حون بمعروف . وهذا التعبير هو الأصل في إفادة المطلوب الذي ذكرناه ، وأما ما في هذه الآية أو تسريح بإحسانه حيث قيد التسريح بالإحسان وهو معنى زايد على المعروف فذلك لكون الجملة ملحقة بما يوجب ذلك أعني قوله تعالى : ولا يحلّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاًه .

بيانه : أن التقيد بالمعروف والإحسان لنفي ما يوجب فساد الحكم المشرع المقصود ، والمطلوب بتقييد الإمساك بالمعروف نفى الإمساك الواقع على نحو المضادة كما قال تعالى : ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدواه ، والمطلوب في مورد التسريح نفى أن يأخذ الزوج بعض ما آتاه للزوجة من المهر ، ولا يكفي فيه تقييد التسريح بالمعروف كما فعل في الآية الآتية فإن مطالبة الزوج بعض ما آتاه زوجته وأخذه ربما لم ينكره التعارف الدائم بين الناس فزيد في تقييده بالإحسان في هذه الآية دون الآية الآتية ليستقيم قوله تعالى : ولا يحلّ لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاًه وليتدارك بذلك ما يفوت المرأة من مزية الحياة التي في الزوجية والالتئام النكاحي ، ولوقيل : أو تسريح بمعروف ولا يحلّ لكم إلخ فانت النكتة .

قوله تعالى : إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود اللهه ، والخوف هو الغلبة على ظنهما أن لا يقيما حدود الله ، وهي أوامره ونواهيها من الواجبات والمحرمات في الدين ، وذلك إنما يكون بتباعد أخلاقهما وما يستوجبه حواصيهما والتباغض المتولد بينهما من ذلك .

قوله تعالى : فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افئدت بهه ، العدول عن التثنية إلى الجمع في قوله : خفتماه كأنه للإشارة إلى لزوم أن يكون الخوف

خوفاً يعرفه العرف والعادة ، لا ما ربما يحصل بالتهوس والتلهي أو بالسوسة ونحوها ، ولذلك عدل أيضاً عن الإضرار ف قيل ألا يقيما حدود الله اه ولم يقل فإن خفتم ذلك لمكان اللبس .

وأما نفى الجناح عنهما مع أن النهي في قوله : ولا يحلّ لكم أن تأخذوا إلخ إنّما تعلق بالزوج فلأنّ حرمة الأخذ على الزوج توجب حرمة الإعطاء على الزوجة من باب الإعانة على الإثم والعدوان إلا في طلاق الخلع فيجوز توافقهما على الطلاق مع الفدية ، فلا جناح على الزوج أن يأخذ الفدية ، ولا جناح على الزوجة أن تعطي الفدية وتعين على الأخذ فلا جناح عليهما فيما افتدت به .

**قوله تعالى :** تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله إلخ ، المشار إليه هي المعارف المذكورة في الآيتين وهي أحكام فقهية مشوبة بمسائل أخلاقية ، وأخرى علمية مبتنية على معارف أصلية ، والاعتداد والتعدي هو التجاوز .

وربما استشعر من الآية عدم جواز التفرقة بين الأحكام الفقهية والأصول الأخلاقية ، والاقتصار في العمل بمجرّد الأحكام الفقهية والجمود على الظواهر والتقصّف فيها ، فإنّ في ذلك إبطالاً لمصالح التشريع وإماتة لغرض الدين وسعادة الحيوة الإنسانية ، فإنّ الإسلام كما مرّ مراراً دين الفعل دون القول ، وشريعة العمل دون الفرض ، ولم يبلغ المسلمون إلى ما بلغوا من الانحطاط والسقوط إلا بالاقتصار على أجساد الأحكام والإعراض عن روحها وباطن أمرها . ويدلّ على ذلك ما سيأتي من قوله تعالى : « ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه الآية » البقرة - ٢٣٦ .

وفي الآية التفات عن خطاب الجمع في قوله : ولا يحلّ لكم اه ، وقوله : فإن خفتم اه إلى خطاب المفرد في قوله : تلك حدود الله اه ثمّ إلى الجمع في قوله : فلا تعتدوها اه ثمّ إلى المفرد في قوله : فأولئك هم الظالمون اه فيفيد تنشيط ذهن المخاطب وتنبيهه للتيقّظ ورفع الكسل في الإصغاء .

**قوله تعالى :** فإن طلقها فلا تحلّ له حتّى تنكح زوجاً غيره إلى آخر الآية بيان لحكم التولية الثالثة وهو الحرمة حتّى تنكح زوجاً غيره ، وقد نفى الحلّ عن نفس

الزوجة مع أن المحرم إنما هو عقدها أو وطئها ليدلّ به على تعلّق الحرمة بهما جميعاً ، وليس معنى قوله تعالى : حتّى تنكح زوجاً غيره اه على العقد والوطئ جميعاً ، فإن طلقها الزوج الثاني فلا جناح عليهما أى على المرأة والزوج الأول أن يتراجعا إلى الزوجية بالعقد ، بالتوافق من الجانبين ، وهو التراجع ، وليس بالرجوع الذي كان حقاً للزوج في التطلّيقين الأولين ، وذلك إن ظننا أن يقيما حدود الله .

و وضع الظاهر موضع المضمّر في قوله تعالى : و تلك حدود الله اه لأن المراد بالحدود غير الحدود .

وفي الآية من عجب الإيجاز ما يبهت العقل ، فإن الكلام على قصره مشتمل على أربعة عشر ضميراً مع اختلاف مراجعها واختلاطها من غير أن يوجب تعقيداً في الكلام ، ولا إغلاقاً في الفهم .

وقد اشتملت هذه الآية والسّتي قبلها على عدد كثير من الأسماء المنكّرة والكنيات من غير ردائة في السياق كقوله تعالى : فإمسك بمعروف أو تسريح بإحسان اه أربعة أسماء منكّرة ، وقوله تعالى : ممّا آتيموهن شيئاً اه كنّي به عن المهر ، وقوله تعالى : فإن خفتن اه كنّي به عن وجوب كون الخوف جارياً على مجرى العادة المعروفة ، وقوله تعالى : فيما أفتدت به اه كنّي به عن مال الخلع ، وقوله تعالى : فإن طلقها اه أريد به التّليقة الثالثة وقوله تعالى : فلا تحلّ له اه أريد به تحرّيم العقد والوطئ ، وقوله تعالى : حتّى تنكح زوجاً غيره اه أريد به العقد والوطئ معاً كناية مؤدّبة ، وقوله تعالى : أن يتراجعا كنّي به عن العقد .

وفي الآيتين حسن المقابلة بين الإمساك والتسريح ، وبين قوله أن يخافا أن لا يقيما حدود الله وبين قوله : إن ظننا أن يقيما حدود الله ، والتفنّن في التعبير في قوله : فلا تعتدوها وقوله : ومن يتعد .

قوله تعالى : وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهنّ إلى قوله : لتعتدوا ، المراد ببلوغ الأجل الإشراف على انقضاء العدة فإن البلوغ كما يستعمل في الوصول إلى الغاية كذلك يستعمل في الاقتراب منها ، والدليل على أن المراد بذلك قوله تعالى : فأمسكوهنّ بمعروف

أوسرَّ حوَّهنَّ بمعروف اه إذ لامعنى للإمساك ولا التسريح بعد انقضاء العدة . وفي قوله تعالى : ولا تمسكوهنَّ ضاراً لتعتدوا اه نهى عن الرجوع بقصد المضارة كما نهى عن - التسريح بالأخذ من المهر في غير الخلع .

**قوله تعالى :** ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه إلى آخر الآية إشارة إلى حكمة النهي عن الإمساك للمضارة فإنَّ التزوُّج لتتميم سعادة الحياة ، ولا يتم ذلك إلا بسكون كلٍّ من الزوجين إلى الآخر وإعانتته في رفع حوائج الغرايز ، والإمساك خاصة رجوع إلى الاتصال والاجتماع بعد الانفصال والافتراق ، وفيه جمع الشمل بعد شتاته ، وأين ذلك من الرجوع بقصد المضارة ؟

فمن يفعل ذلك أى أمسك ضاراً فقد ظلم نفسه حيث حملها على الانحراف عن - الطريقة التي تهدي إليها فطرته الإنسانية .

على أنه اتخذ آيات الله هزواً يستهزئ بها فإنَّ الله سبحانه لم يشرع ما شرعه لهم من الأحكام تشريعاً جامداً يقتصر فيه على أجرام الأفعال أخذاً وإعطائاً وإمساكاً وتسريحاً وغير ذلك ، بل بناها على مصالح عامة يصلح بها فاسد الاجتماع ، ويتم بها سعادة الحياة الإنسانية ، وخلطها بأخلاق فاضلة تتربى بها النفوس ، وتطهر بها الأرواح ، وتصفو بها المعارف العالية : من التوحيد والولاية وسائر الاعتقادات الزاكية ، فمن اقتصر في دينه على ظواهر الأحكام ونبذ غيرها ورآء ظهره فقد اتخذ آيات الله هزواً .

والمراد بالنعمة في قوله تعالى : واذكروا نعمة الله عليكم اه نعمة الدين أو حقيقة الدين وهي السعادة التي تنال بالعمل بشرائع الدين كسعادة الحياة المختصة بتألف الزوجين ، فإنَّ الله تعالى سمى السعادة الدينية نعمة كما في قوله تعالى : « وأتممت عليكم نعمتي » المائدة - ٤ وقوله تعالى : « وليتم نعمته عليكم » المائدة - ٧ وقوله تعالى : « فأصبحتم بنعمته إخواناً » آل عمران - ١٠٣ .

وعليهذا يكون قوله تعالى بعده : وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظكم به اه كالمفسر لهذه النعمة ، ويكون المراد بالكتاب والحكمة ظاهر الشريعة وباطنها أعني أحكامها وحكمها .

ويمكن أن يكون المراد بالنعمة مطلق النعم الإلهية ، التكوينية وغيرها فيكون المعنى : اذكروا حقيقة معنى حيوتكم وخاصة المزايا ومحاسن التأليف والسكونة بين الزوجين وما ييسره الله تعالى لكم بلسان الوعظ من المعارف المتعلقة بها في ظاهر الأحكام وحكمها فإنكم إن تأملتم ذلك أوشك أن تلزموا صراط السعادة ، ولا تفسدوا كمال حيوتكم ونعمة وجودكم ، واتقوا الله و لتتوجه نفوسكم إلى أن الله بكل شيء عليم ، حتى لا يخالف ظاهركم باطنكم ، ولا تجترعوا على الله بهدم باطن الدين في صورة تعبير ظاهره .

**قوله تعالى :** وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا ترضوا بينهم بالمعروف اه ، العضل المنع . والظاهر أن الخطاب في قوله : فلا تعضلوهن اه لأوليائهن ومن يجري مجراهم ممن لا يسعهن مخالفته . والمراد بأزواجهن اه الأزواج قبل الطلاق ، فالآية تدل على نهى الأولياء ومن يجري مجراهم عن منع المرأة أن تنكح زوجها ثانياً بعد انقضاء العدة سخطاً ولجاً كما يتفق كثيراً ، ولادلالة في ذلك على أن العقد لا يصح إلا بولي .

**أما أولاً :** فلأن قوله : فلا تعضلوهن اه لولم يدل على عدم تأثير الولاية في ذلك لم يدل على تأثيره .

**وأما ثانياً :** فلأن اختصاص الخطاب بالأولياء فقط لادليل عليه بل الظاهر أنه أعم منهم ، وأن النهي نهى إرشادي إلى ما يترتب على هذا الرجوع من المصالح والمنافع كما قال تعالى : ذلكم أركى لكم وأطهر اه .

وربما قيل : إن الخطاب للأزواج جرياً على ما جرى به قوله : وإذا طلقتم النساء اه ، والمعنى : وإذا طلقتم النساء يأيها الأزواج فانقضت عدتهن فلا تمنعهن أن ينكحن أزواجاً يكونون أزواجهن ، وذلك بأن يخفى عنهن الطلاق لتضارب بطول العدة ونحو ذلك .

وهذا الوجه لا يلائم قوله تعالى : أزواجهن اه فإن التعبير المناسب لهذا المعنى أن يقال : أن ينكحن أو أن ينكحن أزواجاً وهو ظاهر .

و المراد بقوله تعالى : فبلغن أجلهن اه انقضاء العدة ، فإن العدة لولم تنقض

لم يكن لأحد من الأولياء وغيرهم أن يمنع ذلك وبعولتهن أحق بردهن في ذلك . على أن قوله تعالى : أن ينكحن اه دون أن يقال : يرجعن ونحوه ينافي ذلك .

**قوله تعالى :** ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر ، هذا كقوله فيما مرّ : ولا يحلّ لهنّ أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهنّ إن كنّ يؤمنّ بالله واليوم الآخر الآية . وإنّما خصّ الموردان من بين الموارد بالتقييد بالإيمان بالله واليوم الآخر ، وهو التوحيد ، لأنّ دين التوحيد يدعو إلى الاتحاد دون الافتراق ، ويقضي بالوصل دون الفصل .

و في قوله تعالى : ذلك يوعظ به من كان منكم اه التفات إلى خطاب المفرد عن خطاب الجمع ثمّ التفات عن خطاب المفرد إلى خطاب الجمع ، والأصل في هذا الكلام خطاب المجموع أعني خطاب رسول الله ﷺ وأُمّته جميعاً لكن ربّما التفّت إلى خطاب الرسول ﷺ وحده في غير جهات الأحكام كقوله : تلك حدود الله فلا تعتدوها اه وقوله فأولئك هم الظالمون اه وقوله : وبعولتهنّ أحقّ بردهنّ في ذلك اه وقوله : ذلك يوعظ به من كان يؤمن بالله اه حفظاً لقوام الخطاب ، ورعاية لحال من هو ركن في هذه المخاطبة وهو رسول الله ﷺ فإنّه هو المخاطب بالكلام من غير واسطة ، وغيره مخاطبٌ بوساطته . وأمّا الخطابات المشتملة على الأحكام فجميعها موجّهة نحو المجموع ، ويرجع حقيقة هذا النوع من الالتفات الكلامي إلى توسعة الخطاب بعد توضيحه وتوسعته فليتدبّر فيه .

**قوله تعالى :** ذلكم أزكى لكم وأطهر اه ، الزكاة هو النموّ الصالح الطيّب ، وقد مرّ الكلام في معنى الطهارة ، والمشار إليه بقوله : ذلكم عدم المنع عن رجوعهنّ إلى أزواجهنّ أو نفس رجوعهنّ إلى أزواجهنّ ، والمآل واحد . وذلك أنّ فيه رجوعاً من الانشلام والانفصال إلى الالتئام والاتصال ، وتقوية لغريزة التوحيد في النفوس فينمو على ذلك جميع الفضائل الدينيّة ، وفيه تربية لملكة العفة والحياء فيهنّ وهو أستر لهنّ وأطهر لنفوسهنّ ، ومن جهة أخرى فيه حفظ لقلوبهنّ عن الوقوع على الأجانب إذا منعن عن نكاح أزواجهنّ .

والإسلام دين الزكاة والطهارة والعلم . قال تعالى : « ويزكّهم ويعلمهم الكتاب و

الحكمة « آل عمران - ١٦٤ » وقال تعالى : « ولكن يريد ليظهركم » المائدة - ٧ .  
**قوله تعالى :** والله يعلم وأنتم لا تعلمون اه أى إلا ما يعلمكم كما قال تعالى :  
 « ويعلمهم الكتاب والحكمة » آل عمران - ١٦٤ وقال تعالى : « ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء » البقرة - ٢٥٥ . فلاتنافي بين هذه الآية وبين قوله تعالى : وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون الآية أى يعلمون بتعليم الله .

**قوله تعالى :** والوالدان يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة اه ، والوالدان هن الأمهات ، وإنما عدل عن الأمهات إلى الوالدات لأن الأم أعم من الوالدة كما أن الأب أعم من الوالد والابن أعم من الولد . والحكم في الآية مشروع في خصوص مورد الوالدة والولد والمولود له ، وأما تبديل الوالد بالمولود له : ففيه إشارة إلى حكمة التشريع فإن الولد لما كان مولوداً للوالد ملحقاً به في معظم أحكام حيوته لا في جميعها كما سيجى . بيانها في آية التحريم من سورة النساء إنشاء الله كان عليه أن يقوم بمصالح حيوته ولوازم تربيته ، ومنها كسوة أمها التي ترضعه ، ونفقتهما ، وكان على أمه أن لا تضار والده لأن الولد مولود له .

ومن أعجب الكلام ما ذكر بعض المفسرين : أنه إنما قيل : المولود له دون الوالد : ليعلم أن الوالدات إنما ولدن لهن لأن الأولاد للآباء ولذلك ينسبون إليهم لا إلى الأمهات ، وأنشد المأمون ابن الرشيد :

وإنما أمهات الناس أوعية \* مستودعات وللآباء أبناء

انتهى ملخصاً ، وكأنه ذهل عن صدر الآية وذيلها حيث يقول تعالى : أولادهن اه ويقول : بولدها اه . وأما ما أنشده من شعر المأمون فهو وأمثاله أنزل قدراً من أن يتأيد بكلامه كلام الله تعالى وتقدس .

وقد اختلط على كثير من علماء الأدب أمر اللغة ، وأمر التشريع ( حكم الاجتماع ) ، وأمر التكوين فربما استشهدوا باللغة على حكم اجتماعي ، أو حقيقة تكوينية .  
 وجملة الأمر في الولد أن التكوين يلحقه بالوالدين معاً لاستناده في وجوده إليهما معاً ، والاعتبار الاجتماعي فيه مختلف بين الأم : فبعض الأم يلحقه بالوالدة ،

وبعضهم بالوالد والآية تقرّ قول هذا البعض ، وتشير إليه بقوله : المولود له كما تقدّم . والإرضاع إفعال من الرضاعة والرضع وهو مصّ الثدي بشرب اللبن منه ، والحوّل هو السنة سمّيت به لأنّها تحوّل ، وإنّما وصف بالكمال لأنّ الحوّل والسنة لكونه ذا أجزاء كثيرة ربّما يسامح فيه فيطلق على الناقص كالكمال ، فكثيراً ما يقال : أقمت هناك حولاً أو حولين إذا أقيم مدّة تنقص منه أياماً .

وفي قوله تعالى : لمن أراد أن يتمّ الرضاعة اه دلالة على أنّ الحضانة والإرضاع حقّ للوالدة المطلقة موكل إلى اختيارها ، والبلوغ إلى آخر المدّة أيضاً من حقّها فإن شأمت إرضاعه حولين كاملين فلها ذلك وإن لم تشأ التكميل فلها ذلك . وأمّا الزوج فليس له في ذلك حقّ إلّا إذا وافقت عليه الزوجة بتراض منهما كما يشير إليه قوله تعالى فإن أرادافصلاً إلخ .

**قوله تعالى :** وعلى المولود له رزقهنّ وكسوتهنّ بالمعروف لا تكلف نفس إلّا وسعها اه ، المراد بالمولود هو الوالد كما مرّ ، والرزق والكسوة هما النفقة واللباس ، وقد نزلهما الله تعالى على المعروف وهو المتعارف من حالهما ، وقد علّل ذلك بحكم عام آخر رافع للمخرج ، وهو قوله تعالى : لا تكلف نفس إلّا وسعها اه ، وقد فرّع عليه حكمين آخرين : أحدهما : حقّ الحضانة والارضاع اللّذي للزوجة وما أشبهه فلا يحقّ للزوج أن يحول بين الوالدة وولدها بمنعها عن حضانتها أو رؤيته أو ما أشبه ذلك فإنّ ذلك مضارّة وخرج عليها . وثانيهما : نفى مضارّة الزوجة للزوج بولده بأن تمنعه عن الرؤية ونحو ذلك ، وذلك قوله تعالى : لا تضارّ والدته بولدها ولا مولود له بولده . والنكته في وضع الظاهر موضع الضمير أعني في قوله : بولده دون أن يقول به رفع التناقض المتوهم ، فإنّه لو قيل : ولا مولود له به رجع الضمير إلى قوله ولدها وكان ظاهر المعنى : ولا مولود له بولد المرأة فأوهم التناقض لأنّ إسناد الولادة إلى الرجل يناقض إسنادها إلى المرأة . ففي الجملة مراعاة لحكم التشريع والتكوين معاً أي إنّ الولد لهما معاً تكويناً فهو ولده وولدها ، وله فحسب تشريعاً لأنّه مولود له .

**قوله تعالى :** وعلى الوارث مثل ذلك اه ، ظاهر الآية : أنّ اللّذي جعل على

الوالد من الكسوة والنفقة فهو مجعول على وارثه إن مات ، وقد قيل في معنى الآية أشياء أخر لا يوافق ظاهرها ، وقد تركنا ذكرها لأنها بالبحث الفقهي أمس فلتطلب من هناك ، والذي ذكرناه هو الموافق لمذهب أئمة أهل البيت فيما نقل عنهم من الأخبار ، وهو الموافق أيضاً لظاهر الآية .

**قوله تعالى :** فإن أرادوا فصلاً عن تراض منهما وتشاور إلى آخر الآية ، الفصل : الفطام . والتشاور : الاجتماع على المشورة . والكلام تفريع على الحق المجعول للزوجة ونفى الحرج عن اللبن ، فالحضانة والرضاع ليس واجباً عليها غير قابل للتغيير ، بل هو حق يمكنها أن تتركه .

فمن الجائز أن يتراضيا بالتشاور على فصل الولد من غير جناح عليهما ولا بأس ، وكذا من الجائز أن يسترضع الزوج لولده من غير الزوجة الوالدة إذا ردت الولد إليه بالامتناع عن إرضاعه ، أو لعلّة أخرى من انقطاع لبن أو مرض ونحوه إذا سلم لها ما تستحقّها تسليماً بالمعروف بحيث لا يزاحم في جميع ذلك حقّها ، وهو قوله تعالى : وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتكم بالمعروف .

**قوله تعالى :** واتقوا الله واعلموا أن الله بما تعملون بصير اه ، أمر بالتقوى وأن يكون هذا التقوى بإصلاح صورة هذه الأعمال ، فإنّها أمور مرتبطة بالظاهر من الصورة ، ولذلك قال تعالى : واعلموا أن الله بما تعملون بصير اه ، وهذا بخلاف ما في ذيل قوله تعالى السابق : وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن الآية من قوله تعالى : واتقوا الله واعلموا أن الله بكل شيء عليم اه فإن تلك الآية مشتملة على قوله تعالى : ولا تمسكوهنّ ضراً لتعتدوا اه والمضارة ربّما عادت إلى النية من غير ظهور في صورة العمل إلا بحسب الأثر بعد .

**قوله تعالى :** والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهنّ أربعة أشهر وعشراً اه ، التوفي هو الإماتة ، يقال : توفاه الله إذا مات فهو متوفى بصيغة اسم المفعول . ويذرون مثل يدعون بمعنى يتركون ولا ماضي لهما من مادّتهما ، والمراد بالعشر الأيّام حذفت لدلالة الكلام عليه .

قوله تعالى : فإذا بلغن أجلهنّ فلا جناح عليكم فيما فعلن في أنفسهنّ بالمعروف اه ، المراد ببلوغ الأجل انقضاء العدة ، وقوله : فلا جناح إلخ كناية عن إعطاء الاختيار لهنّ في أفعالهنّ فإن اخترن لأنفسهنّ الأزواج فلهنّ ذلك ، وليس لقراءة الميّت منعنّ عن شيء ، من ذلك استناداً إلى بعض العادات المبنيّة على الجهالة والعمى أو الشحّ والحسد فإنّ لهنّ حقّاً في ذلك معروفاً في الشرع وليس لأحد أن ينهى عن المعروف .

وقد كانت الأمم على أهواء شتّى في المتوفى عنها زوجها : بين من يحكم بإحراق الزوجة الحيّة مع زوجها الميّت أو إلحادها وإقبارها معه ، وبين من يقضي بعدم جواز ازدواجها ما بقيت بعده إلى آخر عمرها كالنصارى ، وبين من يوجب اعتزالها عن الرجال إلى سنة من حين الوفاة كالعرب الجاهليّ ، أو ما يقرب من السنة كسبعة أشهر كما هو كذلك عند بعض الملل الراقية ، وبين من يعتقد أنّ للزوج المتوفى حقّاً على الزوجة في الكفّ عن الأزواج حيناً من غير تعيين للمدة ، كلّ ذلك لما يجدونه من أنفسهم أنّ الأزواج للاشتراك في الحياة والامتزاج فيها ، وهو مبنيّ على أساس الأُنس والالفة والحبّ ، وللحبّ حرمة يجب رعايتها ، وهذا وإن كان معنيّ قائماً بالطرفين ، ومرتبّطاً بالزوج والزوجة معاً فكلّ منهما أخذته الوفاة كان على الآخر رعاية هذه الحرمة بعد صاحبه ، غير أنّ هذه المراعات على المرمّة أوجب وألزم ، لما يجب عليها من مراعاة جانب الأحياء والاحتجاب والعفة ، فلا ينبغي لها أن تبذل فتكون كالسلعة المبتذلة الدائرة تعورها الأيدي واحدة بعد واحدة ، فهذا هو الموجب لما حكم به هذه الأقوام المختلفة في المتوفى عنها زوجها ، وقد عيّن الإسلام هذا التربّص بما يقرب من ثلث سنة ، أعني أربعة أشهر وعشراً .

قوله تعالى : والله بما تعملون خيرٌ اه ، لمّا كان الكلام مشتملاً على تشريع عدة الوفاة و على تشريع حقّ الأزواج لهنّ بعدها ، وكان كلّ ذلك تشخيصاً للأعمال مستنداً إلى الخبرة الإلهيّة كان الأنسب تعليله بأنّ الله خيرٌ بالأعمال مشخّص للمحظور منها عن المباح ، فعليهنّ أن يتربّصن في مورد وأن يخترن ما شئن لأنفسهنّ في مورد آخر ، ولذا ذيل الكلام بقوله : والله بما تعملون خيرٌ اه .

**قوله تعالى :** لاجنّاح عليكم فيما عرّضتم به من خطبة النساء أو أكنتم في أنفسكم اه ، التعريض هو الميل بالكلام إلى جانب ليفهم المخاطب أمراً مقصوداً للمتكلّم لا يريد التصريح به ، من العرض بمعنى الجانب فهو خلاف التصريح . والفرق بين التعريض والكناية أنّ للكلام الذي فيه التعريض معنى مقصوداً غير ما عرّض به كقول المخاطب للمرأة : إنّي حسن المعاشرة وأحبّ النساء ، أى لو تزوّجت بي سعدت بطيب العيش وصرت محبوبة ، بخلاف الكناية إذ لا يقصد في الكناية غير المكنى عنه كقولك : رأيت أسداً تريد زيدا ، وقولك : في الصيف ضيّعت اللبن تريد أنّه قد خاب السعي وانقضى وقت الطلب .

والخطبة بكسر الخاء من الخطاب بمعنى التكلّم والمراجعة في الكلام ، يقال : خطب المرأة خطبة بالكسر إذا كلّمها في أمر التزوّج بها فهو خاطب ولا يقال : خطيب ، ويقال خطب القوم خطبة بضمّ الخاء إذا كلّمهم ، وخاصة في الوعظ فهو خاطب من الخطّاب وخطيب من الخطباء .

والإكنان من الكنّ بالفتح بمعنى السתר لكن يختصّ الإكنان بما يستر في النفس كما قال : أو أكنتم في أنفسكم و الكنّ بما يستر بشيء من الأجسام كمحافظة أُنُوب أو بيت . قال تعالى : « كأنّهنّ بيض مكنون » الصافات - ٤٩ و قال تعالى : « كأنّما لؤلؤة المكنون » الواقعة - ٢٣ . والمراد بالآية نفى البأس عن التعريض في الخطبة أو إخفاء الأمور في القلب في أمرها .

**قوله تعالى :** علم الله أنّكم ستذكرونهنّ اه في مورد التعليل لنفى الجناح عن الخطبة والتعريض فيها . والمعنى : أن ذكركم إيهان أمر مطبوع في طبعكم والله لا ينهى عن أمر تقضي به غريز تكلم الفطريّة ونوع خلقكم ، بل يجوّزه ، وهذا من الموارد الظاهرة في أنّ دين الإسلام مبنيٌّ على أساس الفطرة .

**قوله تعالى :** ولا تعزموا عقدة النكاح حتّى يبلغ الكتاب أجله اه ، العزم عقد القلب على الفعل وتثبيت الحكم بحيث لا يبقى فيه وهنّ في تأثيره إلّا أن يبطل من رأس . والعقدة من العقد بمعنى الشدّ . وفي الكلام تشبيهه علقّة الزوجيّة بالعقدة التي يعقد بها أحد الخيطين بالآخر بحيث يصيران واحداً بالاتصال ، كأنّ حباله النكاح تصير الزوجين واحداً متصلاً ،

ثم في تعليق عقدة النكاح بالعزم الذي هو أمرٌ قلبيُّ إشارة إلى أنَّ سنخ هذه العقدة والعلاقة أمر قائم بالنية والاعتقاد فإنها من الاعتبارات العقلانية التي لا موطن لها إلا ظرف الاعتقاد والإدراك ، نظير الملك وسائر الحقوق الاجتماعية العقلانية كما مرَّ بيانه في ذيل قوله تعالى : «كان الناس أمة واحدة الآية» البقرة- ٢١٣ . ففي الآية استعارة وكناية . والمراد بالكتاب هو المكتوب أى المفروض من الحكم وهو التبرُّض الذي فرضه الله على المعتدات .

فمعنى الآية : ولا تُجروا عقد النكاح حتى ينقضي عدَّتْهنَّ ، وهذه الآية تكشف أن الكلام فيها وفي الآية السابقة عليها أعني قوله تعالى : لا جناح عليكم فيما رزقتم به من خبطة النساء الآية إنما هو في خطبة المعتدات وفي عقدهنَّ ، وعليها فاللام في قوله : النساء اه للعهد دون الجنس وغيره .

قوله تعالى : واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم إلخ إيراد ما ذكر من صفاته تعالى في الآية ، أعني العلم والمغفرة والحكم يدل على أن الأمور المذكورة في الآيتين وهي خطبة المعتدات والتعريض بهنَّ ومواعدتهنَّ سرّاً من موارد الهلكات لا يرزقها الله سبحانه كل الارتضاء وإن كان قد أجاز ما أجازها منها .

قوله تعالى : لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ما لم تمسوهنَّ أو تفرضا لهنَّ فريضة اه ، المس كناية عن الموافقة ، والمراد بفرض الفريضة تسمية المهر ، والمعنى : أن عدم مس الزوجة لا يمنع عن صحة الطلاق وكذا عدم ذكر المهر .

قوله تعالى : وتمتعوهنَّ على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف اه ، التمتع إعطاء ما يتمتع به ، والمتاع والمتعة ما يتمتع به ، ومتاعاً مفعول مطلق لقوله تعالى : وتمتعوهنَّ ، اعترض بينهما قوله تعالى : على الموسع قدره وعلى المقتر قدره اه . والموسع اسم فاعل من أوسع إذا كان على سعة من المال و كآفته من الأفعال المتعدية التي كثر استعمالها مع حذف المفعول اختصاراً حتى صار يفيد ثبوت أصل المعنى فصار لازماً . والمقتر اسم فاعل من أقتر إذا كان على ضيق من المعاش . والقدر بفتح الدال وسكونها بمعنى واحد ومعنى الآية : يجب عليكم أن تمتعوا المطلقات عن غير فرض فريضة متاعاً بالمعروف ،

وإنما يجب على الموسع قدره أى ما يناسب حاله ويتقدّر به وضعه من التمتع، وعلى المقتر قدره من التمتع. وهذا ينطبق على مهر المثل للمطلقة التي لم يسمّ مهرها، والدليل على أن هذا التمتع المذكور مختصّ بها ولا يعمّ المطلقة التي لم يدخل بها ما في الآية التالية من بيان حكمها.

**قوله تعالى :** حقّاً على المحسنين اه أى حقّ الحكم حقّاً على المحسنين، وظاهر الجملة وإن كان كون الوصف أعني الإحسان دخیلاً في الحكم، وحيث ليس الإحسان واجباً استلزم كون الحكم استحبابياً غير وجوبيّ، إلا أن النصوص من طرق أهل البيت تفسّر الحكم بالوجوب، ولعلّ الوجه فيه مامر من قوله تعالى: الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح باحسان الآية فأوجب الإحسان على المسرّ حين وهم المطلّقون فهم المحسنون، وقد حقّ الحكم في هذه الآية على المحسنين وهم المطلّقون، والله أعلم.

**قوله تعالى :** وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن إلخ أى وإن أوقعتم الطلاق قبل الدخول بهنّ وقد فرضتم لهنّ فريضة وسميتم المهر فيجب عليكم تأدية نصف ما فرضتم من المهر إلا أن يعفون هؤلاء المطلقات أو يعفوا الذي بيده عقدة النكاح من وليهنّ فيسقط النصف المذكور أيضاً، أو الزوج فإنّ عقدة النكاح بيده أيضاً، فلا يجب على الزوجة المطلقة ردّ نصف المهر الذي أخذت، والعفو على أى حال أقرب للتقوى لأنّ من أعرض عن حقّه الثابت شرعاً فهو على الإعراض عمّا ليس له بحقّ من محارم الله سبحانه أقوى وأقدر.

**قوله تعالى :** ولا تنسوا الفضل بينكم إلخ، الفضل هو الزيادة كالفضل غير أن الفضل هو الزيادة في المكارم والمحامد والفضول هو الزيادة الغير المحمودة على ما قيل، وفي الكلام ذكر الفضل الذي ينبغي أن يؤثّر الإنسان في جامعة الحيوة فيتفاضل به البعض على بعض، والمراد به الترغيب في الإحسان والفضل بالعفو عن الحقوق والتسهيل والتخفيف من الزوج للزوجة وبالعكس، والنكتة في قوله تعالى: إن الله على كلّ شيء بصير اه كالنكتة فيما مرّ في ذيل قوله تعالى: والوالدات يرضعن أولادهنّ الآية.

**قوله تعالى :** حافظوا على الصلوات إلى آخر الآية، حفظ الشيء ضبطه وهو في-

المعاني أعني حفظ النفس لما تستحضره أو تدركه من المعاني أغلب ، والوسطى مؤنث الأوسط ، والصلوة الوسطى هي الواقعة في وسطها ، ولا يظهر من كلامه تعالى ما هو المراد من الصلوة الوسطى ، وإنما تفسره السنة ، وسيجيء ما ورد من الروايات في تعيينه .

واللام في قوله تعالى : قوهو الله اه للغاية ، والقيام بأمر كناية عن تقلده والملبس بفعله . والقنوت هو الخضوع بالطاعة . قال تعالى : « كل له قانتون » البقرة - ١١٧ وقال تعالى : « ومن يقنت منكن لله و لرسوله » الأحزاب - ٣١ . فمحصل المعنى : تلبسوا بطاعة الله سبحانه بالخضوع مخلصين له ولا أجله .

**قوله تعالى :** فإن خفتهم فرجالاً أو ركباناً إلى آخر الآية ، عطف الشرط على الجملة السابقة يدل على تقدير شرط محذوف أى حافظوا إن لم تخافوا ، وإن خفتهم فقد روا - المحافظة بقدر ما يمكن من الصلوة راجلين وقوفاً أو مشياً أو راكبين ، والرجال جمع راجل والركبان جمع راكب ، وهذه صلوة الخوف .

والفاء في قوله تعالى : فإذا أمنتهم اه للتفريع أى أن المحافظة على الصلوات أمر غير ساقط من أصله بل إن لم تخافوا شيئاً و أمكنت لكم وجبت عليكم وإن تسر عليكم فقد رواها بقدر ما يمكن لكم ، وإن زال عنكم الخوف بتجدد الأمن ثانياً عاد الوجوب و وجب عليكم ذكر الله سبحانه .

والكاف في قوله تعالى : كما علمكم اه للتشبيه ، وقوله : ما لم تكونوا تعملون من قبيل وضع العام موضع الخاص دلالة على الامتنان بسعة النعمة والتعليم ؛ والمعنى عليهذا : فاذكروا الله ذكراً يماثل ما علمكم من الصلوة المفروضة المكتوبة في حال الأمن في ضمن ما علمكم من شرائع الدين .

**قوله تعالى :** والذين يتوفون منكم و يذرون أزواجاً وصية لأزواجهم اه ، وصية مفعول مطلق لقدّر ، والتقدير ليوصوا وصية ينتفع به أزواجهم ويتمتعن متاعاً إلى الحول بعد التوفي .

وتعريف الحول باللام لا يخلو عن دلالة على كون الآية نازلة قبل تشريع عدة الوفاة ، أعني الأربعة أشهر و عشرة أيام فإن عرب الجاهلية كانت نسأهم يقعدن بعد موت

أزواجهنّ حولاً كاملاً، فالآية توصي بأن يوصي الأزواج لهنّ بمال يتمتّعن به إلى تمام الحول من غير إخراجهنّ من بيوتهنّ، غير أن هذا لما كان حقّاً لهنّ والحقّ يجوز تركه كان لهنّ أن يطالبن به، وأن يتركنه فإن خرجن فلا جناح للمورثة ومن يجري مجراهم فيما فعلن في أنفسهنّ بالمعروف. وهذا نظير ما أوصى الله به من حضرة الملوّات أن يوصي للموالدين والأقربين بالمعروف. قال تعالى: «كتب عليكم إذا حضر أحدكم الملوّات إن ترك خيراً الوصيّة للموالدين والأقربين بالمعروف حقّاً على المتّقين» البقرة - ١٨٠.

ومما ذكرنا يظهر أن الآيّة منسوخة بآيّة عدّة الوفاة وآيّة الميراث بالربع والثّمن.

**قوله تعالى:** وللمطلّقات متاع بالمعروف حقّاً على المتّقين اه، الآيّة في حقّ مطلق

المطلّقات، وتعليق ثبوت الحكم بوصف التقوى مشعرٌ بالاستحباب.

**قوله تعالى:** كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلّكم تعقلون اه، الأصل في معنى العقل

العقد والإمساك وبه سمّي إدراك الإنسان إدراكاً يعقد عليه عقلاً، وما أدركه عقلاً، والقوّة التي يزعم أنها إحدى القوّة التي يتصرّف بها الإنسان يميّز بها بين الخير والشرّ والحقّ والباطل عقلاً، ويقابله الجنون والسفه والحمق والجهل باعتبارات مختلفة.

والألفاظ المستعملة في القرآن الكريم في أنواع الإدراك كثيرة ربّما بلغت العشرين،

كالظنّ، والحسبان، والشعور، والذكر، والعرفان، والفهم، والفقه، والدراية، و - اليقين، والفكر، والرأى، والزّعم، والحفظ، والحكمة، والخبرة، والشهادة، والعقل، ويلحق بها مثل التقوى، والفتوى، والبصيرة ونحو ذلك.

والظنّ هو التصديق الراجح وإن لم يبلغ حدّ الجزم والقطع، وكذا الحسبان،

غير أن الحسبان كأن استعماله في الإدراك الظنّي استعمال استعاريّ، كالعدّ بمعنى - الظنّ وأصله من نحو قولنا: عدّ زيدا من الأبطال وحسبه منهم أى ألحقه بهم في العدّ والحساب.

والشعور هو الإدراك الدقيق مأخوذ من الشعور لدقّته، ويغلب استعماله في المحسوس

دون المعقول، ومنه إطلاق المشاعر للحواس.

والذكر هو استحضار الصورة المخزونة في الذهن بعد غيبته عن الإدراك أو حفظه

من أن يغيب عن الإدراك .

والعرفان والمعرفة تطبيق الصورة الحاصلة في المدركة على ما هو مخزون في الذهن ،  
ولذا قيل : إنه إدراك بعد علم سابق .

والفهم : نوع انفعال للذهن عن الخارج عنه بانتقاش الصورة فيه .

والفقه : هو التثبت في هذه الصورة المنتقشة فيه والاستقرار في التصديق .

والدراية : هو التوغل في ذلك التثبت والاستقرار حتى يدرك خصوصية المعلوم  
وخباياه ومزاياه ، ولذا يستعمل في مقام تفخيم الأمر وتعظيمه . قال تعالى : « الحاقّة ما  
الحاقّة وما أدراك ما الحاقّة » الحاقّة - ٢ و قال تعالى : « إنّنا أنزلناه في ليلة القدر وما  
أدراك ما ليلة القدر » القدر - ٢ .

واليقين : هو اشتداد الإدراك الذنعي بحيث لا يقبل الزوال والوهن .

والفكر : نحو سير و مرور على المعلومات الموجودة الحاضرة لتحصيل ما  
يلازمها من المجهولات .

والرأى : هو التصديق الحاصل من الفكر والرؤى ، غير أنه يغلب استعماله في  
العلوم العملية مما ينبغي فعله و ما لا ينبغي دون العلوم النظرية الراجعة إلى الأمور  
التكوينية ، ويقرب منه البصيرة ، والإفتاء ، والقول ، غير أن استعمال القول كأنه استعمال  
استعاري من قبيل وضع اللازم موضع الملزوم لأنّ القول في شيء يستلزم الاعتقاد بما  
يدل عليه .

والزعم : هو التصديق من حيث أنه صورة في الذهن سواء كان تصديقاً راجحاً  
أو جازماً قاطعاً .

والعلم كما مرّ : هو الإدراك المانع من النقيض .

والحفظ : ضبط الصورة المعلومة بحيث لا يتطرق إليه التغير والزوال .

والحكمة : هي الصورة العلمية من حيث إحكامها وإتقانها .

والخبرة : هو ظهور الصورة العلمية بحيث لا يخفى على العالم ترتب أي نتيجة  
على مقدّماتها .

والشهادة : هونيل نفس الشيء وعينه إمّا بحسّ ظاهر كما في المحسوسات أو باطن كما في الوجدانيات نحو العلم والإرادة والحبّ والبغض أو ما يضافي ذلك .  
والألفاظ السابقة على ما عرفت من معانيها لا تخلو عن ملابسة المادة والحركة والتغير ، ولذلك لا تستعمل في موردته تعالى غير الخمسة الأخيرة منها أعني العلم والحفظ والحكمة والخبرة والشهادة ، فلا يقال فيه تعالى : إنّه يظنّ أو يحسب أو يزعم أو يفهم أو يفقه أو غير ذلك .

و أمّا الألفاظ الخمسة الأخيرة فلعدم استلزامها للنقص والفقْدان تستعمل في موردته تعالى . قال سبحانه : « والله بكلّ شيء عليم » النساء - ٧٥ و قال تعالى : « وربّك على كلّ شيء حفيظ » النساء - ٢١ و قال تعالى : « والله بما تعملون خبير » البقرة - ٢٣٤ و قال تعالى : « وهو العليم الحكيم » يوسف - ٨٣ و قال تعالى : « إنّه على كلّ شيء شهيد » فصلت - ٥٣ .

ولنرجع إلى ما كنّا فيه فنقول : لفظ العقل على ما عرفت يطلق على الإدراك من حيث أنّ فيه عقد القلب بالتصديق ، على ما جبّل الله سبحانه الإنسان عليه من إدراك الحقّ والباطل في النظريّات ، والخير والشرّ والمنافع والمضارّ في العمليّات حيث خلقه الله سبحانه خلقه يدرك نفسه في أوّل وجوده ، ثمّ جهّزه بجواسّ ظاهرة يدرك بها ظواهر الأشياء ، وبأخرى باطنة يدرك معاني روحية بها ترتبط نفسه مع الأشياء الخارجة عنها كالإرادة ، والحبّ والبغض ، والرجاء ، والخوف ، ونحو ذلك ، ثمّ يتصرّف فيها بالترتيب والتفصيل والتخصيص والتعميم ، فيقضي فيها في النظريّات والأُمور الخارجة عن مرحلة العمل قضاءً نظريّاً ، وفي العمليّات والأُمور المربوطة بالعمل قضاءً عمليّاً ، كلّ ذلك جريّاً على المجرى السّذي تشخّصه له فطرته الأصليّة ، وهذا هو العقل .

لكن ربّما تسلّط بعض القوى على الإنسان بغلبته على سائر القوى كالشهوة والغضب فأبطل حكم الباقي أوضعفه ، فخرج الإنسان به عن صراط الاعتدال إلى أودية الإفراط والتفريط ، فلم يعمل هذا العامل العقليّ فيه على سلامته ، كالفاضي السّذي يقضي

بمدارك أو شهادات كاذبة منحرفة محرقة ، فإنّه يحيد في قضائه عن الحقّ وإن قضى غير قاصد للباطل ، فهو قاض وليس بقاض ، كك الإنسان يقضي في مواطن المعلومات الباطلة بما يقضي ، وإنّه وإن سمّي عمله ذلك عقلاً بنحو من المسامحة ، لكنّه ليس بعقل حتمية لخروج الإنسان عند ذلك عن سلامة الفطرة وسنن الصواب .

وعلى هذا أجرى كلامه تعالى ، فإنّه يعرف العقل بما ينفع به الإنسان في دينه ويركب به هدايه إلى حقائق المعارف و صالح العمل ، وإذالم يجر على هذا المجرى فلا يسمّى عقلاً ، وإن عمل في الخير والشرّ الدينيّ فقط . قال تعالى : «وقالوا لو كنّا نسمع أو نفعل ما كنّا في أصحاب السعير » الملك - ١٠ .

وقال تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنّها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور » الحجّ - ٤٦ . فالآيات كما ترى تستعمل العقل في العلم الذي يستقلّ الإنسان بالقيام عليه بنفسه ، والسمع في الإدراك الذي يستعين فيه بغيره مع سلامة الفطرة في جميع ذلك . وقال تعالى : « ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه » البقرة - ١٣٠ ، وقد مرّ أن الآية بمنزلة عكس النقيض لقوله ﷺ : العقل ماعبد به الرّحمن الحديث .

فقد تبين من جميع ما ذكرنا : أن المراد بالعقل في كلامه تعالى هو الإدراك الذي يتمّ للإنسان مع سلامة فطرته ، وبه يظهر معنى قوله سبحانه : كذلك يبين لكم آياته لعلّكم تعقلون ، فبالبيان يتمّ العلم ، والعلم مقدّمة للعقل ووسيلة إليه كما قال تعالى : « وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون » الزمر - ٢٣ .

### ﴿ بحث روائى ﴾

في سنن أبي داود عن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصاريّة ، قالت : طلّقت على عهد رسول الله ﷺ ولم يكن للمطلّقة عدّة فأنزل حين طلّقت العدّة للطلاق : والمطلّقات يتربّصن بأنفسهنّ ثلاثة قروء فكانت أوّل من أنزلت فيها العدّة للطلاق . وفي تفسير العيّاشيّ في قوله تعالى : والمطلّقات يتربّصن بأنفسهنّ ثلاثة قروء عن زرارة قال : سمعت ربيعة الرأى وهو يقول : إنّ من رأي أن الأقرء التي سمّى الله

في القرآن إنما هي الطهر فيما بين الحيضتين وليس بالحيض ، قال : فدخلت على أبي جعفر عليه السلام فحدثته بما قال ربيعة فقال : ولم يقل برأيه إنما بلغه عن علي عليه السلام فقلت : أصلحك الله أكان علي عليه السلام يقول ذلك ؟ قال : نعم ، كان يقول : إنما القراء الطهر ، تقرأ فيه الدم فتجمعه فإذا جاءت دفعته ، قلت : أصلحك الله رجل طلق امرأته طاهراً من غير جماع بشهادة عدلين ؟ قال : إذا دخلت في الحيضة الثالثة فقد انقضت عدتها وحلت للأزواج ، الحديث .

**أقول :** هذا المعنى مروي بعدة طرق عنه عليه السلام ، وقوله : قلت : أصلحك الله أكان علي عليه السلام يقول ذلك إنما استفهم ذلك بعد قوله عليه السلام : إنما بلغه عن علي عليه السلام اه لما اشتهر بين العامة عن علي عليه السلام أنه كان يقول : إن القراء في الآية هي الحيض دون الأطهار كما في الدر المنثور عن الشافعي وعبد الرزاق وعبد بن حميد والبيهقي عن علي عليه السلام بن أبي طالب عليه السلام قال : تحل لزوجها الرجعة عليها حتى تغتسل من الحيضة الثالثة وتحل للأزواج ، لكن أئمة أهل البيت ينكرون ذلك وينسبون إليه عليه السلام : أن الأقرء الأطهار دون الحيض كما مرّت في الرواية ، وقد نسبوا هذا القول إلى عدة أخرى من الصحابة غيره عليه السلام كزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر وعائشة ورووه عنهم .

وفي المجمع عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : ولا يحلّ لهنّ أن يكتمن ما خلق الله في أرحامهنّ الآية : الحبل والحيض .

و في تفسير القمي : وقد فوّض الله إلى النساء ثلاثة أشياء : الطهر والحيض والحبل .

وفي تفسير القمي أيضاً في قوله تعالى : وللرجال على النساء درجة ، قال : قال عليه السلام : حق الرجال على النساء أفضل من حق النساء على الرجال .

**أقول :** وهذا لا ينافي التساوي من حيث وضع الحقوق كما مرّ .

وفي تفسير العياشي في قوله تعالى : الطلاق مرّتان فأمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، عن أبي جعفر عليه السلام ، قال : إنّ الله يقول الطلاق مرّتان فأمساك بمعروف أو تسريح بإحسان والتسريح بالإحسان هو التطليقة الثالثة .

وفي التهذيب عن أبي جعفر عليه السلام، قال : طلاق السنة يطلقها تطليقة يعني على طهر من غير جماع بشهادة شاهدين ثم يدعها حتى تمضي أقرائها فإذا مضت أقرائها فقد بانث منه وهو خاطب من الخطباء : إن شئت نكحته ، وإن شئت فلا ، وإن أراد أن يراجعها أشهد على رجعتها قبل أن تمضي أقرائها ، فتكون عنده على التطليقة المماضية ، الحديث .

وفي الفقيه عن الحسن بن فضال، قال : سألت الرضا عن العلة التي من أجلها لا تحل المطلقة لعدة لزوجها حتى تنكح زوجاً غيره فقال عليه السلام : إن الله عز وجل إنما أذن في الطلاق مرتين فقال عز وجل : الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، يعني في التطليقة الثالثة ، ولدخوله فيما كره الله عز وجل من الطلاق الذي حرّمها عليه فلا تحل له حتى تنكح زوجاً غيره لئلا يوقع الناس في الاستخفاف بالطلاق ولا تضار النساء ، الحديث .

**أقول :** مذهب أئمة أهل البيت : أن الطلاق بلفظ واحد أو في مجلس واحد لا يقع إلا تطليقة واحدة ، وإن قال طلقتك ثلاثاً على ما روته الشيعة . وأما أهل السنة والجماعة فرواياتهم فيه مختلفة : بعضها يدل على وقوعه طلاقاً واحداً ، وبعضها يدل على وقوع الثلاث ، وربما روي ذلك عن عليّ و جعفر بن محمد عليهما السلام ، لكن يظهر من بعض رواياتهم التي رواها أرباب الصحاح كمسلم و النسائي و أبي داود وغيرهم : أن وقوع الثلاث بلفظ واحد مما أجازه عمر بعد مضي سنتين أو ثلاث من خلافته . ففي الدر المنثور : أخرج عبد الرزاق و مسلم و أبو داود و النسائي و الجاهم و البيهقي عن ابن عباس قال : كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ و أبي بكر و سنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث وأحد فقال : عمر بن الخطاب : إن الناس قد استعجلوا في أمر كان لهم فيه أناة فلو أمضينا عليهم فأمضاه عليهم .

وفي سنن أبي داود عن ابن عباس قال : طلق عبد يزيد أبو بكر كان أم ركنة و نكح امرأة من مزينة فجاءت النبي ﷺ فقالت : ما يغني عني إلا كما تغني هذه الشعرة لشعرة أخذتها من رأسها ، ففرق بيني وبينه فأخذت النبي ﷺ حمية فدعابر كانه وإخوته

ثم قال لجلساءه : أترون فلاناً يشبه منه كذا وكذا وفلان منه كذا وكذا ؟ قالوا : نعم .  
قال النبي ﷺ لعبد يزيد : طلقها ففعل ، قال : راجع امرأتك أم ركانة فقال : إنني  
طلقتها ثلاثاً يا رسول الله ، قال : قد علمت ارجعها وتلا : ياأيها النبي إذا طلقتم النساء  
فطلقوهن لعدتهن .

وفي الدر المنثور عن البيهقي عن ابن عباس ، قال : طلق ركانة امرأته ثلاثاً في مجلس  
واحد فحزن عليها حزناً شديداً فسأله رسول الله ﷺ كيف طلقتها ؟ قال طلقتها ثلاثاً  
في مجلس واحد ، قال : نعم فإنما تلك واحدة فارجعها إن شئت فراجعها فكان ابن عباس  
يرى أنهما الطلاق عند كل طهر فتلك السنة التي أمر الله بها : فطلقوهن لعدتهن .  
أقول : وهذا المعنى مروي في روايات أخرى أيضاً والكلام على هذه الإجازة  
نظير الكلام المتقدم في متعة الحج .

وقد استدلل على عدم وقوع الثلاث بلفظ واحد بقوله تعالى : الطلاق مرتان  
فإن المرتين والثلاث لا يصدق على ما أنشئ بلفظ واحد كما في مورد اللعان بإجماع  
الكل .

وفي المجمع في قوله تعالى : أو تسريحاً بإحسان ، قال : فيه قولان : أحدهما : أنه  
الطَّلقة الثالثة ، والثاني : أنه يترك المعتدة حتى تبين بانقضاء العدة . عن السدي والضحاك ،  
وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام .

أقول : والأخبار كما ترى تختلف في معنى قوله : أو تسريحاً بإحسان .  
وفي تفسير القمي في قوله تعالى : ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً  
إلا أن يخافا أن لا يقيما حدود الله الآية ، عن الصادق عليه السلام قال : الخلع لا يكون إلا أن  
تقول المرأة لزوجها : لا أبر لك قصماً ، ولا أخرجن بغير إذنك ، ولا وطن فراشك غيرك  
ولا أغتسل لك من جنبه ، أو تقول : لا أطيع لك أمراً أو تطلقني ، فإذا قالت ذلك فقد  
حل له أن يأخذ منها جميع ما أعطاهما وكل ما قدر عليه مما تعطيه من مالها ، فإذا  
تراضيا على ذلك طلقها على طهر بشهود فقد بانت منه بواحدة ، وهو خاطب من الخطباء ،  
فإن شامت زوجها نفسها ، وإن شامت لم تفعل ، فإن زوجها فهي عنده على اثنتين باقيتين

وينبغي له أن يشترط عليها كما اشترط صاحب المباراة فإذا ارتفعت في شيء مما أعطيتني فأنا أملك ببضعك . وقال عليه السلام : لا خلع ولا مباراة ولا تخيير إلا على طهر من غير جماع بشهادة شاهدين عدلين ، والمختلعة إذا تزوجت زوجاً آخر ثم طلقها يحل للأول أن يتزوج بها . وقال : لا رجعة للزوج على المختلعة ولا على المباراة إلا أن يبدو للمرأة فيرد عليها ما أخذ منها .

وفي الفقيه عن الباقر عليه السلام قال : إذا قالت المرأة لزوجها جملة : لا أطيع لك أمراً مفسرة أو غير مفسرة حل له أن يأخذ منها ، وليس له عليها رجعة .

وفي الدر المنثور : أخرج أحمد عن سهل بن أبي حنمة ، قال : كانت حبيبة ابنة سهل تحت ثابت بن قيس بن شماس فكرهته ، وكان رجلاً دميماً فجاءت وقالت : يا رسول الله إنني لا أراه ، فلولوا مخافة الله لبزقت في وجهه فقال لها : أتردين عليه حديقته التي أصدقك ؟ قالت : نعم فردت عليه حديقته وفرق بينهما ، فكان ذلك أول خلع كان في الإسلام .

وفي تفسير العياشي عن الباقر عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى : وتلك حدود الله فلا تعتدوها الآية فقال : إن الله غضب على الزاني فجعل له مائة جلدة فمن غضب عليه فزاد فأنا إلى الله منه برى ، فذلك قوله تعالى : تلك حدود الله فلا تعتدوها .

وفي الكافي عن أبي بصير قال : المرأة التي لا تحل لزوجها حتى تنكح زوجاً غيره ، قال : هي التي تطلق ثم تراجع ثم تطلق الثالثة ، وهي التي لا تحل لزوجها حتى تنكح زوجاً غيره ويدوق عسيلتها .

أقول : العسيلة الجماع . قال في الصحاح : وفي الجماع العسيلة شبهت تلك اللذة بالعسل ، وصغرت بالهاء لأن الغالب في العسل التأنيث ويقال : إنما أنت لأنه أريد به العسلة وهي القطعة منه كما يقال للقطعة من الذهب : ذهبة ، انتهى .

وقوله عليه السلام : ويدوق عسيلتها اه كالاقتباس من كلمة رسول الله لا حتى تذوق عسيلته ويدوق عسيلتك اه في قصة دفاعه .

ففي الدر المنثور : عن البرزاز والطبراني والبيهقي : أن رفاعه بن سموأل طلق

امراته فأنت النبي ﷺ فقالت : يا رسول الله قد تزوجني عبد الرحمن وما معه إلا مثل هذه - وأومات إلى هدية من ثوبها - فجعل رسول الله يعرض عن كلامها ثم قال لها : تريدان أن ترجعي إلى رفاعه ؟ لا حتى تذوقي عسيلته ويذوق عُسيلتك .

**أقول :** والرواية من المشهورات ، رواها جمع كثير من الرواة من أرباب الصحاح وغيرهم من طرق أهل السنة، والجماعة وبعض الخاصة . وألفاظ الروايات وإن كانت مختلفة لكن أكثرها تشتمل على هذه اللفظة .

وفي التهذيب عن الصادق عليه السلام عن تزويج المتعة أيحلل ؛ قال : لا لأن الله يقول : فإن طلقها فلا تحل له أن تنكح زوجاً غيره فإن طلقها فلا جناح عليهما أن يترابعا، والمتعة ليس فيه طلاق .

وفيه أيضاً عن محمد بن مضارب قال : سئلت الرضا عليه السلام عن الخصي يحلل ؛ قال : لا يحلل .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن إلى قوله ولا تمسكوهن ضرراً لتعتدوا الآية ، قال : قال عليه السلام : إذا طلقها لم يجز له أن يراجعها إن لم يردّها .

وفي الفقيه عن الصادق عليه السلام قال : لا ينبغي للرجل أن يطلق امرأته ثم يراجعها، وليس له فيها حاجة ثم يطلقها، فهذا الضرر الذي نهى الله عنه ، إلا أن يطلق ثم يراجع وهو ينوي الإمساك .

وفي تفسير العياشي في قوله تعالى : ولا تتخذوا آيات الله هزواً الآية، عن عمر بن الجميع رفعه إلى أمير المؤمنين عليه السلام في حديث، قال : ومن قرأ القرآن من هذه الأمانة ثم دخل النار فهو ممن كان يتخذ آيات الله هزواً ، الحديث .

في صحيح البخاري في قوله تعالى : وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن ، الآية أن أخت معقل بن يسار طلقها زوجها فتركا حتى انقضت عدتها فخطبها فأبى معقل فنزلت : فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن .

**أقول :** وروى هذا المعنى في الدر المنثور عنه وعن عدة من أرباب الصحاح

كالنسائي وابن ماجه والترمذي وأبي داود وغيرهم .  
وفي الدر المنثور أيضاً عن السدي، قال : نزلت هذه الآية في جابر بن عبد الله الأنصاري كانت له ابنة عم فطلقها زوجها تطليقة وأنقضت عدتها فأراد مراجعتها فأبى جابر فقال : طلق ابنة عمنا ثم تريد أن تنكحها الثانية وكانت المرأة تريد زوجها فأنزل الله وإذا طلقتم النساء، الآية .

**أقول :** لا ولاية للأخ ولا لابن العم على مذهب أئمة أهل البيت فلو سلمت إحدى الراويتين كان النهي في الآية غير مسوق لتحديد ولاية ، ولا لجعل حكم وضعي بل للإرشاد إلى قبح الحيلولة بين الزوجين أو لكرهه أو حرمة تكليفية متعلقة بكل من يعضلن عن النكاح لا غير .

و في تفسير العياشي في قوله تعالى : والوالدات يرضعن أولادهن ، الآية عن الصادق عليه السلام ، قال : والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين ، قال : مادام الولد في الرضاع فهو بين الأبوين بالسوية فإذا فطم فالوالد أحق به من العصة وإن وجد الأب من يرضعه بأربعة دراهم ، وقالت الأم : لا أرضعه إلا بخمسة دراهم فإن له أن ينزعه منها ، إلا أن ذلك أجبر له وأقدم وأرفق به أن يترك مع أمه .

وفيه أيضاً عنه في قوله تعالى : لاتضاروا الدة الآية ، قال عليه السلام : كانت المرأة ممن ترفع يدها إلى الرجل إذا أراد مجامعتها فتقول : لا أدعك ؛ إنني أخاف أن أحمل على ولدي ؛ ويقول الرجل للمرأة : لا أجامعك إنني أخاف أن تعلقني فأقتل ولدي ، فنهى الله أن يضار الرجل المرأة والمرأة الرجل .

وفيه أيضاً عن أحدهما عليهما السلام في قوله تعالى : و على الوارث مثل ذلك قال : هو في النفقة : على الوارث مثل ما على الوالد .

وفيه أيضاً عن الصادق عليه السلام في الآية ، قال : لا ينبغي للوارث أيضاً أن يضار المرأة فيقول : لا أدع ولدها يأتيها ، ويضار ولدها إن كان لهم عنده شيء ، ولا ينبغي له أن يقتل عليه .

وفيه أيضاً عن حماد عن الصادق عليه السلام قال : لا رضاع بعد فطام ، قال : قلت له : جعلت

فذاك وما الفطام؟ قال: الحولين الذي قال الله عز وجل.

**أقول:** قوله: الحولين اه حكاية لما في لفظ الآية ولذا وصفه عليه السلام بقوله: الذي قال الله.

وفي الدر المنثور: أخرج عبدالرزاق في المصنف وابن عدي عن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: لا يتم بعد حلم، ولا رضاع بعد فصال، ولا صمت يوم إلى الليل، ولا وصال في الصيام، ولا نذر في معصية، ولا نفقة في المعصية ولا يمين في قطيعة رحم، ولا تعرب بعد الهجرة، ولا هجرة بعد الفتح؛ ولا يمين لزوجة مع زوج، ولا يمين لولد مع والد؛ ولا يمين لمملوك مع سيده، ولا طلاق قبل نكاح، ولا عتق قبل ملك. وفي تفسير العياشي عن أبي بكر الحضرمي عن الصادق عليه السلام قال: لما نزلت هذه الآية: والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً تربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً جئن النساء يخاضعن رسول الله وقلن: لا نصبر فقال لهن رسول الله: كانت إحديكن إذا مات زوجها أخذت بعة فألقته خلفها في دبرها في خدرها ثم قعدت فإذا كان مثل ذلك اليوم من الحول أخذتها ففتقتها، ثم أكتحل بها، ثم تزوجت فوضع الله عنكن ثمانية أشهر.

وفي التهذيب عن الباقر عليه السلام: كل النكاح إذا مات الزوج فعلى المرأة حرّة كانت أو أمة، وعلى أي وجه كان النكاح منه متعة أو تزويجاً أو ملك يمين فالعدة أربعة أشهر وعشراً.

وفي تفسير العياشي عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال: قلت له: جعلت فداك كيف صارت عدة المطلقة ثلاث حيض أو ثلاثة أشهر وصارت عدة المتوفى عنها زوجها أربعة أشهر وعشراً؟ فقال: أما عدة المطلقة ثلاث قروء فلاجل استبراء الرحم من الولد، وأما عدة المتوفى عنها زوجها فإن الله شرط للنساء شرطاً وشرط عليهن: وأما ما شرط لهن ففي الإيلاء أربعة أشهر إذ يقول: للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فلن يجوز لأحد أكثر من أربعة أشهر لعلمه تبارك وتعالى أنها غاية صبر المرأة من الرّجل، وأما ما شرط عليهن فإنه أمرها أن تعتد إذا مات زوجها أربعة

أشهر وعسراً فأخذ له منها عند موته ما أخذ لها منه في حياته .

**أقول :** وهذا المعنى مروى أيضاً عن الرضا والهادي عليهما السلام بطرق أخرى وفي تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء ، الآية : المرأة في عدتها تقول لها قولاً جميلاً ترغبها في نفسك ، ولا تقول : إنني أصنع كذا أو كذا أو أصنع كذا القبيح من الأمر في البضع وكل أمر قبيح ، وفي رواية أخرى تقول لها وهي في عدتها : يا هذه لا أحب إلا ما أسرك ولو قد مضى عدتك لا تفوتيني إنشاء الله ، ولا تستبقي بنفسك ، وهذا كله من غير أن يعزموا عقده النكاح .

**أقول :** وفي هذا المعنى روايات أخر عنهم عليهم السلام . وفي تفسير العياشي في قوله تعالى : لا جناح عليكم إن طلقتم النساء ، الآية ، عن الصادق عليه السلام ، قال : إذا طلق الرجل امرأته قبل أن يدخل بها فلها نصف مهرها وإن لم يكن سمى لها مهرأ فمتاع بالمعروف على الموسع قدره وعلى المقتر قدره وليس لها عدة وتزوج من شئت من ساعتها .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في رجل طلق امرأته أن يدخل بها قال : عليه نصف المهر إن كان فرض لها شيئاً وإن لم يكن فرض لها فليمتنعها على نحو ما يمتنع مثلها من النساء .

**أقول :** وفيه تفسير المتاع بالمعروف .

وفي الكافي والتهذيب وتفسير العياشي وغيرها عن الباقر والصادق عليهما السلام في قوله تعالى : الذي بيده عقدة النكاح ، قال : هو الولي .

**أقول :** و الروايات فيه كثيرة ، وقد ورد في بعض الروايات من طرق أهل السنة والجماعة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وعلي عليه السلام : إن الذي بيده عقدة النكاح الزوج .

في الكافي والفقهاء وتفسير العياشي والقمي في قوله تعالى : حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى الآية بطرق كثيرة عن الباقر والصادق عليهما السلام : أن الصلوة

الوسطى هي الظهر .

**أقول:** هذا هو المأثور عن أئمة أهل البيت في الروايات المروية عنهم لسنا نأخذ واحداً .  
نعم في بعضها أنها الجمعة إلا أن المستفاد منها أنهم أخذوا الظهر والجمعة نوعاً واحداً لأنوعين اثنين كما رواه في الكافي وتفسير العياشي عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام واللفظ لما في الكافي، قال الله تعالى : حافظوا على الصلوات و الصلوة الوسطى ، وهي صلوة الظهر أو صلوة صلاتها رسول الله ، وهي وسط النهار، ووسط صلوتين بالنهار صلوة الغداة و صلوة العصر، قال : ونزلت هذه الآية ورسول الله في سفره فقنت فيها رسول الله وتركها على حالها في السفر والحضر وأضاف للمقيم ركعتين ، وإنما وضعت الركعتان اللتان أضافهما النبي صلى الله عليه وآله وسلم يوم الجمعة للمقيم لمكان الخطبتين مع الإمام فمن صلى يوم الجمعة في غير جماعة فليصلها أربع ركعات كصلوة الظهر في سائر الأيام، الحديث .  
والرواية كما ترى تعد الظهر والجمعة صلوة واحدة وتحكم بأنها هي الصلوة الوسطى ولكن معظم الروايات مقطوعة، وما كان منها مسنداً فمتنه لا يخلو عن تشويش كرواية الكافي وهي مع ذلك غير واضحة الإطباق على الآية، والله العالم .

وفي الدر المنثور : أخرج أحمد وابن المنيع والنسائي وابن جرير والشاشي والضياء من طريق الزبرقان : أن رهطاً من قريش مر بهم زيد بن ثابت وهم مجتمعون فأرسلوا إليه غلامين لهم يسألانه عن الصلوة الوسطى فقال : هي الظهر ، ثم انصرفا إلى أسامة بن أسامة بن زيد فسألاه فقال : هي الظهر ، إن رسول الله كان يصلي الظهر بالهجير فلا يكون ورائه إلا الصف والصفان ، والناس في قائمتهم وتجارتهم فأنزل الله : حافظوا على الصلوات والصلوة الوسطى وقوموا لله قانتين فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لينتهين رجال أو لأحرقن بيوتهم .

**أقول :** وروي هذا السبب عن زيد بن ثابت وغيره بطرق أخرى .

واعلم : أن الأقوال في تفسير الصلوة الوسطى مختلفة معظمها ناش من اختلاف روايات القوم : فقيل إنها صلوة الصبح ورووه عن علي عليه السلام وبعض الصحابة ، وقيل : إنها صلوة الظهر . ورووه عن النبي وعدة من الصحابة ، وقيل : إنها صلوة العصر ورووه

عن النبي و عدة من الصحابة ، وقد زوى السيوطي في الدر المنثور فيه بضعا و خمسين رواية ، وقيل : إنها صلوة المغرب ، وقيل : إنها مخفية بين الصلوات كليلة القدر بين الليالي وروي فيهما روايات عن الصحابة ، وقيل : إنها صلوة العشاء وقيل : إنها الجمعة وفي المجمع في قوله تعالى : وقوموا لله قانتين ، قال : هو الدعاء في الصلوة حال القيام ، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام .

**أقول :** وروي ذلك عن بعض الصحابة .

و في تفسير العياشي عن الصادق عليه السلام في الآية : إقبال الرجل على صلوته و محافظته على وقتها حتى لا يلهيه عنها ولا يشغله شيء .

**أقول :** ولا منافاة بين الروایتين وهو ظاهر .

في الكافي عن الصادق في قوله تعالى : فإن خفتهم فرجالاً أو ركبانا الآية : إذا خاف من سبع أولصر يكبر ويومي إيمائاً .

وفي الفقيه عنه عليه السلام في صلوة الزحف ، قال : تكبير وتهليل ثم تلا الآية .

وفيه عنه عليه السلام : إن كنت في أرض مخوفة فخشيت لصاً أو سبعاً فصل الفريضة و

أنت على دابتك .

وفيه عن الباقر عليه السلام : الذي يخاف المصوص يصلي إيمائاً على دابته .

**أقول :** والروايات في هذه المعاني كثيرة .

وفي تفسير العياشي عن أبي بصير قال : سألته عن قول الله : والذين يتوفون منكم

ويذرون أزواجاً وصية لأزواجهم متاعاً إلى العول غير إخراج قال عليه السلام : هي منسوخة .

قلت : وكيف كانت ؟ قال : كان الرجل إذا مات أنفق على امرأته من صلب المال حولاً ثم

أخرجت بلا ميراث ثم نسختها آية الربع والثلث ، فالمرأة ينفق عليها من نصيبها .

وفيه عن معاوية بن عمار قال : سألته عن قول الله : والذين يتوفون إلخ ، قال :

منسوخة نسختها آية يترصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً ، ونسختها آية الميراث .

وفي الكافي وتفسير العياشي : سئل الصادق عليه السلام عن الرجل يطلق امرأته يمتعها ؟

قال : نعم . أما يحب أن يكون من المحسنين أما يحب أن يكون من المتقين ؟

## ﴿بحث علمي﴾

من المعلوم أن الإسلام - والذي شرّعه هو الله عزّ اسمه - لم يبن شرائعه على أصل التجارب كما بنيت عليه سائر القوانين لكننا في قضاء العقل في شرائعه ربّما احتجنا إلى التأمل في الأحكام والقوانين و الرسوم الدائرة بين الأمم الحاضرة والقرون الخالية ، ثمّ البحث عن السعادة الإنسانية ، وتطبيق النتيجة على المحصل من مذاهبهم ومسالكتهم حتّى نزن به مكانته ومكانتها ، ونميز به روحه الحيّة الشاعرة عن أرواحها ، وهذا هو الموجب للرجوع إلى تواريخ الملل وسيرها ، واستحضار ما عند الموجودين منهم من الخصائل والمذاهب في الحياة .

ولذلك فإنّنا نحتاج في البحث عمّا يراه الإسلام ويعتقده في :

١- هويّة المرأة والمقايمة بينها وبين هويّة الرّجل .

٢- وزنها في الاجتماع حتّى يعلم مقدار تأثيرها في حياة العالم الإنساني .

٣- حقوقها والأحكام التي شرّعت لأجلها .

٤- الأساس الذي بنيت عليه الأحكام المربوطة بها .

إلى استحضار ما جرى عليه التاريخ في حيوتها قبل طلوع الإسلام وما كانت الأمم الغير المسماة يعاملها عليه حتّى اليوم من المتمدّنة وغيرها . والاستقصاء في ذلك وإن كان خارجاً عن طوق الكتاب ، لكننا نذكر طرفاً منه :

## ﴿حياة المهرئة في الامم الغير المتمدنة﴾

كانت حياة النساء في الأمم والقبائل الوحشيّة كالأُمم الفاطنين بأفريقيّة و أستراليا والجزائر المسكونة بالأوقيانوسيّة وإمريكا القديمة وغيرها بالنسبة إلى حياة الرجال كحياة الحيوانات الأهليّة من الأنعام وغيرها بالنسبة إلى حياة الإنسان .

فكما أن الإنسان لوجود قريحة الاستخدام فيه يرى لنفسه حقّاً أن يمتلك الأنعام و سائر الحيوانات الأهليّة ويتصرّف فيها كيفما شاء وفي أيّ حاجة من حوائجها شاء ، يستفيد من شعرها وبرها ولحمها وعظمها ودمها وجلدها وحليبيها وحفظها وحراستها و

سفادها وتاجها ونماؤها ، وفي حمل الأثقال ، وفي الحرث ، وفي الصيد ، إلى غير ذلك من الأغراض التي لا تحصى كثرة .

وليس لهؤلاء العجم من الحيوانات من مبتغيات الحياة وآمال القلوب في المأكل والمشرب والمسكن والسفاد والراحة إلا ماضى به الإنسان الذي امتلكها ، ولن يرضى إلا بما لاينا في أغراضه في تسخيرها وله فيه نفع في الحياة . وربما أدى ذلك إلى تهكمات عجيبة ومجازفات غريبة في نظر الحيوان المستخدم لو كان هو الناظر في أمر نفسه : فمن مظلوم من غير أي جرم كان أجرمه ، ومستغيث وليس له أي مغيث يغيثه ، ومن ظالم من غير مانع يمنعه . ومن سعيد من غير استحقاق كفعل الضراب يعيش في أنعم عيش وألذ عنة ، ومن شقي من غير استحقاق كحمار الحمل وفرس الطاحونة ،

وليس لها من حقوق الحياة إلا ما آراه الإنسان المالك لها حقاً لنفسه فمن تعدى إليها لا يؤخذ إلا لأنه تعدى إلى مالها في ملكه ، لا إلى الحيوان في نفسه . كل ذلك لأن الإنسان يرى وجودها تبعاً لوجود نفسه وحيوتها فرعاً لحيوته ومكانتها مكانة الطفيلي .

كذلك كانت حياة النساء عند الرجال في هذه الأيام والقبائل حياة تبعية . وكانت النساء مخلوقة عندهم «لأجل الرجال» بقول مطلق : كانت النساء تابعة الوجود والحياة لهم من غير استقلال في حياة ، ولا في حق فكان آبائهن ما لم ينكحن ، وبعولتهن بعد النكاح أولياء لهن على الإطلاق .

كان للرجل أن يبيع المرأة ممن شاء وكان له أن يهبها لغيره ، وكان له أن يقرضها لمن استقرضها للفرائش أو الاستيلاء أو الخدمة أو غير ذلك ، وكان له أن يسوسها حتى بالقتل ، وكان له أن يخلّي عنها ، ماتت أو عاشت ، وكان له أن يقتلها ويرتق بلحمها كالبهيمة وخاصة في المجاعة وفي المأدب ، وكان له مال المرأة من المال والحق وخاصة من حيث إيقاع المعاملات عن بيع وشراء وأخذ ورد .

وكان على المرأة أن تطيع الرجل - أباه أو زوجها - في ما يأمر به طوعاً أو كرهاً . وكان عليها أن لا تستقل عنه في أمر يرجع إليه أو إليها . وكان عليها أن تلي أمور البيت

والأولاد وجميع ما يحتاج إليه حيوة الرجل فيه وكان عليها أن تتحمل من الأشغال أشقها كحمل الأثقال وعمل الطين وما يجري مجراها من الحرف والصناعات أروها و سفسافها وقد بلغ عجب الأمر إلى حيث أن المرأة الحامل في بعض القبائل إذا وضعت حملها قامت من فورها إلى حوائج البيت ، ونام الرجل على فراشها أيتاماً يتمرّض ويدوي نفسه . هذه كميات ماله وعليها ، ولكل جيل من هذه الأجيال الوحشية خصائل وخصائص من السنن والآداب القومية باختلاف عاداتها الموروثة مناطق حيوتها والأجواء المحيطة بها يطلع عليه من راجع الكتب المؤلفة في هذه الشؤون .

### ﴿ حيوة المرأة في الامم المتقدمة ﴾

#### قبل الاسلام

نعني بهم الأمم التي كانت تعيش تحت الرسوم المالية المحفوظة بالعادات الموروثة من غير استناد إلى كتاب أو قانون كالصين والهند ومصر القديم وإيران ونحوها . تشترك جميع هؤلاء الأمم : في أن المرأة عندهم ما كانت ذات استقلال وحرية ، لا في إرادتها ولا في أعمالها ، بل كانت تحت الولاية والقيومة ، لا تنجز شيئاً من قبل نفسها ولا كان لها حق المداخلة في الشؤون الاجتماعية من حكومة أو قضاء أو غيرها . وكان عليها : أن تشارك الرجل في جميع أعمال الحياة من كسب وغير ذلك . وكان عليها : أن تختصّ بأمور البيت والأولاد ، وكان عليها أن تطيع الرجل في جميع ما يأمرها ويريد منها .

وكانت المرأة عند هؤلاء أرفه حالاً بالنسبة إليها في الأمم الغير المتقدمة ، فام تكن تقتل وتؤكل لحمها ، ولم تحرم من تملك المال بالكلية بل كانت تملك في الجملة من إرث أو ازدواج أو غير ذلك وإن لم تكن لها أن تتصرف فيها بالاستقلال ، وكان للرجل أن يتخذ زوجات متعددة من غير تحديد وكان لها تطليق من شاء منهن ، وكان للزوج أن يتزوج بعد موت الزوجة ولا عكس غالباً ، وكانت ممنوعة عن معاشرة خارج البيت غالباً .

ولكل أمة من هذه الأمم مختصات بحسب اقتضاء المناطق والأوضاع : كما أن

تمايز الطبقات في إيران ربّما أوجب تميّزاً لنساء الطبقات العالية من المداخلة في الملك والحكومة أو نيل السلطنة و نحو ذلك أو الازدواج بالمحارم من أمّ أو بنت أو أخت أو غيرها .

وكما أنّه كان بالصين الازدواج بالمرأة نوعاً من اشتراء نفسها ومملوكيّتها . وكانت هي ممنوعة من الإرث ومن أن تشارك الرجال حتّى أبنائها في التّغذي . وكان للرجال أن يشارك أكثر من واحد منهم في الازدواج بمرأة واحدة يشتركون في التمتع بها و - الانتفاع من أعمالها ، ويالحق الأ ولاد بأقوى الأزواج غالباً .

و كما أنّ النساء كانت بالهند من تبعات أزواجهنّ لا يحلّ لهنّ الازدواج بعد توفّي أزواجهنّ أبداً ، بل إمّا أن يحرقن بالنار مع جسد أزواجهنّ أو يعشن مذلّلات ، وهي في أيام الحيض أنجاس خبيثات لازمة الاجتناب و كذا نياها و كلّ ما لا مستها بالبشرة .

ويمكن أن يلخصّ شأنها في هذه الأمم : أنّها كالبرزخ بين الحيوان والإنسان يستفاد منها استفادة الإنسان المتوسط الضعيف الذي لا يحقّ له إلّا أن يمدّ الإنسان المتوسط في أمور حيوة كالولد الصغير بالنسبة إلى وليّه غير أنّها تحت الولاية والقيومة دائماً :

### ﴿ و هيهنا أمم أخرى ﴾

كانت الأمم المذكورة آنفاً أمماً تجري معظم آدابهم ورسومهم الخاصّة على أساس اقتضاء المناطق والعادات الموروثة ونحوها من غير أن تعتمد على كتاب أو قانون ظاهراً لكن هناك أمم أخرى كانت تعيش تحت سيطرة القانون أو الكتاب ، مثل الكلدّة والروم واليونان .

أمّا الكلدّة والآشور فقد حكم فيهم شرع « حامور ابني » تبعيّة المرأة لزوجها وسقوط استقلالها في الإرادة والعمل ، حتّى أن الزوجة لو لم تطع زوجها في شيء من أمور المعاشرة أو استقلّ بشيء فيها كان له أن يخرجها من بيته ، أو يترجّع عليها ويعامل معها بعد ذلك معاملة ملك اليمين محضاً ولو أخطأت في تدبير البيت بإسراف أو تبذير كان

له أن يرفع أمرها إلى القاضي ثم يغرقها في الماء بعد إثبات الجرم .

وأما الروم فهي أيضاً من أقدم الأمم وضعاً للقوانين المدنية ، وضع القانون فيها أول ما وضع في حدود سنة أربعمئة قبل الميلاد ثم أخذوا في تكميله تدريجاً ، وهو يعطي للبيت نوع استقلال في إجراء الأوامر المختصة به ، ولرب البيت وهو زوج المرأة وأبو أولادها نوع ربوبية كان يعبد له لذلك أهل البيت كما كان يعبد هو من تقدمه من آباءه السابقين عليه في تأسيس البيت ، وكان له الاختيار التام والمشية النافذة في جميع ما يريد ويأمر به على أهل البيت من زوجة وأولاد حتى القتل لورأى أن الصلاح فيه ، ولا يعارضه في ذلك معارض ، وكانت النساء نساء البيت كالزوجة وال بنت والأخت أردء حالاً من الرجال حتى الأبناء التابعين محضاً لرب البيت ، فإنهن لم يكن أجزء للاجتماع المدني فلا تسمع لهن شكاية ، ولا ينفذ منهن معاملة ، ولا تصح منهن في الأمور الاجتماعية مداخله لكن الرجال أعني الإخوة والذكور من الأولاد حتى الأديعاء (فإن التبني وإلحاق الولد بغير أبيه كان معمولاً شائعاً عندهم وكذا في يونان وإيران والعرب) كان من الجائز أن يأذن لهم رب البيت في الاستقلال بأموال الحيوة مطلقاً لأنفسهم .

ولم يكن أجزء أصيلة في البيت بل كان أهل البيت هم الرجال ، وأما النساء فتبع . فكانت القرابة الاجتماعية الرسمية الموثرة في التوارث ونحوها مختصة بما بين الرجال . وأما النساء فالقرابة بينهن أنفسهن كالأُم مع البنت أو الأخت مع الأخت ، ولا بينهن وبين الرجال كالزوجين أو الأُم مع الابن أو الأخت مع الأخ أو البنت مع الأب ولا توارث فيما لاقراة رسمية . نعم القرابة الطبيعية (وهي التي يوجبها الاتصال في الولادة) كانت موجودة بينهم ، وربما يظهر أثرها في نحو الأزواج بالمحامد ، وولاية رئيس البيت وربته لها .

وبالجملة كانت المرأة عندهم طفيلية الوجود تابعة الحياة في المجتمع (المجتمع المدني والبيتي) زمام حيوتها وإرادتها بيد رب البيت من أيها إن كانت في بيت الأب أو زوجها إن كانت في بيت الزوج أو غيرها ، يفعل بها ربها ما يشاء ويحكم فيها ما يريد ، وربما باعها ، وربما وهبها ، وربما أقرضها للتمتع ، وربما أعطاها في حق يراد استيفائه

منه كدين وخراج ونحوهما ، وربما ساسها بقتل أو ضرب أو غيرهما ، ويبدد تدير مالها إن ملكت شيئاً بالازدواج أو الكسب مع إذن وليها لا بالارث لأنها كانت عرومة منه ، وببدأيها أو واحد من سراة قومها تزويجها ، ويبدد زوجها تطليقها .

و أمّا اليونان فالأمر عندهم في تكوّن البيوت و ربويّة أربابها فيها كان قريب الوضع من وضع الروم .

فقد كان الاجتماع المدنيّ وكذا الاجتماع البيتيّ عندهم متقوّماً بالرجال ، والنساء تبع لهم ، ولذلك يكن لها استقلال في إرادة ولا فعل إلا تحت ولاية الرجال . لكنهم جميعاً ناقضوا أنفسهم بحسب الحقيقة في ذلك ، فإنّ قوانينهم الموضوعة كانت تحكم عليهنّ بالاستقلال ولا تحكم لهنّ إلا بالتبع إذا وافق نفع الرجال ، فكانت المرأة عندهم تعاقب بجميع جرائمها بالاستقلال ، ولا تثاب لحسناتها ولا تراعى جانبها إلا بالتبع وتحت ولاية الرجل .

وهذا بعينه من الشواهد الدالّة على أنّ جميع هذه القوانين ما كانت تراها جزئياً ضعيفاً من المجتمع الإنسانيّ ذات شخصيّة تبعيّة ، بل كانت تقدّر أنّها كالجرائم المضرة مفسدة لمزاج الاجتماع مضرة بصحتها غير أنّ للمجتمع حاجة ضروريّة إليها من حيث بقاء النسل ، فيجب أن يعتنى بشأنها ، وتذاق وبال أمرها إذا جنت أو أوجرت ، ويجتلب الرجال درّها إذا أحسنت أو نفعت ، ولا تترك على حيال إرادتها صوناً من شرّها كالعدوّ القويّ الذي يغلب فيؤخذ أسيراً مسترقاً يعيش طول حياته تحت القهر ، إن جاء بالسيئة يؤخذ بها وإن جاء بالحسنة لم يشكر لها .

وهذا الذي سمعته : أنّ الاجتماع كان متقوّماً عندهم بالرجال هو الذي ألزمهم أن يعتقدوا أنّ الأولاد بالحقيقة هم الذكور ، وأنّ بقاء النسل ببقائهم ، وهذا هو منشأ ظهور عمل التبنيّ والإلحاق بينهم ، فإنّ البيت الذي ليس لربّه ولد ذكر كان محكوماً بالخراب ، والنسل مكتوباً عليه الفناء والانقراض ، فاضطرّ هؤلاء إلى اتّخاذ أبناء صوناً عن الانقراض وموت الذكر ، فدعوا غير آبائهم لأصلاهم أبناءاً لأنفسهم فكانوا أبناءاً رسمياً يرثون ويورثون ويرتب عليهم آثار الأبناء الصليبيين . وكان الرّجل منهم إذا زعم أنّه

عافر لا يولد منه ولد عمد إلى بعض أقاربه كأخيه وابن أخيه فأورده فراش أهله لتعلق منه فتلد ولداً يدعو له نفسه ، ويقوم بقاء بيته .

وكان الامر في التزويج والتطليق في اليونان قريباً منهما في الروم ، وكان من الجائز عندهم تعدد الزوجات غير أن الزوجة إذا زادت على الواحدة كانت واحدة منهن زوجة رسمية والباقية غير رسمية .

## ﴿ حال المهرثة عند العرب و محيط حيوتهم ﴾

### محيط نزول القرآن

وقد كانت العرب قاطنين في شبه الجزيرة وهي منطقة حارة جدبة الأرض ، والمعظم من أمتهم قبائل بدوية بعيدة عن الحضارة والمدنية ، يعيشون بشن الغارات ، وهم متصلون بإيران من جانب وبالروم من جانب وبلاد الحبشة والسودان من آخر .

ولذلك كانت العمدة من رسومهم رسوم التوحش ، وربما وجد خلالها شيء من عادات الروم وإيران ، ومن عادات الهند ومصر القديم أحياناً .

كانت العرب لا ترى للمرأة استقلالاً في الحياة ولا حرمة ولا شرافة إلا حرمة البيت وشرافته ، وكانت لا تورث النساء ، وكانت تجوز تعدد الزوجات من غير تحديد بعدد معين كاليهود ، وكذا في الطلاق ، وكانت تعد البنات ، ابتداء بذلك بنو تميم لوقعة كانت لهم مع النعمان بن المنذر ، أسرت فيه عدة من بناتهم ، والقصة معروفة فأغضبهم ذلك فابتدروا به ، ثم سرت السجينة في غيرهم ، وكانت العرب تتشأم إذا ولدت للرجل منهم بنت تعدّها عاراً لنفسه ، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، لكن يسره الابن مهما كثر ولو بالدعاء والإلحاق حتى أنهم كانوا يتبنون الولد لزنا محصنة ارتكبه ، وربما نازع رجال من صناديدهم وأولي الطول منهم في ولد ادّعاء كل لنفسه .

وربما لاح في بعض البيوت استقلال لنساءهم وخاصة للبنات في أمر الازدواج فكان يراعى فيه رضى المرأة وانتخابها ، فيشبه ذلك منهم دأب الأشراف بإيران الجاري على تمايز الطبقات .

وكيف كان فمعاملتهم مع النساء كانت معاملة مرغبة من معاملة أهل المدنية

من الروم وإيران كتحريم الاستقلال في الحقوق ، والشركة في الأمور العامة الاجتماعية كالحكم والحرب وأمر الأزواج إلا استثناءً ، ومن معاملة أهل التوحش والبربرية . فلم يكن حرمانهم مستنداً إلى تقديس رؤساء البيوت وعبادتهم ، بل من باب غلبة القوي واستخدامه للضعيف .

وأما العبادة فكانوا يعبدون جميعاً ( رجالاً ونساءً ) أصناماً يشبهه أمرها أمر الأصنام عند الصابئين أصحاب الكواكب وأرباب الأنواع ، وتتميز أصنامهم بحسب تميز القبائل وأهوائها المختلفة ، فيعبدون الكواكب والملائكة ( وهم بنات الله سبحانه بزعمهم ) ويتخذونها على صور صورتها لهم أوهاهم ، ومن أشياء مختلفة كالبحجارة والخشب ، وقد بلغ هواهم في ذلك إلى مثل ما نقل عن بني حنيفة أنهم اتخذوا لهم صنماً من الحيس فعبده دهرأ طويلاً ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه ف قيل فيهم :

أكلت حنيفة ربها ☆ زمن التقحّم والمجاعة

لم يحذروا من ربهم ☆ سوء العواقب والتباعة

وربما عبدوا حجراً حتى إذا وجدوا حجراً أحسن منه طرحوا الأول وأخذوا بالثاني ، وإذا لم يجدوا شيئاً جمعوا حفنة من تراب ثم جاؤا بغنم فحلبوه عليها ثم طافوا بها يعبدونها -

وقد أودعت هذا الحرمان والشقاء في نفوس النساء ضعفاً في الفكرة يصور لها أوهاماً وخرافات عجيبة في الحوادث والوقائع المختلفة ضبطتها كتب السير والتاريخ . فهذه جمل من أحوال المرأة في المجتمع الإنساني من أدواره المختلفة قبل الإسلام وزمن ظهوره ، آثرنا فيها الاختصار التام ، ويستنتج من جميع ذلك : أولاً : أنهم كانوا يرونها إنساناً في أفق الحيوان العجم ، أو إنساناً ضعيف الإنسانية منوطاً لا يؤمن شره وفساده لو أطلق من قيد التبعية ، واكتسب الحرية في حياته . والنظر الأول أنسب لسيرة الأمم الوحشية والثاني لغيرهم . وثانياً : أنهم كانوا يرون في وزنها الاجتماعي أنها خارجة من هيكل المجتمع المركب غير داخله فيه ، وإنما هي من شرائطه التي لا غناء عنها كالمسكن لاغناء عن الالتجاء إليه ، أو أنها كالأسير المسترق

الذي هي من توابع المجتمع الغالب ، ينتفع من عمله ولا يؤمن كيده على اختلاف المسلمين . وثالثاً : أنهم كانوا يرون حرمانها في عامة الحقوق التي أمكن انتفاعها منها إلا بمقدار يرجع انتفاعها إلى انتفاع الرجال القيمين بأمرها . ورابعاً : أن أساس معاملتهم معها فيما عاملوا هو غلبة القوي على الضعيف ، وبعبارة أخرى قريحة الاستخدام . هذا في الأمم الغير المتمدنة ، وأمّا الأمم المتمدنة فيضاف عندهم إلى ذلك ما كانوا يعتقدونه في أمرها : أنها إنسان ضعيف الخلق لا تقدر على الاستقلال بأمرها ، ولا يؤمن شرّها ، وربما اختلط الأمر اختلاطاً باختلاف الأمم والأجيال .

### ﴿ ماذا أبدعه الاسلام في أمرها ﴾

لا زالت الدنيا بأجمعها ترى في أمر المرأة ما قصصناه عليك ، وتحبسها في سجن الذلّة والهوان حتّى صار الضعف والصغار طبيعة ثانية لها ، عليها نبتت لحمها وعظمها وعليها كانت تحيا وتموت ، وعادت ألفاظ المرأة والضعف والهوان كاللغات المترادفة بعد ما وضعت متباعدة ، لا عند الرجال فقط بل عند النساء - ومن العجب ذلك - ولا ترى أمة من الأمم وحشيّتها ومدنيّتها إلا وعندهم أمثال سائرة في ضعفها وهوان أمرها ، وفي لغاتهم على اختلاف أصولها وسيقاتها وألحانها أنواع من الاستعارة والكناية والتشبيه مربوطة بهذه اللفظة ( المرأة ) يقرّع بها الجبان ، ويؤتب بها الضعيف ، ويؤلام بها المخذول المستهان والمستذل المنظلم ، ويوجد من نحو قول القائل :

وما أدري وليت إخال أدري \* أقوم آل حصن أم نساء

مئات وألوف من النظم والشر في كل لغة .

وهذا في نفسه كاف في أن يحصل للباحت ما كانت تعتقده الجامعة الإنسانية في أمر المرأة وإن لم يكن هناك ما جمعه كتب السير والتواريخ من مذاهب الأمم والملل في أمرها ، فإن الخصائل الروحية والجهات الوجودية في كل أمة تنجلي في لغتها وآدابها .

ولم يورث من السابقين ما يعتني بشأنها ويهمّ بأمرها إلا بعض ما في التوراة وما وصّى به عيسى بن مريم عليهما السلام من لزوم التسهيل عليها والإرفاق بها .

وأما الإسلام أعني الدين الحنيف النازل به القرآن فإنه أبدع في حقها أمراً ما كانت تعرفه الدنيا منذ قطن بها قاطنوها ، وخالفهم جميعاً في بناء بنية فطرية عليها كانت الدنيا هدمتها من أول يوم وأعنت آثارها ، وألغى ما كانت تعتقده الدنيا في هويتها اعتقاداً وما كانت تسير فيها سيرتها عملاً .

أما هويتها : فإنه يبين أن المرأة كالرجل إنسان وأن كل إنسان ذكراً أو أنثى فإنه إنسان يشترك في مادته وعنصره إنسانان ذكراً وأنثى ولا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى . قال تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، الحجرات - ١٣ فجعل تعالى كل إنسان مأخوذاً مؤلفاً من إنسانين ذكراً وأنثى هما معاً ونسبة واحدة مادة كونه ووجوده ، وهو سواء كان ذكراً أو أنثى مجموع المادة المأخوذة منهما ، ولم يقل تعالى : مثل ما قاله القائل : وإنما أمهات الناس أوعية

ولا قال مثل ما قاله الآخر :

بنونا بنوا أبناءنا وبناتنا \* بنوهن أبناء الرجال الأباة  
بل جعل تعالى كلاً مخلوقاً مؤلفاً من كل . فعاد الكل أمثلاً ، ولا بيان أتم ولا أبلغ من هذا البيان ، ثم جعل الفضل في التقوى .

وقال تعالى : « إنني لأضيق عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض » آل عمران - ١٩٥ فصرح أن السعي غير خائب والعمل غير مضيع عند الله ، ولعل ذلك بقوله : بعضهم من بعض فعبّر صريحاً بما هو نتيجة قوله في الآية السابقة : إنا خلقناكم من ذكر وأنثى اه ، وهو أن الرجل والمرأة جميعاً من نوع واحد من غير فرق في الأصل والسنخ .

ثم يبين بذلك أن عمل كل واحد من هذين الصنفين غير مضيع عند الله لا يبطل في نفسه ، ولا يعدوه إلى غيره ، كل نفس بما كسبت رهينة ، لا كما كان يقوله الناس : إن عليهن سيئاتهن ، وللرجال حسناتهن من منافع وجودهن ، وسيجيء ، لهذا الكلام مزيد توضيح . وإذا كان لكل منهما ما عمل ولاكرامة إلا بالتقوى ، ومن التقوى الأخلاق الفاضلة كالإيمان بدرجاته ، والعلم النافع ، والعقل الرزين ، والخلق الحسن ، والصبر ، والحلم فالمرأة

المؤمننة بدرجات الايمان ، أو المليئة علماً ، أو الرزينة عقلاً ، أو الحسنة خلقاً أكرم ذاتاً وأسمى درجة ممن لا يعادلها في ذلك من الرجال في الإسلام ، كان من كان ، فلا كرامة إلا للتقوى والفضيلة .

وفي معنى الآية السابقة وأوضح منها قوله تعالى : « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه فيه حيوه طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » النحل - ٩٧ وقوله تعالى : « ومن عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ويرزقون فيها بغير حساب » المؤمن - ٤ وقوله تعالى : « ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً » النساء - ١٢٤ .

وقد ذم الله سبحانه الاستهانة بأمر البنات بمثل قوله وهو من أبلغ الذم : « وإذا بشر أحدكم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون » النحل - ٥٩ . ولم يكن تواربهم إلا لعددهم ولادتها عاراً على المولود له ، وعمدة ذلك أنهم كانوا يتصورون أنها ستكبر فتصير لعبة لغيره يتمتع بها ، وذلك نوع غلبة من الزوج عليها في أمر مستهجن ، فيعود عاره إلى بيتها وأبيها ، ولذلك كانوا يمدون البنات وقد سمعت السبب الأول فيه فيما مر ، وقد بالغ الله سبحانه في التشديد عليه حيث قال : « وإذا المولودة سئلت بأى ذنب قتلت » التكويد - ٩ .

وقد بقي من هذه الغرافات بقايا عند المسلمين ورثوها من أسلافهم ، ولم يغسل رينها من قلوبهم المرتبون ، فتراهم يعدون الزنا عاراً لازماً على المرأة وبيتها وإن تابت دون الزاني وإن أصر ، مع أن الإسلام قد جمع العار والقبح كله في المعصية ، والزاني والزانية سواء فيها .

وأما وزنها الاجتماعي : فإن الإسلام ساوى بينها وبين الرجل من حيث تدبير شئون الحياة بالإرادة والعمل فإنيهما متساويان من حيث تعلّق الإرادة بما تحتاج إليه البنية الإنسانية في الأكل والشرب وغيرهما من لوازم البقاء ، وقد قال تعالى : « بعضكم من بعض » آل عمران - ١٩٥ فلها أن تستقلّ بالإرادة ولها أن تستقلّ بالعمل وتمتلك نتاجهما

كما للرجل ذلك من غير فرق ، لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت .

فهما سواء فيما يراه الإسلام ويحققه القرآن والله يحق الحق بكلماته غير أنه قرّر فيها خصلتين ميّزها بهما الصنع الإلهي : أحديهما : أنها بمنزلة الحرث في تكون النوع ونماؤه فعليها يعتمد النوع في بقائه فتختص من الأحكام بمثل ما يختص به الحرث ، وتمتاز بذلك عن الرجل . والثانية أن وجودها مبني على لطافة البنية ورقّة الشعور ، ولذلك أيضاً تأثير في أحوالها والوظائف الاجتماعية المحوّلة إليها .

فهذا وزن الاجتماع . وبذلك يظهر وزن الرجل في المجتمع ، وإليه تنهل جميع الأحكام المشتركة بينهما وما يختص به أحدهما في الإسلام . قال تعالى : « ولا تتمنّوا ما فضل الله به بعضكم على بعض للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن واسئلو الله من فضله إن الله كان بكل شيء عليمًا » النساء - ٣٢ . يريد أن الأعمال التي يهديها كل من الفريقين إلى المجتمع هي الملاك لما يختص به من الفضل ، وأن من هذا - الفضل ما تعين لحقوقه ببعض دون البعض كفضل الرجل على المرأة في سهم الإرث ، وفضل المرأة على الرجل في وضع النفقة عنها ، فلا ينبغي أن يتمناه متمنّ ، ومنه ما لم يتعيّن إلا بعمل العامل كاملاً من كان كفضل الإيمان والعلم والعقل والتقوى وسائر الفضائل التي يستحسنها الدين ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، واسئلو الله من فضله . والدليل على هذا الذي ذكرنا قوله تعالى بعده : الرجال قوامون اه على ما سيحىء بيايه .

وأما الأحكام المشتركة والمختصة فهي تشارك الرجل في جميع الأحكام العبادية والحقوق الاجتماعية فلها أن تستقل فيما يستقل به الرجل من غير فرق في إرث ولا كسب ولا معاملة ولا تعليم وتعلّم ولا اقتناء حق ولا دفاع عن حق وغير ذلك إلا في موارد يقتضي طباعها ذلك .

وعمدة هذه الموارد : أنها لا تتولّى الحكومة والقضاء ، ولا تتولّى القتال بمعنى المقارعة لا مطلق الحضور والإعانة على الأمر كمداداة الجرحى مثلاً ، ولها نصف سهم الرجل في الإرث ، وعليها : الحجاب وستر مواضع الزينة ، وعليها : أن تطيع زوجها فيما يرجع إلى التمتع منها . و تدورك ما فاتها بأن نفقتها في الحيوه على الرجل : الأب

أو الزوج ، و أن عليه أن يحمي عنها منتهى ما يستطيعه ، وأن لها حق تربية الولد و حضانه .

وقد سهّل الله لها أنها محمية النفس والعرض حتى عن سوء الذكر ، وأن العبادة موضوعة عنها أيام عاداتها ونفاسها ، وأنها لازمة الإرفاق في جميع الأحوال . والمتحصّل من جميع ذلك : أنها لا يجب عليها في جانب العلم إلا العلم بأصول المعارف والعلم بالفروع الدينية (أحكام العبادات والقوانين الجارية في الاجتماع). وأما في جانب العمل فأحكام الدين وطاعة الزوج فيما يمتنع به منها ، وأما تنظيم الحياة الفردية بعمل أو كسب بحرفة أو صناعة وكذا الورود فيما يقوم به نظام البيت وكذا المدخلة في ما يصلح المجتمع العام كتعلّم العلوم واتخاذ الصناعات والحرف المفيدة . للعمامة والنافعة في الاجتماعات مع حفظ الحدود الموضوعة فيها فلا يجب عليه شيء من ذلك ، ولازمه أن يكون الورود في جميع هذه الموارد من علم أو كسب أو شغل أو تربية ونحو ذلك كلّها فضلاً لها تتفاضل به ، و فخراً لها تتفاخر به ، و قد جوّز الإسلام بل ندب إلى التفاخر بينهم ، مع أن الرجال نهوا عن التفاخر في غير حال الحرب .

والسنة النبوية تؤيد ما ذكرناه ، ولولا بلوغ الكلام في طوله إلى ما لا يسهه هذا المقام لذكرنا طرفاً من سيرة رسول الله ﷺ مع زوجته خديجة ومع بنته سيدة النساء فاطمة (ع) ومع نسائه ومع نساء قومه وما وصي به في أمر النساء والمأثور من طريقة أمّة أهل البيت ونسائهم كزينب بنت علي وفاطمة وسكينة بنتي الحسين وغيرهن على جماعتهم السلام ، ووصاياهم في أمر النساء . ولعلنا نوفّق لنقل شطر منها في الأبحاث الروائية المتعلقة بآيات النساء فليرجع المراجع إليها .

وأما الأساس الذي بنيت عليه هذا الأحكام والحقوق فهو الفطرة ، و قد علم من الكلام في وزنها الاجتماعي كيفية هذا البناء و نزيده ههنا إيضاحاً فنقول :

لا ينبغي أن يرتاب الباحث عن أحكام الاجتماع وما يتصل بها من المباحث العلمية أن الوظائف الاجتماعية و التكاليف الاعتبارية المتفرّعة عليها يجب انتهائهما بالأخرة إلى الطبيعة ، فخصوصية البنية الطبيعية الإنسانية هي التي هدّت الإنسان إلى هذا .

الاجتماع النوعي الذي لا يكاد يوجد النوع خالياً عنه في زمان ، وإن أمكن أن يعرض لهذا الاجتماع المستند إلى اقتضاء الطبيعة ما يخرج به عن مجرى الصحة إلى مجرى الفساد كما يمكن أن يعرض للبدن الطبيعي ما يخرج به عن تمامه الطبيعي إلى نقص الخلقة ، أو عن صحته الطبيعية إلى السقم والعاهة .

فالاجتماع بجميع شئونه وجهاته سواء كان اجتماعاً فاضلاً أو اجتماعاً فاسداً ينتهي بالأخيرة إلى الطبيعة وإن اختلف القسمان من حيث أن الاجتماع الفاسد يصادف في طريق الانتهاء ما يفسده في آثاره بخلاف الاجتماع الفاضل .

فهذه حقيقة ، وقد أشار إليها تصريحاً أو تلويحاً الباحثون عن هذه المطابحات وقد سبقهم إلى بيانها الكتاب الإلهي فيبينه بأبداع البيان . قال تعالى : « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » طه - ٥٠ وقال تعالى : « الذي خلق فسوى والذي قدّر فهدى » الأعلى - ٣ وقال تعالى : « نفس وما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها » الشمس - ٨ . إلى غير ذلك من آيات القدر .

فالأشياء ومن جعلتها الإنسان إنما تهتدي في وجودها وحيوتها إلى ما خلقت له وجهزت بما يكفيه ويصلح له من الخلقة . والحيوة القيمة بسعادة الإنسان هي التي تنطبق أعمالها على الخلقة والفطرة انطباقاً تاماً ، وتنتهي وظائفها وتكاليفها إلى الطبيعة انتهاءً صحيحاً . وهذا هو الذي يشير إليه قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم » الروم - ٣٠ .

والذي تقتضيه الفطرة في أمر الوظائف والحقوق الاجتماعية بين الأفراد - على أن الجميع إنسان ذو فطرة بشرية - أن يساوي بينهم في الحقوق والوظائف من غير أن يحبا بعض و يضطهد آخرون بإبطال حقوقهم . لكن ليس مقتضى هذه التسوية التي يحكم بها العدل الاجتماعي أن يبذل كل مقام اجتماعي لكل فرد من أفراد المجتمع ، فيتقصد الصبي مثلاً على صباهه والسفيه على سفاهته ما يتقلده الإنسان العاقل المجرب ، أو يتناول الضعيف العاجز ما يتناوله القوي المقتدر من الشئون والدرجات ، فإن في تسوية حال الصالح وغير الصالح إفساداً لحالهما معاً .

بل الذي يقتضيه العدل الاجتماعي ويفسر به معنى التسوية: أن يعطى كل ذي حق حقه و ينزل منزلته ، فالتساوي بين الأفراد والطبقات إنما هو في نيل كل ذي حق خصوص حقه من غير أن يزاحم حق حقاً ، أو يهمل أو يبطل حق بغيأ أو تعكماً ونحو ذلك . وهذا هو الذي يشير إليه قوله تعالى : ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة الآية كما مر بيانه ، فإن الآية تصرّح بالتساوي في عين تقرير الاختلاف بينهن وبين الرجال .

ثم إن أشتر الكفيلين أعني الرجال والنساء في أصول المواهب الوجودية أعني- الفكر والإرادة المولدين للاختيار يستدعي اشتراكهما مع الرجل في حرية الفكر والإرادة أعني الاختيار ، فلها الاستقلال بالتصرف في جميع شئون حياتها الفردية والاجتماعية عدا ما منع عنه مانع . وقد أعطاهما الإسلام هذا الاستقلال والحرية على أتم الوجوه كما سمعت فيما تقدم ، فصارت بنعمة الله سبحانه مستقلة بنفسها منفكة الإرادة والعمل عن الرجال ولا يتهم وقيمومتهم ، واجدة لما لم يسمح لها به الدنيا في جميع أدوارها وخلت عنه صحائف تاريخ وجودها . قال تعالى : « لاجنح عليكم فيما فعلن في أنفسهن بالمعروف الآية » البقرة - ٢٣٤ .

لكنها مع وجود العوامل المشتركة المذكورة في وجودها تختلف مع الرجال من جهة أخرى ، فإن المتوسط من النساء تتأخر عن المتوسط من الرجال في الخصوصيات الكمالية من بنيتها كالدماغ والقلب والشرابين والأعصاب والقامة والوزن على ما شرحه فن وظائف الأعضاء ، واستوجب ذلك أن جسمها اللطيف وأنعم كما أن جسم الرجل أخشن وأصلب ، وأن الإحساسات اللطيفة كالحب ورقية القلب والميل إلى الجمال والزينة أغلب عليها من الرجل كما أن التعقل أغلب عليه من المرأة ، فحيوتها حياة إحساسية كما أن حياة الرجل حياة تعقلية .

و لذلك فرق الإسلام بينهما في الوظائف والتكاليف العامة الاجتماعية التي يرتبط قوامها بأحد الأمرين أعني التعقل ، والإحساس ، فخص مثل الولاية والقضاء والقتال بالرجال لاحتياجها المبرم إلى التعقل والحيوة التعقلية إنما هي للرجل دون المرأة ، و

خصّ مثل حضانة الأولاد وتربيتها وتدير المنزل بالمرأة، وجعل نفقتها على الرجل ، وجبر ذلك له بالسهمين في الإرث (وهو في الحقيقة بمنزلة أن يقتسما الميراث نصفين ثم تعطي المرأة ثلث سهمها للرجل في مقابل نفقتها أى للارتفاع بنصف ما في يده فيرجع بالحقيقة إلى أن ثلثي المال في الدنيا للرجال ملكاً وعيناً وثلثها للنساء ارتفاعاً فالتدبير الغالب إنما هو للرجال لغلبة عقولهم، والارتفاع والتمتع الغالب للنساء لغلبة إحساسهن . وسنزيده إيضاحاً في الكلام على آيات الإرث إنشاءً لله تعالى) ثم تمّم ذلك بتسهيلات وتخفيفات في حق المرأة مرّت الإشارة إليها .

فإن قلت : ما ذكر من الإرفاق البالغ للمرأة في الإسلام يوجب انعطالها في العمل فإن ارتفاع الحاجة الضرورية إلى لوازم الحياة بتخديرها، وكفاية مؤنتها بإيجاب الإيفاق على الرجل يوجب إهمالها وكسلها وتناقلها عن تحمّل مشاق الأعمال والأشغال فتتمو على ذلك نمائاً رديئاً وتغت نباتاً سيئاً غير صالح لتكامل الاجتماع ، وقد أيدت التجربة ذلك .

قلت : وضع القوانين المصلحة لحال البشر أمر و إجراء ذلك بالسيرة الصالحة والتربية الحسنة التي تنبت الإنسان نباتاً حسناً أمر آخر ، والذي أُصيب به الإسلام في مدة سيرها الماضي هو فقد الأولياء الصالحين والقوّام المجاهدين فارتدت بذلك أنفاس الأحكام ، وتوقفت التربية ثم رجعت قهقرى . ومن أوضح ما أفاده التجارب القاطعي : أن مجرد النظر والاعتقاد لا يثمر أثره مالم يثبت في النفس بالتبليغ والتربية الصالحين، والمسلمون في غير برهة يسيرة لم يستفيدوا من الأولياء المتظاهرين بولايتهم القيميين بأمورهم تربية صالحة يجتمع فيها العلم والعمل ، فهذا معوية ، يقول على منبر الكوفة حين غلب على أمر الخلافة ما حاصله : إنني ما كنت أقاتلكم لتصلّوا أو تصوموا فذلك إليكم وإنما كنت أقاتلكم لأتأمر عليكم وقد فعلت ، وهذا غيره من الأمويين والعبّاسيين فمن دونهم . ولو لا استئصاة هذا الدين بنور الله الذي لا يطفأ والله متمّ نوره ولو كره الكافرون لقضى عليه منذ عهد قديم .

## ﴿ حرية المرأة في المدنية الغربية ﴾

لا شك أن الإسلام له التقدم الباهر في إطلاقها عن قيد الأسادة ، وإعطائها الاستقلال في الإرادة والعمل ، وأن أمم الغرب فيما صنعوا من أمرها إنما قلّدوا الإسلام - وإن أساءوا التقليد والمحاذاة - فإن سيرة الإسلام حلقة بارزة مؤثرة أتمّ التأثير في سلسلة السير الاجتماعية وهي متوسطة متخلّلة ، ومن المحال أن يتّصل ذيل السلسلة بصدرها دونها .

و بالجملة فهؤلاء بنوا على المساواة التامة بين الرجل والمرأة في الحقوق في هذه الأزمنة بعد أن اجتهدوا في ذلك سنين مع ما في المرأة من التأخّر الكمالي بالنسبة إلى الرجل كما سمعت إجماله .

و الرأي العام عندهم تقريباً : أن تأخّر المرأة في الكمال والفضيلة مستند إلى سوء التربية التي دامت عليها و مكثت قروناً لعلها تعادل عمر الدنيا مع تساوي طباعها طباع الرجل .

ويتوجّه عليه : أن الاجتماع منذ أقدم عهود تكوّن نه قضى على تأخّرها عن الرجل في الجملة ، ولو كان الطباعان متساويين لظهر خلافه ولو في بعض الأحيان ولتغيّرت خلقة أعضائها الرئيسية وغيرها إلى مثل ما في الرجل .

و يؤيد ذلك أن المدنية الغربية مع غاية عنايتها في تقديم المرأة ما قدرت بعد على إيجاد التساوي بينهما ، ولم يزل الإحصاءات في جميع ماقدّم الإسلام فيه الرجل على - المرأة كالولاية والقضاء والقتال تقدّم الرجال وتأخّر النساء ، وأمّا ما الذي أورثته هذه التسوية في هيكل الاجتماع الحاضر فسنشرح ما تيسّر لنا منه في محله إنشاء الله تعالى .

## ﴿ بحث علمي آخر ﴾

عمل النكاح من أصول الأعمال الاجتماعية ، والبشر منذ أوّل تكوّن نه و تكثّره حتّى اليوم لم يخل عن هذا العمل الاجتماعي ، وقد عرفت أن هذه الأعمال لا بدّ لها من أصل طبيعيّ ترجع إليه ابتداءً أو بالآخرة .

وقد وضع الإسلام هذا العمل عند تقنينه على أساس خلقه الفحولة والأنث إذ من البين أن هذا التجهيز المتقابل الموجود في الرجل والمرأة - وهو تجهيز دقيق يستوعب جميع بدن الذكور والأنث - لم يوضع هباءً باطلاً، ومن البين عند كل من أجاد التأمل أن طبيعة الإنسان الذكور في تجهيزها لا تريد إلا الأنث وكذا العكس، وأن هذا - التجهيز لا غاية له إلا توليد المثل وإبقاء النوع بذلك، فعمل النكاح يبتني على هذه الحقيقة وجميع الأحكام المتعلقة به تدور مدارها، ولذلك وضع التشريع على ذلك أى على البضع، ووضع عليه أحكام العفة والمواقة واختصاص الزوجة بالزوج وأحكام الطلاق والعدة والأولاد والإرث ونحو ذلك.

وأما القوانين الأخر العاصرة فقد وضعت أساس النكاح على تشريك الزوجين مساعيها في الحياة، فالنكاح نوع اشتراك في العيش هو أضيّق دائرة من الاجتماع البلدي ونحو ذلك، ولذلك لا ترى القوانين العاصرة متعرّضة لشيء مما تعرّض له الإسلام من أحكام العفة ونحو ذلك.

وهذا البناء على ما يفرّع عليه من أنواع المشكلات والمحاذير الاجتماعية على ما سنبين إنشاء الله العزيز لا ينطبق على أساس الخلقة والفطرة أصلاً، فإن غاية ما نجده في الإنسان من الداعي الطبيعي إلى الاجتماع وتشريك المساعي هو أن بنيته في سعادة حياته تحتاج إلى أمور كثيرة وأعمال شتى لا يمكنه وحده أن يقوم بها جميعاً إلا بالاجتماع والتعاون فالجميع يقوم بالجميع، والأشواق الخاصة المتعلقة كلوا حد منها بشغل من الأشغال ونحو من أنحاء الأعمال متفرقة في الأفراد يحصل من مجموعها مجموع الأشغال والأعمال.

وهذا الداعي إنما يدعو إلى الاجتماع والتعاون بين الفرد والفرد أيضاً ما كانا، وأما الاجتماع الكائن من رجل وامرأة فلا دعوة من هذا الداعي بالنسبة إليه. فبناء - الازدواج على أساس التعاون الحيوي انحراف عن صراط الاقتضاء الطبيعي للتناسل والتوالد إلى غيره مما لا دعوة من الطبيعة والفطرة بالنسبة إليه.

ولو كان الأمر على هذا، أعني وضع الازدواج على أساس التعاون والاشتراك في -

الحيوة كان من اللازم أن لا يختص أمر الازدواج من الأحكام الاجتماعية بشيء أصلاً إلا الأحكام العامة لموضوعه مطلق الشراكة والتعاون، وفي ذلك إبطال فضيلة العقدة رأساً وإبطال أحكام الأنساب والموارث كما التزمته الشيوعية، وفي ذلك إبطال جميع العرائز الفطرية التي جهّز بها الذكور والأنثى من الإنسان، وسنزيده إيضاحاً في محل يناسبه إنشاء الله. هذا إجمال الكلام في النكاح. وأمّا الطلاق فهو من مفاخر هذه الشريعة الإسلامية، وقد وضع جوازه على الفطرة إذ لا دليل من الفطرة يدل على المنع عنه، وأمّا خصوصيات القيود المأخوذة في تشريعه فسيجيء الكلام فيها في سورة الطلاق إنشاء الله العزيز. وقد اضطررت الملل المعظمة اليوم إلى إدخاله في قوانينهم المدنية بعد ما لم يكن.





أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ  
مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٢٤٣)

### ﴿ بيان ﴾

قوله تعالى : أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ اه ؛  
الرؤية ههنا بمعنى العلم ، عبّر بذلك لدعوى ظهوره بحيث يعد فيه العلم رؤية فهو كقوله  
تعالى : « أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ » إبراهيم - ١٩ و قوله تعالى :  
« أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا » النوح - ١٥ .

وقد ذكر الزمخشري أن لفظ أَلَمْ تَرَجَرى مجرى المثل ، يؤتى به في مقام التعجيب  
فقولنا : أَلَمْ تَرَ كَذَا وكذا معناه ألا تعجب لكذا وكذا ، وحذر الموت مفعول له . ويمكن أن  
يكون مفعولاً مطلقاً ، والتقدير يحذرون الموت حذراً .

قوله تعالى : فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ اه ، الأمر تكويني ولا ينافي كون  
موتهم واقعاً عن مجرى طبعي كما ورد في الروايات : أن ذلك كان بالطاعون . وإنما  
عبّر بالأمر ، دون أن يقال : فأماهم الله ثم أَحْيَاهُمْ ليكون أدل على نفوذ القدرة و غلبة  
الأمر ، فإن التعبير بالإِشاء في التكوينيات أقوى وأكدم من التعبير بالإِخبار كما أن التعبير  
بصورة الإِخبار الدال على الوقوع في التشريعات أقوى وأكدم من الإِشاء ، ولا يخلو  
قوله تعالى : ثُمَّ أَحْيَاهُمْ عن الدلالة على أن الله أَحْيَاهُمْ ليعيشوا فعاشوا بعد حيوتهم ، إذ  
لو كان إحيائهم لعبرة يعتبر بها غيرهم أولاً تمام حجة أوليان حقيقة لذكر ذلك على ما  
هو دأب القرآن في بلاغته كما في قصة أصحاب الكهف . على أن قوله تعالى بعد : إِنَّ  
اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ اه يشعر بذلك أيضاً .

قوله تعالى : وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ اه ، الإظهار في موضع الإضمار  
أعني تكرار لفظ الناس ثانياً لما فيه من الدلالة على انخفاض سطح أفكارهم . على أن

هؤلاء الذين تفضل الله عليهم بالإحياء طائفة خاصة ، وليس المراد كون الأكثر منهم بعينهم غير شاكرين بل الأكثر من جميع الناس . وهذه الآية لا تخلو عن مناسبة ما مع ما بعدها من الآيات المتعوضة لفرض القتال ، لما في الجهاد من إحياء الملة بعد موتها .

وقد ذكر بعض المفسرين أن الآية مثل ضربه الله لحال الأمة في تأخرها و موتها باستخزاء الأجانب إيساها ببسط السلطة والسيطرة عليها ، ثم حيوتها بنهضتها و دفاعها عن حقوقها الحيوية واستقلالها في حكومتها على نفسها .

قال ما حاصله : أن الآية لو كانت مسوقة لبيان قصة من قصص بني إسرائيل كما يدل عليه أكثر الروايات أو غيرهم كما في بعضها لكان من الواجب الإشارة إلى كونهم من بني إسرائيل ، و إلى النبي الذي أحياهم كما هو دأب القرآن في سائر قصصه مع أن الآية خالية عن ذلك . على أن التوراة أيضاً لم تتعرض لذلك في قصص حزقيل النبي على نبيينا وآله و عليه السلام فليست الروايات إلا من الإسرائيليات التي دسستها اليهود . مع أن الموت والحيوة الديويتين ليستا إلا موتاً واحداً أو حيوة واحدة كما يدل عليه قوله تعالى : « لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى » الدخان - ٥٦ و قوله تعالى : « وأحييتنا اثنتين » المؤمن - ١١ . فلا معنى لحيوتين في الدنيا هذا . فالآية مسوقة سوق المثل ، والمراد بها قوم هجم عليهم أولوا القدرة والقوة من أعدائهم باستدلالهم واستخزائهم وبسط السلطة فيهم والتحكم عليهم فلم يدافعوا عن استقلالهم ، وخرجوا من ديارهم وهم ألوف لهم كثرة وعزيمة حذر الموت ، فقال لهم الله موتوا موت الخزي والجهل ، فإن الجهل والخمود موت كما أن العلم و إباء الضيم حيوة . قال تعالى : « يا أيها الذين آمنوا استجبوا لله و للرسول إذا دعاكم لما يحييكم » الأنفال - ٢٤ وقال تعالى : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » الأنعام - ١٢٢ .

وبالجملة فهؤلاء يموتون بالخزي وتمكن الأعداء منهم وبيقون أمواتاً ، ثم أحياهم الله بإلقاء روح النهضة والدفاع عن الحق فيهم ، فقاموا بحقوق أنفسهم واستقلوا في

أمرهم ، وهؤلاء الذين أحياهم الله وإن كانوا بحسب الأشخاص غير الذين أماتهم الله إلا أن الجميع أمة واحدة ماتت في حين وحيث في حين بعد حين ، وقد عدَّ الله تعالى القوم واحداً مع اختلاف الأشخاص كقوله تعالى في بني إسرائيل : « أنجيناكم من آل فرعون ، الأعراف - ٤٠ » وقوله تعالى : « ثم بعثناكم من بعد موتكم » البقرة - ٥٦ . ولولا ما ذكرناه من كون الآية مسوقاً للتمثيل لم يستقم ارتباط الآية بما يتلوها من آيات القتال وهو ظاهر ، انتهى ما ذكره ملخصاً .

وهذا الكلام كما ترى مبني أولاً : على إنكار المعجزات وخوارق العادات أو بعضها كإحياء الموتى وقدم إثباتها . على أن ظهور القرآن في إثبات خرق العادة بإحياء الموتى ونحو ذلك مما لا يمكن إنكاره ولولم يسع لنا إثبات صحته من طريق العقل .  
وثانياً : على دعوى أن القرآن يدل على امتناع أكثر من حياة واحدة في الدنيا كما استدلل بمثل قوله تعالى : « لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى » الدخان - ٥٦ وقوله تعالى : « أحييتنا اثنين » المؤمن - ١١ .

وفيه : أن جميع الآيات الدالة على إحياء الموتى كما في قصص إبراهيم وموسى وعيسى وعزير وأصحاب الكهف - بحيث لا تدفع دلالتها - يكفي في رد ما ذكره . على أن الحياة الدنيا لا تصير بتخلل الموت حيتين كما يستفاد أحسن الاستفادة من قصة عزير وأصحاب الكهف - حيث لم ينتهوا بموتهم الممتد . والمراد بما أورده من الآيات الدالة على نوع الحياة .

وثالثاً : على أن الآية لو كانت مسوقة لبيان القصة لتعرضت لتعيين قومهم وتشخيص النبي الذي أحياهم .

وأنت تعلم أن مذاهب البلاغة مختلفة متشعبة ، والكلام كما ربما يجري مجرى الإطناب كذلك يجري مجرى الإيجاز ، وللآية نظام في القرآن كقوله تعالى : « قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود » البروج - ٥ وقوله تعالى : « ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » الأعراف - ١٨٠ .

و رابعاً : على أن الآية لولم تحمل على التمثيل لم ترتبط بما بعدها من الآيات بحسب المعنى . وأنت تعلم أن نزول القرآن نجوماً يغني عن كل تكلف بارد في ربط الآيات بعضها ببعض إلا ما كان منها ظاهر الارتباط ، ييسر الاتصال على ماهو شأن الكلام البليغ .

فالحق أن الآية كما هو ظاهرها مسوقة لبيان القصّة ، وليت شعري أى بلاغة في أن يلقي الله سبحانه للناس كلاماً لا يرى أكثر الناظرين فيه إلا أنه قصّة من قصص الماضين ، وهو في الحقيقة تمثيل مبني على التخيل من غير حقيقة .  
مع أن دأب كلامه تعالى على تمييز المثل عن غيره في جميع الأمثال المطروحة فيه بنحو قوله : « مثلهم كمثل الذي » البقرة - ١٧ وقوله : « إنما مثل الحياة الدنيا » يونس - ٢٤ وقوله : « مثل الذين حملوا » الجمعة - ٥ ، إلى غير ذلك .

### ﴿ بحث روائي ﴾

في الاحتجاج عن الصادق عليه السلام في حديث قال عليه السلام : أحبب الله قوماً خرجوا من أوطانهم هاربين من الطاعون ، لا يحصى عددهم ، فأماهم الله دهرأ طويلاً حتى بليت عظامهم ، وتقطعت أوصالهم ، وصاروا تراباً ، فبعث الله في وقت أحب أن يرى خلقه نبياً يقال له : حزقيل ، فدعاهم فاجتمعت أبدانهم ، ورجعت فيها أرواحهم ، وقاموا كهية يوم ماتوا ، لا يفتقدون في أعدادهم رجلاً فعاشوا بعد ذلك دهرأ طويلاً .  
أقول : وروى هذا المعنى الكليني والعيّاشي بنحو أبسط ، وفي آخره : وفيهم نزلت هذه الآية .



وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٤٤) مَنْ ذَا الَّذِي  
يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ  
تُرْجَعُونَ (٢٤٥) أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَأِ مِنْ بَنِي إِسْرَآئِيلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى إِذْ قَالُوا  
لِنَبِيِّ لَهُمْ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ  
الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَنْ لَا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ  
دِيَارِنَا وَابْنَانَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَاوَلُوا إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ  
بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا  
أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ  
قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مَلَكُهُ  
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ  
التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَى وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ  
الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ  
بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ  
فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنْ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ  
وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ  
يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللَّهِ كُمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ

الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا  
وَبَيَّنَّا أَقْدَامَنَا وَانصَرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِأَذْنِ اللَّهِ وَ  
قَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ  
النَّاسَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١)  
تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٢٥٢)

### (بيان)

الاتصال اليبين بين الآيات أعني الارتباط الظاهر بين فرض القتال ، والترغيب في  
القرض الحسن ، والمعنى المحصل من قصة طالوت وداود وجالوت يعطي أن هذه الآيات  
نزلت دفعة واحدة ، والمراد بيان ما للقتال من شئون الحياة ، والروح الذي به تقدم  
الأمة في حيوتهم الدينية ، والدينيّة ، وسعادتهم الحقيقية ، يبين سبحانه فيها فرض  
الجهاد ، ويدعو إلى الإنفاق والبذل في تجهيز المؤمنين وتهيئة العدة والقوة ، وسمّاه  
إقراضاً لله لكونه في سبيله ، مع ما فيه من كمال الاسترسال والإيذان بالقرب ، ثم يقصّ  
قصة طالوت وجالوت وداود ليعتبر بها هؤلاء المؤمنون المأمورون بالقتال مع أعداء الدين  
ويعلموا أن الحكومة والغلبة للإيمان والتقوى وإن قلّ حاملوهما ، والخزى والفناء  
للفنقار والفسق وإن كثر جمعهما ، فإن بني إسرائيل - وهم أصحاب القصة - كانوا  
أذلاء مخزيين ماداموا على الخمود والكسل والتواني ، فلمّا قاموا لله وقاتلوا في سبيل  
الله واستظهروا بكلمة الحق وإن كان الصادق منهم في قوله القليل منهم ، وتولّى  
أكثرهم عند إنجاز القتال أولاً ، وبالاعتراض على طالوت ثانياً ، وبالشراب من النهر  
ثالثاً ، وبقولهم : لا طاقة لنا بجالوت وجنوده رابعاً ، نصرهم الله تعالى على عدوهم  
فهزمهم بأذن الله وقتل داود جالوت واستقرّ الملك فيهم ، وعادت الحياة إليهم ، ورجع  
إليهم سوءدهم وقوتهم ، ولم يكن ذلك كلّهُ إلا لكلمة أجزاها الإيمان والتقوى على

لسانهم لمّا برزوا للجالات وجنوده ، وهي قولهم : ربّنا أفرغ علينا صبراً وانصِرنا على القوم الكافرين ، فكذلك ينبغي للمؤمنين أن يسيروا بسيرة الصالحين من الماضين ، فهم الأعلون إن كانوا مؤمنين .

**قوله تعالى :** وقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْآيَةَ فَرَضَ وَإِجَابَ لِلْجِهَادِ ، وَقَدْ قَيَّدَهُ تَعَالَى هِيئًا وَسَائِرَ الْمَوَاضِعِ مِنْ كَلَامِهِ بِكَوْنِهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لِمَا يَسْبِقُ إِلَى الْوَهْمِ وَلَا يَسْتَقَرُّ فِي الْخِيَالِ أَنَّ هَذِهِ الْوُضُفَةَ الدِّينِيَّةَ الْمَهْمَةَ لِإِجَادِ السُّلْطَةِ الدِّينِيَّةِ الْجَافَةِ ، وَتَوْسِيعَةِ الْمَمْلَكَةِ الصُّورِيَّةِ ، كَمَا تَخَيَّلَهُ الْبَاحْثُونَ الْيَوْمَ فِي التَّقَدُّمِ الْإِسْلَامِيِّ مِنَ الْاجْتِمَاعِيِّينَ وَغَيْرِهِمْ ، بَلْ هُوَ لِتَوْسِيعَةِ سُلْطَةِ الدِّينِ الَّتِي فِيهَا صَلَاحُ النَّاسِ فِي دُنْيَاهُمْ وَآخِرَتِهِمْ .

وفِي قَوْلِهِ تَعَالَى : وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ اهْ تَحْذِيرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ فِي سَيْرِهِمْ هَذَا السَّيْرَ أَنْ لَا يَخَالِفُوا بِالْقَوْلِ إِذَا أَمَرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بِشَيْءٍ ، وَلَا يَضْمُرُوا نِفَاقًا كَمَا كَانَ ذَلِكَ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَيْثُ تَكَلَّمُوا فِي أَمْرِ طَالُوتَ فَقَالُوا : أَنَتَى يَكُونُ لَهُ الْمَلِكُ عَلَيْنَا إِنْخِ ، وَحَيْثُ قَالُوا : لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ ، وَحَيْثُ فَشَلُوا وَتَوَلَّوْا الْمَاءَ كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالَ ، وَحَيْثُ شَرَبُوا مِنَ النَّهْرِ بَعْدَمَا نَهَاَهُمْ طَالُوتُ عَنْ شَرْبِهِ .

**قوله تعالى :** مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا إِلَى قَوْلِهِ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ، الْقَرْضُ مَعْرُوفٌ وَقَدْ عَدَّ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَا يَنْفَقُونَهُ فِي سَبِيلِهِ قَرْضًا لِنَفْسِهِ لَمَّا مَرَّ أَنَّهُ لِلتَّرْغِيبِ ، وَلَا أَنَّهُ إِنْفَاقٌ فِي سَبِيلِهِ ، وَلَا أَنَّهُ مِمَّا سِيرَدٌ إِلَيْهِمْ أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً .

وَقَدْ غَيَّرَ سِيَاقَ الْخُطَابِ مِنَ الْأَمْرِ إِلَى الْاسْتِفْهَامِ قَبِيلَ بَعْدَ قَوْلِهِ : وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اهْ : مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا اهْ وَلَمْ يَقُلْ : قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَقْرَضُوا اهْ لِتَنْشِطَ بِذَلِكَ ذَهْنَ الْمُخَاطَبِ بِالْخُرُوجِ مِنْ حَيْزِ الْأَمْرِ الْغَيْرِ الْخَالِي مِنْ كَلْفَةِ التَّكْلِيفِ إِلَى حَيْزِ الدَّعْوَةِ وَالنَّدْبِ فَتُسْتَرِيحُ بِذَلِكَ وَتُنْهَجُ .

**قوله تعالى :** وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ اهْ ، الْقَبْضُ الْأَخْذُ بِالشَّيْءِ إِلَيْكَ وَيُقَابِلُهُ الْبَسْطُ ، وَالْبَسْطُ هُوَ الْبَسْطُ قَلْبَ سَيْنِهِ صَادًا لِمَجَاوَرَتِهِ حُرْفِ الْإِطْبَاقِ وَالتَّفْخِيمِ وَهُوَ الطَّاءُ .

وَإِيرَادُ صِفَاتِهِ الثَّلَاثَ أَغْنَى : كَوْنُهُ قَابِضًا وَبَاسِطًا وَمَرْجِعًا يَرْجَعُونَ إِلَيْهِ لِلْإِشْعَارِ

بأنّ ما أنفقوه بإقراضه تعالى لا يعود باطلاً ولا يستبعد تضعيفه أضعافاً كثيرة فإنّ الله هو القابض الباسط ، ينقص ما شاء ، ويزيد ما شاء ، وإليه يرجعون فيوفّيهم ما أقرضوه أحسن التوفية .

**قوله تعالى :** ألم تر إلى الملائكة من بني إسرائيل إلى قوله : في سبيل الله ، الملائكة كما قيل : الجماعة من الناس على رأى واحد ، سميت بالملائكة لكونها تملأ العيون عظمة وأبهة .

وقولهم لنبيّهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله على ما يعطيه السياق يدلّ على أنّ الملك المسمّى بجالوت كان قد تملّكهم ، وسار فيهم بما افتقدوا به جميع شئون حيوتهم المستقلّة من الديار والأولاد بعد ما كان الله أنجاهم من آل فرعون ، يسومونهم سوء العذاب ببعثة موسى وولايته وولاية من بعده من أوصيائه ، وبلغ من اشتداد الأمر عليهم ما انتبه به الخامد من قويمهم الباطنة ، وعاد إلى أنفسهم العصيّة الزائلة المضعفة فعند ذلك سأل الملائكة منهم نبيّهم أن يبعث لهم ملكاً ليرتفع به اختلاف الكلمة من بينهم وتجمّع به قويمهم المتفرقة الساقطة عن التأثير ، ويقاتلوا تحت أمره في سبيل الله .

**قوله تعالى :** قال : هل عسيتم إن كتب عليكم القتال أن لا تقاتلوا ، كان بنوا إسرائيل سألوا نبيّهم أن يبعث لهم ملكاً يقاتلون معه في سبيل الله وليس ذلك للنبيّ بل الأمر في ذلك إلى الله سبحانه ، ولذلك أرجع نبيّهم الأمر في القتال وبعث الملك إلى الله تعالى ، ولم يصرّح باسمه تعظيماً لأنّ الذي أجابهم به هو السؤال عن مخالفتهم وكانت مرجوة منهم ظاهرة من حالهم بوحيه تعالى فنزّه اسمه تعالى من التصريح به بل إنّما أشار إلى أنّ الأمر منه وإليه تعالى بقوله : إن كتب الله ، والكتابة وهي الفرض إنّما تكون من الله تعالى .

وقد كانت المخالفة والتولّي عن القتال مرجوّاً منهم لكنّه أوردّه بطريق الاستفهام ليتمّ الحجّة عليهم بإنكارهم فيما سيجيبون به من قولهم : ومالنا أن لا نقاتل في سبيل الله .

**قوله تعالى :** قالوا : ومالنا أن لا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا ، الإخراج

من البلاد لما كان ملازماً للتفرقة بينهم وبين أوطانهم المألوفة ، ومنعهم عن التصرف فيها والتمتع بها، كنّي به عن مطلق التصرف والتمتع ، ولذلك نسب الإخراج إلى الأبناء أيضاً كما نسب إلى البلاد .

**قوله تعالى :** فلمّا كتب عليهم القتال تولّوا إلا قليلاً منهم والله عليم بالظالمين اه  
تفريع على قول نبيهم : هل عسيتم إن يخ و قولهم : ومالنا أن لا نقاتل اه ، وفي قوله تعالى :  
والله عليم بالظالمين اه دلالة على أن قول نبيهم لهم : هل عسيتم إن كتب عليكم القتال  
أن لا تقاتلوا اه إنّما كان لوحى من الله سبحانه : أنّهم سيتولّون عن القتال .

**قوله تعالى :** وقال لهم نبيهم إنّ الله قد بعث إلى قوله : من المال في جوابه **قوله**  
هذا حيث نسب بعث الملك إلى الله تنبيه بما فات منهم إذ قالوا لنبيهم ابعث لنا ملكاً  
نقاتل ولم يقولوا : اسأل الله أن يبعث لنا ملكاً ويكتب لنا القتال .

و بالجملة التصريح باسم طالوت هو الذي أوجب منهم الاعتراض على ملكه ،  
وذلك لوجود صفتين فيه كانتا تنافيان عندهم الملك ، وهما ما حكاها الله تعالى من قولهم :  
أنّى يكون له الملك علينا ونحن أحقّ بالملك منه اه ، ومن المعلوم أن قولهم هذا لنبيهم .  
ولم يستدلّوا على كونهم أحقّ بالملك منه بشيء يدلّ على أن دليله كان أمراً يبيّن لا  
يحتاج إلى الذكر ، وليس إلا أن بيت النبوة وبيت الملك في بني إسرائيل وهما بيتان  
مفتخران بموهبة النبوة والملك كانتا غير البيت الذي كان منه طالوت ، وبعبارة أخرى  
لم يكن طالوت من بيت الملك ولا من بيت النبوة ولذلك اعترضوا على ملكه بأننا  
- وهم أهل بيت الملك أو الملك والنبوة معاً - أحقّ بالملك منه لأنّ الله جعل الملك  
فينا فكيف يقبل الانتقال إلى غيرنا ، وهذا الكلام منهم من فروع قولهم بنفى البداء وعدم  
جواز النسخ والتغيير حيث قالوا : يد الله مغلولة غلّت أيديهم ، وقد أجاب عنه نبيهم  
بقوله : إنّ الله اصطفاه عليكم فهذه إحدى الصفتين المنافيتين للملك عندهم ، و الصفة  
الثانية ما في قولهم : ولم يؤت سعة من المال وقد كان طالوت فقيراً ، وقد أجاب عنه نبيهم  
بقوله : وزاده بسطة في العلم والجسم إلخ .

**قوله تعالى :** قال إنّ الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم اه ، الاصطفاء

والاستصفاء الاختيار وأصله الصفو ، والبسطة هي السعة والقدرة ، وهذان جوابان عن اعتراضهم .

أمّا اعتراضهم بكونهم أحقّ بالملك من طالوت لشرف بيتهم ، فجوابه : أن هذه مزية كان الله سبحانه خصّ بيتهم بها وإذا اصطفى عليهم غيرهم كان أحق بالملك منهم ، وكان الشرف والتقدّم لبيته على بيوتهم ولشخصه على أشخاصهم ، فإنّما الفضل يتبع تفضيله تعالى .

وأمّا اعتراضهم بأنّه لم يؤت سعة من المال فجوابه : أن الملك و هو استقرار السلطة على مجتمع من الناس حيث كان الغرض الوحيد منه أن يتلائم الإرادات المتفرقة من الناس وتجتمع تحت إرادة واحدة وتتحد الألفة باتصالها بزمام واحد فيسير بذلك كلّ فرد من أفراد المجتمع طريق كماله اللّائق به فلا يزاحم بذلك فرد فرداً ، ولا يتقدّم فرد من غير حقّ ، ولا يتأخّر فرد من غير حقّ . وبالجملّة الغرض من الملك أن يدبّر صاحبه المجتمع تدبيراً يوصل كلّ فرد من أفرادِهِ إلى كماله اللّائق به ، ويدفع كلّ ما يمانع ذلك . والذي يلزم وجوده في نيل هذا المطلوب أمران : أحدهما : العلم بجميع مصالح حيوة النّاس ومفاسدها . وثانيهما : القدرة الجسميّة على إجراء ما يراه من مصالح المملكة . وهما اللذان يشير إليهما قوله تعالى : وزاده بسطة في العلم والجسم . وأمّا سعة المال فعده من مقومات الملك من الجهل .

ثمّ جمع الجميع تحت حجة واحدة ذكرها بقوله تعالى : والله يؤتي ملكه من يشاء اه ، وهو أن الملك لله وحده ليس لأحد فيه نصيب إلّا ما آتاه الله سبحانه منه وهو مع ذلك لله كما يفيد الإضافة في قوله تعالى : يؤتي ملكه اه ، وإذا كان كذلك فله تعالى التصرف في ملكه كيف شاء وأراد ، ليس لأحد أن يقول : لماذا أو بماذا ( أى أن يسأل عن علّة التصرف لأنّ الله تعالى هو السبب المطلق ، ولا عن متهّم العلّية وأداة الفعل لأنّ الله تعالى تامّ لا يحتاج إلى متهّم ) فلا ينبغي السؤال عن نقل الملك من بيت إلى بيت ، أو تقليده أحداً ليس له أسبابه الظاهرة من الجمع والمال .

والإيتاء والإفاضة الإلهيّة وإن كانت كيف شاء ولمن شاء غير أنّها مع ذلك لاتنزع

جزافاً خالية عن الحكم والمصالح ، فإنَّ المقصود من قولنا: إنَّه تعالى يفعل ما يشاء ، ويؤتي الملك من يشاء ونظام ذلك ليس أنَّ الله سبحانه لا يراعي في فعله جانب المصلحة ، أو أنَّه يفعل فعلاً فإن اتفق أنَّ صادف المصلحة فقد صادف وإن لم يصادف فقد صار جزافاً ولا محذور لأنَّ الملك له فله أن يفعل ما يشاء هذا . فإنَّ هذا ممَّا يبطله الظواهر الدينية والبراهين العقلية .

بل المقصود بذلك : أنَّ الله سبحانه حيث ينتهي إليه كلُّ خلقٍ وأمر فالمصالح وجهات الخير مثل سائر الأشياء مخلوقة له تعالى ، وإذا كان كذلك لم يكن الله سبحانه في فعله مقهوراً لمصلحة من المصالح محكوماً بحكمها ، كما أنَّنا في أفعالنا كذلك ، فإذا فعل سبحانه فعلاً أو خلق خلقاً ولا يفعل إلا الجميل ، ولا يخلق إلا الحسن كان فعله ذا مصلحة مرعياً فيه صلاح العباد غير أنَّه تعالى غير محكوم ولا مقهور للمصلحة . ومن هنا صحَّ اجتماع هذا التعليل مع ما تقدّمه ، أعني اجتماع قوله تعالى : والله يؤتي ملكه من يشاء مع قوله تعالى : إنَّ الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم اه فإنَّ الحجّة الأولى مشتملة على التعليل بالمصالح والأسباب والحجّة الثانية على إطلاق الملك الذي يفعل ما يشاء . ولولا أنَّ إطلاق الملك وكونه تعالى يفعل ما يشاء لا ينافي كون أفعاله مقارنة للمصالح والحكم لم يصحَّ الجمع بين الكلامين فضلاً عن تأييد أحدهما أو تميمه بالآخر .

وقد أوضح هذا المعنى أحسن الإيضاح تذليل الآية بقوله تعالى : والله واسعٌ عليمٌ اه فإنَّ الواسع يدلُّ على عدم ممنوعيته تعالى عن فعل وإتياء أصلاً والعليم يدلُّ على أنَّ فعله تعالى يفعل يقع عن علم ثابت غير مخطئ فهو سبحانه يفعل كلَّ ما يشاء ولا يفعل إلا فعلاً ذا مصلحة .

والوسعة والسعة في الأصل حال في الجسم به يقبل أشياء آخر من حيث التمكن كسعة الأناء لما يصب فيه ، والصندوق لما يوضع فيه ، والدار لمن يحل فيها ثمَّ استعير للغنى ولكن لا كلُّ غنى ومن كلِّ جهة ، بل من جهة إمكان البذل معه كأنَّ المال يسع بذل ما أريد بذله ، وبهذا المعنى يطلق عليه سبحانه ، فهو سبحانه واسعٌ أي غنيٌّ لا يعجزه

بذل ما أراد بذله بل يقدر على ذلك .

قوله تعالى : وقال لهم نبيهم إن آية ملكه أن يأتكم التابوت فيه سكينه من ربكم اه، التابوت هو الصندوق، وهو على ما قيل فعلوت من التوب بمعنى الرجوع لأن الإنسان يرجع إلى الصندوق رجوعاً بعد رجوع .

### ﴿ كلام في معنى السكينة ﴾

والسكينة من السكون خلاف الحركة وتعمل في سكون القلب وهو استقرار الإنسان وعدم اضطراب باطنه في تصميم إرادته على ما هو حال الإنسان الحكيم ( من الحكمة باصطلاح فن الأخلاق ) صاحب العزيمة في أفعاله . والله سبحانه جعلها من خواص الإيمان في مرتبة كماله ، وعدّها من مواهبه السامية .

بيان ذلك : أن الإنسان بغريزته الفطرية يصدر أفعاله عن التعقل، وهو تنظيم مقدّمات عقلية مشتملة على مصالح الأفعال ، وتأثيرها في سعادته في حياته والخير المطلوب في اجتماعه ، ثم استنتاج ما ينبغي أن يفعله وما ينبغي أن يتركه .

وهذا العمل الفكري إذا جرى الإنسان على أسلوب فطرته ولم يقصد إلا ما ينفعه نفعاً حقيقياً في سعادته يجري على قرار من النفس وسكون من الفكر من غير اضطراب وتزلزل، وأما إذا أخذ الإنسان في حياته إلى الأرض واتبع الهوى اختلط عليه الأمر ، وداخل الخيال بتزييناته وتنميطاته في أفكاره وعزائمه فأورث ذلك انحرافه عن سنن الصواب تارة ، وتردده واضطرابه في عزمه وتصميم إرادته وإقدامه على شدائد الأمور وهزاهزها أخرى .

والمؤمن بإيمانه بالله تعالى مستند إلى سناد لا يتحرك وركن لا ينهدم، بانياً أموره على معارف حقّة لا تقبل الشكّ والريب، مقدماً في أعماله عن تكليف إلهي لا يرتاب فيها، ليس إليه من الأمر شيء حتّى يخاف فوته ، أو يحزن لفقده، أو يضطرب في تشخيص خيره عن شره .

وأما غير المؤمن فلا وليّ له يتولّى أمره ، بل خيره وشره يرجعان إليه نفسه فهو

واقع في ظلمات هذه الأفكار التي تهجم عليه من كل جانب من طريق الهوى والخيال والإحساسات المشؤومة . قال تعالى « والله وليّ المؤمنين » آل عمران - ٦٨ وقال تعالى : « ذلك بأنّ الله مولىّ الذين آمنوا وأنّ الكافرين لا مولى لهم » تجمد - ١١ وقال تعالى : « الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات » البقرة - ٢٥٧ وقال تعالى : « إنّنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » الأعراف - ٢٦ وقال تعالى : « ذلكم الشيطان يخوف أولياءه » آل عمران - ١٧٥ وقال تعالى : « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة » البقرة - ٢٦٨ وقال تعالى : « ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراناً مبيناً يعدهم ويمنّهم وما يعدهم الشيطان إلّا غروراً - إلى أن قال - وعد الله حقّاً ومن أصدق من الله قيلاً » النساء - ١٢١ وقال تعالى : « ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » يونس - ٦٢ ، والآيات كما ترى تضع كلّ خوف وحزن واضطراب وغرور في جانب الكفر ، وما يقابلها من الصفات في جانب الإيمان .

وقد بيّن الأمر أوضح من ذلك بقوله تعالى : « أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها » الأنعام - ١٢٢ . فدلّ على أنّ خبط الكافر في مشيه لكونه واقعاً في الظلمات لا يبصر شيئاً ، لكن المؤمن له نور إلهيّ يبصر به طريقه ، ويدرك به خيره وشرّه ، وذلك لأنّ الله أفاض عليه حياة جديدة على حيواته التي يشاركه فيها الكافر ، وتلك الحياة هي المستتبعة لهذا النور الذي يستنير به ، وفي معناه قوله تعالى : « يا أيّها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به و يغفر لكم » الحديد - ٢٨ .

ثمّ قال تعالى : « ولا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادّون من حادّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم . أولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيدهم بروح منه » المجادلة - ٢٢ . فأفاد أنّ هذه الحياة إنّما هي بروح منه ، وتلازم لزوم الإيمان واستقراره في القلب فهو لاء المؤمنون مؤسّدون بروح من

الله تستتبع استقرار الإيمان في قلوبهم ، والحيوة الجديدة في قلوبهم ، والنور المضي قدّامهم .

وهذه الآية كما ترى قريبة الانطباق على قوله تعالى : « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم والله جنود السموات والأرض وكان الله عليهم حكيماً » الفتح - ٤ فالسكينة في هذه الآية تنطبق على الروح في الآية السابقة وازدياد الإيمان على الإيمان في هذه على كتابة الإيمان في تلك ، ويؤيد هذا التطبيق قوله تعالى في ذيل الآية : والله جنود السموات والأرض اه فإن القرآن يطلق الجند على مثل الملائكة والروح .

ويقرب من هذه الآية سياقاً قوله تعالى : « فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحقّ بها وأهلها » الفتح - ٢٦ وكذا قوله تعالى : « فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها » التوبة - ٤١ .

وقد ظهر ممّا مرّ أنّه يمكن أن يستفاد من كلامه تعالى أنّ السكينة روح إلهي أو تستلزم روحاً إلهياً من أمر الله تعالى يوجب سكينة القلب واستقرار النفس وربط الجأش . ومن المعلوم أنّ ذلك لا يوجب خروج الكلام عن معناه الظاهر واستعمال السكينة التي هي بمعنى سكون القلب وعدم اضطرابه في الروح الإلهي . وبهذا المعنى ينبغي أن يوجه ما سيأتي من الروايات .

**قوله تعالى :** وبقية ممّا ترك آل موسى وآل هرون تحمله الملائكة إلخ، آل الرجل خاصته من أهله ويدخل فيهم نفسه إذا أطلق ، قال موسى وآل هرون هم موسى وهرون وخاصتهم من أهلها ، وقوله : تحمله الملائكة اه حال عن التابوت . وفي قوله تعالى : إنّ في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين اه كسياق صدر الآية دلالة على أنّهم سألوا نبيهم آية على صدق ما أخبر به : إنّ الله قد بعث لكم طالوت ملكاً .

**قوله تعالى :** فلمّا فصل طالوت بالجنود قال إنّ الله مبتليكم بنهر إلى قوله منهم . الفصل ههنا مفارقة المكان كما في قوله تعالى : « فلمّا فصلت العير » يونس - ٩٤ ، وربّما استعمل بمعنى القطع وهو إيجاد المفارقة بين الشيئين كما قال تعالى : « وهو خير

الفاصلين ، الأنعام ٥٧ . فالكلمة مما يتعدى ولا يتعدى .

والجند المجتمع الغليظ من كل شيء ، وسمي العسكر جنداً لتراكم الأشخاص فيه وغلظتهم ، وفي جمع الجند في الكلام دلالة على أنهم كانوا من الكثرة على حدّ يعتنى به وخاصة مع ما فيه المؤمنين من القلّة بعد جواز النهر وتفرّق الناس ، ونظير هذه النكتة موجود في قوله تعالى : فلمّا فصل طالوت بالجنود .

وفي مجموع الكلام إشارة إلى حق الأمر في شأن بني إسرائيل وإيفاءهم بميثاق الله ، فإنّهم سألوا بعث الملك جميعاً وشدّوا الميثاق ، وقد كانوا من الكثرة بحيث لمّا تولّوا إلّا قليلاً منهم عن القتال كان ذلك القليل الباقي جنوداً ، وهذه الجنود أيضاً لم تغن عنهم شيئاً بل تخلفوا بشرب النهر ولم يبق إلّا القليل من القليل مع شائبة فشل وفاق بينهم من جهة المغترّفين ، ومع ذلك كان النصر للذين آمنوا وصبروا مع ما كان عليه جنود طالوت من الكثرة .

و الابتلاء الامتحان ، و النهر مجرى الماء الفاض ، و الاعتراف و الغرف رفع الشيء ، وتناوله . يقال : غرّف الماء غرفة واغترفه غرفة إذا رفعه ليتناوله ويشربه .

وفي استثناء قوله تعالى : إلّا من اغترف غرفة بيده عن مطلق الشرب دلالة على أنّه كان المنهيّ عنه هو الشرب على حالة خاصّة ، وقد كان الظاهر أن يقال : فمن شرب منه فليس منّي إلّا من اغترف غرفة بيده غير أن وضع قوله تعالى : ومن لم يطعم فإنّه منّي اه في الكلام مع تبديل الشرب بالطعم ومعناه الذوق أوجب تحوّلاً في الكلام من جهة المعنى إذ لو لم تضاف الجملة الثانية كان مفاد الكلام أن جميع الجنود كانوا من طالوت ، والشرب يوجب انقطاع جمع منه و الاعتراف يوجب الانقطاع من المنقطع أي الاتّصال ، وأمّا لو أضيفت الجملة الثانية ، أعني قوله تعالى : ومن لم يطعمه فإنّه منّي إلى الجملة الأولى كان مفاد الكلام أن الأمر غير مستقرّ بحسب الحقيقة بعد إلّا بحسب الظاهر فالجنود في الظاهر مع طالوت لكن لم يتحقّق بعد أن الذين هم مع طالوت من هم . ثمّ النهر الذي سيبتليهم الله به سيحقّق كلا الفريقين ويشخصهما فيعين به من ليس منه وهو من شرب من النهر ، ويتعيّن به من هو منه وهو من لم يطعمه ، وإذا

كان هذا هو المفاد من الكلام لم يفد قوله في الاستثناء إلا من اغترف غرفة بيده كون المغتربين من طالوت لأن ذلك إنما كان مفاداً لو كان المذكور هناك الجملة الأولى فقط. وأمامهم وجودا الجملةتين فيتمتعين الطائفتان : أعني الذين ليسوا منهم وهم الشاربون والذين هم منه وهم الغير الطاعمين . ومن المعلوم أن الإخراج من الطائفة الأولى إنما يوجب الخروج منها لا الدخول في الثانية ، ولازم ذلك أن الكلام يوجب وجود ثلاث طوائف : الذين ليسوا منه ، والذين هم منه ، والمغتربون ، وعلى هذا فالباقيون معه بعد الجواز طائفتان : الذين هم منه ، والذين ليسوا من الخارجين ، فجازاً أن يختلف حالهم في الصبر والجزع والاعتماد بالله والقلق والاضطراب .

**قوله تعالى :** فلمّا جاوزه هو والذين آمنوا معه إلى آخر الآية ، الفئة القطعة من الناس . والتدبر في الآيات يعطي أن يكون القائلون : لاطاقة لنا هـم المغتربون ، والمجيبون لهم هم الذين لم يطعموه أصلاً ، والظن ببقاء الله إمّا بمعنى اليقين به وإمّا كناية عن الخشوع .

ولم يقولوا : يمكن أن تغلب الفئة القليلة الفئة الكثيرة بإذن الله ، بل قالوا : كم من فئة إلخ أخذاً بالواقع في الاحتجاج بإراءة المصداق ليكون أقنع للخصم .  
**قوله تعالى :** ولمّا برزوا للجالوت وجنوده إلخ ، البروز هو الظهور ، ومنه البرازو هو الظهور للحرب . والإفراغ صبّ نحو المادة السيالة في القالب ، والمراد إفاضة الله سبحانه الصبر عليهم على قدر ظرفيتهم فهو استعارة بالكناية لطيفة ، وكذا تنبئت الأقدام كناية عن الثبات وعدم الفرار .

**قوله تعالى :** فهزموهم بإذن الله إلخ ، الهزم الدفع .

**قوله تعالى :** ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض إلى آخر الآية . من المعلوم أن المراد بفساد الأرض فساد من على الأرض أى فساد الاجتماع الإنساني ولو استتبع فساد الاجتماع فساداً في أديم الأرض فما هو داخل في الغرض بالتبع لا بالذات ، وهذه حقيقة من الحقائق العلمية ينبّه بها القرآن .

بيان ذلك : أن سعادة هذا النوع لا تتم إلا بالاجتماع والتعاون . ومن المعلوم أن

هذا الأمر لا يتم إلا مع حصول وحدة ما في هيكل الاجتماع بها تتحد أعضاء الاجتماع وأجزائه بعضها مع بعض بحيث يعود الجميع كالفرد الواحد يفعل وينفعل عن نفس واحدة وبدن واحد ، و الوحدة الاجتماعية و مركبها الذي هو اجتماع أفراد النوع حالهما شبيه حال الوحدة الاجتماعية التي في الكون ومركبها الذي هو اجتماع أجزاء هذا العالم المشهود ، ومن المعلوم أن وحدة هذا النظام أعني نظام التكوين إنما هي نتيجة التأثير والتأثر الموجودين بين أجزاء العالم فلولا المغالبة بين الأسباب التكوينية وغلبة بعضها على بعض واندفاع بعضها الآخر عنه ومغلوبيتها له لم يرتبط أجزاء النظام بعضها ببعض بل بقي كل على فعليته التي هي له ، وعند ذلك بطل الحركات فبطل عالم الوجود .

كذلك نظام الاجتماع الإنساني لولم يقم على أساس التأثير والتأثر ، والدفع والغلبة لم يرتبط أجزاء النظام بعضها ببعض ، ولم يتحقق حينئذ نظام وبطلت سعادة النوع ، فإننا لو فرضنا ارتفاع الدفع بهذا المعنى ، وهو الغلبة وتحميل الإرادة من الين كان كل فرد من أفراد الاجتماع فعل فعلاً ينافي منافع الآخر ( سواء منافعه المشروعة أو غيرها ) لم يكن للآخر إرجاءه إلى ما يوافق منافعهم ويلائمها وهكذا ، وبذلك تنقطع الوحدة من بين الأجزاء وبطل الاجتماع . وهذا البحث هو الذي بحثنا عنه فيما مر : أن الأصل الأول الفطري للإنسان المكون للاجتماع هو الاستخدام . وأما التعاون والمدنية فمفترع عليه وأصل ثانوي ، وقد مر تفصيل الكلام في تفسير قوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة » البقرة - ٢١٣ .

وفي الحقيقة معنى الدفع والغلبة معنى عام سار في جميع شئون الاجتماع الإنساني ، وحقيقته حمل الغير بأي وجه أمكن على ما يريده الإنسان ، ودفعه عما يزعجه ويمانهه عليه . وهذا معنى عام موجود في الحرب والسلام معاً ، وفي الشدة والرخاء ، والراحة والعناء جميعاً ، وبين جميع الأفراد في جميع شعوب الاجتماع ، نعم إنما يتنبه الإنسان به عند ظهور المخالفة ومزاخمة بعض الأفراد بعضهم في حقوق الحياة أو في الشهوات والميول ونحوها ، فيشرع الإنسان في دفع الإنسان الممازحهم الممانع عن حقه أو عن مشتهاه . ومعلوم أن هذا على مراتب ضعيفة وشديدة ، والقتال والحرب إحدى مراتبه .

وأنت تعلم أن هذه الحقيقة أعني كون الدفع والغلبة من الأصول الفطرية عند الإنسان أصل فطري أعم من أن يكون هذا الدفع دفعاً بالعدل عن حق مشروع أو بغير ذلك، إذ لو لم يكن في فطرة الإنسان أصل مسلم على هذه الوتيرة لم يتحقق منه، لا دفاع مشروع على الحق ولا غيره، فإن أعمال الإنسان تستند إلى فطرته كما مر بيانه سابقاً فلولا اشتراك الفطرة بين المؤمن والكافر لم يمكن أن يختص المؤمن بفطرة يبني عليها أعماله.

وهذا الأصل الفطري ينتفع به الإنسان في إيجاد أصل الاجتماع على مامر من البیان، ثم ينتفع به في تحميل إرادته على غيره وتمالك ما بيده تغلباً وبغياً، و ينتفع به في دفعه واسترداد ما تملكه تغلباً وبغياً، و ينتفع به في إحياء الحق بعد موته جهلاً بين الناس وتحميل سعادتهم عليهم. فهو أصل فطري ينتفع به الإنسان أكثر مما يستتضّر به.

وهذا الذي ذكرناه «لعله» هو المراد بقوله تعالى: ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض اه، ويؤيد ذلك تذييله بقوله تعالى: «ولكن الله ذو فضل على العالمين اه».

وقد ذكر بعض المفسرين أن المراد بالدفع في الآية دفع الله الكافرين بالمؤمنين كما أن المورد أيضاً كذلك، وربما أيده أيضاً قوله تعالى: «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله» الحج - ٤٠ وفيه: أنه في نفسه معنى صحيح لكن ظاهر الآية أن المراد بصلاح الأرض مطلق الصلاح الدائم المبقي للاجتماع دون الصلاح الخاص الموجود في أحيان يسيرة كقصّة طالوت وقصص أخرى يسيرة معدودة.

وربما ذكر آخرون: أن المراد بها دفع الله العذاب والهلاك عن الفاجر بسبب البر، وقد وردت فيه من طرق العامة والخاصة روايات كما في المجمع والدر المنثور عن جابر، قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله يصلح بصلاح الرجل المسلم ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله، ولا يزالون في حفظ الله مادام فيهم، وفي الكافي

وتفسير العياشي عن الصادق عليه السلام، قال: إن الله ليدفع بمن يصلي من شيعتنا عمن لا يصلي من شيعتنا ولو اجتمعوا على ترك الصلوة لهلكوا، وإن الله ليدفع بمن يزكي من شيعتنا عمن لا يزكي ولو اجتمعوا على ترك الزكاة لهلكوا، وإن الله ليدفع بمن يحج من شيعتنا عمن لا يحج ولو اجتمعوا على ترك الحج لهلكوا الحديث، ومثلهما غيرهما. وفيه: أن عدم انطباق الآيتين على معنى الحديثين مما لا يخفى إلا أن تنطبق عليهما من جهة أن موردتهما أيضاً من مصاديق دفع الناس.

وربما ذكر بعضهم: أن المراد دفع الله الظالمين بالظالمين، وهو كما ترى. قوله تعالى: تلك آيات الله إلخ كالحاتمة يختم بها الكلام والقصة غير أن آخر الآية: وإنك لمن المرسلين اه لا يخلو عن ارتباط بالآية التالية.

### ﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور: أخرج عبد الرزاق وابن جرير عن زيد بن أسلم، قال: لما نزلت من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً الآية جاء أبو الدحداح إلى النبي صلى الله عليه وآله فقال: يا نبي الله ألا أرى ربنا يستقرضنا مما أعطانا لأنفسنا وإن لي أرضين: أحدهما بالعالية والأخرى بالسافلة، وإنني قد جعلت خيرهما صدقة، وكان النبي صلى الله عليه وآله يقول: كم من عذق مدلل لأبي الدحداح في الجنة؟

أقول: والرواية مروية بطرق كثيرة.

وفي المعاني عن الصادق عليه السلام: لما نزلت هذه الآية: من جاء بالحسنة فله خير منها قال رسول الله صلى الله عليه وآله: اللهم زدني فأنزل الله: من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها، قال رسول الله صلى الله عليه وآله: اللهم زدني فأنزل الله: من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة، فعلم رسول الله أن الكثير من الله لا يحصى وليس له منتهى.

أقول: وروى الطبرسي في المجمع والعياشي في تفسيره نظيره وروي قريب منه من طرق أهل السنة أيضاً. قوله صلى الله عليه وآله: فعلم رسول الله اه يؤمى إليه آخر الآية: والله يقبض ويبسط اه إذ لا أحد يعد عطائه تعالى، وقد قال: «وما كان عطاء ربك محظوراً» الإسرائ - ٢٠.

و في تفسير العياشي عن أبي الحسن عليه السلام في الآية ، قال : هي صلة الإمام .  
**أقول** : وروى مثله في الكافي عن الصادق عليه السلام وهو من باب عد المصدق .  
 وفي المجمع في قوله تعالى : إذ قالوا : لنبي لهم الآية هو شموئيل ، وهو بالعربية  
 إسماعيل .

**أقول** : وهو مروي من أهل السنة أيضاً : وشموئيل هو الذي يوجد في العهدين  
 بلفظ صموئيل .

و في تفسير القمي عن أبيه عن النضر بن سويد عن يحيى الحلبي عن هرون بن  
 خارجة عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام : أن بني إسرائيل بعد موت موسى عملوا بالمعاصي ،  
 وغير وادين الله ، وعتوا عن أمر ربهم ، وكان فيهم نبي يأمرهم وينهيهم فلم يطيعوه . وروي أنه  
 أرميا النبي على نبيئنا وآله وعليه السلام فسلط الله عليهم جالوت وهو من القبط ، فأذلتهم وقتل  
 رجالهم وأخرجهم من ديارهم وأموالهم ، واستعبد نساءهم ، ففرعوا إلى نبيئهم ، وقالوا : سل الله  
 أن يبعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله وكانت النبوة في بني إسرائيل في بيت ، والملك  
 والسلطان في بيت آخر ، ولم يجمع الله النبوة والملك في بيت واحد ، فمن أجل ذلك  
 قالوا لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله ، فقال لهم نبيئهم : هل عسيتم إن كتب  
 عليكم القتال أن لا تقاتلوا ؟ فقالوا : وما لنا أن لا نقاتل في سبيل الله وقد أخرجنا من  
 ديارنا وأبنائنا ، فكان كما قال الله : فلمّا كتب عليهم القتال تولّوا إلا قليلاً منهم والله  
 عليهم بالظالمين فقال لهم نبيئهم : إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً ، فغضبوا من ذلك  
 وقالوا : أنسى يكون له الملك علينا ؟ ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال  
 وكانت النبوة في بيت لاوي ، والملك في بيت يوسف ، وكان طالوت من ولد ابنيامين  
 أخي يوسف لأمه وأبيه ، ولم يكن من بيت النبوة ولا من بيت المملكة ، فقال لهم  
 نبيئهم : إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء  
 والله واسع عليم ، وكان أعظمهم جسماً وكان قوياً وكان أعلمهم ، إلا أنه كان فقيراً فعبوه  
 بالفقر ، فقالوا لم يؤت سعة من المال ، فقال لهم نبيئهم : إن آية ملكه أن يأتاكم التابوت فيه  
 سكينه من ربكم وبقية ممّا ترك آل موسى وآل هرون تحمله الملائكة ، وكان التابوت

الَّذِي أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ مُوسَىٰ فُوزَهُ فِيهِ أُمَمٌ وَأَلْقَاهُ فِي الْيَمِّ فَكَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يَتَّبِرُونَ بِهِ ، فَلَمَّا حَضَرَ مُوسَى الْوَفَاتَ وَضَعَ فِيهِ الْأَلْوَاحَ وَدَرَّعَهُ وَهَاجَرَ عَنْهُ مِنْ آيَاتِ النَّبُوَّةِ ، وَأَوْدَعَهُ عِنْدَ يَوْشَعَ وَصِيَّهُ ، وَلَمْ يَزَلِ التَّابُوتُ بَيْنَهُمْ حَتَّى اسْتَخَفُّوا بِهِ ، وَكَانَ الصَّبِيَّانِ يَلْعَبُونَ بِهِ فِي الطَّرِيقَاتِ ، فَلَمْ يَزَلِ بَنُو إِسْرَائِيلَ فِي عِزٍّ وَشَرَفٍ مَا دَامَ التَّابُوتُ عَنْدهُمْ ، فَلَمَّا عَمِلُوا بِالْمَعَاصِي وَاسْتَخَفُّوا بِالتَّابُوتِ رَفَعَهُ اللَّهُ عَنْهُمْ ، فَلَمَّا سَأَلُوا النَّبِيَّ بَعَثَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ طَالُوتَ مَلِكًا فَقَاتَلَ مَعَهُمْ فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمُ التَّابُوتَ كَمَا قَالَ : إِنَّ آيَةَ مَلِكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ ، قَالَ : الْبَقِيَّةُ ذُرِّيَّةُ الْأَنْبِيَاءِ .

**أقول :** وقوله : وروي أنه أرميا النبيّ أهرواية معترضة في رواية . قوله ﷺ : فكان كما قال الله الخ أي تؤلّى الكثيرون ولم يبق على تسليم حكم القتال إلا قليل منهم ، وفي بعض الأخبار أن هذا القليل كانوا ستين ألفاً ، روى ذلك القميّ في تفسيره عن أبيه عن الحسين بن خالد عن الرضا ﷺ ، ورواه العياشيّ عن الباقر ﷺ . وقوله : وكانت النبوة في بيت لاوي ، والمملك في بيت يوسف اه ، وقد قيل : إن المملك كان في بيت يهوذا وقد اعترض عليه أن لم يكن بينهم ملك قبل طالوت وداود وسليمان حتّى يكون في بيت يهوذا ، وهذا يؤيد ما ورد في أحاديث أئمة أهل البيت أن المملك في بيت يوسف فإنّ كون يوسف ملكاً ممّا لا ينكر .

وقوله : قال: والبقية ذرية الأنبياء اه وهم من الراوي ، وإنما فسّر ﷺ بقوله : ذرية الأنبياء قوله : آل موسى وآل عمران اه ، ويؤيد ما ذكرناه ما في تفسير العياشيّ عن الصادق ﷺ : أنه سئل عن قول الله : وبقية ممّا ترك آل موسى وآل هرون تحمله الملائكة فقال : ذرية الأنبياء .

وفي الكافي عن محمد بن يحيى عن محمد بن أحمد عن محمد بن خالد ، والحسين بن سعيد عن النصر بن سويد عن يحيى الحلبيّ عن هرون بن خارجة عن أبي بصير عن أبي جعفر ﷺ في حديث : وقال الله : إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منّي ومن لم يطعمه فإنه منّي فشربوا منه إلا ثلثمائة وثلثة عشر رجلاً ، منهم من اعترف ، ومنهم من لم يشرب .

فلمّا برزوا لجالوت قال الذين اغترفوا : لاطاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده ، وقال الذين لم يغترفوا : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين .  
**أقول :** وأمّا كون الباقيين مع طالوت ثلثمائة وثلاثة عشر رجلاً بعدد أهل بدر فقد كثر فيه الروايات من طرق الخاصّة والعامة ، وأمّا كون القائلين : لا طاقة لنا اه هم المغتربين ، وكون القائلين كم من فئة إلخ هم الذين لم يشربوا أصلاً فيمكن استفادته من نحو الاستثناء في الآية على ما يبيّنه في بيان معنى الاستثناء .

وفي الكافي بإسناده عن أحمد بن محمد عن الحسين بن سعيد عن فضالة بن أيوب عن يحيى الحلبيّ عن عبد الله بن سليمان عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : إن آية ملكه إلى قوله تحمله الملائكة قال : كانت تحمله في صورة البقرة .

واعلم أن الوجه في ذكر سند هذا الحديث مع أنّه ليس من دأب الكتاب ذلك لأن إسقاط الأسانيد فيه إنّما هو لمكان موافقة القرآن ومعه لا حاجة إلى ذكر سند الحديث ، أمّا فيما لا يطرد فيه الموافقة ولا يتأتى التطبيق فلا بدّ من ذكر الإسناد، ونحن مع ذلك نختار للإيراد روايات صحيحة الإسناد أو مؤيدة بالقراءن .

وفي تفسير العيّاشي عن محمد الحلبيّ عن الصادق عليه السلام ، قال : كان داود وإخوة له أربعة ، ومعه أبوه شينخ كبير ، وتخلّف داود في غنم لأبيه ، ففصل طالوت بالجنود فدعاه أبو داود وهو أصغرهم ، فقال : يا بني اذهب إلى إخوتك بهذا الذي صنعناه لهم يتّقوا به على عدوّهم وكان رجلاً قصيراً أرزق قليل الشعر طاهر القلب ، فخرج وقد تقارب القوم بعضهم من بعض فذكر عن أبي بصير ، قال سمعته يقول : فمرّ داود على حجر فقال الحجر : يا داود خذني واقتل بي جالوت فإني إنّما خلقت لقتله ، فأخذه فوضعه في مخلاته التي تكون فيها حجاراته التي يرمي بها عن غنمه بمقدافه ، فلمّا دخل العسكر سمعهم يتعظّمون أمر جالوت ، فقال لهم داود ما تعظّمون من أمره فوالله لئن عاينته لأقتلنّه فحدّثوا بخبره حتّى أدخل على طالوت ، فقال يا فتى وما عندك من القوة ؟ وما جرت بت من نفسك ؟ قال : كان الأسد يعدو على الشاة من غنمي فأدركه فأخذ برأسه فأفكّ لحبيبه منها فأخذها من فيه قال : فقال : ادع لي بدرع سابغة فأتي بدرع فقذفها في عنقه فتملأ منها حتّى راع

طالوت ومن حضره من بني إسرائيل ، فقال طالوت : والله لعسى الله أن يقتله به ، قال : فلمّا أن أصبحوا ورجعوا إلى طالوت والتقى الناس قال داود : أروني جالوت فلمّا رآه أخذ الحجر فجعله في مقذافه فرماه فصكّ به بين عينيه فدمغّه ونكس عن دابّته ، وقال الناس : قتل داود جالوت ، وملكه الناس حتّى لم يكن يسمع لطالوت ذكر ، واجتمعت بنو إسرائيل على داود ، وأنزل الله عليه الزبور ، وعلمه صنعة الحديد فليّنه له ، وأمر الجبال والطير بسبحن معه ، قال : ولم يعط أحد مثل صوته ، فأقام داود في بني إسرائيل مستخفياً ، وأعطى قوّة في عبادته .

**أقول :** المقذاف المقلاع الذي يكون للرعاة يرمون به الأحجار ، وقد اتفقت السنة الأخبار من طرق الفريقين أنّ داود قتل جالوت بالحجر .  
في المجمع ، قال : إنّ السكينة التي كانت فيه ريح هفانة من الجنة لها وجه كوجه الإنسان عن عليّ عليه السلام .

**أقول :** وروي هذا المعنى في الدر المنثور عن سفيان بن عيينة وابن جرير من طريق سلمة بن كهيل عن عليّ عليه السلام وكذا عن عبد الرزاق وأبي عبيد وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم ، وصحّحه وابن عساكر والبيهقي في الدلائل من طريق أبي الأحوص عن عليّ عليه السلام مثله .

وفي تفسير القميّ عن أبيه عن عليّ بن الحسين بن خالد عن الرضا عليه السلام : السكينة ريح من الجنة لها وجه كوجه الإنسان .

**أقول :** وروى هذا المعنى أيضاً الصدوق في المعاني والعيّاشي في تفسيره عن الرضا عليه السلام ، وهذه الأخبار الواردة في معنى السكينة وإن كانت آحاداً إلّا أنّها قابلة للتوجيه والتقريب إلى معنى الآية ، فإن المراد بها على تقدير صحّتها : أنّ السكينة مرتبة من مراتب النفس في الكمال توجب سكون النفس وطمأنيتها إلى أمر الله ، وأمثال هذه التعبيرات المشتملة على التمثيل كثيرة في كلام الأئمّة ، فينطبق حينئذ على روح الإيمان ، وقد عرفت في البيان السابق أنّ السكينة منطبقة على روح الإيمان ، وسيجيء شرط من الكلام على روح الإيمان في قوله تعالى : «ونفخت فيه من روحي» الحجر -

٢٩ ، وعلى هذا المعنى ينبغي أن يحمل ما في المعاني عن أبي الحسن عليه السلام في السكينة ، قال عليه السلام : روح الله يتكلم ، كانوا إذا اختلفوا في شيء كلمهم وأخبرهم ، الحديث فإنما هو روح الإيمان يهدي المؤمن إلى الحق الماختلف فيه .

## ( بحث علمي و اجتماعي )

ذكر علماء الطبيعة أن التجارب العلمي ينتج أن هذه الموجودات الطبيعية المجبولة على حفظ وجودها وبقائها ، والفعالة بقواها المقتضية لما يناسبها من الأفعال ينزع بعضها البعض في البقاء ، وحيث كانت هذه المنازعة من جهة بسط التأثير في الغير والتأثر المتقابل من الغير وبالعكس كانت الغلبة للأقوى منهما والأكمل وجوداً ، ويستنتج من ذلك أن الطبيعة لا تزال تنتخب من بين الأفراد من نوع أو نوعين أكملها وأمثلها فيقوِّد للبقاء ، ويفني سائر الأفراد وينقرض تدريجاً ، فهناك قاعدتان طبيعيتان : إحداهما : تنازع البقاء ، والثانية : الانتخاب الطبيعي وبقاء الأمثل .

وحيث كان الاجتماع متكاملاً في وجوده على الطبيعة جرى فيه أيضاً نظير القانونين : أعني : قانوني تنازع البقاء ، والانتخاب وبقاء الأمثل .

فالاجتماع الكامل وهو الاجتماع المبني على أساس الاتحاد الكامل المحكم المبرعي فيه حقوق الأفراد : الفردية والاجتماعية أحق بالبقاء ، وغيره أحق بالفناء والانقراض ، والتجارب قاض ببقاء الأمم الحية المراقبة لوظائفها الاجتماعية المحافظة على سلوك صراطها الاجتماعي ، وانقراض الأمم بتفرق القلوب ، وفشو النفاق وشيوع الظلم والفساد وإتراف الكبراء وانهدام بنيان الجدد فيهم ، والاجتماع يحاكي في ذلك الطبيعة كما ذكر . فالببحث في الآثار الأرضية يوصلنا إلى وجود أنواع من الحيوان في العهود الأولية الأرضية هي اليوم من الحيوانات المنقرضة الأنواع كالحيوان المسمى بروتوساروس أوالتسي لم يبق من أنواعها إلا أنموذجات يسيرة كالتمساح والضفدع ولم يعمل في إفنائها وانقراضها إلا تنازع البقاء ، والانتخاب الطبيعي وبقاء الأمثل ، وكذلك الأنواع الموجودة اليوم لا تزال تتغير تحت عوامل التنازع والانتخاب ، ولا يصلح منها للبقاء إلا الأمثل

والأقوى وجوداً ثمَّ يجرّهُ حكم الوراثة إلى استمرار الوجود وبقاء النوع ، وعلى هذه الوتيرة كانت الأنواع والتراكيب الموجودة في أصل تكونها فإنما هي أجزاء المادة المنبثقة في الجوِّ حدثت بتراكمها وتجمعها الكرات والأنواع الحادثة فيها ، فما كان منها صالحاً للبقاء بقي ثمَّ توارث الوجود ، وما كان منها غير صالح لذلك لمنازعة ما هو أقوى منه معه فسد وانقرض ، فهذا ما ذكره علماء الطبيعة والاجتماع ...

وقد ناقضه المتأخرون بكثير من الأنواع الضعيفة الوجود الباقية بين الأنواع حتى اليوم ، وبكثير من أصناف الأنواع النباتية والحيوانية ، فإن وقوع التربة بتأهيل كثير من أنواع النبات والحيوان وإخراجها من البرية والوحشية ، وسيرها بالتربية إلى جودة الجنس وكمال النوع مع بقاء البري والوحشي منها على الرداءة ، وسيرهما إلى الضعف يوماً فيوماً ، واستقرار التوارث فيها على تلك الصفة ، كل ذلك يقضي بعدم أطراد القاعدتين أعني تنازع البقاء والانتخاب الطبيعي .

ولذلك علّل بعضهم هذه الصفة الموجودة بين الطبيعيات بفرضية أخرى ، وهي تبعية المحيط فالمحيط الموجود وهو مجموع العوامل الطبيعية تحت شرائط خاصة زمانية ومكانية يستدعي تبعية الموجود في جهات وجوده له ، وكذلك الطبيعة الموجودة في الفرد توجب تطبيق وجوده بالخصوصيات الموجودة في محيط حيوته ، ولذلك كانت لكل نوع من الأنواع التي تعيش في البر أو البحر أو في مختلف المناطق الأرضية القطبية أو الاستوائية وغير ذلك ، من الأعضاء والأدوات والقوى ما يناسب منطقة حيوته وعيشته ، فمحيط الحياة هو الذي يوجب البقاء عند انطباق وجود الموجود بمقتضياته والزوال والفناء عند عدم انطباقه بمقتضياته ، فالقاعدتان ينبغي أن تنتزعا من هذا القانون أعني : أن الأصل في قانوني تنازع البقاء والانتخاب الطبيعي هو تبعية المحيط ، ف فيما لا أطراد للقاعدتين لا محيط مؤثر يوجب التأثير . ولكن لقاعدة تبعية المحيط من النقص في أطرادها نظير ما للقاعدتين ، وقد فصلوها في مظانها .

ولو كان تبعية المحيط تامة في تأثيرها ومطرودة في حكمها كان من الواجب أن لا يوجد نوع أو فرد غير تابع ، ولا أن يتغير محيط في نفسه كما أن القاعدتين لو كانتا

تأتمن مطردتين في حكمهما وجب أن لا يبقى شئ من الموجودات الضعيفة الوجود مع القوية منها ولا أن يجري حكم التوارث في الأصناف الرديئة من النبات والحيوان فالحق كما ربما اعترف به الأبحاث العلمية أن هذه القواعد على ما فيها من الصحة في الجملة غير مطردة .

والنظر الفلسفي الكلي في هذا الباب : أن أمر حدوث الحوادث المادية سواء كان من حيث أصل وجودها أو التبدلات والتغيرات الحادثة في أطراف وجودها يدور مدار قانون العلوية والمعلولية ، فكل موجود من الموجودات المادية بمالها من الصورة الفعالة لنفع وجوده يوجه أثره إلى غيره ليوجد فيه صورة تناسب صورة نفسه ، وهذه حقيقة لا محيص عن الاعتراف بها عند التأمل في حال الموجودات بعضها مع بعض ، و يستوجب ذلك أن ينقص كل من كل لنفع وجود نفسه فيضم ما نقصه إلى وجود نفسه بنحو ، ولازم ذلك أن يكون كل موجود فعالاً لبقاء وجوده وحيوته ، وعلى هذا صح أن يقال : إن بين الموجودات تنازعا في البقاء ، وكذلك لازم التأثير العلمي أن يتصرف الأقوى في الأضعف بإفناؤه لنفع نفسه أو تغييره بنحو ينتفع به لنفسه . وبذلك يمكن أن يوجه القانون أن أعني : الانتخاب الطبيعي وتبعية المحيط ، فإن النوع لما كان تحت تأثير العوامل المضادة فإنما يمكنه أن يقاومها إذا كان قوي الوجود قادراً على الدفاع عن نفسه . وكذلك الحال في أفراد نوع واحد ، إنما يصلح للبقاء منها ما قوي وجوده قبال المنافيات والأضداد التي تتوجه إليه ، وهذا هو الانتخاب الطبيعي وبقاء الأمثل ، وكذا إذا اجتمعت عدة كثيرة من العوامل ثم اتحدت أكثرها أو تقاربت من حيث العمل فلا بد أن يتأثر منها الموجود الذي توسط بينها الأثر الذي يناسب عملها ، وهذا هو تبعية المحيط .

ومما يجب أن يعلم : أن أمثال هذه النواميس أعني : تبعية المحيط وغيرها إنما يؤثر فيما صح أن يؤثر ، في عوارض وجود الشئ ولواحقه ، وأما نفس الذات بأن يصير نوعاً آخر فلا ، لكن القوم حيث كانوا لا يقولون بوجود الذات الجوهرية بل يبنون البحث على أن كل موجود مجموع من العوارض المجتمعة الطارئة على المادة ،

وبذلك يمتاز نوع عن نوع ، وبالحقيقة لانوع جوهرى يباين نوعاً جوهرياً آخر ، بل جميع الأنواع تتحلل إلى المادة الواحدة نوعاً المختلفة بحسب التراكيب المتنوعة ، ومن هنا تراهم يحكمون بتبدل الأنواع وبتبعية المحيط أوتأثير سائر العوامل الطبيعية ولايبالون بتبدل الذات فيها ، وللبحث ذيل ممتد سيمر بك إنشاء الله تفصيل القول فيه . ونرجع إلى أول الكلام فنقول : ذكر بعض المفسرين : أن قوله تعالى . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين الآية إشارة إلى قانونى تنازع البقاء والانتخاب الطبيعى .

قال : ويعزز ذلك قوله تعالى : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلوة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الأمور » الحج - ٤١ فهذا إرشاد إلى تنازع البقاء والدفاع عن الحق ، وأنه ينتهى ببقاء الأمثل وحفظ الأفضل .

ومما يدل على هذه القاعدة من القرآن المجيد قوله تعالى : « أنزل من السماء ماءً فسالأت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ومما توقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال » الرعد - ١٩ . فهو يفيد أن سيول الحوادث وميزان التنازع تقذف زبد الباطل الضار في الاجتماع وتدفعه وتبقى إبليز<sup>(١)</sup> الحق النافع الذي ينمو فيه العمران ، وإبريز المصلحة التي يتجلى به الإنسان ، أنتهى .

أقول : أمّا أن قاعدة تنازع البقاء وكذا قاعدة الانتخاب الطبيعى ( بالمعنى الذي مرّ بيانه ) حق في الجملة ، وأن القرآن يعتني بهما فلا كلام فيه ، لكن هذين الصنفين الذين أوردهما من الآيات غير مسوقين لبيان شيئى من القاعدتين ، فإن الصنف الأول

(١) الإبليز : الطين الذى يأتي به النيل فى أيتام الطينيان ، والابريز الذهب الخالص المصفى وهما كلمتان معربتان أصلهما آب ليز أو آب ليس ، وآب ريز .

من الآيات مسوق لبيان أن الله سبحانه غير مغلوب في إرادته ، وأن الحق وهو الذي يرتضيه الله من المعارف الدينية غير مغلوب ، وأن حامله إذا حمله على الحق والصدق لم يكن مغلوباً البتة . وعلى ذلك يدل قوله تعالى أولاً : بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير اه ، وقوله تعالى ثانياً : الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله اه فإن الجمليتين في مقام بيان أن المؤمنين سيغلبون أعدائهم لا مكان التنازع وبقاء الأمثل الأقوى ، فإن الأمثل والأقوى عند الطبيعة هو الفرد القوي في تجهيزه الطبيعي دون القوي من حيث الحق والأمثل بحسب المعنى ، بل سيغلبون لأنهم مظلومون ظلموا على قول الحق والله سبحانه حق وينصر الحق في نفسه ، بمعنى أن الباطل لا يقدر على أن يدحض حجة الحق إذا تقابلا ، وينصر حامل الحق إذا كان صادقاً في حمله كما ذكره الله بقوله : ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلوة ألح أي هم صادقون في قولهم الحق وحملهم إياه ثم ختم الكلام بقوله تعالى : والله عاقبة الأمور ، يشير به إلى عدة آيات تفيد أن الكون يسير في طريق كماله إلى الحق والصدق والسعادة الحقيقية ، ولا ريب أيضاً في دلالة القرآن على أن الغلبة لله ولجنده البتة كما يدل عليه قوله : « كتب الله لأغلبن أنا ورسلي » المجادلة - ٢١ وقوله تعالى : « ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهم المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون » الصافات - ١٧٣ وقوله تعالى : « والله غالب على أمره » يوسف - ٢١ .

وكذا الآية الثانية التي أوردها أعني قوله تعالى : أنزل من السماء ماءً فأسالت أودية بقدرها إلخ مسوقة لبيان بقاء الحق وزهوق الباطل سواء كان على نحو التنازع كما في الحق والباطل الذين هما معاً من سنخ الماديات والبقاء بينهما بنحو التنازع ، أو لم يكن على نحو التنازع والمضادة كما في الحق والباطل الذين هما بين الماديات والمعنويات فإن المعنى - ونعني به الموجود المجرد عن المادة - مقدّم على المادة غير مغلوب في حال أصلاً ، فالتقدم والبقاء للمعنى على الصورة من غير تنازع ، وكما في الحق والباطل الذين هما معاً من سنخ المعنويات والمجردات ، وقد قال تعالى : « وعنت الوجوه للحى القيوم »

ط - ١١١ وقال تعالى : « له ما في السموات والأرض كل له قانتون » البقرة - ١١٢ وقال تعالى : « وإنَّ إلى ربك المنتهى » النجم - ٤٢ . فهو تعالى . غالب على كل شيء وهو الواحد القهار .

وأما الآية التي نحن فيها أعني قوله تعالى : ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض الآية فقد عرفت أنها في مقام الإشارة إلى حقيقة يتسكى عليه الاجتماع الإنساني الذي به عمارة الأرض ، وباختلاله يختل العمران وتفسد الأرض ، وهي غريزة الاستخدام الذي جبل عليه الإنسان ، وتأديتها إلى التصالح في المنافع أعني التمدن والاجتماع التعاوني ، وهذا المعنى وإن كان بعض أعرافه وأصوله التنازع في البقاء والانتخاب الطبيعي ، لكنّه مع ذلك هو السبب القريب الذي يقوم عليه عمارة الأرض ومصونيتها عن الفساد ، فينبغي أن تحمل الآية التي تريد إعطاء السبب في عدم طروق الفساد على الأرض عليه لا على ما ذكر من القاعدتين .

وبعبارة أخرى واضحة : القاعدتان وهما التنازع في البقاء والانتخاب الطبيعي توجبان انحلال الكثرة وعودتها إلى الوحدة فإنّ كلّاً من المتنازعين يريد بالنزاع إفناء الآخر وضمّ ماله من الوجود ومزاياه إلى نفسه ، والطبيعة بالانتخاب تريد أن يكون الواحد الذي هو الباقي منهما أقوىهما وأمثلهما فنتيجة جريان القاعدتين فساد الكثرة وبطلانها وتبدّلها إلى واحد أمثل ، وهذا أمر ينافي الاجتماع والتعاون والاشتراك في الحياة الذي يطلبه الإنسان بفطرته ويهتدي إليه بغريزته وبه عمارة الأرض بهذا النوع ، لإفناء قوم منه قوماً ، وأكل بعضهم بعضاً ، والدفع الذي تعمر به الأرض ويصان عن الفساد هو الدفع الذي يدعو إلى الاجتماع والاتحاد المستقر على الكثرة والجماعة دون الدفع الذي يدعو إلى إبطال الاجتماع وإيجاد الوحدة المفنية للكثرة ، فالقتال سبب لعمارة الأرض وعدم فسادها من حيث أنّه يحیی به حقوق اجتماعية حيوية لقوم مستهلكين مستدّلين لا من حيث يتشّست به الجمع ويهلك به العين ويمحى به الأثر فافهم .

## ( بحث فى التاريخ وما يعتنى به القرآن منه )

التاريخ الثقليّ ونعني به ضبط الحوادث الكليّة والجزئية بالنقل والحديث ممّا لم يزل الإنسان من أقدم عهود حيوته وأزمان وجوده في الأرض مهتمّاً به ، ففي كل عصر من الأعصار على ما نعلمه عدّة من حفظته أو كتابه والمؤلّفين فيه ، وآخرون يعثرون ماضبطه أو لك وبأخذون ما تحفوههم به ، والإنسان ينتفع به في جهات شتّى من حيوته كالاقتصاد والاعتبار والقصّ والحديث والتفكّه وأُمور أخرى سياسيّة أو اقتصاديّة أو صناعيّة وغير ذلك .

وإنّه على شرافته وكثرة منافعه لم يزل ولا يزال يعمل فيه عاملان بالفساد يوجبان انحرافه عن صحّة الطبع وصدق البيان إلى الباطل والكذب :

**أحدهما :** أنّه لا يزال في كل عصر محكوماً للحكومة الحاضرة التي بيدها القوة والقدرة يميل إلى إظهار ما ينفعها ويغض عما يضرّها ويفسد الأمر عليها ، وليس ذلك إلّا ما لانشكّ فيه أنّ الحكومات المقتدرة في كل عصر تهتمّ بإفشاء ما تنتفع به من الحقائق وستر ما تستضرّ به أو تلبسها بلباس تنتفع به أو تصوير الباطل والكذب بصورة الحقّ والصدق ، فإنّ الفرد من الإنسان والمجتمع منه مفطوران على جلب النفع ودفع الضرر بأى نحو أمكن ، وهذا أمر لا يشكّ فيه من له أدنى شعور يشعر به الأوضاع العامّة الحاضرة في زمان حيوته ويتأمل به في تاريخ الأُمم الماضية والبعيدة .

**وثانيهما :** أنّ المتحمّلين للأخبار والناقلين لها والمؤلّفين فيها جميعهم لا يخلون من أعمال الإحساسات الباطنيّة والعصبيّات القوميّة فيما يتحمّلون فيها أو يقضون فيها ، فإنّ حملة الأخبار في الماضي - والحكومة في أعصارهم حكومة الدين - كانوا منتحلين بنحلة ومتديّنين كلّ دين ، وكانت الإحساسات المذهبيّة فيهم قويّة والعصبيّات القوميّة شديدة فلا محالة كانت تداخل الأخبار التاريخيّة من حيث اشتغالها على أحكام وأقضية ، كما أنّ العصبيّة الماديّة والإحساسات القويّة اليوم للحريّة على الدين وللهوى على العقل يوجب مداخلات من أهل الأخبار اليوم نظير مداخلات القدماء فيما ضبطوه أو نقلوه ، ومن هنا

إنك لا ترى أهل دين ونحلة فيما ألف أو جمع من الأخبار أودع شيئاً يخالف مذهبهم فما ضبطه أهل كل مذهب موافق لأصول مذهبهم ، وكذا الأمر في النقل اليوم لا ترى كلمة تاريخية عملته أيديهم إلا وفيه بعض التأييد للمذهب المادّي .

على أن هيهنا عوامل أخرى تستدعي فساد التاريخ ، وهو فقدان وسائل الضبط والأخذ والتحمل والنقل والتأليف والحفظ عن التغير والفقدان سابقاً . وهذه النقيصة وإن ارتفعت اليوم بتقارب البلاد وتراكم وسائل الاتصال وسهولة نقل الأخبار والانتقال والتحول لكن عمّت البلية من جهة أخرى وهي : أن السياسة داخلت جميع شئون الإنسان في حياته ، فالدنيا اليوم تدور مدار السياسة الفنية ، وبحسب تحولها تتحول الأخبار من حال إلى حال ، وهذا مما يوجب سوء الظن بالتاريخ حتى كاد أن يورده مورد السقوط . ووجود هذه النواقص أو النواقض في التاريخ النقلي هو السبب أو عمدة السبب في إغراض العلماء اليوم عنه إلى تأسيس القضايا التاريخية على أساس الآثار الأرشية ، وهذا وإن سلمت عن بعض الإشكالات المذكورة كالأول مثلاً ، لكنها غير خالية عن الباقي ، وعمدته مداخله المورخ بماعنده من الإحساس والعصبية في القضية ، وتصرف السياسة فيها إفشائاً وكتماناً وتغييراً وتبديلاً ، فهذا حال التاريخ وما معه من جهات الفساد الذي لا يقبل إلا إصلاحاً أبداً .

ومن هنا يظهر : أن القرآن الشريف لا يعارض في قصصه بالتاريخ إذا خالفه ، فإنه وحى إلهي منزّه عن الخطأ مبرئ عن الكذب ، فلا يعارضه من التاريخ ما لا مؤمن له يؤمنه من الكذب والخطأ ، فأغلب القصص القرآنية (كنفس هذه القصة قصة طالوت) يخالف ما يوجد في كتب العهدين ، ولا ضير فيه فإن كتب العهدين لا تزيد على التواريخ المعمولة التي قد علمت كيفية تلاعب الأيدي فيها وبها . على أن مؤلف هذه القصة وهي قصة صموئيل وشارل بلسان العهدين ؛ غير معلوم الشخص أصلاً ، وكيف كان فلا نبالي بمخالفة القرآن لما يوجد منافيأله في التواريخ وخاصة في كتب العهدين ، فالقرآن هو الكلام الحق من الحق عز اسمه .

على أن القرآن ليس بكتاب تاريخ ولا أنه يريد في قصصه بيان التاريخ على حد ما

يرومه كتاب التاريخ، وإنما هو كلام إلهي مفرغ في قالب الوحي يهدي به الله من اتبع رضوانه سبيل السلام، ولذلك لا تراه يقص قصة بتمام أطرافها وجهات وقوعها، وإنما يأخذ من القصة نكات متفرقة يوجب الإيمعان والتأمل فيها حصول الغاية من عبرة أو حكمة أو موعظة أو غيرها. كما هو مشهود في هذه القصة قصة طالوت وجالوت حيث يقول تعالى: ألم تر إلى الملاء من بني إسرائيل اه، ثم يقول: وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً إلخ، ثم يقول: وقال لهم نبيهم: إن آية ملكه اه ثم يقول: فلما فصل طالوت إلخ، ثم يقول فلما برزوا لجالوت اه. ومن المعلوم أن اتصال هذه الجمل بعضها إلى بعض في تمام الكلام يحتاج إلى قصة طويلة، وقد نبهناك بمثله فيما مر من قصة البقرة، وهو مطرد في جميع القصص المقتصة في القرآن، لا يختص بالذكر منها إلا مواضع الحاجة فيها: من عبرة وموعظة وحكمة أو سنة إلهية في الأيام الخالية والأهم الغابرة. قال تعالى: «لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب» يوسف - ١١١ وقال تعالى: «يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم» النساء - ٢٥ وقال تعالى: «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين» آل عمران - ١٣٧. إلى غير ذلك من الآيات.



تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ  
 دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ  
 مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُمْ مَنْ  
 آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ( ٢٥٣ )  
 يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا  
 خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤)

### ﴿بيان﴾

سياق هاتين الآيتين لا يبعد كل البعد من سياق الآيات السابقة التي كانت تأمر بالجهاد  
 وتندب إلى الإنفاق ثم تقصّ قصة قتال طالوت ليعتبر به المؤمنون ، وقد ختمت القصة  
 بقوله تعالى : وإِنَّكَ لَمِنَ المرسلين الآية ، وافتتحت هاتان الآيتان بقوله : تلك الرسل  
 فضَّلنا بعضهم على بعض ثمّ ترجع إلى شأن فتال أهم الأنبياء بعدهم ، وقد قال في  
 القصة السابقة أعني : قصة طالوت : ألم تر إلى الملائكة من بني إسرائيل من بعد موسى  
 اه فأتى بقوله : من بعد موسى اه قيداً ، ثمّ ترجع إلى الدعوة إلى الإنفاق من قبل أن  
 يأتي يوم اه فهذا كله يؤيد أن تكون هاتان الآيتان ذيل الآيات السابقة ، والجميع  
 نازلة معاً .

وبالجملة الآية في مقام دفع ما ربّما يتوهّم : أن الرسالة وخاصة من حيث كونها  
 مشفوعة بالآيات البيِّنات الدالّة على حقيّة الرسالة ينبغي أن يختم بها بليّة القتال :  
 إمّا من جهة أن الله سبحانه لما أراد هداية الناس إلى سعادتهم الدنيويّة والأخرويّة بأرسل  
 الرسل وإيتاء الآيات البيِّنات كان من الحريّ أن يصرفهم عن القتال بعد ، ويجمع

كلمتهم على الهداية فما هذه الحروب والمشاجرات بعد إلا نبياء في أممهم وخاصة بعد انتشار دعوة الإسلام الذي يعدّ الاتحاد والاتفاق من أركان أحكامه وأصول قوانينه؛ وإما من جهة أن إرسال الرسل وإيتاء بيّنات الآيات للدعوة إلى الحق لغرض الحصول على إيمان القلوب، والإيمان من الصفات القلبية التي لا توجد في القلب عنوة وقهراً فماذا يفيد القتال بعد استقرار النبوة؟ وهذا هو الإشكال الذي تقدّم تقريره والجواب عنه في الكلام على آيات القتال.

والذي يجيب تعالى به: أن القتال معلول الاختلاف الذي بين الأمم إذ لولا وجود الاختلاف لم ينجرّ أمر الجماعة إلى الاقتتال؛ فعلة الاقتتال الاختلاف الحاصل بينهم ولو شاء الله لم يوجد اختلاف فلم يكن اقتتال رأساً، ولو شاء لأعقم هذا السبب بعد وجوده لكن الله سبحانه يفعل ما يريد، وقد أراد جرى الأمور على سنة الأسباب، فوجد الاختلاف فوجد القتال فهذا إجمال ما تفيد الآية.

**قوله تعالى:** تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض اه إشارة إلى فخامة أمر الرسل وعلو مقامهم ولذلك جيء في الإشارة بكلمة تلك الدالة على الإشارة إلى بعيد. وفيه دلالة على التفضيل الإلهي الواقع بين الأنبياء عليهم السلام ففهم من هو أفضل وفيهم من هو مفضل عليه، وللجميع فضل فإن الرسالة في نفسها فضيلة وهي مشتركة بين الجميع. ففيما بين الرسل أيضاً اختلاف في المقامات وتفاوت في الدرجات كما أن بين الذين بعدهم اختلافاً على ما يدل عليه ذيل الآية إلا أن بين الاختلافين فرقاً، فإن الاختلاف بين الأنبياء اختلاف في المقامات وتفاضل في الدرجات مع اتّحادهم في أصل الفضل وهو الرسالة، واجتماعهم في مجمع الكمال وهو التوحيد، وهذا بخلاف الاختلاف الموجودين أمم الأنبياء بعدهم فإنه اختلاف بالإيمان والكفر، والنفي والإثبات، ومن المعلوم أن لاجماع في هذا النوع من الاختلاف، ولذلك فرق تعالى بينهما من حيث التعبير فسمّى ما للأنبياء تفضيلاً ونسبه إلى نفسه، وسمّى ما عند الناس بالاختلاف ونسبه إلى أنفسهم، فقال في مورد الرسل فضلنا اه، وفي مورد أممهم اختلفوا اه. ولما كان ذيل الآية متعرّضاً لمسئلة القتال مرتبطاً بها والآيات المتقدمة على

الآية أيضاً راجعة إلى القتال بالأمر فيه والاقتصاص فيه لم يكن مناص من كون هذه القطعة من الكلام أعني قوله تعالى: تلك الرسل فضلنا إلى قوله بروح القدس مقدمة لتبيين ما في ذيل الآية من قوله: ولو شاء الله ما قتل الذين من بعدهم إلى قوله تعالى: ولكن الله يفعل ما يريد.

وعليهذا فصدر الآية لبيان أن مقام الرسالة على اشتراكه بين الرسل عليهم السلام مقام تنمو فيه الخيرات والبركات، وتنبع فيه الكمال والسعادة ودرجات القربى والزلفى كالتكليم الإلهي وإتياء البيّنات والتأييد بروح القدس، وهذا المقام على ما فيه من الخير والكمال لم يوجب ارتفاع القتال لاستناده إلى اختلاف الناس أنفسهم.

وبعبارة أخرى عصّل معنى الآية أن الرسالة على ما هي عليه من الفضيلة مقام تنمو فيه الخيرات كلما انعطفت إلى جانب منه وجدت فضلاً جديداً، وكلمات إلى نحو من أنعماء ألفت غضاً طرياً؛ وهذا المقام على ما فيه من البهاء والسناء والإيمان بالآيات البيّنات لا يتم به رفع الاختلاف بين الناس بالكفر والإيمان، فإن هذا الاختلاف إنما يستند إلى أنفسهم، فهم أنفسهم أوجدوا هذا الاختلاف كما قال تعالى في موضع آخر: «إن الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءتهم البيّنات بغياً بينهم» آل عمران- ١٩ وقد مرّ بيانه في قوله تعالى: «كان الناس أمة واحدة» البقرة- ٢١٣. ولو شاء الله لمنع من هذا القتال الواقع بعدهم منعاً تكوينياً، لكنهم اختلفوا فيما بينهم بغياً وقد أجرى الله في سنة الإيجاد سبيبة ومسببة بين الأشياء، والاختلاف من علل التنازع. ولو شاء الله تعالى لمنع من هذا القتال منعاً تشريعياً أو لم يأمر به؛ ولكنه تعالى أمر به وأراد بأمره البلاء والامتحان ليميز الله الغييب من الطيب وليعلمن الله الذين آمنوا وليعلمن الكاذبين.

وبالجملة القتال بين أُمم الأنبياء بعدهم لا مناص عنه لمكان الاختلاف عن بغى، والرسالة وبيّناتها إثمات دحض الباطل وتزيل الشبه. وأمّا البغى واللجاج وما يشابههما من الرذائل فلا سبيل إلى تصفية الأرض منها، وإصلاح النوع فيها إلا القتال، فإن التجارب يعطي أن الحجّة لم تنجح وحدها قط إلا إذا شفع بالسيف، ولذلك كان كلما

اقتضت المصلحة أمر الله سبحانه بالقيام للحق والجهاد في سبيل الله كما في عهد إبراهيم وبني إسرائيل ، و بعد بعثة رسول الله ﷺ ، وقد مرّ بعض الكلام في هذا المعنى في تفسير آيات القتال سابقاً

**قوله تعالى :** منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجاته ، في الجملتين التفتت من الحضور إلى الغيبة ، والوجه فيه - والله أعلم - أن الصفات الفاضلة على قسمين : منها ما هو بحسب نفس مدلول الاسم يدل على الفضيلة كالآيات البينات ، و كالتأييد بروح القدس كما ذكر لعيسى عليه السلام فإن هذه الخصال بنفسها غالية سامية . ومنها : ما ليس كذلك ، وإنما يدل على الفضيلة و يستلزم المنقبة بواسطة الإضافة كالتكليم ، فإنه لا يعد في نفسه منقبة وفضيلة إلا أن يضاف إلى شيء فيكتسب منه البهاء والفضل كما ضافته إلى الله عز اسمه ، و كذا رفع الدرجات لافضيلة فيه بنفسه إلا أن يقال : رفع الله الدرجات مثلاً فينسب الرفع إلى الله . إذا عرفت هذا علمت : أن هذا هو الوجه في الالتفات من الحضور إلى الغيبة في اثنتين من الجمل الثلاث حيث قال تعالى : فمنهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات و آتينا عيسى بن مريم البينات اه فحوّل وجه الكلام من التكلم إلى الغيبة في الجملتين الأولين حتى إذا استوفى الغرض عاد إلى وجه الكلام الأوّل وهو التكلم فقال تعالى : و آتينا عيسى بن مريم اه .

وقد اختلف المفسّرون في المراد من الجملتين من هو ؟ ف قيل المراد بمن كلم الله : موسى عليه السلام لقوله تعالى : « وكلم الله موسى تكليماً » النساء - ١٦٣ ، وغيره من الآيات . وقيل المراد به رسول الله محمد ﷺ لما كلمه الله تعالى ليلة المعراج حيث قرّبه إليه تقريباً سقطت به الوسائط جملة فكلمه بالوحي من غير واسطة . قال تعالى : « ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى فأوحى إلى عبده ما أوحى » النجم - ١٠ . وقيل المراد به الوحي مطلقاً لأن الوحي تكليم خفي ، وقد سمّاه الله تعالى تكليماً حيث قال : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب الآية » الشورى - ٥١ . وهذا الوجه لا يلائم من التبعية التي في قوله تعالى : منهم من كلم الله اه

والأوفق بالمقام كون المراد به موسى عليه السلام لأن تكليمه هو المعهود من كلامه تعالى

النازل قبل هذه السورة المدنيّة . قال تعالى : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه إلى أن قال : قال يا موسى : إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي » الأعراف - ١٤٣ وهي آية مكيّة فقد كان كون موسى مكلفاً معهوداً عند نزول هذه الآية .

وكذا في قوله : ورفع بعضهم درجات اه ، قيل المراد به محمد ﷺ لأن الله رفع درجته في تفضيله على جميع الرسل ببعثته إلى كافة الخلق كما قال تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس » السبا - ٢٨ وبجعله رحمة للعالمين كما قال تعالى : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » الأنبياء - ١٠٧ وبجعله خاتماً للنبوّة كما قال تعالى : ولكن رسول الله وخاتم النبيين » الأحزاب - ٤٠ وبإيتائه قرآناً مهيمناً على جميع الكتب و تبياناً لكل شيء ومحفوظاً من تحريف المبطلين ، و معجزاً باقياً ببقاء الدنيا كما قال تعالى : « وأنزلنا عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه » المائدة - ٥١ وقال تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء » النحل - ٨٩ وقال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنّ له لحافظون » الحجر - ٩ وقال تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » الإسراء - ٨٨ واختصاصه بدين قيّم يقوم على جميع مصالح الدنيا والآخرة . قال تعالى : « فأقم وجهك للدين القيم » الروم - ٤٣ . وقيل المراد به ما رفع الله من درجة غير واحد من الأنبياء كما يدل عليه قوله تعالى في نوح : « سلام على نوح في العالمين » الصافات - ٧٩ وقوله تعالى في إبراهيم عليه السلام : « وإذا ابتلى إبراهيم ربّه بكلمات فأتمهنّ » قال إني جاعلك للناس إماماً » البقرة - ١٢٤ وقوله تعالى فيه « واجعل لي لسان صدق في الآخرين » الشعراء - ٨٤ وقوله تعالى في إدريس عليه السلام « ورفعناه مكاناً عليّاً » مريم - ٧٦ وقوله تعالى في يوسف : « نرفع درجات من نشاء » يوسف - ٧٦ وقوله في داود عليه السلام : « وآتينا داود زبوراً » النساء - ١٦٢ ، إلى غير ذلك من مختصّات الأنبياء

وكذا قيل : إنّ المراد بالرسول في الآية هم الذين اختصّوا بالذكر في سورة البقرة كإبراهيم وموسى وعيسى وعزير وأرميا وشموئيل وداود ومحمد ﷺ ، وقد ذكر موسى وعيسى من بينهم وبقي الباقون ، فالبعض المرفوع الدرجة هو محمد ﷺ بالنسبة إلى الباقين .

وقيل : لما كان المراد بالرسول في الآية هم الذين ذكرهم الله قبيل الآية في القصة وهم موسى وداود وشموئيل ونوح ، وقد ذكر ما اختص به موسى من التكليم ثم ذكر رفع الدرجات وليس له إلا نوح عليه السلام . ويمكن أن يوجه التصريح باسم عيسى على هذا القول : بأن يقال : أن الوجه فيه عدم سبق ذكره عليه السلام فيمن ذكر من الأنبياء في هذه الآيات والسدي ينبغي أن يقال : أنه لا شك أن ما رفع الله به درجة النبي صلى الله عليه وآله وسلم مقصود في الآية غير أنه لا وجه لتخصيص الآية به ، ولا بمن ذكر في هذه الآيات أعني أرميا وشموئيل وداود ونوح عليهم السلام ، ولا بمن ذكر في هذه السورة من الأنبياء فإن كل ذلك تحكّم من غير وجه ظاهر ، بل الظاهر من إطلاق الآية شمول الرسول لجميع الرسل عليهم السلام وشمول البعض في قوله تعالى : ورفع بعضهم درجات اه لكل من انعم الله عليه منهم برفع الدرجة . وما قيل : أن الأسلوب يقتضي كون المراد به نوح عليه السلام لأن السياق في بيان العبرة للأمم التي تقتتل بعد رسلهم مع كون دينهم ديناً واحداً ، والموجود منهم اليهود والنصارى والمسلمون فالمناسب تخصيص رسلهم بالذكر ، وقد ذكر منهم موسى وعيسى بالتفضيل في الآية ، فتعيّن أن يكون البعض الباقي نوحاً عليه السلام .

فيه : أن القرآن يقضي بكون جميع الرسل رسلاً إلى جميع الناس . قال تعالى : « لا نفرّق بين أحد منهم » البقرة - ١٣٦ . فإتيان الرسل جميعاً بالآيات البينات كان ينبغي أن يقطع دابر الفساد والقتال بين الذين بعدهم لكن اختلفوا بغياً بينهم فكان ذلك أصلاً يتفرّع عليه القتال فأمر الله تعالى به حين تقتضيه المصلحة ليحقّ الحقّ بكلماته ويقطع دابر المبطلين ، فالعموم وجيه في الآية .

### ﴿ كلام في الكلام ﴾

ثم إن قوله تعالى : منهم من كلم الله اه يدلّ على وقوع التكليم منه لبعض الناس في الجملة أي أنه يدلّ على وقوع أمر حقيقيّ من غير مجاز وتمثيل وقد سمّاه الله في كتابه بالكلام ، سواء كان هذا الإطلاق إطلاقاً حقيقياً أو إطلاقاً مجازياً ، فالبحت في المقام من جهتين :

الجهة الاولى : أن كلامه تعالى يدل على أن ما خص الله تعالى به أنبيائه و  
رسله من النعم التي تخفى على إدراك غيرهم من الناس مثل الوحي والتكليم ونزول الروح  
والملائكة ومشاهدة الآيات الإلهية الكبرى ، أو أخبرهم به كلكم والشيطان واللوح  
والقلم وسائر الآيات الخفية على حواس الناس ، كل ذلك أمور حقيقية واقعية من  
غير مجاز في دعاويهم مثل أن يسموا القوى العقلية الداعية إلى الخير ملائكة ، وما  
تلقية هذه القوى إلى إدراك الإنسان بالوحي ، والمرتبة العالية من هذه القوى وهي  
التي تترشح منها الأفكار الطاهرة المصلحة للاجتماع الإنساني بروح القدس والروح  
الأمين ، والقوى الشهوية والغضبية النفسانية الداعية إلى الشر والفساد بالشياطين  
والجن ، والأفكار الرديئة المفسدة للاجتماع الصالح أو الموقعة لسيئ العمل  
بالوسوسة والنزغة ، وهكذا .

فإن الآيات القرآنية وكذا ما نقل إلينا من بيانات الأنبياء الماضين ظاهرة في  
كونهم لم يريدوا بها المجاز والتمثيل ، بحيث لا يشك فيه إلا مكابر متعسف ولا كلام  
لنا معه ، ولو جاز حمل هذه البيانات إلى أمثال هذه التجوزات جاز تأويل جميع ما  
أخبروا به من الحقائق الإلهية من غير استثناء إلى المادية المحضة النافية لكل ما وراء  
المادة ، وقد مر بعض الكلام في المقام في بحث الإعجاز . ففي مورد التكليم الإلهي  
لا محالة أمر حقيقي متحقق يترتب عليه من الآثار ما يترتب على التكملمات الموجودة  
فيما بيننا .

توضيح ذلك : أنه سبحانه عبّر عن بعض أفعاله بالكلام والتكليم كقوله تعالى :  
« وكلم الله موسى تكليماً » النساء - ١٦٣ وقوله تعالى : « منهم من كلم الله الآية » وقد  
فسّر تعالى هذا الإطلاق المبهم الذي في هاتين الآيتين وما يشبههما بقوله تعالى : « وما  
كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه  
ما يشاء » الشورى - ٥١ . فإن الاستثناء في قوله تعالى : « إلا وحياً إلخ لا يتم إلا إذا كان  
التكليم المدلول عليه بقوله : أن يكلمه الله اه تكليماً حقيقة ، فتكليم الله تعالى للبشر  
تكليم لكن بنحو خاص ، فحدّ أصل التكليم حقيقة غير منفي عنه .

والذي عندنا من حقيقة الكلام : هو أن الإنسان لمكان احتياجه إلى الاجتماع والمدنية يحتاج بالفطرة إلى جميع ما يحتاج إليه هذا الاجتماع التعاوني ، ومنها التكلم ، وقد ألجأت الفطرة الإنسان أن يسلك إلى الدلالة على الضمير من طريق الصوت المعتمد على مخارج الحروف من الفم ، ويجعل الأصوات المؤلفة والمختلطة إشارات دالة على المعاني المكونة في الضمير التي لا طريق إليها إلا من جهة العلامم الاعتبارية الوضعية ، فالإنسان محتاج إلى التكلم من جهة أنه لا طريق له إلى التفهيم والتفهم إلا جعل الألفاظ والأصوات المؤلفة علامم جليّة وأمارات وضعية ؛ ولذلك كانت اللغات في وسعها دائرة مدار الاحتياجات الموجودة ، أعني : الاحتياجات التي تنبّه بها الإنسان في حياته الحاضرة ؛ ولذلك أيضاً كانت اللغات لاتزال تزيد وتتسع بحسب تقدّم الاجتماع في صراطه ، وتكثر الحوائج الإنسانية في حياته الاجتماعية . ومن هنا يظهر : أن الكلام أعني تفهيم ما في الضمير بالأصوات المؤلفة الدالة عليه بالوضع والاعتبار إنما يتم في الإنسان وهو واقع في ظرف الاجتماع ، وربما لحق به بعض أنواع الحيوان ممّا لنوعه نحو اجتماع وله شيء من جنس الصوت ( على ما نحسب ) و أمّا الإنسان في غير ظرف الاجتماع التعاوني فلا تحقق للكلام معه ، فلو كان ثمّ إنسان واحد من غير أيّ اجتماع فرض لم تمس الحاجة إلى التكلم قطعاً لعدم مساس الحاجة إلى التفهيم والتفهم ، وكذلك غير الإنسان ممّا لا يحتاج في وجوده إلى التعاون الاجتماعي والحياة المدنية كالمملك والشیطان مثلاً .

فالكلام لا يصدر منه تعالى على حدّ ما يصدر الكلام ممّا أعني بنحو خروج الصوت من الحنجرة واعتماده على مقاطع النفس من الفم المنضمة إليه الدلالة الاعتبارية الوضعية ، فإنّه تعالى أجلّ شأنًا وأنزّه ساحة أن يتجهز بالتجهيزات الجسمانية ، أو يستكمل بالدعوي الوهميّة الاعتباريّة وقد قال تعالى : « ليس كمثله شيء » الشورى - ١١ .

لكنّه سبحانه فيما مرّ من قوله : « وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب » الشورى - ٥١ . ثبت لشأنه وفعله المذكور حقيقة التكليم وإن نفى

عنه المعنى العادي المعهود بين الناس ، فالكلام بحدّ الاعتباري المعهود مسلوب عن الكلام الإلهي لكنّه بخواصّه وآثاره ثابت له ، ومع بقاء الأثر والغاية يبقى المحدود في الأمور الاعتباريّة الدائرة في اجتماع الإنسان نظير الذرع والميزان والمكيال والسراج و السلاح ونحو ذلك ، وقد تقدّم بيانه .

فقد : ظهر أن ما يكشف به الله سبحانه عن معنى مقصود إفهامه للنبي كلام حقيقة ، وهو سبحانه وإن يبيّن لنا إجمالاً أنّه كلام حقيقة على غير الصفة التي نعدّها من الكلام الذي نستعمله ، لكنّه تعالى لم يبيّن لنا ولا نحن تنبّهنا من كلامه أن هذا الذي يسمّيه كلاماً يكلم به أنبياءه ما حقيقته ؟ وكيف يتحقّق ؟ غير أنّه على أيّ حال لا يسلب عنه خواصّ الكلام المعهود عندنا ويثبت عليه آثاره وهي تفهيم المعاني المقصودة وإلقائها في ذهن السامع .

وعليهذا فالكلام منه تعالى كالإحياء والإماتة والرزق والهداية والتوبة وغيرها فعل من أفعاله تعالى يحتاج في تحقّقه إلى تماميّة الذات قبله لا كمثل العلم والقدرة والحيوة ممّا لا تمام للذات الواجبة بدونه من الصفات التي هي عين الذات ، كيف ولا فرق بينه وبين سائر أفعاله التي تصدر عنه بعد فرض تمام الذات ؟ وربما قبل الانطباق على الزمان . قال تعالى : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال ربّ أدنيّ أنظر إليّ قال لن تراني » الأعراف - ١٤٢ وقال تعالى « وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً » مريم - ٨ وقال تعالى : « فقال لهم الله موتوا ثمّ أحياهم » البقرة - ٢٤٣ وقال تعالى : « نحن نرزقكم وإياهم » الأنعام - ١٥١ وقال تعالى : « الذي أعطى كلّ شيء خلقه ثمّ هدى » طه - ٥٠ وقال تعالى : « ثمّ تاب عليهم ليتوبوا » التوبة - ١١٩ . فالآيات كما ترى تفيد زمنيّة الكلام كما تفيد زمنيّة غيره من الأفعال كالخلق والإماتة والإحياء والرزق والهداية والتوبة على حدّ سواء .

فهذا هو الذي يعطيه التدبّر في كلامه تعالى ، والبحث التفسيريّ المقصور على الآيات القرآنيّة في معنى الكلام . أمّا ما يقتضيه البحث الكلاميّ على ما اشتغل به السلف من المتكلمين أو البحث الفلسفيّ فسيأتيك نبأه .

واعلم : أن الكلام أو التكليم مما لم يستعمله تعالى في غير مورد الإنسان ، نعم الكلمة أو الكلمات قد استعملت في غير مورد . قال تعالى : « وكلمته ألقاها إلى مريم » النساء - ١٧٠ ، أريد به نفس الإنسان ، وقال تعالى : « وكلمة الله هي العليا » التوبة - ٤١ . وقال تعالى : وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ، الأنعام - ١١٥ وقال تعالى : « ما نفدت كلمات الله » لقمان - ٢٧ ، وقد أريد بها القضاء أو نوع من الخلق على ما سيجيء ، الإشارة إليه .

وأما لفظ القول فقد عمّ في كلامه تعالى الإنسان وغيره فقال تعالى في مورد الإنسان : فقلنا يا آدم إن هذا عدو لك ولزوجك طه - ١١٧ وقال تعالى في مورد الملائكة : « وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة » البقرة - ٣٠ وقال أيضاً : « وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين » ص - ٧١ . وقال في مورد إبليس : « قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي » الأعراف - ١١ . وقال تعالى في غير مورد أولي العقل : « ثم أستوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين » فصلت - ١١ وقال تعالى : « قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم » الأنبياء - ٦٩ وقال تعالى : « وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي » هود - ٤٤ . ويجمع الجميع على كثرة مواردها وتشتملها قوله : تعالى : « إن شاء أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » يس - ٨٢ وقوله تعالى : « إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون » مريم - ٣٥ .

والذي يعطيه التدبر في كلامه تعالى ( حيث يستعمل القول في الموارد المذكورة ) مما له سمع وإدراك بالمعنى المعهود عندنا كالإنسان مثلاً ، ومما سبيله التكوين وليس له سمع وإدراك بالمعنى المعهود عندنا كالأرض والسماء ، وحيث أن الآيتين الأخيرتين بمنزلة التفسير لما يتقدّمهما من الآيات ( أن القول منه تعالى إيجاد أمر يدل على المعنى المقصود .

فأما في التكوينيات فنفس الشيء الذي أوجده تعالى وخلقه هوشى ، مخلوق موجود ، وهو بعينه قول له تعالى لدلالته بوجوده على خصوص إرادته سبحانه فإن

المعلوم أنه إذا أراد شيئاً فقال له كن فكان ليس هناك لفظ متوسط بينه تعالى وبين الشيء ، وليس هناك غير نفس وجود الشيء ، فهو بعينه مخلوق وهو بعينه قوله ؛ كن ؛ فقله في التكوينية نفس الفعل وهو الإيجاد وهو الوجود وهو نفس الشيء .

وأما في غير التكوينية كمورد الإنسان مثلاً فبإيجاده تعالى أمراً يوجب علماً باطنياً في الإنسان بأن كذا كذا ، وذلك إما بإيجاد صوت عند جسم من الأجسام ، أو بنحو آخر لا ندركه ، أو لا ندرك كيفية تأثيره في نفس النبي بحيث يوجد معه علم في نفسه بأن كذا كذا على حد ما مر في الكلام .

وكذلك القول في قوله تعالى للملائكة أو الشيطان ، لكن يختص هذان النوعان وما شابههما لو كان لهما شبيه بخصوصية ، وهي أن الكلام والقول المعهود فيما بيننا إنما هو باستخدام الصوت أو الإشارة بضميمة الاعتبار الوضعي الذي يستوجبه فينا فطرنا الحيوانية الاجتماعية ، ومن المعلوم ( على ما يعطيه كلامه تعالى ) أن الملك والشيطان ليس وجودهما من سنخ وجودنا الحيواني الاجتماعي وليس في وجودهما هذا التكامل التدريجي العلمي الذي يستدعي وضع الأمور الاعتبارية .

ويظهر من ذلك : أن ليس فيما بين الملائكة ولا فيما بين الشياطين هذا النوع من التفهيم والتفهم الذهني المستخدم فيه الاعتبار اللغوي والأصوات المولفة الموضوعة للمعاني . وعليهذا فلا يكون تحقق القول فيما بينهم أنفسهم نظير تحققه فيما بيننا أفراد الإنسان بصدور صوت مؤلف تأليفاً لفظياً وضعياً من فم مشقوق ينضم إليه أعضاء فعالة للصوت من واحد ، والتأثر من ذلك بإحساس أذن مشقوقة ينضم إليها أعضاء آخذة للصوت المقروء من واحد آخر وهو ظاهر ، لكن حقيقة القول موجودة فيما بين نوعيهما بحيث يترتب عليه أثر القول وخاصته وهو فهم المعنى المقصود وإدراكه فبين الملائكة أو الشياطين قول لا كنحو قولنا ؛ وكذا بين الله سبحانه وبينهم قول لا بنحو إيجاد الصوت واللفظ الموضوع وإسماعه لهم كما سمعت .

وكذلك القول في ما ينسب إلى نوع الحيوانات العجم من القول في القرآن الكريم كقوله تعالى : « قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم » النمل - ١٨ .

وقال تعالى : « قال أحطت بما لم تحط به وجئتكم من سبأ نبأ يقين » النمل - ٢٢ . وكذا ما يذكر فيه من قول الله تعالى و وحيه إليهم كقوله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون » النحل - ٦٨ . وهناك ألفاظ أخرى مما استعمل في معنى القول والكلام أو ما يقرب من معناهما كالوحي . قال تعالى : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى الذين من قبلك » النساء - ١٦٢ . والإلهام . قال تعالى : « ونفس ما سواها فآلهما فجورها وتقواها » الأعلى - ٨ . والنبأ . قال تعالى : « قال نبأني العليم الخبير » التجرىم - ٣ والقص . قال تعالى : « يقصّ الحق » الأنعام - ٥٧ . والقول في جميع هذه الألفاظ من حيث حقيقة المعنى هو الذي قلناه في أول الكلام من لزوم تحقق أمر حقيقي معه يترتب عليه أثر القول وخاصته سواء علمنا بحقيقة هذا الأمر الحقيقي المتحقق بالضرورة أو لم نعلم بحقيقته تفصيلاً . وفي الوحي خاصة كلام سيأتي التعرّض له في سورة الشورى إنشاء الله .

و أما اختصاص بعض الموارد ببعض هذه الألفاظ مع كون المعنى المشترك المذكور موجوداً في الجميع كتسمية بعضها كلاماً وبعضها قولاً وبعضها وحياً مثلاً لا غير فهو يدور مدار ظهور انطباق العناية اللفظية على المورد ، فالقول يسمى كلاماً نظراً إلى السبب الذي يفيد وقوع المعنى في الذهن ولذلك سمى هذا الفعل الإلهي في مورد بيان تفضيل الأنبياء وتشريفهم كلاماً لأنّ العناية هناك إنما هو بالمخاطبة والتكليم . ويسمى قولاً بالنظر إلى المعنى المقصود إقامته وتفهمه ولذلك سمى هذا الأمر الإلهي في مورد القضاء والقدر والحكم والتشريع ونحو ذلك قولاً كقوله تعالى : « قال الحقّ والحقّ أقول لأملأنّ » ص - ٨٠ ، ويسمى وحياً بعناية كونه خفياً عن غير الأنبياء ولذلك عبّر في مورد هم عليهم السلام بالوحي كقوله : « إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى الذين من قبلك الآية » النساء - ١٦٢ .

**الجهة الثانية :** وهي البحث من جهة كيفية الاستعمال فقد عرفت أن مفردات اللغة إنما انتقل الإنسان إلى معانيها ووضع الألفاظ بهذائها واستعملها فيها في المحسوسات من الأمور الجسمانية ابتداءً ثم انتقل تدريجاً إلى المعنويات ، وهذا

وإن أوجب كون استعمال اللفظ الموضوع للمعنى المحسوس في المعنى المنقول استعمالاً مجازياً ابتداءً لكنّه سيعود حقيقة بعد استقرار الاستعمال وحصول التبادر ، وكذلك نرقي الاجتماع وتقدّم الإنسان في المدنيّة والحضارة يوجب التغيّر في الوسائل التي ترفع حاجته الحيويّة ، والتبدّل فيها دائماً مع بقاء الأسماء ، فالأسماء لا تزال تتبدّل مصاديق معانيها مع بقاء الأغراض المرتبة ، وذلك كما أنّ السراج في أوّل ما تنبّه الإنسان بإمكان رفع بعض الحوائج به كان مثلاً شيئاً من الدهن أو الدهنيّات مع فتيلة متّصلة بها في ظرف يحفظها فكانت تشتعل الفتيلة للاستضاءة بالليل ، فركّبت الصنعة على هذه الهيئة أوّلاً وسمّاه الإنسان بالسراج ، ثمّ لم يزل يتحوّل طوراً بعد طور ، ويركب طبقاً عن طبق ، حتّى انتهت إلى هذه السرج الكهربائيّة التي لا يوجد فيها ومعها شيء من أجزاء السراج المصنوع أوّلاً ، الموضوع بعدائه لفظ السراج من دهن وفتيلة وقصعة خزفيّة أو فلزيّة ، ومع ذلك نحن نطلق لفظ السراج عليها وعلى سائر أقسام السراج على حدّ سواء ومن غير عناية ، وليس ذلك إلاّ أن الغاية والغرض من السراج أعني الأثر المقصود منه المترتب على المصنوع أوّلاً يترتب بعينه على المصنوع أخيراً من غير تفاوت ، وهو الاستضاءة ، ونحن لانقصد شيئاً من وسائل الحيوة ولا نعرفها إلاّ بغايتها في الحيوة وأثرها المترتب ، فحقيقة السراج ما يستضاء بضوئه بالليل ، ومع بقاء هذه الخاصّة والأثر يبقى حقيقة السراج ويبقى اسم السراج على حقيقة معناه من غير تغيّر وتبدّل ، وإن تغيّر الشكل أحياناً أو الكيفيّة أو الكميّة أو أصل أجزاء الذات كما عرفت في المثال ، وعليهذا فالملاك في بقاء المعنى الحقيقي وعدم بقاءه بقاء الأثر المطلوب من الشيء على ما كان من غير تغيّر ، وقلّما يوجد اليوم في الأمور المصنوعة ووسائل الحيوة - وهي ألوف و ألوف - شيء لم يتغيّر ذاته عمّا حدث عليه أوّلاً ، غير أنّ بقاء الأثر والخاصّة أبقى لكل واحد منها اسمه الأوّل الذي وضع له . وفي اللغات شيء كثير من القسم الأوّل وهو اللفظ المنقول من معنى محسوس إلى معنى معقول يعثر عليه المتنبّع البصير .

فقد تحصّل أن استعمال الكلام والقول فيما مرّ مع فرض بقاء الأثر والخاصّة

استعمال حقيقي لا مجازي.

فظهر من جميع ما بينناه : أن إطلاق الكلام والقول في موردته تعالى يحكي عن أمر حقيقي واقعي ، وأنه من مراتب المعنى الحقيقي لهاتين اللفظتين وإن اختلف من حيث المصداق مع ما عندنا من مصداق الكلام ، كما أن سائر الألفاظ المشتركة الاستعمال بيننا وبينه تعالى كالحيوة والعلم والإرادة والإعطاء كذلك .

واعلم : أن القول في معنى رفع الدرجات من قوله تعالى : ورفع بعضهم درجاته من حيث اشتماله على أمر حقيقي واقعي غير اعتباري كالقول في معنى الكلام بعينه فقد توهم أكثر الباحثين في المعارف الدينية : أن ما اشتملت عليه هذه البيانات أمور اعتبارية ومعاني وهمية نظير ما يوجد بيننا معاشر أهل الاجتماع من الإنسان من مقامات الرئاسة والزعامة والفضيلة والتقدم والتصدر ونحو ذلك ، فلزمهم أن يجعلوها ما يرتبط بها من الحقائق كمقامات الآخرة من جنّة ونار وسؤال وغير ذلك مرتبطة مترتبة نظير ترتب الآثار الخارجية على هذه المقامات الاجتماعية الاعتبارية ، أي إن الرابطة بين المقامات المعنوية المذكورة وبين النتائج المترتبة عليها رابطة الاعتبار والوضع ، ولزمهم - اضطراراً - كون جاعل هذه الروابط وهو الله تعالى وتقدس محكوماً بالأراء الاعتبارية ومبعوثاً عن الشعور الوهمي كالأشخاص الواقع في عالم المادة ، والنازل في منزل الحركة والاستكمال ، ولذلك تراهم يستنكفون عن القول باختصاص المقرّبين من أنبيائه وأوليائه بالكمالات الحقيقية المعنوية التي تثبت لها ظواهر الكتاب والسنة إلا أن تنسلخ عن حقيقتها وترجع إلى نحو من الاعتباريات .

قوله تعالى : وآتيناه عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس اه رجوع إلى أصل السياق وهو التكلم دون الغيبة كما مر .

والوجه في التصريح باسم عيسى مع عدم ذكر غيره من الرسل في الآية : أن ما ذكر له ﷺ من جهات التفضيل وهو إيتاء البينات ، والتأييد بروح القدس مشترك بين الرسل جميعاً ليس مما يختص ببعضهم دون بعض . قال تعالى : « ولقد أرسلنا رسالنا بالبينات » الحديد - ٢٥ وقال تعالى : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء

من عباده أن أنذر ، النمل - ٢ لكنهما في عيسى بنحو خاص فجميع آياته كإحياء الموتى وخلق الطير بالنفخ وإبراء الأكمه والأبرص ، والإخبار عن المغيبات كانت أموراً متسككة على الحيوة مترسجة عن الروح ، فلذلك نسبها إلى عيسى عليه السلام وصرح باسمه إذ لولا التصريح لم يدل على كونه فضيلة خاصة كما لو قيل : و آتيناهم بعضهم البيّنات وأيدناه بروح القدس اه ، إذ البيّنات وروح القدس كما عرفت مشتركة غير مختصة ، فلا يستقيم نسبتها إلى البعض بالاختصاص إلا مع التصريح باسمه ليعلم أنها فيه بنحو خاص غير مشترك تقريباً ، على أن في اسم عيسى عليه السلام خاصة أخرى وآية بيّنة وهي : أنه ابن مريم لا أب له . قال تعالى : « وجعلناها وابنها آية للعالمين » الأنبياء - ٩١ . فمجموع الابن والأم آية بيّنة إلهية وفضيلة اختصاصية أخرى .

**قوله تعالى :** ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البيّنات اه ، العدول إلى الغيبة ثانياً لأن المقام مقام إظهار أن المشيئة والإرادة الربانية غير مغلوبة ، والقدرة غير باطلة ، فجميع الحوادث على طرفي إثباتها ونفيها غير خارجة عن السلطنة الإلهية . وبالعجالة وصف الألوهية هي التي تنافي تقيّد القدرة وتوجب إطلاق تعلّقها بطرفي الإيجاب والسلب فمستحاجة المقام إلى إظهار هذه الصفة المتعالية أعني الألوهية للذكر ف قيل : ولو شاء الله ما اقتتل اه ولم يقل : ولو شئنا ما اقتتل ، وهذا هو الوجه أيضاً في قوله تعالى في ذيل الآية : ولو شاء الله ما اقتتلوا اه ، وقوله : ولكن الله يفعل ما يريد اه ، وهو الوجه أيضاً في العدول عن الإضمار إلى الإظهار .

**قوله تعالى :** ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر اه ، نسب الاختلاف إليهم لا إلى نفسه لأنه تعالى ذكر في مواضع من كلامه : أن الاختلاف بالإيمان والكفر وسائر المعارف الأصلية المبيّنة في كتب الله النزلة على أنبيائه إنما حدث بين الناس بالبغي ، وحاشا أن ينسب إليه سبحانه بغى أو ظلم .

**قوله تعالى :** ولو شاء ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد اه ، أي ولو شاء الله لم يؤثر الاختلاف في استدعاء القتال ولكن الله يفعل ما يريد اه ، وقد أراد أن يؤثر

هذا الاختلاف في سوقه الناس إلى الاقتتال جرياً على سنة الأسباب .  
 وعصّل معنى الآية والله العالم : أن الرسل التي أرسلوا إلى الناس عباد الله  
 مقرّبون عند ربّهم ، مرتفع عن الناس أفقهم وهم مفضلّ بعضهم على بعض على ما لهم  
 من الأصل الواحد والمقام المشترك ، فهذا حال الرسل وقد أتوا للناس بآيات بيّنات  
 أظهروا بها الحقّ كلّ الإظهار وبيّنوا طريق الهداية أتمّ البيان ، و كان لازمه أن  
 لا ينساق الناس بعدهم إلا إلى الوحدة والألفة والمحبة في دين الله من غير اختلاف وقتال  
 لكن كان هناك سبب آخر أقم هذا السبب ، وهو الاختلاف عن بغى منهم وانشعابهم  
 إلى مؤمن وكافر ، ثمّ التفرّق بعد ذلك في سائر شئون الحياة والسعادة ، ولو شاء الله  
 لأقم هذا السبب أعني الاختلاف فلم يوجب الاقتتال وما اقتتلوا ، ولكن لم يشأ  
 وأجرى هذا السبب كسائر الأسباب والعلل على سنة الأسباب التي أرادها الله في عالم  
 الصنع والإيجاد ، والله يفعل ما يريد .

قوله تعالى : يا أيّها الذين آمنوا أنفقوا إلخ ، معناه واضح وفي ذيل الآية  
 دلالة على أن الاستتلاف عن الإنفاق كفر وظلم .

### ﴿ بحث روائى ﴾

في الكافي عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى : تلك الرسل فضلنا إلخ ، في هذا ما  
 يستدلّ به على أن أصحاب محمد قد اختلفوا من بعده فمنهم من آمن ومنهم من كفر .

و في تفسير العيّاشي عن إصبع بن نباته ، قال : كنت واقفاً مع أمير المؤمنين  
 عليّ بن أبي طالب عليه السلام يوم الجمل فجاء رجل حتّى وقف بين يديه فقال : يا أمير المؤمنين  
 كبر القوم وكبرنا ، وهلّ القوم وهلّلنا ، وصلى القوم وصلينا ، فعلى ما نقاتلهم ؟  
 فقال عليه السلام : على هذه الآية تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع  
 بعضهم درجات وآتيناه عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ولو شاء الله ما اقتتل  
 الذين من بعدهم - فنحن الذين من بعدهم - ولكن اختلفوا فمنهم من آمن  
 ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد ف نحن الذين

آمَنَّا وَهُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَقَالَ الرَّجُلُ : كَفَرَالْقَوْمُ وَ رَبُّ الْكَعْبَةِ ثُمَّ سَمِعَ فُقَاتِلَ حَتَّى قُتِلَ - رَحِمَهُ اللَّهُ - .

**أقول :** وروى هذه القصة المفيد و الشيخ في أماليهما و القمي في تفسيره ، و الرواية تدل على أنه عليه السلام أخذ الكفر في الآية بالمعنى الأعم من الكفر الخاص المصطلح الذي له أحكام خاصة في الدين ، فإن النقل المستفيض وكذا التاريخ يشهدان أنه عليه السلام ما كان يعامل مع مخالفيه من أصحاب الجمل وأصحاب صفين والخوارج معاملة الكفار من غير أهل الكتاب ولا معاملة أهل الكتاب ولا معاملة أهل الردة من الدين ، فليس إلا أنه عدّهم كافرين على الباطن دون الظاهر ، وقد كان عليه السلام يقول : أقاتلهم على التأويل دون التنزيل .

و ظاهر الآية يساعد هذا المعنى ، فإنه يدل على أن البيّنات التي جاءت بها الرسل لم تنفع في رفع الاقتتال من الذين من بعدهم لما كان الاختلاف المستند إليهم أنفسهم فوقوع الاختلاف مما لا تنفع فيه البيّنات من الرسل بل هو مما يؤدي إليه الاجتماع الإنساني الذي لا يخلو عن البغى والظلم ، فالآية في مساق قوله تعالى : « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلّفوا ولو لا كلمة سبقت من ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم فيما فيه يختلفون » يونس - ١٩ و قوله تعالى : « كان الناس أمة واحدة - إلى أن قال - : وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه بغياً بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه » البقرة - ٢١٣ و قوله تعالى : « ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك » هود - ١١٩ . كل ذلك يدل على أن الاختلاف في الكتاب - وهو الاختلاف في الدين - بين أتباع الأنبياء بعدهم مما لا مناص عنه . وقد قال تعالى في خصوص هذه الأمة : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم » البقرة - ٢٢٤ وقال تعالى حكاية عن رسوله ليوم القيمة : « وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً » الفرقان - ٣٠ ، وفي مطاوى الآيات تصريحات وتلويحات بذلك .

وأما أن ذيل هذا الاختلاف منسحب إلى زمان الصحابة بعد الرحلة فالمعتمد

من التاريخ والمستفيض أو المتواتر من الأخبار يدل على أن الصحابة أنفسهم كان يعامل بعضهم مع بعض في الفتن والاختلافات الواقعة بعد رسول الله ﷺ هذه المعاملة ، من غير أن يستثنوا أنفسهم من ذلك استناداً إلى عصمة أو بشارة أو اجتهاد أو استثناء من الله ورسوله ، والزائد على هذا المقدار من البحث لا يناسب وضع هذا الكتاب .

وفي أمالي المفيد عن أبي بصير قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : لم يزل الله جل اسمه عالماً بذاته ولا معلوم ، ولم يزل قادراً بذاته ولا مقدور . قلت : - جعلت فداك - فلم يزل متكلماً ؟ قال : الكلام محدث ، كان الله عز وجل وليس بمتكلم ثم أحدث الكلام .

وفي الاحتجاج عن صفوان بن يحيى ، قال : سأل أبو قرّة المحدث عن الرضا عليه السلام فقال : أخبرني - جعلت فداك - عن كلام الله لموسى فقال : الله أعلم بأى لسان كلمه بالسريانية أم بالعبرانية فأخذ أبو قرّة بلسانه فقال : إنما أسئلك عن هذا اللسان فقال أبو الحسن عليه السلام : سبحان الله عما تقول و معاذ الله أن يشبه خلقه أو يتكلم بمثل ما هم متكلمون ولكنه سبحانه ليس كمثله شيء ، ولا كمثله قائل فاعل . قال : كيف ؟ قال : كلام الخالق لمخلوق ليس ككلام المخلوق لمخلوق ، ولا يلفظ بشق فم ولسان ، ولكن يقول له كن فكان ، بمشيئته ما خاطب به موسى من الأمر والنهي من غير تردد في نفس - الخ - . وفي نهج البلاغة في خطبة له عليه السلام : متكلم لا بروية ، مريد لا بهمة ، الخطبة . وفي النهج أيضاً في خطبة له عليه السلام : الذي كلم موسى تكليماً ، وأراه من آياته عظيماً ، بلاجوارح ولا أدوات ولا نطق ولا لهوات ، الخطبة .

أقول : والأخبار المروية عن أئمة أهل البيت في هذا المعنى كثيرة ، وهي مطبقة على أن كلامه تعالى الذي يسميه الكتاب والسنة كلاماً صفة فعل لا صفة ذات .

### ﴿ بحث فلسفي ﴾

ذكر الحكماء : أن ما يسمي عند الناس قولاً وكلاماً وهو نقل الإنسان المتكلم ما في ذهنه من المعنى بواسطة أصوات مؤلفة موضوعة لمعنى فإذا قرع سمع المخاطب أو السامع

نقل المعنى الموضوع له الذي في ذهن المتكلم إلى ذهن المخاطب أو السامع ، فحصل بذلك الغرض منه وهو التفهيم والتفهيم ، قالوا : وحقيقة الكلام مقنونة بما يدل على معنى خفي مضمّر ، وأما بقيقة الخصوصيات ككونه بالصوت الحادث في صدر الإنسان ومروره من طريق الحنجرة واعتماده على مقاطع الفم وكونه بحيث يقبل أن يقع مسموعاً لا أزيد عدداً أو أقلّ ممّا رُغبت عليه أسماعنا فهذه خصوصيات تابعة للمصاديق وليست بدخيلة في حقيقة المعنى الذي يتقوّم بها الكلام .

فالكلام اللفظي الموضوع الدالّ على ما في الضمير كلام ، وكذا الإشارة الوافية لا رتبة المعنى كلام كما أنّ إشارتك بيدك : أن أقعد أو تعال ونحو ذلك أمر وقول ، وكذا الوجودات الخارجية ممّا كانت معلولة لعلها ، ووجود المعلول لمسانخته وجود علته وكونه رابطاً متنزّلاً له يعكس بوجوده وجود علته ، ويدلّ بذاته على خصوصيات ذات علته الكامنة في نفسها لولا دلالة المعلول عليها . فكلّ معاول بخصوصيات وجوده كلام لعلته تتكلم به عن نفسها وكمالها ، ومجموع تلك الخصوصيات بطور اللفّ كلمة من كلمات علته ، فكلّ واحد من الموجودات بما أنّ وجوده مثال لكمال علته الفيضة ، وكلّ مجموع منها ، ومجموع العالم الإمكانى كلام الله سبحانه يتكلم به فيظهر الممكنون من كمال أسمائه وصفاته ، فكما أنّه تعالى خالق للعالم والعالم مخلوقه كذلك هو تعالى متكلم بالعالم مظهره خبايا الأسماء والصفات والعالم كلامه .

بل الدقّة في معنى الدلالة على المعنى يوجب القول بكون الذات بنفسه دالّاً على نفسه فإنّ الدلالة بالأخرة شأن وجودي ليس ولا يكون لشيء بنحو الأصالّة إلّا لله وبالله سبحانه ، فكلّ شيء دلّته على بارئه وموجده فرع دلالة ما منه على نفسه ودلالته لله بالحقيقة ، فالله سبحانه هو الدالّ على نفس هذا الشيء الدالّ ، وعلى دلّته لغيره . فهو سبحانه هو الدالّ على ذاته بذاته وهو الدالّ على جميع مصنوعاته فيصدق على مرتبة الذات الكلام كما يصدق على مرتبة الفعل الكلام بالتقريب المتقدّم ، فقد تحصّل بهذا البيان أنّ من الكلام ما هو صفة الذات وهو الذات من حيث دلّته على الذات ، ومنه ما هو صفة الفعل ، وهو الخلق والإيجاد من حيث دلالة الموجود على ما

عند موجدته من الكمال .

**أقول :** ما نقلنا عنهم على تقدير صحته لا يساعد عليه اللفظ اللغوي ، فإنّ الذي أثبتته الكتاب والسنة هو أمثال قوله تعالى : منهم من كَلَّمَ الله وقوله : وكَلَّمَ الله موسى تكليماً وقوله : قال الله يا عيسى وقوله : وقلنا يا آدم وقوله : إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، وقوله : نبأني العليم الخبير . ومن المعلوم أنّ الكلام والقول بمعنى عين الذات لا ينطبق على شيء من هذه الموارد .

واعلم أنّ بحث الكلام من أقدم الأبحاث العلميّة التي اشتغلت به الباحثون من المسلمين ( وبذلك سمّي علم الكلام به ) وهي أنّ كلام الله سبحانه هل هو قديم أو حادث ؟

ذهبت الأشاعرة إلى القدم غير أنّهم فسّروا الكلام بأنّ المراد بالكلام هو المعاني الذهنيّة التي يدلّ عليه الكلام اللفظي ، وتلك المعاني علوم الله سبحانه قائمة بذاته قديمة بقدمها ، وأمّا الكلام اللفظي وهو الأصوات والنغمات فهي حادثّة زائدة على الذات بالضرورة .

و ذهبت المعتزلة إلى الحدوث غير أنّهم فسّروا الكلام بالألفاظ الدالّة على المعنى التام دلالة وضعيّة فهذا هو الكلام عند العرف . قالوا : وأمّا المعاني النفسيّة التي تسمّيها الأشاعرة كلاماً نفسياً فهي صور علميّة وليست بالكلام .

وبعبارة أخرى : إنّنا لا نجد في نفوسنا عند التكلم بكلام غير المفاهيم الذهنيّة التي هي صور علميّة فإنّ أريد بالكلام النفسيّ ذلك كان علماً لا كلاماً ، وإنّ أريد به أمر آخر وراء الصورة العلميّة فإنّنا لا نجد وراءها شيئاً بالوجدان ، هذا .

وربما أمكن أن يورد عليه بجواز أن يكون شيء واحد بجهتين أو باعتبارين مصداقاً لصفتين أو أزيد وهو ظاهر . فلم لا يجوز أن تكون الصورة الذهنيّة علماً من جهة كونه انكشافاً للواقع ، وكلاماً من جهة كونه علماً يمكن إفاضته للغير ؟

**أقول :** والذي يحسم مادة هذا النزاع من أصله أنّ وصف العلم في الله سبحانه بأيّ معنى أخذناه أي سواء أخذ علماً تفصيلياً بالذات وإجمالياً بالغير ، أو أخذ علماً

تفصيلياً بالذات وبالغير في مقام الذات. وهذان المعنيان من العلم الذي هو عين الذات ، أو أخذ علماً تفصيلياً قبل الإيجاد بعد الذات أو أخذ علماً تفصيلياً بعد الإيجاد و بعد الذات جميعاً ، فالعلم الواجب على جميع تصاويره علم حضوري غير حصولي . والذي ذكره وتنازعوا عليه إنما هو من قبيل العلم الحصولي الذي يرجع إلى وجود مفاهيم ذهنية مأخوذة من الخارج بحيث لا يترتب عليها آثارها الخارجية فقد أقمنا البرهان في محله : أن المفاهيم والمهيات لا تتحقق إلا في ذهن الإنسان أو ما قاربه جنساً من أنواع الحيوان التي تعمل الأعمال الحيوية بالحواس الظاهرة والاحساسات الباطنة .

وبالجملة فالله سبحانه أجل من أن يكون له ذهن يذهن به المفاهيم والمهيات الاعتبارية مما لا ملاك لتحقيقه إلا الوهم فقط نظير مفهوم العدم و المفاهيم الاعتبارية في ظرف الاجتماع ، ولو كان كذلك لكان ذاته المقدسة محلاً للتركيب ، ومعرضاً لحدوث الحوادث ، وكلامه محتملاً للمصدق والكذب إلى غير ذلك من وجوه الفساد تعالى عنها وتقدس .

وأما معنى علمه بهذه المفاهيم الواقعة تحت الألفاظ فسيجيء إنشاء الله بيانه في موضع يليق به .





إِلَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥) .

### ﴿بيان﴾

قوله تعالى : الله لا إله إلا هو الحي القيوم اه ، قد تقدّم في سورة الحمد بعض الكلام في لفظ الجلالة ، وأنه سواء أخذ من أله الرجل بمعنى تاه ووله أو من أله بمعنى عبد فلازم مناه الذات المستجمع لجميع صفات الكمال على سبيل التلميح .

وقد تقدّم بعض الكلام في قوله تعالى : لا إله إلا هو اه في قوله تعالى : « وإلهكم إله واحد » البقرة - ١٦٣ ، وضمير هو وإن رجع إلى اسم الجلالة لكن اسم الجلالة لما كان علماً بالغلبة يدلّ على نفس الذات من حيث إنّه ذات وإن كان مشتملاً على بعض المعاني الوصفية التي يلمح باللام أو بالإطلاق إليها ، فقوله : لا إله إلا هو يدلّ على نفى حقّ الثبوت عن الآلهة التي تثبت من دون الله .

وأما اسم الحيّ فمعناه ذو الحيوة الثابتة على وزان سائر الصفات المشبهة في دلالتها على الدوام والثبات .

والناس في إبادي مطالعتهم لحال الموجودات وجدوها على قسمين : قسم منها لا يختلف حاله عند الحسّ مادام وجوده ثابتاً كالأحجار وسائر الجمادات . وقسم منها يتغيّر حاله وتعطلت قواه وأفعاله مع بقاء وجودها على ما كان عليه عند الحسّ ، وذلك كالإنسان وسائر أقسام الحيوان والنبات فإنّها بما نجدتها تعطلت قواها ومشاعرها وأفعالها ثمّ يطرأ عليها الفساد تدريجاً ، وبذلك أذعن الإنسان بأنّ هناك وراء الحواسّ أمراً آخر

هو المبدء للإحساسات والإدراكات العلمية والأفعال المبتنية على العلم والإرادة وهو المسمى بالحيوة ويسمى بطلانه بالموت . فالحيوة نحو وجنود يترشح عنه العلم والقدرة . وقد ذكر الله سبحانه هذه الحيوة في كلامه ذكر تقرير لها . قال تعالى : « اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها » الحديد - ١٧ و قال تعالى : « إنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى » فصلت - ٣٩ و قال تعالى : « وما يستوي الأحياء ولا الأموات » الفاطر - ٢٢ و قال تعالى : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » الأنبياء - ٣٠ . فهذه تشمل حيوة أقسام الحي من الإنسان و الحيوان والنبات .

وكذلك القول في أقسام الحيوة . قال تعالى : « ورضوا بالحيوة الدنيا واطمأننوا بها » يونس - ٧ و قال تعالى : « ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين » المؤمن - ١١ . و الإحياء المان المذكوران يشتملان على حيوتين : إحداهما : الحيوة البرزخية ، والثانية : الحيوة الآخرة ، فللحيوة أقسام كما للحي أقسام .

والله سبحانه مع ما يقرر هذه الحيوة الدنيا يعدّها في مواضع كثيرة من كلامه شيئاً رديئاً هيئناً لا يعبأ بشأنه كقوله تعالى : « وما الحيوة الدنيا في الآخرة إلا متاع » الرعد - ٢٨ وقوله تعالى : « تبتغون عرض الحيوة الدنيا » النساء - ٩٣ وقوله تعالى : « تريد زينة الحيوة الدنيا » الكهف - ٢٨ وقوله تعالى : « وما الحيوة الدنيا إلا لعب ولهو » الأنعام - ٣٢ وقوله تعالى : « وما الحيوة الدنيا إلا متاع الغرور » الحديد - ٢٠ . فوصف الحيوة الدنيا بهذه الأوصاف فعدّها متاعاً والمتاع ما يقصد لغيره ، وعدّها عرضاً والعرض ما يعترض ثم يزول ، وعدّها زينة والزينة هو الجمال الذي يضمّ على الشيء ليقصد الشيء لأجله فيقع غير ما قصد ويقصد غير ما وقع ، وعدّها لهواً واللهو ما يلهيك ويشغلك بنفسه عما يهّمك ، وعدّها لعباً واللعب هو الفعل الذي يصدر لغاية خيالية لاحقيقية ، وعدّها متاع الغرور وهو ما يغرّبه الإنسان .

ويفسر جميع هذه الآيات ويوضحها قوله تعالى : « وما الحيوة الدنيا إلا لهو ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون » العنكبوت - ٣٤ ، يبيّن أن

الحياة الدنيا إنما تسلب عنها حقيقة الحياة أى كمالها في مقابل ما ثبت للحياة الآخرة حقيقة الحياة و كمالها ، وهي الحياة التي لا موت بعدها . قال تعالى : « آمين لا يدعون فيها الموت إلا الموتة الأولى » الدخان - ٥٦ . وقال تعالى : « لهم فيها ما يشاؤون ولدينا مزيد » ق - ٣٥ . فلم في حياتهم الآخرة أن لا يعترهم الموت ، ولا يعترضهم نقص في العيش وتنقص ، لكن الأول من الوصفين أعني الأمن هو الخاصّة الحقيقية للحياة الضرورية له .

فالحياة الأخرى هي الحياة بحسب الحقيقة لعدم إمكان طرؤ الموت عليها بخلاف الحياة الدنيا ، لكن الله سبحانه مع ذلك أفاد في آيات أخر كثيرة أنه تعالى هو المفيض للحياة الحقيقية الأخرى والمحيي للإنسان في الآخرة ، وبيده تعالى أزمة الأمور . فأفاد ذلك أن الحياة الأخرى أيضاً مملوكة لا مالكة ومسخرة لا مطلقة أعني أنها إنما ملكت خاصتها المذكورة بالله لانفسها .

ومن هنا يظهر أن الحياة الحقيقية يجب أن تكون بحيث يستحيل طرؤ الموت عليها لذاتها ولا يتصور ذلك إلا بكون الحياة عين ذات الحي غير عارضة لها ولا طارئة عليها بتمليك الغير وإفاضته . قال تعالى : « وتوكل على الحي الذي لا يموت » الفرقان - ٥٨ . وعلينا فالحياة الحقيقية هي الحياة الواجبة ، وهي كون وجوده بحيث يعلم و يقدر بالذات .

ومن هنا يعلم : أن القصر في قوله تعالى : « هو الحي لا إله إلا هو » قصر حقيقي غير إضافي ، وأن حقيقة الحياة التي لا يشوبها موت ولا يعترها فناء وزوال هي حياته تعالى . فالأوفق فيما نحن فيه من قوله تعالى : الله لا إله إلا هو الحي القيوم الآية ، وهو كذا في قوله تعالى : « آم الله لا إله إلا هو الحي القيوم » آل عمران - ١ أن يكون لفظ الحي خبراً بعد خبر فيفيد الحصر لأن التقدير ، الله الحي فالآية تفيد أن الحياة لله محضاً إلا ما أفاضه لغيره

وأما اسم القيوم فهو على ما قيل : فيعمل كالقيام فيعال من القيام وصف يدل على المبالغة ، والقيام هو حفظ الشيء وفعله وتديره وترتيبه والمراقبة عليه والقدرة عليه . كل

ذلك مأخوذ من القيام بمعنى الانتصاب للملازمة العادية بين الانتصاب وبين كلٍّ منها .

وقد أثبت الله تعالى أصل القيام بأمر خلقه لنفسه في كلامه حيث قال تعالى : « أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت » الرعد - ٣٥ وقال تعالى - وهو أشمل من الآية السابقة - : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » آل عمران - ١٨ . فأفاد أنه قائم على الموجودات بالعدل فلا يعطي ولا يمنع شيئاً في الوجود ( وليس الوجود إلا الإعطاء والمنع ) إلا بالعدل بإعطاء كل شيء ما يستحقه ثم يبين أن هذا القيام بالعدل مقتضى اسميه الكريمين : العزيز الحكيم فبعضته يقوم على كل شيء ، وبحكمته يعدل فيه .

وبالجملة لمّا كان تعالى هو المبدء الذي يبتدى منه وجود كل شيء وأوصافه وآثاره لا مبدء سواه إلا وهو ينتهي إليه ، فهو القائم على كل شيء من كل جهة بحقيقة القيام الذي لا يشوبه فتور وخلل ، وليس ذلك لغيره قط إلا بإذنه بوجه ، فليس له تعالى إلا القيام من غير ضعف وفتور ، وليس لغيره إلا أن يقوم به ، فهناك حصران : حصر القيام عليه ، وحصره على القيام . وأول الحصرين هو الذي يدل عليه كون القيوم في الآية خبراً بعد خبر الله ( الله القيوم ) . والحصر الثاني هو الذي تدل عليه الجملة التالية أعني قوله : لا تأخذه سنة ولا نوم اه .

وقد ظهر من هذا البيان أن اسم القيوم أمّ الأسماء الإضافية الثابتة له تعالى جميعاً وهي الأسماء التي تدل على معان خارجة عن الذات بوجه كالخالق والرازق والمبدء والمعيد والمحيي والمميت والغفور والرحيم والودود وغيرها .

**قوله تعالى :** لا تأخذه سنة ولا نوم اه ، السنة بكسر السين الفتور الذي يأخذ الحيوان في أول النوم ، والنوم هو الركون الذي يأخذ حواس الحيوان لعوامل طبيعية تحدث في بدنه ، والرؤيا غيره وهي ما يشاهده النائم في منامه .

وقد أورد على قوله : سنة ولا نوم أنه على خلاف الترتيب الذي تقتضيه البلاغة فإنّ المقام مقام الترقّي ، والترقي في الإثبات إنما هو من الأضعف إلى الأقوى كقولنا : فلان يقدر على حمل عشرة أمان بل عشرين ، وفلان يوجد بالمئات بل بالآلاف وفي النسي

بالعكس كما نقول : لا يقدر فلان على حمل عشرين ولا عشرة ، ولا يجود بالألوف ولا بالملئات ، فكان ينبغي أن يقال : لا تأخذه نوم ولا سنة .

والجواب : أن الترتيب المذكور لا يدور مدار الإثبات والنفي دائماً كما يقال : فلان يجهد حمل عشرين بل عشرة ولا يصحّ العكس ، بل المراد هو صحّة الترقّي وهي مختلفة بحسب الموارد ، ولمّا كان أخذ النوم أقوى تأثيراً وأضرّ على القيومية من السنة كان مقتضى ذلك أن ينفي تأثير السنة وأخذها أولاً ثم يترقّي إلى نفي تأثير ما هو أقوى منه تأثيراً ، ويعود معنى لا تأخذه سنة ولا نوم إلى مثل قولنا : لا يؤثر فيه هذا العامل الضعيف بالفتور في أمره ولا ما هو أقوى منه .

**قوله تعالى :** له ما في السموات وما في الأرض من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه اه ، لمّا كانت القيومية التامة التي له تعالى لا تتم إلا بأن يملك السموات والأرض وما فيهما بحقيقة الملك ذكره بعدهما ، كما أن التوحيد التام في الألوهية لا يتم إلا بالقيومية ، ولذلك ألحقها بها أيضاً ،

وهاتان جملتان كل واحد منهما مقيّدة أو كالمقيّد بقيد في معنى دفع الدخل ، أعنى قوله تعالى : له ما في السموات وما في الأرض اه مع قوله تعالى : من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه اه وقوله تعالى : يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم اه مع قوله تعالى : ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء اه .

فأمّا قوله تعالى : له ما في السموات وما في الأرض اه فقد عرفت معنى ملكه تعالى ( بالكسر ) للموجودات وملكه تعالى ( بالضم ) لها ، والملك بكسر الميم وهو قيام ذوات الموجودات وما يتبعها من الأوصاف والآثار بالله سبحانه هو الذي يدل عليه قوله تعالى : له ما في السموات وما في الأرض اه ، فالجملة تدلّ على ملك الذات وما يتبع الذات من نظام الآثار .

وقد تمّ بقوله : القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض اه أن السلطان المطلق في الوجود لله سبحانه لا تصرف إلا وهو له ومنه ، فيقع من ذلك في الوهم أنّه إذا كان الأمر على ذلك فهذه الأسباب والعلل الموجودة في العالم

ما شأنها ؛ وكيف يتصور فيها ومنها التأثير ولا تأثير إلا لله سبحانه ؛  
فأجيب بأن تصرف هذه العلل والأسباب في هذه الموجودات المعلولة توسط  
في التصرف ، وعبارة أخرى شفاعا في موارد المسببات بإذن الله سبحانه ، فإنما  
هي شفعا ، والشفاعة - وهي بنحو توسط في إيصال الخير أو دفع الشر ، وتصرف ما  
من الشفيع في أمر المستشفع - إنما تنافي السلطان الإلهي والتصرف الربوبي المطلق  
إذا لم ينته إلى إذن الله ، ولم يعتمد على مشيئة الله تعالى بل كانت مستقلة غير مرتبطة  
وما من سبب من الأسباب ولا علة من العلل إلا وتأثيره بالله ونحو تصرفه بإذن الله .  
فتأثيره وتصرفه نحو من تأثيره وتصرفه تعالى فلا سلطان في الوجود إلا سلطانه ولا  
قيومية إلا قيوميته المطلقة عز سلطانه .

وعلى ما بيناه فالشفاعة هي التوسط المطلق في عالم الأسباب والوسائط أعم  
من الشفاعا التكوينية وهي توسط الأسباب في التكوين ، والشفاعة التشريعية  
أعني التوسط في مرحلة المجازاة التي تثبتها الكتاب والسنة في يوم القيامة على ما تقدم  
البحث عنها في قوله تعالى : « واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا » البقرة - ٤٨ .  
وذلك أن الجملة أعني قوله تعالى : من ذا الذي يشفع عنده اه مسبوقه بحديث القيومية  
والملك المطلق الشاملين للتكوين والتشريع معاً ، بل المتماسين بالتكوين ظاهراً فلا  
موجب لتمييزهما بالقيومية والسلطنة التشريعتين حتى يستقيم تذييل الكلام بالشفاعة  
المخصوصة بيوم القيمة .

فمساق هذه الآية في عموم الشفاعا مساق قوله تعالى : « إن ربكم الله الذي  
خلق السموات والأرض ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد  
إذنه » يونس - ٣ وقوله تعالى : « الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام  
ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع » آل السجدة - ٤ . وقد  
عرفت في البحث عن الشفاعا أن حدّها كما ينطبق على الشفاعا التشريعية كذلك  
ينطبق على السببية التكوينية ، فكل سبب من الأسباب يشفع عند الله لمسببه  
بالتمسك بصفات فضله وجوده ورحمته لإيصال نعمة الوجود إلى مسببه ، فنظام

السببية بعينه ينطبق على نظام الشفاعة كما ينطبق على نظام الدعاء والمسئلة. قال تعالى :  
 « يسئله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن » الرحمن - ٥٥ و قال تعالى :  
 « وآتيكم من كل ما سئلتموه » إبراهيم - ٣٤ . وقد مرّ بيانه في تفسير قوله تعالى :  
 « وإذا سئلك عبادي عني » البقرة - ١٨ .

**فوله تعالى :** يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء اه ، سياق الجملة مع مسبوقيتها بأمر الشفاعة يقرب من سياق قوله تعالى : بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون « الأنبياء - ٢٨ . فالظاهر أن ضمير الجمع الغائب راجع إلى الشفعاء الذي تدلّ عليه الجملة السابقة معنى فعله تعالى بما بين أيديهم وما خلفهم كناية عن كمال إحاطته بهم ، فلا يقدرّون بواسطة هذه الشفاعة والتوسط المأذون فيه على إنفاذ أمر لا يريد الله سبحانه ولا يرضى به في ملكه ، ولا يقدرّ غيرهم أيضاً أن يستفيد سوماً من شفاعتهم ووساطتهم فيدخل في ملكه تعالى فيفعل فيه ما لم يقدرّ به .

وإلى نظير هذا المعنى يدلّ قوله تعالى : « وما ننزّل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً » مريم - ٦٤ وقوله تعالى : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عدداً » الجن - ٢٨ . فإن الآيات تبيّن إحاطته تعالى بالملائكة والأنبياء لئلا يقع منهم ما لم يرده ، ولا يتنزّلوا إلا بأمره ، ولا يبلغوا إلا ما يشاءه . وعلى ما بينناه فالمراد بما بين أيديهم : ما هو حاضر مشهود معهم ، وبما خلفهم : ما هو غائب عنهم بعيد منهم كالمستقبل من حالهم ، ويؤل المعنى إلى الشهادة والغيب .

وبالجملة قوله : يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم اه كناية عن إحاطته تعالى بما هو حاضر معهم موجود عندهم وبما هو غائب عنهم آت خلفهم ، ولذلك عقبه بقوله تعالى : ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء اه تبيناً لتمام الإحاطة الربوبية والسلطة

الإلهية أى إنه تعالى عالم محيط بهم وبعلمهم وهم لا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء .

ولا ينافي إرجاع الجمع المذكر العاقل وهو قوله «هم» في المواضع الثلاث إلى الشفعاء ما قد مناه من أن الشفاعة أعم من السببية التكوينية والتشريعية ، وأن الشفعاء هم مطلق العلل والأسباب . وذلك لأن الشفاعة والوساطة والتسبيح والتحميد لما كان المعهود من حالها أنها من أعمال أرباب الشعور والعقل شاع التعبير عنها بما يخص أولي العقل من العبارة . وعلى ذلك جرى ديدن القرآن في بياناته كقوله تعالى : « وإن من شئ إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم » الأسماء ٤٤ . وقوله تعالى : « ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين » فصلت - ١١ ، إلى غير ذلك من الآيات .

وبالجملة قوله : ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء يفيد معنى تمام التدبير وكماله ، فإن من كمال التدبير أن يجعل المدبّر ( بالفتح ) بما يريد المدبّر ( بالكسر ) من شأنه ومستقبل أمره لئلا يحتال في التخلص مما يكرهه من أمر التدبير فيفسد على المدبّر ( بالكسر ) تدييره ، كجماعة مسيرين على خلاف مشتهاهم ومرادهم فيبالغ في التعمية عليهم حتى لا يدروا من أين سيروا ، وفي أين نزلوا ، وإلى أين يقصد بهم . فيبين تعالى بهذه الجملة أن التدبير له وبعلمه بروابط الأشياء التي هو الجاعل لها ، وبقيّة الأسباب والعلل وخاصة أولوا العلم منها وإن كان لها تصرف وعلم لكن ما عندهم من العلم الذي ينتفعون به ويستفيدون منه فإنما هو من علمه تعالى وبمشيئته وإرادته ، فهو من شئون العلم الإلهي ، وما تصرفوا به فهو من شئون التصرف الإلهي وأنحاء تدييره ، فلا يسع لمقدم منهم أن يقدم على خلاف ما يريد الله سبحانه من التدبير الجاري في مملكته إلا وهو بعض التدبير .

وفي قوله تعالى : ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء اه على تقدير أن يراد بالعلم المعنى المصدري أو معنى اسم المصدر لا المعلوم دلالة على أن العلم كله لله ولا يوجد من العلم عند عالم إلا وهو شئ من علمه تعالى ، ونظيره ما يظهر من كلامه تعالى من

اختصاص القدرة والعزة والحيوة بالله تعالى. قال تعالى: «ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً» البقرة - ١٣٥ وقال تعالى: «أبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً» النساء - ١٣٨ وقال تعالى «هو الحي لا إله إلا هو» المؤمن - ٦٥. ويمكن أن يستدل على ما ذكرناه من انحصار العلم بالله تعالى بقوله: «إنه هو العليم الحكيم» يوسف - ٨٣ وقوله تعالى: «والله يعلم وأنتم لا تعلمون» آل عمران - ٦٦، إلى غير ذلك من الآيات. وفي تبديل العلم بالإحاطة في قوله: ولا يحيطون بشيء من علمه اه لطف ظاهر.

**قوله تعالى:** وسع كرسيه السموات والأرض اه، الكرسي معروف وسمي به لتراكم بعض أجزائه بالصناعة على بعض، وربما كُنتي بالكرسي عن الملك فيقال: كرسي الملك، ويراد منطقة نفوذه ومتسع قدرته.

وكيف كان فالجمل السابقة على هذه الجملة أعني قوله: له ما في السموات وما في الأرض إلخ تفيد أن المراد بسعة الكرسي إحاطة مقام السلطنة الإلهية، فيتعيّن للكرسي من المعنى: أنه المقام الربوبي الذي يقوم به ما في السموات والأرض من حيث إنها مملوكة مدبرة معلومة، فهو من مراتب العلم؛ ويتعيّن للسعة من المعنى: أنها حفظ كل شيء مما في السموات والأرض بذاته وآثاره، ولذلك ذيل بقوله: ولا يؤده حفظهما اه.

**قوله تعالى:** ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم اه، يقال: آده يؤده أوداً إذا نقل عليه وأجهده وأتعبه، والظاهر أن مرجع الضمير في يؤده اه هو الكرسي وإن جاز رجوعه إليه تعالى، ونفى الأود والتعب عن حفظ السموات والأرض في ذيل الكلام ليناسب ما افتتح به من نفى السنة والنوم في القيومية على ما في السموات والأرض. وعصّل ما تفيد الآيات من المعنى: أن الله لا إله إلا هو له كل الحيوة وله القيومية المطلقة من غير ضعف ولا فتور، ولذلك وقع التعليل بالاسمين الكريمين: العلي العظيم فإنه تعالى لعلوه لا تناله أيدي المخلوقات فيوجبوا بذلك ضعفاً في وجوده وفتوراً في أمره، ولعظمته لا يجهده كثرة الخلق ولا يطيقه عظمة السموات

والأرض. وجملة: وهو العليّ العظيم اه لا تخلو عن الدلالة على الحصر، وهذا الحصر إمّا حقيقيّ كما هو الحقّ، فإنّ العلوّ والعظمة من الكمال وحقيقة كلّ كمال له تعالى. وإمّا دعوى تأسيس الحاجة إليه في مقام التعليل ليختصّ العلوّ والعظمة به تعالى دعوى، فيسقط السموات والأرض عن العلوّ والعظمة في قبال علوّه وعظمته تعالى.

## (بحث روائي)

في تفسير العياشيّ عن الصادق عليه السلام قال: قال أبوذر: يا رسول الله ما أفضل ما نزل عليك؟ قال: آية الكرسيّ، ما السموات السبع والأرضون السبع في الكرسيّ إلاّ كحلقة ملقاة بأرض فلاة ثمّ قال: وإنّ فضل العرش على الكرسيّ كفضل الفلاة على الحلقة.

أقول: وروى صدر الرواية السيوطيّ في الدر المنثور عن ابن راهويه في مسنده عن عوف بن مالك عن أبي ذرّ، ورواه أيضاً عن أحمد و ابن الضريس والحاكم وصحّحه والبيهقيّ في شعب الإيمان عن أبي ذرّ.

وفي الدر المنثور أخرج أحمد والطبرانيّ عن أبي أمامة، قال: قلت: يا رسول الله أيّما نزل عليك أعظم؟ قال: الله لا إله إلاّ هو الحيّ القيوم، آية الكرسيّ.

أقول: وروى فيه هذا المعنى أيضاً عن الخطيب البغداديّ في تاريخه عن أنس عنه رضي الله عنه.

وفيه أيضاً عن الدارميّ عن أيّفع بن عبد الله الكلاغيّ، قال: قال رجل: يا رسول الله أيّ آية في كتاب الله أعظم؟ قال: آية الكرسيّ: الله لا إله إلاّ هو الحيّ القيوم، الحديث.

أقول: تسمية هذه الآية بآية الكرسيّ ممّا قد اشتهرت في صدر الإسلام حتّى في زمان حياة النبيّ صلى الله عليه وآله حتّى في لسانه كما تفيد الروايات المنقولة عنه رضي الله عنه وعن أئمّة أهل البيت عليهم السلام وعن الصحابة، وليس إلاّ للاعتناء التامّ بها وتعظيم أمرها، وليس إلاّ لشرافة ما تدلّ عليه من المعنى ورقته ولطفه، وهو التوحيد الخالص

المدلول عليه بقوله : **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ** ، ومعنى القِيُومِيَّة المطلقَة التي يرجع إليه جميع الأسماء الحسنی ماعدا أسماء الذات على ما مرَّ بيانه ، وتفصيل جريان القِيُومِيَّة في ما دقَّ وجلَّ من الموجودات من صدرها إلى ذيلها ببيان أنَّ ما خرج منها من السلطنة الإلهية فهو من حيث إنَّه خارج منها داخل فيها ، ولذلك ورد فيها أنَّها أعظم آية في كتاب الله ، وهو كذلك من حيث اشتمالها على تفصيل البيان ، فإنَّ مثل قوله تعالى : **« اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى »** طه - ٨ وإن اشتملت على ما تشتمل عليه آية الكرسي غير أنَّها مشتملة على إجمال المعنى دون تفصيله ، ولذا ورد في بعض الأخبار أنَّ آية الكرسي سيِّدة آي القرآن رواها في الدر المنثور عن أبي هريرة عن النبي ﷺ ، وورد في بعضها أنَّ لكل شيء ذروة وذروة القرآن آية الكرسي ، رواها العياشي في تفسيره عن عبد الله بن سنان عن الصادق عليه السلام .

وفي أمالي الشيخ بإسناده عن أبي أمامة الباهلي : أنَّه سمع عليَّ بن أبي طالب عليه السلام يقول : ما أرى رجلاً أدرك عقله إلا سلام أو ولد في الإسلام يبيت ليلة سوادها . قلت : وما سوادها ؟ قال : جميعها حتَّى يقرأ هذه الآية : **اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ** فقرأ الآية إلى قوله : ولا يؤده حفظهما وهو العلي العظيم . قال : فلو تعلمون ما هي أو قال : ما فيها ما تركتموها على حال ، إن رسول الله ﷺ قال : أعطيت آية الكرسي من كنز تحت العرش ، ولم يؤتها نبيَّ كان قبلي . قال عليُّ فما بت ليلة قط منذ سمعتها من رسول الله ﷺ إلا قرئتها ، الحديث .

**أقول :** وروى هذا المعنى في الدر المنثور عن عبيد وابن أبي شيبه والدارميَّ ومحمد بن نصر وابن الضريس عنه عليه السلام ، ورواه أيضاً عن الديلميَّ عنه عليه السلام . والروايات من طرق الشيعة وأهل السنة في فضلها كثيرة ، وقوله ﷺ : إن رسول الله قال : أعطيت آية الكرسي من كنز تحت العرش . وروى في هذا المعنى أيضاً في الدر المنثور عن البخاريَّ في تاريخه وابن الضريس عن أنس أنَّ النبيَّ قال : أعطيت آية الكرسي من تحت العرش . وفيه إشارة إلى كون الكرسي تحت العرش ومخاطأ له وسيأتي الكلام في بيانه .

وفي الكافي عن زرارة قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : وسع كرسیه السموات والأرض ، السموات والأرض وسع الكرسي أو الكرسي وسع السموات والأرض فقال عليه السلام : إن كل شيء في الكرسي .

أقول : وهذا المعنى مروى عنهم في عدة روايات بما يقرب من هذا السؤال والجواب وهو بظاهره غريب ، إذ لم يرو قراصة كرسیه بالنصب والسموات والأرض بالرفع حتى يستصح بها هذا السؤال ، والظاهر أنه مبني على ما يتوهمه الأفهام العامية أن الكرسي جسم مخصوص موضوع فوق السموات أو السماء السابعة ( أعني فوق عالم الأجسام ) منه يصدر أحكام العالم الجسماني ، فيكون السموات والأرض وسعته إذ كان موضوعاً عليها كهيئة الكرسي على الأرض ، فيكون معنى السؤال أن الأنسب أن السموات والأرض وسعت الكرسي فما معنى سعته لها ؟ ، وقد قيل بنظير ذلك في خصوص العرش فأجيب بأن الوسعة من غير سنخ سعة بعض الأجسام لبعض ..

وفي المعاني عن حفص بن الغياث قال : سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل : وسع كرسیه السموات والأرض ، قال : علمه .  
وفيه أيضاً عنه عليه السلام في الآية : السموات والأرض وما بينهما في الكرسي ، والعرش هو العلم الذي لا يقدّر أحد قدره .

أقول : ويظهر من الروایتين : أن الكرسي من مراتب علمه تعالى كما مر استظهاره ، وفي معناهما روايات أخرى .

وكذا يظهر منهما ومما سيحيى : أن في الوجود مرتبة من العلم غير محدودة أعني أن فوق هذا العالم الذي نحن من أجزائها عالماً آخر موجوداتها أمور غير محدودة في وجودها بهذه الحدود الجسمانية ، والتعيينات الوجودية التي لوجوداتنا ، وهي في عين أنها غير محدودة معلومة لله سبحانه أي أن وجودها عين العلم ، كما أن الموجودات المحدودة التي في الوجود معلومة لله سبحانه في مرتبة وجودها أي إن وجودها نفس علمه تعالى بها وحضورها عنده ، ولعلنا نوفق لبيان هذا العلم المسمى بالعلم الفعلي فيما سيأتي من قوله تعالى : « وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في السموات ولا في

الأرض ، يونس - ٦١ .

وما ذكرناه من علم غير محدود هو الذي يرشد إليه قوله ﷺ في الرواية ، والعرش هو العلم الذي لا يقدر أحد قدره اه ، ومن المعلوم أن عدم التقدير والتحديد ليس من حيث كثرة معلومات هذا العلم عدداً ، لاستحالة وجود عدد غير متناه ، وكل عدد يدخل الوجود فهو متناه ، لكونه أقل مما يزيد عليه بواحد ، ولو كان عدم تناهي العلم أعني العرش لعدم تناهي معلوماته كثرة لكان الكرسي بعض العرش لكونه أيضاً علماً وإن كان محدوداً ، بل عدم التناهي والتقدير إنما هو من جهة كمال الوجود أي إن الحدود والقيود الوجودية يوجب التكثّر والتميّز والتمايز بين موجودات عالمنا الماديّ ، فتوجب انقسام الأنواع بالأنصاف والأفراد ، والأفراد بالحالات ، والإضافات غير موجودة فينطبق على قوله تعالى : « وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم » الحجر - ٢١ . وسيجيء تمام الكلام فيه إنشاء الله تعالى .

وهذه الموجودات كما أنّها معلومة بعلم غير مقدّر أي موجودة في ظرف العلم وجوداً غير مقدّر كذلك هي معلومة بحدودها ، موجودة في ظرف العلم بأقدارها وهذا هو الكرسي على ما يستظهر .

وربما لوح إليه أيضاً قوله تعالى فيها : يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم اه حيث جعل المعلوم : ما بين أيديهم وما خلفهم ، وهما أعني ما بين الأيدي وما هو خلف غير مجتمع الوجود في هذا العالم الماديّ ، فهناك مقام يجتمع فيه جميع المتفرقات الزمانية ونحوها ، وليست هذه الوجودات وجودات غير متناهية الكمال غير محدودة ولا مقدّرة وإلا لم يصح الاستثناء من الإحاطة في قوله تعالى : ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء اه فلا محالة هو مقام يمكن لهم الإحاطة ببعض ما فيه ، فهو مرحلة العلم بالمحدودات والمقدّرات من حيث هي محدودة مقدّرة والله أعلم .

وفي التوحيد عن حنّان قال سألت أبا عبد الله ﷺ عن العرش والكرسي فقال ﷺ : إن للعرش صفات كثيرة مختلفة له في كل سبب وصنع في القرآن صفة على حدة ، فقوله : ربّ العرش العظيم يقول : ربّ الملك العظيم ، وقوله : الرحمن على العرش استوى ،

يقول: على الملك احتوى، وهذا علم الكيفيّة في الأشياء، ثمّ العرش في الوصل مفرد عن الكرسيّ، لأنّهما بابان من أكبر أبواب الغيوب، وهما جميعاً غيبان، وهما في الغيب مقرونان، لأنّ الكرسيّ هو الباب الظاهر من الغيب الذي منه مطلع البدع ومنه الأشياء كلّها، والعرش هو الباب الباطن الذي يوجد فيه علم الكيف والكون والقدر والحدّ والمشية وصفة الإرادة وعلم الألفاظ والحركات والتّرك وعلم العود والبدء، فهما في العلم بابان مقرونان، لأنّ ملك العرش سوى ملك الكرسيّ، وعلمه أغيب من علم الكرسيّ، فمن ذلك قال: ربّ العرش العظيم، أي صفته أعظم من صفة الكرسيّ، وهما في ذلك مقرونان. قلت: جعلت فداك فلم صار في الفضل جار الكرسيّ، قال عليه السلام: إنّّه صار جارها لأنّ علم الكيفيّة فيه، وفيه الظاهر من أبواب البدء وإنّيّتها وحدّ رتقها وفتقها، فهذان جاران أحدهما حمل صاحبه في الظرف، وبمثل صرف العلماء، وليستدلّوا على صدق دعواهما لأنّه يختصّ برحمته من يشاء وهو القويّ العزيز.

أقول: قوله عليه السلام: لأنّ الكرسيّ هو الباب الظاهر من الغيب اه، قد عرفت الوجه فيه إجمالاً، فمرتبة العلم المقدر المحدود أقرب إلى عالمنا الجسمانيّ المقدر المحدود ممّا لا قدر له ولا حدّ، وسيجيء شرح فقرات الرواية في الكلام على قوله تعالى: «إنّ ربّكم الله الذي خلق السموات» يونس - ٣. وقوله عليه السلام: وبمثل صرف العلماء اه إشارة إلى أنّ هذه الألفاظ من العرش والكرسيّ ونظائرهما أمثال مصرّفة مضروبة للناس وما يعقلها إلّا العالمون.

وفي الاحتجاج عن الصادق عليه السلام: في حديث: كلّ شيء خلق الله في جوف الكرسيّ خلا عرشه فإنّه أعظم من أن يحيط به الكرسيّ.

أقول: وقد تقدّم توضيح معناه، وهو الموافق لسائر الروايات. فما وقع في بعض الأخبار أنّ العرش هو العلم الذي أطلع الله عليه أنبياءه ورسله، والكرسيّ هو العلم الذي لم يطلع عليه أحداً كما رواه الصدوق عن المفضّل عن الصادق عليه السلام كأنّه من من وهم الراوي بتبديل موضعيّ اللفظين أعني العرش والكرسيّ، أو أنّه مطروح

كالرواية المنسوبة إلى زينب العطار ،

وفي تفسير العياشي عن علي بن الحسين قال : إن السماء والأرض وما بينهما من خلق مخلوق في جوف الكرسي ، وله أربعة أملاك يحملونه بأمر الله .

**أقول :** ورواه الصدوق عن الأصمغ بن نباته عنه عليه السلام . ولم يرو عنهم عليهم السلام للكرسي حلة إلا في هذه الرواية ، بل الأخبار إنما تثبت الحلة للعرش وفقاً لكتاب الله تعالى كما قال : « الذين يحملون العرش ومن حوله الآية » المؤمن - ٧ وقال تعالى ، « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » الحاقة - ١٧ . ويمكن أن يصحح الخبر بأن الكرسي - كما سيجيء بيانه - يتحد مع العرش بوجه اتحاد ظاهر الشيء بباطنه . وبذلك يصح عد حلة أحدهما حلة للآخر .

وفي تفسير العياشي أيضاً عن معوية بن عمار عن الصادق عليه السلام قال : قلت : من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه قال : نحن أولئك الشافعون .

**أقول :** ورواه البرقي أيضاً في المحاسن ، وقد عرفت أن الشفاعة في الآية مطلقة يشمل الشفاعة التكوينية والتشريعية معاً ، فيشمل شفاعتهم عليهم السلام ، فالرواية من باب الجري .





لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ( ٢٥٦ ) اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ( ٢٥٧ )

### ﴿بيان﴾

قوله تعالى : لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي اه، الإكراه هو الإجبار والحمل على الفعل من غير رضى ، والرشد بالضم والضممتين : إصابة وجه الأمر وعجبة الطريق ويقابله الغي ، فهما أعم من الهدى والضلال، فإنهما إصابة الطريق الموصل وعدمها على ما قيل ، و الظاهر أن استعمال الرشد في إصابة عجبة الطريق من باب الانطباق على المصادق ، فإن إصابة وجه الأمر من سالك الطريق أن يركب المحجة وسواء السبيل، فلزومه الطريق من مصاديق إصابة وجه الأمر ، فالحق أن معنى الرشد والهدى معنيان مختلفان ينطبق أحدهما بعناية خاصة على مصاديق الآخر وهو ظاهر. قال تعالى : « فإن آنستم منهم رشداً » النساء - ٥٠ و قال تعالى : « ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل » الأنبياء - ٥١ . وكذلك القول في الغي والضلال ، ولذلك ذكرنا سابقاً : أن الضلال هو العدول عن الطريق مع ذكر الغاية والمقصد ، والغى هو العدول مع نسيان الغاية فلا يدري الإنسان الغوي ماذا يريد وماذا يقصد .

وفي قوله تعالى : لا إكراه في الدين اه نفى الدين الإجباري ، لما أن الدين وهو سلسلة من المعارف العلمية التي تتبعها أخرى عملية يجمعها أنها اعتقادات ، والاعتقاد والإيمان من الأمور القلبية التي لا يحكم فيها الإكراه والإجبار، فإن الإكراه

إنّما يؤثّر في الأعمال الظاهريّة والأفعال و الحركات البدنيّة الماديّة ، وأمّا الاعتقاد القلبيّ فله علل وأسباب أخرى قلبيّة من سنخ الاعتقاد والإدراك ، ومن المحال أن ينتج الجهل علماً ، أو تولّد المقدمات الغير العلميّة تصديقاً علمياً ، فقلوه : لا إكراه في الدين اه إن كان قضية إخباريّة حاكية عن حال التكوين أنتج حكماً دينياً بنفى الإكراه على الدين والاعتقاد ، وإن كان حكماً إنشائياً تشريعياً كما يشهد به ما عقبه تعالى من قوله : قد تبيّن الرشد من الغيّ كان نهياً عن العمل على الاعتقاد والإيمان كرهاً ، وهو نهى متّك على حقيقة تكوينيّة ، وهي التي مرّ بيانها أنّ الإكراه إنّما يعمل ويؤثّر في مرحلة الأفعال البدنيّة دون الاعتقادات القلبيّة .

وقد يبيّن تعالى هذا الحكم بقوله : قد تبيّن الرشد من الغيّ اه وهو في مقام التعليل ، فإنّ الإكراه والإجبار إنّما يركن إليه الأمر الحكيم والمربّي العاقل في الأمور المهمّة التي لا سبيل إلى بيان وجه الحقّ فيها لبساطة فهم المأثور ورداءة ذهن المحكوم ، أولاً سبب وجّهات أخرى ، فيتسبّب الحاكم في حكمه بالإكراه أو الأمر بالتقليد ونحوه ، وأمّا الأمور المهمّة التي تبيّن وجه الخير والشرّ فيها ، وقرّر وجه الجزاء الذي يلحق فعلها وتركها فلا حاجة فيها إلى الإكراه ، بل للإنسان أن يختار لنفسه ما شاء من طرفي الفعل وعاقبتي الثواب والعقاب ، والدين لمّا انكشفت حقائقه واتّضح طريقه بالبيانات الإلهيّة الموضحة بالسنة النبويّة فقد تبيّن أنّ الدين رشد والرشد في اتّباعه ، والغيّ في تركه والرغبة عنه ، وعليهذا لا موجب لأن يكره أحد أحداً على الدين .

وهذه إحدى الآيات الدالّة على أنّ الإسلام لم يبتن على السيف والدم ، ولم يُقتَ بالإكراه والعنوة على خلاف ما زعمه عدّة من الباحثين من المنتحلين وغيرهم أنّ الإسلام دين السيف واستدلّوا عليه : بالجهاد الذي هو أحد أركان هذا الدين .

وقد تقدّم الجواب عنه في ضمن البحث عن آيات القتال وذكرنا هناك أنّ القتال الذي ندب إليه الإسلام ليس لغاية إحراز التقدّم و بسط الدين بالقوّة والإكراه ، بل لإحياء الحقّ والدفاع عن أنفس متاع للفطرة وهو التوحيد ، وأمّا بعد انبساط

التوحيد بين الناس وخضوعهم لدين النبوة ولو بالتهود والتنصير فلا نزاع لمسلم مع موحد ولا جدال، فالإشكال ناش عن عدم التدبر .

ويظهر مما تقدم أن الآية أعني قوله : لا إكراه في الدين غير منسوخة بآية السيف كما ذكره بعضهم .

و من الشواهد على أن الآية غير منسوخة التعليل الذي فيها أعني قوله : قد تبين الرشد من الغي ، فإن الناسخ مالم ينسخ علته الحكم لم ينسخ نفس الحكم ، فإن الحكم باق بقاء سببه ؛ ومعلوم أن تبين الرشد من الغي في أمر الإسلام أمر غير قابل للارتفاع بمثل آية السيف ، فإن قوله : فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم مثلاً ، أو قوله : وقتلوا في سبيل الله الآية لا يؤثران في ظهور حقيقة الدين شيئاً حتى ينسخها حكماً معلولاً لهذا الظهور .

وبعبارة أخرى الآية تعلل قوله : لا إكراه في الدين بظهور الحق ، وهو معنى لا يختلف حاله قبل نزول حكم القتال وبعد نزوله ، فهو ثابت على كل حال ، فهو غير منسوخ .

**قوله تعالى :** فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى الخ، الطاغوت هو الطغيان و التجاوز عن الحد ولا يخلو عن مبالغة في المعنى كالملكوت والجبروت ، ويستعمل فيما يحصل به الطغيان كأقسام المعبودات من دون الله كالأصنام والشياطين والجن وأئمة الضلال من الإنسان وكل متبوع لا يرضى الله سبحانه باتباعه، ويستوي فيه المذكر والمؤنث والمفرد والتثنية والجمع .

وإنما قدم الكفر على الإيمان في قوله : فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله اه ليوافق الترتيب الذي يناسبه الفعل الواقع في الجزء أعني الاستمسك بالعروة الوثقى ، لأن الاستمسك بشيء إنما يكون بترك كل شيء ، والخذ بالعروة ، فهناك ترك ثم أخذ ، فقدم الكفر وهو ترك على الإيمان وهو أخذ ليوافق ذلك ، والاستمسك هو الأخذ والإمسك بشدة ، والعروة : ما يؤخذ به من الشيء كعروة الدلو وعروة الإباء ، والعروة

هي كلّ ماله أصل من النبات وما لا يسقط ورقه ؛ وأصل الباب التعلّق يقال : عراه واعتريه أى تعلّق به

والكلام أعني قوله : فقد استمسك بالعروة الوثقى موضوع على الاستعادة للدلالة على أنّ الإيمان بالنسبة إلى السعادة بمنزلة عروة الإبناء بالنسبة إلى الإباء وما فيه ، فكما لا يكون الأخذ أخذاً مطمئناً حتّى يقبض على العروة كذلك السعادة الحقيقية لا يستقرّ أمرها ولا يرجى نيلها إلّا أن يؤمن الإنسان بالله ويكفر بالطاغوت .

**قوله تعالى :** لا انفصام لها والله سميع عليم اه ، الانفصام : الانقطاع و الانكسار ، والجملة في موضع الحال عن العروة تؤكد معنى العروة الوثقى ، ثم عقبه بقوله : والله سميع عليم اه لكون الإيمان والكفر متعلّقاً بالقلب واللسان .

**قوله تعالى :** الله وليّ الذين آمنوا يخرجهم إلى آخر الآية ، قدم شرط من الكلام في معنى إخراجهم من النور إلى الظلمات ، وقد بيّنا هناك أنّ هذا الإخراج وما يشاكله من المعاني أمور حقيقية غير مجازية خلافاً لما توهمه كثير من المفسّرين وسائر الباحثين أنّهم معان مجازية يراد بها الأعمال الظاهرية من الحركات والسكنات البدنية ، وما يترتب عليها من الغايات الحسنة والسيئة ؛ فالنور مثلاً هو الاعتقاد الحقّ بما يرتفع به ظلمة الجهل وحيرة الشك واضطراب القلب ؛ والنور هو صالح العمل من حيث أن رشده يبيّن ، وأثره في السعادة جلّي ، كما أنّ النور الحقيقيّ على هذه الصفات . والظلمة هو الجهل في الاعتقاد والشبهة والريبة وطالح العمل ، كلّ ذلك بالاستعارة . والإخراج من الظلمة إلى النور الذي ينسب إلى الله تعالى كإخراج من النور إلى الظلمات الذي ينسب إلى الطاغوت نفس هذه الأعمال والعقائد ، فليس وراء هذه الأعمال والعقائد لأفعل من الله تعالى وغيره كإخراج مثلاً ولا أثر لفعل الله تعالى وغيره كالنور والظلمة وغيرهما . هذا ما ذكره قوم من المفسّرين والباحثين .

وذكر آخرون : أنّ الله يفعل فعلاً كإخراج من الظلمات إلى النور وإعطاء الحيوة والسعة والرحمة وما يشاكلها ويترتب على فعله تعالى آثار كالنور والظلمة والروح والرحمة ونزول الملائكة ، لا ينالها أفهامنا ولا يسعها مشاعرنا ، غير أنّنا نؤمن

بحسب ما أخبر به الله - وهو يقول الحق - بأن هذه الأمور موجودة وأنّها أفعال له تعالى وإن لم نحط بها خبراً . ولأزم هذا القول أيضاً كالقول السابق أن يكون هذه الألفاظ أعني أمثال النور والظلمة والإخراج ونحوها مستعملة على المجاز بالاستعارة، وإنّما الفرق بين القولين أن مصاديق النور والظلمة ونحوها على القول الأوّل نفس أعمالنا وعقائدنا، وعلى القول الثاني أمور خارجة عن أعمالنا وعقائدنا، لاسيّما لنا إلى فهمها، ولا طريق إلى نيلها والوقوف عليها .

والقولان جميعاً خارجان عن صراط الاستقامة كالمفرط والمفرط، والحق في ذلك أن هذه الأمور التي أخبر الله سبحانه بإيجادها وفعالها عند الطاعة والمعصية إنّما هي أمور حقيقية واقعية من غير تجوّز غير أنّها لا تفارق أعمالنا وعقائدنا بل هي لوازمها التي في باطنها، وقد مرّ الكلام في ذلك . وهذا لا ينافي كون قوله تعالى : يخرجهم من الظلمات إلى النور اه وقوله تعالى : يخرجونهم من النور إلى الظلمات اه كنايةتين عن هداية الله سبحانه وإضلال الطاغوت ، لما تقدّم في بحث الكلام أن النزاع في مقامين : أحدهما كون النور والظلمة وما شابههما ذا حقيقة في هذه النشأة أو مجرد تشبيه لا حقيقة له . وثانيهما : أنّه على تقدير تسليم أن لها حقائق وواقعيّات هل استعمال اللفظ كالنور مثلاً في الحقيقة التي هي حقيقة الهداية حقيقة أو مجاز ؟ وعلى أيّ حال فالجملتان أعني : قوله تعالى : يخرجهم من الظلمات إلى النور اه وقوله تعالى : يخرجونهم من النور إلى الظلمات اه كنايةتان عن الهداية والإضلال ، وإلّا لزم أن يكون لكلّ من المؤمن والكافر نور وظلمة معاً ، فإنّ لازم إخراج المؤمن من الظلمة إلى النور أن يكون قبل الإيمان في ظلمة وبالعكس في الكافر ، فعامة المؤمنين والكفار - وهم الذين عاشوا مؤمنين فقط أو عاشوا كفّاراً فقط - إذا بلغوا مقام التكليف فإن آمنوا خرجوا من الظلمات إلى النور ، وإن كفروا خرجوا من النور إلى الظلمات ، فهم قبل ذلك في نور وظلمة معاً وهذا كما ترى .

لكن يمكن أن يقال : إنّ الإنسان بحسب خلقته على نور الفطرة ، هو نور إجماليّ يقبل التفصيل ، وأمّا بالنسبة إلى المعارف الحقّة والأعمال الصالحة تفصيلاً

فهو في ظلمة بعد لعدم تبيين أمره ، و النور والظلمة بهذا المعنى لا يتنافيان ولا يمتنع اجتماعهما . والمؤمن بإيمانه يخرج من هذه الظلمة إلى نور المعارف والطاعات تفصيلاً ، والكافر بكفره يخرج من نور الفطرة إلى ظلمات الكفر والمعاصي التفصيلية . والإتيان بالنور مفرداً وبالظلمات جمعاً في قوله تعالى : يخرجهم من الظلمات إلى النور و قوله تعالى : يخرجونهم من النور إلى الظلمات اه للإشارة إلى أن الحق واحد لا اختلاف فيه كما أن الباطل متشئت مختلف لاوحدة فيه . قال تعالى : « وإن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم » الأنعام - ١٥٣ .

### ﴿ بحث روائي ﴾

في الدر المنثور أخرج أبو داود والنسائي وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في ناسخه وابن منده في غرائب شعبه وابن حبان وابن مردويه والبيهقي في سننه والضياء في المختارة عن ابن عباس قال : كانت المرممة من الأنصار تكون مقلاة لا يكاد يعيش لها ولد ، فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده ، فلمّا أُجلت بنوا النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا : لا ندع أبنائنا فأنزل الله لإكراه في الدين . أقول : وروي أيضاً هذا المعنى بطرق أخرى عن سعيد بن جبير وعن الشعبي .

وفيه : أخرج عبد الحميد وابن جرير وابن المنذر عن مجاهد قال : كانت النضير أرضت رجالاً من الأوس ، فلمّا أمر النبي ﷺ بإجلالهم ، قال أبنائهم من الأوس : لنذهب معهم ولندينّن دينهم ، فمنعهم أهلهم وأكرهوهم على الإسلام ، ففيهم نزلت هذه الآية لإكراه في الدين .

أقول : وهذا المعنى أيضاً مروي بغير هذا الطريق ، وهو لا ينافي ما تقدّم من نذر النساء اللاتي ماكن يعيش أولادهن أن يهودنهم .

وفيه أيضاً : أخرج ابن إسحق وابن جرير عن ابن عباس في قوله : لا إكراه في الدين قال : نزلت في رجل من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له : الحصين كان له

ابنان نصرانيان ، وكان هو رجلاً مسلماً فقال للنبي ﷺ: ألا أستكرههما فإنهما قد أيا إلا النصرانية؟ فأنزل الله فيه ذلك .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام : قال: النور آل محمد والظلمات أعدائهم .  
أقول : وهو من قبيل الجرى أو من باب الباطن أو التأويل.





أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَيْهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ  
رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَآمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي  
بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ  
الظَّالِمِينَ (٢٥٨) أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى  
يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا  
أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ  
إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا  
لَنَحْمَا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩) وَإِذْ قَالَ  
إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ  
لِيُبَيِّنَ لِي قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ  
مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠) .

### ﴿بيان﴾

الآيات مشتملة على معنى التوحيد ولذلك كانت غير خالية عن الارتباط بما قبلها  
من الآيات فمن المحتمل أن تكون نازلة معها .

قوله تعالى : ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه اه ، المحاججة إلقاء الحججة  
قبال الحججة لإثبات المدعى أولاً بطل ما يقابله ، وأصل الحججة هو القصد ، غلب استعماله  
فيما يقصد به إثبات دعوى من الدعاوي . وقوله : في ربه متعلق بحاج ، والضمير لإبراهيم  
كما يشعر به قوله تعالى فيما بعد : قال إبراهيم ربِّي الذي يحيي ويميت اه ، وهذا  
الذي حاج إبراهيم ﷺ في ربه هو الملك الذي كان يعاصره وهو نمرود من ملوك

بابل على ما يذكره التاريخ والرواية .

وبالتأمل في سياق الآية ، والذي جرى عليه الأمر عند الناس ولا يزال يجري عليه يعلم معنى هذه الحاجة التي ذكرها الله تعالى في هذه الآية ، والموضوع الذي وقعت فيه حاجتهما .

بيان ذلك : أن الإنسان لا يزال خاضعاً بحسب الفطرة للقوى المستعلية عليه ، المؤثرة فيه ، وهذا مما لا يرتاب فيه الباحث عن أطوار الأمم الخالية المتأمل في حال الموجودين من الطوائف المختلفة ، وقد بيننا ذلك فيما مرّ من المباحث . وهو بفطرته يثبت للعالم صانعاً مؤثراً فيه بحسب التكوين والتدبير ، وقد مرّ أيضاً بيانه . وهذا أمر لا يختلف في القضاء عليه حال الإنسان سواء قال بالتوحيد كما يبتني عليه دين الأنبياء وتعتمد عليه دعوتهم أو ذهب إلى تعدّد الآلهة كما عليه الوثنيّون أو نفى الصانع كما عليه الدهريّون والماديّون ، فإنّ الفطرة لا تقبل البطلان مادام الإنسان إنساناً وإن قبلت الغفلة والذهول .

لكن الإنسان الأولي الساذج لما كان يقيس الأشياء إلى نفسه ، وكان يرى من نفسه أن أفعاله المختلفة تستند إلى قواه وأعضائه المختلفة ، وكذا الأفعال المختلفة الاجتماعية تستند إلى أشخاص مختلفة في الاجتماع ، وكذا الحوادث المختلفة إلى علل قريبة مختلفة وإن كانت جميع الأزمّة تجتمع عند الصانع الذي يستند إليه مجموع عالم الوجود لاجرم أثبت لأنواع الحوادث المختلفة أرباباً مختلفة دون الله سبحانه فتارة كان يثبت ذلك باسم أرباب الأنواع كربّ الأرض وربّ البحار وربّ النار وربّ الهواء والأرياح وغير ذلك ؛ وتارة كان يثبته باسم الكواكب وخاصة السيّارات التي كان يثبت لها على اختلافها تأثيرات مختلفة في عالم العناصر والمواليد كما نقل عن الصابئين ثمّ كان يعمل صوراً وتمائيل لتلك الأرباب فيعبدوها لتكون وسيلة الشفاعة عند صاحب الصنم ويكون صاحب الصنم شفيعاً له عند الله العظيم سبحانه ، ينال بذلك سعادة الحيوة والممات .

ولذلك كانت الأصنام مختلفة بحسب اختلاف الأمم والأجيال لأن الآراء كانت

مختلفة في تشخيص الأنواع المختلفة وتخيّل صوراً ربّ الأَنْواع المحكيّة بأصنامها، وربّما لحقت بذلك أميال و تهوّسات أخرى ، وربّما انجرّ الأمر تدريجاً إلى التشبّه بالأصنام و نسيان أربابها حتّى ربّ الأرباب لأنّ الحسّ والخيال كان يزسّ ماناله لهم ، وكان يذكرها وينسى ما ورائها ، فكان يوجب ذلك غلبة جانبها على جانب الله سبحانه ، كلّ ذلك إنّما كان منهم لأنّهم كانوا يرون لهذه الأرباب تأثيراً في شئون حياتهم بحيث تغلب إرادتها إرادتهم ، وتستعلي تدبيرها على تدبيرهم .

وربّما كان يستفيد بعض أوّلي القوّة والسطوة والسلطة من جبايرة الملوك من اعتقادهم ذلك و نفوذ أمره في شئون حياتهم المختلفة ، فيطمع في المقام و يدّعي الألوهيّة كما ينقل عن فرعون ونمرود وغيرهما ، فيسلك نفسه في سلك الأرباب وإن كان هو نفسه يعبد الأصنام كعبادتهم . وهذا وإن كان في بادئ الأمر على هذه الوتيرة لكن ظهور تأثيره ونفوذ أمره عند الحسّ كان يوجب تقدّمه عند عباده على سائر الأرباب وغلبة جانبه على جانبها ، وقد تقدّمت الإشارة إليه آنفاً كما يحكيه الله تعالى من قول فرعون لقومه : « أنا ربّكم الأعلى » النازعات - ٢٤ . فقد كان يدّعي أنّه أعلى الأرباب مع كونه ممّن يتخذ الأرباب كما قال تعالى : « ويدرك وآلهتك » الأعراف - ١٢٦ ، وكذلك كان يدّعي نمرود على ما يستفاد من قوله : أنا حيّ وأهيتاه في هذه الآية على ما سنبيّن .

وينكشف بهذا البيان معنى هذه المحاجة الواقعة بين إبراهيم عليه السلام ونمرود ، فإنّ نمرود كان يرى لله سبحانه ألوهيّة ، ولولا ذلك لم يسلم لإبراهيم عليه السلام قوله : إنّ الله يأتي بالشمس من المشرق فأنت بها من المغرب ، ولم يبهت عند ذلك بل يمكنه أن يقول : أنا آتي بها من المشرق دون من زعمت أو أنّ بعض الآلهة الأخرى يأتي بها من المشرق ؛ وكان يرى أنّ هناك آلهة أخرى دون الله سبحانه ، وكذلك قومه كانوا يرون ذلك كما يدلّ عليه عامّة قصص إبراهيم عليه السلام كقصّة الكوكب والقمر والشمس وما كلّم به أباه في أمر الأصنام وما خاطب به قومه وجعله الأصنام جذاذاً إلاّ كبيراً لهم وغير ذلك ؛ فقد كان يرى لله تعالى ألوهيّة ، وأنّ معه آلهة أخرى لكنّه

كان يرى لنفسه ألوهية ، وأنه أعلى الآلهة ، ولذلك استدلّ على ربوبيته عند ما حاجّ إبراهيم عليه السلام في ربه ، ولم يذكر من أمر الآلهة الأخرى شيئاً .

ومن هنا يستنتج أن المحاجة التي وقعت بينه وبين إبراهيم عليه السلام هي : أن إبراهيم عليه السلام كان يدّعي أن ربه الله لا غير ونمرود كان يدّعي أنه رب إبراهيم وغيره ، ولذلك ملأ احتجاج إبراهيم عليه السلام على دعواه بقوله : ربّي الذي يحيي ويميت اه قال : أنا أحيي وأُميت اه فادّعى أنه متّصف بما وصف به إبراهيم ربه فهو ربه الذي يجب عليه أن يخضع له ويشغل بعبادته دون الله سبحانه ودون الأصنام ، ولم يقل : وأنا أحيي وأُميت لأن لازم العطف أن يشارك الله في ربوبيته ولم يكن مطلوبه ذلك بل كان مطلوبه التعيّن بالتفوّق كما عرفت ، ولم يقل أيضاً : والآلهة تحيي وتميت .

ولم يعارض إبراهيم عليه السلام بالحق ، بل بالتمويه والمغالطة وتلبيس الأمر على من حضر ، فإن إبراهيم عليه السلام إنما أراد بقوله : ربّي الذي يحيي ويميت اه الحياة والموت المشهودين في هذه الموجودات الحية الشاعرة المريدة فإن هذه الحياة المجهولة الكنه لا يستطيع أن يوجدها إلا من هو واجد لها فلا يمكن أن يعمل بالطبيعة الجامدة الفاقدة لها ، ولا بشيء من هذه الموجودات الحية ، فإن حيوتها هي وجودها ، وموتها عدمها ، والشئ لا يقوى لا على إيجاد نفسه ولا على إعدام نفسه . ولو كان نمرود أخذ هذا الكلام بالمعنى الذي له لم يمكنه معارضته بشيء لكنّه غالط فأخذ الحياة والموت بمعناهما المجازي أو الأعم من معناهما الحقيقي والمجازي فإن الإحياء كما يقال على جعل الحياة في شيء كالجنين إذا نفخت فيه الحياة كذلك يقال : على تخليص إنسان من ورطة الهلاك ، وكذا الإماتة تطلق على التوفي وهو فعل الله وعلى مثل القتل بآلة قتالة ، وعند ذلك أمر بإحضار رجلين من السجن فأمر بقتل أحدهما وإطلاق الآخر فقتل هذا وأطلق ذاك فقال : أنا أحيي وأُميت اه ولبس الأمر على الحاضرين فصدموه فيه ، ولم يستطع لذلك إبراهيم عليه السلام أن يبيّن له وجه المغالطة ، وأنه لم يرد بالإحياء والإماتة هذا المعنى المجازي ، وأن الحجّة لاتعارض الحجّة ، ولو كان في وسعه عليه السلام ذلك لبيّنه ، ولم يكن ذلك إلا لأنه شاهد حال نمرود في تمويهه ، وحال الحضار في

تصديقهم لقوله الباطل على العمياء ، فوجد أنه لو بين وجه المغالطة لم يصدق أحد ، فعدل إلى حجة أخرى لا يدع المكابر أن يعارضه بشيء فقال إبراهيم عليه السلام : إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب اهـ، وذلك أن الشمس وإن كانت من جملة الآلهة عندهم أو عند بعضهم كما يظهر من ما يرجع إلى الكوكب والقمر من قصته عليه السلام لكنها وما يلحق وجودها من الأفعال كالطلوع والغروب مما يستند بالآخرة إلى الله الذي كانوا يرونه رب الأرباب ، والفاعل الإرادي إذا اختار فعلاً بالإرادة كان له أن يختار خلافه كما اختار نفسه فإن الأمر يدور مدار الإرادة ، وبالجملتين لما قال إبراهيم ذلك بهت نمرود ، إذ ما كان يسعه أن يقول : إن هذا الأمر المستمر الجاري على وتيرة واحدة وهو طلوعها من المشرق دائماً أمر اتفاقي لا يحتاج إلى سبب ، ولا كان يسعه أن يقول : إنه فعل مستند إليها غير مستند إلى الله فقد كان يسلم خلاف ذلك ، ولا كان يسعه أن يقول : إنني أنا الذي آتيتها من المشرق وإلا طوب بآتيانها من المغرب ، فألقمه الله حجراً وبهتته، والله لا يهدي القوم الظالمين .

**قوله تعالى :** أن آتية الله الملك اهـ، ظاهر السياق : أنه من قبيل قول القائل : أساء إلى فلان لا نسي أحسنت إليه يريد : أن إحساني إليه كان يستدعي أن يحسن إليّ نكته بدل الإحسان بالإساءة فأساء إليّ ، وقولهم : واتق شر من أحسنت إليه . قال الشاعر :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبير \* وحسن فعل كما يجزى سمنار

فالجملتان أعني قوله : أن آتية الله الملك بتقدير لام التعليل وهي من قبيل وضع الشيء موضع ضده للشكوى والاستعداد ونحوه ، فإن عدوان نمرود وطغيانه في هذه الحاجة كان ينبغي أن يعكس بضدّ إنعام الله عليه بالملك ، لكن لما لم يتحقق من الله في حقّه إلا الإحسان إليه وإيتائه الملك فوضع العلة فدلّ على كفرانه لنعمة الله فهو بوجه كقوله تعالى : « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً » القصص - ٨- فهذه نكتة في ذكر إيتائه الملك .

وهنا نكتة أخرى وهي : الدلالة على ردائة دعواه من رأس ، وذلك أنه إنما

كان يدعى هذه الدعوى ملك آتاه الله تعالى من غير أن يملكه لنفسه، فهو إنما كان نمرود الملك ذا السلطنة والسطوة بنعمة من ربه، وأمّا هو في نفسه فلم يكن إلا واحداً من سواد الناس لا يعرف له وصف، ولا يشار إليه بنعت، ولهذا لم يذكر اسمه وعبر عنه بقوله: الذي حاج إبراهيم في ربه اه دلالة على حقارة شخصه وخساسة أمره.

وأما نسبة ملكه إلى إيتاء الله تعالى فقد مر في المباحث السابقة: أنه لا محذور فيه، فإن الملك وهو نوع سلطنة منبسطة على الأمة كسائر أنواع السلطنة والقدرة نعمة من الله وفضل يؤتاه من يشاء، وقد أودع في فطرة الإنسان معرفته، والرغبة فيه، فإن وضعه في موضعه كان نعمة وسعادة. قال تعالى: «وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة» القصص-٦٧، وإن عدا طوره وانحرف به عن الصراط كان في حقه نقمة وبواراً.

قال تعالى: «ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار» إبراهيم-٢٨. وقد مر بيان أن لكل شيء نسبة إليه تعالى على ما يليق بساحة قدسه تعالى وتقدس من جهة الحسن الذي فيه دون جهة القبح والمساءة.

ومن هنا يظهر سقوط ما ذكره بعض المفسرين: أن الضمير في قوله: أن آتاه الله الملك اه يعود إلى إبراهيم عليه السلام. والمراد بالملك ملك إبراهيم كما قال تعالى: «أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً» النساء-٥٣، لملك نمرود لكونه ملك جور ومعصية لا يجوز نسبته إلى الله سبحانه.

ففيه أفولاً: أن القرآن ينسب هذا الملك وما في معناه كثيراً إليه تعالى كقوله حكاية عن مؤمن آل فرعون: «يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض» المؤمن-٢٩ وقوله تعالى حكاية عن فرعون -وقد أمضاه بالحكاية-: «يا قوم أليس لي ملك مصر» الزخرف-٥١ وقد قال تعالى: «له الملك» التغابن-١ فقصر كل الملك لنفسه فمامن ملك إلا وهو منه تعالى، وقال تعالى حكاية عن موسى عليه السلام: «رب إنك آتيت فرعون وقومه زينة» يونس-٨٨ وقال تعالى في قارون: «وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة» القصص-٧٦ وقال تعالى خطاباً لنبيه:

« ذرني ومن خلقت وحيداً وجعلت له ملاماً ممدوداً - إلى أن قال - : « ومهدت له تمهيداً ثم يطمع أن أزيد » المذثر - ١٤ ، إلى غير ذلك .

وثانياً : أن ذلك لا يلائم ظاهر الآية - فإن ظاهرها أن نمرود كان ينازع إبراهيم في توحيدهِ وإيمانه لا أنه كان ينازعه ويحاجّه في ملكه ، فإن ملك الظاهر كان لنمرود ، وما كان يرى لإبراهيم ملكاً حتى يشاجره فيه

وثالثاً : أن لكل شيء نسبة إلى الله سبحانه والملك من جملة الأشياء ولا محذور في نسبته إليه تعالى وقد مرّ تفصيل بيانه .

**قوله تعالى :** قال إبراهيم ربّي الذي يحيي ويميتاه ، الحيوة والموت وإن كانا وجودان في غير جنس الحيوان أيضاً كالنبات ، وقد صدّقه القرآن كما مرّ بيانه في تفسير آية الكرسي ، لكن مراده عليه السلام منهما إما خصوص الحيوة والممات الحيوانيين أو الأعمّ الشامل له لا إطلاق اللفظ ، والدليل على ذلك قول نمرود : أنا أحيي وأميت اه فإن هذا الذي ادّعاه لنفسه لم يكن من قبيل إحياء النبات بالحرث والغرس مثلاً ، ولا إحياء الحيوان بالسفاد والتوليد مثلاً ، فإن ذلك وأشباهه كان لا يختصّ به بل يوجد في غيره من أفراد الإنسان ، وهذا يؤيد ماوردت به الروايات : أنه أمر بأحضار رجلين ممن كان في سجنه فأطلق أحدهما وقتل الآخر ، وقال عند ذلك : أنا أحيي وأميت .

وإنما أخذ عليه السلام في حجّته الإحياء والإماتة لأنّهما أمران ليس للطبيعة الفاقدة للحيوة فيهما صنع ، وخاصة الحيوة التي في الحيوان حيث تستتبع الشعور والإرادة وهما أمران غير مادّيين قطعاً ، وكذا الموت المقابل لها ، والحجّة على ما فيها من السطوع والوضوح لم تنجح في حقّهم ، لأنّ انحطاطهم في الفكر وخبطهم في التعقّل كان فوق ما كان يظنّه عليه السلام في حقّهم ، فلم يفهموا من الإحياء والإماتة إلّا المعنى المجازي الشامل لمثل الإطلاق والقتل ، فقال نمرود : أنا أحيي وأميت وصدّقه من حضره . ومن سياق هذه الحاجة يمكن أن يحدث المتأمّل ما بلغ إليه الانحطاط الفكريّ يومئذ في المعارف والمعنويّات . ولا ينافي ذلك الارتقاء الحضاريّ والتقدّم

المُدْنِيّ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ الْآثَارُ وَالرُّسُومُ الْبَاقِيَّةُ مِنْ بَابِلَ كُلْدَةَ وَمِصْرَ الْفِرَاعْنَةَ وَغَيْرَهُمَا ، فَإِنَّ الْمَدِينَةَ الْمَادِّيَّةَ أَمْرٌ وَالتَّقَدُّمُ فِي مَعْنَوِيَّاتِ الْمَعَارِفِ أَمْرٌ آخَرٌ . وَفِي ارْتِقَاءِ الدُّنْيَا الْحَاضِرَةِ فِي مَدِينَتِهَا وَانْحِطَاطِهَا فِي الْأَخْلَاقِ وَالْمَعَارِفِ الْمَعْنَوِيَّةِ مَا تَسْقُطُ بِهِ هَذِهِ الشَّبَهَةُ .

وَمِنْ هُنَا يَظْهَرُ : وَجْهٌ عَدَمٌ أَخَذَهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي حُجَّتِهِ مُسْئَلَةُ احْتِيَاجِ الْعَالَمِ بِأَسْرِهِ إِلَى الصَّانِعِ الْفَاعِلِ لِلْسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كَمَا أَخَذَ بِهِ فِي اسْتِبْصَارِ نَفْسِهِ فِي بَادِي أَمْرِهِ عَلَى مَا يَحْكِيهِ اللَّهُ عَنْهُ بِقَوْلِهِ : إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، الْأَنْعَامُ - ٧٩ . فَإِنَّ الْقَوْمَ عَلَى اعْتِرَافِهِمْ بِذَلِكَ بِفَطَرَتِهِمْ إِجْمَالًا كَانُوا أَنْزَلَ سَطْحًا مِنْ أَنْ يَعْقِلُوهُ عَلَى مَا يَنْبَغِي أَنْ يَعْقِلَ عَلَيْهِ بِحَيْثُ يَنْجَحُ احْتِجَاجُهُ وَيَتَضَحَّحُ مَرَادُهُ ﷻ ، وَنَاهِيكَ فِي ذَلِكَ مَا فَهَمُوهُ مِنْ قَوْلِهِ : رَبِّي الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ أَهْ .

**قَوْلُهُ تَعَالَى :** قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ أَهْ أَيْ فَأَنَا رَبُّكَ الَّذِي وَصَفْتَهُ بِأَنَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ .

**قَوْلُهُ تَعَالَى :** قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ أَهْ ، لَمَّا أَيْسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ مَضِيِّ احْتِجَاجِهِ بِأَنَّ رَبَّهُ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ، لِسَوْءِ فَهْمِ الْخَصْمِ وَتَمْوِيهِهِ وَتَلْبِيْسِهِ الْأَمْرَ عَلَى مَنْ حَضَرَ عِنْدَهُمَا عَدْلٌ عَنْ بَيَانِ مَا هُوَ مَرَادُهُ مِنَ الْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ إِلَى حُجَّةٍ أُخْرَى ، إِلَّا أَنَّهُ بَنَى هَذِهِ الْحُجَّةَ الثَّانِيَةَ عَلَى دَعْوَى الْخَصْمِ فِي الْحُجَّةِ الْأُولَى كَمَا يَدُلُّ عَلَيْهِ التَّفْرِيعُ بِالْفَاءِ فِي قَوْلِهِ : فَإِنَّ اللَّهَ الْإِنِّحْ ، وَالْمَعْنَى : إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَمَا تَقُولُ : إِنَّكَ رَبِّي وَمِنْ شَأْنِ الرَّبِّ أَنْ يَتَصَرَّفَ فِي تَدْوِيرِ أَمْرِ هَذَا النِّظَامِ الْكَوْنِيِّ فَاللَّهُ سَبْحَانَهُ يَتَصَرَّفُ فِي الشَّمْسِ بِإِتْيَانِهَا مِنَ الْمَشْرِقِ فَتَتَصَرَّفُ أَنْتَ بِإِتْيَانِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ حَتَّى يَتَضَحَّحَ أَنَّكَ رَبٌّ كَمَا أَنَّ اللَّهَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ أَوْ أَنَّكَ الرَّبُّ فَوْقَ الْأَرْبَابِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ، وَإِنَّمَا فَرَّعَ الْحُجَّةَ عَلَى مَا تَقَدَّمَ لَهَا لِيُظَنَّ أَنَّ الْحُجَّةَ الْأُولَى تَمَّتْ لِنَمْرُودَ وَأُنْتِجَتْ مَا ادَّعَاهُ ، وَلِذَلِكَ أَيْضًا قَالَ : فَإِنَّ اللَّهَ وَلَمْ

يقول : فَإِنَّ رَبِّي لَأَنَّ الْخَصْمَ استفاد من قوله : رَبِّي سوماً وطبقه على نفسه بالمغالطة فأتى عَلَيْهِ نائياً بلفظة الجلالة ليكون مصوناً عن مثل التطبيق السابق ! وقد مر بيان أن نمرود ما كان يسعه أن يتفوه في مقابل هذه الحجّة بشيء دون أن يبهت فيسكت.

**قوله تعالى :** والله لا يهدي القوم الظالمين اه، ظاهر السياق أنه تعليل لقوله فبهت الذي كفر فبهته هو عدم هداية الله سبحانه إياه لا كفره وبعبارة أخرى معناه أن الله لم يهده فبهت لذلك ولوهدها لغلب على إبراهيم في الحجّة لا أنه لم يهده فكفر لذلك وذلك لأنّ العناية في المقام متوجّهة إلى حاجته إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَام لا إلى كفره وهو ظاهر .

ومن هنا يظهر : أن في الوصف إشعاراً بالعلية أعني : أن السبب لعدم هداية الله الظالمين هو ظلمهم كما هو كذلك في سائر موارد هذه الجملة من كلامه تعالى كقوله : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً وهو يدعى إلى الإسلام والله لا يهدي القوم الظالمين » الصف - ٧ وقوله : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين » الجمعة - ٥. ونظير الظلم الفسق في قوله تعالى : « فلمّا زاغوا أزاغ الله قلوبهم والله لا يهدي القوم الفاسقين » الصف - ٥ .

وبالجملة الظلم وهو الانحراف عن صراط العدل والعدل عما ينبغي من العمل إلى غير ما ينبغي موجب لعدم الاهتداء إلى الغاية المقصودة ، ومؤدّى إلى الخيبة والخسران بالأخيرة. وهذه من الحقائق الناصعة التي ذكرها القرآن الشريف وأكد القول فيها في آيات كثيرة.

## ﴿كلام في الاحسان وهدايته والظلم واضلاله﴾

هذه حقيقة ثابتة بيننا القرآن الكريم كما ذكرناه آنفاً ، وهي كَلِمَةٌ لا تقبل الاستثناء وقد ذكرها بالسنة مختلفة ، وبنى عليها حقائق كثيرة من معارفه . قال تعالى : « الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » طه - ٥٠ . دلّ على أن كلَّ شيء بعد تمام خلقه بهتدي بهداية من الله سبحانه إلى مقاصد وجوده وكمالات ذاته ، وليس ذلك إلا بارتباطه مع غيره من الأشياء واستفادته منها بالفعل والانفعال بالاجتماع والافتراق والاتصال والانفصال والقرب والبعد والأخذ والتترك ونحو ذلك ، ومن المعلوم أن الأمور التكوينية لا تغلظ في آثارها ، والقصود الواقعية لا تخطي ولا تخطب في تشخيص غاياتها ومقاصدها ، فالنار في مسها الحطب مثلاً وهي حارة لا تريد تبريده ، والنامي كالنبات مثلاً وهو نام لا يقصد إلا عظم الحجم دون صغره وهكذا ، وقد قال تعالى : « إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » هود - ٥٦ . فلا تخلف ولا اختلاف في الوجود .

ولازم هاتين المقدمتين أعني عموم الهداية وانتفاء الخطأ في التكوين أن يكون لكلَّ شيء روابط حقيقية مع غيره ، وأن يكون بين كلَّ شيء وبين الآثار والغايات التي يقصد لها طريق أو طرق مخصوصة هي المسلوكة للبلوغ إلى غايته والآخر المخصوص المقصود منه ، وكذلك الغايات والمقاصد الوجودية إنما تنال إذا سلك إليها من الطرق الخاصة بها والسبل الموصلة إليها ، فالبذرة إنما تنبت الشجرة التي في قوتها إنباتها مع سلوك الطريق المؤدّي إليها بأسبابها وشرائطها الخاصة ، وكذلك الشجرة إنما تثمر الثمرة التي من شأنها إثمارها ، فما كلَّ سبب يؤدّي إلى كلَّ مسبب . قال تعالى : « وَالْبَلَدِ الطَّيِّبِ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكْدًا » الأعراف - ٥٧ . والعقل والحس يشهدان بذلك وإلا اختلَّ قانون العلية العام .

وإذا كان كذلك فالصنع والإيجاد يهدي كلَّ شيء إلى غاية خاصة ، ولا يهديه إلى غيره ، ويهدي إلى كلَّ غاية من طريق خاص لا يهدي إليه من غيره ، صنع الله الذي

أتقن كلَّ شيءٍ ، فكلَّ سلسلة من هذه السلاسل الوجودية الموصلة إلى غاية وأثر إذا فرضنا تبدل حلقة من حلقاتها أوجب ذلك تبدل أثرها لا محالة . هذا في الأمور التكوينية .

والأمور الغير التكوينية من الاعتبارات الاجتماعية وغيرها على هذا الوصف أيضاً من حيث إنها نتائج الفطرة المتكسنة على التكوين ، فالشئون الاجتماعية والمقامات التي فيه والأفعال التي تصدر عنها كل منها مرتبط بآثار وغايات لا تتولد منه إلا تلك الآثار والغايات ولا تتولد هي إلا منه ، فالتربية الصالحة لا تتحقق إلا من مربٍّ صالح ، والمربي الفاسد لا يترتب على تربيته إلا الأثر الفاسد ( ذاك الفساد المحكومون في نفسه ) وإن تظاهر بالصلاح ولازم الطريق المستقيم في تربيته ، وضرب على الفساد المطوي في نفسه بمائة ستر واحتجب دونه بألف حجاب . وكذلك الحاكم المقلب في حكومته ، والقاضي الوائب على مسند القضاء بغير لياقة في قضاءه ، وكل من تقلد منصباً اجتماعياً من غير طريقه المشروع ، وكذلك كل فعل باطل بوجه من وجوه البطلان إذا تشبه بالحق وحلّ بذلك محلّ الفعل الحق ، والقول الباطل إذا وضع موضع القول الحق كالخيانة موضع الأمانة والإساءة موضع الإحسان والمكر موضع النصح والكذب موضع الصدق فكل ذلك سيظهر أثرها ويقطع دابرها وإن اشتبه أمرها أياً ما ، وتلبس بلباس الصدق والحق أحياناً ، سنة الله التي جرت في خلقه ولن تجد لسنة الله تحويلاً ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

فالحق لا يموت ولا يتزلزل أثره ، وإن خفي على إدراك المدركين أو يفت ، والباطل لا يثبت ولا يبقى أثره ، وإن كان ربما اشتبه أمره وباله . قال تعالى : « ليحق الله الحق بكلماته ويبطل الباطل » الأنفال - ٨ ، ومن تحقيق الحق تثبيت أثره ، ومن إبطال الباطل ظهور فساده وانتزاع ما تلبس به من لباس الحق بالتشبه والتمويه وقال تعالى : « مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون » ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتمعت من فوق الأرض ما لها من قرار يثبت الله الذين آمنوا بالقول

الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضلّ الله الظالمين و يفعل الله ما يشاء ، إبراهيم  
 -٢٧- . وقد أطلق الظالمين فالله يضلّهم في شأنهم ، ولا شأن لهم إلا أنهم يريدون أنار الحقّ  
 من غير طريقها أعني : من طريق الباطل كما قال تعالى -حكاية عن يوسف- الصدّيق :  
 « قال كلاً إنّه ربّي أحسن مثواي إنّه لا يفلح الظالمون » يوسف -٢٣- . فالظالم لا يفلح  
 في ظلمه ، ولا أن ظلمه يهديه إلى ما يهتدي إليه المحسن بإحسانه و المتّقّي بتقواه . قال  
 تعالى : « والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين » العنكبوت -٦٩-  
 وقال تعالى : « والعاقبة للمتقوى » طه -١٣٢- .

والآيات القرآنيّة في هذه المعاني كثيرة على اختلافها في مضامينها المتفرّقة ، و  
 من أجمعها و أتمّها بياناً فيه قوله تعالى : « أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها  
 فاحتمل السيل زبداً رابياً و ممّا توقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك  
 يضرب الله الحقّ والباطل فأمّا الزبد فيذهب جفاً و أمّا ما ينفع الناس فيمكث في  
 الأرض كذلك يضرب الله الأمثال » الرعد -١٩- .

وقد مرّت الإشارة إلى أنّ العقل يؤيّدّه ، فإنّ ذلك لازم كليّة قانون العليّة  
 والمعلوليّة الجارية بين أجزاء العالم ، وأنّ التجربة القطعيّة الحاصلة من تكرّر الحسّ  
 تشهد به ، فما ممّا من أحد إلا وفي ذكره أخبار محفوظة من عاقبة أمر الظالمين وانقطاع  
 دابرهم .

قوله تعالى : أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية على عروشها ، الخاوية هي  
 الخالية ، يقال : خوت الدار تخوي خوائاً إذا خلت ، والعروش جمع العرش وهو ما يعمل  
 مثل السقف للكرم قائماً على أعمدة . قال تعالى : « جنّات معروشات وغير معروشات »  
 الأنعام - ١٦١ . ومن هنا أطلق على سقف البيت العرش ، لكنّ بينهما فرقاً ، فإنّ  
 السقف هو ما يقوم من السطح على الجدران والعرش هو السقف مع الأركان التي  
 يعتمد عليها كهيئة عرش الكرم ولذا صحّ أن يقال في الديار أنّها خالية على عروشها  
 ولا يصحّ أن يقال : خالية على سقفها .

وقد ذكر المفسّرون وجوهاً في توجيه العطف في قوله تعالى : أو كالذي اه : فقيل :

إنه عطف على قوله في الآية السابقة : الذي حاج إبراهيم اه والكاف اسمية ، والمعنى أو هل رأيت مثل الذي مر على قرية إلخ وقد جئ بهذا الكاف للتنبيه على تعدد الشواهد . وقيل : بل الكاف زائدة ، والمعنى : ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم أو الذي مر على قرية إلخ . وقيل : إنه عطف محمول على المعنى ، والمعنى : ألم تر كالذي حاج إبراهيم أو كالذي مر على قرية . وقيل : إنه من كلام إبراهيم جواباً عن دعوى الخصم أنه يحيي ويميت ، والتقدير : وإن كنت تحيي فأحيى كإحياء الذي مر على قرية إلخ فهذه وجوه ذكرها في الآية لتوجيه العطف لكن الجميع كما ترى .

وأظن - والله أعلم - أن العطف على المعنى كما مر في الوجه الثالث إلا أن التقدير غير التقدير . توضيحه : أن الله سبحانه لما ذكر قوله : الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات تحصل من ذلك : أنه يهدي المؤمنين إلى الحق ولا يهدي الكافر في كفره بل يضله أولياهم الذين اتخذهم من دون الله أولياء ، ثم ذكر لذلك شواهد ثلاث يبين بها أقسام هدايته تعالى ، وهي مراتب ثلاث مترتبة :

**أولها :** الهداية إلى الحق بالبرهان والاستدلال كما في قصة الذي حاج إبراهيم في ربه ، حيث هدى إبراهيم إلى حق القول ، ولم يهد الذي حاجه بل أهتته وأضله كفره ، وإنما لم يصرح بهداية إبراهيم بل وضع عمدة الكلام في أمر خصمه ليدل على فائدة جديدة يدل عليها قوله : والله لا يهدي القوم الظالمين .

**والثانية :** الهداية إلى الحق بالإقامة والإشهاد كما في قصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها فإنه يبين له ما أشكل عليه من أمر الإحياء بإماتته وإحيائه وسائر ما ذكره في الآية ، كل ذلك بالإقامة والإشهاد .

**الثالثة :** الهداية إلى الحق وبيان الواقعة بإشهاد الحقيقة والعلة التي تترشح منه الحادثة ، وبعبارة أخرى بإقامة السبب والمسبب معاً ، وهذا أقوى مراتب الهداية والبيان وأعلاها وأسنها كما أن من كان لم ير الجبن مثلاً ارتاب في أمره تراح شبهته تارة بالاستشهاد بمن شاهدته وأكل منه وذاق طعمه . وتارة بإدراكه قطعة من الجبن

وإذا قته طعمه وتارة بإحضار الحليب وعصارة الإنفحة وخلط مقدار منها به حتى يجمد ثم إذا قته شيئاً منه وهي أنقى المراتب للشبهة .

إذا عرفت ما ذكرناه علمت أن المقام في الآيات الثلاث - وهو مقام الاستشهاد - يصح فيه جميع السياقات الثلاث في إلقاء المراد إلى المخاطب بأن يقال : إن الله يهدي المؤمنين إلى الحق : ألم تر إلى قصة إبراهيم ونمرود ، وألم تر إلى قصة النبي مر على قرية ، وألم تر إلى قصة إبراهيم والطير ، أو يقال : إن الله يهدي المؤمنين إلى الحق : إما كما هدى إبراهيم في قصة المحاجة وهي نوع من الهداية ، أو كالنبي مر على قرية وهي نوع آخر ، أو كما في قصة إبراهيم والطير وهي نوع آخر ، أو يقال : إن الله يهدي المؤمنين إلى الحق وأذكرك ما يشهد بذلك فذكر قصة المحاجة ، واذكر النبي مر على قرية ، واذكر إقبال إبراهيم رب أدني .

فهذا ما يقبله الآيات الثلاث من السياق بحسب المقام ، غير أن الله سبحانه أخذ بالتفني في البيان وخص كل واحدة من الآيات الثلاث بواحد من السياقات الثلاث تنشيطاً لذهن المخاطب واستيفاءً لجميع الفوائد السياقية الممكنة الاستيفاء .

ومن هنا يظهر : أن قوله تعالى : أو كالنبي مر على معطوف على مقدر يدل عليه الآية السابقة ، والتقدير : إما كالنبي حاج إبراهيم أو كالنبي مر على قرية . ويظهر أيضاً أن قوله في الآية التالية : وإذ قال إبراهيم اه معطوف على مقدر مدلول عليه بالآية السابقة والتقدير : اذكر قصة المحاجة وقصة النبي مر على قرية ، واذكر إقبال إبراهيم رب أدني إلح .

وقد أبهم الله سبحانه اسم هذا النبي مر على قرية واسم القرية والقوم الذين كانوا يسكنونها ، والقوم الذين بعث هذا المار آية لهم كما يدل عليه قوله ولنجعلك آية للناس ، مع أن الأنسب في مقام الاستشهاد بالإشارة إلى أسمائهم ليكون أنقى للشبهة .

لكن الآية وهي الإحياء بعد الموت وكذا أمر الهداية بهذا النحو من الصنع لما

كانت أمراً عظيماً ، وقد وقعت موقع الاستبعاد والاستعظام ، كان مقتضى البلاغة أن يعبر عنها المتكلم الحكيم التقدير بلحن الاستهانة والاستصغار لكسر سورة استبعاد المخاطب والسامعين كما أنّ العظماء يتكلمون عن عظماء الرجال وعظائم الأمور بالتصغير والتهوين تعظيماً لمقام أنفسهم ، ولذلك أتبعهم في الآية كثير من جهات القصة ممّا لا يتقوّم به أصلها ليدلّ على هو ان أمرها على الله ، ولذلك أيضاً أتبعهم خصم إبراهيم في الآية السابقة وأتبعهم جهات القصة من أسماء الطيور وأسماء الجبال وعدد الأجزاء وغيرها في الآية اللاحقة .

وأما التصريح باسم إبراهيم عليه السلام فإنّ للقرآن عناية تشريف به عليه السلام . قال تعالى : « وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه » الأنعام - ٨٣ وقال تعالى : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » الأنعام - ٧٥ ففي ذكره عليه السلام بالاسم عناية خاصة .

ولما ذكرناه من النكتة ترى أنّه تعالى يذكر أمر الإحياء والإماتة في غالب الموارد من كلامه بما لا يخلو من الاستهانة والاستصغار . قال تعالى : « وهو الذي يبدئ الخلق ثمّ يعيده وهو أهون عليه وله المثل الأعلى في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » الروم - ٢٧ وقال تعالى : « قال ربّ أنّى يكون لي غلام - إلى قوله - : قال هو عليّ هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً » مريم - ٨ .

قوله تعالى : قال أنّى يحيي هذه الله اه أى أنّى يحيي الله أهل هذه القرية ففيه مجاز كما في قوله تعالى : « واسأل القرية » يوسف - ٨٢ .

وإنّما قال هذا القول استعظماً للأمر ولقدرة الله سبحانه من غير استبعاد يؤدّي إلى الإنكار أو ينشأ منه ، والدليل على ذلك قوله على ما حكى الله تعالى عنه في آخر القصة : أعلم أنّ الله على كلّ شيء قدير ولم يقل : الآن كما في ما يماثله من قوله تعالى حكاية عن امرأة العزيز : « الآن حصحص الحق » يوسف - ٥١ و سيجي توضيحه قريباً .

على أنّ الرجل نبيّ مكلم وآية مبعوثة إلى الناس والأنبياء معصومون حاشاهم

عن الشكّ والارتياب في البعث الذي هو أحد أصول الدين .

**قوله تعالى:** فأَمَاتَهُ اللهُ مائةَ عامٍ ثمَّ بعثه إياه ظاهره توقيفه بقبض روحه وإبقائه على هذا الحال مائةَ عامٍ ثمَّ إحيائه برّد روحه إليه .

وقد ذكر بعض المفسرين : أنَّ المراد بالموت هو الحال المسمّى عند الأطباء بالسُّبات ، وهو أن يفقد الموجود الحيّ الحسّ والشعور مع بقاء أصل الحيوة مدّة من الزمان ، أياً ما أو شهوراً أو سنين ، كما أنّه الظاهر من قصّة أصحاب الكهف ورقودهم ثلثمائة وتسع سنين ثمّ بعثهم عن الرقدة واحتجّاه تعالى به على البعث فالقصّة تشبه القصّة . قال : والذي وجد من موارد اتّفاقه لا يزيد سنين معدودة فسبات مائة سنة أمر غير مألوف و خارق للعادة لكنّ القادر على توفّي الإنسان بالسبات زمناً كهذه سنين قادر على إلقاء السبات مائة سنة ، ولا يشترط عندنا في التسليم بما تواتر به النصّ من آيات الله تعالى وأخذها على ظاهرها إلّا أن تكون من الممكنات دون المستحيلات . فقد احتجّ الله بهذا السبات ورجوع الحسّ والشعور إليه ثانياً بعد سلبه مائة سنة على إمكان رجوع الحيوة إلى الأموات بعد سلبها عنهم ألوفاً من السنين ، هذا ماخصّ ما ذكره . وليت شعري كيف يصحّ الحكم بكون الإماتة المذكورة في الآية من قبيل السبات من جهة كون قصّة أصحاب الكهف من قبيل السبات ( على تقدير تسليمه ) بمجرد شبهة ما بين القصّتين مع ظهور قوله تعالى : فأَمَاتَهُ اللهُ إياه في الموت والمعهود دون السبات الذي اختلقه للآية ؟ وهل هو إلّا قياس فيما لم يقل بالقياس فيه أحد ، وهو أمر الدلالة ؟ وإذا جاز أن يلقي الله على رجل سبات مائة سنة مع كونه خرقاً للعادة فليجزله إماتته مائة سنة ثمّ إحيائه ، فلا فرق عنده تعالى بين خارق وخارق إلّا أن هذا القائل يرى إحياء الموتى في الدنيا محالاً من غير دليل يدلّ عليه . وقد تأوّل لذلك أيضاً قوله تعالى في ذيل الآية : وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثمّ نكسوها لحماً إياه ، وسيجيء التعرّض له .

وبالجملة دلالة قوله تعالى : فأَمَاتَهُ اللهُ مائةَ عامٍ إياه من حيث ظهور اللفظ والنظر إلى قوله قبله : أنى يحيي هذه الله إياه وقوله بعده : فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنّه

وانظر إلى حمارك اه وقوله : وانظر إلى العظام اه ممّا لا ريب فيه .

**قوله تعالى :** قال كم لبثت قال لبثت يوماً أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام اه ، اللبث هو المكث وتريد الجواب بين اليوم وبعض اليوم يدلّ على اختلاف وقت إماتته وإحيائه كأوائل النهار وأواخره ، فحسب الموت والحيوة نوماً وانتبهاً ، ثم شاهد اختلاف وقتيهما فتردّد في تخلّل الليلة بين الوقتين وعدم تخلّلها فقال يوماً ( لو تخلّلت الليلة ) أو بعض يوم ( لو لم تتخلّل ) قال : بل لبثت مائة عام .

**قوله تعالى :** فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه إلى قوله لحماً ، سياق هذه الجمل في أمره عجيب فقد كرّر فيها قوله : انظر ثلث مرّات وكان الظاهر أن يكتفي بواحد منها ، وذكر فيها أمر الطعام والشراب والحمار والظاهر السابق إلى الذهن أنّه لم يكن إلى ذكرها حاجة ، وجيء بقوله : ولنجعلك متخلّلاً في الكلام وكان الظاهر أن يتأخّر عن جملة : وانظر إلى العظام . على أن بيان ما استعظمه هذا المارّ بالقربية - وهو إحياء الموتى بعد طول المدّة وعروض كلّ تغير عليها - قد حصل بإحيائه نفسه بعد الموت فما الموجب لأن يؤمر ثانياً بالنظر إلى العظام ؛ لكنّ التدبّر في أطراف الآية الشريفة يوضح خصوصيات القصّة إيضاحاً ينحلّ به العقدة و تنجلي به الشبهة المذكورة .

### ﴿القصّة﴾

التدبّر في الآية يعطي أنّ الرجل كان من صالحى عباد الله ، عالماً بمقام ربّه ، مراقباً لأمره ، بل نبياً مكلفاً فإنّ ظاهر قوله : أعلم أنّ الله اه أنّه بعد تبيّن الأمر له رجع إلى ما لم يزل يعلمه من قدرة الله المطلقة . وظاهر قوله تعالى : ثمّ بعثه قال كم لبثت اه أنّه كان مأنوساً بالوحي والتكليم ، وأنّ هذا لم يكن أوّل وحي يوحى إليه وإلا كان حقّ الكلام أن يقال : فلمّا بعثه قال إنيخ أو ما يشبهه كقوله تعالى في موسى عليه السلام : « فلمّا أتيتها نودي يا موسى إني أنا ربّك » طه - ١١ وقوله تعالى فيه أيضاً : فلمّا أتيتها نودي من شاطئ الوادي الأيمن » القصص - ٣٠ .

وكيف كان فقد كان عليه السلام خرج من داره قاصداً مكاناً بعيداً عن قريته التي كان بها ، والدليل عليه خروجه مع حمار يركبه ، وحمله طعاماً وشراباً يتغذى بهما ، فلمّا سار إلى ما كان يقصده مرّ بالقرية التي ذكر الله تعالى أنّها كانت خاوية على عروشها ، ولم يكن قاصداً نفس القرية ، وإنّما مرّ بها مروراً ثمّ وقف معتبراً بما يشاهده من أمر القرية الخربة التي كان قد أيد أهلها وشملتهم نازلة الموت وعظامهم الرميّة بمرمئ ومنظر منه عليه السلام ، فإنّه يشير إلى الموتى بقوله : أنّى يحيي هذه الله اه ولو كان مراده بذلك عمران نفس القرية بعد خرابها والإشارة إلى نفس القرية لكان حقّ الكلام أن يقال : أنّى يعمر هذه الله . على أنّ القرية الخربة ليس من المتروّكّب عمرانها بعد خرابها ، ولا أنّ عمرانها بعد الخراب ممّا يستعظم عادة . ولو كانت الأموات المشار إليهم مقبورين وقد اعتبر بمقابرهم لكان من اللازم ذكره والصفح عن ذكر نفس القرية على ما يليق بأبلغ الكلام .

ثمّ إنّّه تعمّق في الاعتبار فهاله ما شاهده منها فاستعظم طول مدّة مكثها مع ما يصاحبه من تحوّلها من حال إلى حال ، وتطوّرّها من صورة إلى صورة بحيث يصير الأصل نسياً منسياً ، وعند ذلك قال : أنّى يحيي هذه الله اه وقد كان هذا الكلام ينحلّ إلى جهتين : « أحدهما : استعظام طول المدّة والإحياء مع ذلك . » والثانية : استعظام رجوع الأجزاء إلى صورتها الأولى الفانية بعد عروض هذه التغيّرات الغير الملحّصة ، فيسأل الله له الأمر من الجهتين جميعاً : أمّا من الجهة الأولى فبإيمانه ثمّ إحيائه وسؤاله وأمّا من الجهة الثانية فبإحياء العظام بمنظر ومرمئ منه .

فأمّاته الله مائة عام ثمّ بعثه ، وقد كان الإمّاتة والإحياء في وقتين مختلفين من النهار كما مرّ ذكره ، قال كم لبثت ، قال لبثت يوماً أو بعض يوم نظراً إلى اختلاف الوقتين ، وقد كان موته في الطرف المقدّم من النهار وبعثه في الطرف المؤخّر منه ولو كان بالعكس من ذلك لقال : لبثت يوماً من غير تردّد ، فردّ الله سبحانه عليه وقال : بل لبثت مائة عام ، فرأى من نفسه أنّه شاهد مائة سنة كيوم أو بعض يوم ، فكان فيه جواب ما استعظمه من طول المكث .

ثم استشهد تعالى على قوله : بل لبثت مائة عام بقوله : فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه وانظر إلى حمارك ! وذلك : أن قوله : لبثت يوماً أو بعض يوم يدل على أنه لم يحس بشيء من طول المدة وقصره ، وإنما استدل على ما ذكره بما شاهد من حال النهار من شمس أو ظل ونحوهما ، فلمّا أُجيب بقوله تعالى : بل لبثت مائة عام كان الجواب في مظنة أن يرتاب فيه من جهة ما كان يشاهد نفسه ولم يتغيّر شيء من هيئة بدنه ، والإِنسان إذا مات ومضى عليه مائة سنة على طولها تغيّر لا محالة بدنه عما هو عليه من النظارة والطراوة وكان تراباً وعظاماً رميّة ، فدفع الله تعالى هذا الذي يمكن أن يخطر بباله بأمره أن ينظر إلى طعامه وشرابه لم يتغيّر شيء منهما عما كان عليه ، وأن ينظر إلى الحمار وقد صار عظاماً رميّة ، فعال الحمار يدل على طول مدة المكث وحال الطعام والشراب يدل على إمكان أن يبقى طول هذه المدة على حال واحد من غير أن يتغيّر شيء من هيئته عما هي عليه .

ومن هنا يظهر أن الحمار أيضاً قد أُميت وكان رميماً وكأنّ السكوت عن ذكر إمامته معه لما عليه القرآن من الأدب البارع .

وبالجملة تمّ عند ذلك البيان الإلهي : أن استعظامه طول المدة قد كان في غير محله حيث أخذ الله منه الاعتراف بأن مائة سنة - مدة لبثه - كيوم أو بعض يوم كما يأخذ اعتراف أهل الجمع يوم القيمة بمثل ما اعترف به ، فيبين له أن تخلّل الزمان بين الإماتة والإحياء بالطول والقصر لا يؤثر في قدرته الحاكمة على كل شيء ، فليست قدرة مادّية زمنية حتّى يتخلّف حالها بعروض تغيّرات أقل أو أزيد على المحل ، فيكون إحياء الموتى القديمة أصعب عليه من إحياء الموتى الجديدة ، بل البعيد عنده كالقريب من غير فرق كما قال تعالى : « إنهم يرونه بعيداً ونريه قريباً » المعارج - ٦ وقال تعالى : « وما أمر الساعة إلا كلمح البصر » النحل - ٧٧ .

ثم قال تعالى : ولنجعلك آية للناس ، عطف الغاية يدل على أن هناك غيرها من الغايات ، والمعنى أننا فعلنا بك ما فعلنا لنبيّن لك كذا وكذا ولنجعلك آية للناس فيبين أن الغرض الإلهي لم يكن في ذلك منحصرّاً في بيان الأمر له نفسه بل هناك

غاية أخرى وهي جعله آية للناس . فالغرض من قوله : وانظر إلى العظام إلخ بيان الأمر له فقط، ومن إمامته وإحيائه بيان الأمر له وجعله آية للناس، ولذلك قدّم قوله : ولنجعلك إلخ على قوله : وانظر إلى العظام إلخ .

ومما يبيننا يظهر وجه تكرار قوله انظر اه ثلث مرّات في الآية، فلكل واحد من الموارد الثلاث غرض خاصّ به لا يشاركه فيه غيره .

وكان في إمامته وإحيائه وبيان ذلك له بيان ما يجده الميت من نفسه إذا أحياه الله ليوم البعث كما قال تعالى : ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون « الروم - ٥٦ .

ثم يبين الله له الجهة الثانية التي يشتمل عليه قوله : أنسى يحيي هذه الله وهو : أنه كيف يعود الأجزاء إلى صورتها بعد كل هذه التغيّرات والتحوّلات الطارئة عليها واستلقت نظره إلى العظام فقال : وانظر إلى العظام كيف ننشزها والانشاز الإنباء، و ظاهر الآية أن المراد بالعظام عظام الحمار إذ لو كانت عظام أهل القرية لم تكن الآية منحصرة فيه كما هو ظاهر قوله : ولنجعلك آية بل شاركه فيه الموتى الذين أحياهم الله تعالى !

ومن الغريب ما ذكره بعض المفسّرين أن المراد بالعظام العظام التي في الأبدان الحيّة فإنّها في نمائها واكتسائها باللحم من آيات البعث ، فإنّ الذي أعطاهم الرشد والنماء بالحياة لمحيي الموتى إنّّه على كل شيء قدير ، وقد احتجّ الله على البعث بمثلها وهو الأرض الميتة التي يحييها الله بالإنبات ، هذا كما ترى تكلف من غير موجب . وقد تبيّن من جميع ما مرّ أن جميع ما تشتمل عليه الآية من قوله : فأما الله إلى آخر الآية جواب واحد غير مكرّر لقوله : أنسى يحيي هذه الله .

قوله تعالى : فلمّا تبيّن له قال أعلم أنّ الله على كل شيء قدير اه رجوع منه بعد التبيّن إلى علمه الذي كان معه قبل التبيّن ، كأنّه **يَعْلَمُ** ملأً خطر بباله الخاطر الذي ذكره بقوله : أنسى يحيي هذه الله أقنع نفسه بما عنده من العلم بالقدرة المطلقة

ثم لما بين الله له الأمر ببيان إشهد وعيان رجع إلى نفسه وصدق ما اعتمد عليه من العلم ، وقال لم تزل تنصح لي ولا تخونني في هدايتك وتقويمك وليس ما لا تزال نفسي تعتمد عليه من كون القدرة مطلقة جهلاً ، بل علم يليق بالاعتماد عليه .

وهذا أمر كثير النظائر فكثيراً ما يكون للإنسان علم بشيء ثم يخطر بباله ويهجم في نفسه خاطر ينافيه ، لا للشك وبطلان العلم ، بل لأسباب وعوامل أخرى فيقنع نفسه حتى تنكشف الشبهة ثم يعود فيقول أعلم أن كذا كذا وليس كذا كذا فيقرر بذلك علمه ويطيّب نفسه !

وليس معنى الكلام : أنه لما تبين له الأمر حصل له العلم وقد كان شاكاً قبل ذلك فقال أعلم إلخ كما مرّت الإشارة إليه لأن الرجل كان نبيّاً مكلفاً وساحة الأنبياء منزّه عن الجهل بالله وخاصة في مثل صفة القدرة التي هي من صفات الذات أولاً . ولأن حق الكلام حينئذ أن يقال : علمت أو ما يؤدّي معناه ثانياً . ولأن حصول العلم بتعلّق القدرة بإحياء الموتى لا يوجب حصول العلم بتعلّقها بكل شيء ، وقد قال : أعلم أن الله بكل شيء قدير ، نعم ربّما يحصل الحدس بذلك في بعض النفوس كمن يستعظم أمر الإحياء في القدرة فإذا شاهدّها له ما شاهده وذهلت نفسه عن سائر الأمور فحكم بأن الذي يحيي الموتى يقدر على كل ما يريد أو أريد منه ، لكنّه اعتقاد حدسي معلول الروح والاستعظام النفسانيّين المذكورين ، يزول بزوالهما ولا يوجد لمن لم يشاهد ذلك ، وعلى أي حال لا يستحقّ التعويل والاعتماد عليه ، وحاشا أن يعدّ الكلام الإلهي مثل هذا الاعتقاد والقول نتيجة حسنة ممدوحة لبيان إلهي كما هو ظاهر قوله تعالى بعد سرد القصّة : فلمّا تبين له قال : أعلم أن الله على كل شيء قدير . على أنّه خطأ في القول لا يليق بساحة الأنبياء ثالثاً .

قوله تعالى : وإذ قال إبراهيم ربّ أرني كيف تحيي الموتى اه ، قد مرّ أنّه معطوف على مقدّر والتقدير : واذكر إذ قال إلخ وهو العامل في الظرف . وقد احتمل بعضهم أن يكون عامل الظرف هو قوله : قال أولم تؤمن اه وترتيب الكلام : وقال أولم تؤمن إذ قال إبراهيم ربّ أرني إلخ وليس بشيء .

وفي قوله : أرني كيف تحيي الموتى اه دلالة :

اولاً على أنه عليه السلام إنما سأل الرؤية دون البيان الاستدلالي ، فإن الأنبياء وخاصة مثل النبي الجليل إبراهيم الخليل أرفع قدراً من أن يعتقد البعث ولا حجة له عليه ، والاعتقاد النظري من غير حجة عليه إما اعتقاد تقليدي أو ناش عن اختلال فكري وشييء منهما لا ينطبق على إبراهيم عليه السلام . على أنه ﷺ إنما سأل ما سأل بلفظ كيف ، وإنما يستفهم بكيف عن خصوصية وجود الشيء لا عن أصل وجوده فانك إذا قلت : رأيت زيداً كان معناه السؤال عن تحقق أصل الرؤية ، وإذا قلت : كيف رأيت زيداً كان أصل الرؤية مفروغاً عنه وإنما السؤال عن خصوصيات الرؤية . فظهر أنه ﷺ إنما سأل البيان بالإقامة والإشهاد لا بالاحتجاج والاستدلال .

وثانياً : على أن إبراهيم ﷺ إنما سأل أن يشاهد كيفية الإحياء لا أصل الإحياء كما أنه ظاهر قوله : كيف تحيي الموتى . وهذا السؤال متصور على وجهين :

**الوجه الاول :** أن يكون سؤالاً عن كيفية قبول الأجزاء المادية الحياة ، وتجمعها بعد التفرق والتبدد ، وتصورها بصورة الحى ، ويرجع محصله إلى تعلق القدرة بالإحياء بعد الموت والفناء

**الوجه الثانى :** أن يكون عن كيفية إفاضة الله الحياة على الأموات وفعله بأجزائها الذى به تلبس الحياة ، ويرجع محصله إلى السؤال عن السبب وكيفية تأثيره . وهذا بوجه هو الذى يسميه الله سبحانه بملكوت الأشياء في قوله عز من قائل : « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء » . يس - ٨٣ .

وإنما سأل إبراهيم ﷺ عن الكيفية بالمعنى الثانى دون المعنى الأول : أما أولاً : فلا أنه قال : كيف تحيي الموتى اه بضم التاء من الإحياء فسأل عن كيفية الإحياء الذى هو فعل ناعت لله تعالى وهو سبب حياة الحى بأمره ، ولم يقل : كيف تحيي الموتى اه بفتح التاء من الحياة حتى يكون سؤالاً عن كيفية تجمع الأجزاء وعودها إلى صورتها الأولى وقبولها الحياة ، ولو كان السؤال عن الكيفية بالمعنى الثانى لكان من الواجب

أن يرد على الصورة الثانية . وأما ثانيا : فلا نته لو كان سؤاله عن كيفية قبول الأجزاء للحياة لم يكن لأجزاء الأمر بيد إبراهيم وجه ، ولكفى في ذلك أن يريد الله إحياء شيء من الحيوان بعد موته . وأما ثالثا : فلا نته كان اللازم على ذلك أن يختم الكلام بمثل أن يقال : واعلم أن الله على كل شيء قدير لا بقوله : واعلم أن الله عزيز حكيم اه على ما هو المعهود من دأب القرآن الكريم فإن المناسب للسؤال المذكور هو صفة القدرة دون صفتي العزة والحكمة فإن العزة والحكمة - وهما وجدان الذات كل ما تفقده وتستحقه الأشياء وإحكامه في أمره - إنما ترتبطان بإفاسة الحياة لا استفاضة المادة لها فافهم ذلك .

ومما ذكرنا يظهر فساد ما ذكره بعض المفسرين : أن إبراهيم عليه السلام إنما سأل بقوله : رب أرني حصول العلم بكيفية حصول الإحياء دون مشاهدة كيفية الإحياء ، وأن الذي أوجب به في الآية لا يدل على أزيد من ذلك . قال : ما محصله : أنه ليس في الكلام ما يدل على أن الله سبحانه أمره بالإحياء ، ولا أن إبراهيم عليه السلام فعل ما أمره به ، فما كل أمر يقصد به الامتثال ، فإن من الخبر ما يأتي بصورة الإنيشاء كما إذا سألك سائل كيف يصنع العبر مثلاً ؟ فتقول : خذ كذا وكذا وافعل به كذا وكذا يكن خبراً تريد أن هذه كيفة ، ولا تريد به أن تأمره أن يصنع العبر بالفعل .

قال : وفي القرآن شيء كثير مما ورد فيه الخبر في صورة الأمر ، والكلام ههنا مثل لإحياء الموتى . ومعناه خذ أربعة من الطير فضمها إليك وأنسها بك حتى تأنس وتصير بحيث تجيب دعوتك إذا دعوتها ، فإن الطيور من أشد الحيوان استعداداً لذلك ، ثم اجعل كل واحد منها على جبل ثم ادعها فإنها تسرع إليك من غير أن يمنعها تفرق أمكنتها وبعدها ، كذلك أمر ربك إذا أراد إحياء الموتى يدعوهم بكلمة التكوين : كونوا أحياء ؛ فيكونون أحياء كما كان شأنه في بدء الخلقة ، ذلك إذ قال للسموات والأرض ائنيا طوعاً أو كرهاً قالتا : أئينا طامعين .

قال : والدليل على ذلك من الآية قوله تعالى : فصرهنَّ اه فإن معناه أملهنَّ أى أوجد ميلها إليك وأنسها بك ، ويشهد به تعديته بالي فإن صار إذا تعدى بالي

كان بمعنى الإيمالة ، وما ذكره المفسرون من كونه بمعنى التقطيع أى قطعهم أجزاءً بعد الذبح لياساعد عليه تعديته بإلى . وأما ما قيل : إن قوله : إليك متعلق بقوله : فخذ دون قوله : فصرهن والمعنى : خذ إليك أربعة من الطير فقطعهم فخلاف ظاهر الكلام

وثانياً : أن الظاهر : أن ضمائر فصرهن ومنهن وادعهن ويأتينك جميعاً راجعة إلى الطير ، ويلزم على قولهم : أن المراد تقطيعها وتفريق أجزائها ، ووضع كل جزء منها على جبل ثم دعوتهم أن يفرق بين الضمائر فيعود الأولان إلى الطيور ، والثالث والرابع إلى الأجزاء وهو خلاف الظاهر .

وأضاف إلى ذلك بعض من وافقه في معنى الآية وجوهاً أخرى نتبعها بها .  
وثالثاً : أن إراءة كَيْفِيَّةِ الخَلْقَةِ إن كان بمعنى مشاهدة كَيْفِيَّةِ تَجَمُّعِ أجزائها وتغيّر صورها إلى الصورة الأولى الحيّة فهي ما لا نحصل على ما ذكره من تقطيعه الأجزاء ومزجه إياها ووضعها على جبل بعيد جزئاً منها فكيف يتصور عليها مشاهدة ما يعرض ذرات الأجزاء من الحركات المختلفة والتغيرات المتنوعة ، وإن كان المراد إراءة كَيْفِيَّةِ الأحياء بمعنى الإحاطة على كنه كلمة التكوين التي هي الإرادة الإلهية المتعلقة بوجود الشيء ، وحقيقة نطقها بالأشياء فظاهر القرآن وهو ما عليه المسلمون أن هذا غير ممكن للبشر ، فصفاة الله منزّهة عن الكيفية .

ورابعاً : أن قوله : ثم اجعلاه يدل على التراخي الذي هو المناسب لمعنى التأنيس وكذلك قوله : فصرهن بخلاف ما ذكره من معنى الذبح والتقطيع .

وخامساً : أنه لو كان كما يقولون لكان الأنسب هو ختم الآية باسم التقدير دون الاسمين : العزيز الحكيم فإن العزيز هو الغالب الذي لا ينال . هذا ما ذكره .

و أنت بالتأمل في ما قدّمناه من البيان تعرف سقوط ما ذكره ، فإن اشتمال الآية على السؤال بلفظ أرني وقوله : كيف تحيي وإجراء الأمر بيد إبراهيم على مامر بيانها كل ذلك ينا في هذا المعنى . على أن الجزء في قوله تعالى : ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ظاهره جزء الطير لا واحد من الطيور .

و أما الوجوه التي ذكرها فالجواب عن الأول : أن معنى صرهن قطعهن ، وتعديته بالي لمكان تضمنه معنى الإمالة كما في قوله تعالى : « الرفت إلى نساءكم » البقرة - ١٨٧ ، حيث ضمن معنى الإفضاء .

وعن الثاني : أن جميع الضمائر الأربع راجعة إلى الطيور ، والوجه في رجوع ضمير ادعهن وبأيتنك إليهما مع أنها غير موجودة بأجزائها وصورها بل هي موجودة بأجزائها فقط هو الوجه في رجوع الضمير إلى السماء مع عدم وجودها إلا بمادتها في قوله تعالى : « ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين » فصلت - ١١ وقوله تعالى : إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن ، يس - ٨٢ . حقيقة الأمر : أن الخطاب اللفظي فرع وجود المخاطب قبل الخطاب ؛ وأما الخطاب التكويني فالأمر فيه بالعكس ، والمخاطب فيه فرع الخطاب ، فإن الخطاب فيه هو الإيجاد ومن المعلوم أن الوجود فرع الإيجاد ، كما يشير إليه قوله تعالى : أن نقول له كن فيكون الآية فقوله فيكون إشارة إلى وجود الشيء المتفرع على قوله كن وهو خطاب الأمر .

وعن الثالث : أننا نختار الشق الثاني وأن السؤال إنما هو عن كيفية فعل الله سبحانه وإحيائه لا عن كيفية قبول المادة وحيوتها ، وقوله : إن البشر لا يمكنه أن ينال كنه الإرادة الإلهية التي هي من صفاته كما يدل ظاهر القرآن وعليه المسلمون اه . قلنا : إن الإرادة من صفات الفعل المنتزعة منه كالخلق والإحياء ونحوهما ، والذي لا سبيل إليه هو الذات المتعالية كما قال تعالى : « ولا يحيطون به علماً » ط - ١١٠ .

فالإرادة منتزعة من الفعل ، وهو الإيجاد المتحد مع وجود الشيء ، وهو كلمة كن في قوله تعالى : أن نقول له كن فيكون ، وقد ذكر الله في تالي الآية أن هذه الكلمة - كلمة كن - هي ملكوت كل شيء ، إذ قال : فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء الآية ، وقد ذكر الله تعالى أنه أرى إبراهيم ملكوت خلقه إذ قال : « وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين » الأنعام - ٧٥ . ومن الملكوت إحياء الطيور المذكورة في الآية .

ومنشأ هذه الشبهة ونظائرها من هؤلاء الباحثين أنهم يظنون أن دعوة إبراهيم

اللطيف في إحيائها، وقول عيسى عليه السلام طيبت عند إحيائه : قم بإذن الله و جريان الريح بأمر سليمان وغيرها مما يشتمل عليه الكتاب والسنة إنما هو لأثر وضعه الله تعالى في ألفاظهم المؤلفة من حروف الهجاء، أوفي إدراكهم التخيلي الذي تدل عليه ألفاظهم نظير النسبة التي بين أفاضنا العادية ومعانيها وقد خفي عليهم أن ذلك إنما هو عن اتصال باطني بقوة إلهية غير مغلوبة وقدرة غير متناهية هي المؤثرة الفاعلة بالحقيقة .

وعن الرابع : أن التراخي المدلول عليه بقوله : ثم كما يناسب معنى التربية والتأنيس كما ذكره يناسب معنى التقطيع وتفريق الأجزاء ووضعها على الجبال كما هو ظاهر . وعن الخامس : أن الإشكال مقلوب عليهم فإن الذي ذكره هو أن الله إنما يسن كيفية الإحياء لإبراهيم بالبيان العلمي النظري دون الشهودي ، فيرد عليهم أن المناسب حينئذ ختم الآية بصفة القدرة دون العزة والحكمة، وقد عرفت مما قد منا أن الأنسب على ما بيناه من معنى الآية هو الختم بالاسمين : العزيز الحكيم كما في الآية . ويظهر مما ذكرنا أيضاً فساد ما ذكره بعض آخر من المفسرين : أن المراد بالسؤال في الآية إنما هو السؤال عن إسهاد كيفية الإحياء بمعنى كيفية قبول الأجزاء صورة الحياة .

قال : ما محصله : أن السؤال لم يكن في أمر ديني - والعياذ بالله - ولكنه سؤال عن كيفية الإحياء ليعلم علماً بها ، وكيفية الإحياء لا يشترط في الإيمان الإحاطة بصورتها فأبراهيم عليه السلام طلب علم ما يتوقف الإيمان على علمه ، ويدل على ذلك ورود السؤال بصيغة كيف ، و موضوعها السؤال عن الحال ، ونظير هذا أن يقول القائل : كيف يحكم زيد في الناس ، فهو لا يشك أنه يحكم فيهم ، ولكنه سأل عن كيفية حكمه المعلوم ثبوته ، ولو كان سائلاً عن ثبوت ذلك لقال : أيعلم زيد في الناس ، وإنما جاء التقرير أعني قوله أولم تؤمن به بعده لأن تلك الصيغة وإن كانت تستعمل ظاهراً في السؤال عن الكيفية كما علمت إلا أنها قد تستعمل أيضاً في الاستعجاز كما إذا دعى مدع : أنه يحمل ثقلاً من الأثقال وأنت تعلم بمعجزه عن حمله فتقول له : أرني كيف تحمل هذا تريد أنك

عاجز عن حمله ، والله سبحانه لمّا علم براءة إبراهيم عليه السلام عن الحوم حول هذا الحمى أن ينطقه في الجواب بما يدفع عنه ذلك الاحتمال اللفظي في العبارة الأولى لكون إيمانه مخلصاً بعبارة تنصّ عليه بحيث يفهمها كل من سمعها فهماً لا يتخالجه فيه شك ، ومعنى الطمأنينة حينئذ سكون القلب عن الجولان في كيفيات الإحياء المحتملة بظهور التصوير للمشاهد ، وعدم حصول هذه الطمأنينة قبل لا ينافي حصول الإيمان بالقدرة على الإحياء على أكمل الوجوه ، ورؤية الكيفية لم يزد في إيمانه المطلوب منه شيئاً ، وإنّما أفادت أمراً لا يجب الإيمان به .

ثمّ قال بعد كلام له طويل : إنّ الآية تدلّ على فضل إبراهيم عليه السلام حيث أراه الله سبحانه مأسأله في الحال على أيسر ما يكون من الوجوه ، وأرى عزيزاً ما أراه بعد ما أماته مائة عام .

وأنت بالتدبّر في الآية والتأمّل فيما قدّمناه من البيان تعرف سقوط ما ذكره فإنّ السؤال إنّما وقع عن كيفية إحيائه تعالى لاعن كيفية قبول الأجزاء الحيوة ثانياً فقد قيل : كيف يحييها بضمّ التاء لافتحها ، على أنّ إجراء الأمر على يد إبراهيم عليه السلام يدلّ على ذلك ولو كان السؤال عن كيفية القبول الكفّي في ذلك إراءة شيء من الموتى يحييه الله كما في قصة المارّة على القرية الخاوية في الآية السابقة حيث قال تعالى : وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثمّ نكسوها لحماً أم لم تكن حاجة إلى إجراء الإحياء على يد إبراهيم عليه السلام ، وهذا هو الذي أشرنا إليه آنفاً : أنّهم يقيسون نفوس الأنبياء في تلقّيهم المعارف الإلهية ومصدريّتهم للأموور الخارقة بنفوسهم العادية فينتج ذلك مثلاً : أن لافرق بين تكون الحيوة بيد إبراهيم وتكوّنه في الخارج بالنسبة إلى حال إبراهيم ، وهذا أمر لا يخطر على بال الباحث عن الحقائق الخبير بها ، لكن هؤلاء لا همالمهم أمر الحقائق وقعوا فيما وقعوا فيه من الفساد ، وكلّما أمعنوا في البحث زادوا بعداً عن الحق . ألا ترى أنّه فسّر الطمأنينة بارتفاع الخطورات في الصور المحتملة في التكوّن والأشكال المتصورة مع أنّ هذا التردّد الفكري من اللغو الذي لا سبيل له إلى ساحة مثل إبراهيم عليه السلام . مع أنّ الجواب المنقول في الآية لم يأت في ذلك بشيء فإنّ إبراهيم عليه السلام قال : كيف

تحيي الموتى ؛ فأطلق الموتى وهو يريد موتى الإنسان أو الأعم منه ومن غيره والله سبحانه ما أراه إلا تكون الحيوة في أربعة من الطير :

ثم ذكر فضل إبراهيم عليه السلام على عزيز (يريد به صاحب القصة في الآية السابقة) بما ذكر فأخذ القصة في الآيتين من نوع واحد وهو السؤال عن الكيفية التي فسرها بما فسرها والجواب عنها ، فاختلط عليه معنى الآيتين جميعاً ، مع أن الآيتين جميعاً - على ما فيها من غرر البيان و دقائق المعاني - أجنبيتان عن الكيفية بالمعنى الذي ذكره كل ذلك واضح بالرجوع إلى ما مرّ فيهما .

على أن المناسب لبيان الكيفية ختم الآية بصفة القدرة لاصفتي العزة والحكمة كما في قوله تعالى : « ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير » فصّلت - ٣٩ فالآية كماترى في مقام بيان الكيفية وقد ختمت بصفة القدرة المطلقة . و نظيره قوله تعالى « أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء شئىء قدير » الأحقاف ٣٢ . ففيه أيضاً بيان الكيفية بإراءة الأمثال ثم ختم الكلام بصفة القدرة .

**قوله تعالى :** قال : أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي اه ، بلى كلمة يردّ به النفي ولذلك ينقلب به النفي إثباتاً كقوله تعالى : « ألسنت برّبكم قالوا بلى » الأعراف - ١٧١ ، ولوقالوا نعم لكان كفراً . والطمأنينة والاطمينان سكون النفس بعد انزعاجها واضطرابها ، وهو مأخوذ من قولهم : اطمأنت الأرض وأرض مطمئنة إذا كانت فيه انخفاض يستقر فيها الماء إذا سال إليها والعجر إذا هبط إليها .

وقد قال تعالى : أولم تؤمن اه ولم يقل : ألم تؤمن للإشعار بأن السؤال والطلب محالاً لكنّه لا ينبغي أن يقارن عدم الإيمان بالآحياء : ولوقيل : ألم تؤمن دلّ على أن المتكلم تلقى السؤال منبعثاً عن عدم الإيمان ، فكان عتاباً وردعاً عن مثل هذا السؤال ، وذلك أن الواو للجمع ، فكان الاستفهام معه استفهاماً عن أن هذا السؤال هل يقارنه عدم الإيمان ، لاستفهاماً عن وجه السؤال حتى ينتج عتاباً وردعاً .

والإيمان مطلق في كلامه تعالى، وفيه دلالة على أن الإيمان بالله سبحانه لا يتحقق مع الشك في أمر الإحياء والبعث، ولا ينافي ذلك اختصاص المورد بالإحياء لأن المورد لا يوجب تخصيص عموم اللفظ ولا تقييد إطلاقه.

وكذا قوله تعالى حكاية عنه ﷺ : ليطمنن قلبي اه مطلق يدل على كون مطلوبه ﷺ من هذا السؤال حصول الاطمینان المطلق وقطع منابت كلّ خطور قلبي وأعراقه، فإن الوهم في إدراكاتها الجزئية وأحكامها لما كانت معتكفة على باب الحسّ وكان جلّ أحكامها وتصديقاتها في المدركات التي تلقاها من طريق الحواسّ فهي تنقبض عن مطاوعة ماصدقه العقل، وإن كانت النفس مؤمنة موقنة به، كما في الأحكام الكلية العقلية الحقّة من الأمور الخارجة عن المادة الغامبة عن الحسّ فإنّها تستنكف عن قبولها وإن سلّمت مقدّماتها المنتجة لها، فتخطر بالبال أحكاماً مناقضة لها، ثمّ تثير الأحوال النفسانية المناسبة لاستنكافها فتتقوى وتتأيد بذلك في تأثيرها المخالف، وإن كانت النفس من جهة عقلها موقنة بالحكم مؤمنة بالأمر فلا تضرّها إلّا أذى، كما أنّ من بات في دار مظلمة فيها جسد ميت فإنّه يعلم : أن الميت جماد من غير شعور وإرادة فلا يضر شيئاً، لكنّ الوهم تستنكف عن هذه النتيجة وتستدعي من المتخيلة أن تصوّر للنفس صوراً هائلة موحشة من أمر الميت ثمّ تهبّج صفة الخوف فتتسلط على النفس، وربما بلغ إلى حيث يزول العقل أو تفارق النفس .

فقد ظهر: أن وجود الخطورات المنافية للعقائد اليقينية لا ينافي الإيمان والتصديق دائماً، غير أنّها تؤدي النفس، وتسلب السكون والقرار منها، ولا يزول وجود هذه الخواطر إلّا بالحسّ أو المشاهدة، ولذلك قيل : إنّ المعاينة أثر لا يوجد مع العلم، وقد أخبر الله تعالى موسى في الميقات بضلال قومه بعبادة العجل فلم يوجب ذلك ظهور غضبه حتّى إذا جاء إليهم وشاهدتهم وعابن أمرهم غضب وألقى الألواح وأخذ برأس أخيه يجره إليه .

وقد ظهر من هنا ومما مرّ سابقاً أن إبراهيم عليه السلام ما كان يسأل المشاهدة بالحسّ الذي يتعلّق بقبول أجزاء الموتى الحية بعد فقدّها، بل إنّما كان يسأل مشاهدة فعل الله

سبحانه وأمره في إحياء الموتى ، وليس ذلك بمحسوس وإن كان لا ينفك عن الأمر المحسوس الذي هو قبول الأجزاء المادية للحياة بالاجتماع والتصور بصورة العي ، فهو عليه السلام إنما كان يسأل حق اليقين .

قوله تعالى : قال فخذ أربعة من الطير فصرهنَّ إليك ثم اجعل على كل جبل منهنَّ جزءاً ثم ادعهنَّ يأتينك سعيّاً . صرهنَّ بضم الصاد على إحدى القرائتين من صار يصور إذا قطع أو أمال ، أو بكسر الصاد على القراءة الأخرى من صار يصير بأحد المعنيين ، وقراءتي الكلام يدلّ على إرادة معنى القطع ، وتعديته بإلى تدلّ على تضمين معنى الإمالة . فالمعنى : اقطعنَّ ميلاً إليك أو أملهنَّ إليك قاطعاً إياهنَّ على الخلاف في التضمين من حيث التقدير .

وكيف كان فقوله تعالى : خذ أربعة من الطير إلخ جواب عن ما سأله إبراهيم عليه السلام بقوله : ربّ أرني كيف تحيي الموتى اه ، ومن المعلوم وجوب مطابقة الجواب للسؤال ، فبالغة الكلام وحكمة المتكلّم يمنعان عن اشتغال الكلام على ماهو لغو زائد لا يترتب على وجوده فائدة عامدة إلى الغرض المقصود من الكلام وخاصة القرآن الذي هو خير كلام ألقاه خير متكلّم إلى خير سامع واع ، وليست القصة على تلك البساطة التي تترآمي منها في بادي النظر ، ولو كان كذلك لثمّ الجواب بإحياء ميت ما كيف كان ، ولكان الزائد على ذلك لغواً مستغنى عنه وليس كذلك ، ولقد أخذ فيها قيود وخصوصيات زائدة على أصل المعنى ، فاعتبر في ما أريد إحياءه أن يكون طيراً ، وأن يكون حياً ، وأن يكون ذا عدد أربعة ، وأن يقتل ويخلط ويمزج أجزائها ، وأن يفرّق الأجزاء المختلطة أبعاضاً ثمّ يوضع كلّ بعض في مكان بعيد من الآخر كقلّة هذا الجبل وذاك الجبل ، وأن يكون الإحياء بيد إبراهيم عليه السلام ( نفس السائل ) بدعوته إياهنَّ ، وأن يجتمع الجميع عنده .

فهذه كما ترى خصوصيات زائدة في القصة ، هي لا محالة دخيلة في المعنى المقصود إفادته ، وقد ذكروا لها وجوهاً من النكات لا تزيد الباحث إلاّ عجباً ( يعلم صحة ما ذكرناه بالرجوع إلى مفصّلات التفاسير ) .

وكيف كان فهذه الخصوصيات لابد أن تكون مرتبطة بالسؤال ، والذي يوجد في السؤال - وهو قوله : ربّ أرني كيف تحيي الموتى - أمران .

أحدهما : ما اشتمل عليه قوله : تحيي وهو أن المسئول مشاهدة الإحياء من حيث أنه وصف لله سبحانه لا من حيث أنه وصف لأجزاء المادة الحاملة للحياة .

وثانيهما : ما اشتمل عليه لفظ الموتى من معنى الجمع فإنه خصوصية زائدة .  
أما الاول فيرتبط به في الجواب إجراء هذا الأمر يريد إبراهيم نفسه حيث يقول : فخذ ، فصرهنّ ، ثم اجعل ، بصيغة الأمر ويقول ثمّ ادعهنّ يأتيناك اه فإنه تعالى جعل اتيانهنّ سعياً وهو الحياة مرتبطاً متفرعاً على الدعوة ، فهذه الدعوة هي السبب الذي يفيض عنه حياة ما أريد إحيائه ، ولا إحياء إلا بأمر الله ، فدعوة إبراهيم إياهنّ بأمر الله ، قد كانت متصلة نحو اتصال بأمر الله الذي منه تترشح حياة الأحياء ، وعند ذلك شاهده إبراهيم ورأى كيفية فيضان الأمر بالحياة ، ولو كانت دعوة إبراهيم إياهنّ غير متصلة بأمر الله الذي هو أن يقول لشيء ، أراده : كن فيكون ، كمثل أقوالنا الغير المتصلة إلا بالتحيل كان هو أيضاً كمثلنا إذ قلنا لشيء ، كن فلا يكون ، فلا تأثير جزافي في الوجود .

وأما الثاني فقولته كيف تحيي الموتى تدلّ على أن لكثرة الأموات وتعددها دخلاً في السؤال ، وليس إلا أن الأجساد بموتها وتبدّد أجزائها وتغيّر صورها وتحول أحوالها تفقد حالة التمييز والارتباط الذي بينها فتضلّ في ظلمة الفناء والبوار ، وتضير كلاً لحديث المنسيه لا خبر عنها في خارج ولا ذهن ، فكيف تحيط بها القوة المحيية ولا محاط في الواقع .

وهذا هو الذي أورده فرعون على موسى عليه السلام وأجاب عنه موسى بالعلم كما حكاه الله تعالى بقوله : « قال فما بال القرون الأولى قال علمها عند ربّي في كتاب لا يضلّ ربّي ولا ينسى » طه - ٥١ .

وبالجملة فأجابه الله تعالى بأن أمره بأن يأخذ أربعة من الطير ( ولعلّ اختيار الطير لكون هذا العمل فيها أسهل وأقلّ زماناً ) فيشاهد حيوتها ويرى اختلاف أشخاصها وصورها ، ويعرفها معرفة تامّة أوّلاً ، ثمّ يقتلها ويخلط أجزائها خلطاً دقيقاً ثمّ يجعل

ذلك أبعاضاً ، وكلّ بعض منها على جبل لتفقد التمييز والتشخيص ، وتزول المعرفة ، ثم يدعوهنّ يأتينه سعيّاً ، فإنّه يشاهد حينئذ أنّ التمييز والتصور بصورة الحياة كلّ ذلك تابع للدعوة التي تتعلّق بأنفسها، أي إنّ أجسادها تابعة لأنفسها لا بالعكس ، فإنّ البدن فرع تابع للروح لا بالعكس ، بل نسبة البدن إلى الروح بوجه نسبة الظلّ إلى الشاخص ، فإذا وجد الشاخص تبع وجوده وجود الظلّ وإلى أيّ حال تحوّل الشاخص أو أجزائه تبعه فيه الظلّ حتّى إذا انعدم تبعه في الانعدام ؛ والله سبحانه إذا أوجد حيّاً من الأحياء ، أو أعاد الحياة إلى أجزاء مسبوقة بالحياة فإنّما يتعلّق بإيجاده بالروح الواحدة للحياة أو لا ثمّ يتبعه أجزاء المادة بروابط محفوظة عند الله سبحانه لا يحيط بها علماً فيتعيّن الجسد بتعيّن الروح من غير فصل ولا مانع . وبذلك يشعر قوله تعالى : ثمّ ادعهنّ يأتينك سعيّاً أي مسرعات مستعجلات .

وهذا هو الذي يستفاد من قوله تعالى : « وقالوا أإذا ضللتنا في الأرض أمّنتا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربّهم كافرون قل يتوفّاكم ملك الموت الذي وكلّ بكم ثمّ إلى ربّكم ترجعون » السجدة - ١١ . وقد مرّ بعض الكلام في الآية في البحث عن تجرّد النفس ، وسيأتي تفصيل الكلام في محله إنشاء الله .

فقوله تعالى : فخذ أربعة من الطير إنّما أمر بذلك ليعرفها فلا يشكّ فيها عند إعادة الحياة إليها ولا ينكرها ، ويرى ما هي عليه من الاختلاف والتمييز أو لا وزوالهما ثانياً . وقوله : فصرهنّ إليك ثمّ اجعل على كلّ جبل منهنّ جزءاً أي اذبحهنّ وبدّد أجزائهنّ واخلطها ثمّ فرقها على الجبال الموجودة هناك لتتباعداً لآجزاء وهي غير متمييزة . وهذا من الشواهد على أنّ القصّة إنّما وقعت بعد مهاجرة إبراهيم من أرض بابل إلى سورية فإنّ أرض بابل لا جبل بها . وقوله ثمّ ادعهنّ أي ادع الطيور يا طائوس ويا فلان ويا فلان ، ويمكن أن يستفاد ذلك مضافاً إلى دلالة ضمير «هنّ» الراجعة إلى الطيور من قوله : ادعهنّ أي فإنّ الدعوة لو كانت لأجزاء الطيور دون أنفسها كان الأنا نسب أن يقال : ثمّ نادهنّ فإنّها كانت على جبال بعيدة عن موقعه ﷺ واللفظ المستعمل في البعيد خاصّة هو النداء دون الدعاء . وقوله : يأتينك سعيّاً أي يتجسّدن واتّصفن

بالاتيان و الإسراع إليك .

قوله تعالى : واعلم أن الله عزيز حكيم اه أى عزيز لا يفقد شيئاً بزواله عنه ، حكيم لا يفعل شيئاً إلا من طريقه اللائق به ، فيوجد الأجساد باحضار الأرواح و إيجادها دون العكس .

وفي قوله تعالى: واعلم أن إلخ دون أن يقال : إن الله إلخ دلالة على أن الخطور القلبي الذي كان إبراهيم يسأل ربه المشاهدة ليطمئن قلبه من ناحيته كان راجعاً إلى حقيقة معنى الاسمين : العزيز الحكيم ، فأفاده الله سبحانه بهذا الجواب العلم بحقيقتهما .

### ( بحث روائي )

في الدر المنثور في قوله تعالى : ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه الآية أخرج الطيالسي وابن أبي حاتم عن علي بن أبي طالب قال : الذي حاج إبراهيم في ربه هو نمرود بن كنعان .

وفي تفسير البرهان : أبو علي الطبرسي قال : اختلف في وقت هذه المحاجة ف قيل عند كسر الأصنام قبل إلقائه في النار ، عن مقاتل . وقيل بعد إلقائه في النار وجعلها عليه برداً وسلاماً ، عن الصادق عليه السلام .

أقول : الآية وإن لم تتعرض لكونها قبل أو بعد لكن الاعتبار يساعد كونها بعد الإلقاء في النار ، فإن قصصه المذكورة في القرآن في بدو أمره من حاجته أباه وقومه وكسره الأصنام تعطي أن أول ما لاقى إبراهيم عليه السلام نمرود وكان حين رفع أمره إليه في قضية كسر الأصنام مجرمأ عندهم ، فحكم عليه بالإحراق ، وكان القضاء عليه في جرمه شاغلاً عن تكليمه في أمر ربه : أهواله أو نمرود ؟ ولوحاجته نمرود حينئذ لحاجته في أمر الله وأمر الأصنام دون أمر الله وأمر نفسه ؛

وفي عدة من الروايات التي روتها العامة والخاصة في قوله تعالى : أو كالذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها الآية أن صاحب القصة أرميا النبي ، وفي عدة

منها : أنها عزيز . إلا أنها آحاد غير واجبة القبول ، وفي أسانيدھا بعض الضعف ، ولا شاهد لها من ظاهر الآيات ، والقصة غير مذكورة في التوراة ، والتي في الروايات من القصة طويلة فيها بعض الاختلاف لكنها خارجة عن غرضنا من أرادها فليرجع إلى مظانها .

وفي المعاني عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : وإذ قال إبراهيم ربّ أرني كيف تحيي الموتى الآية في حديث قال عليه السلام : وهذه آية متشابهة ، ومعناها أنه سأل عن الكيفية والكيفية من فعل الله عزّ وجلّ ، متى لم يعلمها العالم لم يلحقه عيب ، ولا عرض في توحيده نقص ، الحديث .

**أقول :** وقد اتضح معنى الحديث مما مرّ .

وفي تفسير العياشي عن عليّ بن أسباط : أن أبا الحسن الرضا عليه السلام سئل عن قول الله : قال بلى ولكن ليطمئن قلبي أكان في قلبه شك قال لا ولكن أراد من الله الزيادة ، الحديث .

**أقول :** وروى هذا المعنى في الكافي عن الصادق وعن العبد الصالح عليهما السلام وقد مرّ بيانه .

وفي تفسير القمي عن أبيه عن ابن أبي عمير عن أبي أيوب عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام ، قال : إن إبراهيم نظر إلى جيفة على ساحل البحر تأكلها سباع البحر ، ثمّ يثب السباع بعضها على بعض فيأكل بعضها بعضاً ، فتعجب إبراهيم فقال : يا ربّ أرني كيف تحيي الموتى ؟ فقال الله : أولم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهنّ إليك ثمّ اجعل على كلّ جبل منهنّ جزءاً ثمّ ادعهنّ يأتينك سعيّاً واعلم أن الله عزيز حكيم ، فأخذ إبراهيم الطاوس والديك والحمام والغراب ، فقال الله عزّ وجلّ : فصرهنّ إليك أي قطعهنّ ثمّ اخلط لحمهنّ ، وفرّقهنّ على عشرة جبال ، ثمّ دعاهنّ فقال : أحيي بإذن الله فكانت تجتمع وتتألف لحم كلّ واحد وعظمه إلى رأسه ، فطارت إلى إبراهيم ، فعند ذلك قال إبراهيم إن الله عزيز حكيم

**أقول :** وروى هذا المعنى العياشي في تفسيره عن أبي بصير عن الصادق عليه السلام ، وروي

من طرق أهل السنة عن ابن عباس .

قوله : إن إبراهيم نظر إلى جيفة إلى قوله فقال : يارب أرني إلخ بيان للشبهة التي دعت إلى السؤال وهي تفرق أجزاء الجسد بعد الموت تفرقاً يؤدي إلى تغييرها وانتقالها إلى أماكن مختلفة وحالات متنوعة لا يبقى معها من الأصل شيء .

فان قلت : ظاهر الرواية : أن الشبهة كانت هي شبهة الآكل والمأكول ، حيث اشتملت على وثوب بعض ، وأكل بعضها بعضاً ، ثم فرغت على ذلك تعجب إبراهيم وسؤاله .

قلت : الشبهة شبهتان - إحداهما - تفرق أجزاء الجسد وفناء أصلها من الصور والأعراض وبالجملة عدم بقائها حتى تتميز وتركيبها الحيوة - وثانيتهما - صيرورة أجزاء بعض الحيوان جزء من بدن بعض آخر فيؤدي إلى استحالة إحياء الحيوانين ببدنيهما تامين معاً لأن المفروض أن بعض بدن أحدهما بعينه بعض لبدن الآخر ، فكل واحد منهما أعيد تاماً بقي الآخر ناقصاً لا يقبل الإعادة . وهذه هي شبهة الآكل والمأكول .

وما أجاب الله سبحانه به - وهو تبعية البدن للروح - وإن كان وافياً لدفع الشبهتين جميعاً ، إلا أن الذي أمر به إبراهيم على ما تحكيه الآية لا يتضمن مادة شبهة الآكل والمأكول ، وهو أكل بعض الحيوان بعضاً ، بل إنما تشتمل على تفرق الأجزاء واختلاطها وتغيير صورها وحالاتها ، وهذه مادة الشبهة الأولى ، فالآية إنما تتعرض لدفعها وإن كانت الشبهتان مشتركتين في الاندفاع بما أوجب به في الآية كما مر ، وما اشتملت عليه الرواية من أكل البعض للبعض غير مقصود في تفسير الآية .

قوله ﷺ فأخذ إبراهيم الطاوس والديك والحمام والغراب ، وفي بعض الروايات أن الطيور كانت هي النسر والبط والطاوس والديك ، رواه الصدوق في العيون عن الرضا ﷺ ونقل عن مجاهد وابن جريح وعطاء ابن زيد . وفي بعضها أنها الهدد والصرد والطاوس والغراب ، رواه العياشي عن صالح بن سهل عن الصادق ﷺ وفي بعضها : أنها النعامة والطاوس والوزة والديك رواه العياشي عن معروف بن خربوذ

عن الباقر عليه السلام ونقل عن ابن عباس، وروي من طرق أهل السنة عن ابن عباس أيضاً :  
أنها الغرنوق والطاوس والديك والحمامة. والذي تشترك فيه جميع الروايات والأقوال:  
الطاوس .

قوله عليه السلام : و فرّقهن على عشرة جبال اه كون الجبال عشرة ممّا اتّفقت عليه  
الأخبار المأثورة عن أئمة أهل البيت وقيل إنّها كانت أربعة، وقيل سبعة  
وفي العيون مسنداً عن عليّ بن محمد بن الجهم قال حضرت مجلس المأمون وعنده  
الرضا عليّ بن موسى فقال له المأمون : يا بن رسول الله أليس من قولك : إنّ الأنبياء  
معصومون ؟ قال : بلى فسأله عن آيات من القرآن ، فكان فيما سأله أن قال له فأخبرني  
عن قول الله : ربّ أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئنّ قلبي ،  
قال الرضا : إنّ الله تبارك وتعالى كان أوحى إلى إبراهيم : أنّي متّخذ من عبادي خليلاً  
إن سألني إحياء الموتى أجيبته فوقع في قلب إبراهيم أنّه ذلك الخليل فقال : ربّ أرني  
كيف تحيي الموتى ؟ قال أولم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئنّ قلبي بالخلة، الحديث  
أقول : وقد تقدّم في أخبار جنّة آدم كلام في عليّ بن محمد بن الجهم وفي هذه  
الرواية التي رواها عن الرضا عليه السلام فارجع .

واعلم : أنّ الرواية لا تخلو عن دلالة ما على أنّ مقام الخلة يستلزم استجابة  
الدعاء ، واللفظ يساعد عليه فإنّ الخلة هي الحاجة ، والخليل إنّما يسمّى خليلاً لأنّ  
الصداقة إذا كملت رفع الصديق حوائجه إلى صديقه ، ولا معنى لرفعها مع عدم  
الكفاية والقضاء .



مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَابِلَ فِي كُلِّ  
سَنَبْلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ  
أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يَتَّبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّْا وَلَا أَدَى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ  
رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ  
صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَبْطُلُوا  
صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ  
الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ  
عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤) وَمَثَلُ الَّذِينَ  
يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ وَرَضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا  
وَابِلٌ فَاتَتْ أَكْطُلَهَا ضَعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصْبَحْهَا وَابِلٌ فَطُلُّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ  
( ٢٦٥ ) أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا  
الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَ لَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا  
أَعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ  
( ٢٦٦ ) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا  
لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا  
فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧) الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ  
بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) يُؤْتِي  
الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو

الْأَلْبَابَ (٢٦٩) وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٢٧٠) إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١) لَيْسَ عَلَيْكَ هُدْيُهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٢٧٢) لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَنُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤)

### ﴿بيان﴾

سياق الآيات من حيث اتّحادهما في بيان أمر الإنفاق ، ورجوع مضامينها وأغراضها بعضها إلى بعض يعطي أنها نزلت دفعة واحدة . وهي تحت المؤمنين على الإنفاق في سبيل الله تعالى ، فتضرب أولاً مثلاً لزيادته ونموّه عند الله سبحانه : واحد بسبعمأة ، وربما زاد على ذلك بإذن الله ، وثانياً مثلاً لكونه لا يتخلف عن شأنه على أى حال وتنهى عن الرياء في الإنفاق وتضرب مثلاً للإنفاق رياءاً لا لوجه الله ، وأنه لا ينمو نمائاً ولا يثمر ثمرأ ، وتنهى عن الإنفاق بالمنّ والأذى بيطلان أثره ويحبطان عظيم أجره ، ثم يأمر بأن يكون الإنفاق من طيب المال لا من خبيثه بخلاً وشحاً ، ثم يعين المورد الذي توضع فيه هذه الصنعة وهو الفقراء المحضرون في سبيل الله ، ثم يذكر ما لهذا الإنفاق من عظيم الأجر عند الله .

وبالجملة الآيات تدعو إلى الإنفاق ، وتبين أولاً وجهه وغرضه وهو أن يكون لله لا للناس ، وثانياً صورة عمله وكيفية عمله وهو أن لا يتعقبه المن والأذى ، وثالثاً وصف مال الإنفاق وهو أن يكون طيباً لا خبيثاً ، ورابعاً نعت مورد الإنفاق وهو أن يكون فقيراً أحصر في سبيل الله ، وخامساً ماله من عظيم الأجر عاجلاً وآجلاً .

### ﴿ كلام فى الإنفاق ﴾

الإنفاق من أعظم ما يهتم بأمره الإسلام في أحد ركنيه وهو حقوق الناس وقد توسل إليه بأنحاء التوسل إيجاباً وندباً من طريق الزكاة والخمس والكفارات المالية وأقسام الفدية والإنفاقات الواجبة والصدقات المندوبة ، ومن طريق الوقف والسكنى والعمرى والوصايا والهبة وغير ذلك .

وإنما يريد بذلك ارتفاع سطح معيشة الطبقة السافلة التي لا تستطيع رفع حوائج الحياة من غير إمداد مالي من غيرهم ، ليقرّب أفقهم من أفق أهل النعمة والثروة . ومن جانب آخر قد منع من تظاهر أهل الطبقة العالية بالجمال والزينة في مظاهر الحياة بما لا يقرب من المعروف ولا تناله أيدي النمط الأوسط من الناس ، بالنهي عن الإسراف والتبذير ونحو ذلك .

وكان الغرض من ذلك كله إيجاد حياة نوعيّة متوسطة متقاربة الأجزاء متشابهة الأبعاد ، تحيي ناموس الوحدة والمعاضدة ، وتميت الإرادات المتضادة وأضغان القلوب ومنايات الأحقاد . فإن القرآن يرى أن شأن الدين الحق هو تنظيم الحياة بشئونها ، وترتيبها ترتيباً يتضمّن سعادة الإنسان في العاجل والآجل ، ويعيش به الإنسان في معارف حقّة ، وأخلاق فاضلة ، وعيشة طيبة يتنعم فيها بما أنعم الله عليه من النعم في الدنيا ، ويدفع بها عن نفسه المكروه والنوائب ونواقص المادة .

ولا يتم ذلك إلا بالحياة الطيبة النوعيّة المتشابهة في طيبتها وصفاتها ، ولا يكون ذلك إلا بإصلاح حال النوع برفع حوائجها في الحياة ، ولا يكمل ذلك إلا بالجهات

المالية والثروة والتقنية ، والطريق إلى ذلك إنفاق الأفراد مما اقتنوه بكد اليمين وعرق الجبين . فإنما المؤمنون إخوة ، والأرض لله ، والمال ماله .

وهذه حقيقة أثبتت السيرة النبوية على سائرهما أفضل التحيّة صحّتها واستقامتها في القرار والنماء والنتيجة في برهة من الزمان وهي زمان حيوته ﷺ ونفوذ أمره . وهي التي يتأسّف عليها ويشكوا انحراف مجريها أمير المؤمنين عليّ عليه السلام إذ يقول: وقد أصبحتم في زمن لا يزداد الخير فيه إلّا إدباراً ، والشرّ فيه إلّا إقبالاً ، والشيطان في هلاك الناس إلّا طمعاً ، فهذا أوان قويت عدّته وعمّت مكيدته وأمكنّت فريسته ، اضرب بطرفك حيث شئت هل تبصر إلّا فقيراً يكأمد فقراً ؟ أو غنياً بدّل نعمة الله كفراً ؟ أو بخيلاً اتخذ البخل بحقّ الله وفراً أو متمرداً كأنّ بأذنه عن سماع المواعظ وقرأ ؟ ( نهج البلاغة )

وقد كشف توالي الأيام عن صدق القرآن في نظريّته هذه - وهي تقريب الطبقات بإمداد الدانية بالإِنفاق ومنع العالية عن الإِتراف والتظاهر بالجمال - حيث إنّ الناس بعد ظهور المدينة الغريبة استرسلوا في الإِخـلاـد إلى الأرض ، والإِفراط في استقصاء المشتبهات الحيوانية ، واستيفاء الهوسات النفسانية ، وأعدّوا له ما استطاعوا من قوّة ، فأوجب ذلك عكوف الثروة و صفوة لذائذ الحيوة على أبواب أولي القوّة والثروة ، ولم يبق بأيدي النمط الأسفل إلّا الحرمان ، ولم يزل النمط الأعلى يأكل بعضه بعضاً حتّى تفرّد بسعادة الحيوة الماديّة نزر قليل من الناس وسلب حقّ الحيوة من الأكرّين وهم سواد الناس ، وأثار ذلك جميع الرذائل الخلقية من الطرفين ، كلّ يعمل على شاكلته لا يبقى ولا يذّر ، فأنتج ذلك التقابل بين الطائفتين ، واشتباك النزاع والنزال بين الفريقين ، والتفاني بين الغنيّ والفقير والمنعم والمحروم والواجد والفاقد ، ونشبت الحروب العالمية الكبرى ، وظهرت الشيوعية ، وهجرت الحقيقة والفضيلة ، وارتحلت السكن والطمأنينة وطيب الحيوة من بين النوع . وهذا ما نشاهده اليوم من فساد العالم الإنسانيّ ، وما يهدّد النوع بما يستقبله أعظم وأفظع . ومن أعظم العوامل في هذا الفساد انسداد باب الإِنفاق وانفتاح أبواب الرباء الذي

سيشرح الله تعالى أمره الفظيع في سبع آيات تالية لهذه الآيات أعني آيات الإنفاق ،  
ويذكر أن في رواجه فساد الدنيا وهو من ملاحم القرآن الكريم ، وقد كان جنبناً أيام  
نزل القرآن فوضعت حامل الدنيا في هذه الأيام .

وإن شئت تصديق ما ذكرناه فتدبر فيما ذكره سبحانه في سورة الروم إذ قال :  
« فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين  
القيّم ولكن أكثر الناس لا يعلمون منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلوة ولا تكونوا من  
المشركين من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بما لديهم فرحون وإذا مسّ  
الناس ضرّ دعوا ربهم منيبين إليه ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم برّبهم يشركون  
ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون إلى أن قال : فأت ذا القربى حقّه  
والمسكين وابن السبيل ذلك خير للذين يريدون وجهه الله وأولئك هم المفلحون  
وما آتيتهم من رباً ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتهم من زكاة يريدون  
وجهه الله فأولئك هم المضعفون إلى أن قال : ظهر الفساد في البرّ والبحر ليدنقهم بعض  
الذي عملوا لعلهم يرجعون قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من  
قبل كان أكثرهم مشركين فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتي يوم لا مردّ له  
من الله يومئذ يصدّعون الآيات ، الروم ٣٠ - ٤٣ . وللآيات نظائر في سور هود  
ويونس والإسراء والأنبياء وغيرها تنبئ عن هذا الشأن ، سيأتي بيانها إنشاء الله .

وبالجملة هذا هو السبب فيما يترآى من هذه الآيات أعني آيات الإنفاق من  
العثّ الشديد والتأكيد البالغ في أمره .

قوله تعالى : مثل الذين ينفقون في سبيل الله كمثل حبة الخ ، المراد بسبيل الله  
كلّ أمر ينتهي إلى مرضاته سبحانه لغرض دينيّ فعل الفعل لأجله ، فإنّ الكلمة في  
الآية مطلقة ، وإن كانت الآية مسبوقه بآيات ذكر فيها القتال في سبيل الله ، وكانت كلمة  
في سبيل الله؛ مقارنة للجهاد في غير واحد من الآيات ، فإنّ ذلك لا يوجب التخصيص  
وهو ظاهر .

وقد ذكروا أن قوله تعالى : كمثل حبة أنبتت الخ على تقدير قولنا كمثل من

زرع حبة أنبتت إلخ فإنَّ الحبة المنبتة لسبع سنابل مثل المال الذي أنفق في سبيل الله لا مثل من أنفق وهو ظاهر .

وهذا الكلام وإن كان وجيهاً في نفسه لكن التدبر يعطي خلاف ذلك فإنَّ جلَّ الأمثال المضروبة في القرآن حالها هذا الحال فهو صناعة شائعة في القرآن كقوله تعالى : « مثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلَّا دعاءً ونداءً » البقرة- ١٧١ فإنَّه مثل من يدعو الكفار لا مثل الكفار، وقوله تعالى : « إنما مثل الحيوة الدنيا كماء أنزلناه الآية » يونس - ٢٤ وقوله تعالى : « مثل نوره كمشكاة » النور - ٣٥ وقوله تعالى في الآيات التالية لهذه الآية : فمثله كمثل صفوان الآية وقوله تعالى : مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة الآية إلى غير ذلك من الموارد الكثيرة .

وهذه الأمثال المضروبة في الآيات تشترك جميعاً في أنَّها اقتصر فيها على مادة التمثيل الذي يتقوم بها المثل مع الإعراض عن باقي أجزاء الكلام للإيجاز .  
توضيحه : أنَّ المثل في الحقيقة قصة حقيقة أو مفروضة مشابهة لأخرى في جهاتها يؤتى بها لينتقل ذهن المخاطب من تصوُّرها إلى كمال تصوُّر الممثل كقولهم : لا ناقة لي ولا جمل وقولهم : في الصيف ضيقت اللبن من الأمثال التي لها قصص حقيقة يقصد بالتمثيل تذكُّر السامع لها وتطبيقها لمورد الكلام للاستيضاح ، ولذا قيل : إنَّ الأمثال لا تتغيَّر . وكقولنا : مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل من زرع حبة أنبتت سبع سنابل في كلَّ سنبله مائة حبة ، وهي قصة مفروضة خيالية .

والمعنى الذي يشتمل عليه المثل ويكون هو الميزان الذي يوزن به حال الممثل ربَّما كان تمام القصة التي هي المثل كما في قوله تعالى : « ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة الآية » إبراهيم - ٢٦ وقوله تعالى : « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفراً » الجمعة - ٥ . وربَّما كان بعض القصة ممَّا يتقوم به غرض التمثيل وهو الذي نسميه مادة التمثيل ، وإنَّما جيء ببعض الآخر لتتميم القصة كما في المثال الأخير ( مثال الإنفاق والحبة ) فإنَّ مادة التمثيل إنَّما هي

الحبة المنبثة لسبعمة حبة وإنما ضمنا إليها الذي زرع لتتميم القصة .

وما كان من أمثال القرآن مادة التمثيل فيه تمام المثل فإنه وضع على ما هو عليه ، وما كان منها مادة التمثيل فيه بعض القصة فإنه اقتصر على مادة التمثيل فوضعت موضع تمام القصة لأن الغرض من التمثيل حاصل بذلك ، على ما فيه من تنشيط ذهن السامع بفقده أمراً ووجدانه أمراً آخر مقامه يفي بالغرض منه ، فهو هو بوجه وليس به بوجه ، فهذا من الإيجاز بالقلب على وجه لطيف يستعمله القرآن .

**قوله تعالى :** أنبت سبع سنابل في كل سنبلة مئة حبة ، السنبل معروف وهو على فعل ، قيل الأصل في معنى مادته السترسمي به لأنه يستر الحبات التي تشبه عليها في الأغلفة .

ومن أسخف الإشكال ما أورد على الآية أنه تمثيل بما لا تحقق له في الخارج وهو اشتغال السنبلة على مئة حبة ، وفيه أن المثل كما عرفت لا يشترط فيه تحقق مضمونه في الخارج فالأمثال التخيلية أكثر من أن تعد وتحصى ، على أن اشتغال السنبلة على مئة حبة وإنبات الحبة الواحدة سبعمة حبة ليس بعزيز الوجود

**قوله تعالى :** والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم اه أى يزيد على سبعمة لمن يشاء فهو الواسع لا مانع عن جوده ولا محدود لفضله كما قال تعالى : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة » البقرة - ٢٤٥ فأطلق الكثرة ولم يقيدها بعدد معين .

وقيل : إن معناه أن الله يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء فالمضاعفة إلى سبعمة ضعف غاية ما تدل عليه الآية ، وفيه أن الجملة على هذا يقع موقع التعليل ، وحق الكلام فيه حينئذ أن يصدّر بأن كقوله تعالى : « الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن الله لذو فضل على الناس » المؤمن - ٦١ و أمثال ذلك .

ولم يقيّد ما ضربه الله من المثل بالآخرة بل الكلام مطلق يشمل الدنيا والآخرة وهو كذلك والاعتبار يساعده ، فالمنفق بشيء من ماله وإن كان يخطر بباله ابتداءً أن المال قد فات عنه ولم يخلف بدلاً ، لكنه لو تأمل قليلاً وجد أن المجتمع الإنساني

بمنزلة شخص واحد ذوا أعضاء مختلفة بحسب الأسماء والأشكال لكنّها جميعاً متّحدة في غرض الحيوة ، مرتبطة من حيث الأثر والفائدة ، فإذا فقد واحد منها نعمة الصحة والاستقامة ، وعي في فعله أوجب ذلك كلال الجميع في فعلها ، وخسارها في أغراضها ، فالعين واليد وإن كانا عضوين اثنين من حيث الاسم والفعل ظاهراً ، لكنّ الخلقة إنّما جهّز الإنسان بالبصر ليميّز به الأشياء ضوئاً ولوناً وقرباً وبعداً فتناول اليد ما يجب أن يجلبه الإنسان لنفسه ، وتدفع ما يجب أن يدفعه عن نفسه ، فإذا سقطت اليد عن التأثير وجب أن يتدارك الإنسان ما يفوته من عامّة فوائدها بسائر أعضائه فيقاسي أوّلاً كدّاً وتعباً لا يتحمّل عادة ، وينقص من أفعال سائر الأعضاء بمقدار ما يستعملها في موضع العضو الساقط عن التأثير ، وأمّا لو أصلح حال يده الفاسدة بفضل ما اذخره لبعض الأعضاء الأخر كان في ذلك إصلاح حال الجميع ، وعاد إليه من الفائدة الحقيقية أضعاف ما فاتته من الفضل المفيد أضعافاً ربّما زاد على المئات والألوف بما يورث من إصلاح حال الغير ، ودفع الرذائل التي يمكنها الفقر والحاجة في نفسه ، وإيجاد المحبّة في قلبه ، وحسن الذكر في لسانه ، والنشاط في عمله ، والمجتمع يربط جميع ذلك ويرجعه إلى المنفق لاحتالة ، ولاسيّما إذا كان الإنفاق لدفع الحوائج النوعيّة كال تعليم والتربية ونحو ذلك ، فهذا حال الإنفاق .

وإذا كان الإنفاق في سبيل الله وابتغاء مرضات الله كان النماء والزيادة من لوازمه من غير تخلف ، فإنّ الإنفاق لو لم يكن لوجه الله لم يكن إلّا لفائدة عائدة إلى نفس المنفق كإنفاق الغنيّ للفقير لدفع شرّه ، أو إنفاق المثري للموسر للمعسر ليدفع حاجته ويعتدل حال المجتمع فيصفو للمثري المنفق عيشه ، وهذا نوع استخدام للفقير واستثمار منه لنفع نفسه ، ربّما أورث في نفس الفقير أثراً سيّئاً ، وربّما تراكمت الآثار وظهرت فكانت بلوى ، لكنّ الإنفاق الذي لا يراد به إلا وجه الله ولا يتبع فيهِ إلا مرضاته خال عن هذه النواقص لا يؤثّر إلا الجميل ولا يتعقّبهُ إلا الخير .

قوله تعالى الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منّا ولا أذى إلخ ، الاتباع للحق والإلحاق قال تعالى : « فاتبعوهم مشرقين » الشعراء - ٦١

أى لحقوهم وقال تعالى : « فأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة » القصص - ٤٢ أى ألحقناهم . والمن هو ذكر ما ينغصص المعروف كقول المنعم للمنعّم عليه : أنعمت عليك بكذا وكذا ونحو ذلك ، والأصل في معناه على ما قيل القطع ومنه قوله تعالى : « لهم أجر غير ممنون » فصلت - ٨ أى غير مقطوع . والأذى الضرر العاجل أو الضرر اليسير . والخوف توقع الضرر . والحزن الغم الذي يغلظ على النفس من مكروه واقع أو كالواقع .

**قوله تعالى :** قول معروف ومغفرة خير من صدقة إلخ المعروف من القول ما لا ينكره الناس بحسب العادة ، و يختلف باختلاف الموارد . والأصل في معنى المغفرة هو الستر . والغنى مقابل الحاجة والفقر . والحلم السكوت عند المكروه من قول أو فعل . وترجيح القول المعروف والمغفرة على صدقة يتبعها أذى ثم المقابلة يشهد بأن المراد بالقول المعروف الدعاء أو لفظ آخر جميل عند ردّ السائل إذا لم يتكلم بما يسوء المستؤل عنه ، والستر والصفح إذا شفع سؤاله بما يسوءه وهما خير من صدقة يتبعها أذى ، فإن أذى المنفق للمنفق عليه يدل على عظم إنفاقه والمال الذي أنفقه في عينه ، وتأثره عما يسوءه من السؤال ، وهما علمتان يجب أن تزاحا عن نفس المؤمن . فإن المؤمن متخلق بأخلاق الله ، والله سبحانه غني لا يكبر عنده ما أنعم و جناد به ، حلیم لا يعجل في المؤاخذه على السيئة ، ولا يغضب عند كل جهالة . وهذا معنى ختم الآية بقوله : والله غني حلیم .

**قوله تعالى :** يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم إلخ ، تدل الآية على حبط الصدقة بلحق المن والأذى ، وربما يستدل بها على حبط كل معصية أو الكبيرة خاصة لما يسبقها من الطاعات ، ولا دلالة في الآية على غير المن والأذى بالنسبة إلى الصدقة وقد تقدم إشباع الكلام في الحبط .

**قوله تعالى :** كالذي ينفق ماله رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر اه ، لما كان الخطاب للمؤمنين ، والمرامي غير مؤمن كما ذكره الله سبحانه لأنه لا يقصد بأعماله وجه الله لم يعلق النهي بالرياء كما علقه على المن والأذى ، بل إنما شبه المتصدق الذي يتبع صدقته بالمن والأذى بالمرامي في بطلان الصدقة . مع أن عمل المرامي

باطل من رأس وعمل المانّ والمودني وقع أوّلاً صحيحاً ثمّ عرضه البطلان .  
 واتّحاد سياق الأفعال في قوله : ينفق ماله وقوله : ولا يؤمن من دون أن يقال :  
 ولم يؤمن يدلّ على أنّ المراد من عدم إيمان المرامي في الإنفاق بالله واليوم الآخر  
 عدم إيمانه بدعوة الإنفاق الذي يدعو بها الله سبحانه ، ويعدّ عليه جزيل الثواب ، إذ  
 لو كان يؤمن بالداعي في دعوته هذه ، ويوم القيمة الظاهر فيه الجزاء لقصد في فعله  
 وجه الله ، وأحبّ واختار جزيل الثواب ؛ ولم يقصد به رياء الناس . فليس المراد من عدم  
 إيمان المرامي عدم إيمانه بالله سبحانه رأساً .

ويظهر من الآية : أنّ الرياء في عمل يستلزم عدم الإيمان بالله واليوم الآخر فيه .  
 قوله تعالى : فمثلته كمثّل صفوان عليه تراب إلى آخر الآية ، الضمير في قوله :  
 فمثلته راجع إلى الذي ينفق ماله رياء الناس والمثّل له . والصفوان والصفاء الحجر الأملس  
 وكذا الصلد . والوابل المطر الغزير الشديد الوقع .

والضمير في قوله : لا يقدرون راجع إلى الذي ينفق رياءً لأنّه في معنى الجمع ،  
 والجملة تبين وجه الشبه وهو الجامع بين المشبّه والمشبّه به ، وقوله تعالى : والله  
 لا يهدي القوم الكافرين بيان للحكم بوجه عامّ وهو أنّ المرامي في ريائه من مصاديق  
 الكافر ، والله لا يهدي القوم الكافرين ، ولذلك أفاد معنى التعليل .

وخلاصة معنى المثل : أنّ حال المرامي في إنفاقه رياءً وفي ترتب الثواب عليه  
 كحال الحجر الأملس الذي عليه شيء من التراب إذا أنزل عليه وابل المطر ، فإنّ  
 المطر وخاصة وابلّه هو السبب البارز لحيوة الأرض واخضرارها وتزيينها بزينة النبات ،  
 إلّا أنّ التراب إذا وقع على الصفوان الصلد لا يستقرّ في مكانه عند نزول الوابل  
 بل يغسله الوابل ويبقى الصلد الذي لا يجذب الماء ، ولا يتربّى فيه بذر لنبات . فالوابل  
 وإن كان من أظهر أسباب الحيوة والنمو وكذا التراب لكن كون المحلّ صلباً يبطل  
 عمل هذين السببين من غير أن يكون النقص والقصور من جانبيهما فهذا حال الصلد .  
 وهذا حال المرامي فإنّه لمّا لم يقصد من عمله وجه الله لم يترتب على عمله ثواب

وإن كان العمل كالأِ نفاق في سبيل الله من الأسباب البارزة لترتب الثواب ، فإنه مسلوب الاستعداد لا يقبل قلبه الرحمة و الكرامة .

وقد ظهر من الآية : أن قبول العمل يحتاج إلى نيّة الإخلاص وقصد وجه الله . وقد روى الفريقان عن النبي ﷺ : أنه قال : إنما الأعمال بالنيّات .

**قوله تعالى :** مثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم اهـ ، ابتغاء المرادة هو طلب الرضاء ، ويعود إلى إرادة وجه الله ، فإن وجه الشيء هو ما يواجهك ويستقبلك به ، ووجهه تعالى بالنسبة إلى عبده الذي أمره بشيء وأراد منه هو رضائه عن فعله وامتناله ، فإن الأمر يستقبل المأمور أولاً بالأمر فإذا امتثل استقبله بالرضاء عنه ، فمرضات الله عن العبد المكلف بتكليف هو وجهه إليه ، فابتغاء مرضاة الله هو إرادة وجهه عز وجل .

وأما قوله : وتثبيتاً من أنفسهم فقد قيل : إن المراد التصديق واليقين . وقيل : هو التثبيت أي يتثبتون أين يضعون أموالهم . وقيل : هو التثبت في الإِ نفاق فإن كان لله أهضى ، وإن كان خالطه شيء من الرياء أمسك . وقيل : التثبيت توطئ النفس على طاعة الله تعالى . وقيل : هو تمكين النفس في منازل الإيمان بتعويدها على بذل المال لوجه الله . وأنت خير بأن شيئاً من الأقوال لا ينطبق على الآية إلا بتكلف .

والذي ينبغي أن يقال - والله العالم - في المقام : هو أن الله سبحانه لمّا أطلق القول أولاً في مدح الإِ نفاق في سبيل الله ، وأن له عند الله عظيم الأجر اعترضه أن استثنى منه نوعين من الإِ نفاق لا يرتضيها الله سبحانه ، ولا يترتب عليهما الثواب ، وهما الإِ نفاق رياءً الموجب لعدم صحّة العمل من رأس والإِ نفاق الذي يتبعه من أو أدنى فإنه يبطل بهما وإن انعقد أولاً صحيحاً ، وليس يعرض البطلان لهذين النوعين إلا من جهة عدم ابتغاء مرضاة الله فيه من رأس ، أو لزوال النفس عن هذه النيّة أعني ابتغاء المرادة ثانياً بعد ما كانت عليها أولاً ، فأراد في هذه الآية بيان حال الخاصة من أهل الإِ نفاق الخالصة بعد استثناء المرائين وأهل المن والأذى ، وهم الذين ينفقون أموالهم

ابتغاء وجه الله ثم يقرّون أنفسهم على الثبات على هذه النيّة الطاهرة النامية من غير أن يتبعوها بما يبطل العمل ويفسده .

ومن هنا يظهر أنّ المراد بابتغاء مرضاة الله أن لا يقصد بالعمل رياء ونحوه ممّا يجعل النيّة غير خالصة لوجه الله ، ويقول تثبيتاً من أنفسهم تثبيت الإنسان نفسه على ما نواه من النيّة الخالصة ، وهو تثبيت ناش من النفس واقع على النفس . فقول تثبيتاً تميز وكلمة من نشويّة و قوله أنفسهم في معنى الفاعل ، وما في معنى المفعول مقدّر . والتقدير تثبيتاً من أنفسهم لأنفسهم ، أو مفعول مطلق لفعل من مادّته .

**قوله تعالى :** كمثّل جنّة ربوة أصابها وابل إلى آخر الآية ، الأصل في مادّة ربا الزيادة ، و الربوة بالحركات الثلاث في الراء الأرض الجيدة التي تزيد وتعلو في نموّها ، والأكل بضمّتين ما يؤكل من الشيء ، والواحدة أكلة . والطلّ أضعف المطر القليل الآخر .

و الغرض من المثل أنّ الإنفاق الذي أريد به وجه الله لا يتخلّف عن أثرها الحسن البتّة ، فإنّ العناية الإلهيّة واقعة عليه متعلّقة به لاحتفاظ اتصاله بالله سبحانه وإن كانت مراتب العناية مختلفة لاختلاف درجات النيّة في الخلوص ، واختلاف وزن الأعمال باختلافها ؛ كما أنّ الجنّة التي في الربوة إذا أصابها المطر لم تلبث دون أن تؤتي أكلها إيتاءاً جيّداً البتّة وإن كان إيتاءها مختلفاً في الجودة باختلاف المطر النازل عليه من وابل وطلّ .

و لوجود هذا الاختلاف ذيل الكلام بقوله : والله بما تعملون بصيراً لا يشتهيه عليه أمر الثواب ، ولا يختلط عليه ثواب الأعمال المختلفة فيعطي ثواب هذا لذلك وثواب ذاك لهذا .

**قوله تعالى :** أيودّ أحدكم أن تكون له جنّة من نخيل وأعناب إلخ ، الودّ هو الحبّ وفيه معنى التمني . والجنّة : الشجر الكثير الملتفّ كالبلستان سميت بذلك لأنّها تجنّ الأرض وتسترها وتقيها من ضوء الشمس ونحوه ، ولذلك صحّ أن يقال : تجري من تحتها الأنهار ، ولو كانت هي الأرض بما لها من الشجر مثلاً لم يصحّ ذلك

لإفادته خلاف المقصود، ولذلك قال تعالى في مثل الربوة وهي الأرض المعمورة : « ربوة ذات قرار ومعين » المؤمنون - ٥١. وكرر في كلامه قوله : جنّات تجري من تحتها الأنهار فجعل المعين ( وهو الماء ) فيها لا جارياً تحتها .

ومن في قوله : من نخيل وأعناب للتبيين ويفيد معنى الغلبة دون الاستيعاب ، فإنّ الجنّة والبستان وما هو من هذا القبيل إنّما يضاف إلى الجنس الغالب فيقال جنّة العنب أو جنّة من أعناب إذا كان الغالب فيها الكرم وهي لا تخلو مع ذلك من شجر شتى ، ولذلك قال تعالى ثانياً : له فيها من كلّ الثمرات .

والكبر كبر السن وهو الشيخوخة ، والذرّية الأولاد ، والضعفاء جمع الضعيف . وقد جمع تعالى في المثل بين إصابة الكبر ووجود الذرّية الضعفاء لتثبيت مسيس الحاجة القطعية إلى الجنّة المذكورة مع فقدان باقي الأسباب التي يتوصّل إليها في حفظ سعادة الحيوة وتأمين المعيشة ، فإنّ صاحب الجنّة لو فرض شاباً قوياً لا يمكنه أن يستريح إلى قوّة يمينه لو أصيبت جنّته بمصيبة ، ولو فرض شيخاً هرمّاً من غير ذرّية ضعفاء لم يسوّ حاله تلك المسألة لأنّه لا يرى لنفسه إلاّ أياماً قلائل لا يبطىء عليه زوالها وانقضائها ، ولو فرض ذا كبر وله أولاد أقوياء يقدرّون على العمل واكتساب المعيشة أمكنهم أن يقتاتوا بما يكتسبونه ، وأن يستغنوا عنها بوجه ! لكن إذا اجتمع هناك الكبر والذرّية الضعفاء ، واحترقت الجنّة انقطعت الأسباب عنهم عند ذلك ، فلا صاحب الجنّة يمكنه أن يعيد لنفسه الشباب والقوّة أو الأيّام الخالية حتّى يهيّئ لنفسه نظير ما كان قد هيّأها ، ولا لذرّيته قوّة على ذلك ، ولا لهم رجاء أن ترجع الجنّة بعد الاحتراق إلى ما كانت عليه من النضارة والإثمار .

والإعصار الغبار الذي يلتفّ على نفسه بين السماء والأرض كما يلتفّ الثوب على نفسه عند العصر .

وهذا مثل ضربه الله للذين ينفقون أموالهم ثمّ يتبعونه منّاً وأذىً فيحبط عملهم ولا سبيل لهم إلى إعادة العمل الباطل إلى حال صحّته واستقامته ، وانطباق المثل على الممثل ظاهر ، ورجا منهم التفكّر لأنّ أمثال هذه الأفاعيل المفسدة للأعمال إنّما تصدر

من الناس ومعهم حالات نفسانية كحب المال والبجاه والكبر والعجب والشح ، لاتدع للإنسان مجال الثبوت والتفكر وتمييز النافع عن الضار ، ولوتفكروا لتبصروا .

**قوله تعالى :** يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم إلخ ، التيمم هو القصد والتعمد . والخبيث ضد الطيب . وقوله : منه ؛ متعلق بالخبيث . وقوله : تنفقون حال عن فاعل لا تيمموا . وقوله : ولستم بأخذيهِ حال عن فاعل تنفقون ، وعامله الفعل . وقوله أن تغمضوا فيه في تأويل المصدر ، واللام مقدّر على ما قيل والتقدير إلا لا تغمضكم فيه ، أو المقدر بآء المصاحبة والتقدير إلا بمصاحبة إلا تغمض

ومعنى الآية ظاهر ، وإنما يبين تعالى كيفية مال الإنفاق ، وأنه ينبغي أن يكون من طيب المال لا من خبيثه الذي لا يأخذه المنفق إلا باغمض . فإنه لا يتصف بوصف الجود والسخاء ، بل يتصور بصورة التخلص ، فلا يفيد حباً للصناعة والمعروف ولا كمالاً للنفس ، ولذلك ختمها بقوله : واعلموا أن الله غنيّ حميد أى راقبوا في إنفاقكم غناه وحمده فهو في عين غناه يحمد إنفاقكم الحسن فأنفقوا من طيب المال ، أو أنه غنيّ محمود لا ينبغي أن تواجهوه بما لا يليق بجلاله جلّ جلاله .

**قوله تعالى :** الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء إقامة للحجة على أن اختيار خبيث المال للإنفاق ليس بخير للمنفقين بخلاف اختيار طيبه فإنه خير لهم ، ففي النهي مصلحة أمرهم كما أن في المنهي عنه مفسدة لهم . وليس إمساحهم عن إنفاق طيب المال وبذله إلا لما يرونه مؤثراً في قوام المال والثروة فتنبض نفوسهم عن الإقدام إلى بذله بخلاف خبيثه فإنه لا قيمة له يعنى به فلا بأس بإنفاقه ، وهذا من تسويل الشيطان يخوف أوليائه من الفقر . مع أن البذل وذهاب المال والإنفاق في سبيل الله وابتغاء مرضاته مثل البذل في المعاملات لا يخلو عن العوض والربح كما مرّ . مع أن الذي يغني ويقتني هو الله سبحانه دون المال . قال تعالى : « وأنه هو أغنى وأقنى » النجم - ٤٨ .

وبالجملة لما كان إمساحهم عن بذل طيب المال خوفاً من الفقر خطأ نبّه عليه بقوله : الشيطان يعدكم الفقر ، غير أنه وضع السبب موضع المسبب ، أعني أنه وضع وعد الشيطان موضع خوف أنفسهم ليدلّ على أنه خوف مضرّ لهم فإن الشيطان لا

يأمر إلا بالباطل والضلال إنما ابتدأاً ومن غير واسطة ، وإنما بالأخرة وبواسطة ما يظهر منه أنه حق

ولما كان من الممكن أن يتوهم أن هذا الخوف حق وإن كان من ناحية الشيطان دفع ذلك بإتباع قوله : الشيطان يعدكم الفقر بقوله : ويأمركم بالفحشاء وأولاً . فإن هذا الإمساك والتشاغل منهم يهتدى في نفوسهم ملكة الإمساك وسجية البخل ، فيؤدي إلى رد أوامر الله المتعلقة بأموالهم وهو الكفر بالله العظيم ، ويؤدي إلى إلقاء أرباب الحاجة في تهلكة الإعسار والفقر والمسكنة التي فيه تلف النفوس وانتهاك الأعراض وكلّ جناية وفحشاء . قال تعالى : « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدّقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولّوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون إلى أن قال : الذين يلمزون المطّوِّعين من المؤمنين في الصدقات والذين لا يجردون إلا جهدهم ويسخرون منهم سخر الله منهم ولهم عذاب أليم » التوبة - ٧٩ .

ثم بإتباعه بقوله : والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً والله واسع عليم ثانياً . فإن الله قد بين للمؤمنين : أن هناك حقاً وضالاً لاثالث لهما ، وأن الحق وهو الطريق المستقيم هو من الله سبحانه ، وأن الضلال من الشيطان . قال تعالى : « فماذا بعد الحق إلا الضلال » يونس - ٣٢ و قال تعالى : « قل الله يهدي للحق » يونس - ٣٥ و قال تعالى في الشيطان : « إنه عدو مضل مبين » القصص - ١٥ . والآيات جميعاً مكّية . وبالجملة نبّه تعالى بقوله : والله يعدكم بأن هذا الخاطر الذي يخطر ببالكم من جهة الخوف ضلال من الفكر فإن مغفرة الله والزيادة التي ذكرها في الآيات السابقة إنما هما في البذل من طيبات المال .

فقوله تعالى : والله يعدكم إلخ نظير قوله : الشيطان يعدكم إلخ من قبيل وضع السبب موضع المسبب ، وفيه إلقاء المقابلة بين وعد الله سبحانه الواسع العليم ووعد الشيطان ، لينظر المنفقون في أمر الوعدين ويختاروا ما هو أصلح لبالهم منهما . فحاصل حجة الآية : أن اختياركم الخبيث على الطيب إنما هو لخوف الفقر ،

والجهل بما يستتبعه هذا الإنفاق . أما خوف الفقر فهو إلقاء شيطاني ، ولا يريد الشيطان بكم إلا الضلال والفحشاء فلا يجوز أن تتبّعوه . وأما ما يستتبعه هذا الإنفاق فهو الزيادة والمغفرة اللتين ذكر لكم في الآيات السابقة ، وهو استتباع بالحق لأنّ الذي يعدكم استتباع الإنفاق لهذه المغفرة والزيادة هو الله سبحانه ووعدته حق ، وهو واسع يسعه أن يعطي ما وعده من المغفرة والزيادة وعلّم لا يجهل شيئاً ولا حالاً من شيء فوعده وعد عن علم .

**قوله تعالى :** يؤتي الحكمة من يشاء ، الإيتاء هو الأ إعطاء . والحكمة بكسر الحاء على فعلة بناء نوع يدل على نوع المعنى فمعناه النوع من الأحكام والإتقان أو نوع من الأمر المحكم المتقن الذي لا يوجد فيه ثلمة ولا فتور ، وغلب استعماله في المعلومات العقلية الحقّة الصادقة التي لا تقبل البطلان والكذب البتّة .

والجملة تدل على أنّ البيان الذي يبيّن الله به حال الإنفاق بجمع علله وأسبابه وما يستتبعه من الأثر الصالح في حقيقة حياة الإنسان هو من الحكمة ، فالحكمة هي القضايا الحقّة المطابقة للواقع من حيث اشتمالها بنحو على سعادة الإنسان كالمعارف الحقّة الإلهية في المبدء والمعاد ، والمعارف التي تشرح حقائق العالم الطبيعي من جهة مساسها بسعادة الإنسان كالحقائق الفطرية التي هي أساس التشريعات الدينية .

**قوله تعالى :** ومن يؤتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً ، الإ المعنى ظاهر . وقد أُوهم فاعل الإيتاء مع أنّ الجملة السابقة عليه تدل على أنّه الله تبارك وتعالى ليدل الكلام على أنّ الحكمة بنفسها منشأ الخير الكثير فالتلبس بها يتضمن الخير الكثير ، لا من جهة انتساب اتيناه إليه تعالى ، فإنّ مجرد انتساب الاتيان لا يوجب ذلك كإيتاء المال . قال تعالى في قارون « وآتيناه من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة إلى آخر الآيات » القصص-٧٦ . وإنّما نسب إليها الخير الكثير دون الخير مطلقاً ، مع ما عليه الحكمة من ارتفاع الشأن ونفاضة الأمر لأنّ الأمر محتوم بعناية الله وتوفيقه ، وأمر السعادة مراعى بالعاقبة والخاتمة .

**قوله تعالى :** وما يدرك إلا أولوا الأبواب ، اللب هو العقل لأنّه في الإنسان

بمنزلة اللب من القشر ، وعلى هذا المعنى استعمل في القرآن ، و كأن لفظ العقل بمعناه المعروف اليوم من الأسماء المستعْدثة بالغلبة ولذلك لم يستعمل في القرآن وإنما استعمل منه الأفعال مثل يعقلون .

و التذكّر هو الانتقال من النتيجة إلى مقدّماتها ، أو من الشيء إلى نتائجه ، والآية تدلّ على أنّ اقتناص الحكمة يتوقّف على التذكّر ، وأنّ التذكّر يتوقّف على العقل ، فلا حكمة لمن لا عقل له . وقد مرّ بعض الكلام في العقل عند البحث عن ألفاظ الإدراك المستعملة في القرآن الكريم .

**قوله تعالى :** وما تنفقوا من نفقة أو نذرتم من نذر فإنّ الله يعلمها ، أى ما دعاكم الله سبحانه إليه أو دعوتكم أنفسكم إليه بإجابه عليها بالنذر من بذل المال فلا يخفى على الله ، يثيب من أطاعه ويؤاخذ من ظلم ، فقيه إيماء إلى التهديد . ويؤكدّه قوله تعالى : وما للظالمين من أنصار .

وفي هذه الجملة أعني قوله : وما للظالمين من أنصار اه دلالة أولاً : على أنّ المراد بالظلم هو الظلم على الفقراء والمساكين في الإمساك عن الإنفاق عليهم ، وحبس حقوقهم المالية ، لا الظلم بمعنى مطلق المعصية فإنّ في مطلق المعصية أنصاراً ومكفّرات وشفعاء كالتوبة ، والاجتناب عن الكبائر ، وشفعاء يوم القيمة إذا كان من حقوق الله تعالى . قال تعالى : « لا تقنطوا من رحمة الله إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً إلى أن قال : و أنيبوا إلى ربكم » الزمر - ٥٤ وقال تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم » النساء - ٣٠ وقال تعالى : « ولا يشفعون إلّا لمن ارتضى » الأنبياء - ٢٨ . و من هنا يظهر : وجه اتيان الأنصار بصيغة الجمع فإنّ في مورد مطلق الظلم أنصاراً .

وثانياً : أنّ هذا الظلم وهو ترك الإنفاق لا يقبل التكفير ولو كان من الصغائر لقبه فهو من الكبائر . وأنّه لا يقبل التوبة ، ويتأيد بذلك ماوردت به الروايات : أنّ التوبة في حقوق الناس غير مقبولة إلّا برّد الحق إلى مستحقّه . وأنّه لا يقبل الشفاعة يوم القيامة كما يدلّ عليه قوله تعالى : « إلّا أصحاب اليمين في جنّات يتساءلون عن

المجرمين ما سلككم في سقر قالوا لم نك من المصلين ولم نك نطعم المسكين إلى أن قال : فما تنفعهم شفاعة الشافعين « المدثر - ٤٨ .

وثالثاً : أن هذا الظالم غير مرتضى عند الله إلا شفاعته إلا لمن ارتضى الله دينه كما مرّ بيانه في بحث الشفاعة . ومن هنا تظهر النكتة في قوله تعالى : ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله اه حيث أتى بالمرضاة ولم يقل ابتغاء وجه الله .

ورابعاً : أن الامتناع من أصل إنفاق المال على الفقراء مع وجودهم واحتياجهم من الكبائر الموبقة . وقد عدّ تعالى الامتناع عن بعض أقسامه كالزكاة شركاً بالله و كفراً بالآخرة . قال تعالى : «ويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون» فصلت - ٧ ، والسورة مكيّة ولم تكن شرّعت الزكاة المعروفة عند نزولها . قوله تعالى : إن تبدوا الصدقات فنعما هي إلخ، الإبداء هو الإظهار . والصدقات جمع صدقة، وهي مطلق الإنفاق في سبيل الله أعم من الواجب والمندوب . وربّما يقال : إن الأصل في معناها الإنفاق المندوب .

وقد مدح الله سبحانه كلاً من شقى التريد ، لكون كل واحد من الشقيين ذا آثار صالحة ؛ فأما إظهار الصدقة فإن فيه دعوة عمليّة إلى المعروف ، وتشويقاً للناس إلى البذل والإنفاق ، وتطبيباً لنفوس الفقراء والمساكين حيث يشاهدون أن في المجتمع رجالاً رحماء بحالهم ، وأموالاً موضوعة لرفع حوائجهم ، مدّخرة ليوم يؤسّسهم فيؤدّي إلى زوال اليأس والقنوط عن نفوسهم ؛ وحصول النشاط لهم في أعمالهم ، واعتقاد وحدة العمل والكسب بينهم وبين الأغنياء المثرين ، وفي ذلك كل الخير . وأما إخفاءها فإنّه حينئذ يكون أبعد من الرياء والمن والأذى ، وفيه حفظ لنفوس المحتاجين عن الخزي والمذلّة ، وصون لماء وجوههم عن الابتذال ، وكلامته لظواهر كرامتهم ، فصدقة العلى أكثر نتاجاً ، وصدقة السرّ أخلص طهارة .

ولمّا كان بناء الدين على الإخلاص و كان العمل كلما قرب من الإخلاص كان أقرب من الفضيلة رجّح سبحانه جانب صدقة السرّ فقال : وإن تخفوها وتعطوها الفقراء فهو خير لكم فإن كلمة خير أفعل التفضيل ، والله تعالى خير بأعمال عباده لا يخطئ

في تمييز الخير من غيره ، وهو قوله تعالى : والله بما تعملون خبير .

**قوله تعالى :** ليس عليك هدام لكن الله يهدي من يشاء ، في الكلام التفات عن خطاب المؤمنين إلى خطاب رسول الله ﷺ ، وكأن ما كان يشاهده رسول الله ﷺ من فعال المؤمنين في صدقاتهم من اختلاف السجايا بالإخلاص من بعضهم والمن والأذى والتناقل في إنفاق طيب المال من بعض مع كونهم مؤمنين أوجد في نفسه الشريعة وجداً وحزناً فسأله الله تعالى بالتنبيه على أن هذا الإيمان الموجود فيهم والهدى الذي لهم إنما هو إلى الله تعالى يهدي من يشاء إلى الإيمان وإلى درجاته ، وليس يستند إلى النبي لا وجوده ولا بقاءه حتى يكون عليه حفظه ، ويشفق عن زواله أو ضعفه ، أو يسوئه ما آل إليه الكلام في هذه الآيات من التهديد والإيعاد والخشونة .

و الشاهد على ما ذكرناه قوله تعالى : هُدام ؛ بالتعير بالمصدر المضاف الظاهر في تحقق التلبس . على أن هذا المعنى أعني نفى استناد الهداية إلى النبي ﷺ و إسناده إلى الله سبحانه حيث وقع في القرآن وقع في مقام تسلية النبي وتطبيب قلبه . فالجملة أعني قوله : ليس عليك هدام ولكن الله يهدي من يشاء جملة معترضة اعترضت في الكلام لتطبيب قلب النبي بقطع خطاب المؤمنين والإقبال عليه صلى الله عليه وآله ؛ نظير الاعتراض الواقع في قوله تعالى : « لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه الآيات » القيمة -١٦- . فلما تم الاعتراض عاد إلى الأصل في الكلام من خطاب المؤمنين

**قوله تعالى :** وما تنفقوا من خير فلا أنفسكم وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله إلى آخر الآية رجوع إلى خطاب المؤمنين بسياق خال عن التبشير والإنذار والتحسين والتغليظ معاً ، فإن ذلك مقتضى معنى قوله تعالى : ولكن الله يهدي من يشاء كما لا يخفى . فقصر الكلام على الدعوة الخالية بالدلالة على أن ساحة المتكلم الداعي منزّهة عن الانتفاع بما يتعقب هذه الدعوة من المنافع ، وإنما يعود نفعه إلى المدعوين ، فما تنفقوا من خير فلا أنفسكم لكن لا مطلقاً بل في حال لا تنفقون إلا ابتغاء وجه الله ، فقوله : ولا تنفقون إلا ابتغاء وجه الله حال عن ضمير الخطاب وعامله متعلق الظرف أعني قوله :

؛ فلا نفسكم؛.

ولمّا أمكن أن يتوهّم أنّ هذا النفع العائد إلى أنفسهم يبذل المال مجرّد اسم لا مسمّى له في الخارج ، وليس حقيقته إلّا تبديل الحقيقة بالوهم عقّب الكلام بقوله : وما تنفقوا من خير يوفّ إليكم وأنتم لا تظلمون اه فيبيّن أنّ نفع هذا الإنفاق المندوب وهو ما يترتب عليه من ثوبة الدنيا والآخرة ليس أمراً وهمياً ، بل هو أمر حقيقي واقعي سيوفيه الله تعالى إليكم من غير أن يظلمكم بفقد أو نقص .

وإبهام الفاعل في قوله : يوفّ إليكم اه لما تقدّم أنّ السياق سياق الدعوة فطوي ، ذكر الفاعل ليكون الكلام أبلغ في النصح وانتفاء غرض الانتفاع من الفاعل كأنّه كلام لا متكلّم له ، فلو كان هناك نفع فإسما معه لا غير

قوله تعالى : للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله إلى آخر الآية ، الحصر هو المنع والحبس . و الأصل في معناه التضييق . قال الراغب في المفردات : و الحصر الإحصار المنع من طريق البيت ، فالإحصار يقال : في المنع الظاهر كالعدو ، و المنع الباطن كالمرض ، والحصر لا يقال إلّا في المنع الباطن . فقوله تعالى : فإن أحصرتم فمحمول على الأمرين وكذلك قوله : للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله ، وقوله عزّ وجلّ أو جائوكم حصرت صدورهم أى ضاقت بالبخل والجبن ، انتهى . و التعفّف التلبّس بالعقّة ، والسيما العلامة ، والإلحاف هو الإلحاح في السؤال .

و في الآية بيان مصرف الصدقات ، و هو أفضل للمصرف ، و هم الفقراء الذين منعوا في سبيل الله وحبسوا فيه بتأدية عوامل وأسباب إلى ذلك : إمّا عدوّ أخذ مالهم من السترو اللباس أو منعهم التعيّش بالخروج إلى الاكتساب أو مرض أو اشتغال بما لا يسعهم معه الاشتغال بالكسب كطالب العلم وغير ذلك .

وفي قوله تعالى يحسبهم الجاهل أى الجاهل بحالهم أغنياء من التعفّف دلالة على أنّهم غير متظاهرين بالفقر إلّا ما لا سبيل لهم إلى ستره من علام الفقر والمسكنة من بشرة أو لباس خلق أو نحوهما .

ومن هنا يظهر : أن المراد بقوله : لا يستلون الناس إلحافاً أنهم لا يسألون الناس أصلاً حتى ينجرّ إلى الإلحاف والإصرار في السؤال ، فإن السؤال أول مرة يجوز للنفس الجزع من مرارة الفقر فيسرع إليها أن لا تصبر وتهمّ بالسؤال في كل موقف ، والإلحاف على كل أحد ، كذا قيل . ولا يبعد أن يكون المراد نفى الإلحاف لأصل السؤال ، ويكون المراد بالإلحاف ما يزيد على القدر الواجب من إظهار الحاجة ، فإنّ مسمّى الإظهار عند الحاجة المبرمة لا بأس به بل ربّما صار واجباً ، والزائد عليه وهو الإلحاف هو المذموم .

و في قوله تعالى : تعرفهم بسيماهم دون أن يقال تعرفونهم نوع صون لجاههم وحفظ لسترهم الذي تستروا به تعففاً من الانتكاف فإنّ كونهم معروفين بالفقر عند كل أحد لا يخلو من هوان أمرهم وظهور ذلهم . وأمّا معرفة رسول الله ﷺ بحالهم بتوسّمه من سيماهم ، وهو نبينهم المبعوث إليهم الرؤف الحنين بهم فليس فيه كسر لشأنهم ، ولا ذهاب كرامتهم ، وهذا - والله أعلم - هو السرّ في الالتفات عن خطاب المجموع إلى خطاب المفرد .

**قوله تعالى : الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار إلى آخر الآية ، السرّ**  
والعلانية متقابلان وهما حالان من ينفقون والتقدير مسرّين ومعلنين . واستيفاء الأزمنة والأحوال في الاتفاق للدلالة على اهتمام هؤلاء المنفقين في استيفاء الثواب ، وإمعانهم في ابتغاء مرضاة الله ، وإرادة وجهه ، ولذلك تدلّى الله سبحانه عنهم فوعدهم وعداً حسناً بلسان الرأفة والتلطّف فقال : لهم أجرهم عند ربهم إلخ .

### ﴿ بحث روائي ﴾

في الدرّ المنثور في قوله تعالى : والله يضاعف لمن يشاء الآية ، أخرج ابن ماجه عن الحسن بن عليّ بن أبي طالب وأبي الدرداء وأبي هريرة وأبي أمامة الباهليّ وعبد الله بن عمرو جابر بن عبد الله وعمران بن حصين كلّهم يحدث عن رسول الله أنّه قال حينئذ ، وأخرج ابن ماجه وابن أبي حاتم عن عمران بن حصين عن رسول الله ﷺ قال : من

أرسل بنفقة في سبيل الله وأقام في بيته فله بكلّ درهم سبعة درهم ، ومن غزا بنفسه في سبيل الله وأنفق في وجهه ذلك فله بكلّ درهم يوم القيمة سبعة ألف درهم ثم تلا هذه الآية: والله يضاعف لمن يشاء .

و في تفسير العياشيّ و رواه البرقيّ أيضاً عن الصادق عليه السلام : إذا أحسن المؤمن عمله ضاعف الله عمله بكلّ حسنة سبعة ضعف ، و ذلك قول الله : والله يضاعف لمن يشاء فأحسنوا أعمالكم التي تعملونها لثواب الله .

و في تفسير العياشيّ عن عمر بن مسلم قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول : إذا أحسن المؤمن عمله ضاعف الله عمله بكلّ حسنة سبعة ضعف فذلك قول الله : والله يضاعف لمن يشاء فأحسنوا أعمالكم التي تعملونها لثواب الله . قلت : و ما الإحسان ؟ قال : إذا صليت فأحسن ركوعك وسجودك ، و إذا صمت فتوقّ ما فيه فساد صومك ، و إذا حججت فتوقّ كلّ ما يحرم عليك في حجّتك و عمرتك . قال : و كلّ عمل عمله فليكن نقيّاً من الدنس .

و فيه عن حران عن أبي جعفر عليهما السلام قال : قلت له : رأيت المؤمن له فضل على المسلم في شيء من الموارد والقضايا والأحكام حتّى يكون للمؤمن أكثر ممّا يكون للمسلم في الموارد أو غير ذلك ؟ قال : لا هما يجريان في ذلك مجرى واحداً إذا حكم الإمام عليهما ، ولكن للمؤمن فضلاً على المسلم في أعمالهما . قال : فقلت : أليس الله يقول : من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، و زعمت أنّهم مجتمعون على الصلوة والزكاة والصوم والحجّ مع المؤمن ؟ قال : فقال : أليس الله قد قال : والله يضاعف لمن يشاء أضعافاً كثيرة ؟ فالمؤمنون هم الذين يضاعف لهم الحسنات ، وكلّ حسنة سبعين ضعفاً ، فهذا من فضيلتهم ، ويزيد الله المؤمن في حسناته على قدر صحّة إيمانه أضعافاً مضاعفة كثيرة و يفعل الله بالمؤمن ما يشاء .

**أقول :** وفي هذا المعنى أخبار آخر و هي مبتنية جميعاً على الأخذ بإطلاق قوله تعالى : والله يضاعف لمن يشاء بالنسبة إلى غير المنفقين ، و الأمر على ذلك إذ لا دليل على التقييد بالمنفقين غير المورد ، و لا يكون المورد مخصّصاً ولا مقيّداً . و إذا كانت

الآية مطلقة كذلك كان قوله : يضاعف مطلقاً بالنسبة إلى الزائد عن العدد وغيره، ويكون المعنى : والله يضاعف العمل كيفما شاء على من شاء، يضاعف لكل محسن على قدر إحسانه سبعمئة ضعف أو أزيد أو أقل كما يزيد للمنفقين على سبعمئة إذا شاء، ولا ينافي هذا ما تقدم في البيان من نفى كون المراد والله يضاعف هذه المضاعفة لمن يشاء لأن الذي نفينا هناك إنما هو تقييده بالمنفقين. والمعنى الذي تدل عليه الرواية نفى التقييد. و قوله ﷺ : أليس الله قد قال : والله يضاعف لمن يشاء أضعافاً كثيرة اه نقل بالمعنى مأخوذ من مجموع : آيتين إحداهما : هذه الآية من سورة البقرة ، و الأخرى : قوله تعالى : « مَنْ ذَا الَّذِي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة » البقرة - ٢٤٥ . ومما يستفاد من الرواية إمكان قبول أعمال غير المؤمنين من سائر فرق المسلمين وترتب الثواب عليها ، و سيجيء البحث عنها في قوله تعالى : « إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الْوُلْدَانِ الْآيَة » النساء - ١٢٦ .

وفي المجمع قال : والآية عامة في النفقة في جميع ذلك ( يشير إلى الجهاد وغيره من أبواب البر ) وهو المروى عن أبي عبد الله ﷺ . وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق في المصنف عن أيوب قال : أشرف على النبي ﷺ رجل من رأس تل فقالوا : ما أجلد هذا الرجل لو كان جلده في سبيل الله ! فقال النبي ﷺ : أو ليس في سبيل الله إلا من قتل ؟ ثم قال : من خرج في الأرض يطلب حلالاً يكف به والديه فهو في سبيل الله ، ومن خرج يطلب حلالاً يكف به أهله فهو في سبيل الله ، ومن خرج يطلب به نفسه فهو في سبيل الله ، ومن خرج يطلب التكاثر فهو في سبيل الشيطان .

وفيه أيضاً أخرج ابن المنذر والحاكم وصححه : أن رسول الله ﷺ سأل البراء بن عازب فقال : يا براء كيف نفقتك على أمك ؟ وكان موسعاً على أهله فقال : يارسول الله ما أحسنها ؟ قال : فإن نفقتك على أهلك وولدك وخادمك صدقة فلا تتبع ذلك منماً ولا أدى .

أقول : والروايات في هذه المعاني كثيرة من طرق الفريقين، وفيها أن كل عمل

يرتضيه الله سبحانه فهو في سبيل الله ، وكل نفقة في سبيل الله فهي صدقة .

وفي تفسير القمي في قوله تعالى : الَّذِينَ يَنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الْآيَةَ عَنْ  
الصادق عليه السلام قال رسول الله ﷺ : من أسدى إلى مؤمن معروفاً ثم أذاه بالكلام أو  
من عليه فقد أبطل صدقته إلى أن قال الصادق عليه السلام : والصفوان هي الصخرة الكبيرة  
التي تكون في المفازة إلى أن قال في قوله تعالى : كمثل الجنة ربوة الآية وابل أي  
مطر والطل ما يقع بالليل على الشجر والنبات ، وقال في قوله تعالى : إعصار فيه نار الآية  
الإعصار الرياح .

وفي الدر المنثور في قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ الْآيَةِ ،  
أخرج ابن جرير عن علي بن أبي طالب في قوله تعالى : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ  
طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ ، قال : من الذهب والفضة ومما أخرجنا لكم من الأرض ، قال : يعني  
من الحب والتمر وكل شيء عليه زكاة

وفيه أيضاً أخرج ابن أبي شيبة وعبد بن حميد والترمذي وصححه وابن ماجه  
وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه والحاكم وصححه والبيهقي في  
سننه عن البراء بن عازب في قوله ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ، قال : نزلت فينا معشر  
الأنصار ، كنّا أصحاب نخل كان الرجل يأتي من نخله على قدر كثرته وقلته ، وكان  
الرجل يأتي بالقنوقين فيعلقه في المسجد وكان أهل الصفقة ليس لهم طمام ، فكان أحدهم  
إذا جاع أتى القنوق فضر به بعصاه فيسقط البسر والتمر فيأكل ، وكان ناس ممن لا يرغب  
في الخير يأتي الرجل بالقنوق فيه الشيص والحشف ، وبالقنوق قد انكسر فيعلقه فأنزل الله  
يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا  
الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ، قال : لو أن أحدكم أهدي  
إليه مثل ما أعطي لم يأخذه إلا عن إغماض وحياء ، قال : فكنا بعد ذلك يأتي أحدنا بصالح  
ما عنده .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في قول الله : يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ  
مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ، قال : كان

رسول الله ﷺ إذا أمر بالنخل أن يزكى يجيء قوم بألوان من التمر وهو من أردى التمر، يؤدونه عن زكوتهم تمر يقال له الجعورور والمعافاره قليلة اللحى عظيمة النوى، وكان بعضهم يجيء بها عن التمر الجيد فقال رسول الله ﷺ لا تخرصوا هاتين النخلتين ولا تجيئوا منها بشيء وفي ذلك نزل : ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه، والإغماض أن تأخذ هاتين التمرتين ، وفي رواية أخرى عن أبي عبد الله ﷺ في قوله تعالى : أنفقوا من طيبات ما كسبتم فقال : كان القوم كسبوا مكاسب سوء في الجاهلية فلما أسلموا أرادوا أن يخرجوها من أموالهم ليتصدقوا بها ، فأبى الله تبارك وتعالى إلا أن يخرجوا من أطيب ما كسبوا .

**أقول :** وفي هذا المعنى أخبار كثيرة من طرق الفريقين .

و في تفسير القمي في قوله تعالى : الشيطان يعدكم الفقر الآية ، قال : إن الشيطان يقول لا تنفقوا فإنكم تفترون والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً أى يغفر لكم أن أنفقتم لله وفضلاً يخلف عليكم .

وفي الدر المنثور أخرج الترمذي وحسنه والنسائي وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن حبان والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : إن للشيطان مائة بابن آدم وللملك مائة : فأما مائة الشيطان فأيعاد بالشر وتكذيب بالحق . وأما مائة الملك فأيعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ، ومن وجد الأخرى فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ : الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء الآية .

وفي تفسير العياشي عن أبي جعفر عليهما السلام في قوله تعالى : ومن يؤتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً قال : المعرفة .

وفيه عن الصادق عليه السلام : إن الحكمة المعرفة والتفقه في الدين .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام : في الآية ، قال : طاعة الله ومعرفة الإمام .

**أقول :** وفي معناه روايات أخر وهي من قبيل عد المصدق .

وفي الكافي عن عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمد بن خالد عن بعض أصحابنا

رفعه قال : قال رسول الله ﷺ : ما قسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل ، فنوم العاقل أفضل من سهر الجاهل ، وإقامة العاقل أفضل من شخوص الجاهل ، ولا بعث الله نبياً ولا رسولاً حتى يستكمل العقل ويكون عقله أفضل من جميع عقول أمته ، وما يضر النبي في نفسه أفضل من اجتهد المجهدين ، وما أدى العبد فرائض الله حتى عقل عنه ، ولا بلغ جميع العابدين في فضل عبادتهم ما بلغ العاقل ، والعلاء هم أولوا الألباب . قال الله تبارك وتعالى : وما يتذكر إلا أولوا الألباب .

وعن الصادق عليه السلام قال : الحكمة ضياء المعرفة وميزان التقوى وثمرة الصدق ولو قلت : ما أنعم الله على عبده بنعمة أعظم وأرفع وأجزل وأبهى من الحكمة لقلت ، قال الله عز وجل : يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب .

أقول : وفي قوله تعالى : وما أنفقتم الآية في الصدقة والنذر والمظلم أخبار كثيرة سنوردها في مواردنا إنشاء الله .

وفي الدر المنثور بعدة طرق عن ابن عباس وابن جبير وأسماء بنت أبي بكر وغيرهم : أن رسول الله كان يمنع عن الصدقة على غير أهل الإسلام وأن المسلمين كانوا يكرهون الإنفاق على قرابتهم من الكفار فأنزل الله : ليس عليك هداهم الآية فأجاز ذلك .

أقول : قد مر أن قوله : هداهم إنما يصلح لأن يراد به هدى المسلمين الموجود فيهم دون الكفار فالآية أجنبية عما في الروايات من قصة النزول . على أن تعيين المورد في قوله : للفقراء الذين أحصروا الآية لا يلائمه كثير ملاممة . وأما مسألة الإنفاق على غير المسلم إذا كان في سبيل الله وابتغاء مرضاة الله فيكفي فيه إطلاق الآيات .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في قول الله عز وجل : وإن تخفوها وتعطوها الفقراء فهو خير لكم فقال : هي سوى الزكاة ، إن الزكاة علانية غير سر .

وفيه عنه عليه السلام : كل ما فرض الله عليك فأعلانه أفضل من إسراره وما كان تطوعاً فأسراره أفضل من إعلانه .

**أقول :** وفي معنى الحديثين أحاديث أخر وقد تقدّم ما يتضح به معناها .  
وفي المجمع في قوله تعالى : للفقراء الذين أحصروا في سبيل الله الآية قال :  
قال أبو جعفر عليهما السلام نزلت الآية في أصحاب الصفة ، قال : وكذلك رواه الكلبي  
عن ابن عباس . وهم نحو من أربعة مائة رجل لم يكن لهم مساكن بالمدينة ، ولا عشائر  
يأوون إليهم فجعلوا أنفسهم في المسجد ، وقالوا نخرج في كل سرية يبعثها رسول الله ،  
فحث الله الناس عليهم فكان الرجل إذا أكل وعنده فضل أتاهاهم به إذا أمسى .  
وفي تفسير العياشي عن أبي جعفر عليهما السلام : إن الله يبغض الملحف .  
وفي المجمع في قوله تعالى : الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار الآية ، قال :  
سبب النزول عن ابن عباس نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب عليه السلام كانت معه أربعة  
دراهم ، فتصدق بواحد ليلاً وبواحد نهاراً وبواحد سرّاً وبواحد علانية فنزل : الذين  
ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية . قال الطبرسي : وهو المروي عن أبي جعفر  
وأبي عبد الله عليهما السلام .

**أقول :** وروى هذا المعنى العياشي في تفسيره ، والمفيد في الاختصاص ، والصدوق  
في العيون .

وفي الدر المنثور أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر  
وابن أبي حاتم والطبراني وابن عساكر من طريق عبد الوهاب بن مجاهد عن أبيه عن  
ابن عباس في قوله تعالى : الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية ، قال :  
نزلت في علي بن أبي طالب عليه السلام كانت له أربعة دراهم فأنفق بالليل درهماً وبالنهار درهماً  
وسراً وعلانية درهماً .

وفي تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب في المناقب عن ابن عباس والسدي ومجاهد  
والكلبي وأبي صالح والواحدي والطوسي والثعلبي والطبرسي والماوردي والقشيري  
والثمالي والنقاش والقتال وعبد الله بن الحسين وعلي بن حرب الطائي في تفسيرهم :  
أنه كان عند ابن أبي طالب دراهم فضة فيتصدق بواحد ليلاً وبواحد نهاراً وبواحد  
سراً وبواحد علانية فنزل : الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرّاً وعلانية فسمي

كلّ درهم مالاّ وبشّره بالقبول .

وفي بعض التفاسير : أن الآية نزلت في أبي بكر تصدّق بأربعين ألف دينار عشرة بالليل وعشرة بالنهار وعشرة بالسّرّ وعشرة بالعلانية .

**أقول :** ذكر الألوسيّ في تفسيره في ذيل هذا الحديث : أن الإمام السيوطيّ تعقّب به بأنّ خبر تصدّقه بأربعين ألف دينار إنّما رواه ابن عساكر في تاريخه عن عائشة وليس فيه ذكر من نزول الآية ، وكأنّ من ادّعى ذلك فهمه ممّا أخرجه ابن المنذر عن ابن إسحاق ، قال : لمّا قبض أبو بكر واستخلف عمر خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثمّ قال : أيّها النّاس إنّ بعض الطمع فقر ، وإنّ بعض اليأس غنى ، وإنّكم تجمعون ما لا تأكلون ، وتؤمّلون ما لا تدركون ، واعلموا أنّ بعض الشحّ شعبة من النفاق ، فأنفقوا خيراً لأنفسكم ، فأين أصحاب هذه الآية ، وقرء الآية الكريمة وأنت تعلم أنّها لادلالة فيها على نزولها في حقّه ، انتهى .

وفي الدّر المنثور بعدّة طرق عن أبي أمامة وأبي الدرداء وابن عباس وغيرهم أنّ الآية نزلت في أصحاب الخيل .

**أقول :** والمراد بهم المرابطون الذين ينفقون على الخيل ليلاً ونهاراً ، لكنّ لفظ الآية أعني قوله : سرّاً وعلانية لا ينطبق عليه إذ لا معنى لهذا التعميم والترديد في الإنفاق على الخيل أصلاً .

وفي الدّر المنثور أيضاً أخرج ابن المسيّب : الذين ينفقون الآية كلّها في عبد الرحمن بن عوف و عثمان بن عفّان في نفقتهم في جيش العسرة  
**أقول :** و الإشكال فيه من حيث عدم الانطباق نظير الإشكال في سابقه .





الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ  
 ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ  
 مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ  
 أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ  
 وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ( ٢٧٦ ) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ  
 وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا  
 هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا  
 إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ( ٢٧٨ ) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ  
 تُبْتِغُوا فَلََكُمْ رُقُوشُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ  
 فَنظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا  
 تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٢٨١)

### ﴿بيان﴾

الآيات مسوقة لتأكيد حرمة الربا والتشديد على المرابين وليست مسوقة  
 للتشريع الابتدائي. كيف ولسانها غير لسان التشريع؟ وإنما الذي يصلح لهذا  
 الشأن قوله تعالى في سورة آل عمران: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا  
 مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » آل عمران - ١٣٠ نعم تشتمل هذه الآيات على  
 مثل قوله: يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ،  
 و سياق الآية يدل على أن المسلمين ما كانوا ينتهون عن النهي السابق عن الربا؛ بل  
 كانوا يتداولونها بينهم بعض التداول فأمرهم الله بالكف عن ذلك، وترك ما للغرماء

في ذمة المدينين من الربا . و من هنا يظهر معنى قوله : فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله الآية على ما سيجيء بيانه .

و قد تقدّم على ما في سورة آل عمران من النهي قوله تعالى في سورة الروم وهي مكّيّة : « وما آتيتم من رباً ليربو في أموال الناس فلا يربو عند الله و ما آتيتم من زكوة تربدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » الروم - ٣٩ . و من هنا يظهر أن الربا كان أمراً مرغوباً عنه من أوائل عهد رسول الله قبل الهجرة حتّى تمّ أمر النهي عنه في سورة آل عمران ، ثمّ اشتدّ أمره في سورة البقرة بهذه الآيات السبع الّتي يدلّ سياقها على تقدّم نزول النهي عليها . و من هنا يظهر : أن هذه الآيات إنّما نزلت بعد سورة آل عمران .

على أن حرمة الربا في مذهب اليهود على ما يذكره الله تعالى في قوله : « وأخذهم الربا وقد نهوا عنه » النساء - ١٠٦ . ويشعر به قوله : - حكاية عنهم - « ليس علينا في الأميين سبيل » آل عمران - ٧٥ مع تصديق القرآن لكتابتهم وعدم نسخ ظاهر كانت تدلّ على حرمة في الإسلام .

و الآيات أعني آيات الربا لا تخلو عن ارتباط بما قبلها من آيات الإنفاق في سبيل الله كما يشير إليه قوله تعالى في ضمنها : يمحّ الله الربا ويربي الصدقات اه وقوله : وأن تصدّقوا فهو خير لكم اه ، وكذا ما وقع من ذكره في سورة الروم وفي سورة آل عمران مقارناً لذكر الإنفاق والصدقة والحثّ عليه والترغيب فيه .

على أن الاعتبار أيضاً يساعد الارتباط بينهما بالتضادّ والمقابلة ، فإنّ الربا أخذ بلا عوض كما أن الصدقة إعطاء بلا عوض ، و الآثار السيئة المترتبة على الربا تقابل الآثار الحسنة المترتبة على الصدقة وتحاذيها على الكليّة من غير تخلّف واستثناء ، فكلّ مفسدة منه يحاذيها خلافها من المصلحة منها لنشر الرحمة والمحبة ، وإقامة أصلاب المساكين والمحتاجين ، ونماء المال ، وانتظام الأمر واستقرار النظام والأمن في الصدقة وخلاف ذلك في الربا .

وقد شدّد الله سبحانه في هذه الآيات في أمر الربا بما لم يشدّد بمثله في شيء

من فروع الدين إلا في تولّي أعداء الدين ، فإنّ التشديد فيه يضاھي تشديد الربا ، وأما سائر الكبائر فإنّ القرآن وإن أعلن مخالفتها وشدّد القول فيها فإنّ لحن القول في تحريمها دون ما في هذين الأمرين ، حتّى الزنا وشرب الخمر والقمار والظلم ، وما هو أعظم منها كقتل النفس التي حرّم الله والفساد ، فجميع ذلك دون الربا وتولّي أعداء الدين .

وليس ذلك إلا لأنّ تلك المعاصي لا تعدّى الفرد أو الأفراد في بسط آثارها المشتومة ، ولا تسري إلا إلى بعض جهات النفوس ، ولا تحكم إلا في الأعمال والأفعال بخلاف هاتين المعصيتين فإنّ لهما من سوء التأثير ما يهدم به بنيان الدين ويعفي أثره ، و يفسد به نظام حياة النوع ، و يضرب الستر على الفطرة الإنسانية و يسقط حكمها فيصير نسباً منسياً على ما سيّضح إنشاء الله العزيز بعض الاتّضاح .

و قد صدّق جريان التاريخ كتاب الله فيما كان يشدّد في أمرهما حيث أهبط المداھنة والتولّي و التحابّ و التماثل إلى أعداء الدين الأهم الإسلامية في مهبط من الهلكة صاروا فيها نهباً منهوباً لغيرهم : لا يملكون مالاً و لا عرضاً و لا نفساً ، و لا يستحقّون موتاً و لا حياة ؛ فلا يؤذن لهم فيموتوا ، و لا يغمض عنهم فيستفيدوا من موهبة الحياة ، و هجرهم الدين ، و ارتحلت عنهم عامّة الفضائل .

و حيث ساق أكل الربا إلى ادّخار الكنوز و تراكم الثروة والسودد فجّر ذلك إلى الحروب العالمية العامّة ، و انقسام الناس إلى قسمي المثري السعيد والمعدم الشقيّ ، و بان اليبس ، فكان بلوى يدك ذلك الجبال ، و يزلزل الأرض ؛ ويهدّد الإنسانية بالانهدام ، و الدنيا بالخراب ، ثمّ كان عاقبة الذين أساءوا السوای .

و سيظهر لك إنشاء الله تعالى أنّ ما ذكره الله تعالى من أمر الربا وتولّي أعداء الدين من ملاحم القرآن الكريم .

**قوله تعالى :** الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المسّ اه ، الخبط هو المشى على غير استواء ، يقال خبط البعير إذا اختلّ جهة مشيه ، و للإنسان في حيوته طريق مستقيم لا ينحرف عنه ، فإنّه لا محالة ذو أفعال

وحرركات في طريق حيوته بحسب المحيط الذي يعيش فيه ، وهذه الأفعال محفوظة النظام بأحكام اعتقادية عقلانية وضعها ونظمها الإنسان ثم طبق عليها أفعاله الانفرادية والاجتماعية . فهو يقصد الأكل إذا جاع ، ويقصد الشرب إذا عطش ، والفراش إذا انتهى النكاح ، والاستراحة إذا تعب ، والاستظلال إذا أراد السكن وهكذا ، وينبسط لأمر وينقبض عن أخرى في معاشرته ، ويريد كل مقدمة عند إرادة ذبيها ، وإذا طلب مسبباً مال إلى جهة سببه .

وهذه الأفعال على هذه الاعتقادات مرتبطة متحدة نحو اتحاد متلائمة غير متناقضة ومجموعها طريق حيوته .

وإنما اهتدى الإنسان إلى هذا الطريق المستقيم بقوة مودوعة فيه هي القوة المميزة بين الخير والشرّ والنافع والضارّ والحسن والقبيح وقد مرّ بعض الكلام في ذلك .

وأما الإنسان الممسوس وهو الذي اختلّت قوّته المميزة فهو لا يفرّق بين الحسن والقبيح والنافع والضارّ والخير والشرّ ، فيجري حكم كلّ مورد فيما يقابله من الموارد ، لكن لا لأنّه ناس لمعنى الحسن والقبيح وغيرهما فأنّه بالأخيرة إنسان ذو إرادة ، ومن المحال أن يصدر عن الإنسان غير الأفعال الإنسانية بل لأنّه يرى القبيح حسناً والحسن قبيحاً والخير والنافع شرّاً وضارّاً وبالعكس فهو خابط في تطبيق الأحكام وتعيين الموارد .

وهو مع ذلك لا يجعل الفعل الغير العاديّ عادياً دون العكس فإنّ لازم ذلك أن يكون عنده آراء وأفكار منتظمة ربّما طبّقها على غير موردها من غير عكس ، بل قد اختلّ عنده حكم العادة وغيره وصار ما يتخيّل ويريده هو المتّبع عنده ، فالعاديّ وغير العاديّ عنده على حدّ سواء كالناقة تخبط وتضرب على غير استواء ، فهو في خلاف العادة لا يرى العادة إلّا مثل خلاف العادة من غير مزية لها عليه ، فلا ينجذب من خلاف العادة إلى العادة فافهم ذلك .

وهذا حال المرابي في أخذه الربا (إعطاء الشيء ، وأخذ ما يماثله وزيادة بالأجل)

فإنَّ الَّذِي تدعو إليه الفطرة و يقوم عليه أساس حياة الإنسان الاجتماعية أن يعامل بمعاوضة ما عند من المال الَّذِي يستغنى عنه ممَّا عند غيره من المال الَّذِي يحتاج إليه ، وأمَّا إعطاء المال وأخذ ما يماثلُه بعينه مع زيادة فهذا شيء ينهدم به قضاء الفطرة وأساس المعيشة ، فإنَّ ذلك ينجرُّ من جانب المرابي إلى اختلاس المال من يد المدين وتجمُّعه وتراكمه عند المرابي ، فإنَّ هذا المال لا يزال ينمو ويزيد ، ولا ينمو إلا من مال الغير ، فهو بالانتقاص والانفصال من جانب ، والزيادة والانضمام إلى جانب آخر

وينجرُّ من جانب المدين المؤدِّي للربا إلى تزايد المصروف بمرور الزمان تزايداً لا يتداركه شيء مع تزايد الحاجة وكلِّما زاد المصروف أى نما الربا بالتصاعد زادت الحاجة من غير أمرٍ يجبر النقص ويتداركه ، وفي ذلك انهدام حيوة المدين فالربا يضاد التوازن و التعادل الاجتماعي و يفسد الانتظام الحاكم على هذا الصراط المستقيم الإنساني الَّذِي هدته إليه الفطرة الإلهية

وهذا هو الخبط الَّذِي يبتلي به المرابي كخبط الممسوس ، فإنَّ الربا يضرُّه أن يختلَّ عنده أصل المعاملة والمعاوضة فلا يفرق بين البيع و الربا ، فإذا دعي إلى أن يترك الربا ويأخذ بالبيع أجاب أن البيع مثل الربا لا يزيد على الربا بمزية ، فلاموجب لترك الربا وأخذ البيع ، ولذلك استدلَّ تعالى على خبط المرابين بما حكاه من قولهم : إنما البيع مثل الربا .

ومن هذا البيان يظهر : أولاً : أن المراد بالقيام في قوله تعالى : لا يقوم إلا كما يقوم اه هو الاستواء على الحيوة والقيام بأمر المعيشة فإنَّه معنى من معاني القيام يعرفه أهل اللسان في استعمالهم . قال تعالى : « ليقوم الناس بالقسط » الحديد - ٢٥ وقال تعالى : « أن تقوم السماء والأرض بأمره » الروم - ٢٥ وقال تعالى : « وأن تقوموا لليتامى بالقسط » النساء - ٨٢ . وأمَّا كون المراد به المعنى المقابل للعود فممَّا لا يناسب المورد ، ولا يستقيم عليه معنى الآية

وثانياً : أن المراد بخبط الممسوس في قيامه ليس هو الحركات الَّتِي يظهر من الممسوس حال الصرع أو عقيب هذا الحال على ما يظهر من كلام المفسرين ، فإنَّ ذلك

لا يلائم الغرض المسوق لبيانه الكلام ، وهو ما يعتقده المرابي من عدم الفرق بين البيع والربا ، وبناء علمه عليه ، وعصمته أفعال اختيارية صادرة عن اعتقاد خاطئ ، وكم من فرق بينهما وبين الحركات الصادرة عن المصروع حال الصرع . فلمصير إلى ما ذكرناه من كون المراد قيام الربوي في حياته بأمر المعاش كقيام الممسوس الخابط في أمر الحيوة !

وثالثاً : النكتة في قياس البيع بالربا دون العكس في قوله تعالى : ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا ، ولم يقل : إنما الربا مثل البيع كما هو السابق إلى الذهن وسيجيء توضيحه

ورابعاً : أن التشبيه أعني قوله : الذي يتخبطه الشيطان من المس لا يخلو عن إشعار بجواز تحقق ذلك في مورد الجنون في الجملة ، فإن الآية وإن لم تدل على أن كل جنون هو من مس الشيطان لكنّها لا تخلو عن إشعار بأن من الجنون ما هو بمس الشيطان ، وكذلك الآية وإن لم تدل على أن هذا المس من فعل إبليس نفسه فإن الشيطان بمعنى الشرير ، يطلق على إبليس وعلى شرار الجن وشرار الإنس ، وإبليس من الجن ، فالمتيقن من إشعار الآية أن للجن شأناً في بعض الممسوسين إن لم يكن في كلهم .

وما ذكره بعض المفسرين أن هذا التشبيه من قبيل المجازاة مع عامة الناس في بعض اعتقاداتهم الفاسدة حيث كان اعتقادهم بتصرف الجن في المجانين ، ولا ضير في ذلك لأنّه مجرد تشبيه خال عن الحكم حتى يكون خطأ غير مطابق للمواقع ، فحقيقة معنى الآية ، أن هؤلاء الآكلين للربا حالهم حال المجنون الذي يتخبطه الشيطان من المس ، وأما كون الجنون مستنداً إلى مس الشيطان فأمر غير ممكن لأن الله سبحانه أعدل من أن يسلط الشيطان على عقل عبده أو على عبده المؤمن .

ففيه : أنه تعالى أجلّ من أن يستند في كلامه إلى الباطل ولغو القول بأى نحو كان من الاستناد إلا مع بيان بطلانه وردّه على قائله ، وقد قال تعالى : في وصف كلامه

« كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه » فصلت - ٤٢ و قال تعالى : « إنه لقول فصل وما هو بالهزل » الطارق - ١٤ .

وأما أن استناد الجنون إلى تصرف الشيطان بإذهاب العقل ينافي عدله تعالى .  
ففيه أن الإشكال بعينه مقلوب عليهم في إسنادهم ذهاب العقل إلى الأسباب الطبيعية ،  
فإنها أيضاً مستندة بالأخرة إلى الله تعالى مع إذهابها العقل .

على أنه في الحقيقة ليس في ذهاب العقل بإذهاب الله إتياء إشكال ، لأن التكليف يرتفع حينئذ بارتفاع الموضوع ، وإنما الإشكال في أن ينحرف الإدراك العقلي عن مجرى الحق وسنن الاستقامة مع بقاء موضوع العقل على حاله ، كأن يشاهد الإنسان العاقل الحسن قبيحاً وبالعكس ، أو يرى الحق باطلاً وبالعكس جزافاً بتصرف من الشيطان ، فهذا هو الذي لا يجوز نسبته إليه تعالى ، وأما ذهاب القوة المميّزة وفساد حكمها تبعاً لذهاب نفسها فلا محذور فيه سواء أسند إلى الطبيعة أو إلى الشيطان .

على أن استناد الجنون إلى الشيطان ليس على نحو الاستقامة ومن غير واسطة بل الأسباب الطبيعية كاختلال الأعصاب والآفة الدماغية أسباب قريبة ورائها الشيطان ، كما أن أنواع الكرامات تستند إلى الملك مع تخلل الأسباب الطبيعية في البين ، وقد ورد نظير ذلك فيما حكاه الله عن أيوب عليه السلام إذ قال : « ربّ إنني مسني الشيطان بنصب وعذاب » ص - ٤١ وإذ قال : « ربّ إنني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين » الأنبياء - ٨٣ . والضر هو المرض وله أسباب طبيعية ظاهرة في البدن ، فنسب ما به من المرض المستند إلى أسبابه الطبيعية إلى الشيطان .

وهذا وما يشبهه ، من الآراء الماديّة التي دبّت في أذهان عدّة من أهل البحث من حيث لم يشعروا بها حيث أن أصحاب المادّة لمّا سمعوا الإلهيين يسندون الحوادث إلى الله سبحانه ، أو يسندون بعضها إلى الروح أو الملك أو الشيطان اشتبه عليهم الأمر فحسبوا أن ذلك إبطال للعلل الطبيعية وإقامة لما وراء الطبيعة مقامها ، ولم يفقهوا أن المراد به تعليل في طول تعليل لا في عرض تعليل ، وقد مرّت الإشارة إلى ذلك في المباحث السابقة مراراً .

وخامساً : فساد ما ذكره بعض آخر من المفسرين : أن المراد بالتشبيه بيان حال آكلي الربا يوم القيمة وأنهم سيقومون عن قبورهم يوم القيامة كالصريع الذي يتخبطه الجنون . ووجه الفساد أن ظاهر الآية على ما بيننا لا يساعد هذا المعنى ، والرواية لا تجعل للآية ظهوراً فيما ليست بظاهرة فيه ، وإنما تبين حال آكل الربا يوم القيامة .

قال في تفسير المنار : وأما قيام آكل الربا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس فقد قال ابن عطية في تفسيره : المراد تشبيه المراهي في الدنيا بامتخبط المصروع كما يقال لمن يصرع بحركات مختلفة : قد جن .

أقول : وهذا هو المتبادر ولكن ذهب الجمهور إلى خلافه وقالوا : إن المراد بالقيام القيام من القبر عند البعث ، وأن الله تعالى جعل من علامة المراهين يوم القيامة أنهم يبعثون كالمصروعين ، ورووا ذلك عن ابن عباس وابن مسعود بل روى الطبراني من حديث عوف بن مالك مرفوعاً « إياك والذنوب التي لا تغفر : الغلول فمن غل شيئاً أتى به يوم القيامة ، والربا فمن أكل الربا بعث يوم القيامة مجنوناً يتخبط .

ثم قال : والمتبادر إلى جميع الأفهام ما قاله ابن عطية لأنه إذا ذكر القيام انصرف إلى النهوض المعهود في الأعمال ، ولا قرينة تدل على أن المراد به البعث ، وهذه الروايات لا يسلم منها شيء من قول في سنده ، وهي لم تنزل مع القرآن ؛ ولا جاء المرفوع منها مفسراً للآية ، ولولاها لما قال أحد بغير المتبادر الذي قال به ابن عطية إلا من لم يظهر له صحته في الواقع .

ثم قال : وكان الوضاعون الذين يختلفون الروايات يتحررون في بعضها ما أشكل عليهم ظاهره من القرآن فيضعون لهم رواية يفسرونه بها ، وقلما يصح في التفسير شيء . انتهى ما ذكره .

ولقد أصاب فيما ذكره من خطائهم لكنه أخطأ في تقرير معنى التشبيه الواقع في الآية حيث قال : أما ما قاله ابن عطية فهو ظاهر في نفسه فإن أولئك الذين فتنهم المال واستعبدتهم حتى ضربت نفوسهم بجمعه ، وجعلوه مقصوداً لذاته ، وتركوا

لأجل الكسب به جميع موارد الكسب الطبيعيّ تخرج نفوسهم عن الاعتدال الذي عليه أكثر الناس ، و يظهر ذلك في حركاتهم و تقلّبهم في أعمالهم كما تراه في حركات المولعين بأعمال البورصة و المغرمين بالقمار ، يزيد فيهم النشاط و الانهماك في أعمالهم ، حتّى يكون خفّة تعقبها حركات غير منتظمة . وهذا هو وجه الشبه بين حركاتهم و بين تخبط المأمسوس فإنّ التخبط من الخطب وهو ضرب غير منتظم و كخطب العشواء ، انتهى .

فإنّ ما ذكره من خروج حركاتهم عن الاعتدال و الانتظام و إن كان في نفسه صحيحاً لكن لا هو معلول أكل الربا محضاً ، و لا هو المقصود من التشبيه الواقع في الآية : أمّا الأوّل فإنّما ذلك لانقطاعهم عن معنى العبوديّة و إخلادهم إلى لذائذ المادّة ، ذلك مبلغهم من العلم ، فسلّبوا بذلك العقبة الدينيّة و الوقار النفسانيّ ، و تأثرت نفوسهم عن كلّ لذة يسيرة متراعية من المادّة ، و تعقّب ذلك اضطراب حركاتهم ، و هذ مشاهد محسوس من كلّ من حاله الحال الذي ذكرنا و إن لم يمسّ الربا طول حياته .

و أمّا الثاني فلا أنّ الاحتجاج الواقع في الآية على كونهم خاطئين لا يلائم ما ذكره من وجه الشبه ، فإنّ الله سبحانه يحتجّ على كونهم خاطئين في قيامهم بقوله : ذلك بأنّهم قالوا إنّما البيع مثل الربا و لو كان كما يقول كان الأنسب الاحتجاج على ذلك بما ذكره من اختلال حركاتهم و فساد النظم في أعمالهم . فلمصير إلى ما قدّمناه .

**قوله تعالى :** ذلك بأنّهم قالوا إنّما البيع مثل الربا ، قد تقدّم الوجه في تشبيه البيع بالربا دون العكس بأن يقال : إنّما الربا مثل البيع فإنّ من استقرّ به الخطب و الاختلال كان وافقاً في موقف خارج عن العادة المستقيمة ، و المعروف عند العقلاء و المنكر عندهم سيّان عنده ، فإذا أمرته بترك ما يأتيه من المنكر و الرجوع إلى المعروف أجابك - لو أجاب - أنّ الذي تأمرني به كالذي تنهاني عنه لا مزيّة له عليه ، و لو قال : إنّ الذي تنهاني عنه كالذي تأمرني به كان عاقلاً غير مختلّ الإدراك فإنّ معنى هذا القول : أنّه يسلم أنّ الذي يؤمر به أصل ذو مزيّة يجب اتّباعه لكنّه يدّعي أنّ الذي ينهى عنه

ذومزية مثله ، ولم يكن معنى كلامه إبطال المزية وإهماله كما يراه الممسوس ، وهذا هو قول المرابي المستقر في نفسه للخطب : إنما البيع مثل الربا ، ولوأنه قال : إن الربا مثل البيع لكان راداً على الله جاحداً للشرعة لا خابطاً كالممسوس .

والظاهر أن قوله تعالى : ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا حكاية لحالهم الناطق بذلك وإن لم يكونوا قالوا ذلك بالسنتهم ، وهذا السياق أعني حكاية الحال بالقول ، معروف عند الناس .

وبذلك يظهر فساد ما ذكره بعضهم : أن المراد بقولهم : إنما البيع مثل الربا نظمها في سلك واحد ، وإنما قلبوا التشبيه وجعلوا الربا أصلاً وشبهوا به البيع للمبالغة كما في قوله :

ومهمه مغبرة أرجامه \* كأن لون أرضه سماءه

وكذا فساد ما ذكره آخرون : أنه يجوز أن يكون التشبيه غير مقلوب بناءً على ما فهموه : أن البيع إنما حل لأجل الكسب والفائدة ، وذلك في الربا متحقق وفي غيره موهوم . ووجه الفساد ظاهر مما تقدم .

**قوله تعالى :** وأحل الله البيع وحرّم الربا جملة مستأنفة بناءً على أن الجملة الفعلية المصدرة بالماضي لو كانت حالاً لوجب تصديرها بقد . يقال : جائني زيد وقد ضرب عمراً ولا يلائم كونها حالاً ما يفيد أول الكلام من المعنى ، فإن الحال قيد لزمان عامله وظرف لتحققه ، فلو كانت حالاً لأفادت : أن تغبطهم لقولهم إنما البيع مثل الربا إنما هو في حال أحل الله البيع وحرّم الربا عليهم ، مع أن الأمر على خلافه فهم خابطون بعد تشريع هذه العمليّة والحرمة وقبل تشريعهما ، فالجملة ليست حالية وإنما هي مستأنفة .

وهذه المستأنفة غير متضمنة للتشريع الابتدائي على ما تقدم أن الآيات ظاهرة في سبق أصل تشريع الحرمة ، بل بانية على ما تدلّ عليها آية آل عمران : يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون ، آل عمران- ١٣٠ . فالجملة أعني قوله : وأحل الله البيع لا تدلّ على إنشاء الحكم ، بل على الإخبار

عن حكم سابق وتوطئة لتفرّع قوله بعدها : فمن جاءه موعظة من ربه إلخ . هذا ما ينساق إليه ظاهر الآية الشريفة .

وقد قيل : إنَّ قوله : وأحلَّ الله البيع وحرَّم الربا مسوق لإبطال قولهم : إنما البيع مثل الربا ، والمعنى لو كان كما يقولون لما اختلف حكمهما عند أحكم الحاكمين مع أنَّ الله أحلَّ أحدهما وحرَّم الآخر .

وفيه أنه وإن كان استدلالاً صحيحاً في نفسه لكنّه لا ينطبق على لفظ الآية فإنّه معنى كون الجملة ؛ وأحلَّ الله إلخ ؛ حالية وليست بحال .

وأضعف منه ما ذكره آخرون : أنَّ معنى قوله : وأحلَّ الله إلخ أنه ليست الزيادة في وجه البيع نظير الزيادة في وجه الربا ، لأنّني أحللت البيع وحرّمت الربا ، والأمر أمرى ، والخلق خلقي ، أقضي فيهم بما أشاء ، واستعبدهم بما أريد ، ليس لأحد منهم أن يعترض في حكمي .

وفيه : أنه أيضاً مبنيّ على أخذ الجملة حالية لا مستأنفة . على أنه مبنيّ على إنكار ارتباط الأحكام بالمصالح والمفاسد ارتباط السببية والمسببية . وبعبارة أخرى على نفى العلوية والمعلوية بين الأشياء وإسناد الجميع إلى الله سبحانه من غير واسطة ، والضرورة تبطله . على أنه خلاف ما هودأب القرآن من تعليل أحكامه وشراعه بمصالح خاصة أو عامة . على أنَّ قوله في ضمن هذه الآيات : وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين الآية وقوله : لا تظلمون الآية وقوله : إنَّ الذين يأكلون الربا إلى قوله مثل الربا تدلّ على نوع تعليل لإحلال البيع بكونه جارياً على سنة الفطرة والخلقة ولتحریم الربا بكونه خارجاً عن سنن الاستقامة في الحيوة ، وكونه منافياً غير ملائم للإيمان بالله تعالى ، وكونه ظلاماً .

قوله تعالى : فمن جاءه موعظة من ربه فانتهی فله ما ساف وأمره إلى الله اه تفریع على قوله : وأحلَّ الله البيع إلخ ، والكلام غير مقيّد بالربا ، فهو حكم كليّ وضع في مورد جزئيّ للدلالة على كونه مصداقاً من مصاديقه يلحقه حكمه . والمعنى : أنَّ ما ذكرناه لكم في أمر الربا موعظة جاءتكم من ربكم ومن جاءه موعظة إلخ

فإن انتهيتم فلکم ما سلف وأمرکم إلى الله .

و من هنا يظهر : أنَّ المراد من مجيء الموعظة بلوغ الحكم الذي شرَّعه الله تعالى ، ومن الانتهاء التوبة وترك الفعل المنهي عنه انتهاءً عن نهيه تعالى ، و من كون ما سلف لهم عدم انعطاف الحكم وشموله لما قبل زمان بلوغه ومن قوله : فله ما سلف وأمره إلى الله اه أنه لا يتحتَّم عليهم العذاب الخالد الذي يدلُّ عليه قوله : ومن عادفًا ولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ، فهم منتفعون فيما أسلفوا بالتخلُّص من هذه المهلكة ، ويبقى عليهم : أنَّ أمرهم إلى الله فربَّما أطلقهم في بعض الأحكام ، و ربَّما وضع عليهم ما يتدارك به ما فوتوه .

و اعلم : أنَّ أمر الآية عجيب ، فإنَّ قوله : فمن جاءه موعظة إلى آخر الآية مع ما يشتمل عليه من التسهيل والتشديد حكم غير خاص بالربا ، بل عام يشمل جميع الكبائر الموبقة ، و القوم قد قصَّروا في البحث عن معناها حيث اقتصروا بالبحث عن مورد الربا خاصَّة من حيث العفو عمَّا سلف منه ، و رجوع الأمر إلى الله فيمن انتهى ، و خلود العذاب لمن عاد إليه بعد مجيء الموعظة ، هذا كلُّه مع ما تراه من العموم في الآية .

إذا علمت هذا ظهر لك : أنَّ قوله : فله ما سلف وأمره إلى الله لا يفيد إلا معنى مبهمًا يتعيَّن بتعيين المعصية التي جاء فيها الموعظة و يختلف باختلافها . فالمعنى : أنَّ من انتهى عن موعظة جائته فالذي تقدَّم منه من المعصية سواء كان في حقوق الله أو في حقوق الناس فإنَّه لا يؤاخذ بعينها لكنَّه لا يوجب تخلُّصه من تبعاته أيضًا كما تخلَّص من أصله من حيث صدوره ، بل أمره فيه إلى الله ، إن شاء وضع فيها تبعه كقضاء الصلوة الفائتة والصوم المنقوض وموارد الحدود والتعزيرات وردَّ المال المحفوظ المأخوذ غصبًا أو ربًّا و غير ذلك مع العفو عن أصل الجرائم بالتوبة و الانتهاء ، و إن شاء عفى عن الذنب ولم يضع عليه تبعه بعد التوبة كالشرك إذا تاب عن شركه و من عصي بنحو شرب الخمر و اللهو فيما بينه و بين الله و نحو ذلك ، فإنَّ قوله : فمن جاءه موعظة من ربِّه وانتهى اه مطلق يشمل الكافرين والمؤمنين في أوَّل التشريع و غيرهم من التابعين و أهل

الأعصار اللاحقة .

وأما قوله : ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون اه فوقوع العود في هذه الجملة في مقابل الانتهاء الواقع في الجملة السابقة يدلّ على أنّ المراد به العود الذي يجامع عدم الانتهاء ، ولا يلزم ذلك الإصرار على الذنب و عدم القبول للحكم وهذا هو الكفر أو الردّة باطنياً ولولم يتلقّظ في لسانه بما يدلّ على ذلك ، فإنّ من عاد إلى ذنب و لم ينته عنه و لو بالندم فهو غير مسلم للحكم تحقيقاً و لا يفلح أبداً . فالترديد في الآية بحسب الحقيقة بين تسليم الحكم الذي لا يخلو عن البناء على عدم المخالفة و بين الإصرار الذي لا يخلو غالباً عن عدم التسليم المستوجب للمخلود على ما عرفت .

ومن هنا يظهر الجواب عن استدلال المعتزلة بالآية على خلود مرتكب الكبيرة في العذاب . فإنّ الآية وإن دلّت على خلود مرتكب الكبيرة بل مطلقاً من اقتراف المعصية في العذاب لكن دلالتها مقصورة على الارتكاب مع عدم تسليم الحكم ولا محذور فيه . وقد ذكر في قوله تعالى : فله ما سلف وفي قوله : و أمره إلى الله وقوله : ومن عاد إلخ وجوه من المعاني والاحتمالات على أساس ما فهمه الجمهور من الآية على ما تقدّم لكننا تركنا إبرادها لعدم الجدوى فيها بعد فساد المنشاء .

**قوله تعالى :** يمحّ الله الربا و يربي الصدقات إلخ، المحق نقصان الشيء، حالاً بعد حال ، ووقوعه في طريق الغناء والزوال تدريجاً . والإرباء الإنباء . والأئيم الحامل للإئيم، وقد مرّ معنى الإئيم .

وقد قوبل في الآية بين إرباء الصدقات ومحّ الربا ، وقد تقدّم أنّ إرباء الصدقات و إنماءها لا يختصّ بالآخرة بل هي خاصّة لها عامّة تشمل الدنيا كما تشمل الآخرة فمحّ الربا أيضاً كذلك لا محالة .

فكما أنّ من خاصّة الصدقات أنّها تنمي المال إنمائاً يلزمها ذلك لزوماً قهرياً لا ينفك عنها من حيث أنّها تنشر الرحمة وتورث المحبّة وحسن التفاهم وتألّف القلوب، وتبسط الأمن والحفظ ، و تصرف القلوب عن أن تهتمّ بالغصب و الاختلاس و الإفساد

والسرقة ، وتدعو إلى الاتحاد والمساعدة والمعاونة ، وتنسُدُّ بذلك أغلب طرق الفساد والفناء الطارية على المال ، ويعين جميع ذلك على نماء المال ودرّهُ أضعافاً مضاعفة .  
كذلك الربا من خاصّته أنّه يمحِّق المال و يقنيه تدريجاً من حيث أنّه ينشر القسوة والخسارة ، ويورث البغض و العداوة وسوء الظنّ ، و يفسد الأمن و الحفظ ، و يهيّج النفوس على الانتقام بأيّ وسيلة أمكنت من قول أو فعل مباشرة أو تسبيحاً ، وتدعو إلى التفرّق والاختلاف ، وتفتّح بذلك أغلب طرق الفساد وأبواب الزوال على المال ، وقلّما يسلم المال عن آفة تصيبه ، أو بليّة تعمّه .

وكلّ ذلك لأنّ هذين الأمرين أعني الصدقة والربا مربوطان مماسان بحياة طبقة الفقراء والمعوّزين وقد هاجت بسبب الحاجة الضرورية إحساساتهم الباطنية ، واستعدّت للدفاع عن حقوق الحياة نفوسهم المنكوبة المستذلة ، وهمّوا بالمقابلة بالغا ما بلغت ، فإنّ أحسن إليهم بالصنيعة و المعروف بلا عوض - و الحال هذه - وقعت إحساساتهم على المقابلة بالإحسان و حسن النية و أنثرت الأثر الجميل ، و إن أسيء إليهم بأعمال القسوة و الخشونة ، و إذهاب المال و العرض و النفس قابلوها بالانتقام و النكاية بأيّ وسيلة ، وقلّما يسلم من تبعات هذه الهمم المهلكة أحد من المرابين على ما يذكره كلّ أحد ممّا شاهد من أخبار آكلي الربا من ذهاب أموالهم و خراب بيوتهم و خسران مساعيهم .

و يجب عليك : أن تعلم أولاً : أنّ العلل و الأسباب التي تبني عليها الأمور و الحوادث الاجتماعية أمور أغلبية الوجود و التأثير ، فإنّا إنّما نريد بأفعالنا غاياتها و نتائجها التي يغلب تحقيقها ، و نوجد عند إرادتها أسبابها التي لا تنفك عنها مسبباتها على الأغلب لا على الدوام ، و نلحق الشاذّ النادر بالمعْدوم ، و أمّا العلل التامة التي يستحيل انفكاك معلولاتها عنها في الوجود فهي مختصة بالتكوين يتناولها العلوم الحقيقية الباحثة عن الحقائق الخارجية .

والتدبّر في آيات الأحكام التي ذكر فيها مصالح الأفعال و الأعمال و مفسدها ممّا يؤدّي إلى السعادة و الشقاوة يعطي أنّ القرآن في بناء آثار الأعمال على الأعمال

و بناء الأعمال على علمها يسلك هذا المسلك و يضع الغالب موضع الدائم كما عليه بناء العقلاء .

وثانياً : أنَّ المجتمع كالفرد والأمر الاجتماعيّ كالأمر الانفراديّ متمثلان في الأحوال على ما يناسب كلاهما بحسب الوجود ، فكما أنَّ للفرد حيوة و عمراً وموتاً مؤجّلاً وأفعالاً و آثاراً فكذلك المجتمع في حيوته و موته و عمره و أفعاله و آثاره . و بذلك ينطق القرآن كقوله تعالى : " و ما أهلكنا من قرية إلا و لها كتاب معلوم ما تسبق من أمّة أجلها و ما يستأخرون " الحجر - ٥ .

و عليها فلو تبدّل وصف أمر من الأمور من الفرديّة إلى الاجتماعيّة تبدّل نحو بقاءه و زواله وأثره . فالعقّة و الخلاعة الفرديّة حالكونهما فرديّين لهما نوع من التأثير في الحيوة فإن ركوب الفحشاء مثلاً يوجب نفرة الناس عن الإنسان والاجتناب عن ازدواجه وعن مجالسته وزوال الوثوق بأمانته هذا إذا كان أمراً فرديّاً والمجتمع على خلافه ، و أمّا إذا صار اجتماعيّاً معروفاً عند العامة ذهبت بذلك تلك المحاذير لأنّها كانت تبعات الإنكار العموميّ و الاستهجان العامّ للفعل و قد أذهبت التداول والشياع لكنّ المفاسد الطبيعيّة كقطع النسل والأمراض التناسليّة والمفاسد الأخر الاجتماعيّة التي لا ترضى به الفطرة كبطلان الأنساب و اختلالها و فساد الانشعابات القوميّة و الفوائد الاجتماعيّة المترتبة على ذلك مترتبة عليه لا محالة . وكذا يختلف ظهور الآثار في الفرد فيما كان فرديّاً مع ظهورها في المجتمع إذا كان اجتماعيّاً من حيث السرعة والبطؤ .

إذا عرفت ذلك علمت : أنَّ محقه تعالى للربا في مقابل إربائه للمصدقات يختلف لا محالة بين ما كان الفعل فعلاً انفراديّاً كالربا القسائم بالشخص فإنّه يهلك صاحبه غالباً ، وقلّ ما يسلم منه مراب لوجود أسباب و عوامل خاصّة تدفع عن ساحة حيوته الفناء والمذلّة ، و بين ما كان فعلاً اجتماعيّاً كالربا الدامر اليوم الذي يعرفه الملل والدول بالرميّة ، ووضعت عليها القوانين ، و أسست عليها البنوج فإنّه يفقد بعض صفاته الفرديّة الرضاء الجامعة بما شاع فيها وتعارف بينها وانصراف النفوس عن التفكير

في معامبه لكن آثاره اللازمة كتجتمع الثروة العمومية وتراكمها في جانب ، وحلول الفقر والحرمان العمومي في جانب آخر ، و ظهور الانفصال و البينونة التامة بين القبيلين : الموسرين و المعسرين مما لا ينفك عن هذا الربا و سوف يؤثر أثره السيئ المشثوم ، وهذا النوع من الظهور والبروز وإن كنا نستبطئه بالنظر الفردي ، وربما لم نعتن به لإلحاقه من جهة طول الأمل بالعدم ، لكنه معجل بالنظر الاجتماعي ، فإن العمر الاجتماعي غير العمر الفردي ، واليوم الاجتماعي ربما عادل دهرأ في نظر الفرد. قال تعالى : « وتلك الأيام نداولها بين الناس » آل عمران - ١٤٠ ، وهذا اليوم يراد به العصر الذي ظهر فيه ناس على ناس ، وطائفة على طائفة ، وحكومة على حكومة ، وأمة على أمة . و ظاهر أن سعادة الإنسان كما يجب أن يعتنى بشأنها من حيث الفرد يجب الاعتناء بأمرها من حيث النوع المجتمع .

والقرآن ليس يتكلم عن الفرد ولا في الفرد وإن لم يسكت عنه ، بل هو كتاب أنزله الله تعالى قيماً على سعادة الإنسان : نوعه و فرده ، و مهيمناً على سعادة الدنيا : حاضرها وغابرها .

فقوله تعالى يمحى الله الربا ويربي الصدقات يبين حال الربا والصدقة في أثرهما سواء كانا نوعيين أو فرديين ، والمحق من لوازم الربا لا ينفك عنه كما أن الإرباء من لوازم الصدقة لا ينفك عنها . فالربا محق وإن سمي رباً و الصدقة رباً رابية وإن لم تسم رباً ، و إلى ذلك يشير تعالى : يمحى الله الربا ويربي الصدقات بإعطاء وصف الربا للصدقات بأقسامها ، وتوصيف الربا بوصف يضاد اسمه بحسب المعنى وهو الانمحاق .

و بما مر من البيان يظهر ضعف ما ذكره بعضهم : أن محق الربا ليس بمعنى إبطال السعى وخسران العمل بذهاب المال الربوي ، فإن المشاهدة والعيان يكذب به ، وإنما المراد بالمحق إبطال السعى من حيث الغايات المقصودة بهذا النوع من المعاملة ، فإن المرابي يقصد بجمع المال من هذا السبيل لذة اليسر وطيب الحياة وهناء العيش ، لكن يشغله عن ذلك الوله بجمع المال ووضع درهم على درهم ، ومبارزة من يريد به أو بماله أو بأرباحه سوئاً ، والهموم المتهاجرة على نفسه من عداوة الناس وبغض المعوزين

له . ووجه ضعفه ظاهر .

وكذا ما ذكره آخرون : أن المراد به محق الآخرة ونواب الأعمال التي يعرض عنها المرابي باشتغاله بالربا ، أو التي يبطلها التصرف في مال الربا كأشكال العبادات . وجه الضعف : أنه لا شك أن ما ذكره من المحقق لكنه لا دليل على انحصاره في ذلك .

وكذا ضعف ما استدلل به المعتزلة على خلود مرتكب الكبيرة في النار بقوله تعالى : ومن عاد إلخ وقد مر ما يظهر به تقرير الاستدلال والدفع جميعاً .  
**قوله تعالى : إن الله لا يحب كل كفار أثيم** اه تعليل لمحق الربا بوجه كلي ، والمعنى أن آكل الربا كثير الكفر لكفره بنعم كثيرة من نعم الله لستره على الطرق الفطرية في الحياة الإنسانية ، وهي طرق المعاملات الفطرية ، وكفره بأحكام كثيرة في العبادات والمعاملات المشروعة ، فإنّه بصرف مال الربا في ما كله ومشربه وملبسه ومسكنه يبطل كثيراً من عباداته بفقدان شرائط مأخوذة فيها ، وباستعماله فيما بيده من المال الربوي يبطل كثيراً من معاملاته ، ويضمن غيره ؛ ويغصب مال غيره في موارد كثيرة ، وباستعمال الطمع والحرص في أموال الناس والخشونة والقسوة في استيفاء ما يحد نفسه حقاً يفسد كثيراً من أصول الأخلاق والفضائل وفروعها ، وهو أثيم مستقر في نفسه الإثم فالله سبحانه لا يحبّه لأن الله لا يحب كل كفار أثيم .

**قوله تعالى : إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات** إلخ تعليل يبين به نواب المتصدقين والمنتبهين عما نهى الله عنه من أكل الربا بوجه عام ينطبق على المورد انطباقاً .  
**قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين** اه خطاب للمؤمنين وأمر لهم بتقوى الله وهوتوطئة لما يتعقبه من الأمر بقوله . وذروا ما بقي من الربا اه وهو يدل على أنه كان من المؤمنين في عهد نزول الآيات من يأخذ الربا ، وله بقايا منه في ذمة الناس من الربا فأمر بتركها ، وهدد في ذلك بما سيأتي من قوله : فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله الآية . وهذا يؤيد ما سنقله من الرواية في سبب نزول الآية في البحث الروائي الآتي .

و في تقييد الكلام بقوله : إن كنتم مؤمنين إشارة إلى أن تركه من لوازم الإيمان ، و تأكيد لما تقدم من قوله : و من عاد إلخ و قوله : إن الله لا يحب كل كفار إلخ .

**قوله تعالى :** و إن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله اه ، الإذن كالعلم وزناً ومعنى ، وقرأ فاذنوا بالأمر من الإيدان ، والباء في قوله بحرب لتضمينه معنى اليقين و نحوه ، والمعنى : أيقنوا بحرب أو أعلموا أنفسكم باليقين بحرب من الله ورسوله اه ، وتنكير الحرب لإفادة التعظيم أو التنويع ، ونسبة الحرب إلى الله ورسوله لكونه مرتبطاً بالحكم الذي لله سبحانه فيه سهم بالجعل والتشريع ولرسوله فيه سهم بالتبليغ ، ولو كان لله وحده لكان أمراً تكوينياً ، و أمراً رسوله فلا يستقل في أمر دون الله سبحانه . قال تعالى : « ليس لك من الأمر شيء » آل عمران - ١٢٨ .

و الحرب من الله ورسوله في حكم من الأحكام مع من لا يسلمه هو تحميل الحكم على من ردّه من المسلمين بالقتال كما يدل عليه قوله تعالى : « فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله » الحجرات - ٩ . على أن الله تعالى صنعاً آخر في الدفاع عن حكمه وهو محاربه إياهم من طريق الفطرة وهو تبجيح الفطرة العامة على خلافهم ، وهي التي تقطع أنفاسهم ، و تخرب ديارهم ، و تعفي آثارهم . قال تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » الإسراء - ١٦ .

**قوله تعالى :** و إن تبتم فلکم رؤس أموالکم لا تظلمون ولا تظلمون اه ، كلمة وأن تبتم اه تؤيد ما مر أن الخطاب في الآية لبعض المؤمنين ممن كان يأخذ الربا وله بقايا على مدينيه و معامليه . وقوله : فلکم رؤس أموالکم أى أصول أموالکم الخالصة من الربا لا تظلمون بأخذ الربا ولا تظلمون بالتعدي إلى رؤس أموالکم . و في الآية دلالة على إمضاء أصل الملك أولاً . وعلى كون أخذ الربا ظلماً كما تقدم ثانياً . وعلى إمضاء أصناف المعاملات حيث عبّر بقوله : رؤس أموالکم و المال إنما يكون رأساً إذا صرف في وجوه المعاملات وأصناف الكسب ثالثاً .

**قوله تعالى :** و إن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة اه ، لفظة كان تامة أى إذا

وجد ذو عسرة. والنظرة المهلة. والميسرة اليسار والتمكّن، مقابل العسرة أى إذا وجد غريم من غرمائكم لا يتمكّن من أداء دينه الحال فأَنْظروه وأمهلوه حتى يكون متمكّناً ذا يسار فيؤدّي دينه.

والآية وإن كانت مطلقة غير مقيدة لكنّها منطبقة على مورد الربا، فإبائهم كانوا إذا حلّ أجل الدين يطالبونه من المدين فيقول المدين لغريمه زد في أجلي كذا مدة أزيدك في الثمن بنسبة كذا، والآية تنهى عن هذه الزيادة الربويّة ويأمر بالانظار. قوله تعالى: وأن تصدّقوا خير لكم إن كنتم تعلمون اه أى وإن تضعوا الدين عن المعسر فتصدّقوا به عليه فهو خير لكم إن كنتم تعلمون فإنكم حينئذ قد بدّلتم ما تقصدونه من الزيادة من طريق الربا الممحق بالزيادة من طريق الصدقة الراية حقاً، قوله تعالى: واتّقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله إلخ، فيه تذليل لآيات الربا بما تشتمل عليه من الحكم والجزاء بتذكير عام بيوم القيامة ببعض أوصافه الذي يناسب المقام، ويهيئ ذكره النفوس لتقوى الله تعالى والورع عن محارمه في حقوق الناس التي تتسكى عليه الحيوة، وهو أن أمامكم يوماً ترجعون فيه إلى الله فتوفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون.

وأما معنى هذا الرجوع مع كوننا غير غائبين عن الله، ومعنى هذه التوفية فسيجيء الكلام فيه في تفسير سورة الأنعام إنشاء الله تعالى. وقد قيل: إن هذه الآية: واتّقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون آخر آية نزلت على رسول الله ﷺ، وسيجيء ما يدل عليه من الروايات في البحث الروائي التالي.

### ﴿بحث روائي﴾

في تفسير القميّ في قوله تعالى: الذين يأكلون الربا الآية عن الصادق عليه السلام قال: قال رسول الله ﷺ: لما أسري بي إني السماء رأيت قوماً يريد أحدهم أن يقوم فلا يقدر أن يقوم من عظم بطنه، فقلت: من هؤلاء يا جبرمیل؟ قال: هؤلاء الذين يأكلون

الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس ، وإذا هم بسبيل آل فرعون : يعرضون على النار غدواً وعشيّاً ، ويقولون ربنا متى تقوم الساعة .

أقول : وهو مثال برزخيّ وتصديق لقوله ﷺ : كما تعيشون تموتون وكما تموتون تبعثون .

وفي الدر المنثور أخرج الإصبهانيّ في ترغيبه عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : يأتي آكل الربا يوم القيامة عتلاً يجبر شقيقه ، ثم قرأ : لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس .

أقول : وقد ورد في عقاب الربا روايات كثيرة من طرق الشيعة وأهل السنة . وفي بعضها أنه يعدل سبعين زنية يزنيها المرابي مع أمه .

و في التهذيب بإسناده عن عمر بن يزيد يسّاع السابريّ قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام : جعلت فداك إن الناس زعموا أنّ الربح على المضطرّ حرام فقال : وهل رأيت أحداً اشترى غنيّاً أو فقيراً إلا من ضرورة ؟ يا عمر قد أحلّ الله البيع و حرّم الربا ، فابح ولا ترب . قلت : وما الربا ؟ قال : دراهم بديهم مثلين بمثل ، وحنطة بحنطة مثلين بمثل . وفي الفقيه بإسناده عن عبيد بن زرارة عن أبي عبد الله عليه السلام قال : لا يكون الربا إلا فيما يكال أو يوزن .

أقول : وقد اختلف فيما يقع فيه الربا على أقوال والذي هو مذهب أهل البيت عليهم السلام : أنه إنما يكون في النقيدين وما يكال أو يوزن ، والمسألة فقهية لا تتعلق منها غرضنا إلا بهذا المقدار .

وفي الكافي عن أحدهما وفي تفسير العيّاشيّ عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : فمن جاءه موعظة من ربه فاتمها الآية ، قال : الموعظة التوبة .

وفي التهذيب عن محمد بن مسلم قال : دخل رجل على أبي عبد الله عليه السلام من أهل خراسان قد عمل بالربا حتّى كثر ماله ثمّ إنّه سأل الفقهاء فقالوا ليس يقبل منك شيء حتّى تردّه إلى أصحابه . فجاء إلى أبي جعفر عليهما السلام فقصّ عليه قصّته فقال أبو جعفر عليه السلام مخرجك من كتاب الله عزّ وجلّ : فمن جاءه موعظة من ربه فاتمها فله ما

سلف وأمره إلى الله . قال : الموعظة التوبة .

وفي الكافي والفقيه عن الصادق عليه السلام : كل رباً أكله الناس بجهالة ثم تابوا فإنّه يقبل منهم إذا عرف منهم التوبة : وقال لو أنّ رجلاً ورث من أبيه مالاً وقد عرف أنّ في ذلك المال رباً ولكن قد اختلط في التجارة بغيره فإنّه له حلال فليأكله وإن عرف منه شيئاً معروفاً فليأخذ رأس ماله وليردّ الزيادة .

وفي الفقيه و العيون عن الرضا عليه السلام : هي كبيرة بعد البيان . قال : والاستخفاف بذلك دخول في الكفر .

وفي الكافي : أنّه سئل عن الرجل يأكل الربا وهو يرى أنّه حلال قال : لا يضرّه حتّى يصيبه متعمداً ، فإذا أصابه متعمداً فهو بالمنزلة التي قال الله عزّ وجلّ .

وفي الكافي والفقيه عن الصادق عليه السلام وقد سئل عن قوله تعالى : يمحّ الله الربا ويربي الصدقات الآية ، وقيل : قد أرى من يأكل الربا يربو ماله قال : فأى محق أمحق من درهم الربا يمحّ الدين وإن تاب منه ذهب ماله وافقر .

أقول : والرواية كما ترى تفسّر المحقّ بالمحقّ التشريعي أعني : عدم اعتبار الملكية والتحرّم وتقابله الصدقة في شأنه ، وهي لا تنافي مأمّر من عموم المحقّ .

وفي المجمع عن عليّ عليه السلام : أنّه قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وآله في الربا خمسة : آكله وموكله وشاهديه وكاتبه ؟

أقول : وروي هذا المعنى في الدرّ المنثور بطرق عنه صلى الله عليه وآله .

وفي تفسير العيّاشي عن الباقر عليه السلام قال : قال الله تعالى : أنا خالق كل شيء ، وكلت بالأشياء غيري إلا الصدقة فإنّي أقبضها بيدي حتّى أنّ الرجل والمرأة يتصدّق بشقّ التمرة فأربّيها له كما يربّي الرجل منكم فصيله وفلوه حتّى أتركه يوم القيمة أعظم من أحد .

وفيه عن عليّ بن الحسين عليهما السلام عن النبي صلى الله عليه وآله قال : إنّ الله ليربّي لأحدكم الصدقة كما يربّي أحدكم ولده حتّى يلقاه يوم القيامة وهو مثل أحد .

أقول : وقد روي هذا المعنى من طرق أهل السنّة عن عدّة من الصحابة كأبي

هريرة وعائشة وابن عمر وأبي برزة الأسلمي عن النبي ﷺ .

وفي تفسير القمّي : أنه لما أنزل الله : الذين يأكلون الربا الآية قام خالد بن الوليد إلى رسول الله و قال يا رسول الله ربا أبي في ثقيف وقد أوصاني عند موته بأخذه فأنزل الله : يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقي من الربا الآية .

**أقول :** وروى قريباً منه في المجمع عن الباقر عليه السلام .

وفي المجمع أيضاً عن السدي وعكرمة قالا : نزلت في بقية من الربا كانت للعبّاس وخالد بن الوليد وكانا شريكين في الجاهلية يسلفان في الربا إلى بني عمرو بن عمير : ناس من ثقيف فجاء الإسلام ولهما أموال عظيمة في الربا فأنزل الله هذه الآية فقال النبي : ألا إن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضعه ربا العبّاس بن عبد المطلب ، وكل دم في الجاهلية موضوع ، وأول دم أضعه دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب كان مرضعاً في بني ليس فقتله هذيل .

**أقول :** ورواه في الدر المنثور عن ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن السدي إلا أن فيه ونزلت في العبّاس بن عبد المطلب ورجل من بني المغيرة . وفي الدر المنثور أخرج أبو داود والترمذي وصححه والنسائي وابن ماجه وابن أبي حاتم والبيهقي في سننه عن عمرو بن الأحوص : أنه شهد حجة الوداع مع رسول الله ﷺ فقال : ألا إن كل ربا في الجاهلية موضوع ، لكم رؤس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون .

**أقول :** و الروايات في هذه المعاني كثيرة ، والمتحصّل من روايات الخاصّة و العامّة أن الآية نزلت في أموال من الربا كانت لبني المغيرة على ثقيف ، وكانوا يربونهم في الجاهلية ، فلمّا جاء الإسلام طالبوهم ببقايا كانت لهم عليهم فأبوا عن التّأدية لوضع الإسلام ذلك فرفع أمرهم إلى رسول الله ﷺ فنزلت الآية .

وهذا يؤيد ما قدّمناه في البيان : أن الربا كان محرّماً في الإسلام قبل نزول هذه الآيات ومبيّناً للناس ، وأن هذه إنّما تؤكد التحريم وتقرّره ، فلا يعبأ ببعض ما روي أن حرمة الربا إنّما نزلت في آخر عهد رسول الله ﷺ وأنه قبض ولم يبين للناس

أمر الربا كما في الدر المنثور عن ابن جرير وابن مردويه عن عمر بن الخطاب : أنه خطب فقال : من آخر القرآن نزولاً آية الربا ، وأنه قد مات رسول الله و لم يبينه لنا ، فدعوا ما يريكم إلى ما لا يريكم .

علي أن من مذهب أئمة أهل البيت عليهم السلام : أن الله تعالى لم يقبض نبيه حتى شرع كل ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ويمن ذلك للناس نبيه ﷺ .

وفي الدر المنثور بطرق عديدة عن ابن عباس و السدي و عطية العوفي و أبي صالح وسعيد بن جبیر : أن آخر آية نزلت من القرآن قوله تعالى : واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى آخر الآية .

وفي المجمع عن الصادق عليه السلام : إنما شدد في تحريم الربا لئلا يمتنع الناس من اصطناع المعروف قرضاً أو رفاً .

وفي المجمع أيضاً عن علي عليه السلام إذا أراد الله بقرية هلاكاً ظهر فيهم الربا .

أقول : وقد مر في البيان السابق ما يتبين به معنى هذه الروايات .

وفيه في قوله تعالى : وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة الآية قال : و اختلف في حد الإعسار فروي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال : هو إذا لم يقدر على ما يفضل من قوته وقوت عياله على الاقتصاد .

وفيه : أنه أي إنظار المعسر واجب في كل دين عن ابن عباس والضحاك و الحسن ، وهو المروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله عليهما السلام .

وفيه ! قال الباقر عليه السلام : إلى ميسرة معناه إذا بلغ خبره الإهمام فيقتضي عنه من سهم الغارمين إذا كان أنفقه في المعروف .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام قال : صعد رسول الله ﷺ المنبر ذات يوم فحمد الله وأثنى عليه وصلى على أنبيائه ثم قال : أيها الناس ليبلغ الشاهد منكم الغائب . ألا ومن أنظر معسراً كان له على الله في كل يوم صدقة بمثل ماله حتى يستوفيه . ثم قال أبو عبد الله عليه السلام : وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون أنه معسر فتصدقوا عليه بما لكم فهو خير لكم .

**أقول:** والرواية تشتمل على تفسير قوله: إن كنتم تعلمون اه ، وقد مرّ له معنى آخر . و الروايات في هذه المعاني وما يلحق بها كثيرة و المرجع فيها كتاب الدين من الفقه .

### ﴿ بحث علمي ﴾

تقدّم مراراً في المباحث السابقة : أن لاهمّ للإنسان في حياته إلا أن يأتي بما ياتى من أعماله لاقتناء كمالاته الوجوديّة . وبعبارة أخرى لرفع حوائجه الماديّة ، فهو يعمل عملاً متعلّقاً بالمادّة بوجه ، ويرفع به حاجته الحيويّة ، فهو مالك لعمله وماعمله ( و العمل في هذا الباب أعمّ من الفعل والانفعال وكان نسبة و رابطة يرتّب عليه الأثر عند أهل الاجتماع ) أى إنّه يخصّ ماعمل فيه من المادّة لنفسه ، و يعدّه ملكاً جائز التصرف لشخصه ، والعقلاء من أهل الاجتماع يجيزون له ذلك فافهم .

لكنّه لما كان لا يسعه أن يرفع جميع حوائجه بعمل نفسه وحده دعى ذلك إلى الاجتماع التعاونيّ و أن ينتفع كلّ بعمل غيره وما حازه وملكه غيره بعمله ، فأدّى ذلك إلى المعاوضة بينهم ، واستقرّ ذلك بأن يعمل الإنسان في باب واحد أو في أبواب معدودة من أبواب العمل و يملك بذلك أشياء ثمّ يأخذ مقدار ما يرفع به حاجته ، و يعوّض ما يزيد على حاجته ممّا ليس عنده من مال الغير ، وهذا أصل المعاملة و المعاوضة .

غير أنّ التباين التامّ بين الأموال والأمتعة من حيث النوع ، و من حيث شدّة الحاجة وضعفها ، و من حيث كثرة الوجود و قلّته يولّد الإشكال في المعاوضة ، فإنّ الفاكهة لغرض الأكل ، والحمار لغرض الحمل ، والماء لغرض الشرب ، والجوهر الثمين للتقلّد والتعجّم مثلاً لها أوزان وقيم مختلفة في حاجة الحيوة ، ونسب مختلفة لبعضها إلى بعض .

فمست الحاجة إلى اعتبار القيمة بوضع الفلوس والدرهم والدينار ، وكان الأصل في وضعه : أنّهم جعلوا شيئاً من الأمتعة العزيزة الوجود كالذهب مثلاً أصلاً يرجع إليه بقيّة الأمتعة والسلعات فكان كالواحد التامّ من النوع يجعل مقياساً لبقية أفراد

كالمثاقيل و المكائيل و غيرهما ، فكان الواحد من وجه النقد يقدّر به القيمة العامة و يقوم به كلّ شيء من الأمتعة فيتعيّن به نسبة كلّ واحد منها بالنسبة إليه و نسبة بعضها إلى بعض .

ثمّ إنّهم لتعميم الفائدة وضعوا آحاد المقياس للأشياء كواحد الطول من الذراع و نحوه ، و واحد الحجم و هو الكيل ، و واحد الثقل و الوزن كالمَنّ و نحوه ، و عند ذلك تعيّن النسب و ارتفع اللبس ، و بان مثلاً أنّ القيراط من الألباس يعدل أربعة من الدنانير ، و المَنّ من دقيق الحنطة عشر دينار واحد ، و تبين بذلك أنّ القيراط من الألباس يعدل أربعين مثلاً من دقيق الحنطة مثلاً و على هذا القياس .

ثمّ توسّعوا في وضع نقود آخر من أجناس شتى نفيسة أو رخيصة للتسهيل و التوسعة كنفود الفضة و النحاس و البرنز و الورق و النوط على ما يشرحه كتب الاقتصاد . ثمّ افتتح باب الكسب و التجارة بعد رواج البيع و الشرى بأن تعيّن البعض من الأفراد بتخصيص عمله و شغله بالتعويض و تبديل نوع من المتاع بنوع آخر لا بتغاء الربح التّذي هو نوع زيادة فيما يأخذه قبال ما يعطيه من المتاع .

فهذه أعمال قدّمها الإنسان بين يديه لرفع حوائجه في الحياة ، و استقرّ الأمر بالأخيرة على أنّ الحاجة العموميّة كما أنّها عكفت على باب الدرهم و الدينار ، فكان وجه القيمة كأنّه هو المال كلّّه ، و كأنّه كلّ متاع يحتاج إليه الإنسان لأنّه التّذي يقدر الإنسان بالحصول عليه على الحصول بكلّ ما يريده و يحتاج إليه ممّا يتمتّع به في الحياة . و ربّما جعل سلعة فاكنتسب عليه كما يكتسب على سائر السلع و الأمتعة و هو الصرف .

وقد ظهر بما مرّ : أنّ أصل المعاملة و المعاوضة قد استقرّ على تبديل متاع من متاع آخر مغاير له لمسييس الحاجة بالبديل منه كما في أصل المعاوضة ، أو لمسييس الحاجة إلى الربح التّذي هو زيادة في المبدل منه من حيث القيمة ، و هذا أعني المغايرة هو الأصل التّذي يعتمد عليه حياة المجتمع . وأمّا المعاملة بتبديل السلعة بما يماثلها في النوع أو بما يماثلها مثلاً فإن كان من غير زيادة كتمرض المثل بالمثل مثلاً فربّما اعتبره العقلاء

لمسئس الحاجة به وهو ممّا يقيم أود الاجتماع ، ويرفع حاجة المحتاج ولا فساد يترتب عليه ، وإن كان مع زيادة في المبدل منه وهي الربح فذلك هو الربا . فلننظر ماذا نتيجة الربا ؟

الربا - ونعني به تبديل المثل بالمثل و زيادة كإعطاء عشرة إلى أجل ، أو إعطاء سلعة بعشرة إلى أجل وأخذ اثنتى عشرة عند حلول الأجل وما أشبه ذلك - إنما يكون عند اضطرار المشتري أو المقرض إلى ما يأخذه بالإعسار والإعواز بأن يزيد قدر حاجته على قدر ما يكتسبه من المال كأن يكتسب ليومه في أوسط حاله عشرة وهو يحتاج إلى عشرين فيقرض العشر الباقي باثنى عشر لغد ولازمه أن له في غده ثمانية وهو يحتاج إلى عشرين ، فيشرع من هناك معدل معيشته وحيوته في الانمحاق والانتقاص ، ولا يلبث زماناً طويلاً حتى تغنى تمام ما يكتسبه ويبقى تمام ما يقترضه ، فيطالب بالعشرين وليس له ولا واحد ( ٢٠ - . = المال ) وهو الهلاك وفناء السعى في الحياة .

وأما المرابي فيجتمع عنده العشرة التي لنفسه ولعشرة التي للمقرض ، وذلك تمام العشرين ، فيجتمع جميع المالين في جانب ويخلو الجانب الآخر من المال ، وليس إلا لكون الزيادة مأخوذة من غير عوض مالي ، فالربا يؤدي إلى فناء طبقة المعسرين وانجرار المال إلى طبقة الموسرين ، و يؤدي ذلك إلى تأمر المثرين من المرابين ، وتحكمهم في أموال الناس وأعراضهم ونفوسهم في سبيل جميع ما يشتهون ويتهوّنون لما في الإنسان من قريحة التعالي والاستخدام . وإلى دفاع أولئك المستخدمين المستندين عن أنفسهم فيما وقعوا فيه من مرّ الحياة بكلّ ما يستطيعونه من طرق الدفاع والانتقام . وهذا هو الهرج والمرج وفساد النظام الذي فيه هلاك الإنسانية وفناء المدينة .

هذا مع ما يتفق عليه كثيراً من ذهب المال الربوي من رأس فما كلّ مدين تراكت عليه القروض يقدر على أداء ديونه أو يريد ذلك .

هذا في الربا المتداول بين الأغنياء وأهل العسرة ، وأما الذي بين غيرهم كالربا

التجاريّ الذي يجري عليه أمر البنوك وغيرها كالربا على القرض و الاتّجار به فأقلّ ما فيه أنّه يوجب انجرار المال تدريجاً إلى المال الموضوع للربا من جانب ، و يوجب ازدياد رؤس أموال التجارة و اقتدارها أزيد ممّا هي عليها بحسب الواقع ، و وقوع التناول بينها و أكل بعضها بعضاً ، و انهضام بعضها في بعض ، و فناء كلّ في ما هو أقوى منه فلا يزال يزيد في عدد المحتاجين بالإعسار ، و يجتمع الثروة بانحصارها عند الأقلين ، و عاد المحذور الذي ذكرناه آنفاً .

ولا يشكّ الباحث في مباحث الاقتصاد أنّ السبب الوحيد في شيوع الشيوعيّة ، و تقدّم مرام الاشتراك هو التراكم الفاحش في الثروة عند أفراد ، و تقدّمهم البارز في مزايا الحياة ، و حرمان آخرين و هم الأكثرون من أوجب واجباتهم . و قد كانت الطبقة المقتدرة غرّوا هؤلاء الضعفاء بما قرعوا به أسماعهم من ألفاظ المدنيّة و العدالة و الحرّيّة و التساوي في حقوق الإنسانيّة ، و كانوا يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم ، و يعنون بها معاني هي في الحقيقة أضداد معانيها ، و كانوا يحسبون أنّها يسعدهم في ما يريدونه من الإتراف و استدلال الطبقة السافلة و التعالي عليهم ، و التحكّم المطلق بما شاءوا ، و أنّها الوسيلة الوحيدة لسعادتهم في الحياة لكنّهم لم يلبثوا دون أن صار ما حسبوه لهم عليهم ، و رجع كيدهم و مكرمهم إلى أنفسهم ، و مكروا و مكرا الله و الله خير الماكرين ، و كان عاقبة السيّئين أسوأ السوآى ، و الله سبحانه أعلم بما تصير إليه هذه النشأة الإنسانيّة في مستقبل أيامها . و من مفاصد الربا المشؤمة تسهيله الطريق إلى كنز الأموال ، و حبس الأثوف و الملايين في مخازن البنوك عن الجريان في البيع و الشرى ، و جلوس قوم على أريكة البطالة و الإتراف ، و حرمان آخرين عن المشروع الذي تهدي إليه الفطرة و هو اتكاء الإنسان في حياته على العمل ، فلا يعيش بالعمل عدّة لا ترافهم ، ولا يعيش به آخرون لحرمانهم .

## ﴿ بحث آخر علمي ﴾

قال الغزالي في كتاب الشكر من الإحياء : من نعم الله تعالى خلق الدراهم والدنانير وبهما قوام الدنيا ، وهما حجران لامنفعة في أعيانها ولكن يضطر الخلق إليهما من حيث أن كل إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة في مطعمه وملبسه وسائر حاجاته ، وقد يعجز عما يحتاج إليه ويملك ما يستغني عنه ، كمن يملك الزعفران وهو محتاج إلى جمل يركبه ومن يملك الجمل وربما يستغني عنه ويحتاج إلى الزعفران فلا بد بينهما من معاوضة ، ولا بد في مقدار العوض من تقدير ، إذ لا يبذل صاحب الجمل جملة بكل مقدار من الزعفران ، ولا مناسبة بين الزعفران والجمل حتى يقال : يعطى مثله في الوزن أو الصورة ، وكذا من يشتري داراً بثياب أو عبداً بخف أو دقيقاً بحمار فهذه الأشياء لا تناسب فيها ، فلا يدري أن الجمل كم يسوَّى بالزعفران فتتعدّر المعاملات جداً ، فافتقرت هذه الأعيان المتنافرة المتباعدة إلى متوسط بينهما يحكم فيها بحكم عدل فيعرف من كل واحد رتبته ومنزلته حتى إذا تقررت المراتب ، وترتب الرتب علم بعد ذلك المساوي من غير المساوي ، فخلق الله تعالى الدنانير والدراهم حاكمين ومتوسطين بين الأموال حتى تعدّر الأموال بهما ، فيقال : هذا الجمل يساوي مائة دينار وهذا المقدار من الزعفران يسوَّى مائة ، فهما من حيث إنهما متساويان لشيء واحد متساويان ، وإنما أمكن التعديل بالتقدين إذ لا غرض في أعيانها ، ولو كان في أعيانها غرض ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض في حق صاحب الغرض ترجيحاً ولم يقتض ذلك في حق من لا غرض له فلا ينظم الأمر ، فإذا خلقهما الله تعالى لتداولهما الأيدي ، ويكونا حاكمين بين الأموال بالعدل .

و لحكمة أخرى وهي : التوسل بهما إلى سائر الأشياء لأنهما عزيزان في أنفسهما ، ولا غرض في أعيانها ، ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة ، فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء ؛ لا كمن ملك ثوباً فإنه لم يملك إلا الثوب ، فلو احتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب لأن غرضه في دابة مثلاً ، فاحتيج إلى

شيء آخر هو في صورته كأنه ليس بشيء وهو في معناه كأنه كل الأشياء، والشيء إنما تستوي نسبته إلى المخلوقات إذ لم تكن له صورة خاصة يفيد بها بخصوصها، كالمראה لا لون لها وتحكي كل لون فكذلك النقد لا غرض فيه وهو وسيلة إلى كل غرض، والحراف لا معنى في نفسه وتظهر به المعاني في غيره، فهذه هي الحكمة الثانية. وفيهما أيضاً حكم يطول ذكرها.

ثم قال ما حصله: أنهما لما كانا من نعم الله تعالى من جهة هذه الحكم المترتبة عليهما كان من عمل فيهما بعمل ينافي الحكم المقصودة منهما فقد كفر بنعمة الله.

وفرّع على ذلك حرمة كنزهما فإنه ظلم وإبطال لحكمتها، إذ كنزهما كحبس الحاكم بين الناس في سجن ومنعه عن الحكم بين الناس وإلقاء الهرج بين الناس من غير وجود من يرجعون إليه بالعدل.

وفرّع عليه حرمة اتخاذ آنية الذهب والفضة فإن فيه قصدتهما بالاستقلال وهما مقصودان لغيرهما، وذلك ظلم كمن اتخذ حاكم البلد في الحكاية والمكس والأعمال التي يقوم بها أخسّاء الناس.

وفرّع عليه أيضاً حرمة معاملة الربا على الدراهم والدنانير فإنه كفر بالنعمة وظلم، فإنهما خلقا لغيرهما لا لأنفسهما، إذ لا غرض يتعلّق بأعيانهما.

وقد اشتبه عليه الأمر في اعتبار أصلهما والفروع التي فرّعها على ذلك:

أما أولاً: فإنه ذكر أن لا غرض يتعلّق بهما في أنفسهما، ولو كان كذلك لم يمكن أن يقدّر لغيرهما من الأمتعة والحوائج، وكيف يجوز أن يقدّر شيء شيئاً بما ليس فيه؟ وهل يمكن أن يقدّر الذراع طول شيء إلا بالطول الذي له؟ أو يقدّر المن ثقل شيء إلا بثقله الذي فيه؟

على أن اعترافه بكونهما عزيزين في نفسيهما لا يستقيم إلا بكونهما مقصودين لأنفسهما، وكيف يتصور عزّة وكرامة من غير مطلوبة.

على أنهما لو لم يكونا إلا مقصودين لغيرهما بالخلقة لم يكن فرق بين الدينار والدرهم أعني الذهب والفضة في الاعتبار، والواقع يكذب ذلك، ولكان جميع أنواع

النقود متساوية القيم ، ولم يقع الاعتبار على غيرهما من الأمتعة كالجلد والملح وغيرهما .  
**وأما ثانياً :** فلأنَّ الحكمة المقتضية لحرمة الكنز ليس هي إعطاء المقصودية بالاستقلال لهما ، بل ما يظهر من قوله تعالى : « الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله الآية » التوبة - ٣٥ . من تحريم الفقراء عن الأرزاق بهما مع قيام الحاجة إلى العمل والمبادلة دائماً كما سيحىء بيان ذلك في تفسير الآية .

**وأما ثالثاً :** فلأنَّ ما ذكره من الوجه في تحريم اتخاذ آنية الذهب والفضة وكونه ظلماً وكفراً موجود في اتخاذ الحلبيّ منهما ، وكذا في بيع الصرف ، ولم يعدّ في الشرع ظلماً وكفراً ولا حراماً .

**وأما رابعاً :** فلأنَّ ما ذكره من المفسدة لو كان موجباً لما ذكره من الظلم والكفر بالنعمة لمجرى في مطلق الصرف كما يجري في المعاملة الربويّة بالنسيئة والقرض ، و لم يجر في الربا الذي في المكيل والموزون مع أنَّ الحكم واحد ، فما ذكره غير تامّ جمعاً ومنعاً .

والذي ذكره تعالى في حكمة التحريم منطبق على ما قدّمناه من أخذ الزيادة من غير عوض . قال تعالى : « وما آتيتم من رباً ليروبو في أموال الناس فلا يروبو عند الله وما آتيتم من زكوة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » الروم - ٣٩ . فجعل الربا رايياً في أموال الناس وذلك أنّه ينمو بضمّ أجزاء من أموال الناس إلى نفسه كما أنَّ البذر من النبات ينمو بالتغذية من الأرض وضمّ أجزاءها إلى نفسه ، فلا زال الربا ينمو ويزيد هو وينقص أموال الناس حتّى يأتي آخرها ، وهذا هو الذي ذكرناه فيما تقدّم . وبذلك يظهر أنَّ المراد بقوله تعالى : « وإن تبتم فلكم رؤس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون الآية » يعنى به لا تظلمون الناس ولا تظلمون من قبلهم أو من قبل الله سبحانه فالربا ظلم على الناس .



يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُبَ  
بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ  
الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ  
سَهِيحًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا  
شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ  
الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ أَحَدُهُمَا فَتَذَكَّرَ أَحَدُهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا  
دُعُوا وَلَا تَسَاءَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَ  
أَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَنْ لَا تَرَثُوبُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا  
بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ لَا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ  
وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيَعْلَمَكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ  
عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم  
بِبَعْضٍ فَلَْيُقَدِّدِ الَّذِي ائْتَمَنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا  
فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)

### ﴿ بيان ﴾

قوله تعالى : إذا تدايَنْتُمْ إلخ، التداين، مداينة بعضهم بعضاً . والإملا والاملاء  
إلقاء الرجل للكاتب ما يكتبه . و البخس هو النقص والعيف والسأمة هي الملل .  
والمضاربة مفاعلة من الضرر ويستعمل لما بين الإثنين وغيره . والفسوق هو الخروج عن  
الطاعة . والرهان ، وقرء فرهن بضمّتين وكلاهما جمع الرهن بمعنى المرهون .  
والإظهار الواقع في موقع الإضمار في قوله تعالى : فإن كان الذي عليه الحقّ أه

لرفع اللبس برجع الضمير إلى الكاتب السابق ذكره .

و الضمير البارز في قوله : أن يملّ هو فليملل وليّه اه فائدته تشريك من عليه الحقّ مع وليّه ، فإنّ هذه الصورة تغاير الصورتين الأوليين بأنّ الوليّ في الصورتين الأوليين هو المسؤول بالأمر المستقلّ فيه بخلاف هذه الصورة فإنّ الذي عليه الحقّ يشارك الوليّ في العمل فكأنّه قيل : ما يستطيعه من العمل فعليه ذلك وما لا يستطيعه هو فعلى وليّه .

وقوله : أن تضلّ إحديهما اه على تقدير حذر أن تضلّ إحديهما . وفي قوله : إحديهما الأخرى وضع الظاهر موضع المضمّر ، والنكتة فيه اختلاف معنى اللفظ في الموضوعين . فالمراد من الأوّل إحديهما لا على التعيين ، ومن الثاني إحديهما بعد ضلال الأخرى ، فالمعنيان مختلفان .

وقوله : واتّقوا أمر بالتقوى فيما ساقه الله إليهم في هذه الآية من الأمر والنهي . وأمّا قوله : ويعلمكم الله والله بكلّ شيء عليم اه فكلام مستأنف مسوق في مقام الامتنان كقوله تعالى في آية الإِثْر : « يبيّن الله لكم أن تضلّوا » النساء - ١٧٦ . فالمراد به الامتنان بتعليم شرائع الدين ومسائل الحلال والحرام .

وما قيل : إنّ قوله : واتّقوا الله ويعلمكم الله يدلّ على أنّ التقوى سبب للتعليم الإلهي . فيه أنّه وإن كان حقّاً يدلّ عليه الكتاب والسنة ، لكنّ هذه الآية بمعزل عن الدلالة عليه لمكان واو العطف . على أنّ هذا المعنى لا يلائم سياق الآية وارتباط ذيها بصدرها .

ويؤيّد ما ذكرنا تكرار لفظ الجلالة ثانياً فإنّه لولا كون قوله ويعلمكم الله اه كلاماً مستأنفاً كان مقتضى السياق أن يقال : يعلمكم بإضمار الفاعل . ففي قوله تعالى : واتّقوا الله ويعلمكم الله إنّ الله بكلّ شيء عليم اه أظهر الاسم أوّلاً وثانياً لوقوعه في كلامين مستقلّين ، وأظهر ثالثاً ليدلّ به على التعليل ، كأنّه قيل : هو بكلّ شيء عليم لأنّه الله .

واعلم : أنَّ الآيتين تدلّان على ما يقرب من عشرين حكماً من أصول أحكام الدين والرهن وغيرهما ، والأخبار فيها وفيما يتعلق بها كثيرة لكنّ البحث عنها راجع إلى الفقه ، ولذا لك آثرنا الإغماض عن ذلك فمن أراد البحث عنها فعليه بمطالعته من الفقه .



☆☆☆

لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تَخَفُوهُ يُحَاسِبُكُمْ  
بِهِ اللَّهُ فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)

### ﴿بيان﴾

**قوله تعالى :** لله ما في السموات وما في الأرض اه كلام يدل على ملكه تعالى لعالم الخلق ممّا في السموات والأرض ، وهو توطئة لقوله بعده : وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله اه أى إن له ما في السموات والأرض ومن جملتها أنتم وأعمالكم وما اكتسبتم نفوسكم ، فهو محيط بكم مهيم على أعمالكم لا يتفاوت عنده كون أعمالكم بادية ظاهرة ، أو خافية مستورة فيحاسبكم عليها .

وربما استظهر من الآية : كون السماء مسانخاً لأعمال القلوب وصفات النفس فما في النفوس هو ممّا في السموات ، ولله ما في السموات كما أن ما في النفوس إذا أبدى بعمل الجوارح كان ممّا في الأرض ، ولله ما في الأرض فما انطوى في النفوس سواء أبدى أو أظهر مملوك لله محاط له سيتصرف فيه بالمحاسبة .

**قوله تعالى :** وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله اه ، الإبداء هو الإظهار مقابل الإخفاء . ومعنى ما في أنفسكم ما استقرّ في أنفسكم على ما يعرفه أهل العرف واللغة من معناه ، ولا مستقرّ في النفس إلا الملكات والصفات من الفضائل والردائل كالإيمان والكفر والحب والبغض والعزم وغيرها فإنها هي التي تقبل الإظهار والإخفاء . أمّا إظهارها فإنما تتم بأفعال مناسبة لها تصدر من طريق الجوارح يدرّكها الحس ويحكم العقل بوجود تلك المصادر النفسية المسانخة لها ، إذ لولا تلك الصفات والملكات النفسانية من إرادة وكره وإيمان وكفر وحب وبغض وغير ذلك لم تصدر هذه الأفعال ، فبصدور الأفعال يظهر للعقل وجود ما هو منشأها . وأمّا إخفاءها فبالكف عن فعل ما يدل على وجودها في النفس .

وبالجملة ظاهر قوله: ما في أنفسكم، الثبوت والاستقرار في النفس، ولا يعني بهذا الاستقرار التمكن في النفس بحيث يمنع الزوال للملكات الراسخة، بل ثبوتاً تاماً يعتد به في صدور الفعل كما يشعر به قوله: إن تبدوا وقوله: أو تخفوها فإن الوصفين يدلان على أن ما في النفس بحيث يمكن أن يكون منشئاً للظهور أو غير منشئ له وهو الخفاء، وهذه الصفات يمكن أن تكون كذلك سواء كانت أحوالاً أو ملكات، وأمّا الخطورات والهواجس النفسانية الطارقة على النفس من غير إرادة من الإنسان وكذلك التصورات الساذجة التي لا تصديق معها كتصور صور المعاصي من غير نزوع وعزم فلفظ الآية غير شامل لها البتة لأنها كما عرفت غير مستقرة في النفس، ولا منشأ لصدور الأفعال.

فتمحصل: أن الآية إنما تدل على الأحوال والملكات النفسانية التي هي مصادر الأفعال من الطاعات والمعاصي، وأن الله سبحانه يحاسب الإنسان بها، فتكون مساق الآية قوله تعالى: « لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم » البقرة - ٢٢٥ وقوله تعالى: « فإنته آثم قلبه » البقرة - ٢٨٣ وقوله تعالى: « إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً » الإسراء - ٣٦ فجميع هذه الآيات دالة على أن للقلوب وهي النفوس أحوالاً وأوصافاً يحاسب الإنسان بها، وكذا قوله تعالى: « إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة » النور - ١٩. فإنها ظاهرة في أن العذاب إنما هو على الحب الذي هو أمر قلبي، هذا.

فهذا ظاهر الآية ويجب أن يعلم: أن الآية إنما تدل على المحاسبة بما في النفوس سواء أ ظهر أو أخفي، وأمّا كون الجزاء في صورتى الإخفاء والإظهار على حد سواء، وبعبارة أخرى كون الجزاء دائماً مدار العزم سواء فعل أو لم يفعل وسواء صادف الفعل الواقع المقصود أو لم يصادف كما في صورة التجري مثلاً فالآية غير ناظرة إلى ذلك. وقد أخذ القوم في معنى الآية مسالك شتى لما توهموا أنها تدل على المأخذة على كل خاطر نفساني مستقر في النفس أو غيره، وليس إلا تكليفاً بما لا يطاق، فمن

ملتزم بذلك ومن مؤول يريد به التخلص .

فمنهم من قال : إنَّ الآية تدلُّ على المحاسبة بكلِّ ما يرد القلب ، وهو تكليف بما لا يطاق ، لكنَّ الآية منسوخة بما يتلوها من قوله تعالى : لا يكلف الله نفساً إلاَّ وسعها الآية .

وفيه : أنَّ الآية غير ظاهرة في هذا العموم كما مرَّ . على أنَّ التكليف بما لا يطاق غير جائز بلا ريب . على أنَّه تعالى يخبر بقوله : « وما جعل عليكم في الدين من حرج » الحج - ٢٨ بعدم تشريعه في الدين ما لا يطاق .

ومنهم من قال : إنَّ الآية مخصوصة بكتمان الشهادة ومرتبطة بما تقدَّمتها من آية الدين المذكورة فيها وهو مدفوع بإطلاق الآية كقول من قال : إنها مخصوصة بالكفَّار .

و منهم من قال : إنَّ المعنى : إن تبدوا بأعمالكم ما في أنفسكم من السوء بأن تتجاهروا وتعلنوا بالعمل أو تخفوه بأن تأتوا الفعل خفية يحاسبكم به الله .

ومنهم من قال : إنَّ المراد بالآية مطلق الخواطر إلا أنَّ المراد بالمحاسبة الإخبار أى جميع ما يخطر ببالكم سواء أظهرتموها أو أخفيتموها فإنَّ الله يخبركم به يوم القيمة فهو في مساق قوله تعالى : « فينبئكم بما كنتم تعملون » المائدة - ٥١ ويدفع هذا وما قبله بمخالفة ظاهر الآية كما تقدَّم .

**قوله تعالى :** فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كلِّ شيء قدير ، الترديد في التفریع بین المغفرة والعذاب لا يخلو من الإشعار بأنَّ المراد بما في النفوس هي الصفات والأحوال النفسانية السيئة ، وإن كانت المغفرة ربِّما استعملت في القرآن في غير مورد المعاصي أيضاً لكنَّه استعمال كالنادر يحتاج إلى مؤنة القرائن من الخاصة . وقوله : إنَّ الله اه تعليل راجع إلى مضمون الجملة الأخيرة ، أو إلى مدلول الآية بتمامها .



## ﴿بحث روائي﴾

في صحيح مسلم عن أبي هريرة قال : لما نزلت على رسول الله ﷺ الله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أوتخفوه يحاسبكم به الله اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله ﷺ ثم جثوا على الركب فقالوا يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق : الصلوة ، والصيام ، والجهد ، والصدقة ، وقد أنزل الله هذه الآية ولا نطيقها . فقال رسول الله ﷺ : أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا : سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير . فلمّا اقترأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله في أثرها : آمن الرسول بمـ أنزل إليه من ربه والمؤمنون الآية فلمّا فعلوا ذلك نسخها الله تعالى فأنزل : لا يكلف الله نفساً إلّا وسعها إلى آخرها .

**أقول :** ورواه في الدر المنثور عن أحمد ومسلم وأبي داود في ناسخه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن أبي هريرة ، وروي قريباً منه بعدة من الطرق عن ابن عباس . وروي النسخ أيضاً بعدة طرق عن غيرهما كابن مسعود وعائشة . وروي عن الربيع بن أنس : أن الآية محكمة غير منسوخة وإنما المراد بالمحاسبة ما يخبر الله العبد به يوم القيامة بأعماله التي عملها في الدنيا . وروي عن ابن عباس بطرق : أن الآية مخصوصة بكتمان الشهادة وأدائها . فهي محكمة غير منسوخة .

وروي عن عائشة أيضاً : أن المراد بالمحاسبة ما يصاب الرجل من الغم والحزن إذا همّ بالمعصية ولم يفعلها . فالآية أيضاً محكمة غير منسوخة .

وروي من طريق عليّ عن ابن عباس في قوله : وإن تبدوا ما في أنفسكم أوتخفوه : فذلك سرائرك وعلانيتك يحاسبكم به الله فإنها لم تنسخ ، وإن كان الله إذا جمع الخلائق يوم القيامة يقول : إنني أخبركم بما أخفيتم في أنفسكم ممّا لم تطالع عليه ملائكتي . فأمّا المؤمنون فيخبرهم ويغفر لهم ما حدثوا به أنفسهم وهو قوله : يحاسبكم

به الله يقول يخبركم . وأما أهل الشك والريب فيخبرهم بما أخفوا من التكذيب ، وهو قوله : ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم .

**أقول :** و الروايات على اختلافها في مضامينها مشتركة في أنها مخالفة لظاهر القرآن على ما تقدم : أن ظاهر الآية هو : أن المحاسبة إنما تقع على ما كسبته القلوب إما في نفسها وإما من طريق الجوارح ، وليس في الخطور النفساني كسب ، ولا يتفاوت في ذلك الشهادة وغيرها ولا فرق في ذلك بين المؤمن والكافر ، وظاهر المحاسبة هو المحاسبة بالجزاء دون الإخبار بالخطورات والهمم النفسانية . فهذا ما تدل عليه الآية وتؤيده سائر الآيات على ما تقدم .

وأما حديث النسخ خاصة ففيه وجوه من الخلل يوجب سقوطه عن الحجية **أولها :** مخالفته لظاهر الكتاب على ما تقدم بيانه .

**ثانيها :** اشتماله على جواز تكليف ما لا يطاق وهو مما لا يرتاب العقل في بطلانه . ولا سيما منه تعالى ، ولا ينفع في ذلك النسخ كما لا يخفى ؛ بل ربما زاد إشكالاً على إشكال فإن ظاهر قوله في الرواية : فلمّا اقترمها القوم إلخ أن النسخ إنما وقع قبل العمل وهو عذر . **ثالثها** أنك ستقف في الكلام على الآيتين التاليتين : أن قوله : لا يكلف الله نفساً إلا وسعها اه لا يصلح لأن يكون ناسخاً لشيء ، وإنما يدل على أن كل نفس إنما يستقبلها ما كسبته سواء شق ذلك عليها أو سهل ؛ فلو حمل عليها ما لا يطيقه ، أو حمل عليها إصر كما حمل على الذين من قبلنا فإنما هو أمر كسبته النفس بسوء اختيارها فلا تلوم إلا نفسها ، فالجملة أعني قوله : لا يكلف الله نفساً إلا وسعها اه كالمعتضة لدفع الدخل .

**رابعها :** أنه سيجيء أيضاً : أن وجه الكلام في الآيتين ليس إلى أمر الخطورات النفسانية أصلاً ، ومواجهة الناسخ للمنسوخ مما لا بد منه في باب النسخ . بل قوله تعالى : آمن الرسول إلى آخر الآيتين مسوق لبيان غرض غير الغرض الذي سبق لبيان قوله تعالى : لله ما في السموات وما في الأرض إلى آخر الآية على ما سيأتي إنشاء الله .



أَمَرَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ  
وَرُسُلِهِ لَا تَفْرِقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ  
الْمَصِيرُ (٢٨٥) لَا يَكْفِ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ  
رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى  
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَلَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاعْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا  
أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ( ٢٨٦ )

### ﴿ بيان ﴾

الكلام في الآيتين كالغرض من إجمال ما اشتملت عليه السورة من  
التفاصيل المبدئية لغرضها ، وقد مرَّ في مامرٍ أن غرض السورة بيان أن حقَّ عبادة  
الله تعالى : أن يؤمن بجميع ما أنزل على عباده بلسان رسوله من غير تفرقة بين رسوله .  
وهذا هو الذي تشتمل عليه الآية الأولى من قوله . آمَنَ الرَّسُولُ إِلَى قَوْلِهِ : مِنْ رُسُلِهِ .  
وفي السورة قصص تقص ما أنعم الله به على بني إسرائيل من أنواع نعمه من الكتاب  
والنبوة والملك وغيرها وما قبلوه من العصيان والتمرّد ونقض المواثيق والكفر . وهذا  
هو الذي يشير إليه وإلى الالتجاء بالله في التجنّب عند ذيل الآية الأولى وتعمام الآية  
الثانية . فبالآيتين يردّ آخر الكلام في السورة إلى أوّلِهِ وختمه إلى بدئِهِ .

ومن هنا يظهر خصوصيّة مقام البيان في هاتين الآيتين . توضيحه : أن الله سبحانه  
افتتح هذه السورة بالوصف الذي يجب أن يتّصف به أهل التقوى ، أعني ما يجب على  
العبد من إيفاء حقّ الربوبية ، فذكر أن المتّقين من عباده يؤمنون بالغيب و يقيمون  
الصلوة وينفقون من رزق الله ويؤمنون بما أنزل الله على رسوله وعلى الرسل من قبله  
ويوقنون بالآخرة ، فلا جرم أنعم الله عليهم بهداية القرآن ، ويسن بالمقابلة حال الكفّار  
والمنافقين .

ثم فصل القول في أمر أهل الكتاب وخاصة اليهود و ذكر أنه من عليهم بلطائف الهداية ، وأكرمهم بأنواع النعم ، وعظائم الحباء ، فلم يقابلوه إلا بالعتو وعصيان الأمر و كفر النعمة ، و الرد على الله و على رسله ، و معاداة ملائكته ، و التفريق بين رسل الله و كتبه . فقابلهم الله بحمل الإصر الشاق من الأحكام عليهم كقتلهم أنفسهم و تحميلهم ما لا طاقة لهم به كالمسخ و نزول الصاعقة و الرجز من السماء عليهم .

ثم عاد في خاتمة البيان إلى وصف حال الرسول و من تبعه من المؤمنين فذكر أنهم على خلاف أهل الكتاب ما قابلوا ربهم فيما أنعم عليهم بالهداية و الإرشاد إلا بأنعم القبول و السمع و الطاعة ؛ مؤمنين بالله و ملائكته و كتبه و رسله ، غير مفرقين بين أحد من رسله ، و هم في ذلك حافظون لحكم موقفهم الذي أحاطت به ذلة العبودية و عزة الربوبية ، فإنهم مع إجابتهم المطلقة لداعي الحق اعترفوا بعجزهم عن إيفاء حق الإجابة فالتجأوا لأن وجودهم مبني على الضعف و الجهل فربما قصروا عن التحفظ بوظائف المراقبة بنسيان أو خطأ ، أو قصروا في القيام بواجب العبودية فخانتهم أنفسهم بارتكاب سيئة يوردهم مورد السخط و المؤاخذة كما أورد أهل الكتاب من قبلهم ، فالتجأوا إلى جناب العزة و منبع الرحمة أن لا يؤاخذهم إن نسوا أو أخطأوا ، و لا يحمل عليهم إصرأ ، و لا يحملهم ما لا طاقة لهم به ، و أن يغفرو عنهم و يغفر لهم و ينصرهم على القوم الكافرين .

فهذا هو المقام الذي يعتمد عليه البيان في الآيتين الكريمتين ، وهو الموافق كما ترى للغرض المحصل من السورة ، لا ما ذكروه : أن الآيتين متعلقتان بالمضمون بقوله في الآية السابقة : إن تبدوا ما في أنفسكم أو تبدوه يحاسبكم به الله الآية الدال على التكليف بما لا يطاق ، و أن الآية الأولى : آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه المؤمنون الآية حكاية لقبول الأصحاب تكليف ما لا يطاق ، و الآية الثانية ناسخة لذلك ؛ و ما ذكرناه هو المناسب لما ذكرناه في سبب النزول : أن البقرة أول سورة نزلت بالمدينة فإن هجرة النبي ﷺ إلى المدينة و استقراره فيها ملأ قارن الاستقبال التام من مؤمني الأنصار للدين الإلهي و قيامهم لنصرة رسول الله بالأموال و الأنفس ، و ترك

المؤمنين من ، المهاجرين الأهلين والبنين والأموال والأوطان في جنب الله ولحوقهم برسوله كان هو الموقوع الذي يناسب أن يقع فيه حمد من الله سبحانه لإجابتهم دعوة نبيه بالسمع والقبول ، وشكر منه لهم ، هذا . ويدل عليه بعض الدلالة آخر الآية : أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين فإن الجملة يؤمى إلى أن سؤالهم هذا كان في أوائل ظهور الإسلام .

وفي الآية من الإجمال والتفصيل ، والإيجاز ثم الإطناب ، وأدب العبودية وجمع مجامع الكمال والسعادة عجائب .

**قوله تعالى :** آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون اه تصديق لإيمان الرسول والمؤمنين ، وإنما أفرد رسول الله عنهم بالإيمان بما أنزل إليه من ربه ثم ألحقهم به تشريفاً له ، وهذا دأب القرآن في الموارد التي تناسب التشريف أن يكرم النبي بإفراده وتقديم ذكره ثم اتباع ذلك بذكر المؤمنين كقوله تعالى : « فأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ الْفَتْحَ - ٢٦ » وقوله تعالى : « يَوْمَ لَا يَخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا » التحريم - ٨ .

**قوله تعالى :** كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله اه تفصيل للإجمال الذي تدل عليه الجملة السابقة ، فإن ما أنزل إلى رسول الله يدعو إلى الإيمان ويصدق الكتب والرسل والملائكة الذين هم عباد مكرمون ، فمن آمن بما أنزل على رسول الله ﷺ فقد آمن بجميع ذلك ، كل على ما يليق به .

**قوله تعالى :** لا نفرق بين أحد من رسله اه حكاية لقولهم من دون توسيط لفظ القول ، وقد مر في قوله تعالى : وإذ رفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم البقرة - ١٢٧ النكتة العامة في هذا النحو من الحكاية ، وأنه من أجمل السياقات القرآنية . والنكتة المختصة بالمقام مضافاً إلى أن فيه تمثيلاً لحالهم وقالهم أن هذا الكلام إنما هو كلام منتزع من خصوص حالهم في الإيمان بما أنزل الله تعالى ، فهم لم يقولوه إلا بلسان حالهم ، وإن كانوا قالوه فقد قاله كل منهم وحده وفي نفسه ؛ وأما تكلمهم به لساناً واحداً فليس إلا بلسان الحال .

ومن عجيب أمر السياق في هذه الآية ما جمع بين قولين محكيين منهم مع التفرقة في نحو الحكاية أعني : قوله تعالى : لانفرق بين أحد منهم وقالوا سمعنا وأطعنا الإنح ، حيث حكى البعض من غير توسيط القول والبعض الآخر بتوسيطه ، وهذا جميعاً من قول المؤمنين في إجابة دعوة الداعي .

والوجه في هذه التفرقة أن قولهم : لانفرق الإنح مقول لهم باسان حالهم بخلاف قولهم : سمعنا وأطعنا اه

وقد بدء تعالى بالإخبار عن حال كل واحد واحد منهم على نعت الأفراد فقال : كل آمن بالله ثم عدل إلى الجمع فقال : لانفرق بين أحد إلى آخر الآيتين ، لأنّ الذي جرى من هذه الأمور في أهل الكتاب كان على نعت الجمع كما أن اليهود فرقت بين موسى وبين عيسى ونجد ، والنصارى فرقت بين موسى وعيسى ، وبين محمد فانشعروا شعباً وتحزّبوا أحزاباً وقد كان الله تعالى خلقهم أمة واحدة على الفطرة ، وكذلك المؤاخضة والحمل والتحميل الواقع عليهم إنما وقعت على جماعتهم ، وكذلك ما وقع في آخر الآية من سؤال النصرة على الكافرين ، كل ذلك أمر مرتبط بالجماعة دون الفرد ، بخلاف الإيمان فإنه أمر قائم بالفرد حقيقة .

قوله تعالى : وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير اه، قولهم سمعنا وأطعنا اه إنشاء وليس بإخبار وهو كناية عن الإجابة إيماناً بالقلب وعملاً بالجوارح ، فإن السمع يكتسب به لغة عن القبول والإذعان . والإطاعة تستعمل في الانقياد بالعمل فمجموع السمع والإطاعة يتم به أمر الإيمان .

وقولهم سمعنا وأطعنا إيفاء لتمام ما على العبد من حق الربوبية في دعوتها . وهذا تمام الحق الذي جعله الله سبحانه لنفسه على عبده : أن يسمع ليطيع ، وهو العبادة كما قال تعالى : « وما خلقت الجنّ والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون » الذاريات - ٥٧ وقال تعالى : « ألم أعهد إليكم يا بني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنه لكم عدو مبين وأن اعبدوني » يس - ٦٠ .

وقد جعل سبحانه في قبال هذا الحق الذي جعله لنفسه على عبده حقاً آخر

لعبدته على نفسه وهو المغفرة التي لا يستغني عنه في سعادة نفسه أحد : الأنبياء والرسل فمن دونهم فوعدهم أن يغفر لهم إن أطاعوه بالعبودية كما ذكره أوّل ما شرّع الشريعة لادم وولده فقال : « قلنا اهبطوا منها جميعاً فإيّا يأتينكم مني هدى فمن تبع هداي فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » البقرة - ٣٨ ، وليس إلا المغفرة .

والقوم لما قالوا : سمعنا وأطعنا وهو الإجابة بالسمع والطاعة المطلقين من غير تقييد فأوفوا الربوبية حقّها سألوه تعالى حقّهم الذي جعله لهم وهو المغفرة فقالوا عقيب قولهم سمعنا وأطعنا : غفرانك ربنا وإليك المصير . والمغفرة والغفران : الستر ، ويرجع مغفرته تعالى إلى دفع العذاب وهو ستر على نواقص مرحلة العبودية ، ويظهر عند مصير العبد إلى ربه ، ولذلك عقيبوا قولهم : غفرانك ربنا بقولهم : وإليك المصير .

**قوله تعالى :** لا يكلف الله نفساً إلّا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت اه ، الأوسع هو الجدة والطاقة ، والأصل في الوسع هو السعة المكانية ثم تتخيل لقدرة الإنسان شبه الظرفية لما يصدر عنه من الأفعال الاختيارية ، فما يقدر عليه الإنسان من الأعمال كأنّه تسعه قدرته ، وما لا يقدر عليه لا تسعه فانطبق عليه معنى الطاقة ، ثم سميت الطاقة وسعاً ف قيل : وسع الإنسان أي طاقته وظرفية قدرته .

وقد عرفت : أن تمام حقّ الله تعالى على عبده : أن يسمع ويطيع ، ومن البين أن الإنسان إنما يقول : « سمعاً » فيما يمكن أن تقبله نفسه بالفهم ، وأما ما لا يقبل الفهم فلا معنى لإجابته بالسمع والقبول . ومن البين أيضاً أن الإنسان إنما يقول : « طاعة » فيما يقبل مطاوعة الجوارح وأدوات العمل ، فإن الإطاعة هي مطاوعة الإنسان وتأثير قواه وأعضائه عن تأثير الأمر المؤثر مثلاً ، وأما ما لا يقبل المطاوعة كأن يؤمر الإنسان أن يسمع ببصره ، أو يحلّ بجسمه أزيد من مكان واحد ، أو يتولّد من أبويه مرة ثانية فلا يقبل إطاعة ولا يتعلّق بذلك تكليف مولوي ، فإجابة داعي الحقّ بالسمع والطاعة لا تتحقّق إلّا في ما هو اختياري للإنسان تتعلّق به قدرته ، وهو الذي يكسبه به الإنسان لنفسه ما ينفعه أو يضرّه . فالكسب نعم الدليل على أن ما كسبه الإنسان إنما وجده وتلبّس به من طريق الوسع والطاقة .

فظهر ممّا ذكرنا أنّ قوله : لا يكلف الله اه كلام جار على سنّة الله الجارية بين عباده : أن لا يكلفهم ما ليس في وسعهم من الإيمان بما هو فوق فهمهم والإطاعة لما هو فوق طاقة قواهم ، وهي أيضاً السنّة الجارية عند العقلاء وذوي الشعور من خلقه ، وهو كلام ينطبق معناه على ما يتضمّنه قوله حكاية عن الرسول والمؤمنين : سمعنا وأطعنا من غير زيادة ولا نقص .

والجملة أعني قوله : لا يكلف الله نفساً اه متعلّقة بالمضمون بما تقدّمها وماتأخّر عنها من الجمل المسرودة في الآيتين .

أمّا بالنسبة إلى ماتقدّمها فإنّها تفيد : أن الله لا يكلف عباده بأزيد ممّا يمكنهم فيه السمع والطاعة وهو ما في وسعهم أن يأتوا به .  
 وأمّا بالنسبة إلى ماتأخّر عنها فإنّها تفيد أن ما سئله النبيّ والمؤمنون من عدم المؤاخذه على الخطأ والنسيان ، وعدم حمل الإصر عليهم ، وعدم تحميلهم ما لا طاقة لهم به ، كلّ ذلك وإن كانت أموراً حرجية لكنّها ليست من التكليف بما ليس في الوسع ، فإنّ الذي يمكن أن يحمل عليهم ممّا لا طاقة لهم به ليس من قبيل التكليف ، بل من قبيل جزاء التمرّد والمعصية ، وأمّا المؤاخذه على الخطأ والنسيان فإنّهما وإن كانا بنفسهما غير اختياريّين لكنّهما اختياريّان من طريق مقدّماتهما ، فمن الممكن أن يمنع عنهما مانع بالمنع عن مقدّماتهما أو بإيجاب التحفّظ عنهما ، وخاصّة إذا كان ابتلاء الإنسان بهما مستنداً إلى سوء الاختيار ، ومثله الكلام في حمل الإصر فإنّه إذا استند إلى التشديد على الإنسان جزائاً لتمرّده عن التكليف السهلة بتبديلها ممّا يشقّ عليه ويحترج منه ، فإنّ ذلك ليس من التكليف المنفيّ عنه تعالى الغير الجائز عند العقل ، لأنّها ممّا اختاره الإنسان لنفسه بسوء اختياره فلا محذور في توجيهه إليه .

قوله تعالى : ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا اه ، لما قالوا في مقام إجابة الدعوة : سمعنا وأطعنا وهو قول نبيّ عن الإجابة المطلقة من غير تقييد ثمّ التفتوا إلى ما عليه وجودهم من الضعف والفتور ، والتفتوا أيضاً إلى ما آل إليه أمر الذين كانوا من قبلهم وقد كانوا أمّاً أمثالهم استرحوا ربّهم و سألوه أن لا يعاملهم معاملة من كان

قبلهم من المؤاخذة والحمل و التحميل لأنهم علموا بما علمهم الله أن لا حول ولا قوة إلا بالله، وأن لا اعصم من الله إلا رحمته .

والنبي ﷺ وإن كان معصوماً من الخطأ والنسيان لكنّه إنما يعتصم بعصمة الله ويصان به تعالى فصيح له أن يسئل ربّه ما لا يأمنه من نفسه ، ويدخل نفسه لذلك في زمرة المؤمنين .

**قوله تعالى :** ربّنا ولا تعمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، الإصر هو الثقل على ما قيل ، وقيل هو حبس الشيء بقره ، و هو قريب من المعنى الأول فإن في الحبس حمل الشيء على ما يكرهه ويثقل عليه .

والمراد بالذين من قبلنا : هم أهل الكتاب وخاصة اليهود على ما تشير السورة إلى كثير من قصصهم ، وعلى ما يشير إليه قوله تعالى : « ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم » الأعراف - ١٥٧ .

**قوله تعالى :** ربّنا ولا تحمّلنا ما لا طاقة لنا به، المراد بما لا طاقة لنا به ليس هو التكليف الابتدائي بما لا يطاق ، إذ قد عرفت أن العقل لا يجوّزه أبداً، وأنّ كلامه تعالى أعني ما حكاه بقوله : وقالوا سمعنا وأطعنا يدلّ على خلافه بل المراد به جزاء السيئات الواصلة إليهم من تكليف شاق لا يتعمّل عادة ، أو عذاب نازل ، أو رجز مصيب كالمسخ ونحوه .

**قوله تعالى :** واعف عنا و اغفر لنا وارحمنا ، العفو محو أثر الشيء ، والمغفرة ستره ، والرحمة معروفة . وأمّا بحسب المصداق فاعتبار المعاني اللغوية يوجب ان يكون سوق الجمل الثلث من قبيل التدرّج من الفرع إلى الأصل . و بعبارة أخرى من الأخصّ فائدة إلى الأعمّ . فعليها يكون العفو منه تعالى هو إذهاب أثر الذنب وإعائه كالعقاب المكتوب على المذنب . والمغفرة هي إذهاب ما في النفس من هيئة الذنب والستر عليه . والرحمة هي العطية الإلهية التي هي الساترة على الذنب وهيئته .

و عطف هذه الثلاثة أعني قوله : واعف عنا و اغفر لنا و ارحمنا على قوله : ربّنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا على ما للجميع من السياق و النظم يشعر : بأن المراد

من العفو والمغفرة والرحمة ما يتعلق بذنوبهم من جهة الخطأ والنسيان ونحوها . ومنه يظهر أن المراد بهذه المغفرة المسؤولة هي هنا غير الغفران المذكور في قوله : غفرانك ربنا فإنه مغفرة مطلقة في مقابلة الإجابة المطلقة على ما تقدم ، وهذه مغفرة خاصة في مقابل الذنب عن نسيان أو خطأ . فسؤال المغفرة غير مكرر .

وقد كرر لفظ الرب في هذه الأدعية أربع مرات لبعث صفة الرحمة بالإيماء والتلويح إلى صفة العبودية فإن ذكر الربويّة يخطر بالبال صفة العبوديّة والمذلّة . قوله تعالى : أنت مولينا فانصرنا على القوم الكافرين اه استئناف ودعاء مستقل .

والمولى هو الناصر لكن لا كل ناصر بل الناصر الذي يتولّى أمر المنصور فإنه من الولاية بمعنى تولية الأمر ، ولما كان تعالى ولياً للمؤمنين فهو موليتهم فيما يحتاجون فيه إلى نصره . قال تعالى : « والله وليّ المؤمنين » آل عمران - ٦٨ وقال تعالى : « ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم » محمد - ١١ .

وهذا الدعاء منهم يدل على أنهم ما كان لهم بعد السمع والطاعة لأصل الدين هم إلا في إقامته ونشره والجهاد لإعلان كلمة الحق ، وتحصيل اتفاق كلمة الأمم عليه . قال تعالى : « قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين » يوسف - ١٠٨ . فالدعوة إلى دين التوحيد هو سبيل الدين وهو الذي يتعقّب الجهاد والقتال والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وسائر أقسام الدعوة والإندار ؛ كل ذلك لحسم مادة الاختلاف من بين هذا النوع . ويشير إلى ما به من الأهميّة في نظر شارع الدين قوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصّى به نوحاً وما أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه » الشورى - ١٣ . فقولهم أنت مولينا فانصرنا يدل على جعلهم الدعوة العامّة في الدين أوّل ما يسبق إلى أذهانهم بعد عقد القلب على السمع والطاعة . والله أعلم .

والحمد لله

رقم الآيات	موضوع البحث	نوع البحث	رقم الصفحة
سورة البقرة ١٨٥-١٨٣	كلام في نزول القرآن في شهر رمضان ، و في ليلة القدر مع نزوله نجوماً .	بحث قرآني	١٢
١٨٦	كلام في معنى الدعاء .	»	٢٩
١٨٨	في أن المالكية من الأصول الثابتة الاجتماعية .	» علمي اجتماعي	٥٣
١٩٥-١٩٠	الجهاد الذي يأمر به القرآن .	» قرآني	٦٥
»	في لزوم الدفاع في المجتمع .	» اجتماعي	٧٠
١٩٦-٢٠٣	في متعة الحج وعموم تشريعها .	» روائي	٨٨
٢١٠-٢٠٨	في الرجعة ودفع شبهة المنكرين لها .	» روائي وفلسفي	١٠٨
٢١٣	فيما يفيد القرآن في حقيقة الإنسان و تاريخ نوعه .	بحث قرآني	١١٥
»	بدء تكوين الإنسان .	»	١١٦
»	تركبه من روح وبدن .	»	»
»	شعوره الحقيقي وارتباطه بالأشياء .	»	١١٧
»	علومه العملية .	»	١١٨
»	جريه على استخدام غيره انتفاعاً	»	١٢٠
»	كونه مدنياً بالطبع .	»	»
»	حدوث الاختلاف بين أفراد الإنسان .	» قرآني	١٢١
»	رفع الاختلاف في الدين .	»	١٢٤
»	الاختلاف في نفس الدين .	»	١٢٥
»	الإنسان بعد الدنيا .	»	١٢٦
»	في النظريات الدينية التي يستفاد من الآية وهي	»	١٣٤

رقم الآيات	موضوع البحث	نوع البحث	رقم الصفحة
- سورة البقرة	سبعة . والدليل المستفاد منها على النبوة العامة		
٢١٣	كلام في عصمة الأنبياء .	بحث قرآني	١٣٨
"	كلام في النبوة .	"	١٤٤
"	أيضاً في النبوة .	" فلسفي	١٥٢
"	أيضاً فيها .	" اجتماعي	١٥٤
٢١٦-٢١٨	كلام في الحبط .	" قرآني	١٧٥
"	كلام في أحكام الأعمال من حيث الجزاء .	" علمي	١٨٠
"	من أحكام الأعمال تأثير بعضها في بعض .	"	١٨٠
"	ومن أحكام الأعمال أنها محفوظة متجسمة	"	١٨٨
"	ومن أحكام الأعمال أن بينها وبين الحوادث ارتباطاً .	"	"
"	ومن أحكام الأعمال أن الغلبة للحسنة على السيئة .	"	١٩٣
"	ومن أحكام الأعمال أن الحسنه مطابقة لحكم العقل .	"	١٩٦
٢٢٤-٢٢٧	كلام في معنى القلب في القرآن	بحث قرآني	٢٣٤
٢٢٨-٢٤٢	ألفاظ العلم والإدراك في القرآن	"	٢٥٩
"	المرأة في الإسلام	" علمي	٢٧٣
"	في النكاح والطلاق .	"	٢٨٩
٢٤٤-٢٥٢	كلام في معنى السكينة	" قرآني	٣٠٣
"	بحث في تنازع البقاء ، والانتخاب الطبيعي	علمي واجتماعي	٣١٤
٢٥٣-٢٥٤	كلام في معنى الكلام .	بحث قرآني	٣٢٩
"	أيضاً في ذلك .	" فلسفي	٣٤١

رقم الصفحة	نوع البحث	موضوع البحث	رقم الآيات
٣٤٥	بحث قرآني	في معنى الحياة، وحيوته تعالى .	سورة البقرة ٢٥٥
٣٤٧	" "	في معنى القيام على الأمر، وقيوميته تعالى .	"
٣٦٠	" "	في نفى الإكراه في الدين .	٢٥٧-٢٥٦
٣٧٦	" "	كلام في الإحسان وهدايته والظلم وإضلاله .	٢٦٠-٢٥٨
٤٠٥	" "	كلام في الإنفاق .	٢٧٤-٢٦١
٤٥٤	" علمي "	في الربا .	٢٨١-٢٧٥
٤٥٨	" "	بحث آخر فيه .	"

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب	رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢	٢١	عن التخلّف	التخلّف	٦٤	٦	يشتمل	يشمل
٣	١	عن جمل	من جمل	٦٤	٩	الحرامات	الحرمات
»	١٦	لا يشقّها	لا تشقّه	٧٩	٦	كذلك	وكذلك
٤	٢٢	ونكتب	ونكتب	٨٨	١٣	والمسلم	ومسلم
»	١٣	عليهم أن	عليهم فيها أن	٨٩	٦	والمسلم	ومسلم
٥	١	استعمالها	استعماله	٨٩	٧	لم ينزل	لم تنزل آية تنسخ
١٢	١٢	٦٩-	٩-	٨٩	٢١	معاوية ابن	معاوية بن
١٤	١٢	الكنات	الكتاب	٩١	١	وممي	ومع
١٩	٣	نادي	بادي	٩٤	٣	يجلسه	يجبسه
٢٢	١١	ومسكين	مسكين	٩٥	١٠	تشتمل	تشمل
»	١٣	لملكم	ولملكم	٩٧	٣	يُهلكُ	يُهلكُ
٢٣	١٢	تي	يأتي	٩٩	١٢	اكتسبها	اكتسبها
»	١٣	أحدأه	أحدأ	١٠٣	١١	بتغييرها	بتغييرها
»	١٩	عيسة	عنيسة	١٠٥	٢١	كالاحاطة	كالاحاطة
٢٤	٢	تعالى :	تعالى : بأيتها	١٠٧	١٢	من الغمام	من الغمام
»	٣	يُتها	الذين آمنوا			قال: يقول:	قال: يقول:
٢٥	٢	تفسير	أيتها			هل ينظرون	هل ينظرون
٢٧	١٣	واوه	تسير			إلا أن يأتيهم	إلا أن يأتيهم
٣٢	٢٣	أظلك	رواه			الله باللائكة	الله باللائكة
٤٣	١٥	عن حد	أظلك			فى ظلل من	فى ظلل من
٤٤	١٠	إن لم	من حد			الغمام	الغمام
٤٥	١٠	بالاختيال	وإن لم			حتى حتى	حتى حتى
٤٧	٧	يؤخذ	بالاختيان	١٠٩	١٢	وتمال	وتمال
			يؤخذ برخصة	١١١	١٩	الحياة	الحياة
			كما يجب أن يؤخذ	١١٣	٣	طن	طن
٤٨	١٥	تفتروا	تفتروا	١١٦	٢٢	اعتبار	اعتبار
٨٥	١٦	أعني	عن	١١٩	٢١	المنظورة	المنظورة
٦١	٢٤	إذا جاوز	إذا جاوز	١٢٠	١٥	مترتبة على هذه	مترتبة على هذه
٦٢	١	الانتهاء العدو	الانتهاء إلى العدو	١٢٣	٧	إزال	إزال
٦٢	١٤	عن القتال	زائد	١٣٠	١٦		

الجزء الثاني من تفسير الميزان

- ٥ -

رقم الصفحة	السطر	الخطاء	الصواب	رقم الصفحة	السطر	الخطاء	الصواب
١٣٢	١٠	نوحاً	نوحاً وما أوحينا	٢٢٥	١٠	انقطاع الله	انقطاع الدم
			اليك	٢٢٥	١٠	الطهارة	الطهارة
١٣٥	٢	تعالى ان يهدي	تعالى أن يهدي	٢٢٦	٤	تخاف	تخاف
١٣٩	١٦	خلقهم	خلفهم	٢٢٦	٧	تحول	تحول
١٤٤	١٨	والآياتان	والآية	٢٢٦	٢٢	التوبين	التوبين
١٤٥	٢٠	ولياس	ولياس	٢٢٨	١١	الفرع	الفرج
١٤٦	٥	مريم	مريم وعزير	٢٣٠	١٦	أفيحوم	أفيحرم
١٤٧	١٣	بالقتل	بالقتل	٢٣٣	٢	أولاًن	أى أن لا
١٤٧	٢١	إبراهيم	إبراهيم	٢٣٣	١٤	مفعولاً	مفعول
١٥١	١٣	نعمته	نعمته	٢٣٤	١	بصفة	بصفة
١٥٢	٩	البيان	البيان	٢٣٥	٢٣	المصدر	المصدر
١٥٤	٢	الفطرة	الفطرة	٢٣٦	١٠	تنفّسه	بنفسه
١٥٥	١	حقيقته	حقيقته	٢٣٨	٨	له	يفاظها
١٦٧	٧	ما هو يقع	ما يقع	٢٣٩	٩	تخذ رأعن	له من بعد
١٧١	٥	المسجد	المسجد	٢٤١	١٤	يفاظها	تخذ رأمن
١٧٢	٢٢	مؤثر	مؤثرة	٢٤١	٢٠	هو خبر	خبر
١٧٣	٩	لسامع	السامع	٢٤٥	٧	سرحون	سرحون
١٨٧	١٥	قلب الظالم	قلب الظالم	٢٥١	١٢	أمتها	أمتها
١٩٢	٢٣	أوقال	وقال	٢٥٢	١٢	بالمواد	بالمولود له
١٩٧	٢٢	فأسرو الحكم	فأسرو الحكم	٢٥٦	٥	التربض	التربض
٢٠٢	٦	المهجة	المهجة	٢٥٨	١٣	تعمّرت	تعمّرت
٢٠٣	٢٠	الاسم	الانم	٢٥٩	١٧	القوى	القول
٢٠٦	٢٠	لا فادة	لا فادة	٢٦٠	١٣	والروى	والتروي
٢١١	١٧	والالاف	والالاف	٢٦٢	٥	أجرى	جرى
٢١٨	٤	الاستعمال من	الاستعمال من	٢٦٦	١٦	لزوجتها	لزوجها
			الحقائق	٢٦٦	٢٣	دفاعه	دفاعه
٢٢٠	٤	يفلسن	يفلسن	٢٧١	١٠	الضهر	الظهر
٢٢١	٦	أصل	الأصل	٢٧٤	٢٢	عن بيع	من بيع
٢٢٤	١٥	سنته	سنته	٢٧٦	٦	يشارك	يتشارك
٢٢٥	٥	القتل	القبل	٢٧٦	١٠	وهي	وهن

الجزء الثاني من تفسير الميزان

٢٢

رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب	رقم الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٢٧٦	٢١	تبعية	تبعية	٣٩١	٥	مرجودة	موجودة
٢٩	١١	لتعلق	لتعلق	٣٩٢	١٨	يتوقف	لا يتوقف
٢٠١	١٢	بل عند	بل وعند	٣٩٣	١	الحمى	الحمى أراد
٢٨١	٢١	تنجلي	تنجلي	٣٩٣	١٥	الماوة	المار
٢٨٣	١٣	لغيره	لغيرها	٣٩٤	١٨	اضطرابها	اضطرابها
٢٨٤	١٢	لحقوقه	لحقوقه	٤٠٣	١٤	أعصارها	إعصار
٢٨٥	١٠	عليه	عليها	٤٠٤	١٧	ييطان	إذ ييطان
٢٩٠	١٠	مساعيتها	مساعيها	٤٠٦	٨	يكائد	يكابد
٢٩٤	١٦	يتنبهوا	يتنبهوا	٤٠٩	١٥	عن جوده	من جوده
٣١١	٥	من أهل	من طرق أهل	٤١٨	٣	اللتين	اللتان
٣١٢	١٥	الملك في	الملك كان في	٤٢١	٦	أن هذا	أن أمر هذا
٣١٤	١٤	بنو	بنوا	٤٢٣	٢٢	حينئذ	ح
٣٢٦	١	بالأمر فيه	بالأمر به	٤٢٥	١٨	يطلب به	يطلب خلافا يكف به
٥	١٣	هذا لاختلاف	هذا الاختلاف	٤٢٩	٢٢	فيتصدق	فتصدق
٣٢٩	١٧	المصلحة	المصلحة	٤٣٩	١٠	نفوسهم	نفوسهم
٣٣٦	٣	ترقتي	ترقتي	٤٣٩	١١	وهذا	وهذا
٣٥٢	٣	إرجاع الجمع	إرجاع ضمير الجمع	٤٤٥	١٣	أذهبته	أذهبته
٣٥٣	٢٠	لمقدم	لمقدم	٤٤٥	٢٤	الرضاء	لرضا
٣٥٥	٢٣	وفيه	فيه	٤٤٦	٥	الأمم	الأمم
٣٦٤	٤	نحوها	نحوها	٤٥٦	١٣	أولعشرة	والعشرة
٣٦٥	١٥	الحميد	بن حميد	٤٥٩	٤	لامعنى في	لامعنى له في
٣٧٤	٨	مسلماً	زائد	٤٦٠	١٠	لمجرى	لمجرى
٣٧٧	١٨	أوفيات	أوفيات	٤٦٠	١٧	فلا زال	فلا يزال
٣٧٧	٢٢	مثل	الم تر كيف	٤٦٥	١١	مساق الآية	الآية في مساق
			ضرب الله مثلاً	٤٦٦	٢٠	من الخاصة	الخاصة
٣٧٨	١٠	توقدون	يوقدون	٤٦٨	١٧	يطيقه	تطيقه
٣٧٨	١٢	١٩	١٧	٤٦٩	١٠	البنية	البنية
٣٨٢	٨	يزيد سنين	يزيد على سنين	٤٧٠	١٨	متعلقا	متعلقا